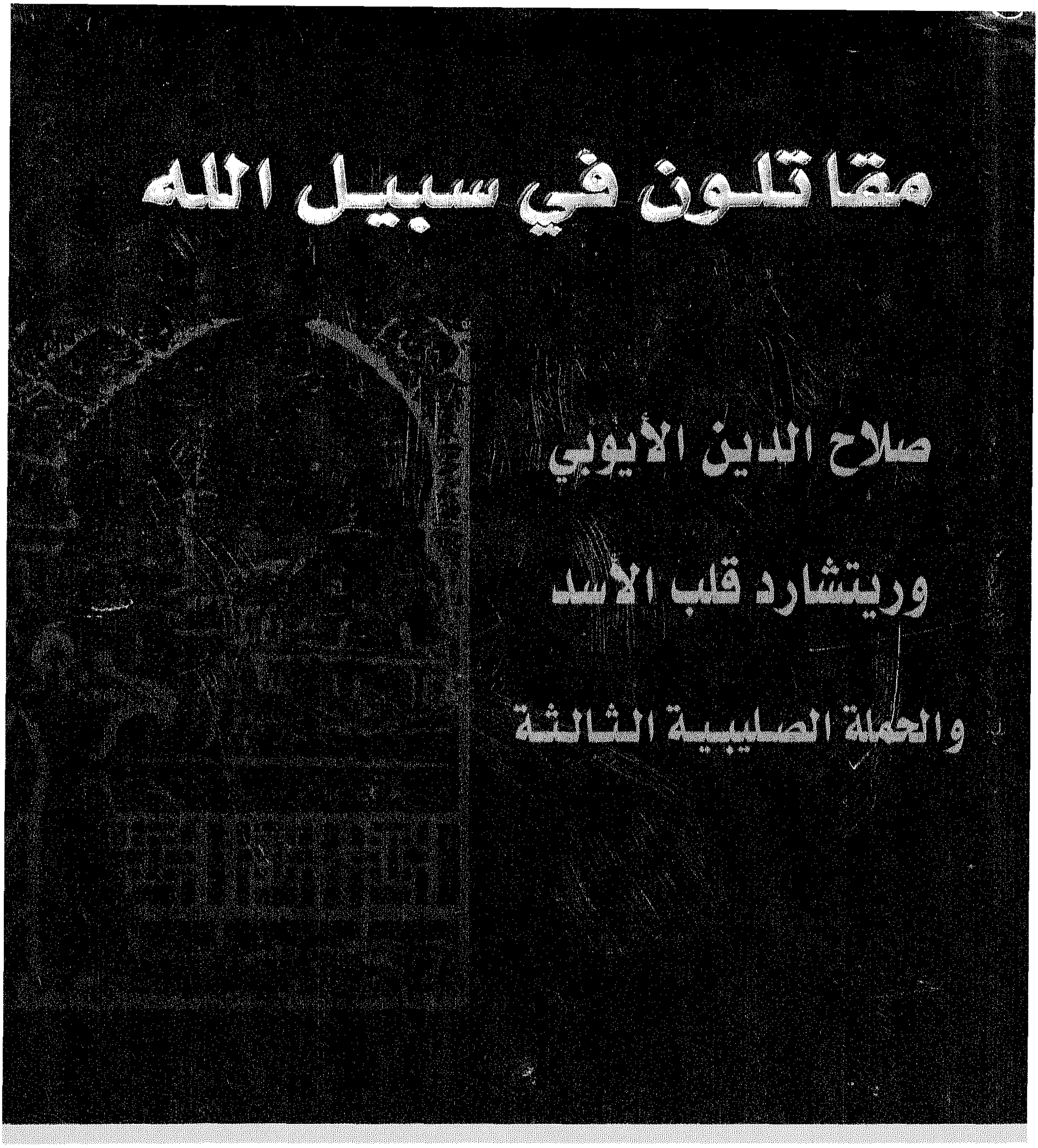


مقاتلون في سبيل الله

صلاح الدين الأيوبي

وريتشارد قلب الأسد

والحملة الصليبية الثالثة

جيمس رستون (الابن)

نقله إلى العربية : الدكتور رضوان السيد

مكتبة العبيكان

القصة الملحمية للصراع على الديار المقدسة والشخصيتان الباقيتان على مدى الزمان، والواقعتان في قلبها.

جيمس رستون، مؤلّف هذا الكتاب (**مقاتلون في سبيل الله**: صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة) هو الذي اشتهر من قبل بكتابه: غاليليو: قصة حياة (الذي اعتبرته صحيفة واشنطن بوست «نموذجياً» و«رائعاً»). كما أنه واضعُ القصة المسمّاة «الملحمة الأخيرة» والتي ترسم صورة «مدهشة» للعالم المسيحي في نهايات الألفية الأولى. أمّا في هذا الكتاب فإنه يعيدُ رَسْمَ تصادم الحروب المسيحية المقدّسة والجهاد الإسلامي في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي. إنه سيرةٌ ثُنائيةٌ لشخصية ريتشارد قلب الأسد الأسطورية، والسلطان صلاح الدين الأيوبي البطل النموذجي لدى العالم الإسلامي. **مقاتلون في سبيل الله** يعيد رواية حياة كلٍ من الرجلين، ويكشف عن روح تلك الأزمنة، والتي نصّبتهما وجهاً لوجه في الحرب الصليبية الثالثة.

يظهر ريتشارد قلب الأسد، الذي يجسّدُ عامةً النموذج الرومانسي للفروسية، بكامل شخصيته المعقّدة، والحافلة بالتناقضات، والتي يكشف رستون عن جانبها المظلم باعتباره قائد الحرب الصليبية الدموية، والمبتلى في الوقت نفسه بالجنسية المثلية. أما صلاح الدين؛ فإنّه (رستون) يكشف (في هذه السيرة) عن حياة رجلٍ حكيم، وقائدٍ واسع الثقافة، حقق الحلم العربي بتوحيد مصر والشام، وأدّى فتحه للقدس إلى اندلاع الحرب الصليبية الثالثة، كما أنه ألهب الحركة الجهادية الأولى، وصَيَّرَ من صلاح الدين بطلاً بأبعادٍ أسطورية.

مقاتلون في سبيل الله

مقاتلون في سبيل الله

صلاح الدين الأيوبي
وريتشارد قلب الأسد
والحملة الصليبية الثالثة

جيمس رستون (الابن)

نقله إلى العربية
الدكتور رضوان السيّد

مكتبة العبيكان

Original title:

WARRIORS OF GOD

RICHARD THE LIONHEART AND SALADIN IN THE THIRD CRUSADE

الرياض 11452، المملكة العربية السعودية، شمال طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة، ص.ب. 6672
Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O Box 6672, Riyadh 11452, Saudi Arabia
الطبعة العربية الأولى 1423 هـ - 2002م
ISBN 9960-40-148-0

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رستون، جيمس (الابن)
مقاتلون في سبيل الله - نقله إلى العربية: رضوان السيد
528 ص، 17 × 24 سم
ردمك: ISBN 9960-40-148-0
1 - تاريخ 2 - تراجم 3 - الحروب الصليبية
أ - السيد، رضوان (تعريب) ب - العنوان
ردمك: ISBN 9960-40-148-0

الطبعة الأولى 1 2 3 4 5 6 7 8 9 10

إلى ديڤِن

مع الحب والفخر

المحتوى

القسم الأول

الإهانة

القسم الثاني

المبارزة

الشخصيات الرئيسية

المملكة الصليبية ببيت المقدس

غي دو لوسينيان	ملك القدس
سبيلا	ملكة القدس
كونراد مونتفرّا	سيّد صور
ريموند الثالث الطرابلسي	سيّد طبريا
ريجينالد دو شاتيللون	سيّد الكرك
جيرار دو ردفور	رئيس فرسان الهيكل
روجر دو مولين	رئيس الإسبتاريين
باليون دو إيبلين	بارون الحرس القديم
هيراكليوس	بطريرك القدس
غودفري دو بويون	من أبطال الحرب الصليبية الأولى

المسلمون في مصر وسورية

صلاح الدين	سلطان مصر والجزيرة العربية وسورية وما بين النهرين
الملك العادل	شقيق صلاح الدين
الملك الأفضل	ابن صلاح الدين الأكبر، حاكم دمشق
الملك العزيز	ابن صلاح الدين الثاني، سلطان مصر
الملك الظاهر	ابن صلاح الدين الثالث، حاكم حلب
نور الدين	سلطان سورية قبل صلاح الدين
راشد الدين سنان	رئيس الحشاشين
المشطوب	أحد كبار الأمراء
قراقوش	حاكم عكا أثناء الحصار

الصليبيون الآتون من أوروبا

ريتشارد الأول	ملك إنكلترا ودوق أكيتان
فيليب الثاني أغسطس	ملك فرنسا
إليانور دو أكيتين	والدة ريتشارد، والملكة السابقة لإنكلترا وفرنسا
لويس السادس ملك فرنسا	والد فيليب أغسطس، وزوج إليانور الأول
هنري	كونت في شمبانيا، وابن أخ الملك ريتشارد
فريدريك بربروسا	إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة
ليوبولد	دوق النمسا

آخـــرون

هنري الثاني	والد ريتشارد، وملك إنكلترا السابق
جون، شريف مورتانيي	أخ ريتشارد وخليفته
برنغاريا	ملكة ريتشارد
أليس	شقيقة فيليب، عشيقة هنري، خطيبة ريتشارد
جوانا	أخت ريتشارد، ملكة صقلية
تانكرد	ملك صقلية
إسحق كومنينوس	إمبراطور قبرص
هنري السادس	إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، خليفة فريدريك بربروسا
سلستين الثالث	البابا

تمهيد

تمتد الحملات الصليبية، التي يُطلقُ عليها أحياناً اسم «الحركة» على مدى قرنين من الزمن. وهي حركةٌ أطلقت موجاتٍ جنونيةً من الكراهية والعنف، لم تعرف مثيلاً لها قبل عصر التكنولوجيا، والسوط الهتلري. وقد جرى إطلاق ذلك الجنون تحت اسم الدين، ومن جانب أوربان الثاني، بابا الكنيسة المسيحية، سنة 1095. وكانت تلك المحاولة لإعادة توجيه طاقات البارونات الأوروبيين، من النزاعات الدموية المحلية، إلى غايةٍ «نبيلةٍ»، تتمثل في استعادة الأرض المقدَّسة (وقبر المسيح) من أيدي «المسلمين». بيد أنّه ما إن أُطلقت تلك الطاقةُ من عِقالها، حتى صار ضَبْطُها غير ممكن. بدأ التوجُّه نحو العنف بمذبحةٍ ضد اليهود، كانت المقدمة للمذابح المتوالية ضد المسلمين في بلادهم، وهي المذابح التي بددت ثروة أوروبا البشرية، وانتهت بخسائر إنسانية تفوق التصور لدى سائر الأطراف. وقد شكا برنارد من كليرفو، الداعية الكبير للحرب الصليبية الثانية، من أن تلك الحملات ما تركت لكل سبعِ نساء أوروبيات غير رجلٍ واحدٍ للاعتناء بهنّ.

لقد كانت هناك خمس حملاتٍ صليبيةٍ رئيسية (بالإضافة إلى اندفاعاتٍ متعددةٍ أُخرى حرَّكها الدافع نفسه). ويمكن القول إنّ الحملة الأولى هي التي حققت نجاحاً ملحوظاً فقط. فقد تمكَّن خلالها الصليبيون من احتلال القدس، التي غمرت شوارعها وأزقتها دماءُ المسلمين واليهود. أما الحملات الأخرى

فلاقت الفَشَل؛ وإن ظلّت ثلاثٌ منها قريبةً من الوصول إلى هدفها المتمثل بالمدينة المقدسة. وما نجحت الحملة الأولى في احتلال القدس إلاّ لأنّ العرب[1] كانوا منقسمين. وقد فشلت الحملة الصليبية الثالثة في تحقيق هدفها لأنّ المصريين والشاميين توحّدوا وأقاموا إمبراطوريةً قوية. ونجح فريدريك الثاني في الحملة الخامسة في استعادة المدينة المقدسة عن طريق التفاوض. لكنه ما لبث أن غادر فلسطين بعد أسابيعَ قليلةٍ، تاركاً البلاد مغطّاةً بالقاذورات والبقايا من أبناء شعبه.

بيد أنّ الحملة الصليبية الثالثة، والتي امتدت ما بين سنتي 1187 و1192، هي الأكثر غرابةً وإثارةً للاهتمام. فقد كانت أكبر تجمُّع «عسكري» عرفته العصور الوسطى (المبكّرة)، وهي التي أوصلت نيران الروح الصليبية إلى أقصى درجات التأجُّج. وقد يكون الجانب الأكثر أهميةً في تلك الحرب، أنها دفعت إلى المسرح شخصيتين كانتا بين الأبرز والأروع خلال الألف الثاني للميلاد، وهما: **صلاح الدين**، ملك مصر والشام والجزيرة العربية والعراق من جهة؛ و**ريتشارد الأول**، ملك إنكلترا، الملقَّب **قلب الأسد**.

إن نزاع العمالقة هذا، في المبارزة المقدَّسة الكبرى، ما تزال أصداؤُهُ تتردّد في التاريخ الحديث، والسياسات المعاصرة، في منطقة الشرق الأوسط. بل إنّ معناه يبدو أوسع وأعمق، إنه يبدو في كلّ الصراعات بين المسلمين والمسيحيين، حيثما كان ذلك على مدى العالم، من البوسنة إلى كوسوڤو والشيشان ولبنان وإلى ماليزيا وإندونيسيا.

أما **صلاح الدين**، فيبقى حتى اليوم، نموذجاً للبطولة، في كل العالم الإسلامي. فهو الذي قام بتوحيد العرب. وهو الذي قهر الصليبيين في معارك

(1) يذكر المؤلف العرب والمسلمين، والعالم العربي والعالم الإسلامي والشرق الأوسط باعتبارها مترادفات (المترجم).

ملحمية. وهو الذي أعاد افتتاح القدس. وهو الذي رمى الأوروبيين خارج الأرض العربية. وفي كفاح العرب المعاصرين الذي لا ينتهي من أجل تأكيد عروبة فلسطين يظلُّ صلاح الدين رمزاً للأمل، وأُمثولةً تبلُغ حدودَ الأُسطورة. ويستطيع الزائرُ لدمشق أو القاهرة أو عمان أو القدس الشرقية أن يخوض بدون عناءٍ في حديثٍ طويلٍ عن صلاح الدين (مع أيِ كان). وذلك لأنّ تلك الذكريات القديمة شديدة الأهمية للحساسية العربية، ولأيديولوجيا التحرُّر العربي. وفي الغُرَف الصغيرة، التي لا يتسرَّب إليها الضوء، والأزقّة المعتمة بالقدس القديمة، والتي عاش فيها صلاح الدين حياةً متواضعةً بعد فتوحاته الكبرى، يجد المراقب كتاباتٍ من مثل: الله، محمد، صلاح الدين. تدليلاً على العلاقة الوثيقة التي يرتبط بها صلاح الدين بالله عز وجل (في وعي المسلمين). هكذا يبدو كأنما العالم العربي، ينتظر دائماً مجيء صلاح الدين الآخر. ففي خُطَب الجمعة من على المنابر من حلب إلى القاهرة وبغداد، ليس غريباً أن يسمع المرء الدعوة أو الدعاء من أجل ظهور «رجل» مثله يحرِّر القدس. فانتصاره الساحق على الصليبيين في موقعة حطين ما يزال حتى اليوم مثالاً للانتصار العربي على التدخل الغربي. وفي دمشق، وعلى مقربةٍ من باب السوق المركزية بالمدينة، سوق الحميدية، ينتصب تمثالٌ للبطولة الصلاحية، كأنما يبارك من موقعه الشاهق الساحة الرئيسية للمدينة. وعندما تتصاعد الاحتجاجات، كما حدث أخيراً بشأن المفاوضات بين سورية وإسرائيل حول الأرض المتنازع عليها؛ فإنّ مكان تجمُّع المتظاهرين، كان وما يزال من حول تمثال البطل صلاح الدين. أما الرئيس (الراحل) حافظ الأسد، فقد كان يضعُ في مكتبه رسماً لمعركة حطين، يغطّي جداراً بكامله. وكان الرئيس الراحل يحب أن يقود ضيوفه الغربيين لتأمُّل الصورة، كأنما يريد القول لهم إنّ «صلاحَ دينٍ» آخر لا بد أن يظهر، وإنّ «معركة حطينٍ» أُخرى لا بدّ واقعة. وعندما امتلأت شوارع دمشق بعشرات ألوف المشيّعين، للرئيس الأسد، في حزيران/ يونيو سنة 2000م؛ فإنّ (عرباً كثيرين ولا شكّ) كانوا يتذكرون (كما في كل

مناسبةٍ مشابهة) كيف كانت جنازةُ صلاح الدين في آذار/مارس سنة 1193م.

بيد أنّ التبجيل الذي يحظى به صلاح الدين، لا يعود لمواهبه العسكرية وحسب؛ بل إنه يعود أيضاً لتواضُعه، وإيمانه، وتصوفه، وتقواه، وضبطه لنفسه.

أما ميراث **ريتشارد الأول** في إنكلترا فهو ليس أقلّ إثارة، لكنه مختلفٌ بشكلٍ ما من حيث الطبيعة. فهو إحدى الشخصيات الأكثر رومانسية في التاريخ الإنكليزي. ففي الأغاني الشعبية التي ترددت عبر القرون، وجرى الترنُّمُ بها على أَسِرَّة الأطفال وقت النوم، صار ريتشارد نموذجاً للفروسية. إنه الفارس الذي قاتل بشجاعةٍ من أجل مملكته، وكنيسته، والسيدة حاملة الفأس، والدرع والحصان. وقد تربَّيْتُ في طفولتي وفتُوَّتي على مسرحيات شكسبير وحكايات السير ولتر سكوت، المؤسَّسة على هذه المادة. فعلى تلال ڤرجينيا الشمالية حيث نَشَأْتُ، كنت أُحب العَدْو وراء عربات الحَصَاد، وتلك التي توزِّع السَّماد، والمجرورة وراء الجياد الغليظة. وكنت أُحِبُّ أن أتخيَّلَ تلكَ الحيوانات جارَّةً وراءها عربات الحرب للملك آرثر والملك ريتشارد. وعلى التلال نفسها، وبعد أن بلغتُ سنّ الفتوّة، كانت بقعتي المفضَّلة لمراقبة غروب الشمس، تُسمَّىٰ هضبة أيڤانهو. وكان الوَلَهُ يشتدُّ بي لأولئك الفرسان ونسائهم اللطيفات اللواتي يظهرن في أفلام هوليود: أليزابيث تايلور، وجوان فونتاين، وروبرت تايلور في **أيڤانهو**. وإيرول فلين، وكلود راينز، وبازل راتبون، وأوليڤيا دي هاڤيلاند في **روبن هود**. وجيمس ماسون، وركس هاريسون، وجورجساندرز، ولورنس هارڤي في **الملك ريتشارد والحروب الصليبية**. وكاثرين هيبورن، وأنتوني هوبكنز، وبيتر أوتول في **الأسد في الشتاء**.

لقد كان هناك شيءٌ ساحرٌ في كلّ ذلك القَصَص الرومانسي. مؤدّاهُ أنّ الفروق الهائلة بين التاريخ الحقيقي، والرومانسيات المتعلقة بالملك ريتشارد قلب الأسد، ما كانت تُقَلِّلُ من فتنة تلك الشخصية. فقد ظلَّ ريتشارد في أذهاننا

ذلك الفارس ذا الموهبة القتالية الكبيرة، والذي فهم الاستراتيجية والتكتيك متقدماً على أهل زمانه، كما أنه كان في المبارزة الفردية فارساً لا يُقهرُ شجاعةً ودُرْبة. أما مشروعه، بغضّ النظر عمّا تحقَّقَ منه، فقد ظلَّ عصياً على التصديق. وتحمل عودته من الأرض المقدّسة، وأسره في النمسا، سحر وفتنة الأوديسة الهوميرية. نتذكر ريتشارد بسبب إقدامه وجرأته، وغرامه، بالفخامة والمجد. لكن لا شكَّ أنّ أحداً لا يذكُرُهُ من أجل عمق إيمانه، أو أدبه، أو انضباطه.

وتحمل قصةُ الحرب الصليبيّة الثالثة أموراً جانبيةً أُخرى تُضيفُ لسحرها وإمتاعها: هناك مجموعةٌ كبيرةٌ من الفرسان اللامعين لدى الجانبين، من مثل الفارس الأبيض جيمس دافيزن، أو الفارس العربي العملاق المسمّى بالطويل. وقد ناضل هؤلاء جميعاً بشجاعةٍ وتفانٍ من أجل إيمانهم وقناعاتهم ضمن تقاليد العصور الوسطى للفروسية. وتتضمن القصةُ أيضاً أشراراً مُثيرين للسُّخْط، من مثل ريجنالد من شاتيون، سيّد الكَرَك، والذي ارتكب الموبقات كلّها. كما تتضمن ليوبولد، دوق النمسا، الذي نقض عهد الله وسَجَن ريتشارد في طريقه إلى وطنه. وهنري السادس، الإمبراطور، الذي طالب بفديةٍ من أجل إطلاق سراحه، وكاد يؤدي بإنكلترا إلى الإفلاس. وراشد الدين سنان، رأس الحشاشين، الذي بعث الرُّعْبَ في قلوب الجميع بمن فيهم صلاح الدين. والإيرل جون، شقيق ريتشارد، والملك اللاحق الذي بعث أُسطورة روبن هود، ووقَّع الماغناكارتا، وحاول سرقة مملكة أخيه في غيابه. وتبرزُ في الحكاية أيضاً إليانور من أكيتان، أُم ريتشارد، وملكة إنكلترا وفرنسا. وقد كانت نِسْويةً متحمسةً، برزت في بلاطها ببواتييه ـ الذي نشأ فيه ريتشارد ـ سيطرة النساء وتقدمهنّ على الرجال. أما فيليب أوغسطس، ملك فرنسا الداهية، ورفيق ريتشارد في الحب والحرب، فقد حاول النَيلَ من سطوة محبه الأول، في مغامراتهما الحربية المشتركة، وخانه في الحقيقة باندفاعة العاشق المرذول.

وتأتي أخيراً أليس، نموذج ذلك الزمان للنساء الملكيات الأوروبيات: عشيقة هنري الثاني والد ريتشارد، والأخت غير الشقيقة لفيليب أوغسطس، وخطيبة ريتشارد المُبعَدة، والتي انتهى بها الأمر في سجن إليانور.

كانت الأراضي المقدسة هي مسرحُ تلك المواجهة الملحمية. والقيام برحلةٍ متخيَّلةٍ مع ريتشارد وصلاح الدين عبر تلك الأراضي، أمرٌ مختلفٌ تماماً عن الرحلة مع السيّد المسيح عليه السلام، أو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. تبدأ القصة في بَرّيَةِ مؤاب، حيث كان موسى عليه السلام رهينةً لمدة أربعين سنة. ثم تجري الحركةُ إلى حطين، التي يُقال إنه في جبالها كانت موعظة الجبل. ثم يكون التقدم نحو القدس، التي استعادها صلاح الدين ودافع عنها، والتي من على قبة صخرتها عُرِج بالنبي محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم في معراجه المعجز إلى السماء.

وليس من الصعب على الإطلاق تصوُّرُ حماس المُشاة الصليبيين، وهم يخطُون خطواتهم الأولى على الأرض نفسها التي مشى عليها السيّد المسيح في قيسارية ويافا وعماوس. كما أنه ليس من الصعب تقدير المشاعر العميقة التي حرَّكت للقتال، بل وللقتل، لسوء الحظ. والأمر نفسه يمكن قوله عن الفارس المسلم الذي بذل أقصى الوسع والطاقة للدفاع عن أرضه وعقيدته. فالقدس مقدَّسةٌ لدى المسلمين، واليهود، والمسيحيين. وهي حجر الزاوية لهم جميعاً. وكما في هذه الأيام فقد كانت أصوات أجراس الكنائس تمتزجُ بنداء المؤذّنين للصلاة، وأناشيد اليهود المتدينين. هناك يقف مسجد عمر بجوار كنيسة القيامة، وليس بعيداً عن الحائط الغربي. فالمدينة المقدسة تعيش في أحلام وخيالات كلّ المشاركين في أحداث (الحروب الصليبية). ولا شكّ أن توتُّرات المشاعر تُجاه القدس، من أجل الاستيلاء عليها أو الدفاع عنها من أجل الدين، كانت عاليةً لدى الجميع، وهي التي زادت من حِدَّة النزاع، وما يزال الأمر على النحو نفسه إلى اليوم.

وفي أحاديثي مع العلماء بسورية والأردن والقدس الشرقية، اتضح لي كم تختلف النظرة إلى الحملات الصليبية من جانب العرب. فالقرنان الثاني عشر والثالث عشر، ليسا قرني الحملات الصليبية الخمس وحسب في نظر العرب، بل إنهما في نظرهم كفاحٌ مستمرٌ ومستميتٌ لمقاومة السيطرة الأجنبية، واستعادة البلاد من تحت الاحتلال. إذ تقسّم الرؤية العربية الحروب الصليبية إلى ثلاث مراحل: مرحلة الانقسام، والتي مكّنت الصليبيين من الاستيلاء والاستقرار في الحملة الأولى، ومرحلة تجميع القوى والبدء بمقاومة الصليبيين، وأخيراً مرحلة الانتصار، وإخراج الصليبيين من القدس وسواها وهي مرحلة صلاح الدين.

وما تزال رمزيات الحرب الصليبية الثالثة تؤدي دوراً في التاريخ الحديث، والسياسات الحديثة، في الشرق الأوسط. ففي 11 كانون الأول/ ديسمبر سنة 1917م عندما دخل الجنرال إدموند اللنبي المدينة المقدسة من باب يافا ليتقبّل استسلام الأتراك الذين تركوا وراءهم أربعمائة سنة من الحكم؛ تحدثت الصحف كثيراً عن ذاك الدخول باعتباره الحرب الصليبية الأخيرة. وفي تموز/ يوليو سنة 1920م، عندما استولى الجنرال الفرنسي هنري غورو على دمشق؛ مضى إلى قبر صلاح الدين الواقع في حرم المسجد وجواره، وخاطبه قائلاً ـ حسبما يذكر العرب المُحدَثون ـ: «ها قد عدنا يا صلاح الدين، وإنّ وجودي هنا يعني انتصاراً للصليب على الهلال!».

وعلى مدى القرون الماضية، ظلت قلعة بوفور الصليبية (قلعة الشقيف) في جنوب لبنان موقعاً استراتيجياً، وجائزةً للجيوش المنتصرة في الصراع على الشرق الأوسط؛ ولذلك فقد تغيَّر المسيطرون عليها عدة مرات. وفي سنة 1982م حوصرت من جديد؛ وهذه المرة من جانب الجنرال أرييل شارون، تماماً كما فعل صلاح الدين قبل تسعة قرون. وفي مايو/ أيار سنة 2000م أخلى الإسرائيليون القلعة، كما فعل رينولد من صيدون في سنة 1187م، حين سارع الفلسطينيون إلى اقتحام القلعة مهلّلين. وفي إسرائيل المعاصرة؛ فإنّ الجادة رقم

1 ـ المعروفة باسم باب الواد بين سهل الرملة والقدس ـ تخترق تلك التلال التي اجتازها ريتشارد في حملته باتجاه القدس سنة 1192م، وما تزال تنتشر متهالكةً على جوانب تلك الطريق بقايا العربات المدرَّعة وناقلات الجند التي دُمِّرت في «حرب التحرير» الإسرائيلية سنة 1948م؛ وفي هذا السياق، قال لي صديقي ديفيد باسوف، أحد المشاركين الأوائل في الصراع الصهيوني على فلسطين، والذي صار فيما بعد أستاذاً للتاريخ بالجامعة العبرية: «إنّ الفرقَ أننا أنجزنا ذلك، أمّا هو فلم يفعل!».

أما الأدبيات العربية المعاصرة فتنظر إلى اليهود باعتبارهم الصليبيين الجدد. فهم أوروبيون في الغالب، اجتاحوا الأرض العربية واحتلوها. فكما فعل الصليبيون من قبل، عندما قامت حفنةٌ منهم بالسيطرة على (ديار) العرب من خلال سلسلةٍ من القلاع والحصون المنيعة، والتجمّعات الحَضَرية الصلبة، فهكذا اليوم ـ كما يقول المثقفون العرب ـ تسيطر إسرائيل على الجماهير العربية بقوتها العسكرية المدعومة من الأمريكيين، ومستعمراتها المحصَّنة المحوطة بالأسلاك الشائكة. لكن العرب يؤمنون إيماناً لا يتزعزع بأنّه من خلال الكفاح، والسيرورة التاريخية الحتمية؛ فإنّ الإسرائيليين، مثل ما حدث للصليبيين، سيُرغمون على الخروج من فلسطين. فالأيديولوجيا العربية (اليوم) تثق بالتطورات التاريخية الطويلة المدىٰ: لقد استغرق الأمر ثمانين سنة بالنسبة لصلاح الدين وسَلَفَيه نورالدين (ووالده عماد الدين) زنكي، حتى أمكن لهم زعزعة الوجود الصليبي وطرده. بينما لم يمضِ على وجود الكيان الإسرائيلي في فلسطين غير خمسين سنة ونيِّف!

إن مشكلة العرب اليوم، مثل مشكلتهم في القرن الثاني عشر الميلادي، أنهم غير منظَّمين، ويسود صفوفَهم الانقسام والتشرذُم. وإذا كان من الضروري أن تظهر شخصيةٌ مثل صلاح الدين لجمع قبائل العرب الألف؛ فإنّ عدة قادةٍ عرب كانوا يطمحون لانتزاع هذا الدور. ففي الخمسينات حاول جمال عبد

الناصر باستمرار استعادة ذكرى صلاح الدين، من أجل إقامة الجمهورية العربية المتحدة، ولإرغام البريطانيين والفرنسيين على مغادرة سيناء وقناة السويس. وخلال حرب الخليج (الثانية)، وعلى الرغم من شماتة القادة العرب الآخرين، الذين انحاز أكثرهم إلى التحالف الدولي، ولم يقفوا إلى جانبه؛ فإنّ صدام حسين حاول ارتداء رداء صلاح الدين، مذكِّراً باستمرار بحقيقة أنه هو وصلاح الدين مولودان في البلدة نفسها في كردستان، بلدة تكريت! وعندما انهارت المحادثات لحلّ مشكلة الشرق الأوسط (في كامب ديڤيد) في صيف سنة 2000م، خرجت جماهيرُ قطاع غزة عن بكرة أبيها للاحتفال بالقائد ياسر عرفات، الذي لم يتنازل، رافعةً رايات الفرح بظهور «صلاح الدين الفلسطيني». وفي تلك الفترة نشر الكاتب الإسرائيلي عاموس أوز في النيويورك تايمز مقالةً ذكّر فيها أن «شبح صلاح الدين» يُخيِّم على الشرق الأوسط. وأخيراً فإنه عندما اندلعت الانتفاضة عبر إسرائيل والضفة الغربية على أثر زيارة أرييل شارون لـ«جبل الهيكل» في أكتوبر/ تشرين الأول سنة 2000م؛ ظهرت مجموعاتٌ من الفتيان أطلقت على نفسها اسم «كتائب صلاح الدين» اجتاحت الأزقة الضيِّقة في القدس الشرقية، تمرداً واحتجاجاً.

كانت الحرب الصليبية الثالثة حرباً مقدَّسةً؛ بالمعنى الكامل لهذه الكلمة. لكن، وكما يحدث في سائر الحروب؛ فإنّ كثيراً مما حدث فيها كان بعيداً جداً عن القداسة. بل إن كثيراً مما حدث كان انتهاكاً لحُرُمات الدين نفسه: مثل المذابح ضد المسلمين والأقليات، والجشع البالغ إلى الغنائم، وانطلاق غرائز الطَمَع المخيفة، والقتال والقتل بدون داعٍ أو هدف. وكل ذلك باسم التقوى والورع. هنا كانت الحرب المقدسة في طفولتها، لكنها مورِسَتْ بأقصى درجات العنف والوحشية. وقد كانت في الحقيقة حرباً مسيحيَّة مقدَّسة، جوبهت من جانب المسلمين بما يُعرفُ بالجهاد. والجهادُ في الواقع حربٌ دفاعية، شرطُ مشروعيتها العدوان من جانب الكَفَرَة

المعتدين. ففي القرآن الكريم يُطلبُ من المؤمنين أن ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: 190]. فإذا خاض المؤمنون هذه الحرب المقدَّسة والدفاعية؛ فإنَّ ثواباً إلهياً عظيماً سيكونُ جزاءهم (في الدنيا والآخرة). ولهذا فإنّ من سخرية التاريخ أن تبعث كلمة «الجهاد» الرعب في قلوب بعض الغربيين وحكوماتهم، لأنهم يربطون الجهاد بالإرهاب وبالتعصُّب الإسلامي. والحقُّ أنه لا شيءَ في التاريخ الإسلامي يُضاهي إرهاب الصليبيين أو التعصُّب المسيحي في القرن الثاني عشر الميلادي!

في ربيع سنة 2000م عادت الحروب الصليبية للظهور في دار الإسلام. ففي يوم الأحد السابق على حجّه إلى الديار المقدَّسة، أصدر البابا يوحنا بولس الثاني بياناً اعتذارياً عن سائر خطايا الكنيسة الكاثوليكية باسم الدين، طَوالَ الألفي سنة الماضية. سمَّىٰ البابا بيانه باسم: الذكرى والمصالحة. وقد جاء هذا الإعلان بعد اعتذار سنة 1992م عن اضطهاد غاليليو، والذي كان عملاً آخر من أعمال الكشف عن الحِقَب المظلمة في تاريخ الكنيسة على رأس الألفية الثالثة. وقد أطلقَ البابا على عملية المراجعة هذه اسم: «التطهّر التاريخي». ومن بين الأعمال الشنيعة التي ارتُكبت بحق اليهود والمسلمين والنساء والجماعات الإثنية؛ فإن الحروب الصليبية خُصَّت بالذكر (في ذاك البيان). وقد تلقّىٰ المسلمون في الشرق الأوسط بيانَ البابا المذكور بفرحٍ شديد. ففي سياق الاعتذارات الدينية التي أصدرها البابا، صارت الحروب الصليبية مُدانةً كما دينت المحرقة ضدّ اليهود. ولذلك فقد انتظر المسلمون أن يفصِّلَ البابا مقاصدَهُ من وراء إصدار الاعتذار عندما يزور إسرائيل. لكنّ البابا لم يقل شيئاً بهذا الصدد أثناء زيارته، فظهرت خيبةُ أملٍ عَبَّرَ عنها المفتي الأكبر للقدس: «لقد كانت هناك مذابحُ كثيرةٌ في العالم، فلماذا تكون الهولوكوست بالذات هي الأكثر أهمية؟ أما عندما يأتي الأمر لقضيتنا، فلا ينتبه أحد، وسواءٌ أكان ذلك

متعلّقاً بمذابح الصليبيين ضدّ المسلمين أو المذابح التي ارتُكِبت بحقّ الفلسطينيين من جانب الإسرائيليين. وسنظلُّ نُدينُ تلك المذابح مراراً وتكراراً لتذكير العالَم بما لَنا عليه».

عدتُ إلى القدس، بعد أسابيع على زيارة البابا لها. كان الوقت أسبوع عيد الفصح المقدَّس عند المسيحيين لأنه احتفالٌ بقيامة المسيح. وكان (بالمصادفة) وقت احتفال المسلمين بعيد الأضحىٰ، واليهود بعيد الغفران. وعندما كان الجميع يتزاحمون حول الصليب المقدَّس، غلبت عليَّ نزعة الكاتب وليس الحاج. ولذلك فقد أردتُ أن أرى من جديد سيف غودفري دو بويون، الذي ما عاد ظاهراً في كنيسة القيامة، ليس لسخطٍ عليه أو رضىً عنه؛ بل لأنه وُضِع ضمن خزائن الذخائر الثمينة لأقدس كنائس المسيحية في العالَم. وكان مارك توين الذي زارَ الأرض المقدَّسة سنة 1867م مثلي تماماً في الاهتمام لأمر سيف دو بويون؛ لكنه كان ما يزال يعيش أيضاً في إحساسات وذكريات تلك القصة العاطفية: «لقد جرّبتُ سيف غودفري القديم في مسلم فشطره إلى نصفين مثل أنشوطةٍ معقودة. . . لقد تملّكني روح الحقد، ولو كانت هناك مقبرة لأهلكتُ كلَّ الكفّار الذين بالقدس. مسحتُ الدم عن السيف الداثر وأعدتُه إلى الكاهن. ما كنتُ أُريد للدم الجديد المُراق أن يُزيل اللطخات القديمة التي عكّرت رُواء ذاك المُهنّد يوماً ما قبل زُهاء السبعمائة سنة».

على مقربة من حُجيرة الاعتراف، جلس كاهنٌ فرانسيسكانيٌّ نحيلٌ، أغبرَ شعر الرأس، في ملابسه الداكنة، يتأملُ ما حوله بنظرة صبيٍ هجره خُلاّنه، منتظراً أن يأتيه تائب. اقتربتُ منه، وعرفتُ أنه الأخ ماثيو من بيتسبرغ. بدا مسروراً بتجاذب أطراف الحديث. ووافق بطيب خاطرٍ على أن يُريَني السيف. كان الزمان أُسبوع الفصح بالقدس. وسألته كيف يمكن عيشُ التجربة الصوفية بالمدينة في هذا الزمن الغني؟ وأي قداديس ينبغي أن أحضر؟ وماذا حدث

لاحتفالية موكب الصليب؟ وأين تجري الاستعراضات الأفخم؟ وأية كنيسةٍ هي صاحبةُ الاحتفالات الأروع بالقيامة؟

نظر الكاهن إليَّ بهدوءٍ وتأمُّل، ووضع يده الحانية على ذراعي، وقال: «أيها الشاب! القدس ليست باريس. لا نملك كاتدرائياتٍ ضخمةً هنا. المهم في القدس هو الكامنُ في قلبك». ثم دفع صندوقاً قديماً مملوءًا بِحُلَلٍ كهنوتية داثرة، ليستلَّ من تحتِها السيفَ القديم.

جيمس رستون (الابن)

كانون الأول/ديسمبر 2000

القسم الأول

الإهانة

أيها الساقي، املأ كأسي
فالشغف يغمر قلبي
يوم سعدي هو اليوم الذي أراك فيه
أنت مكتملٌ اكتمالَ البدر
رشاقتك تفوق رشاقة غصن الصفصاف
يعبق البستان برائحة عطرك
من أجل حبّ الله، يا أيها الذي أحببتُ
اسكب لي كأساً، اسكب في هذا الكأس
من أجل حبّ الله، أنت الذي تستطيع مداواتي
نحن نقبل كل ما تقول
ورداً أو بنفسجاً أو زهرا
فأنت أكثر إشراقاً من كلّ الأزهار

أنشودة مجاهدٍ مسلم[1]

(1) ليست الأبيات شعراً جهادياً، بل هي مأخوذة من قصيدة غزلية في مجلس شراب، ويمكن أن يكون لها تأويل صوفي، ويغلب على الظن أنها مترجمة عن الفارسية؛ وما استطعت معرفة قائلها، لكنها أشبه بشعر سعدي الشيرازي (المترجم).

الفصل الأول

ولادة سلطان

في مطلع القرن الثاني عشر (الميلادي)، وفي مدينة توفين Tovin بشمال أرمينيا، على مقربةٍ من جورجيا، كانت تعيش عائلةٌ كرديةٌ معروفة، رأْسُها رجلٌ لقبُهُ نجم الدين. وكان لنجم الدِّين صديقٌ حميمٌ اسمه بهروز معروف بالذكاء والودّ والبشاشة، ولا ينافسُ صفاتِه هذه غير حبّه للنزاع. وقد كان من سوء حظّ بهروز مفاجأته في موقفٍ غير حميدٍ مع امرأة رئيس تلك المدينة. فما كان من الأمير إلاّ أن سارع للقبض عليه، وخصيه، وسلبه إقطاعَه، وطرده من المدينة. بعد هذا الإذلال الذي نزل بالصديق، صمّم نجم الدِّين على الخروج معه، حيث رحلا إلىٰ بغداد، عاصمة الخلافة العباسية في ذلك الزّمان، وقصدا بلاط الخليفة المقتفي لأمر الله، الذي كان يبسط سيطرته على الجزء الواقع في شرق المتوسط من العالم الإسلامي. في بغداد لاحظ سلطان العراق آنذاك مواهب الرجلين وقدراتهما. فقد كان الخصيان آنذاك مرغوبين معلّمين في البلاط وإداريين. وهكذا فإنّ بهروز صار مربياً لأولاد السلطان، ومرافقاً للسلطان نفسه في لعب الشطرنج والكرة والصولجان. وتصاعد نفوذ بهروز بسرعة بحيث صار مسؤولاً عن بناء منشآتٍ وحصونٍ في تلك البلاد. وما نسي بهروز صديقه نجم الدِّين فيما حازهُ من سلطة، بل شاركه في كلِّ ما آلَ إليه. وكان من ضمن

الجوائز التي أعطاها السلطان لبهروز إقطاعه قلعة تكريت، على نهر دجلة؛ وقد منح إمرتّها نيابةً عنه لصديقه نجم الدِّين.

ما أن استقرّ نجم الدِّين بتكريت حتى انضمّ إليه شقيقه الأصغر شيركوه، وبعض أكراد الشمال الذين كان القَدَر يهيئهم لجلائل الأعمال بعد أن بلغ العالم العربي يومَها منعطَفاً هاماً من منعطفات تاريخه. ففي سنة 1098، أي قبل أربعين سنة من استقرار الرجلين في تكريت، كان غُزاةٌ من أوروبا قد هبطوا على فلسطين واحتلوا القدس، وأنشأوا مملكةً قويةً سمَّوها مملكة القدس، امتدت ما بين أنطاكية شمالاً وإيلات على البحر الأحمر جنوباً. وعلى طول الساحل، وفي الجبال المطلّة عليه بنى أولئك الذين سمّوا حربهم حرباً صليبية، حصوناً وقلاعاً ضخمةً لحماية مملكتهم. وبذلك فقد قُسِّمَ العالم الإسلامي واجتيح وضُرب، واحتُلّت أجزاءٌ واسعةٌ من دياره.

في سنة 532هـ (1137 للميلاد) وُلد لنجم الدِّين ولدٌ سمّاه يوسف؛ مع ما يحملُهُ ذلك الاسم من دلالات. فهناك من جهة ارتباطه بالنبي يوسف وما خالط حياته من تقلّباتٍ سُفْلاً وعُلْواً، وما ظهر فيها (من جانب إخوته) من جشع وفساد، وما ظهر فيها أيضاً (من جانبه) من تقوى وإيمانٍ وحرصٍ على الصدق والحقيقة. وتصادفت ولادةُ يوسف أيضاً في ظروفٍ مختلطة الدلالات. ففي ليلة مولده تشاجر عمّ الصبي شيركوه مع الإسفهسلار، أي الضابط القائم على حراسة بوابة القلعة؛ إذ أتته امرأةٌ باكيةٌ مستغيثةٌ به من إساءةٍ نزلت بها من الضابط، فما كان من شيركوه بعد جدالٍ معه، إلاّ أن استلب منه رُمحه وقتله به. وعندما علم الخصي بهروز (صاحب الإقطاع) ببغداد بالأمر اشتدَّ غضبه وأمر بطرد شيركوه وأخيه نجم الدِّين من تكريت. فكان هذا الحادث المزعج للأُسرة في ليلة المولد إشارةَ نحسٍ رُبطت وقتَها بالوليد يوسف! لكنْ قيل فيما بعد: «قد يأتي الله بالفَرَج في الوقت الذي لا ينتظره أحد. وهكذا كان الأمر مع (النبي) يوسف أيضاً».

من تكريت مضى الأَخَوان إلىٰ الموصل التي كان يسودها آنذاك في مواجهة الاحتلال الأوروبي لفلسطين قائدٌ عربيٌّ قويٌّ اسمه عماد الدِّين زنكي، بذل جهوداً جبَّارةً لإعادة توحيد ديار الإسلام انطلاقاً من تلك الناحية. فقد كانت الشام تقليدياً في خصومةٍ مع العراق، وأنطاكية تقاتل حلباً، وطرابلس حمصاً، والقدس تخاصم دمشق، كما كان السنيون الحاكمون (بالعراق وبعض الشام) يخاصمون الشيعة الفرعَ الآخر للإسلام (المسيطرين في مصر وبعض الشام) . وفي سياق كفاحه من أجل جمع كلمة المسلمين، ضمَّ زنكي الأخوين (نجم الدِّين وشيركوه) إلىٰ عسكره. فتولى نجم الدِّين إمرة قلعة بعلبك في سهل البقاع، بينما صار شيركوه ضابطاً كبيراً في الجيوش التي يقودها الوزير.

في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1144م احتلت قوات زنكي مدينة الرُّها في شمال بلاد ما بين النهرين فكانت الناحية الأولى التي استعادها المسلمون من الصليبيين. وقد تسبَّب ذلك بصدمةٍ لأوروبا؛ فهبَّ الراهب برنارد أُوف كليرڤو يدعو لحملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ، وكان ملك فرنسا لويس السادس بين أوائل المستجيبين مع امرأته الملكة إليانور من أكيتان. وفي سنة 1146م، وقبل وصول الحملة الجديدة إلىٰ الأراضي المقدَّسة، مات زنكي، وخَلَفَهُ في إمارته قائدٌ آخر أكثر قوةً منه هو نور الدِّين (ابنه). وبعد سنتين من تلك الأحداث أمكن دحر الصليبيين من أمام أسوار دمشق؛ وبذلك تحولت الحملة الصليبيةُ الثانيةُ إلى كارثة. وشجّع ذلك المسلمين في جهودهم الحثيثة من أجل استعادة فلسطين.

نشأ الصبي يوسف في بعلبك ودمشق. وعلى الرغم من أنَّه كان هشّ البنية، فقد عُرف في قصور دمشق بالذكاء والرجولة والكرم والتقوى والتواضع. وقد شارك أنداده الفتيان في البداية في المعاقرة وصحبة النساء، لكنّ حراجة الموقف التاريخي آنذاك سُرعان ما صرفته عن وجوه الإغراء تلك. وقد شاع لاحقاً أنّ يوسفاً (الذي لُقّب فيما بعد بصلاح الدِّين) إنما تربَّى على التقوى والورع على يد نور الدِّين، الذي سلك به طريق الصلاح، ووجَّهه لمقاتلة

المحتلين الكفّار. ففي بلاط دمشق كانت مبادىء الدِّين الحنيف هي السائدة، وقد آمن الفتى الناشىء إيماناً عميقاً بالآية القرآنية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: 69].

في سنة 1163م كان قد صار واضحاً لنور الدِّين أنّ الخطوة التالية ينبغي أن تكون توحيدَ العالم العربي لمواجهة الاحتلال الأوروبي. وقد بدأ نور الدِّين ذلك بمصر التي كان يحكمُها الفاطميون من الفرع الشيعي للإسلام. كانت الخلافة الفاطمية في حالة ضعفٍ وفوضى، وقد أعطى ذلك حجةً ملائمة لحاكم الشام للبدء بها. إذ أرسل نور الدِّين القائد شيركوه، عمّ صلاح الدِّين المشهور بفروسيته للقيام بغاراتٍ باتجاه الجنوب، وطلب من الشاب صلاح الدِّين، الذي كان قد بلغ السادسة والعشرين، أن يرافقه؛ فمضى صلاح الدِّين متردداً مع عمّه. بيد أنّ نور الدِّين لم يكتف بتوجُّه شيركوه وصلاح الدِّين على رأس جيشٍ إلىٰ الجنوب؛ بل سار هو بنفسه وحاصر أكبر قلاع الصليبيين في وسط سورية: قلعة الكرك. بيد أنّ القلعة ظلّت عصيّةً ومنيعة، مما اضطرّه إلىٰ رفع الحصار والانسحاب. هكذا تبيَّن أنّ الظروف ما كانت قد نضجت بعد للقيام بهجومٍ مباشرٍ على المملكة الصليبية.

في سنة 1164م وبجيشٍ قاد صلاح الدِّين مقدمتَه دخل شيركوه القاهرة. لكنه اضطر للانسحاب بعد أسابيع عندما سارع الصليبيون لمساعدة الخلافة المصرية. وَفَشِلَ غزوٌ آخرُ أيضاً بعد سنواتٍ ثلاث؛ لمسارعة الصليبيين إلى نجدة الفاطميين؛ إذ لم يكن بوسعهم تقبُّلُ توحُّد سورية ومصر في مواجهتهم. وقد بلغ من حرص المملكة الصليبية على عدم تمكين نور الدِّين من الاستيلاء على مصر، أنّ كلَّ بارونٍ صليبي كان يتردَّدُ في مساعدة المصريين؛ كان مهدَّداً بفقد عشرةٍ بالمائة من دَخْله السنوي. لذلك فقد فشلت محاولتان أُخريان من جانب نور الدِّين أيضاً. لكنْ في المحاولة الخامسة بتاريخ الثامن من كانون الأول/يناير سنة 1169 نجح شيركوه في دخول القاهرة منتصراً. واعتزازاً بهذا

الإنجاز أعلن نفسهُ ملكاً على مصر، ثم ما لبث أن توفي فجأةً بعد شهرين! وقيل وقتها إنه ربما مات مسموماً. ولكي لا تحدُث نكسةٌ سارع نور الدِّين بعد مراجعةٍ للأمور من دمشق لتعيين صلاح الدِّين خَلَفاً لعمّه في مصر. وما كان تعيينُ الجندي الشابّ بسبب قوته وكفايته؛ بل لاعتباراتٍ تُرجّحُ ضعفَهُ لِصِغَرِ سنّه وقلّة تجربته. فما كان نور الدِّين، في الواقع، يريدُ منافساً قوياً بالقاهرة. وكان واثقاً من إمكان ضبط الشابِ الخَجول والمؤدَّب. وقد أخطأ نور الدِّين التقدير في ذلك كلّه كما سيتبيَّنُ فيما بعد.

في البداية سلك صلاح الدِّين سلوكَ التابع الخاضع. إذ أقبل على تنفيذ توجيهات نور الدِّين بحزمٍ وبدون رحمةٍ فيما يتصل بإزالة المذهب الشيعي من مصر وإحلال المذهب السنّي محلّه. ثم طلب من سيِّده (نور الدِّين) أن يسمح له باستقدام والده نجم الدِّين إلىٰ مصر «ليكتمل السرور به ويتمَّ الحبور»[1]، «ولتجري القصةُ مشاكِلةً لما جرى للنبي يوسف». ووافق نور الدِّين على ذلك. وصل نجم الدِّين يوسف إلى القاهرة في ربيع سنة 1170 فاستقبله ابنُهُ (صلاح الدِّين) بكلّ مظاهر الإعزاز والتكريم؛ بل وعرض عليه أن يتنازلَ له عن السلطة بمصر؛ لكنّ الوالد أجاب: «يا ولدي! ما اختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنت كفءٌ له، ولا ينبغي أن يُغيِّرَ موقعُ السعادة»! ومات نجم الدِّين بسقطةٍ عن فرسه عند باب النصر (أحد أبواب القاهرة) بعد سنتين من وصوله إلىٰ مصر.

بين سنتي 1169 و1174م تابع الصليبيون هجماتِهم لزعزعة السيطرة الدمشقية على مصر، لكنهم لم ينجحوا في ذلك. لكن في الفترة نفسِها توتّرت

---

(1) العبارات الواردة ضمن الحاصرتين وردت كذلك في الأصل الإنكليزي، وقد أثبتّها بنصها العربي عن؛ بهاء الدين ابن شدّاد: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** أو **سيرة صلاح الدين**، تحقيق جمال الدين الشيّال، مصر 1964، ص 44. وقد استعمل المؤلف السيرة الصلاحية لابن شدّاد (الذي يذكره دائماً بلقبه: بهاء الدين) كثيراً في تضاعيف الكتاب، وسأرجع دائماً للنص الأصلي (المترجم).

العلاقةُ بين نور الدِّين وصلاح الدِّين؛ لأنّ الأخير توقّفَ في تنفيذ بعض مطالب نور الدِّين. وأخيراً، وفي سنة 1174م بدأ نور الدِّين ـ بعد أنْ نفذَ صبرُه ـ يُعِدُّ العُدَّةَ لاجتياح مصر بجيشٍ عرمرم. لكنّ شيئاً من ذلك لم يحْدُثْ، لأنه توفّي في 15 أيار/ مايو من السنة نفسها؛ تاركاً السلطة ـ لسوء الطالع ـ لولده الصالح إسماعيل البالغ من العُمُر أحد عشر عاماً! وبعد سنة على وفاة نور الدِّين خرج صلاح الدِّين من القاهرة إلىٰ سورية على رأس جيشه فاستولى على الشام، وأعلن نفسه سلطاناً على سورية ومصر. وبذلك فقد أحاطت إمبراطوريته المتوسِّعة بمملكة الصليبيين إحاطة **السِوار بالمِعْصَم**[1].

نجحت الحملة الصليبيةُ الأولى بسبب الصراعات التي كانت مشتعلةً بين الأمراء المسلمين الصغار، وبسبب الانقسام بين الفِرَق الإسلامية السُّنِّية والشيعيَّة، وتنافُس الخلفاء في مصر وسورية وتركيا[2]. أما الآن، وبعد تحقيق الوحدة تدريجياً بين تلك الأجزاء المتصارعة؛ فإنّ العالَم العربي استطاع أن يجمع قواهُ في مواجهة الصليبيين. كانت استعادةُ العرب للرُّها أولى الخطوات المهمة. وعندما فشلت الحملة الصليبية الثانية؛ أعاد ذلك للعالم الإسلامي الثقة بقدرته على دفع الصليبيين نحو البحر من جديد. وقد تحقَّقت هذه النهضةُ بفضل ثلاثة أمراء أقوياء تمكّنوا من توحيد العرب: (عماد الدِّين) زنكي الشجاع والكفء الذي استعاد الرُّها وحكم حتى سنة 1147م. ونور الدِّين (زنكي) القويّ الذي وحّد الشام والعراق تحت السلطة السنيَّة، وأخضع مصر سنة 1169م. والآن صلاح الدِّين. فبوصول صلاح الدِّين سنة 1175م، وفي الثامنة والثلاثين من عمره إلىٰ تملُّك دمشق والقاهرة، اختفى الانقسام الذي استمرَّ

(1) في الأصل: إحاطة براثن الكركند (أو السرطان البحري) بالفريسة! (المترجم).

(2) كذا في الأصل، وما كانت في تركيا (آسيا الوسطى) خلافةٌ وقتها، ولا كان فيها نفوذ للفاطميين والعباسيين؛ بل كانت منقسمةً بين الأمراء السلاجقة، والبيزنطيين والصليبيين (المترجم).

قروناً. لقد اختفت الخلافة الفاطمية من مصر، وخَلَفَ السنيّون الشيعة على ضفاف النيل. وفي ربيع سنة 1175م أعلن صلاح الدِّين نفسه سلطاناً على سورية ومصر، وجرى الاعتراف به من جانب الزعيم الرسمي للمسلمين في المشرق[1]، خليفة بغداد. قال صلاح الدِّين: «لمّا يسّر الله لي الديار المصرية علمتُ أنّه أراد فَتْحَ الساحل (فلسطين) لأنه أوقع ذلك في نفسي»[2]. هكذا صار حُلُمُ الجبهة الواحدة في مواجهة الصليبيين واقعاً. وحُلُمُ العرب هذا صار كابوساً للصليبيين. فطوَالَ تسعين سنة استطاعت المملكةُ اللاتينيةُ الصمود في وجه الأعداء، والتوسُّع على حسابهم، بالتحالفات الذكية، والغارات المزلزلة، والقلاع الاستراتيجية. أما اليوم، وبعد توحُّد المسلمين؛ فإنّ بقاء المملكة اللاتينية لا بدَّ أن يعتمد على وحدتها الداخلية، وقدراتها العسكرية.

لقد كان على السلطان قبل أن يبدأ هجومه الأخير، إنجاز مهمةٍ عسيرةٍ ضمن سلطنته نفسها. لقد كان عليه إخضاعَ آخِر الإقطاعيات المستقلّة. ففي شهر صَفَر حزيران/ يونيو سنة 1183م، وبعد وفاة الأمير الطفل (الصالح إسماعيل) سيطر السلطان على حلب. وكانت لتلك الخطوة، إضافةً لأهمية المدينة العسكرية، أبعادٌ رمزيةٌ مؤثِّرة. كانت حلب تُسمَّى القلعة الشهباء. وقد انتشرت بين الجمهور مقولةٌ مؤدَّاها أنّ السيطرة على حلب ستكون مقدّمةً لفتوحاتٍ أعظم[3]:

(1) يُسمّي المؤلف المنطقة «الشرق الأوسط»!.

(2) ابن شدّاد: النوادر السلطانية، مصدر سابق، ص 41.

(3) بيت من قصيدة استشهد بها (محيي الدين) ابن الزكي في تهنئة السلطان بفتح حلب، مطلعها:

بدولة التركِ عَزّتْ دولة العربِ وبابن أيوبَ ذلّتْ شيعة الصُلُبِ

قارن بابن واصل: مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، ت. جمال الدين الشيّال، القاهرة 1957، 2/ 145. والبيتُ مطلع قصيدةٍ طويلةٍ لابن سناء المُلْك في ديوانه (ط. حيدر آباد) 9/ 16. وقارن بالوافي بالوفيات للصفدي، م21، ص ص 146/ 149.

وفتحُكُمْ حلباً بالسيف في صفرٍ ... مبشِّراً بفتوحِ القدسِ في رجبِ

في سنة 1186م استولى السلطان على الموصل بأعالي بلاد ما بين النهرين. فصار بذلك مهيئاً للضربة الكبرى. وكان شهر رجب هو الوعد.

الفصل الثاني

مملكة السماء

كانت مملكة القدس اللاتينية قد ظهرت قبل تسعٍ وثمانين سنة مع نجاح الحملة الصليبية الأولى. ففي سنة 1198م اجتاح غودفري دو بويون أسوار المدينة المقدسة، وقتل آلافاً من الجنود المسلمين المدافعين عنها. وفي الدماء الغزيرة التي سالت في أزقّة القدس الحَجَرية، سار الصليبيون فخورين، قبل أن يجثوا على رُكَبهم أمام المذبح المقدّس بكنيسة القيامة، شاكرين الله على ما حباهُم به من نصر. وبعد ثلاثين سنة على تلك الواقعة كانت المملكة الصغيرة قد بلغت ذِروة قوّتها. فقد دفع الفرسان المسيحيّون حدودها في شتى الاتجاهات، كما لو أنّ العالَم الإسلاميّ ليس أكثر من وسادةٍ من الريش. ازدهرت المملكة الصليبية على وقْع انقسام الأعداء وعجزهم. فالقبائل العربية الألف كان لها أُمراؤُها ووزراؤها، الذين يتبعون بغداد أَو القاهرة، والذين يتخاصمون على أشياء صغيرة، ثم ينصرفون للصلاة بحسب المذهب السنّي أَو الشيعي من مذاهب الإسلام!

حوالي سنة 1131م كانت مملكة الصليبيين قد ضمّت بين جَنَباتِها القسم الأكبر من فلسطين وسواحل بلاد الشام. وقد تمركز الغزاة الأوروبيون، الذين صاروا يُعرفون بين العامّة بالفرنجة، في المدن الساحلية المهمّة مثل اللاذقية

وطرطوس وطرابلس وبيروت وصور وعكا وحيفا وقيسارية ويافا وعسقلان؛ وهذا بالإضافة إلىٰ المدن الداخلية التالية: حمص وأنطاكية وطبرية ـ وبالأخصّ أهمّ تلك المدن: القدس! أما النواحي الريفيَّة فقد تُركت في الأعمّ الأغلب للسكّان الأصليين، الذين كان عددُهم يفوق عددَ السادة المحتلين بنسبة خمسة إلىٰ واحد. وكان هؤلاء الفلاّحون يحرثون حقولهم بسلام، ويستنبتون الحبوب والثمار، التي يؤدّون نصفَها للسادة؛ في مقابل السَّماح لهم بإدارة شؤونهم بأنفسِهم.

وصل عدد سكّان تلك المملكة الغالية إلى حدود المائتين والخمسين ألف نسمة. وضمّت أكبر مدينتين فيها القدس وعكّا حوالي الـ 25000 نسمة (مع أنَّه بعد المذبحة في القدس فإنّ أكثر أحياء المدينة صارت فارغة، مما اضطرّ المسؤولين إلىٰ إسكان آخرين من مناطق أخرى؛ وبخاصةٍ بعد عودة جيش الحملة الأولى إلىٰ أوروبا). أما القسم الشمالي من المملكة فكان مقسوماً رسمياً إلىٰ مقاطعاتٍ مستقلّة مثل إمارة أنطاكية، وكونتيات حمص وطرابلس، التي كان سادتُها أتباعاً لملك القدس. وباستثناء حالاتٍ قليلةٍ فإنّ كبار شخصيات مملكة القدس الصليبية في المشرق، كانوا الأقلّ أهميةً ونفوذاً بين نبلاء الإقطاع في ديارهم الأصلية. لقد كانوا شباناً أبناء إقطاعيين صغار، ليس لهم مستقبلٌ في القارّة ليعودوا إليه، لأنَّهم إنما أتوا إلىٰ المشرق بحثاً عن الثروة والموقع والمغامرة.

في مواجهة الكثرة العددية للمسلمين وجيوشهم، والتي ما كان بوسع الصليبيين منافستُها، بنى هؤلاء سلسلةً من الحصون والقلاع الضخمة، لتكوين نظام دفاعي امتدَّ بموازاة الشاطىء. وكانت تلك القلاع متناظرةً بحيث يمكنُها أن تتواصل عن طريق النيران والمشاعل والدخان. فقد كان بوُسع حُماة قلعة الكرك مَثَلاً أن يتواصلوا عن طريق الدخان والنار (نهاراً وليلاً) مع القدس، إلىٰ مسافةٍ تمتدّ حوالي السبعين ميلاً. ثم إنّ الحصون القائمة على قمم الجبال، والمشرفة

على الروابي والوديان الاستراتيجية؛ كان بوسعها أن تكشف وتراقب الأرض التي حولها حتى الأفق البعيد.

أما الجيوش الصليبية فإنّ الرهبان المقاتلين من فرسان الهيكل Templars والإسبتارية Hospitalers، كانوا عمودَها الفقري. فهؤلاء المتحمسون للصليب كانوا نبلاً وفرساناً في الأصل، وقد تركوا جواهرهم وحصونهم ونساءهم في أوروبا، وأتوا إلى المشرق ليحيوا حياة زُهدٍ وتقشّفٍ ودفاعٍ عن الأرض المقدسة. ولا شكَّ أنّ إقبال الرهبان على حمل السلاح، مَثَّلَ تغييراً عميقاً في مفهوم الحرب المقدَّسة الذي غزا الكنيسة. كان القديس مارتن St. Martin قد عبَّر عن التقليد القديم في القرن الرابع الميلادي حين قال: «أنا جندي المسيح، ولذلك لا يجب عليَّ أن أُقاتل». فإراقة الدماء في المعركة معصيةٌ لا يصحُّ ارتكابُها. ولا شأنَ لأهل القداسة من الكهنة بالنزاعات الدنيوية. فالكنيسةُ القديمة لم تكتف بتحريم المشاركة في القتال، بل إنها لم تكن تُجيزُ حملَ السلاح. لكنْ بعد عقودٍ قليلةٍ على رأي القديس مارتن هذا، جاء رأيُ القديس أوغسطين St. Augustin المناقض لذلك. ففي بعض الظروف يمكن أن تكون الحربُ أخلاقيةً بل وعادلة. والحربُ العادلةُ ينبغي أن تكونَ دفاعيةً في الممارسة؛ إذ على المسيحيين أن يحملوا السلاحَ للدفاع عن الأرض المسيحية ضدّ أعداء المسيح. ويتلاءمُ ذلك تماماً مع الدعوة لحماية الأرض المقدَّسة (باعتبارها أرضاً مسيحية). ويمضي أوغسطين قائلاً إنّ الحربَ تكونُ مقدسةً أيضاً إذا أقرَّها المسيح، والجنود ليسوا إلاَّ خَدَماً للرب (يطيعون أوامره). وذلك من مثل الحرب الرامية للحفاظ على طهارة الكنيسة الكاثوليكية، أو لنُصرة الإيمان ونشره. هذه التأمّلات والأفكار هي التي عقلنت قضية الحرب المسيحية. وقد وضع شارلمان هذا التوجُّه موضع التطبيق عندما حاول غزو إسبانيا الإسلامية، كما عندما أنشأ في أوروبا الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة.

بحث المتشدِّدون الجُدد في الإنجيل وأقوال القديسين عن شواهد وأدِلَّة

لنزعتهم العسكرية. ووجدوا ضالَّتَهم في رسالة القديس بولس الثانية إلىٰ تيموتاوُس: «احتمل المشقات كجندي صالحٍ للمسيح يسوع. ليس أحدٌ يتجنّد فيرتبكَ بهموم الحياة؛ وذلك ليُرضيَ الذي جنَّدَه. .» [تيموتاوُس 2: 3 ـ 4]. وحلَّ القديس ميخائيل St. Michael محلَّ القديس مارتن؛ لأنّ القديس ميخائيل قتل التنين الشيطاني كما في سفر الرؤيا (رؤيا يوحنا) [12: 7 – 11]. وكذلك القديس جورج St. George، شفيع إنكلترا قتل التنين الشيطاني، وكان في الحقيقة جندياً حقيقياً للملك. وبذلك صار قُدّاس القديس ميخائيل هو نفسه صلاةَ الحرب أَو شعيرتَها، وكان يُنشَدُ بأعلى صوت قبل المعارك الكبرى في العصور الوسطى. وفي القرن الحادي عشر؛ انتهى أيضاً تقريباً الحظر الذي كان على القساوسة بمقتضاهُ أن لا يحملوا السلاح. وصار ما تطلبه الكنيسة (ممارسات) الفروسية وأخلاقيات الشهيد. وما كان دعاةُ الحرب الصليبية يقولون ذلك صراحةً؛ لكنهم كانوا في الحقيقة يستعيرون للحرب المسيحية الأسطورة الحربية الأَيسلندية. فالولهالا صارت هي الجنّة، ووُدن Woden صار المسيح. أما الجنود المسيحيون فصاروا أشبه بأبطال النيبلونغن، والفايكنغ، وبيت كارل المنتسب إلى سفاين فورْك بيرد Carles of Svein Forkbeard.

هذا التحوّل من المعاناة المسيحية إلىٰ العسكرية المسيحيّة، ما كان سهلاً على الجنود الأفراد البسطاء، الذين وقعوا في ارتباكٍ أخلاقي. فنقرأ في سيرة أحد جنود الحرب الصليبية الأولى: «غالباً ما كنت ممتلئاً بالقلق» «لأنّ الحربَ التي كان مشاركاً فيها باعتباره من فرسان الصليب، بدت مناقضةً لأمر الرب بإدارة الخدّ الآخر. وقد أدّت هذه التناقضات إلىٰ سلبه الجرأة. لكنْ بعد أن أصدر البابا أوربان صكّه للغفران، الذي عرض فيه إسقاط ذنوب وخطايا سائر الذين يقاتلون المسلمين؛ فإن اليقظة دبّت في أوصاله، واشتعل حماساً، كأنما هو يستيقظ من سُباتٍ عميق. .».

قبل سيطرة الصليبيين على الديار المقدَّسة في الحرب الصليبية الأولى

سنة 1099م؛ كانت رهبانية الإسبتارية قد تأسَّست بالقدس من أجل رعاية الفقراء والمرضى. ثم صدر مرسومٌ بابويٌّ يعتبرها رهبانيةً سنة 1113م، ويضعها تحت إمرة البابا مباشرةً، في استقلاليةٍ كاملةٍ عن كلِّ السلطات المحلية. وفي سنة 1136م سمح البابا للرهبانية بالمشاركة في القتال. وقد شارك الإسبتاريون فعلاً في معارك كبرى وحروب في حملة إليانور الثانية، وبطلبٍ منها، سنة 1147م.

وبالتعاصُر مع الإسبتارية، ظهرت رهبانيّة فرسان الهيكل التي تأسّست سنة 1119م. وفي سنة 1128م صدر المرسوم البابويُّ بإجازتها مع التأكيد على مقصدٍ رئيسيٍّ لها هو حماية طرق الحجيج إلىٰ بيت المقدس عبر مسارب منطقة الشرق الأوسط المعقَّدة. استلهمت الرهبانية الجديدة مبادئها من القديس برنارد أُوف كليرفو الذي كان قد أعلن أنّ «القتل في سبيل المسيح» هو فروسيةٌ وليس قتْلاً، وعندما «تقتل وثنياً فإنك تحتازُ مجداً، لأنك إنما تفعل ذلك من أجل مجد المسيح». لقد بزغ فجرٌ جديدٌ اكتسبت فيه الفروسيةُ مسْحةً دينيةً قُدْسيّة. وقد التزم الرهبانُ المُحاربون بالفقر والورع والتقوى والطاعة مثل سائر الرهبانيات. وعندما كانوا يرتدون عُدَّتَهم القتالية، كانوا يعِدون بأن يكونوا المقدمةَ في المعارك ضد الكفرة، وأن يكونوا أولَ من يهاجم وآخِر من ينسحب. وفي سنة 1128م رُسم لفرسان الهيكل ارتداء زِي أبيض رمزاً للبراءة والإخلاص، وأُضيف إليه صليبٌ أحمر اللون خلال الحملة الصليبية الثانية بعد تسعين سنة. أما في الحرب فقد كانت تتقدم صفوفَهم رايةٌ بِلَونَين أبيض وأسود للمعركة تُسمَّى الـ Beauceant، تشير إلىٰ رقّتهم مع الأصدقاء، وعنفهم تجاه الأعداء. وفي المبدأ فإنّ كلا التنظيمين الإسبتارية وفرسان الهيكل، كانا يمثّلان في نظر الكنيسة الحرب العادلة والمقدَّسة. وكان فرسان المسيح هؤلاء تابعين مباشرةً للبابا من خلال رؤسائهم العامين. وكان يُنظَرُ إليهم باعتبارهم مترفعين عن النزغات والنزاعات الدنيوية، كما أنَّهم كانوا خارج العنف الجاهل الذي يمارسه الجنود

العاديون. وهكذا فإنّ هاتين الرهبانيتين العسكريتين كانتا في ذروة النفوذ والسلطة في الحرب الصليبية الجارية.

ومن على أسوار قلاعهم المتربعة على قمم الجبال، كما من ثكناتهم الحضَرية، كان هؤلاء الرهبان الفرسان ينظرون نحو الشرق، مستشرفين تلك الهضابَ العالية، والصحارى المنبسطة من بلاد المسلمين. وكانت تُعاونهم في أعمالهم العسكرية كتائبُ من الرُماة، وفِرَقٌ من حَمَلة الدروع، وألويةٌ من المرتزقة المحليين عُرفوا بالمُتَتَرّكين ـ وهم جنودٌ من أعراقٍ مختلفة أثبتوا على مدى سنواتٍ كفاءةً في مواجهة فرسان العرب الرُّماة ـ. وقد أثبتت الجيوش المسيحية ـ المكوَّنة من متطوعين متحمسين، مسلَّحين جيداً، تقودهم نُخَبٌ من الفرسان بلباسٍ حربي ثقيل ـ أنها لا تُقْهَرُ في مواجهات الاشتباك. بيد أنّ معارك الاشتباك كانت نادرة، وقد بذل الصليبيون جهوداً كبيرةً عبر عقودٍ متطاولةٍ من السنين لتجنُّبها. إذ اعتمدوا في تكتيكاتهم العسكرية على قلاعهم المنيعة التي كانوا ينسحبون إليها، ويتحصَّنون فيها.

ومع مضي أجيالٍ (على الوجود الصليبي بالمشرق) بدأ الأوروبيون يتخلّونَ عن عاداتهم ويميلون للاستمتاع بمناعم الشرق. ففصول الشتاء العاصفة والقصيرة، والصيف الحارّ والطويل؛ كلُّ ذلك غيَّرَ من وقْع وأسلوب الحياة لديهم. لقد استبدل الفرنجة بقبعاتهم وخوذاتهم البرانس والعمائم والكوفيات، كما انتعلوا الخفاف الشرقية الرقيقة. وفي غياب الخشب في الأثاث، والهندسة الداخلية بالمنازل، تربّعوا على الأرض على السجّاد المفروش، والدواوين المحشوة بالريش. كما أنّهم زيَّنوا دُورَهم الحجرية بالحرير والدمشقيّ، وعطَّروا نساءهم بعطور الشرق، وضوَّعوا غُرفَهنَّ بالبخور؛ بل إنهم وضعوا على وجوههنَّ النقاب، واصطحبوهنّ إلىٰ الأسواق الشرقية المفتوحة من أجل التبضُّع. ولقد استمتعوا بالغطس في الآبار العميقة، وباستعمال الصابون، واستنبتوا الأزهار والورود في حدائقهم، وتحدَّثوا العربية، وفلفلوا أرزَّهم

بالزعفران، وحلّوا شايهم بالسكر والليمون، وختموا مآدبَهم بالبطيخ والتمر، وسلّوا أنفسَهم بإنشاد الغَزَل العربي، وبالراقصات المحليات. لقد كانت الحياةُ رائعةً في هذه الحديقة المُثيرة من المسرّات. قال أحد سكّان عكا: «لقد جعل الله هذه البرية غنية. بحيث إنه حيث تكونُ الوحوشُ والأفاعي تنتشر أيضاً الحقول الخضراء من القصب والخيزران». (وما اقتصر الأمر على هذه المظاهر) بل أقبل بعض الغربيين على الزواج من شاميات وأرمنيات وبيزنطيات. وقد أنتج هذا الاختلاط ظهور طبقةٍ جديدةٍ من الأوروبيين الشاميين سمُّوا الـ Poulains ومعناها الأطفال أَو الأولاد. فالجيلان الثاني والثالث من الأوروبيين توصلوا إلىٰ اعتبار أنفسِهم جليليين أَو فلسطينيين أكثر من كونهم فرنسيين أَو رومانيين، واعتبار أنفسهم مواطنين من صور أَو أنطاكية أكثر من نسبة أنفسهم إلىٰ ريمز أَو تولوز.

بيد أنّ ظهور الفرنجة باللباس المحلي، وقَصْدَهم للأسواق المزدحمة، وبلوغَهم درجةً مقبولةً من التسامُح، لم يُفْقِدْهُم إحساسهم بأنّهم ينتمون إلىٰ ما وراء البحار. لقد تلاءموا مع الأجواء الجديدة لكنَّهم لم يتقبّلوها. ما صاروا متوطنين، بل ظلُّوا محتلين. وقد نظروا بشيءٍ من الرضا وغضّ الطرْف إلىٰ ضَعفهم (أمام مُتَع الشرق)، كأنما أرادوا أن لا يكونوا الجيل الأخير الذي يتلذّذ بهذه المسرّات الحسّيَّة.

كان الزائرون (للمملكة الصليبية في المشرق) أواخرَ القرن الثاني عشر يُصْدَمون برؤية الفساد المنتشر، والاستهتار السائد في أوساط أبناء عمّهم البعيدين: «من بين البولين يندُرُ أن تجد واحداً من بين ألف يأخذ زواجَهُ مأخذ الجد»؛ هكذا كتب مطران عكّا عن رعيته الشريرة ومدينتها: «إنّهم لا ينظرون إلىٰ الزّنا باعتباره خطيئةً كبرى. فهم مدلَّلون منذ صِغَرهم، ويندفعون في موج اللذائذ العارضة. ثم إنّهم ليسوا معتادين على سماعِ كلمة الله، التي ينظرون إليها نظرة استخفاف. وفي أكثر الأحيان، يُقتلُ أُناسٌ علناً أَو سراً وبالليل والنهار.

وفي الليل يُقلق الرجال زوجاتهم اللاتي لا يُحببنهم، أما النساء فيستخدِمْنَ السُمّ والعقاقير (ضد أولئك الأزواج)، حسب العادات القديمة. وفي المدينة هناك باعةٌ للسموم والمُهْلِكات؛ بحيث لا يستطيع أحدٌ أن يثق بأحد. كما أنّ فيها كثيراً من المومسات، وبيوت الدعارة. ولأنّ الداعرات يدفعن إيجاراً عالياً للمنازل؛ فإنّ المؤجّرين ليسوا الناسَ العاديين وحسْب؛ بل بينهم رجال دين، ورهبان أحياناً. وهم يقومون جميعاً بتأجير منازلهم للمومسات».

فَقَدَ أعقابُ الصليبيين الأوائل من رجالات الحملة الصليبية الأولى انضباطهم وقِيَمهم لكنهم لم يتوقفوا يوماً عن الإحساس بأنّهم غرباءُ في محيطٍ مُعادٍ. فطوال تسعين سنة، بل وحتى الحملة الصليبية الثانية سنة 1147م، عاش هؤلاء في نِزاعٍ دائم مع العرب، وانتشرت في أوساطهم مشاعرُ معاديةٌ لأهل الشام. فقد كتَب المطران السالف الذكر عن السوريين (المسيحيين): «إنهم في الأغلب الأعمّ أناسٌ لا يمكن الثقة بهم». وتابع: «إنهم غشّاشون، وثعالب خُبثاء مثل اليونانيين، وكاذبون، ومنافقون، ويعشقون الربح، وخونة، ويسهُل كسْبُهم بالرشوة، يقول أحدهم الشيءَ ويقصِدُ عكسه. لا يعتبرون السرقة والنصب أمراً مَهولاً. ومن أجل مبلغٍ ضئيلٍ من المال يصبحون خونةً ويُطْلِعون العربَ على أسرار المسيحيين. ولا عجب في ذلك فقد نشأوا بينهم، ويفضّلون استعمال لغتهم أكثر من أي لغةٍ أُخرى. ثم إنَّهم (يقلّدون العرب) في الخديعة والاحتيال».

أما اليهود فقد كانت تُستعمل بحقّهم صنوفٌ أُخرى من الشتائم والمذمّات؛ لأنهم غارقون إلىٰ الأبد في «عارهم الدائم»: «لقد أبقاهم المولى لزمنٍ محدَّد مثل الجذع خارج الغابة لكي يُوقَدَ عليه في الشتاء، ومثل كرم شرّير، لا يُنتجُ غير عناقيد مُرَّة». وذكر المطران أخيراً السبب: «لأنهم يذكّروننا دائماً بموت المسيح».

وحوالي سنة 1187م كان العرب أيضاً قد نمَّوا مشاعر عدوانيةً مماثلةً ضد

الغُزاة الأوروبيين. فالدخلاءُ البيض لم يُسهموا بأيِّ إضافةٍ في ثقافة الشرق الأوسط. لا مؤسَّسات علمية، ولا موسيقى، بل مآسٍ وسفك دماء. كتب أميرٌ معروف من شمال سورية (عن الصليبيين) ما يلي[1]: «والإفرنج ـ خذلهم الله ـ ما فيهم فضيلةٌ من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمةٌ ولا منزلةٌ إلاّ للفرسان، ولا عندهم ناسٌ إلاّ الفرسان ـ فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم. . .».

كان بين القادمين الجُدد ملك القدس نفسه: غي دو لوزينيان Guy De Lusignan. وينتسب الملك الجديد إلىٰ أسرةٍ من صغار النبلاء في أكيتان، والتي تقول الأسطورة إنّ تلك الأسرة تتحدر من نسل أفعى اسمُها ميلوزين Mélusine. وقد وصل غي إلىٰ الشرق قبل سنواتٍ قليلةٍ في ظروفٍ غريبة. فقد نُفي من مسقط رأسه بواتو Poitou لأنه قتل الإيرل أُوف سالسبوري عندما كان ذاك النبيل الورع عائداً من الحجّ إلىٰ سانتياغو دو كومبوستيلا Santiago de Compostela. وتشاء الأقدار في الحرب الصليبية الثالثة أن يكون الأمر بنفي غي قد وقّعه أمير أكيتان آنذاك، ريتشارد أُوف بواتو Richard of Poitou، الذي صار فيما بعد ريتشارد الأول ملك إنكلترا، والمعروف بقلب الأسد. وفي محاولةٍ لتحويل اللعنة إلىٰ فروسية، تاب غي وحمل الصليب ومضى نحو الأراضي المقدَّسة. وهناك حصل على موقعه، مثل شاتيون Châtillon، بقيم الفخر والاختيال، ومن طريق الزواج المحظوظ. فقد كان عاشقاً جيداً أكثر منه مقاتلاً مجيداً. استطاع غي، الجريء، والطَموح، والماهر، أن يُغويَ الشابة المترمّلة حديثاً سبيلا Sibylla، أخت ملك القدس. وقد أقدمت تلك السيدة

(1) الأمير المقصود هو أسامة بن منقذ صاحب كتاب «الاعتبار»، حرّره فيليب حتّي، طبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة، 1930، ص 64. ويبدو أن المؤلف اقتبس الفقرة من الترجمة الإنكليزية التي قام بها حتّي أيضاً. وهناك نشراتٌ أخرى للاعتبار وترجماتٌ له إلى اللغات الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين (المترجم).

على الزواج من غي الأدنى مقاماً، من الناحية الاجتماعية، رغم إباء أُسرتها، ورفض الكنيسة. وقد أُجريت مراسِم الزواج بسرعةٍ غير معهودة، وأثناء الفصح الذي تَحرُمُ فيه الأنكحةُ عادةً؛ ليجد المحتال غي نفسَهُ في خطّ السيادة والمُلْك. يقول وليم الصوري، المؤرّخ الكبير للحروب الصليبية، في عرض تلك الواقعة بطريقةٍ تخدمُ غي دو لوزينيان: «لقد كان نبيلاً بما فيه الكفاية» لاستيفاء شروط المُلْك. لكنْ لا أحد كان مسروراً بذلك، باستثناء سبيلا. ومع الزواج مباشرةً جاء الإقطاع الأول: غي دو لوزينيان، المتحدر من أفعى، والمطرود من بواتو، واللاجىء والمخادع، يصبح الآن سيداً ليافا وعسقلان. ومنذ زواجه سنة 1180م من سبيلا؛ فإنّ غي دو لوزينيان ظلّ مغموراً بسيول الحظّ. فقد كان ملك القدس وقتها بولدوين الرابع، وهو قائدٌ ذكيٌّ وحكيم، لكنّ سوء الحظّ رماه بداء الجُذام، الذي شوّه خِلقَتَهُ ثم أعماه وقضى عليه في النهاية؛ دون أن يترك أعقاباً. وعندما ظهر غي دو لوزينيان على المسرح كانت حالة الملك بولدوين تسوءُ من سنة لأخرى. وكان وريثه على العرش ابن أخيه المريض والمخلَّف في طفولته. وبين مرض الملِك وعدم بلوغ الطفل، عُيِّنَ غي دو لوزينيان سنة 1184م وصياً على العرش؛ فقبض بذلك على زِمام الأمور. وقد أدّى هذا التعيين إلىٰ شرعنة وضعه، كما رفَع ذلك من مقامه. بيد أنّ الغضب بين النبلاء المحليين لرِفعة هذا الدخيل كان عنيفاً، وأدّى إلىٰ شلّ الجيش. وسرعان ما بدا جُبْنُهُ في المواجهات مع المسلمين في ربيع توبانيا فعُزل عن الوصاية، لكنه لم يفقد حقّه في العرش. ولذلك فقد ارتفعت أصواتٌ تطلب من سبيلا أن تُطلِّقَهُ، وتتزوج رجلاً أكثر كفاية. وفي حروب الوراثة، كان خصمه على القيادة والحب النبيل الآخر الكونت ريموند Raymond نفسه.

مات الملِك المجذوم سنة 1185م. كما مات الوريث الضعيف في السنة التالية. وعلى الرغم من أنّ غي كان مكروهاً من جانب البارونات، وأنّ ريموند كان أدنى تقنياً من العرش؛ فإن غي استطاع أن يشقّ طريقه بمهارةٍ إلىٰ سرير

المُلْك. ومرةً أخرى جرت مراسمُ سريعةٌ أُلبس خلالها غي دو لوزينيان أردية المُلْك في القصر الملكي، ثم أسرع إلىٰ كنيسة القيامة من أجل التثبيت من جانب بطريرك القدس. وفي أقدس مكانٍ مسيحي وُضع التاج على رأس الملكة سبيلا. ثم قال لها البطريرك نافذ الصبر كأنْ لم يُطِقْ سماع إجابتها: «سيدتي، إنكِ فائقة المجد. وقد يكون ملائماً أن تجدي (المستشارين) الذين يستطيعون معاونَتَكِ في حكم مملكتك؛ أياً يكن هؤلاء! خذي هذا التاج وأعطيه لأي رجلٍ يستطيع مساعدَتَكِ أكثر في حكم مدينتك!». بهذه الطريقة نحّى البطريركُ عن نفسه أية مسؤوليةٍ قد تنجُمُ عن سوء اختيارها. وطبعاً؛ فإنها وضعت التاجَ على رأس حبيبها غي. ومن هناك مضى الحبيبان الملكيان إلىٰ جبل الهيكل لإقامة وليمةٍ احتفاليةٍ لنبلاء وشخصياتٍ مختارة. وبهذه السرعة التي بلغت حدود التسرّع، صار غي دو لوزينيان ملكاً في أواسط سبتمبر سنة 1186م.

قال بارونٌ غاضب: «لن يحكم أكثر من سنة واحدة». لكنّ البواتيڤين Poitevins (الأوروبيين، القادمين الجدد) من حول غي كانوا شديدي السرور. فالبواتيڤين صاروا الآن في مواجهة البولين (الفاتحين القُدامى). وقد أُعطوا الاسم الموحي: الفرسان الأُصلاء! وسارع البواتيڤين في بلاط الملك غي إلىٰ تعيير البولين بالأنشودة التالية:

Maugré Li Polein
Avrons nous roi Poitevin

لقد أحدثت هذه السخرية المختالة والمُزعجة: «على رغم أنف البولين، نريد أن يكون ملكُنا من البواتيڤين» مشاعر سُخْطٍ ظلّت لأمدٍ طويل. ثم إن الملك الجديد على مملكة القدس، لم يستطع استعادة احترام نبلائه الساخطين.

الفصل الثالث

الزنــاد والشــرارة

I

في زمن التوراة؛ كانت قلعة الكرك العاصمة القديمة لمملكة المؤابيين. وما كانت بعيدةً كثيراً عن البلدة المعروفة باسم رابوث Rabboth والتي كانت معروفةً بينابيعها الثلاثة التي تَسقي حصنَها. لكنها كانت معروفةً أكثر بأنَّها المكان الذي حدثت فيه قصة الملك داود مع أوريا الحثِّي.

كانت الكرك من موقعها ذاك تسيطر على طريق التجارة والحج، وتستطيع التصدي للجيوش التي تُحاولُ المرور بعُنُق الزجاجة ذاك. أما الحصن فكان مدينةً حقيقيةً مسوَّرة، مبنية على سبع تلال، مع حي علوي وآخر سفلي. وترتوي القلعةُ نفسُها من ثلاث عشرة بركة، وتحميها حاميةٌ مؤلَّفةٌ من ألف ومائتي جندي، تملك عدة أروقةٍ، واصطبلات، ومخازن، وثكنات، ودهاليز، ومعصرة شراب، ومطبخ له عدة مسارب، كما كان هناك سوقٌ للقلعة والحصن. وفي داخل أسوار الحصن الضخمة بُنيت مخازن للمؤن تستطيع إمداد المدينة بالغذاء لمدة سنةٍ كاملة. أعاد الصليبيون تشييد القلعة على القواعد

الرومانية القائمة، قبل خمسين سنة (من وصول صلاح الدِّين إلىٰ السلطة بمصر والشام). وقد كان البناءُ سريعاً بحيث لم يستغرق أكثر من ست سنين، وعلى أيدي عمّال محليين وعبيد. وظلَّ طِرازُ البناء بيزنطياً. أما النتوء الكبير للحصن من الجهة الجنوبية فقد أُحيط بسورٍ عالٍ له عدة شُرُفاتٍ تمكّنُ من المراقبة والدفاع. وهكذا صارت الكرك أفضل نماذج الهندسة العسكرية في القرن الثاني عشر. وقد كان موقع الحصن على رأس سفح يؤدي إلىٰ وادٍ يسير منخفضاً باتجاه البحر الميّت، مُمَكِّناً من السيطرة على كلّ المواصلات من البحر الميّت وإليه، في الوقت الذي يشرفُ فيه على الطريق المَلَكية الرومانية القديمة التي يتضاءل اتّساعُها بحيث تُصبح مضيقاً عند الوصول إلىٰ جانب القلعة والحصن.

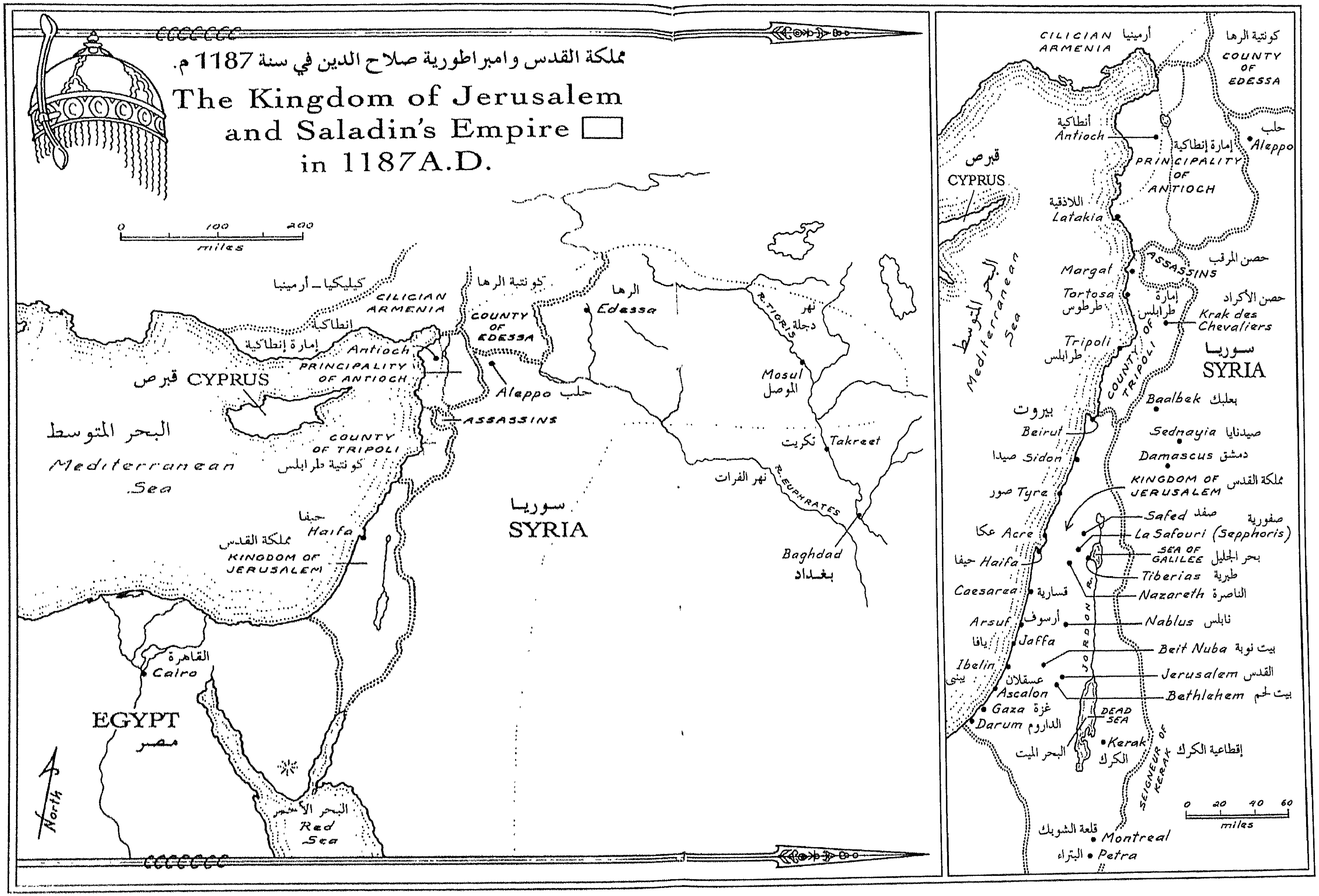
وإلىٰ جانب الموقع الاستراتيجي للحصن؛ فإنّ المنحدرات الرأسية الشاهقة حمته من ثلاث جهات. أما الجهة الشرقية التي لا انحدارَ فيها؛ فقد كانت أسوارٌ مرتفعةٌ تحمي منها، ويخترقها جسرٌ ـ يمكن سحبُهُ ورفْعُهُ هو المدخل الوحيد إليه. وقد سُمّي الحصن «حصن الغُراب» لأنه يشرف بشكلٍ تهديدي ومباشر على الطريق المَلَكية، ولأنّ موقعه واستعداداته تجعلُ الاستيلاء عليه مستحيلاً تقريباً. وقد جرَّب صلاح الدِّين ذلك مرتين. ففي سنة 1173م جمع قواتِهِ كلَّها حول الحصن، ثم اضطر لسحبها بعد أيام قليلةٍ على بدء الحصار. وحاول ثانيةً سنة 1184م. وكانت علة معاودته ما قاله كاتبه ومؤرّخ بلاطه بهاء الدِّين (ابن شداد)[1]: «كان على المسلمين منه (الحصن) ضررٌ عظيم. فإنه كان يقطعُ عن قَصْدِ مصر بحيث كانت القوافلُ لا يمكنها الخروج إلاَّ مع العساكر الجمّة الغفيرة. فاهتمَّ السلطان بأمره لتكون الطريق سابلةً إلىٰ مصر...». بيد أنّ هذه الحملة فشلت أيضاً؛ ولم تؤثّر في شيءٍ إلاَّ في زيادة شهرة صلاح الدِّين، الذي قيل إنَّه رفع حصاره عن الحصن لأنه بلغه أنّ

(1) ابن شدّاد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، جمال الدين الشيّال، تحقيق جمال الدين الشيّال، ص 66.

احتفالاتٍ بعُرسٍ تجري فيه (فأراد أن لا يُزعجَ المحتفلين!). على أنّ صلاح الدِّين الشديد الانزعاج لهذه الخيبة سارع بالانسحاب إلىٰ دمشق مخرِّباً بلدة نابلس في طريقه، ولم يعد إلىٰ فلسطين بعد ذلك (حتى كانت وقعة حطين).

أدرك صلاح الدِّين جيداً الأهمية الاستراتيجية لحصن الكرك الذي كان يتصدرُ على الطريق بين جزأي مملكة السلطان الجديدة والمتكونة من مصر والشام. فما لم يمكن الاستيلاءُ على الحصن؛ فإنّ التنسيق بين قسمَي المملكة في أي حملةٍ على الصليبيين سيكون شديدَ الصعوبة. فقد كان هدفُ صلاح الدِّين الهجوم على الفرنجة من ناحيتي مصر والشام ودفع هؤلاء الكفرة بالتدريج نحو الشريط الساحلي وصولاً إلىٰ رميهم في البحر (ليعودوا من حيث أَتَوا). ومن أجل ذلك كلِّه فقد كان صاحب حصن الكرك أهمَّ لوردات المملكة الصليبية، في نظر صلاح الدِّين، كما في نظر الصليبيين أنفسهم.

في سنة 1187م كان حاكم الكرك هو ريجنالد دو شاتيّون Reginald de Châtillon. وكان ذلك الرجل مكروهاً أشدَّ الكُره من كلِّ مسلمي العالم. وشأنه في ذلك شأن أبناء النبلاء الثَّواني، كان ريجنالد بدون إقطاعٍ أو ثروة. وقد جاء إلىٰ الشرق في سنة 1147م مع الحملة الصليبية الثانية مغامراً، وباحثاً عن حظٍ وسلطة، وليس من أجل غاياتٍ روحية. لقد كان أحد صغار النبلاء من شمال فرنسا، ويملك طموحاتٍ كبيرة. وقد بدأ بحثه عن الحظ والثروة بإغواء أميرة أنطاكية المترملة حديثاً. كانت السيدة من أُسرةٍ ملكيةٍ حقاً، لكنها كانت مستهترةً وباحثةً عن المسرّات. وهكذا نشب نزاعٌ من حولها لاختيارها الزواج بفارسٍ هو أدنى منها منزلة. فقد أزعج ذلك أهل أنطاكية، كما أزعج ملك القدس، وبطريرك أنطاكية. بيد أنّ سيّد أنطاكية، أكثر مدن المشرق ثراءً، سُرعان ما أنهى التحالف القائم ضدّه. فقد رفض بطريرك المدينة تمويل الحملة الصليبية على جزيرة قبرص التي كانت تحت الحكم البيزنطي. احتجز ريجنالد البطريرك،



مملكة القدس وامبراطورية صلاح الدين في سنة 1187 م.
The Kingdom of Jerusalem and Saladin's Empire
in 1187A.D.
0 100 200
miles
كيليكيا ـ أرمينيا
CILICIAN ARMENIA
كونتية الرها
COUNTY OF EDESSA
الرها
Edessa
أنطاكية
إمارة إنطاكية
Antioch
PRINCIPALITY OF ANTIOCH
قبرص CYPRUS
Aleppo حلب
ASSASSINS
البحر المتوسط
Mediterranean Sea
COUNTY OF TRIPOLI
كونتية طرابلس
حيفا
Haifa
مملكة القدس
KINGDOM OF JERUSALEM
سوريا
SYRIA
R. TIGRIS
نهر دجلة
Mosul
الموصل
تكريت
Takreet
نهر الفرات
R. EUPHRATES
Baghdad
بغداد
القاهرة
Cairo
EGYPT
مصر
البحر الأحمر
Red Sea
North
CILICIAN ARMENIA أرمينيا
كونتية الرها
COUNTY OF EDESSA
أنطاكية
Antioch
حلب
Aleppo
إمارة إنطاكية
PRINCIPALITY OF ANTIOCH
قبرص
CYPRUS
اللاذقية
Latakia
Margat
حصن المرقب
ASSASSINS
Tortosa
طرطوس
إمارة طرابلس
حصن الأكراد
Krak des Chevaliers
البحر المتوسط
Mediterranean Sea
Tripoli
طرابلس
COUNTY OF TRIPOLI
سوريا
SYRIA
Baalbek بعلبك
بيروت
Beirut
Sednayia صيدنايا
صيدا Sidon
Damascus دمشق
صور Tyre
KINGDOM OF JERUSALEM مملكة القدس
Safed صفد
صفورية
عكا Acre
La Safouri (Sepphoris)
SEA OF GALILEE بحر الجليل
حيفا Haifa
Tiberias طبرية
Caesarea قسارية
Nazareth الناصرة
Arsuf أرسوف
Nablus نابلس
يافا
Jaffa
Beit Nuba بيت نوبة
Ibelin
يبنى
Jerusalem القدس
عسقلان
Ascalon
Bethlehem بيت لحم
JORDAN R.
Gaza غزة
DEAD SEA
Darum الداروم
Kerak
الكرك
البحر الميت
إقطاعية الكرك
SEIGNEUR OF KERAK
0 20 40 60
miles
قلعة الشوبك
Montreal
البتراء
Petra

وجرَّدهُ من ثيابه، ثم طلى جسده بالعسل ونصبه في الشمس (ليلتهمه الذباب وتنهشه الحشرات). وهكذا انهار البطريرك وفتح خزائنه إعداداً للغَزاة. وقد أخافت هذه الحادثة ملك القدس إلىٰ حدّ إرسال رسولٍ إلىٰ ريجنالد لتهدئته ومصالحته. وفي غزوة قبرص ذاتها ثبَّتَ ريجنالد شهرته بممارسة العنف البربريّ وغير المُسوَّغ. فقد أقبل هو وجنودُهُ على اغتصاب النساء، وتشويه أجساد الخصوم، ونهب سائر سكّان الجزيرة وتخريبها. وأخيراً، في سنة 1160م سقط هذا الرجُلُ المتوحِّش في كمينٍ لجنودٍ مسلمين عندما كان منهمكاً في سرقة الماشية، وأُلقيَ به في سجن قلعة حلب. وقضى ريجنالد في الأَسْر أربع عشرة سنة. لكنْ في سنة 1176م أُطلق سراحُهُ بعد أن دُفعت فديةٌ ضخمةٌ عنه قدْرُها اثنا عشر ألف دينار. وبدلاً من أن يُحس بإحساسات عرفان الجميل تُجاهَ آسريه ومُطلقيه؛ ازدادت كراهيتُه للمسلمين، وازداد حرصُهُ على إنزال الأذى بهم بمسوِّغ وبدون مسوِّغ. وكانت زوجتُهُ الأولى الأنطاكيَّة قد توفيت خلال وجودِهِ في الأَسر؛ فوجد في النبيلة ستيفاني Stephanie، وارثة إقطاعية الأردنّ، أرملةً أُخرى من هِبات الحظّ. وعن طريق الزواج بها حصل على حصني الكرك ومونتريال (الشوبك)، وبالتالي السيطرة على الإصبع الجنوبي من المملكة المسيحية، على الطريق إلىٰ العقبة والبحر الميّت.

انصرف هذا الفارس المجنون إلىٰ اصطناع إقطاعيةٍ مستقلّة في صحراء جلعاد. وكان أسلوبه في حكم الكرك مكروهاً بسبب قسْوتِهِ الوحشية. ويقالُ إنه كان يقطع رؤوس ضحاياه، ويضعُها في صندوقٍ خشبي، بحيث يُسْمَعُ وَقْعُها على الصخور عندما يرمي بها من أعلى القلعة. أمّا على خاتمه فقد كانت هناك صورةٌ للوحش الخُرافي المكوَّن من رأس نَسْرٍ وجسدِ أَسَد، مع نقشٍ يُطري فضيلة **التحضُّر**! . وبالنسبة لملوك القدس، فإنّ هذه الريحَ الوحشية كانت عصيّةً على الضبط والسيطرة. لكنّ ريجنالد، من ناحيةٍ أخرى، كان مشاركاً بقوةٍ في صراعات القوى بالقدس، ومتحالفاً مع الرهبانية العسكرية القوية هناك، رهبانية

فرسان الهيكل. وكان يشارك زملاءه الأوروبيين في معاركهم ضد المسلمين عندما يرى ذلك مُناسِباً. ففي هزيمة صلاح الدِّين الكبرى سنة 1177م في المستنقعات القريبة من تلَّة الصَّافية(1)، كان إسهامُهُ بارزاً. بيد أنّ معاركه وخصوماته التي كان يقومُ بها على انفراد هي التي جذبت الانتباه إليه، وهي التي أكسبتْه على الخصوص عداوةَ صلاح الدِّين القاطعة. وقد أتى ريجنالد أكثر الأعمال إثارةً وشذوذاً في سنتي 1182 ـ 1183م. فقد قادته تصوراته السوداوية إلىٰ رسْم خطّةٍ لمهاجمة قلب الإسلام ـ المدينة ومكّة، الأكثر قداسةً بين المدن في نظر المسلمين ـ متوعداً بتلطيخهما بالعار والشنار قبل تدميرهما. فقد تباهى بأنَّه يريد إخراج النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم «سائق الجَمَل» من قبره! ثم إنه يريد أن يهدم الكعبة التي يتجه إليها المسلمون في صلواتهم، وحجرها الأسود المقدَّس، من الأساس.

في الكرك، انصرف شاتيّون لبناء أُسطولٍ من السفن الحربية. ثم حمل تلك السفن إلىٰ البحر الميت من أجل تجربتها. وبعد ذلك أعاد تفكيكَها من جديدٍ وحَمَلَها على الجمال مسافة مائةٍ وثلاثين ميلاً إلىٰ الجنوب من إيلات، إلىٰ جزيرة أيكة المكان الأقرب من ناحية الشمال إلىٰ البحر الأحمر والحجاز. هناك أعاد ريجنالد تركيب السفن، وأبحر بها في البحر الأحمر ناهباً ومدمِّراً القرى على الشاطئين المصري والحجازي. وقد أثار ذلك موجةً من الرعب والغضب في العالم الإسلامي، الذي بقي ردُّ فعله بطيئاً على أيّ حال. لكنْ أخيراً، وعلى بُعْدِ عدة أميالٍ وحسْب من المدينة، أمكن لأخي صلاح الدِّين وأتباعه من البدو، أن يُدركوا القراصنة ويهزموهم. أمّا شاتيّون فقد استطاع

(1) يسمّي المؤرخون تلك الوقعة **«وقعة الرملة»** (مفرج الكروب 2/ 58، وابن شدّاد: سيرة صلاح الدين، ص 53). ويسمّي ابن واصل (مفرج الكروب، ص 59) التلّ تل الصافية. ويصفه ابن شدّاد (ص 53) بأنه تل معروف بأرض الرملة دون تسمية. بينما يسميه هاملتون جب (صلاح الدين، تحرير يوسف ايبش، المؤسسة العربية، بيروت، 1973، ص 129): تل جزر. ويبدو أن المؤلف (رستون) أخذ التسمية من هناك لأن اسمه عنده Mont Gisard.

الهربَ دونما تأذٍّ عائداً إلىٰ مؤاب. وأمّا فرسانُهُ وأتباعُهُ فقد دُفعوا إلىٰ الوراء، وأُسروا، وأُخذوا إلىٰ القاهرة، حيث جرى قَطْعُ رؤوسِهِم. وبسبب هذا العمل المُشين والفظيع من جانب شاتيُون نَذَرَ صلاحُ الدِّين أن يقبض على ريجنالد، وأن يقطع رأسَهُ بيده. هكذا صار صاحبُ الكرك شُغْلَ السلطان الشاغل. وقد قضى السنتين التاليتين محاولاً أن يُزيلَ هذا التهديد. وفي الوقت نفسه فإنّ خليفةَ بغداد أصرّ على انتقاد السلطان لأنه لم يستطع حمايةَ طريق الحج إلىٰ مكّة. وقد آلم ذلك صلاح الدِّين. ولذلك فإنّه في جوابه الدفاعي حاول تغييرَ الموضوع، ولفْتَ الانتبَاه إلىٰ أحداث تمردٍ ضدّه في بلاد ما بين النهرين: «**لقد أدهشَنا** أنه عندما كنّا ندفعُ عن قبر النبي سلامُ الله عليه، وكنا منصرفين تماماً لذلك؛ فإنّ صاحب الموصل كان يُنكرُ علينا ما هو من حقّنا من البلاد، ويحاول أخْذَها بدون حق..». بيد أنّ غارة صلاح الدِّين على الكرك بعد سنتين كانت فشلاً أيضاً. لذلك فقد عاد إلىٰ دمشق، وبعث رُسُلاً للتفاوض مع الخصوم المسيحيين على هدنة: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ...﴾ [سورة الأنفال: 61]، هكذا نصح القرآن. وبذلك فقد اضْطُرّ السلطان لانتظار فرصةٍ أُخرى، واستفزازٍ آخرَ. وما كان عليه أن ينتظرَ طويلاً.

II

القافلة

مع آخِر ضربة طبلٍ لأمير القافلة، في ذلك الشتاء من سنة 583هـ/ 1187م خرجت الجِمال المحمَّلة والمثْقَلَة، في قافلةٍ طويلةٍ من القاهرة باتجاه دمشق على الطريق القديمة عبر شرق الأردن. وكانت القافلة تحمل ذخائر وسلعاً ثمينةً كثيرة: حرير فاخر، ومصنوعات معدنية بمحفوراتٍ ورسوم رائعة، وخزفيات، وأفاوية وتوابل، ومقادير من الذهب والفضة. ولأنهُ كانت هناك بين

صلاح الدِّين وملك المسيحيين بالقدس، معاهدة انعقدت قبل سنين؛ فقد كان معروفاً أنه يمكن الاطمئنان لمرور القوافل بطريق الأردنّ. ولذلك فقد رأى أمير القافلة أنّه لا حاجةَ، في الحقيقة، للحراسة الكثيفة والقوية، على الرغم من أنّ القافلة كانت فيها شخصيةٌ مهمة: أخت صلاح الدِّين!

عبرت القافلة صحراء سيناء إِلىٰ جنوب البحر الميّت على طول الطريق الذي اجتازه (النبي) موسى بعد أن عبر البحر الأحمر. وكان الركْبُ يسري ليلاً على ضوء المشاعل التي يحملُها المُشاة. ووصلت الجماعة إِلىٰ الرقيم المذكور في القرآن باعتباره يتضمن الكهف الذي أوى إليه النيامُ السبعة. ثم جرت متابعةُ السير والسُرى مروراً بالمدينة النبطية القديمة والرائعة المعروفة بالبتراء. ويقال إنه في هذا الموضع ضرب موسى بعصاه الصخر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً. وفي هذا المكان بالذات أخلد الركْب للراحة لبضعة أيام.

في البتراء واجه المصريون أول حصنٍ من تلك السلسلة من قلاع الفرنجة الحصينة، والتي تمتد من البحر الأحمر إِلىٰ شمال سورية. كانت قلعة البتراء الصليبية تشرف على الطريق التجارية المارّة بالبتراء حيث كان التجار العرب يتجمعون ويستريحون في تلك الكهوف المنحوتة في الصخور الرملية السمراء، وحيث تقوم تلك العقود الرائعة والمعابد والأضرحة، من آثار حضارةٍ مفقودةٍ، تحضنهم وتظلّلهم. كان الصليبيون يمتلكون هناك قلعةً صغيرةً ومنارةً للاستماع والمراقبة على تلةٍ مرتفعةٍ تُسمّى «**الحبيس**». وعلى مبعدة ميلٍ من البتراء كان هناك حصنٌ أكبر يسمّى «**الوعيرة**»، يشرف على الوادي الذي يسمّيه العرب وادي موسى. وكان ذلك الحصن هو الثكنة الرئيسية في المنطقة، وتعسكر فيه حاميةٌ قويةٌ من فرسان الهيكل. وازدادت القافلة المصرية اغتباطاً بمغادرة البتراء ومُجاوزة حصن الوعيرة بدون مقاطعة أو حادث؛ فانطلقوا سائرين في طريق الحجّ القديمة التي يعرفونها جيداً. كان هذا القسم من طريق الحج الأسطوري الممتد بين دمشق ومكة معروفاً أيضاً من قديم الزمان بالطريق الملكية. فقد

سمّاه (النبي) موسى بذلك عندما كان يتفاوض مع الأدوميين عبثاً ليمكّنوهُ من المرور في طريقه إلىٰ الأرض الموعودة. قال موسى: «سنمضي في جادّة الملك؛ ولن نلتفت يميناً ولا يساراً إلىٰ أن نُجاوزَ تخومَكم». بيد أنّ الأدوميين لم يتزحزحوا عن موقفهم. وهكذا حُبس هناك لمدة أربعين سنة. ومضت القافلة لمسافة ثلاثين ميلاً إلىٰ الشمال مجتازةً بالحقول الغنية بالحبوب والزيتون والعنب، التي تتوّجُها «**قلعة الشوبك**»، التي كان الأوروبيون يسمونها «**مونتريال**». وكانت تلك القلعة أكثر ضخامةً من الوعيرة، وقد استولى عليها بلدوين الأول عندما كان يبسط سيطرة الحملة الصليبية الأولى، ويؤسّس للسلالة الأوروبية في الأراضي المقدّسة. وهكذا أُضيفت القلعة إلىٰ الممتلكات المسيحية في سنة 1115م.

سارت القافلةُ بدون اعتراضٍ أو إزعاج مروراً بقلعة الشوبك أيضاً. وعبرت وادي الحسا الذي كان يشكّل الحدود الفاصلةَ بين مملكتي أدوم ومؤاب القديمتين. ثم دخلت برية مؤاب حيث قضى موسى وقومه أربعين سنة ينتظرون دخول الأرض المقدّسة. ومن هناك لناحية الغرب في الأفق المتوهج يقع البحر الميت، البحيرة القذرة، كما يسميه العرب، وبحيرة سدوم وعمورة؛ حيث لا يسبحُ فيه كائنٌ حيٌّ، ولا يستطيع طيرٌ أن يحلّق فوقه.

أخيراً وصلت القافلة إلىٰ ناحية الكرك الخطِرة. وقد كان حجمُ الحصن هناك أربعة أضعاف حجم حصن الشوبك؛ ومُشرِف على جادة القوافل بطريقةٍ مهدّدة. وهناك في ظلال الحصن، وعلى طريق الحج، هُوجمت القافلة من جانب الفارس الأسود، وأُخذت الجمال والمواشي، وقُتل الحراس، وأُخذ جميع المسافرين أسرى ـ بمن فيهم أخت صلاح الدّين ـ، وجُلبوا إلىٰ حصن الغراب. وعندما احتجّ الأسرى على خرق اتفاقية الهدنة، صرخ شاتيّون في وجوههم: دعوا محمّداً يأتي فيخلّصكم! ووصل الخبر إلىٰ صلاح الدّين مع العبارة الشنيعة التي قالها شاتيّون، فتحوّل غضبه إلىٰ عزيمةٍ وتصميم. ولجأ هذه

المرة أيضاً إلىٰ مصحفه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: 60]. لقد هاجم الصليبيون بلاده، وقطعوا طريق الحج إلىٰ مكة. والآن قام هذا المجنون بالكرك بأسر أخته، وأهان نبيّه. أرسل صلاح الدِّين رسالةً إلىٰ شاتيون قال له فيها: «أين العهود والمواثيق؛ أعِدْ ما أخذْتَه!». لكنّ شاتيّون نحّى الرسالةَ بغضب. وهكذا جدَّد السلطان وعده ونذره أنَّه إذا مكّنه الله سبحانه من هذا الشرير فإنه سيقتله بيديه. وبعث السلطان رسولاً أيضاً إلىٰ ملك القدس المتوّج حديثاً محتجاً وغاضباً: ذكّره السلطان بالعهد والهدنة التي انعقدت مع سَلَفِه. وطلب إعادة القافلة وما فيها من متاعٍ وثروات، وإطلاق سراح الأسرى. ولقي السلطان إجابةً مُرْضية؛ فتصرف شاتيّون صدم الملكَ الجديد، وهو يريد من شاتيّون التعويض والاعتذار. لكنّ شاتيّون رفض تسليم غنائمه. فقد أجاب على تلك المطالبات بالقول: «كما هو سيد بلاده، فكذلك أنا سيّد بلادي. ولا عهدَ بيني وبين العرب». وبذلك فإنه بعملٍ فرديٍ كهذا، انقسمت المملكة الضعيفة إلىٰ شطرين، واشتدَّ غضب السلطان القوي.

رفعت فظاعة شاتيّون الأخيرة من سمعة صلاح الدِّين في سائر أنحاء مملكته ودعمت حقّه في الردّ على العدوان الذي وقع عليه. فقد جاء في القرآن: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: 62].

وبدأت تداعياتُ ذاك الحدث تتوالى.

الفصل الرابع

الأمير ريتشارد

كانت دوقية أكيتان Aquitaine في العصور الوسطى تنبسط في وسط فرنسا، وتمتد ما بين نهر اللوار في الشمال وحتى جبال البيرينيه في الجنوب. وكانت تلك الإقطاعية غنيةً بحقولها الخصبة، وينابيعها الثَّرَّة (بما في ذلك نهر الغارون)؛ ولهذا فإنّ اسمَها الوسيط مأخوذٌ من الكلمة اللاتينية أكوا aqua، أي ماء. وإلىٰ جانب ذلك فقد كانت غنيةً بالغابات التي كان حكّام الدوقية العريقون يصطادون فيها، والذين يمتدُّ تاريخ أُسرتهم النبيلة والحاكمة إلىٰ حدود سنة 660م. أمّا تاريخُ المقاطعة فحافلٌ بالأحداث والتحولات بسبب الأمزجة القوية والمستقلّة والرومانسية لشعبها. ومن أجل ذلك يقول رالف أُوف ديستو Ralph of Diceto، وهو كاتبُ حولياتٍ من القرن الثاني عشر الميلادي: «عندما يقوم الأكيتانيون بإخضاع أعدائهم فإنهم يفعلون ذلك بقسوةٍ وشدَّة. لكن عندما تنتهي الأعمالُ الحربيةُ ويعودُ السلام؛ فإنَّهم ينصرفون وبالحماسة ذاتها للهو وإمتاع النفس».

كان ويليام William التاسع دوق أكيتان فيما بين سنتي 1087 و1127م؛ ممثلاً حقيقياً لتلك الروح الجريئة والشاعرية للأسرة النبيلة. كما كان مقاتلاً كبيراً في الحملة الصليبية الأولى، التي أسّست المملكة الصليبية في القدس. لكنّه

بعد نهاية المعارك صار أولَ شعراء ومغنّي التروبادور، بادئاً بذلك تقليداً استمرّ مائتي سنة في جنوب فرنسا، وحفل بالشعراء والمنشدين الذين تجوَّلوا في تلك الأصقاع يغنّون للحب وفَقْد الحبيب والشوق إليه بلسانهم المحلّي المعروف باسم اللانغ دوك Langue D'oc. وفي الحقيقة فإنّ ويليام بعد عودته من الأراضي المقدَّسة انشغل تماماً بتلك الأعمال والغنائم الأقلّ دلالةً على البطولة، لكنَّها الأكثر إرضاءً للقلب والمشاعر، متأثِّراً في ذلك بأشعار الغزل العربية التي سمعها في الشرق، ومُحوِّلاً بذلك أكيتان إلىٰ مركزٍ للثقافة والفن في أوروبا. وهناك قولٌ خبيثٌ شاع عن ويليام آنذاك مؤداه أنه «يعرف جيداً كيف يغنّي ويُنشد الأبيات المُطْرِبة». وأنه «قضى وقتاً طويلاً يسرح في البلاد ليخدعَ بأغنياته الغواني». بيد أنَّ الدوق الذي كان قادراً على أسْر قلوب السيدات، وعلى إنتاج الثقافة والفنّ؛ كان أقلّ توفيقاً في السيطرة على أتباعه (من الإقطاعيين الصغار)، وعلى إرغامهم على الخضوع له. فقد كان الڤيكونتات من ليموج وفولغرن وأنغولام، واللوردات من لوزينيان وتيللبورغ، والكونتات من لامارش وتولوز، في خصام شبه دائم؛ بل وفي تمردٍ مستمرٍ على سيدهم الإقطاعي المقيم في بواتييه Poitiers. ومن جهةٍ أخرى؛ ففي الوقت الذي لم يكن فيه هؤلاء على وفاقٍ مع سيّدهم ببواتييه؛ فإنّ الدوقَ نفسَهُ كان أيضاً في غالب الأحيان في خصومةٍ مع ملك فرنسا، الذي كان الدوق، وكانت دوقيته تحت سيطرته الاسمية. على أنّ سنة 1137م شهدت محاولةً معتادةً للإصلاح بين العرش الفرنسي، ودوقية الجنوب الغنية. وقد استُعملت في تلك المحاولة الأداة الأكثر قابليةً للنجاح في ذلك الزمان: الزواج الملكي! ففي تلك السنة تزوج ابن الملك لويس السمين ـ وهو فتىً في السادسة عشرة من العمر، شاحب اللون، خائر القوى، ووليّ لعهد فرنسا بلقب لويس السابع ـ ابنة ويليام التاسع دوق أكيتان. كانت أليانور Eleanor الأكيتانية فتاةً في الخامسة عشرة من عمرها، رائعة الجمال، صَبوحة الوجه، يتوسطه فمٌ يقال إنه كان في فتنة وروعة براعم التفّاح. بيد أنّ أكثر ما ميّزها على الجميلات الأُخريات كان إشراقة قسماتها، وعلمها

الغزير، وقوة شخصيتها. وكان لاجتماع هذه الصفات في العروس أنْ يُثبِتَ أنها تفوق قدرات لويس الشاحب على الضبط والسيطرة. لكنْ لمدة خمس عشرة سنة حلَّ سلامٌ من نوعٍ ما بين ملك فرنسا ودوق أكيتان؛ إذ صار ملكُ فرنسا سيداً وكونتاً على أكيتانٍ، كما صارت دوقة أكيتان الملكةَ القاهرةَ لفرنسا كلّها!

خلال خمس عشرة سنة من الزواج الملكي أنجبت الملكة إليانور ابنتين. بيد أنّ تربية الأولاد ما كانت ضمن اهتماماتها. لذلك، وبعد سقوط الرُّها في أيدي المسلمين سنة 1146م، ذهب ملك فرنسا مع زوجته أيام الفصح إلىٰ فيزيلي، حيث جثيا جنباً إلىٰ جنبٍ أمام المذبح المنصوب في العراء في مواجهة رجل الدين الكبير القديس برنارد أُوف كليرڤو، الذي جعلته شخصيته الجذابة الزاهدة، وحماستُه المؤثّرة، وخطاباتُهُ النارية، الداعية الأكبر للحرب الصليبية الثانية، ورجل الدعاية الرسمي للفاتيكان، يَعِدُ باسمه بغفران الذنوب وبالفردوس أولئك الذين يسارعون إلىٰ الخدمة المقدَّسة في ساحة القتال. تحدّث برنارد عن «الفروسية الجديدة» التي تتضمّنها الخدمة في الحرب المقدَّسة من أجل الصليب. إنهم مباركون، أولئك الذين يُدْعَون في سنة اليوبيل: «افرح، أيها المحارب الشجاع، إذا عشتَ وانتصرتَ وفتحتَ باسم الرب. لكن ليشتدَّ بكَ الجَذَل، ولتشكر ربك أكثر إذا مِتَّ وذهبتَ إلىٰ جوار الله. إنّ الدنيا يمكن أن تكون مثمرة، والنصر يمكن أن يكونَ ماجداً. بيد أن الموت من أجل العدالة والحق هو الأكثر قيمة. مبارَكون أولئك الذين يتفانَون في الله. أما الأكثر رحمةً وبركةً فأولئك الذين يموتون في سبيله».

قام لويس السابع وإليانور أُوف أكيتان من ركوعهما حاملَين الصليب، فتصاعدت الصرخات من كلّ الأنحاء: إلىٰ القدس! وانصرف شبانٌ متحمّسون إلىٰ توزيع صلبانٍ صغيرةٍ هدايا للمتجمهرين. لقد أتى نبلاءُ الفروسية الجديدة من سائر أنحاء أوروبا: «يشتعلون حماساً وتقودهم التقوى». بيد أنه ما كان مقدَّراً للويس وإليانور أن يذهبا إلىٰ القدس من أجل المجد، بل من أجل العار

في تركيا والإذلال في دمشق. ولسنواتٍ بعد الكارثة ظلّ رجّالة المقاتلين الصليبيين يتذكرون بسخطٍ وانزعاج مشهد إليانور ممتطيةً صهوة جوادها بكامل عُدَّتها الحربية، يحيط بها الفرسان الصليبيون، وتتبعُها جواريها وخَدَمُها وخطٌّ طويلٍ من البغال الحاملة لأثقال أمتعتها. وتلت ذلك فضيحةٌ أخرى أشنع خيّمت على الحملة الصليبية الثانية كلّها. فقد شاع أنّ إليانور المنصرفة إلىٰ أهوائها، عندما وصلت إلىٰ أنطاكية، وكانت وقتها في الخامسة والعشرين من العُمُر، انهمكت في غَزَلٍ مُشينٍ مع عمّها ريموند الأنطاكي انتهى بها في سريره. ومن أجل ذلك فإنّ زوجَها البائس لويس وضعها تحت حراسةٍ مشدَّدةٍ طَوالَ ما بقي من شهور الحملة الصليبية. وهكذا استقرّ في أذهان العامّة أنّ فَشَلَ الحملة الصليبية الثانية، يعود إلىٰ معاصي إليانور، التي صارت الشاةَ السوداءَ لتلك الحملة المهزومة. وبعد سنواتٍ قليلةٍ، عقِبَ العودة إلىٰ فرنسا، حدث الانفصالُ بين لويس وإليانور بحجّةِ أنّها لم تلد له مولوداً ذكراً يكونُ ولياً للعهد (مع أنّ الراجح أنّ الذنب في ذلك يعود للويس الورِع، وسلوكه إزاء زوجته بعد السنوات الأولى من الارتباط). لكنّ الطلاقَ كان مُكْلفاً لفرنسا. فمع رحيل إليانور دوقة أكيتان، عادت المقاطعة للانفصال عن مملكة فرنسا.

في سنة 1152م تزوجت إليانور ثانيةً من هنري الثاني Henri II ملك إنكلترا، وانضمّت بذلك دوقية أكيتان إلىٰ المملكة الإنكليزية. كان هنري الثاني رجلاً قويّ الجسد، شديدَ القسوة، وواسع الطموح، ويستطيع أن يقودَ نسبه إلىٰ نوحٍ نفسه. ولهذا فقد كان ملائماً لإليانور العنيفة أكثر بكثيرٍ من لويس. وبالزواج من هنري بدأ الصبيان الذكور يتوالَون. وَلدت إليانور أولاً ويليام الذي مات طفلاً. ثم جاء هنري ثانياً. وهو الذي ثار على والده في فتوته. وجاء ريتشارد ثالثاً سنة 1157م، وهو الصبي الذي صار المفضَّل لدى والدته. وقد جاء التعبير عن تقلبات الحظّ تلك في تنبؤات الكهّان، وعلى لسان الساحرة الشهيرة مارلين، والتي تنبأت أنّ «النسر الكسير الجناح سيسعد بفرخه الثالث».

وقد كانت تلك نبوءةً غامضةً ومزدوجة المعنى. فأياً تكن علاقةُ الأُمومة الحميمة التي قامت بين إليانور وولدها الثالث؛ كانت تلك الأمُّ ذات الأجنحة الجريحة موزَّعةَ الولاء بين سُلالتين ملكيتين في فرنسا وإنكلترا؛ طُلّقت من الأُولى، وستنتهي إلىٰ السجن لدى الثانية.

قضى ريتشارد سنوات طفولته الأولى في أكيتان مع أُمّه؛ لأنّ ملكة إنكلترا كانت معتادةً على ثقافة البلاط في جنوب فرنسا، شديدة الاستمتاع بحريتها. ولذلك فإنها نادراً ما عَبَرت القنال إلىٰ المملكة الإنكليزية. وقد علَّمت ريتشارد منذ فتوته الأولى تقاليد البلاط في الحبّ والتعامل مع المرأة: فالمرأةُ هي وجودٌ مقدَّسٌ يكونُ على الرجل أن يقاربَها باحترامٍ وتبجيلٍ وحَذَر. فهي لا تتحدَّرُ من حوَّاء التي اعتاد جنسُها على الخدمة والهامشية؛ بل إنَّ مثالَها هو مريم العذراء المنتصرة، والتي بُنيت على اسمها عدةُ كاتدرائياتٍ في أوروبا في القرن الثاني عشر. وحسب هذه النظرة فإنَّ المرأةَ تتميز على الرجل بقواها العاطفية والروحية في مقابل قوته الجسدية الظاهرة ـ فيبقى الرجل أقلّ رقياً، وأقلَّ ذكاءً ونُضْجاً، وقدرةً على التدبُّر والتعقُّل ـ ويظلُّ القرارُ للكائنات الأثيرية الرائعة أن تُشفِقَ على ذلك الجنس المنحطّ فترفَعَهُ وتَهَبَهُ حبَّها واهتمامَها، أو تُعرضَ عنه وتتركه يسقط! فقوة المرأة وتفوّقها في مواجهة الرجل كانتْ أمراً مسلَّماً.

في بلاط بواتييه كانت أحاديث الحبّ تُناقَشُ من جانب السيدات، بالطريقة نفسها التي كان الإغريق يناقشون فيها الشؤون السياسية؛ أي بطريقة السؤال السقراطية: ما معنى الحب؟ (إنه المعاناةُ الدائمة) ـ من أين استمدَّ العشقُ اسمَهُ؟ (من الكلمة التي أُخِذَ منها اسم الـ «الشَرَك»). من هو الرجل الذي يستحقُّ الحب؟ (الرجل ذو الشخصية فقط). ما هي طبيعةُ الغَيرة؟ (إنها ممرِّضةُ الحب. فمن لا يعرفُ الغيرة لا يعرف الحب. والغيرة الحقيقية تزيدُ دائماً من الإحساس بالحب). ماذا عن اللذَّة؟ (لا تسقط في أحابيل نساء اللذائذ. فالمرأة الباحثة عن المسرَّات لا يمكنُ أن تكسبَ حبَّها مَهْمَا حاولْتَ إلاَّ

إذا كانت ڤينوس قد وهبتك القدرة على إرضائها. ومع ذلك فإنَّ إرضاءها يبقى أصعب من تجفيف المحيطات). والطريفُ في الأمر أنّ الطابع الحسّي لهذه الأسمار والنقاشات، كان متأثراً إلىٰ حدٍ ما، بثقافة إسبانيا الإسلامية.

كانت الملكة إليانور تشارك في هذه النقاشات بحماسٍ وقوة. وفي أحد الأيام كان موضوع المداولة ما يلي: رجلٌ شابٌ ليس ذا مقامٍ رفيع، وفارسٌ قديمٌ ذو أخلاقٍ عالية، يطلب كلاهما حبَّ المرأة نفسها، فأيُّهما تختار؟ وأجابت إليانور: «على الرغم من أنَّ الشابّ الواعد عندما يغمره الحبُّ يمكن أن يتحوّل إلىٰ نبيلٍ كبير؛ لكنّ السيدة لا تتصرّف بحكمةٍ إذا هي اختارت أن تحبّ شاباً ناشئاً، إذا كان الذي يطلب حبَّها في الوقت نفسه رجلٌ كبيرٌ وخَلوق. فقد يَحدثُ أن لا يتحسَّنَ خُلُقُ ووضْعُ الشاب رغم حصوله على حبّها. ذلك أنّ البذور التي ننثُرُها في التربة، لا تُنتجُ دائماً قمحاً».

أسهم البلاط المزدهر (في أكيتان) في إنتاج ثقافةٍ رومانسيةٍ جديدة. ففي صالاته قيلت أوائل أشعار الغزَل في الغرب الوسيط. وقد سُمّيت القصائد والنصوص الساخرة والأغاني باسم «عِلْم الغِلمان». وبتأثيرٍ من تلك الروح تصوّر توماس البريطاني حب تريستام وإيزولد، وكريستيان الطروادي قصة الحب الرومانسية بين لانسلوت وجينفر، ورواية الغراب Grail المقدّس. ومن تلك المسامرات والحوارات ظهرت الأحاديث عن قواعد الحب مع النصيحة **الأولى** والأهمّ: «كن مطيعاً في كلِّ ما يتّصلُ بأوامر السيدات ورغباتهنّ. ذلك أنّ هدفك ينبغي أن يظلَّ دائماً أن تَضَع نفسَكَ في خدمة الحبّ. والنصيحة **الثانية** التي تضاهي الأولى في الأهمية: عندما يستجيب لكَ الحبيب في الغرام: فإنّ عليكَ أن لا تتجاوزَ الحدودَ التي ترغبُ فيها الحبيبة».

أنشد شعراء التروبادور أناشيدَ الحبّ وقصائده بمختلف الصِيَغ، مما لم يكن معروفاً من قبل. وكان الموضوع الأكثر طروقاً حبّ البلاط، بحدوده

وتقاليده وآدابه. ومن ضمن ذلك أنَّ التابعَ المحبّ يخضعُ لسيدته أو عشيقته خضوعاً تاماً. وعندما تُؤْثِرُ أن تلتفتَ إليه، فإنّ ذلك يكونُ شرفاً له. وكانت الوسيلة الأفعل للتعبير عن الحبّ: الأغنية. وهي قصيدةُ غَزَلٍ يمكن أن تمتد إلىٰ خمسة مقاطع، فيها مشاهد للعاطفة المتفجرة، والشكوى والهجر، والانتصار في معركة الحب والحرب، بل والمبارزة من أجل حماية الحبيبة وسُمعتها. وقد أسهمت الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية، بفروسيتهما المبالَغ فيها، واستعراضاتهما، وأبطالهما مثل غودفري دو بويون، وحكاياتهما الخيالية عن الشجاعة والفَقْر؛ أسهمتا في تقدم فنّ التروبادور، والإعلاء من شأنه، وجلبتا من الشرق له بعض آلات الغناء مثل **البوق**، **والمزمار**، **والربابة والناي**. وقد بدأت رومانسيات الحروب الصليبية في بلاط إليانور، لتحلَّ محلّ حكايات الملك أرثر. فالمعروف أنّ لويس السابع، زوج إليانور الأول، أخذ فرقته من الشعراء والمغنين معه في الحملة الخائبة على دمشق. كما أنّ جَدَّ إليانور ويليام التاسع، الشجاع والمتقلب، كان رائدَ كلّ تلك الحركة الأدبية.

وكان يمكن لأدب البلاط ذاك أن يكونَ غير مؤدَّبٍ أبدً. فماركابو، أحدُ شعراء البلاط وموسيقييه، كان يسلّي سيدات البلاط بأشعارٍ وأُغنياتٍ ساخرة عن الحبيبة الخائنة التي ضحَّتْ به، وتركته بدون حب. تحدّث الشاعر عن «المومسات الهائجات» بطريقةٍ مستخفّة، أمام ضحك سيدات البلاط وصُراخهنّ. وقد اصطنع شخصية «السيدة الجيدة والمثيرة»، وهاجم «المتوحشات في السرير». ولا شكّ أنّ الأمير ريتشارد الصغير كان يُصغي لكثيرٍ من تلك المشاهد الفاضحة بانتباهٍ وقد فارقت الدماءُ وجهه. لكنه ما كان يهتمُّ لبعض ما يُقالُ أو يُنصَحُ به أيضاً في ذاك البلاط. فقد كان أندريه، أحد واضعي قواعد الحبّ في شعر البلاط ذاك ينصحُ المحبين الذكور، بنصيحةٍ أصرَّ ريتشارد على تجاهُلها: «الحبُّ لا يمكن أن يقومَ إلاَّ بين شخصين من الجنسين. فلا حبّ ولا عشقَ بين رجلين. لأنّه بين الرجال لا مجالَ لتبادُل المشاعر العاطفيَّة،

كما أنَّه لا مجالَ لممارسة النتائج المترتبة على العاطفة بطريقةٍ طبيعية. وكلُّ ما لا تُبيحُهُ الطبيعة؛ فإنّ الحبّ يخجلُ من القيام به».

وإذا كانت إليانور قد فضّلت فرنسا على إنكلترا؛ فإنّ ممتلكات ملك إنجلترا هنري الثاني في القارة شغلتْهُ كثيراً في تلك السنوات التي كان فيها ريتشارد يمضي من الطفولة إلىٰ الفتوة. فقد كانت أحداث تمرد البارونات الصغار على مليكهم لا تتوقف. كما أنّ العلاقات مع ملك فرنسا لويس السابع، زوج إليانور الأول، لم تكن جيدة. بيد أنّ المثير والطريف أنّه ما إن نجح الملك هنري بعد اثنتي عشرة سنة من الاضطراب في إخضاع الثائرين، وفي عقد سلامٍ مع ملك فرنسا سنة 1169م، حتى بدأ أولادُهُ واحداً بعد آخر يثورون عليه، ويحملون السِّلاح ضدَّه، في الفترة التي كانوا فيها يخطونَ من الفتوة إلىٰ الرجولة.

وما كان ريتشارد استثناءً من هذه الناحية. فقد كانت شكاوى الأولاد تتركّزُ في أنَّهم يحملون ألقاباً ضخمةً دونما قوةٍ أَو سلطة. ثم إنَّهم كانوا موزَّعي الولاء بين فرنسا وإنكلترا. كان ملك إنكلترا قد عيَّنَ ابنَهُ الأكبر هنري ولياً لعهده، لكنَّ الممتلكات الفرنسية التابعة للعرش الإنكليزي كانت تجعلُهُ أيضاً يدينُ بالولاء للعرش الفرنسي. ثم إنّ لقب «ولي العهد» ما كان يهبُهُ أيّ سلطةٍ أَو قوة. كما أنَّ الممتلكات الفرنسية كانت تضعُ أولاد هنري الثاني في البلاط الفرنسي في أكثر الأحيان، مع ما يعنيه ذلك من دسائس ومكائد ومؤامرات طوالَ الوقت. أمّا ريتشارد فقد لُقِّب بدوق أكيتان. لكنه كان دوقاً اسمياً وحسْب. وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره أراد أن يكون أكثر من مجرَّد حامل لقب.

وجاء تمرّد ولدي هنري الثاني عليه في وقتٍ شديد الصعوبة بالنسبة له. ففي ذلك الوقت بالذات، كان الأساقفةُ الإنكليز شديدي الانزعاج من مليكهم،

وبخاصةٍ **توماس بيكيت** أُسقُف كنتربري. فقد وضع الأُسقُف بيكيت استقلالية الكنيسة، فوق الولاء لملك البلاد؛ مما أغضب هنري غضباً شديداً. وفي أحد مجالسه مع النبلاء، عبَّر الملك عن سُخْطه على الأُسقف «الخبيث، والخائن، والكاهن العامّيّ الأصل والنشأة»؛ فسارع أربعةٌ من النبلاء الحاضرين الذين سخطوا لسخط سيّدهم إِلىٰ كنتربري حيث قتلوا توماس بيكيت أمام مذبحه. وما مضت ثلاثُ سنواتٍ على ذلك حتى كان بيكيت قد أُعلنَ قديساً. وكان على هنري الثاني بعد سنة على تلك القداسة، أن يمضي عَلَناً إِلىٰ قبر الشهيد وينحني أمامه بخشوع، تعبيراً عن إجلاله للقديس، وخضوعه لسلطة روما. وما وقف الأمر عند هذا الحدّ؛ بل إنّ ملك إنكلترا، وتعبيراً عن ندمه على المشاركة في التآمر على حياة بيكيت، تعهَّد للبابا أن يرسل مرتين سنوياً كميةً من الأموال والمعدَّات إِلىٰ الأرض المقدَّسة، ما يكفي لمساعدة مائتين من فرسان الهيكل والإسبتارية في ساحة المعركة. ومع الوقت فإنّ تلك المساعدة المادية، صارت مهمّةً جداً في تأمين الدفاع عن المملكة الصليبية في المشرق.

في سنة 1173م، وهي السنة التي طُوِّبَ فيه بيكيت قديساً؛ كان أبناءُ الملك هنري الثاني في ثورةٍ علنيةٍ عليه. أمّا الملكة إليانور، والتي كان قلبها هو الذي يقودها دائماً، فقد وقفت مع أولادها ضدَّ زوجها. وفي صيف تلك السنة، تعهد الفتيان هنري وريتشارد، وأخوهما الثالث جوفري لملك فرنسا «أن لا يتجاوزوه ولا يعصوه»، ويضيفُ كاتب الحوليات رالف أُوف ويستو إِلىٰ ذاك التعهد: «وأن لا يصالحوا والدهم إِلاَّ من خلال لويس السابع، والبارونات الفرنسيين». وتعهد الملك لويس السابع بالمقابل «بدعم الملك الشاب ـ هنري ـ وإخوته بكلّ ما وسِعَهُ من قوة، لكي يتابعوا حربهم على والدهم لحين الحصول على مملكة إنكلترا للشاب هنري». وخلال هذه المأساة العائليّة؛ استطاع هنري الثاني على الأقلّ، أن يضبط زوجته. فقد ألقى كشّافوه القبضَ على إليانور، متخفيةً بثياب رجل، وهي تحاولُ الفرارَ من أكيتان إِلىٰ باريس.

وأُرسلت الملكة إِلىٰ إنكلترا حيث أُلقيت في السجن لتبقى فيه خلال الست عشرة سنة التالية.

جاء لقبُ ريتشارد «دوق أكيتان» من وراثته لتلك الدوقية من أُمّه. ولذلك فإنّ سَجن والده لوالدته زاد من غضبه عليه. وهكذا ففي سنة 1174م كان ريتشارد يحاول أن يجمع جيشاً من طريق إثارة البارونات الصغار على والده، وحصار بعض القلاع التي ما تزال على ولائها لهنري الثاني. وقد أزعج ذلك تدريجياً الملك الإنكليزي، وعَبَرَ القنال إِلىٰ بواتييه لمواجهة ولده المتمرّد. في البداية هرب ريتشارد من وجه والده، لكنه ما لبث بعد فترةٍ أن عاد لبلاط الوالد ورمى نفسه على قدميه علامة التوبة والخضوع. وقد صفح عنه هنري مباشرةً. وفي سنة 1175م في لومانس LeMans شارك ريتشارد مع شقيقه الأصغر جيوفري في احتفالية مبايعةٍ لوالده. بيد أنّ المشكلات التي أحدثها للوالد لم تمرَّ بدون عقاب؛ فقد جُرّد من لقب الدوق، وصار واحداً من أتباع الملك الذين ينفّذون أوامره وتعليماته.

وجاءت أوامر الملك هنري الثاني لابنه ريتشارد في السنوات الخمس اللاحقة، موافقةً لهواه. فقد أسبغ عليه والده القوة والسلطة، لتمكينه من إخضاع البارونات المتمردين في أكيتان وغسقونيا، ومصادرة أملاك كلّ من يحاول المقاومةَ منهم. وكانت تلك المهمة هي التي جعلت ريتشارد قائداً عسكرياً للمرة الأولى. وقد انهمك لمدة في معارك مستمرةٍ تقريباً. إذ عمد أولاً إِلىٰ إخضاع حصون أكيتان الشمالية: أغن Agen وأنغولام Angoulême، وشاتونوف Châteauneuf وموليناف Moulinef وليموج Limoges، والتي كانت قد أعلنت عصيانها. ثم تحرّك القائد الشاب إِلىٰ الجنوب نحو غسقونيا حيث أخضع العُصاة في دكس Dax وبايون Bayonne، وديول Deols وشاتورو Châteauroux. ومع كل نصرٍ على خصم أو متمرّد كان ريتشارد يزداد قسوةً وعنفاً. بيد أنّ طبيعتَهُ العنيفة أعلنت عن نفسِها صراحةً في سنة 1179م حين

صبَّ جامَ غضبه على سانتوني Saintogne في الوادي المزهر على ضفاف نهر شارنت Charente؛ إذ هناك انتشرت شهرته في القارة كلّها. قبل عيد الميلاد سنة 1178م ضرب ريتشارد الحصارَ على قلعة پون Poun التي تحصّن فيها فارسٌ شرِسٌ اسمه جوفري أوف رانكون؛ كان يقود المؤامرة على سلطة الدوق في تلك الناحية. وقد أثبتت القلعة قدرتَها على الثبات خلال أربعة أشهُرٍ من الحصار. وقد تعلّم ريتشارد من ذلك درساً طبّقه فيما بعد في الأراضي المقدّسة ويتّصل بإمكانية تجاوز الإرهاق الذي يحدُثُ نتيجةَ الحصار الطويل. بعد عيد الفصح سنة 1179م رفع ريتشارد الحصار عن قلعة پون، ليهاجم حصناً آخر أكثر مناعةً هو حصن تلليبورغ Taillebourg. أما أصدقاؤه ورفاقه فقد هزوا رؤوسهم استغراباً لفعلته الغريبة. ذلك أنّ حصن تلليبورغ كان عصياً أيضاً؛ إذ يقوم على قمة تلةٍ صخريةٍ مشرفةٍ على نهر شارنت، وهو ممتنعٌ من ثلاث جهاتٍ بمنحدراتٍ صخريةٍ شاهقةٍ لا يمكن تسلُّقُها. والجهةُ الرابعةُ للحصن ممتنعةٌ وراء ثلاثة خنادق وثلاثة أسوار. وقد تركها أسلافُ ريتشارد وشأنها لعدة عقودٍ رغم عصيان صاحبها، لا لشيءٍ إلاّ لأنهم استصعبوا إمكانية الاستيلاء عليها. ولهذا، فإنّ حُماتَها كانوا غافلين ومطمئنين عندما عمد ريتشارد إلىٰ مهاجمتها. وهو لم يذهب لحصارها مباشرةً بل توجه أولاً إلىٰ تخريب الريف المحيط بها. إذ يقول كاتب الحوليات السالف الذكر إنه «نهب كلَّ ثروات المزارع، كما قطع أشجار الكروم، وأحرق القرى. وبعد أن دمَّر كل شيءٍ وأحرقه من حول الحصن وبجواره، اقترب منه ونصب خيام معسكره على حوائطه وأسواره، في الوقت الذي لم ينتظر فيه رجالاتُ البلدة شيئاً من ذلك». ولأنَّ اليأس سيطر على المدافعين عن الحصن فقد ارتكبوا خطأ القيام بهجوم مضادّ. وسارع ريتشارد إلىٰ الإحاطة بالخارجين من الحصن واستيعابهم وعزلهم، مُسارعاً إلىٰ شقّ طريقه للداخل في أثر الفرسان المتراجعين، قبل أن يستطيعوا إغلاق أبواب السور. وبعد يومين استطاع الاستيلاء على القلعة الداخلية ذاتها، بعد أن كان قد استولى على البلدة. وانتشر خبر النصر العجيب الذي حقّقه ريتشارد انتشار النار

في الهشيم؛ خلال وادي شارنت أولاً، ثم وصل إِلىٰ ملك إنكلترا. وسارع العُصاة والمتآمرون إِلىٰ الاستسلام واحداً بعد آخر، كما مضى بعضٌ منهم للقتال في الأراضي المقدَّسة عقوبةً وتوبة. وبعد تدمير أسوار حصون الثوار على طول نهر شارنت، مضى ريتشارد إِلىٰ إنكلترا حيث استقبله والدُهُ «بكل مظاهر الحفاوة والتشريف».

الفصل الخامس

الجهــاد

في مارس سنة 1187م، وبعد انقضاء الشهر الحرام، شهر رمضان، استنفر صلاح الدِّين المسلمين للجهاد. فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ...﴾ [سورة التوبة: 5]. وهكذا فإنّ الجنود المسلمين تدفقوا من كل مكانٍ، من حلب في الشمال وأجزاء من بلاد ما بين النهرين، وعبر الماء إلىٰ مصر. وتجمعت العساكر على مقربةٍ من دمشق ثم تحرّكت نحو الجنوب. ولكي يبعث السلطان الرهبة في قلب الفارس الأسود القابع في حصن الغَرب؛ فقد أرسل كتيبةً في الطليعة لتقوم باستعراض قوةٍ في مواجهة قلعة الكرك. ومن جهةٍ ثانية؛ فإنَّ قافلةً من حُجّاج الشام كانت عائدةً من مكة والمدينة، اقتربت من الكرك، في طريق عودتها إلىٰ ديارها؛ وكانت تتضمّن أيضاً أقارب لصلاح الدِّين. لكنَّها هذه المرة كانت محروسةً بفرقةٍ عسكريةٍ قويةٍ، فلم يستطع شاتيون إلاَّ أن يراقبَها من أعالي حصنه بحسرة.

كان السلطان يتوق للأخذ بخناق الشرير، لكنّ حملته العسكرية الراهنة كانت تمضي لجهةٍ أخرى، غير قلعة الكرك المنيعة. ففي طبرية، على الضفة

الغربية لبحيرة الجليل، كان الحاكم فارساً مسيحياً نبيلاً، أكثر تعقلاً واحتراماً (لدى المسلمين والمسيحيين) من شاتيّون. إنه ريموند الطرابلسي الذي يمثّل الجيل القديم من فرسان المملكة اللاتينية. وُلد ريموند في المشرق، وهو يتحدَّرُ عبر عدة جدودٍ من نسل ريموند أُوف سانت جيل، أحد قادة الحملة الصليبية الأولى. ثم إنَّه إن مضى بعيداً في اقتصاص حَسَبه فسيتبيَّنُ أنّه يَمُتُّ بِصِلةِ دم إلىٰ أُسرة الكباتيين المالكة بفرنسا. كان ريموند ذا طلعةٍ مهيبة، مربوع القامة بأنفٍ نسري، وقسماتٍ سمراء. وهو حكيمٌ عركته الأيام، وخَبَرَ المعارك، وكان حليفاً للإسبتارية، الذين شاركهم الكثير من المناوشات عبر السنين. وقد نظر إليه الشوام والمسيحيون على حدٍ سواء باعتباره الرجل الأكثر تأهُّلاً وقدرة في كل المملكة (اللاتينيّة). وفي ثمانينات القرن الثاني عشر كان كثيرون يرون أنه الملك القادم في القدس، وليس غي دي لوزينيان. وقد أصابه ما أصاب شاتيّون إذ وقع في أَسْر المسلمين لعدة سنوات. لكنه اختلف عن شاتيّون إذ لم يدفَعْهُ الأمر إلىٰ استبطان الحقد على المسلمين، بل خرج معجَباً بعاداتهم وأخلاقهم. كان ريموند يتكلم العربية بطلاقة، ثم إنّه كان يحب قراءة الكتب العربية، ويؤمن بإمكان التعايش بسلامٍ مع جيرانه العرب. وقد عبَّر عن اقتناعه هذا باستقبال العرب في بلاطه بطبرية. تزوج ريموند أرملة كونت طبرية؛ وبذلك حصل على الإقطاعية الأكثر تعرضاً وضَعفاً في المملكة الصليبية كلّها. كانت إقطاعيته بوّابةَ المملكة اللاتينيّة؛ وما كانت مساحتها أكثر من ستين ميلاً عبر مرتفعات الجولان، ولا تبعد عن دمشق غير مسيرة ثلاثة أيام على الأكثر. ولهذا فقد كان يقالُ إنها ستكون الجائزة الأولى لأي هجومٍ شامي على المملكة. تخلَّلت إمارة طبرية تلالٌ ضمت أماكن مقدَّسةً مثل جبلِ طابور (حيث تكلم السيد من وراء السُحُب، وسيطر على التلاميذ «الخوف الشديد») ومثل الناصرة (التي نشأ فيها المسيح). وخلال عقود سيطرته كافح ريموند ووصل إلىٰ سلامٍ مع صلاح الدِّين. وكان يفضّل السلام دائماً. ففي سنة 1184م، أي

قبل ثلاث سنوات (من حملة صلاح الدِّين هذه)، وعندما كان وصياً على عرش المملكة الصليبية، عقد سلاماً جيداً مع صلاح الدِّين. كانت تلك السنة سنة قحطٍ وجفاف امتدّ على طول الساحل الشرقي للمتوسط؛ فكان لا بُدَّ من السلام للتعاون في مواجهة ذلك. وقد كان واضحاً لريموند أنه لا يستطيع الدفاعَ عن إمارته الضيّقة والضعيفة ضد هجومٍ إسلامي. وقد كان صلاح الدِّين يعلمُ ذلك كلّه، لكنه وافق على الهدنة المقترحة لأربع سنوات. وما اكتفى بذلك، بل إنه أظهر تكرماً تجاه العدوّ، عندما زوَّد الإمارة المحاصَرة بالماء والطعام. وطبيعيٌّ أن تدفع هذه الصداقة مع الأعداء، صقور الصليبيين في القدس وخارجها إلىٰ الشكّ في ريموند؛ وبخاصةٍ شاتيّون، ومقدَّم فرسان الهيكل جيرار دو ريدفور Gerard de Ridefort. فقد اعتبر هؤلاء ريموند خائناً، واتهموه باعتناق الإسلام، وبنقل ولائه إلىٰ العدوّ. وارتفعت الأصواتُ الواعيةُ لمهاجمة طبرية والقبض على الكونت ريموند ومحاسبته. بيد أن الفرسان القُدامى نصحوا بالترويّ: «في طبرية قوةٌ كبيرةٌ من الفرسان المسيحيين والعرب، ولا تملكون القدرة على فرض حصارٍ عليهم بأعدادكم الضئيلة». وتابع الفارس الصليبي القديم باليان أوف إيبلين Balian of Ibelin ناصحاً الملك غي دي لوزينيان: «عليك أن تعرف، أنك إذا ذهبتَ إلىٰ هناك فلن ينجو من جنودك أحد. إذ بمجرد أن تُحاصر طبرية فإنّ صلاح الدِّين سيأتي لمساعدة ريموند بجيشٍ كبير». فالكراهية ليست جيدةً لأي أحد؛ ولذلك عرض باليان نفسَه وسيطاً لإزالة الخلافات بين القدس وطبرية.

وقتَها حدثت إغارةُ شاتيّون على القافلة الإسلامية، فتغير الموقفُ تماماً. فقد عنى ذلك نقضاً للهدنة بين المسلمين والصليبيين؛ ودفع ذلك صلاح الدِّين لإعداد عساكره للجهاد. لكنّ ريموند، الذي وقع في الوسط فعلاً، كان ما يزالُ يُعتبرُ صديقاً واستثناءً في الزمن المتفجر. ومع ذلك فقد كان في موقفٍ شديد الحرج. فإذا هاجم الإخوةُ المسيحيون ريموند في طبرية فسيأتي صلاح الدِّين

لنجدته. وهكذا فإنّ المملكة اللاتينيّة كانت على مشارف حربٍ أهلية، وكان ذلك كلُّه مُريحاً لصلاح الدِّين: دع أولئك الغُزاة يتحاربون ويتخاصمون فيما بينهم! فالموقفُ مفيدٌ للسلطان، مهما كانت تطوراتُ الأحداث.

(تجمعت عساكر صلاح الدِّين)، وقرَّر أن يحرّك المياه. لذلك تقدَّم من ريموند في وداعة الحَمَل باقتراحٍ فظيع. فقد طلب السماحَ لجيشه بأن يمضي عبر أراضي الإمارة ليُغير داخل المملكة الصليبية، انتقاماً لعدوان شاتيّون على القافلة. وضع طلبَ السلطان ريموند في موقفٍ مستحيل. فإذا رفض طلب صلاح الدِّين تعرض لغضبه وربما لهجومٍ على طبرية. وإذا قبل طلبه خان زملاءه المسيحيين. لكنه سُرعان ما أجابَ من أجل تسوية ضعيفة بأنّ جنود السلطان يستطيعون العبور في أراضي طبرية على أن يغادروها قبل مغيب الشمس وفي اليوم نفسه. ثم إنّ عليهم أثناء المرور أن لا يهاجموا مدن الإقطاعية أَو قراها. ولكي يهدّىء من غضب إخوانه عليه أرسل إلىٰ مقدّمي الإسبتارية، وفرسان الهيكل، ومطران صور، يُعلمهم بأنّ حملةَ صلاح الدِّين قادمةٌ عليهم. أمّا السكّان فقد طلب إليهم الاختفاء بقدر الإمكان، والبقاء في البيوت وراء الأبواب المغلقة، وأن يدعوا جنود العدوّ يمرون دونما إثارةٍ أَو استفزاز. وحدث ما كان متوقَّعاً، فالمتحمسون في المملكة الصليبية اعتبروا ذلك كارثة. وأرسل جيرار دو ريدفور، مقدَّم فرسان الهيكل صرخة استنفار. لقد كان تصرف ريموند الغادر، في نظره، مُناقضاً لكل قواعد الفروسية، ولأصول التعامل ضمن رهبانية فرسان الهيكل. وما كان بوسعهم أن يقبلوا هذا الاختراق لحرمة الأراضي المقدَّسة. فقد كان قَسَمُهُم المقدَّس أن يكونوا أول المهاجمين، وآخِر المنسحِبين؛ فكيف يمكن إدارة الوجه أَو الاختفاء في حين ينجّس الكَفَرةُ الأراضي المقدَّسة دونما مقاومة؟! يمكنُهُم طبعاً أن يكونوا حذِرين في عملياتهم، لكنهم لا يستطيعون التراجع بسبب تفوق العدو. فقد كانت الرهبانية تسترشد بتعليمات ليڤيتيكوس Leviticus [26: 7 ـ 8]: «ويكون

عليكم أن تطاردوا أعداءكم، الذين ينبغي أن يتساقطوا بضربات سيوفكم. خمسةٌ من فرسانكم يستطيعون مقاتلة مائة، ومائةٌ منكم يستطيعون مواجهة عشرة آلاف، وإرغامهم على الهرب. أعداؤكم ينبغي أن يتساقطوا بضربات سيوفكم».

في صبيحة الأول من أيار/مايو، يوم عيد القديسَين فيليب وجيمس في الروزنامة المسيحية، عبر جيش المسلمين نهر الأردنّ عند مخاضة يعقوب، وتوغل في أسفل بلاد الجليل. كان المسلمون مستعدين للمعركة، وكانت تلك طليعتهم للاستطلاع والاستفزاز؛ إذ كان الهدفُ استثارة العدوّ ودفْعَهُ للبدء بالقتال. ثم كان الهدفُ أيضاً اختبار مدى صمود حليفهم الكونت ريموند عند وعده من طريق دفعه إلىٰ أقصى حدود الإحراج. فما كانت لديهم أوهام أنّ ريموند إذا اضطُرّ فإنه سيعود إلىٰ طبيعته الشيطانية ويتحزب لبني قومه؛ فقد جاء في القرآن عن الشيطان ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [سورة النساء: 120]. كما أنّ صلاح الدِّين كتب: «إنه يستعملُنا لتحقيق أغراضه، **ولإخافة رفاقه الفرنجة**».

خلال الليل جمع فرسانُ الهيكل ثمانين فارساً من حصونهم في **عكّا** **ويافا**. وانضمّ إلىٰ الكتيبة عشرة فرسانٍ كان من بينهم مقدَّم الفرسان نفسه روجيه دو مولان Roger de Moulin، الذي كان في طريقه إلىٰ طبرية رسولاً للصلح بين ريموند وملك القدس. ثم جاءت كتيبةٌ من القوات الملكية المعسكِرة بالناصرة عددُها أربعون فارساً وقوَّت صفوف فرسان الهيكل قبل طلوع الفجر. ومن هناك ساروا نحو تلال جبل طابور بحثاً عن الكَفَرة. وحوالي الظُهر عثرت تلك الثُلّةُ على جيش المسلمين البالغ عددُهُ سبعة آلاف في منْبَسَطٍ من الأرض على مقربةٍ من مجرى سيلٍ يُسمَّى **عيون الأُقحوانة**، على بُعد ميلين من الناصرة. كان المسلمون قد أكملوا اختراقهم الاستطلاعي بهدوء، دون أن يهاجموا قلعةً أَو بلدة، ولذلك فقد كانوا يستعدون للمغادرة والعودة من حيث أتَوا. وأمام

المشهد المؤثّر للمسلمين بأعدادهم الضخمة، اختلف الفرسان. أما روجيه دو مولان والقائد العسكري لفرسان الهيكل الأخ جيمس أُوف ميللي James of Mailly فقد رأيا عدم القيام بهجوم مفاجىء بسبب التفوّق الساحق للمسلمين. لكنّ جيرار دو ريدفور، مقدَّم فرسان الهيكل، اتهمهما بالجبن. وشعر روجيه بإهانةٍ شديدة، واحتجَّ قائلاً إنه ليس خائفاً «من تلك الكلاب الضالّة التي تتكاثر وتتجبّر اليومَ، لكنّها غداً ستكون في بحورٍ من النار والحجارة»؛ بيد أنّ الحكمة تقتضي عدم الهجوم. وتجاهل جيرار اعتراض المعترضين، وذكّر رجالَهُ بقواعد فرسان الهيكل وتعليماتهم؛ ساخراً من حُجج المترددين بسبب التفوق العددي للعدو؛ ألم يقل يوشع [23: 11]: «الواحد منكم يهزم ألفاً لأنّ الربَّ إلهكم هو المُحاربُ عنكم كما وعدكم». وتابع جيرار صارخاً: «تذكروا أجدادكم المكابيين الذين كان واجبهم القتال من أجل الكنيسة، ومن أجل الشريعة، ومن أجل مواريث المصلوب. وقد قمتم بذلك لمدةٍ طويلة». ثم قال: «إنني أذكّركم بما كان أسلافكم يفعلون، فقد قهروا العدوَّ ليس بضخامة العدد بل بالإيمان والعدل وتنفيذ التكليف الإلهي». وما أن انتهى من موعظته حتى هَمَزَ فرسَهُ الذي مضى به في دائرةٍ ثم اندفع نازلاً التلّ شاهراً سيفه باتجاه جموع المسلمين، وفرسان الهيكل من ورائه. وما ترك تصرفُهُ هذا فرصةً للشكّاك لكي يتردّدوا فمضوا يعدون وراء الهيكليين. صحيح أنّ فرسان الهيكل والإسبتارية كانوا مكروهين ومَخوفين من جانب المسلمين، لكنّ رؤية هذه الكتيبة الصغيرة قادمةً لقتالهم، بعثت في نفوسهم السرورَ ولا شكّ. وكما تعلموا في التدريب فقد انفرجت صفوفهم للسماح لفرسان الصليب بالدخول إلىٰ أوساطهم، ثم بدأت تلك الصفوف تتضامّ وتعصُرُ المهاجمين، حتى اكتملت المذبحة المروّعة. قُتل من الهيكليين ستون فارساً من بينهم روجيه دو مولين، وقُطعت رؤوسُهُم جميعاً. أما المتسبّبُ في هذه المذبحة دو ريدفور فقد نجا بأُعجوبة، ومضى به فرسُهُ يعدو حتى انهار أمام أسوار الناصرة، مع أربعةٍ من رفاقه. وعندما كانت الشمس تغرب، كان فرسان المسلمين يمرون بهدوءٍ على مقربةٍ

من أسوار طبرية، دون أن يمسّوا قريةً أَو مدينةً، كما وعدوا، لكنهم يحملون على رؤوس رماحهم رؤوسَ فرسان الهيكل القتلى.

كانت عواقب الهزيمة في «الأقحوانة» شديدة الهول. فالأحداث التي جرت على مقربةٍ من مدينته قبل الغروب، أزعجت ريموند أشدَّ الإزعاج. وعندما علم بالتفاصيل اشتدَّ لومُهُ لريدفور بسبب عنجهيته وعدم تعقُّله. لكنّ دو ريدفور وفرسانه بدورهم كانوا شديدي الحنق على ريموند بسبب خيانته. إذ لولا اتفاقُهُ مع الكفّار والسماح لهم بدخول أراضي إقطاعيته؛ فإنَّ المأساةَ ما كانت لتحدُث. أمّا بالنسبة لمملكة القدس اللاتينيّة فإنّ المأساة كانت أكثر تأثيراً. إذ ما كان بوُسعها إضاعةَ أكثر من مائة فارس؛ فقد كان الفرسانُ المعترفُ بقدرتهم وخبرتهم، والذين يحملون شهاداتٍ بذلك، لا يزيد عددُهم في المملكة كلّها على الألف والمائتي فارس! أمّا في الناصرة؛ فإنّ باليان أوف إبلين، مبعوث الملك غي، لم يشهد الحملة المأساوية لفرسان الهيكل، لأنه تذكّر أنّ ذلك اليومَ هو يومُ الرسولَين القديسَين فيليب وجيمس فذهب إِلىٰ القداس أولاً مما تسبّب في تأخيره في الوصول إِلىٰ قلعة **يافا** من حيث انطلق الفرسان للمواجهة. وعندما علم من الجرحى الواصلين إِلىٰ الناصرة بالتفاصيل، سارع بنقلها إِلىٰ أسقف صور، يوشع، الذي كان قد سارع إِلىٰ الموقع بعد أن وصلته الأخبار. وفي اليوم التالي سار الجميع إِلىٰ طبرية في حراسة فرسانٍ أرسلهم ريموند، الذي سارع لاستقبالهم بحرارةٍ معتذراً وآسِفاً لما حصل. لكنْ حسب تقريرٍ لمؤرخ عربيٍّ فإنَّ جنودَ ريموند نفسه صبّوا جامَ غضبهم عليه. فقد صرخ أحدهم فيه[1]: «لا شكَّ أنك أسلمتَ، وإلاّ لم تصبر على ما فعل المسلمون أمسِ بالفرنج، يقتلون الداوية والإسبتارية، ويأسرونهم، ويجتازون بهم عليك، وأنت لا تُنكِر ذلك ولا تمتنع عنه». ويذكر التقريرُ نفسهُ أنّ الأسقف يوشع هدَّد بإصدار حَرْمٍ على ريموند بسبب

(1) قارن «بالكامل في التاريخ» لابن الأثير 11/ 533.

غدره، لولا أنْ تدخل باليان، الفارس النبيل، والبارد الرأس، من أجل تهدئة الخواطر.

كان الكونت ريموند ممتلئاً بالندم. ولذلك سأل عمّا بوسعه أن يفعل لإظهار الندم؟ فروجيه دي مولين كان من أصدقائه المقرَّبين: ألا تستطيعون أن تفهموا؟ ربما كان عليه أن يتوقّع ما حدث، لكنه لم يفعل. وقد كان قصدُهُ من وراء تصرّفه ذاك أن لا يحدث ضررٌ لأي مسيحيٍ طيب. وعاد لطلب المسامحة والمغفرة. ثم إنّه يرغب في التوبة، وفي أن يدخل تلك الرهبانية المسيحية. فماذا يريدونه أن يفعل؟ في النهاية كان مطلبُهُم منه متواضعاً. إنّ عليه أن يرافقهم إلىٰ القدس ليطلب المغفرة من الملك، وليحلف ثانيةً على الولاء والأمانة. ثم إنّ عليه أن يطرد من طبرية عملاء صلاح الدِّين، وأن يضع كلّ إمكانياته في خدمة المملكة (اللاتينيّة). فقد كانت البلاد المقدَّسة في محنةٍ كبيرة، وصار بقاءُ المملكة الصليبية نفسها موضع رهانٍ عظيم. ولكي يتمّ إنقاذُها لا بُدَّ من تضحياتٍ كبيرةٍ وجهودٍ موحَّدة. ووافق ريموند على هذه المطالب. وسرعان ما انطلقت البعثةُ نحو القدس.

على أنَّ يوم **الأُقحوانة** شاع وذاع في سائر الأنحاء. فما كادت الدماءُ في أرض المذبحة تبرد حتى أتت شهادةُ جيمس أوف ماللي، القائد العسكري لفرسان الهيكل لتدخل حيّز الأسطورة. كان جيمس كما سبق ذكرُهُ ضدَّ خوض المعركة، ومن أجل ذلك فقد شكّك دو ريدفور بشجاعته. لكنه عندما مات في النهاية شاعت حول بطولته الأقاصيص. فقد قيل إنّه في النهاية، وقد أحاط به آلافُ الجنود المسلمين، الذين واجههم بمفرده، اشتدّ إعجابُهُم به ورجَوهُ أن يستسلم لكي يحفظوا له حياته: «لكنه أدار لهم أُذناً صمّاء ولم يُصْغ لدعواتهم، لأنّه ما كان خائفاً من الموت في سبيل المسيح. . . ورغم أنّهم تكاثروا عليه ورموه بالرماح والحراب والحجارة؛ فإنه منع نفسه من الاستسلام أو الهزيمة ـ إلىٰ أن قتلوه أخيراً بصعوبة. لقد حلّقت روحُهُ

منتصرةً رياحين الشهادة إلىٰ المملكة الإلهية. لقد كان موتُهُ ماجداً؛ فبسيفه الوحيد نشأت دائرةٌ من القتلى من حوله. وقد كان رائعاً لرجلٍ أن يموتَ هذه الميتة، سيفُهُ بيمينه، ومن حوله الأعداء القتلى الذين أهلكتهم ذراعُهُ القوية». ثم زُوِّدت تلك الأقصوصة بتفاصيل كثيرةٍ ومن ضمنها أنَّ جيمس دو ماللي قاتل يومها بلباسٍ أبيض، وعلى فرسٍ أبيض. بل إنّ هناك من قال إنه كان يومها القديس جورج نفسه.

واستمرت الآثار والتداعيات. ففي صفوف البارونات والرهبان العسكريين ظلَّ السُخط محسوساً، وظلَّ الاتهام معلَّقاً فوق رأس ريموند. ثم وصلت أخبار معركة **الأُقحوانة** إلى روما. فدو ريدفور مقدَّم فرسان الهيكل، لا يقدِّم تقريره إلىٰ أية سلطةٍ أرضية، بل إلىٰ البابا نفسه وعندما علم أوربان الثالث بالأخبار أصدر نداءً إلىٰ الكهنة الإنكليز لمساعدة الهيكليين في دفاعهم عن الديار المقدَّسة:

«ذكر مقدم فرسان الهيكل أن الفرسان في تلك المعركة خسروا عدداً كبيراً من الخيل والسلاح، إضافةً إلىٰ الخسارة الكبيرة في الرجال. كما ذكر أنّ جنس الوثنيين الأشرار يزيد من استعداداته من أجل القيام بهجماتٍ أكبر بالتوافُق مع أهدافه الفظيعة. ولهذا، فنحن الذين تقع على عواتقهم مسؤولية حماية تلك البلاد، والدفاع عنها، نناديكم، أيها الإخوة، ونطلب إليكم، ونأمركم، أن تطالبوا وتنصحوا الأمراء والبارونات، وكل الرجال المؤمنين، بالوعظ والإرشاد والاستحثاث؛ أن يسعوا لغفران ذنوبهم، وأن يعملوا لله، ومن أجل خلاصهم ـ وذلك بالمصير إلىٰ استعمال أياديهم القوية لحماية المسيحية هناك: ينبغي أن تدفعهم غيرتهم لعدم التأخّر في مساعدة إخوانهم من فرسان الهيكل بالجياد وبالسلاح، لكي يتمكّنوا بشكلٍ أفضل من الدفاع عن تلك البلاد».

وهكذا، وكما في أكثر الحروب، فقد كان النداء أولاً في تلك الحرب

الصليبية، من أجل التزويد بالعُدَّة والمادَّة. ففي تلك المرحلة كانت خسارةُ أكثر من مائة جوادٍ مقاتل ضربةً حقيقيةً للمملكة اللاتينيّة: فهل تتأخّر دعوة الرجال للقتال كثيراً عن الدعوة لإرسال الجياد؟!

بيد أنّ أنباءً أخرى أكثر سوءًا كانت على وشك الوصول لروما.

الفصل السادس

كانت أسودهم مناجذ[1]

بلغت صلاح الدِّين أنباء النصر الكبير في الأُقحوانة Cresson، في معسكره بتل عشترا على نبعٍ شرقيّ بحيرة الجليل. وكان قد عسكَرَ هناك في موقع متوسطٍ يستطيع منه بدء عملياتٍ عسكريةٍ باتجاه الكرك أو الجليل. في معسكره ذاك تلقّى أخبار المعركة في رسالةٍ شعرية[2] من أكبر أبنائه، الأفضل، الذي كان وقتَها فتىً في السادسة عشرة من عمره، وكانت تلك أول معركةٍ يشهدُها عن كثب. شبّه الأفضلُ الفوزَ في الأُقحوانة باقتحام قلوب العذارى، الرائعات الجمال، العسيرات المنال، اللواتي لا يستطيع الفوزَ بهنّ غير أولئك الرجال، الذين يستطيعون دفع مهورهنّ الغالية. وقد فاز الأفضل بالفتاة الأولى «بعد كفاحٍ قصير». وهو يُبلغُ روائعَ هذا الفتح لوالده «سيد الغُزاة»، الذي سمح هو لنفسه أن يشرب الكأس بدلاً منه، بعد أن فاز بذلك بحدّ سيفه.

فتح الانتصار على تلك العصابة من المغامرين الأغبياء، عيني

(1) المناجذ، جمع قنفذ. وعنوان الفصل مأخوذٌ عن رسالةٍ لعماد الدين الأصفهاني في الفتح القسّي ص 19، في وصف المعركة؛ لكنه هناك يجمع قنفذ على قنافذ؛ وقارن بكتاب الروضتين 2/ 77: «وناشبهم النشاب فعادت أسودهم قنافذ».

(2) ما تمكنت من معرفة مصدر القصيدة، لذلك ترجمتُها على النحو الوارد (المترجم).

صلاح الدِّين على الإمكانية الكبرى التي انتظرها منذ زمنٍ طويل. وهكذا فقد رأى أن يتناسى مؤقتاً عقدتَه الدائمة والمتمثِّلة بالفارس الأسود في حصن الغُراب الممتنع عليه، وأن يلتفت إلىٰ تلك الفرصة الاستراتيجيّة التي لاحت له. اتجه صلاح الدِّين بقواته الرئيسية شمالاً لينضمَّ إلىٰ الفرسان السبعة آلاف بالأُقحوانة[1]. وهناك انهمرت عليه كتائب العرب والأكراد من مصر وحلب والموصل، بحيث ارتفع عدد المقاتلين إلىٰ خمسةٍ وعشرين ألفاً. وجمع السلطان أمراء عسكره في مجلس حربٍ كبير: ماذا عليهم أن يفعلوا الآن؟ وكيف يكون عليهم أن ينتهزوا الفرصة السانحة؟ اقترح بعض الأمراء الاستمرار في تكتيك التعرّض والإزعاج، لأنّ الإغارات المفاجئة في أماكن متعدّدة كفيلةٌ بشرذمة مدافعي العدوّ ونشرهم على خطوطٍ طويلةٍ ضعيفة القدرة على المقاومة، وشديدة الإرهاق. أما الاتجاه لمصادمة قلب مملكة العدو فإنه كفيلٌ بجمع قواته في مواجهةٍ واحدةٍ هي أفضلُ الإمكانيات بالنسبة لهم. على أنَّ أميراً من أمراء الجيش، أشار إلىٰ الخصومات المستمرّة بين الولاة الصغار في الإمبراطورية الإسلامية، واقترح قائلاً: «إنّ الناس في المشرق يلعنوننا، ويقولون تركوا قتال الكفّار، وأقبلوا يريدون قتال المسلمين؛ والرأي أن نفعل فعلاً نُعذر فيه، ونكفَّ الألسنة عنا». وتكلم صلاح الدِّين أخيراً فقال: «الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلمُ قدْر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرّق هذا الجمع إلاّ بعد الجدّ بالجهاد»[2]. وفي الأسابيع التي تلت أعاد صلاح الدين تنظيم عساكره في قلبٍ وميمنةٍ وميسرةٍ وطليعةٍ وساقة: «وعرف كلٌّ منهم موضعه وموقفه، وأمره بملازَمته».

وفي الوقت نفسه، كان ريموند، الكونت الشاعر بالذنب، يصحبُهُ باليان

(1) ويقال إنه التقى بهم بموضعٍ قريب يُسمّى رأس الماء (ابن الأثير: الكامل م11، ص 529، 531) (المترجم).

(2) ابن الأثير: الكامل، م11، ص 532 – 533.

أُوف إبلين، وأسقف صور قد وصل إلىٰ نابلس حيث أدَّى اعتذاراً علنياً في مساعيه لمصالحة ملك القدس. وبذلك التقى جناحا المملكة الصليبية من جديدٍ وإنْ بصعوبة. سارع كونت طرابلس المحترم، المستقر السلطة، والذي زعزعت مكانته أحداث الأُقحوانة، للارتماء راكعاً ومستغفراً أمام غي أُوف لوزينيان Guy of Lusignan، الملك الضعيف، وغير المحترم (لدى المسيحيين). وهكذا أدَّى الطرفان مشهداً من مشاهد المصالحة والصداقة، ومضوا جميعاً إلىٰ القدس؛ حيث ظهروا هناك في احتفالٍ كبير؛ أعلنوا فيه أمام الجموع وتحت الرايات المرفرِفة، تصميمهم على الدفاع عن المملكة المسيحية. ومن هناك رجع الكونت المعذور إلىٰ طبرية على وعدٍ أن يُعِدَّ فرسانَهُ، ويلاقي رجالات الملك في الربيع في صفّورية. لكن كان هناك شيءٌ في الأجواء، يكذّب مظاهر الثقة تلك. فلا الأعلام الملوَّنة الخفّاقة، ولا إعلانات الثقة، ولا حماسيات ومباركات الأساقفة والبطاركة، كان بوسعها إخفاءَ وجوه الضعف السياسية والعسكرية، التي كانت تُعاني منها المملكة الصليبية. فقد ذكر شهود العيان (الذين حضروا احتفالات القدس)، وأرّخوا للمملكة فيما بعد، نُذُراً وإشاراتٍ في السماوات، كما ذكروا رؤىً وكوابيس، تُشعر كلُّها باقتراب نهاية الزمان: «كانت هناك أماراتٌ وعلاماتٌ تُنذر بالدمار الآتي، المجاعات، والزلازل، وكسوف الشمس، وخسوف القمر». وفي الواقع، فإنّ سنتي 1186، و1187م شهدا ستة كسوفاتٍ وخسوفين. وفي 26 آذار/ مارس سنة 1187م، وعندما كان صلاح الدِّين يجمع قوّاته على سفوح الجولان، كان خسوفُ القمر شبه الكامل يترك لندن في ظلام دامس. وفي تلك الفترة حدثت اضطراباتٌ فلكية، شملت في إحدى المرات الكواكب الخمسة السيّارة. كان المنجّمون شديدي القلق. وبعد ثلاثة أسابيع على حدوث كارثة الأُقحوانة اقترن كوكبا الشمس والقمر في برج الميزان بشكلٍ ذكّر بالاقتراب الذي تنبأ به المنجّمون: «تلك الرياح العاصفة التي تنبأ بها الفلكيون، وقالوا إنها ستنتُجُ عن اقتران الكواكب، هي إشارةٌ أُخرى. لقد كانت عاصفةً قويةً فعلاً، هزَّت أركان الأرض الأربعة، وأنذرت بأنّ

العالَمَ كلّه كان على مشارف اضطراباتٍ وحروب». وعندما كان الجنود المسيحيون يتجمعون في حصن صفورية، رأى صاحبُ الملك حُلُماً مزعجاً. رأى نسراً محلّقاً فوق العسكر الصليبي، يجمع بين براثنه سبعة سهامٍ وقوس، ويصيح: الويل لكِ يا أورشليم!.

وبسبب الرعب الذي نزل به، قلّب الحاجبُ الأناجيل وقرأ في المزمور السابع [المزمور السابع: 13 ـ 14]: «على من لا يتوب يصقُلُ سيفه، ويطأ قوسه ويهيِّئها، ويسترد إليه آلات الموت، ويصنع سهامه ملتهبة»: أوَلم تكن تلك الأقواسُ السبعةُ إشارةً إلىٰ الخطايا السبع، والعقاب الذي نزل بالجيش المسيحي؟ ألا يجوز أن يكونَ صلاح الدِّين هو الأداةُ التي يستعملُها الربّ، الذي أغضبته خطايا شعبه؟

وهكذا فإنه عندما كان صلاح الدِّين يحشُدُ جيشَهُ شرقيّ بحيرة الجليل؛ فإنّ المملكة الصليبية كانت في اضطرابٍ شديد. لقد كانت المرة الأولى في الحقيقة التي يتجه فيها الجيش المسيحي إلىٰ مواجهةٍ حاسمة. فمنذ أحقابٍ وأحقاب كانت القوى الصليبيةُ والإسلامية تتصادم، فيتقدم أحد الطرفين على الآخر في إحدى المعارك، ليتقدم الطرف الآخر في معركةٍ أخرى؛ لكن لم يحدث منذ زمنٍ طويلٍ تغيُّرٌ استراتيجيٌّ في المواقع، لأنَّ الحربَ كانت في الحقيقة سِجالاً. كان كلٌّ من الخصمين، يعرفُ وجوه قوة خصمه ووجوه ضعفه، كما كان كلٌّ منهما يعرفُ تكتيكاته وتوجهاته الاستراتيجية جيداً. صحيحٌ أنّ أجزاءَ من المملكة الصليبية التي تكوَّنت في أعقاب الحملة الصليبية الأولى سنة 1098م استُعيدت من جانب المسلمين؛ بيد أنّ الأجزاءَ الأساسية من المملكة كانت ما تزال قائمةً ومتماسكة بعد سبعة عقودٍ من الحرب المستمرة. كان الصراع قد آلَ إلىٰ انضباطٍ وتنظيمٍ في مواجهة التفوّق العددي. على أنّ هذا الواقع جلب معه حقيقة أنّ صلاحَ الدِّين كان يملك هامشاً للخطأ أوسَع بكثيرٍ من الهامش الذي يملكه المسيحيون. وقد جرَّب صلاح الدِّين الانتصار في

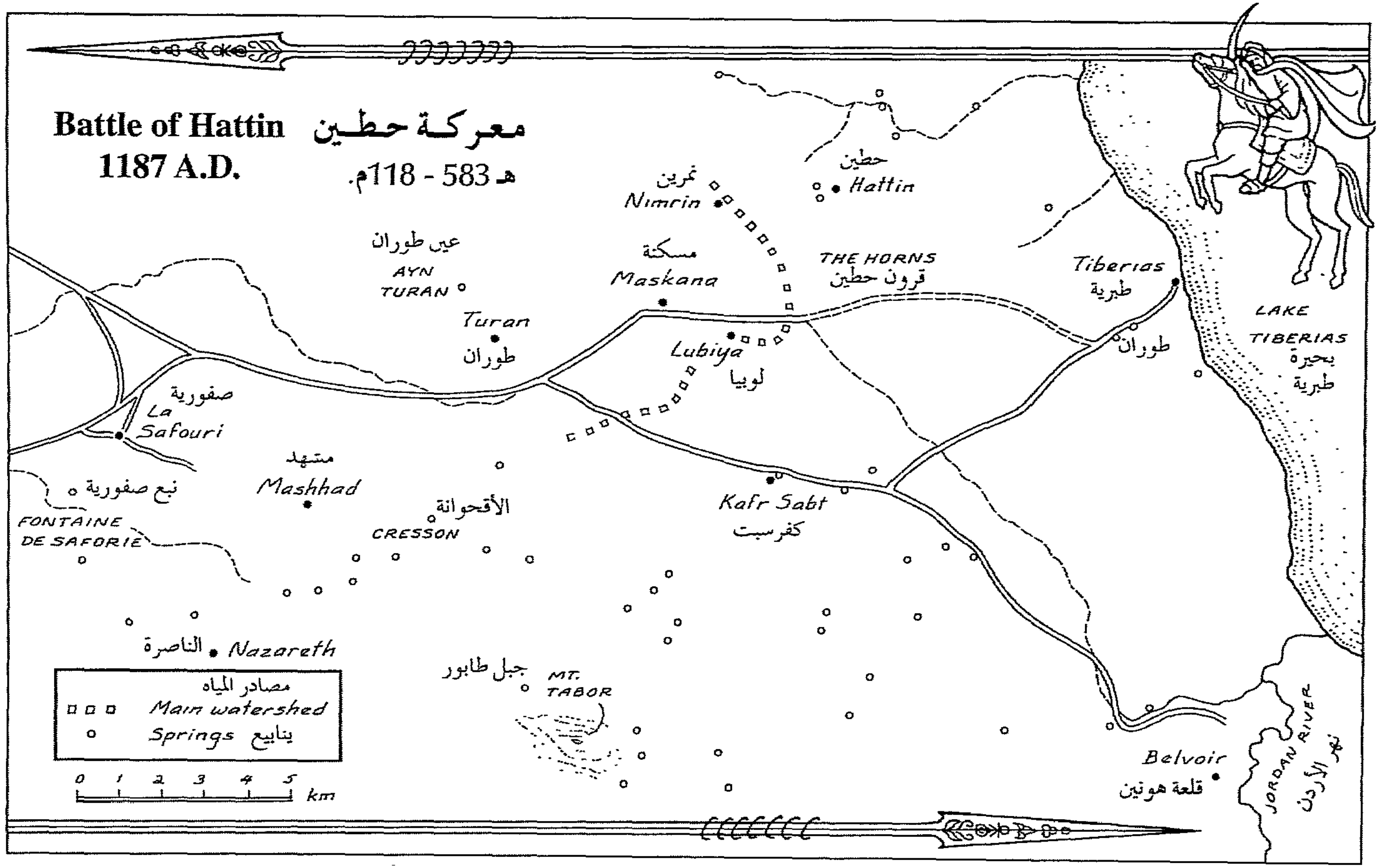
بعض المعارك، كما جرَّب الهزيمة في معارك أخرى؛ وبخاصةٍ قبل عشر سنواتٍ عندما ارتكب خطأ شطر جيشه إلىٰ شطرين، وقاسى نتيجة ذلك هزيمةً منكرةً على يد فرسان الهيكل في وقعة الرملة. وأمام القوة البشرية الضخمة (التي لا تستنفدها الهزائم) سارع الصليبيّون (كما هو معروف) إلىٰ بناء قلاعهم الضخمة.

بعث الملك غي نُذُرَهُ إلىٰ سائر أنحاء المملكة، مستعجلاً الانضمامَ إلىٰ الجيش الصليبي بصفورية، لأنّ جيش الكفرة يتجمّع على الحدود. ووعد الملكُ كلَّ جنديٍ يسارع للقتال بعطاءٍ جيد. إذ كان الملك قد عمد إلىٰ فتح خزائن الاحتياطي الخاص، المرسَل من ملك إنكلترا هنري الثاني لمساعدة المملكة الصليبية، تكفيراً عن الاشتراك في قتل توماس بيكيت (كما اتفق مع البابا آنذاك). بيد أنّ ذلك لم يكن عاملَ الإغراء والتحميس الوحيد. فقد اتجه الملك غي إلىٰ خطوةٍ أخرى أكثر أهمية: لقد أمر بطريرك القدس أن يرسل إليه الصليب الحقيقي من الذخيرة المقدسة (بكنيسة القيامة). وكانت تلك الذخيرة الأعزّ على المسيحيين قد أُحضرت لساحات المعارك عشرين مرةً قبل ذلك في العقود الثمانية السابقة. فقبل أربع سنواتٍ فقط، أي سنة 1183م حُمل الصليب الأعظم في غارةٍ إلىٰ أعماق بلاد الشام، ونُسِبَت لذلك الحضور المقدَّس قدرةُ الصليبيين على الحيلولة دون انتصار صلاح الدِّين عليهم. أما الآن، فقد وُضع الصليب برعاية أسقفي اللد وعكا في قلب الجيش، باعتباره الدرع الأخير الواقي من الهزيمة. وبذلك صار الجنود الصليبيّون هم حملةُ صليب الرب وحَفَظتُه. وما كان عدد ذلك الجيش المحتشد قليلاً. فعلى الرغم من الخسارة بالأُقحوانة، تجمع في صفورية زُهاء الألف والمائتي فارس، هم في الحقيقة كلُّ نبلاء المملكة الصليبية، بالإضافة إلىٰ عشرين ألفاً من المُشاة. وكان ذلك أكبر جيشٍ احتشد في المملكة اللاتينية على الإطلاق.

تقع صفورية على مقربةٍ من الناصرة. وهي المكان الذي اعتاد فرسان

المملكة التجمّع فيه. وتقوم في صفورية قلعةٌ على تلٍ عالٍ لحماية المدينة ذات الأصل الروماني. وإلىٰ القرون الرومانية أيضاً تعود تلك الشبكة من مجاري المياه وخزاناتها والمعابر تحت الأرض؛ وكانت مشهورةً بحماماتها وينابيعها الغزيرة؛ التي جعلت منها خزان الماء للمملكة اللاتينية كلّها. فتحت القلعة تتدفق المياه في وادي **رمون** (راويةً البساتين على الضفاف): «وفي ذلك الزمان اجتاز يسوع في السبت بين الزروع فجاع تلاميذه فجعلوا يقلعون سنبلاً ويأكلون» [إنجيل متى 12: 1، ولوقا 6: 1]. أمّا والدا السيدة مريم يواكيم وحنّة فقد أتيا من صفورية ذاتها. وطالما بقي الجيش في هذا الموقع الحصين الغنيّ بالغذاء، والحافل بالمياه، فإنّه سيكون آمناً.

في تلك الأيام القلقة كانت الشائعات عن قوة العدو واسعة الانتشار. وغذتها أخبارٌ مفادها أنّ دُعاة الخليفة توزعوا في آسيا الصغرى محاولين إثارة حماس الشبان المسلمين. وفي الحقيقة، فإنّ جيش صلاح الدّين لم يكن أكثر عدداً بكثير من الجيش المسيحي. إذ ربما كان مجموعه حوالي الثلاثين ألفاً، وإن يكن مختلف التكوين. فالشوام والعراقيون والمصريون شكّلوا معظم قوات صلاح الدِّين، ومن ضمن تلك القوات عناصر كردية كانت تحظى بالإعجاب الشديد باعتبار أفرادها من أفضل الجنود على الإطلاق؛ ومن بينهم كانت القيادات تأتي غالباً. بلغ عدد الفرسان في جيش صلاح الدِّين حوالي الإثني عشر ألفاً؛ ومعهم عددٌ مُماثلٌ من المُشاة لمساعدتهم. وكان سلاح الخيالة الخفيف هذا مكوَّناً من فرسانٍ محكمي التدريب على القتال من فوق ظهور الجياد، كما أنَّهم كانوا رُماةً ماهرين بالقوس أثناء ركوبهم؛ بالإضافة إلىٰ مهارتهمْ في استعمال الحراب المميتة التي صُنعت نصالُها من القصب. أما عدة الحصان، بما في ذلك سرجه؛ فقد كانت محشوَةً بنوعٍ من القطن الخفيف يُسمَّى الكَزاغند يتحرك فوقها الفارس بسهولة، على جيادٍ يمنية الأصل، صغيرة القامة دقيقة القوائم والبطون، سريعة الحركة والقفز. وكان الفرسان يتوزعون



Battle of Hattin
1187 A.D.
معركـة حطـين
583 - 118هـ.م
Nimrin
نمرين
Hattin
حطين
عين طوران
AYN TURAN
Turan
طوران
مسكنة
Maskana
THE HORNS
قرون حطين
Tiberias
طبرية
LAKE TIBERIAS
بحيرة طبرية
Lubiya
لوبيا
طوران
صفورية
La Safouri
مشهد
Mashhad
نبع صفورية
FONTAINE DE SAFORIE
الأقحوانة
CRESSON
Kafr Sabt
كفرسبت
الناصرة
Nazareth
جبل طابور
MT. TABOR
مصادر المياه
Main watershed
Springs ينابيع
0 1 2 3 4 5 km
Belvoir
قلعة هونين
JORDAN RIVER
نهر الأردن

في كتائب صغيرة، مدرَّبة على قتال الكرّ والفر. وهكذا فقد كان جيش المسلمين حسن التنظيم، حسن القيادة، ويتّسم بالانضباط، وله عدة ميزاتٍ على الجيش الصليبي. فقد كان سائر الجنود يتكلمون لغةً واحدةً هي العربية. ومع أنّ حجمه ما كان أضخم من حجم الجيش الصليبي، فقد أحاطت به شهرةٌ أُسطوريةٌ بعد أن بدأ بتحقيق الانتصارات. وقد وصلت الأخبار إلىٰ البابا بأنّ عدد جيش المسلمين بلغ الثمانين ألفاً. وقيل في روايةٍ أخرى إنّ السلطان يحشد مائةً وثمانين ألفاً، (وقد ارتفعت تقديرات أعداد جيش الكَفَرة بعد المعركة إلىٰ حدود الثمانمائة ألف)!

أمَّن الكونت ريموند إقطاعيتَه المعرَّضة في طبرية؛ فطرد المسلمين (من أعوان صلاح الدِّين)، وترك امرأته الشجاعة أيشيفا Eschiva في القلعة داخل أسوار المدينة مع تعليماتٍ بأن تفِرَّ عبر بحيرة طبرية إذا انتصر صلاح الدِّين على الحامية. ثم مضى الكونت على رأس قواته للانضمام إلىٰ الملك.

II

الله أكبر

في الأول من تموز/ يوليو، وعلى وقع صرخات الحماس: النصر على عدوّ الله! عَبَرَ جيش المسلمين نهر الأردنّ جنوبَ بحيرة طبرية، أمام أنظار فرسان الهيكل الذين كانوا يراقبونهم من قلعة هونين؛ المشرفة من على هضاب الجولان على تلك الوهاد. وقد كان حجمُ الجيش ـ كما عبَّر عن ذلك صلاح الدِّين عقِبَ المعركة ـ من الضخامة بحيث إنّ السهلَ الشاسع ما كان لِيَسَعَهُ، كما أنّ «الغبار المُثار من تحت سنابك الخيل غطّى عينَ الشمس». وتجاوز المسلمون طبرية في البداية، سائرين غرباً إلىٰ ناحية كفرسبت، على مبعدة خمسة أميالٍ من الناحية الشرقية للأُقحُوانة ورأس الماء. ومن موقعه ذاك

استطلع صلاح الدِّين برضىً سهلَ لوبيا على الجهة الشمالية من معسكره، وقال لضبّاطه إنه يأمُلُ أن يستدرجَ الفرنجةَ إِلىٰ هذا السهل للمعركة الحاسمة. ومن أجل إزعاج الفرنجة وإثارتهم؛ فإنّ المسلمين أشعلوا النيران بالبساتين والحقول التي أنضجتها أشعة شمس الصيف. وعندما لم يُبْدِ العدوّ أيَّ ردة فعلٍ، عمدوا إِلىٰ العبث في قمة هضبة طابور، المكان الذي ظهر فيه المسيح لتلامذته، وحيث سمعوا صوتَ السيّد من خلال الغمام. لكن، أياً يكن انزعاج المسيحيين لانتهاك المقدّسات؛ فإنهم ما أظهروا ذلك. وهكذا بدا لأول وهلةٍ أنهم لن يغامروا بمنازلة صلاح الدِّين.

في اليوم التالي، قام السلطان مع بعض التردد، بقسمة جيشه، وهو على وعيٍ تام بمخاطر ذلك. فقد قاد قوةً صغيرةً، لكنها من قوات النخبة في الجيش؛ بما في ذلك حرسه الخاص، الذين كان يسميهم على سبيل التحبّب جمرات الإِسلام، باتجاه طبرية. وقد عمل أولئك الجند بسرعةٍ في تشعيث أسوار المدينة وتخريبها، وتوصلوا لهدم أحد الأبراج، ودخلوا المدينة من تلك الفتحة، واجتاحوها بسرعةٍ سقط بنتيجتها بعض القتلى: «وامتدت إليها الأيدي بالنهب والأسر والحريق والقتل، واحتمت القلعة وحدها»[1]. لقد أُخذت الثروات، وصودر الذهب والفضة بكمياتٍ كبيرة، وغُنمت الخيولُ والمواشي، وصودرت الزيوت والأقطان. وعاد صلاحُ الدين إِلىٰ مصحَفه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [سورة آل عمران: 14]. أما الكونتيسة أيشيڤا فقد هربت إِلىٰ قلعة المدينة واعتصمت بها مع حرسها. ذلك أنّها لم تستطيع الوصول إِلىٰ بحيرة الجليل لقطع الطريق عليها بشكلٍ مفاجىء في بداية الهجوم. وأرسلت المرأة لزوجها رسالةَ استغاثةٍ من أجل أن يسارع لإنقاذها: «لقد حاصر العدوّ المدينة، وهم

(1) ابن شدّاد، ص 76، وابن الأثير 11/ 533، ومفرج الكروب 2/ 188. (المترجم).

يحاولون الآن تحطيم الأسوار من أجل الدخول إليها. أرسِلْ مدداً الآن، وإلاّ فسنقَعُ جميعاً في الأسر». لقد كان بوسعها البقاء خلف حيطان القلعة؛ لكنْ ليس لزمنٍ طويل. وسارع الرسول لامتطاء جواده خارجاً من المدينة المحترقة، واخترق صفوف المسلمين، دون أن يلحظه أحد.

عندما وصل نداء الاستغاثة إلىٰ الملك غي، جمع الرجل باروناته في مجلس حرب. وكان رأي شاتيون والرئيس الشرِس لفرسان الهيكل جيرار دو ريدفور منذ البداية الركوب فوراً لإنجاد السيدة المحاصَرة من محنتها. فقواعد الفروسية تتطلّب استجابةً مباشرة؛ لذلك قال دو ريدفور: «أطلب منكم وأدعوكم للذهاب لمساعدة طبرية»! كان الرجل يتحدَّث كأنما تُملي عليه ذلك قوةٌ عليا؛ فإن لم يفعل الملك شيئاً في بداية عهده هذا؛ فإنه سيبدو غبياً في نظر صلاح الدِّين، وسيحاول العدوّ الشرير الاستفادة من ضَعفه. والتفت الملك أخيراً إلىٰ النبيل الذي تمسُّه المسألة أكثر ما يكون، الكونت ريموند؛ الذي كانت زوجته في خطر، كما كانت إقطاعيتُه طُعمةً للنيران. وكانت المفاجأة، أنَّ الكونت نصح بالحَذَر والحيطة: «أنتم تعرفون أننا في عزّ الصيف، وهو أكثر فصول السنة حرارة. دعوا القوات المسيحية تنتظر العدوّ هنا: فقوة المملكة وحرارة الشمس كافيتان الآن لمصارعته. وعندما يرحل نكون مستعدين لملاحقته، والضرب في مؤخّرته. وأنا واثقٌ بمشيئة الربّ، أننا نستطيع بهذه الطريقة إلحاق خَسَائر كبرى به، بحيث تبقى مدينةُ القدس بسلامٍ وأمان». وسارع شاتيون وجيرار دو ريدفور إلىٰ إعلان سُخْطهما على هذه النصيحة. قال شاتيون إنّ هذا الاقتراح «ممزوجٌ بشعر الذئب»، موحياً بأنّ رأي ريموند كان فاسداً ومبعثُهُ الخيانةُ والجبن.

وانفضّ الاجتماع على غير قرار، ومضى الملك لاستطلاع أحوال عسكره، الذي كانت أعدادُهُ تتزايد في حمأة الشعور باقتراب اندلاع الحرب المقدَّسة. وعندما رجع من الثكنات، عاد لجمع قادة الفرسان والنبلاء. في مجلس الملك أقبل ريموند ثانيةً على النصح بالتريُّث: «أيها السادة، أنتم

تعلمون أنَّ طبرية لي ولزوجتي، وأي ضررٍ يحصُلُ هناك فسينزل بي وليس بأي أحدٍ آخر. ولأنّ سيدة طبرية هي زوجتي؛ فإنّ آخِر شيءٍ أُريدُهُ نزول أيّ سوءٍ بها. لقد أرسلْتُ إمداداتٍ ومؤناً، ونصحتُها بأنه في حال العجز عن الصمود في وجه قوات صلاح الدِّين الضخمة؛ فإنّ عليها أن تنزل إلىٰ البحيرة لحين تمكُّننا من إنقاذها. وما اكتفى ريموند بالنصيحة بعد الهجوم؛ بل اقترح أيضاً الانسحاب إلىٰ القلعة الأكثر حصانةً في عكّا، كما اعتاد عليه الفرسان المسيحيون في الزمان الماضي: «أنا أعرف صلاح الدِّين، وهو أكثر كبرياءً وتصميماً من أن يغادر أراضي المملكة دون أن يصادمكم. وإذا كانت نتائج المعركة بقرب عكّا سيئةً بالنسبة لنا، لا سمح الله، فإننا نستطيع الاعتصام بحصن عكّا. أما إذا وهبنا الله النصر، واستطعْنا إرغام العدوّ على التراجع إلىٰ أرضه؛ فإننا سنكون قد أضعفناه ومزَّقنا صفوفه، بحيث لا يتمكن من مهاجمتنا من جديد». وعاد شاتيون للصراخ: هذا هو شعر الذئب! وتظاهر ريموند بعدم السماع، وتابع قائلاً[1]: «وإذا لم يحدُثْ ذلك كلُّه كما أقول، فسَأطلُبُ منكم أن تقطعوا رأسي»! بيد أنّ شاتيون لم يلتفت لشيءٍ من ذلك وقال بعصبية: «إنك تقف بوضوح إلىٰ جانب الأعداء، وعواطفك معهم، وإلاَّ لما تكلمْتَ بهذا الأُسلوب»[2]. وهذه المرة مال جميع البارونات إلىٰ جانب الصقر؛ وصاحوا

---

(1) في الكامل لابن الأثير 11/ 533: «إن طبرية لي ولزوجتي. وقد فعل صلاح الدّين بالمدينة ما فعل، وبقيت القلعة وفيها زوجتي. وقد رضيتُ أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لي بها ويعود. فوالله لقد رأيتُ عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيتُ مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدّين قوةً وكثرة. وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها وإن قام بها لا يقدر على المقام إلاّ بجميع عساكره، ولا يقدرون على الصبر طوال الزمان عن أوطانهم وأهليهم؛ فيضطرّ إلى تركها، ونفتكُّ من أُسر منا».

(2) النص في الكامل لابن الأثير 11/ 533: «قد أطلْتَ في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم وإلاّ ما كنتَ تقولُ هذا. وأما قولك إنهم كثيرون فإنّ النار لا يضرها كثرة الحطب. فقال القمص: أنا واحدٌ منكم إن تقدمتم تقدمتُ، وإن تأخرتم تأخرتُ وسترون ما يكون».

بصوتٍ واحد: «دعونا نمضِ لإنقاذ سيدات طبرية وصباياها»! وانضمَّ ابن أيشيفا من زوجها الأول، وربيب ريموند إِلىٰ جانب الصقور، وطلب من الملك والدموع في عينيه المسارعة لإنقاذ والدته. وهكذا ظهرت قوة روح الفروسية وتقاليدها.

وعاد الملك للتردد والتذبذب كما كان شأنه دائماً. ومع الملك تردد البارونات وتأرجحوا أيضاً، مائلين إِلىٰ جانب رئيس فرسان الهيكل تارةً، وإِلىٰ جانب كونت طرابلس والإسبتارية تارةً أُخرى. وعندما تزايدت المجادلات يوم الثالث من تموز/ يوليو؛ عادت أكثريةُ البارونات للوقوف بجانب ريموند. فالصليبيّون لا يملكون القوة الكافية لدفع صلاح الدِّين عن طبرية. وقد رأى ريموند أنّ جيش صلاح الدِّين سيتفرّق بعد الاستيلاء على طبرية. وبذلك فقد كانت النقاشاتُ تتحوّل إِلىٰ مواجهةٍ بين الشرف والحكمة. وفي المساء انتصرت الحكمة لبعض الوقت؛ فوَافق الفرسان على التلبُّث لبضعة أيامٍ في موقعهم الحصين والمُريح والغني بالمياه، متوقعين تدفُّقَ قواتٍ أُخرى إليهم، ومنتظرين التطورات اللاحقة. لكنْ مع هبوط الليل، تسلّل رئيس فرسان الهيكل إِلىٰ الغُرَف الداخلية للبلاط الملكي. فقد كان حقده على ريموند عظيماً؛ إذ كان هذا الأخير قد حال دون اقترانه بأميرةٍ ثريةٍ بعد أن كان قد وعد بذلك: «سيدي، لا تثق بنصيحة الكونت، لأنه خائن. فأنتَ تعرفُ أنه لا يحبُّك، ويريد لك الركون إِلىٰ وضعٍ يجلبُ عليك العار. أنا أرى أن تتحرّك مباشرةً. دعنا نخرج ونهزم صلاح الدِّين». هذه المرة أوصل فارس الهيكل النقاش إِلىٰ نقطةٍ حرِجة، تتعلّق بالكرامة الشخصية، أَو الجبن. وفي التفاتةٍ مقصودة، أشار الهيكليُّ إِلىٰ واقعة إزاحةِ الملك قبل ثلاث سنواتٍ من موقع الوصي على العرش، عندما سمح غي لقوات صلاح الدِّين بالعسكرة على مقربةٍ من عيون طوبانيا لمدة ثمانية أيام، دون مهاجمتهم؛ مناقضاً بذلك قواعد الفروسية، وكل أصول قوانين المملكة اللاتينية. لقد عوقب الملكُ آنذاك بسبب جبنه. وهو لا يستطيع تكرار

الخطأ نفسه الآن. وإذا خار الملك الآن، في الحملة الأولى بعد صيرورته ملكاً على القدس؛ فإنّ ريدفور لا يضمنُ له دعم فرسان الهيكل في المستقبل.

أظهرت حُجَجُ مقدَّم فرسان الهيكل وجاهةً وقوة. ولهذا فقد بدا لأول وهلةٍ أنّ الملكَ عاد للأخذ بآخر رأيٍ يسمعُه. فقد كانت شجاعته، كما صارت رجولته، موضع شكٍ وتساؤل. ولذلك فقد غيَّر توجُّهه وأعلن أنه سيتحرك للخروج عند الفجر. وسارع إليه البارونات محتجين: «لقد استقرت المشورة على أن نبقى هنا لهذه الليلة على الأقلّ. فمن الذي زوَّدك بالنصيحة القائلة بالتحرّك الفوريّ للجيش؟» ونحّى غي ضَعفَهُ وتردّده جانباً وصاح: «ليس من حق أحدٍ أن يسألني بمشورة من أفعل هذا أَو ذاك»، ثم أضاف عابثاً بعصبيةٍ في زينة ملابسه الملكية: «أريدكم أن تمتطوا جيادكم تاركين هذا الحصن باتجاه طبرية». وسارع ريموند محاولاً للمرة الأخيرة ثنيه عن عزمه: «طبرية مدينتي، وزوجتي هناك. ولا أحدَ منكم ناله من الضرر ـ باستثناء المسيحية ـ ما نالني ونال مدينتي. أرى أن لا نغادرَ هذا المكانَ الغنيّ بالماء والغذاء للسير مع هذه الآلاف المؤلَّفة من الرجال نحو الموت جوعاً وعطشاً وحرّاً. إنّ جنودنا لا يستطيعون البقاء نصف نهارٍ بدون ماء. صدِّقوني وابقَوا هنا في هذا الموقع المتوسط الآمِن والرغد». بيد أنّ كلماتِه لم تُسمع وسط الجوّ الاستعراضي المليء بمزايدات الرجولة والكفاح. لقد خضع الفرسان وأطاعوا، واتجهوا للاستعداد من أجل الرحيل. قال كاتب حولياتٍ فيما بعد: «بوصفهم رجالاً حقيقيين ومنظّمين، أطاعوا مليكهم، وأقبلوا على تنفيذ أوامره. ولو أنهم ما فعلوا ذلك ولو لهذه المرة فقط، لربما كان ذلك أفضل للمسيحية». وتقول الأسطورة التي نَمَت بعد تلك الأحداث إنّ خيول المسيحيين أبت تلك الليلة أن تشرب من عين صفورية.

الفصل السابع

المياه الساكنة

في مسار تحليق الغراب، تقع طبرية والمياه المتلألئة في بحيرة الجليل، على مسافة خمسة عشر ميلاً إلىٰ الشرق من ينابيع صفّورية وآبارها. وعلى مدى المسافة بينهما تخترقُ الطريقُ المتعرّجةُ الواديَ الجافَّ الذي تحوطُهُ هضابُ الناصرة من الجنوب، وجبل طوران من الشمال الشرقي. تمضي الطريقُ المتلظّيةُ تحت أشعة الشمس عبر سهل لوبيا وفوق مرتَفَعٍ من الأرض ذي شعبتين معروفتين باسم «قرنَي حطّين». ولا ماءَ على جوانب تلك الطريق غير مجاري السيول الشتوية، وبعض البِرَك التي تكفي بالكاد حاجات السكّان القليلين في قريتي لوبيا ومسكنة. بيد أنّ هناك مشكلةً أُخرى غير نُدرة المياه؛ تتصلُ بالقدرة على قَطْع تلك الفيفاء بسرعة. في السنوات السابقة، ما كانت إغاراتُ المسيحيين الناجحة قادرةً على قَطْع أكثرمن ستة إلىٰ سبعة أميالٍ في اليوم إذا كان عليها أن تُواجِهَ تعرُّضات العدوّ في الوقت نفسه. وفي الثالث من يوليو، عندما كانت درجاتُ الحرارة هناك لا تكادُ تُطاق، بدأ الجيش الصليبي مسيرتَه باتجاه طبرية. كان الجيشُ المذكور مقسَّماً إلىٰ ثلاث فِرَق. قاد فرقة الطليعة الفارس القديم العارف بتلك الأرض ريموند الطرابلسي؛ وكانت مكوَّنةً من رجالاته، ومن فرسان الإسبتارية. أما الملك (غي) فقاد فرقة القلب أَو

الوسط المكوَّنة من فرسانه، والتي كانت تحمل الصليب الأعظم. أمّا باليان أوف إبلين، سليل أهمّ أسرةٍ صليبيةٍ في المملكة اللاتينية؛ فقد قاد فرقةَ الساقة أو المؤخّرة؛ والتي كانت مكوَّنةً من فرسان الهيكل. عند الظُّهر كان الجيش قد قطع بدون عوائق ستة أميال اجتاز خلالها منحَدَراً حادّاً، وبلغ الجهة الجنوبية من جبل طوران. كان في قرية طوران نبعٌ صغيرٌ جارٍ، وكما جاء في تقريرٍ لصلاح الدِّين فيما بعد فإنّ صقور رجّالة العدوّ، ونسورَ فرسانه، كانوا يحومون حول الماء، مهتاجين. وكان على الملك غي هنا أن يتخذ قراراً حسّاساً: هل يكونُ عليه أن يمضي في تلك الرمضاء القائظة وسط النهار، أو يأمر بالنزول عند النبع لقضاء الليل؟ ما كان هناك شكٌّ في معرفة العدوّ بحركاتهم، وحضور عساكره من حول الجيش المسيحي؛ سواءٌ في التلال لجهة الشمال أو في الجنوب، ثم في بقية المسافة التي عليهم قطْعُها. فالأميال الستة الباقية ما كان قَطْعُها سهلاً. ومع أنّ الوقت كان ما يزال مبكّراً؛ فما كان يمكنُ تجاهُلُ الموقف اليائس للسيدة المحصورة في قلعة طبرية، كما أنّ صقور الجيش كانوا يستحثّون الملك على السير إلىٰ الأمام. وربما كان الحرّ، والاضطراب، وراء تسرُّع غي في اتخاذ قراره. أمّا صلاح الدِّين فلم يكن لديه شكٌّ، حسبما يقول القرآن، أنّ الشيطان هو الذي أَضلّ الملكَ في هذا الظرف الدقيق، ودفعه إلىٰ أن يقومَ بما هو خلاف الحكمة. «وهكذا فقد سار مسرعاً باتجاه طبرية، مدفوعاً بالكبرياء والعجرفة، للأخذ بثأره». كانت بحيرة طبرية ما تزالُ على مبعدة تسعة أميالٍ إلىٰ الأمام، واستعجل الجيش في مغادرة القرية، طاوياً نبعَ طوران تحت الغبار الذي أثارته مؤخّرة الجيش الزاحف. وما كاد الجيش يغادر الواحة الصغيرة، حتى كانت خيّالةُ صلاح الدِّين السريعة تتبعُهُ من الوراء، قاطعةً عليه إمكانيةَ التراجع، وحائلةً بينه وبين الماء في الوقت نفسه. وبدلاً من أن يعودَ الجيشُ الصليبي أدراجَهُ ليتجنَّب التطويق، مضى قُدُماً وبسرعةٍ للوقوع في الشَرَك (الذي نصبه له صلاح الدِّين). وسط القيظ والتطويق، كان الكونت ريموند الطرابلسي هو الأكثر إحساساً بخطورة الموقف. فقد طلب من الملك التقدّم

وتجاوُز تلك البقاع أَو سيكون هناك احتمالُ الاضطرار للنزول في بقعةٍ لا ماءَ فيها. وأجاب الملك منزعجاً: سوف نجتازُ هذه المسافة أخيراً! فقد كان هو أيضاً يشعُرُ بخطورة الموقف الذي هم فيه؛ فهم لا يستطيعون الإسراع (بسبب تعرّضات عسكر صلاح الدِّين) ولذلك يبدو كأنما هم في نزهة(بسبب بطء مسيرتهم)! وبعد الحصول على موافقة الملك، حاول ريموند التسلُّل نحو الشمال باتجاه قرية حطين، بسبب غناها بالماء. لكنه ألفى الطريق مسدودةً بالعسكر الصلاحي، ولذلك فقد وجد نفسه واقفاً في مواجهة ذلك المنحدَر العالي. وبعد غروب شمس ذلك اليوم، تلفّت ريموند من حوله، فلاحظ مرعوباً، أنّ عسكر الملك خيّم في قرية مسكنة المقفرة وركّز راياته هناك، بدلاً من البقاء في مواقعه في قلب الجيش من أجل الدعم والمساندة. صار الجيش في الليل مُحاصَراً من كلّ الجهات، وكانت تلك القوات المطوَّقة بدون ماء، وبدون أملٍ في المدد والإنجاد. كانت حطّين ذات القرنين الشاهقين تقع على مبعدة ميل، وقد غطّى عسكرُ صلاح الدِّين كلَّ تلك الهضاب. ولا شكّ أنّ عبثية الموقف ما كانت خافيةً على كونت طرابلس. فأتباع المسيح صاروا الآن منخفضي المعنويات، ضعفاء، يتأوّهون، وجبلُ القداسة ذاك تحوّل إلىٰ قرونٍ للشيطان: «عجباً، سيدي الرب، لقد انتهت المعركة»؛ قالها ريموند يائساً: «لقد خُدعنا حتى الموت، والمملكةُ انتهت!». وبدأ ليلٌ يشبه الجحيم في قتامته. فقد اقتربت القوات الإسلامية من المعسكر المسيحي؛ إلىٰ حدّ أنّه، كما قيل لاحقاً، لو انفلتت قطةٌ من المعسكر، لأَمسكَ بها المسلمون. وأمر صلاح الدِّين بإعطاء مزيدٍ من السهام لرُماة الجيش، وطلب منهم أن يقصدوا برماياتهم جياد الصليبيين؛ ذلك أنّ الفارس بدون جواده لا يستطيع الحركة. كما أنّه يتحولُ بسلاحه الثقيل إلىٰ كائنٍ ضائعٍ وسط تلك البرية القائظة الجرداء. ثم إنّ السلطان أمر بوضع نار في العشب اليابس فيما بين العسكرين، فامتلأت تلك الأصقاعُ بالدخان الهائل نتيجة الاشتعال السريع في السهل الجافّ. وقال صلاح الدِّين إنّ النار الناجمة عن احتراق الأعشاب هدفُها تذكيرُ الغُزاة بالجحيم

الذي ينتظرهم في العالَم الآخَر. وعن تلك الليلة كتب مؤرّخٌ مسيحيٌّ فيما بعد: «لقد ابتلانا الله بطعام الفُرقة لنتسوَّغه، وسقانا ماءَ الأسى لنَغَصَّ به». وكانت عبارتُه تلك إشارةً إلىٰ ما ورد في سِفْر أشعيا [30: 20]، الذي يُتابع: «.. ولا يتوارى معلِّمك من بعدُ، بل تكونُ عيناكَ تريانِ معلِّمك». ومع أشعة الضوء الأُولى، وعلى الرغم من الدخان الكثيف الذي يسدُّ الأجواء؛ فقد كان بوسع المسيحيين أن يسمعوا صوت معلِّميهم بشكلٍ جيّد. فبعد ليلٍ بدون ماء، استيقظ الجنود ضعفاءَ ومنخفضي المعنويات. وفي هذا الموقف المرتبك فارق أربعةٌ من الفرسان من فرقة ريموند صفوف الصليبيين، ولجأوا مباشرةً، إلىٰ صلاح الدِّين؛ الذي كان قد حرَّك فِرَقَهُ خلال الليل، واعتلى مع حرسِهِ قمم التِلال، يراقب مشهد الجيش الصليبي من موقعٍ مُشرفٍ وكاشف. وسارع الضباط إلىٰ السلطان قائلين: «سيدي! ماذا تنتظرُ؟ هاجِمْهُم! فإنَّهم هالكون». لكنّ صلاح الدِّين أراد انتظار ارتفاع الشمس في الشرق بحيث تكون في وجوه الصليبيين عندما يحاولون الكفاح من أجل بلوغ البحيرة، كما أنَّه كان ينتظر ارتفاع الحرارة، وهبوب الريح. وفي سهل لوبيا جُمعت أكوامٌ من الأعشاب الجافّة استعداداً للصباح. وعند الظهر كانت تلك الأكوام تلتهب لظىً ودُخاناً يسدُّ الأُفُقَ، ويتجه بسرعةٍ نحو معسكر العدو الصليبي، الذي صار محاصَراً الآن في الأرض الفضاء بين تلة الأشبال، وتلة نِمرين[1]، أمّا قرنا حطّين فينتصبان أمام الجيش مباشرةً.

في بداية الوقعة، تجمعت الرجّالة الصليبية على شكل طابورٍ في المقدّمة، واندفعت باتجاه القرن الشمالي. ومن هذا الموقع المرتفع نظروا إلىٰ المياه الزرقاء المتلألئة في بحيرة الجليل. وبقدر ما كانت تلك المياهُ جذّابةً وشائقة، بقدر ما كانت ممتنعة. فقد كانت تحولُ بينهم وبين المياه؛ الأمواج

(1) يذكر المؤلف هنا أنّ الأشبال Levi نسبةً إلى صغار الأسود (الأشبال)، ونمرين نسبةً إلى النمور؛ وبذلك سُمّي الموطنان (المترجم).

المتلاطمة للجيش المسلم الضخم. وقد رُدَّت تلك الاندفاعة إلىٰ الأمام إلىٰ فصل المُشاة عن الفرسان خلفَهُم. وعندما رأى الملك تلك الثغرة المفتوحة في صفوف الخيَّالة، أمر الرجّالة بالعودة لحماية الصليب الأعظم. بيد أنَّهم رفضوا ذلك وقالوا: ألا ترى أننا لا نستطيع التراجع؟ فنحن نموتُ عطشاً! لا نستطيع القتال! وفي ذلك الوقت، وكما هو معروفٌ عن تكتيكات جيوش المسلمين؛ فإنّ فرسانَهم بدأوا بالضرب في مؤخّرة فرسان الهيكل. وأجاب الهيكليون على ذلك بعدة هجماتٍ مضادّةٍ، بيد أنّ المؤرخ المسلمَ يعلقُ في تقريرٍ عن المعركة بأنّ هجماتِهم كانت عبثاً، **لأن أسودَهم كانت مَنَاجذ!** وهكذا فقد دُفع الفرسان من الساقة إلىٰ القلب. ولأسبابٍ غير مفهومة أمر الملك بنصب الخيام في مواجهة المسلمين على شكل سدٍ لمنع تقدمهم، كأنما تستطيعُ الأقمشةُ والجلودُ والحبالُ أن تقاومَ السهامَ والرماح. ومع اشتداد الهجمات من كل جانبٍ فإنّ الجنود المسيحيين المحاصَرين تجمعوا من حول الصليب الأعظم، آملين أن تحدث معجزةٌ فيظهر القديس جيمس نفسه بازغاً من الغمام، ويعمد إلىٰ قتل المسلمين بعشرات الألوف كما سبق أن فعل في عجيبة كلافيجو Clavijo بإسبانيا قبل ثلاثمائة سنة. لكنْ لم تكن في السماء غمامةٌ واحدة، ويبدو أنّ معجزة الخلاص لن تحدث. ولذلك فقد بدأت الصفوف تتشرذم وتلوذُ بالفرار.

سارعت كتيبةٌ قويةٌ من فرسان صلاح الدِّين إلىٰ شقّ فرقة المقدمة التي يقودها ريموند إلىٰ نصفين، فاصلةً أيضاً بينها وبين فرقة الملك. وعندما رأى الملك ذلك طلب من ريموند أن يهاجم مقدّمة جيش صلاح الدِّين. بيد أنّ زمن الفروسية كان قد ولّى. إذ عندما اقتربت فرقة ريموند من فرسان مقدمة صلاح الدِّين، انفرجت صفوف تلك المقدمة لإدخال العدو في الشَرَك، كما حدث من قبل عند عيون الأُقحُوانة، ثم أطبق الجناحان المنفرجان عليه. وبدأت المذبحة. وصرخ ريموند في فرسانه: «من استطاع منكم النجاةَ فلينجُ؛ فإنّ المعركة قد حُسمت! بل إننا فقدْنا الفرصةَ في الهرب». وربما كان الرجل

يتحدَّث إلىٰ نفسه. ومن جهةٍ أخرى؛ فكأنما كان العرب يعرفون تماماً ما يفعلونه؛ إذ فسحوا لريموند المجال لكي يستطيع النجاةَ بنفسه عبر ممرٍ ضيّقٍ بين الفِرَق المتزاحمة. وقد همز الرجل فرسَهُ، ومضى هابطاً باتجاه وادي حِمّان، ثم باتجاه قلعة صفد الآمنة آنذاك. أمّا وقد انصرف القادة؛ فإنّ الجنود المسلمين تابعوا عمليات ذبح الجنود المحاصَرين. وعندما سُئل صلاح الدِّين فيما بعد عن عِلّة سماحِهِ لريموند بالفرار والنجاة، أجاب بغموضٍ قائلاً: عليه اللعنة، ثم قرأ من القرآن: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال: 48]. أما بقيةُ الأعمال العسكرية، قد رآها عيون السلطان في قالبٍ شعري. فسنابك خيله صنعت سماءً من الغبار كانت نجومها لمعات النصال. أما عيون رماح المسلمين فقد اخترقت القلوب الميتة، وأكبادَ الكفّار الذين تعذّبوا بنيران العطش. أما أنهار السيوف فقد صبّت في البحر؛ في حين شرب الكفّارُ من كأس القَدَر.

ورأى مؤرخ الصليبيين الأمر على غير هذا النحو: «ماذا أستطيع أن أقول؟ إنّ الملائم أكثر هنا أن أبكي وأنوح بدلاً من قول أي شيء. يا للعجب! هل يكون عليّ أن أتلفّظ من بين شفتيّ غير الطاهرتين بما أصاب الأعواد الثمينة لصليب السيّد، مخلِّصنا، حين اغتصبته الأيدي الملعونة؟ تعساً لي ولأيامي، التي كان مقدّراً عليَّ فيها أن أرى أموراً مثل تلك التي حدثت لنا». لقد حقّق جند الله نصراً كاسحاً على العدو المسيحي، في يوم عيد القديس مارتن كلاديوس. وفي الساعة الأخيرة من المعركة، انكمشت القوات المسيحية في ساحة المعركة حتى لم يعد هناك من المعالم غير خيمة الملك الحمراء المنصوبة على قرن حطّين الجنوبي. وقُتل حارسُ الذخيرة المقدسة، وأُخذ الصليب. وعندما انهارت خيمةُ الملك انتهت المعركة، وأُسر الملك غي وشاتيون ورؤساء

فرسان الهيكل والإسبتارية. أمّا صلاح الدِّين فقد اعتبر ذلك اليوم «يومَ رحمةٍ وبركة (للمسلمين) حيث صاحب الذئب النعجة، كما صاحَبَ الموتُ الأَسْر (بالنسبة للأعداء)».

II

كأس ماء الورد

عندما كانت الشمس تغطس في بحيرة الجليل، كان الملك غي وشاتيون يُجلبان إلىٰ حضرة السلطان في خيمته المنصوبة على مقربةٍ من الشاطىء. كان السلطان يجلس متربعاً على ديوانٍ مرتفع مغطّى بالسجاد، محاطاً بالرايات المزركشة لِفِرَقِ جيشه. عُرض الرجلان علىٰ السلطان متعَبين، ممزّقي الثياب، يكاد العطش يُهلكُهم. وكان الخوفُ ظاهراً على وجه الملك، أمّا شاتيون فقد أظهر هدوءًا وتماسُكاً. والتفت السلطان إلىٰ الملك باشّاً طالباً إليه أن يجلس إلىٰ جانبه. أما شاتيون فسارع إلىٰ الجلوس بجانب مليكه. وأشار السلطان برأسه إلىٰ أحد الحُجّاب فأحضر كأساً مذهّباً مملوءًا بماء الورد سلّمه للسلطان الذي أعطاه بدوره للملك غي فتجرعه بسرعةٍ ثم أعطى ثُمالته لشاتيون. وهنا قال السلطان: «لم آذَن لك في سقْيه الماء حتى لا يوجب ذلك أماناً له»[1]. وكانت تلك مسألة تتعلّق بالشرف. فالعادة الإسلامية أنّ الاسر إذا عرض على أسيره الطعام والماء فهذا يعني أماناً له. وعندها التفت صلاح الدِّين لشاتيون وقال: إشرب، فلن تشربَ ثانيةً! فبعد أن أسر شاتيون القافلةَ الغنية على طريق الحج إلىٰ مكّة، وبعد أن أسر أخت السلطان، وحاولَ الإغارةَ على مكة والمدينة، ونقض عدة معاهداتٍ، اتّبع السلطان بشأنه ليس الرحمة بل العدل. فقد أقسم على أن يقتل هذا الشرير بنفسه. خاطب السلطان شاتيون قائلاً: كم من مرةٍ

(1) عن مفرّج الكروب لابن واصل 2/ 196.

أقسمتَ على الوفاء ثم نقضْتَ العهد؟ وكم من مرةٍ وقّعت اتفاقاً لم تنفّذه؟ وتمتم شاتيون مُجيباً: هكذا تفعل الملوكُ دائماً؛ وما فعلْتُ أكثر مما فعلوا[1]! وتابع صلاح الدِّين: لو أنك أسرتَني كما أسرتُك، يا أمير شاتيون، ماذا كنتَ لتفعل؟ وأجاب شاتيون بصراحة: لو أعانني الله وأسرتُك، لسارعتُ لقطع رأسك! وقال السلطان ساخطاً: خنزير! أنت في يدي، وتجيبُني بهذه الصفاقة؟! وبهزةٍ من يده صرف السلطان الأسيرين، ثم ركب فرسَهُ وراح يستقبل جنوده العائدين من المعركة، ويعيد النظر والتفكير فيما هو مُقبلٌ عليه. وعندما عادَ من دورته تلك، أمر بإحضاء الأسرى مرةً ثانية. وُضع الملك غي في غرفةٍ مُجاورةٍ، وأُحضر شاتيون إلىٰ السلطان بمفرده، ففاجأه بالقول: ها أنا أنتصر لمحمدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم[2]! ثم أتاح له فرصةً أخيرةً عندما عرض عليه الإِسلام فأبى شاتيون اعتناقه. هكذا أخذ صلاح الدِّين خنجره المعقوف، وضربَ به ذراع الفارس فاصلاً يده عن كتفه. وسارع العبيدُ لقطْع رأسه ووضعه أمام السلطان. ثم جيء بالملك غي وهو يرتعدُ فَرَقاً، وقد وطّن نفسَه على الموت؛ فطمأنه السلطان وقال: «إنّ هذا تجاوزَ حدَّه فجرى عليه ما جرى»[3]. فسارع الملك إلىٰ الركوع أمام السلطان فطلب منه القيام وقال له: «لم تجر عادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك». ثم عرض عليه كأساً آخر من الجُلاَّب المثلّج، وكرر قولته: «ما كان شاتيون ملكاً، وقد تجاوز حدَّه».

(1) في مفرّج الكروب 2/ 196: «.. فقرّعه السلطان وأذكره ذنبه، وقال له: كم تحلف وتنكُث؟ فقال الترجمان عنه: إنه يقول، وقد جرت بذلك عادةُ الملوك!».

(2) يقصد قول ربجنالد (أو أرناط كما يسميه المسلمون) لرجالات القافلة التي سطا عليها عندما طالبوه باطلاق سراحهم طبقاً للمعاهدات: قولوا لمحمدكم يخلصكم! انظر؛ ابن شدّاد، ص 78، وكتاب الروضنين 2/ 81، ومفرّج الكروب 894 (المترجم).

(3) عن ابن شداد في السيرة الصلاحية، 79، وكتاب الروضتين 2/ 81، ومفرّج الكروب 2/ 195. وقارن بأمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب. ترجمه عن الفرنسية عفيف دمشقية، بيروت 1998، ص ص 242/ 244 (المترجم).

ظلّت صيحاتُ «الله أكبر» و«لا إله إلاّ الله» تتردد في ساحة المعركة التي تناثرت فيها الأشلاء، أياماً عدّة. وجُمع الأسرى معاً، مربوطين بالحبال، وسِيرَ بهم باتجاه دمشق. وهناك بيع الجندي الراجل عبداً بثلاثة دنانير، بل إنّ أحدهم قبض ثمن أسيره حذاءً «فقيل له في ذلك، فقال: أردْتُ أن يُذكر ذلك»[1]. أما الفرسان الصليبيّون من الهيكليين والإسبتارية فقد كان ينتظرهم مصيرٌ آخر. فقد كان هؤلاء قلب الدفاع المسيحي، وما كان يمكن زعزعتهم في تصميمهم واعتقادهم؛ كما أنّه ما كان ممكناً لإرادتهم أن تنكسر. ولذلك قال صلاح الدِّين: «المصلحة تطهيرُ الأرض من هذين الجنسين النجسين»[2]. وأعطى خمسين ديناراً لكل من بيده أسيرٌ من هاتين الرهبانيتين العسكريتين؛ وهكذا وباستثناءٍ وحيدٍ في سجلّه في التسامح والإيثار، أمر بضرب أعناقهم جميعاً. وقد كُلّف بتنفيذ هذه المهمة تشريفاً لهم علماءُ ونسّاكٌ ومتصوّفة: «. . وكان بحضرته جماعةٌ من أهل الدين والفقه والتصوف، فسأل كلَّ واحدٍ منهم سلَّ سيفه، وقصد أن يقتل منهم قتيلاً. . .» فمن الجماعة مَنْ خارت قوته فامتنع وعُذر، ومنهم مَنْ لم يؤثّر ضربه فضُحك منه. . ومنهم من ظهرت نجابتُهُ، وفَرَتْ ضربتُهُ»[3].

والطريف أنّ جيرار دو ريدفور Gerard de Ridefort مقدم فرسان الهيكل، وأسوأ الجميع على الإطلاق، هو وحده الذي استُثني من القتل رجاءَ أن يكونَ نافعاً في المفاوضة. يقول كاتب عربي عن هذه الإعدامات الجماعية إنّها جرت للقضاء على الكفر ولكي يحيا الإسلام. فالتوحيد يقضي على

(1) في كتاب الروضتين 2/ 82/ «ويقال، بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أنْ بيع واحدٌ بنعل».

(2) في كتاب الروضتين 2/ 79: «. . فلما أصبح يوم الاثنين بعد الفتح بيومين، طلب الأسارى من الداوية والإسبنارية، وقال: أنا أُطهِّرُ الأرضَ من هذين الجنسين النجِسين»؛ وقارن بمفرّج الكروب 2/ 196 (المترجم).

(3) عن كتاب الروضتين 2/ 82، ومفرّج الكروب 2/ 189، 191.

الشِرْك! أما كاتبو الحوليات من المسيحيين فذكروا فيما بعد أنّ نوراً سماوياً حانياً انصبّ على أرض الإعدامات بركةً للشهداء.

وفي الوقت نفسه، «أُخذ صليب فعُلّق على قنطاريّةٍ منكّساً ودُخل به.. إلىٰ دمشق..»[1]. والواقع أنّ هذا العملَ المُعتبر إهانةً دينيةً، ينظر إليه المسلمون نظرةً أخرى. فهم لا يقصدون من ورائه إهانة المسيح الذي يعتبرونه نبياً كريماً؛ بل إنما يريدون التعبير عن إنكارهم لقصة الصلْب. لقد كان السيد المسيح رجلاً عظيماً، ولم يكن إلهاً، فلا إله إلاّ الله، ومحمَّدٌ رسولُهُ، وخاتَم أنبيائه. وقد بُعث (بدين الإسلام) لتصحيح وتوضيح التحريف والتشويه الذي نزل بالمسيحية. لذلك يرفض الإسلام قصة موت المسيح باعتبارها غير جديرةٍ بالدين المسيحي الصحيح.

(1) عن الفتح القسّي، ص 22، ومفرج الكروب 2/ 196، والكامل لابن الأثير 11/ 203، وكتاب الروضتين 2/ 79.

الفصل الثامن

عُشّاق وملوك

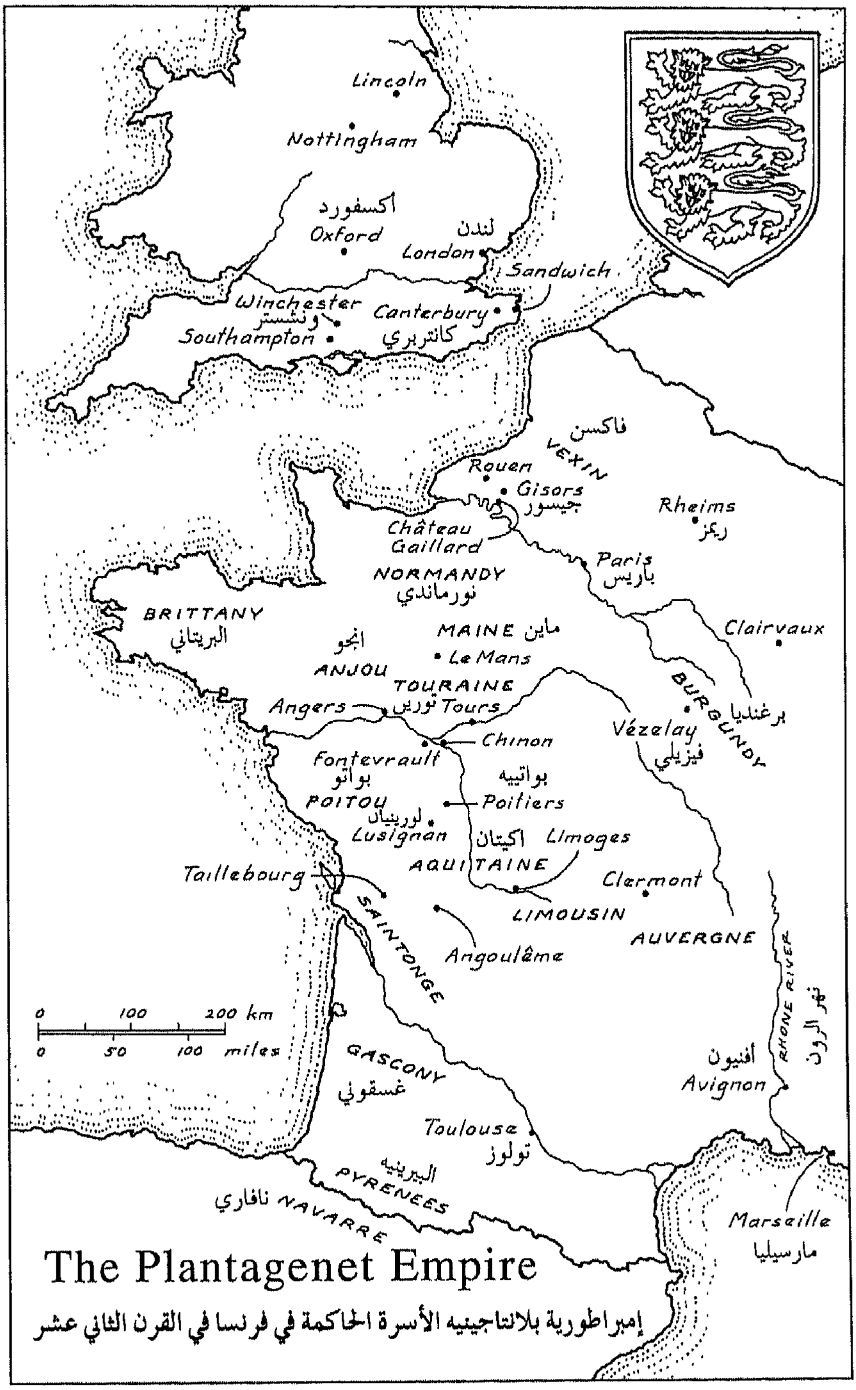
خلال سبعينات القرن الثاني عشر (1170م وما بعد) كان البابا في روما الرجل النشِط والمحافظ إسكندر الثالث. وقد استمر على الكرسي البابوي زُهاء اثنتين وعشرين سنة، كانت حافلةً بالتحديات من الباباوات المنافسين، والاضطرار للذهاب إلى المنافي من المدينة المقدّسة، والإذلال من جانب هنري الثاني الذي قتل توماس بيكيت. وطوّر إسكندر الثالث سمعةً حسنةً بشأن اهتمامه لأمر الفقراء والضعفاء والمرضى. وكان حسّاساً إزاء محنة اليهود، ووضع بين مستشاريه المقربين يهودياً رِبيّاً عالماً أعطاهُ منصب مدبِّر قصر الفاتيكان. أمّا في الشأن الديني المتعلّق باليهود، فقد كان إسكندر واحداً من أبناء زمانه، كما يشير لذلك أحد مراسيمه الأخيرة الصادر سنة 1179م: «إننا نأمر بأن يُحرمَ أولئك الذين يفضّلون اليهودَ على المسيحيين. ونجد أنه عدلٌ وحقٌّ أن يكونوا أدنى من المسيحيين. ولا يصحُّ الاهتمام لشأن أحدٍ من اليهود إلاّ لدافعٍ إنساني...».

على أنّ همَّ البابا الرئيسي ما كان منصباً على المائتي يهودي بروما، بل على ملايين المسلمين في الأرض المقدَّسة، لأنه كان يدركُ ضعف المملكة اللاتينية بالقدس. وفي نهاية عهده بالبابوية ـ مات إسكندر الثالث سنة 1181م ـ

وجد البابا نفسَه مستنفَراً نتيجَةَ انتصارات صلاح الدِّين في فلسطين، ومهموماً لعدم اكتراث الملوك الأوروبيين لهذا الخطر الجديد. كتب البابا: «لا يستطيع الدين المسيحي أن ينام بينما تحدث هذه الأمور الفظيعةُ في الأرض المقدَّسة. فَلتَنَلْكُم غَيرةُ الرب ولتتحركوا!». وقد كان الأمر الأكثر إزعاجاً للبابا أولئك المسيحيون الذين يستفيدون من مكاسب المسلمين العسكرية. ولذلك فقد أصدر مرسوماً آخر سنة 1179م يهدّد فيه مرةً أخرى بالحَرْم الكنسي: «لقد وصلت درجةُ الشر والانحطاط لدى بعض الناس إلىٰ حدودٍ غير معقولة. فبينما ينالُهم المجد لانتسابهم إلىٰ المسيح والمسيحيين، إذا بهم يحملون السلاحَ إلىٰ العرب. وعندما يفعلون ذلك بالسلاح والعُدَد الأُخرى التي تُستخدم ضد المسيحيين يعتبرونهم أنداداً لهم، بل أعظم منهم شراهةً وخبثاً. ولذلك فإننا نأمر بإخراج هؤلاء من سرّ الاعتراف، ونرى أنّه بسبب شرورهم ينبغي أن يُحرموا من الكنيسة أو يُخرَجوا منها». أمّا همُّ البابا إسكندر الآخر فقد كان النزاعات الداخلية بين الملوك والأُمراء في وسط أوروبا. فكم كانت سخيفةً وبدون داعٍ تلك النزاعات التي لا تتوقَّف بين الكبار والصغار من الفرسان، في عصر الفروسية ذاك. وهي النزاعاتُ التي تصرفُ الانتباه عمّا يجري في الأرض المقدَّسة في المشرق. فالتاجان الفرنسي والإنكليزي ينبغي أن يتعاونا إذا كان لا بد من التركيز على الأخطار الحقيقيَّة التي تهدّد المسيحية. لكنّ تلك المصالحة ما كانت أمراً سهلاً على البابا، الذي عاقب ملك إنكلترا بقسوةٍ في قضية بيكيت Becket. ومع ذلك فإنّه أعطى موافقته وبركته على المصالحة التي جرت بين الدولتين في جيسور Gisors سنة 1180م؛ مع أنّه لم يكن يملك أوهاماً حول إمكانيات استمرار ذاك السَّلام. فبالنسبة لإنكلترا قام الملك هنري الذي كان قد أصبح أكثر قسْوةً ومزاجيةً، بما تمليه تقاليد الشرف والمصلحة. أمّا في فرنسا فإنّ الملكَ كان جديداً؛ وهو الشاب فيليب أغسطس، ابن لويس السابع من زوجته الثالثة أديل دو شامباني Adèle de Champagne. وقد جاء مولده سنة 1165م شبيهاً بالمعجزة، لأنَّ أمه حملت به حين كان والده الورع المنعزل لويس

السابع في الخامسة والأربعين من عمره، وقد فشل في الإتيان بطفلٍ وريث مع زوجتيه السابقتين، اللتين كانت إحداهما إليانور المتهتكة. ولهذا فقد اعتبر الفرنسيون هذا الولد هديةً من الله، لأنّ مجيئه أمَّنَ بقاءَ المُلْك في أُسرة كابت Capet العريقة؛ في حين أغضب ذلك أُسرة بلانتاجينيه المالكة بإنكلترا والتي تصدرها آنذاك هنري وابنه ريتشارد. تدفق مواطنو باريس إلىٰ الشوارع عندما سمعوا النبأ حاملين الشموع، وسادّين آذانهم نتيجة ارتفاع أصوات أجراس الكنائس فرحاً وابتهاجاً. وقد رفع هؤلاء العوامّ قبضاتهم في وجه الإنكليز منذرين بأنّ هذا الطفل سيكون مطرقةً على البلانتاجينيه البريطانيين. وقالت امرأةٌ فرنسيةٌ لرجل إنكليزي رأته في الشارع: «والآن، لقد حظينا بملكٍ نعمةً من الله. إنه الوارث الكبير للمملكة ببركة الرب. وبمجيئه سيقع على مليككم الخُسْران والغضب الإلهي، والعار، والعقاب القاسي. وستكون أيامه الباقية مليئةً بالارتباك والتعاسة».

والواقع أنّ العداوة المتأصلة بين أُسرة كابت Capet المالكة بفرنسا، وأُسرة بلانتاجينيه Plantagenet المالكة بإنكلترا كانت إحدى حقائق القرن الثاني عشر الميلادي. ولهذا فمنذ البداية كان فيليب مدفوعاً بِحُلُم إخراج البلانتاجينيه من القارّة، وطموح العودة إلىٰ أمجاد شارلمان الذي سيطر على كلّ وسط أوروبا. وبدورهم البريطانيون تشاءموا بولادة فيليب. وبخاصةٍ أنّ الولادة حدثت في وقتٍ كان الجيش البريطاني يُعاني من هزائم، وقد اقترن كوكبان في سماء إنكلترا. وقد قال المنجمون يومَها إنّ هذه الأحداث السماوية أو الفلكية لا تكونُ إلاّ نذيراً بموت ملكٍ أو دمار دولة. كان فيليب طفلاً مُهملاً، وكانت ملابسُهُ الأميرية غير مرتّبةٍ أو نظيفة دائماً. ثم إنّ شعره كان مشعَّثاً باستمرار. وفي سنة 1179م أُصيب والدُهُ بشللٍ أقعدَهُ. ولأنه خاف أن يموت قريباً، فقد سارع إلىٰ تتويج ابنه فيليب وريثاً في حياته. مع أنّ فيليب وقتَها لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر. وهكذا كان على الطفل أن ينمو بسرعة!



The Plantagenet Empire

إمبراطورية بلانتاجينيه الأسرة الحاكمة في فرنسا في القرن الثاني عشر

جرت الاحتفالاتُ بتتويج فيليب في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1179م، في مدينة ريمز Rheims التي كان أسقفها غيوم دو شامباني عمَّ فيليب. ومن أجل الاحتفالات، سارع شعراء التروبادور إلىٰ صَوغ القصائد، وكان من بين هؤلاء بلونديل دو نوزل Blondel de Nosle، أحد زملاء ريتشارد في طفولته في أكيتان: «دفعني فرحي إلىٰ الغناء في هذا الفصل المنعش. ويتبع هذا الفرحَ أن نحبَّ بطريقةٍ رائعة. وعندما تسنح الفرصة لإعطاء الهدايا بكرامة، وللتكلم بلغة البلاط؛ فإنّ الذي يتبع هذه النصائح لن يكون حظه سيئاً». وجاء في أغنيةٍ أخرى التوقع التالي: «ربيعٌ من السلام تتفتح فيه أزهار الأرض». ولهذا لم يكن عجيباً أن تنهمر الدموع بحريةٍ في حفلات الزفاف والتتويج. وهكذا فلأحد عشر شهراً حتى وفاة لويس السابع في أيلول/ سبتمبر 1180م، كان في فرنسا ملكان.

كان فيليب أغسطس أصغر من الأمير ريتشارد قلب الأسد بثماني سنوات. وربما انجذب أحدُهُما للآخر بسبب اختلاف طبائعهما لا بسبب اتفاقها. وعلى أي حال؛ فإنّ الشابين كانا في زمان مراهقتهما وشبابهما عشيقين. وكانا يُشاهَدان معاً في كل مكان ـ ولذلك كان هناك الحديث عن العلاقة العميقة من الحبّ التي تجمعُ بينهما، وإن باسم الجنسية المثلية. يقول جيرالد، الشمّاس من ويلز؛ «إنّ أحدهما كان يحب الآخر حباً جارفاً إلىٰ حدّ أنّ ريتشارد وفيليب كانا يشربان من كأسٍ واحدة، وفي الليل كانا يبيتان في سريرٍ واحد. وكان ملك فرنسا يحب ريتشارد كما يحب نفسه». وقد جاءت هذه الحميمية نتيجة التقارب الذي حصل بين الأُسرتين المالكتين بعد نزاعٍ طويل. ولسنواتٍ عدة كان الملك هنري والد ريتشارد يلتقي مع نظيره الفرنسيٍ لويس ثم ابنه فيليب تحت شجرة دردارٍ مشهورةٍ في جيسور Gisors وهي مدينةٌ بشمال فرنسا. وخلال هذه المؤتمرات تعارف الفتيان وتلاقيا. وكانت جيسور في ذلك الزمان عاصمة إقليم ڤاكسن Vexin، وهو ناحيةٌ خصبةٌ من نواحي النورماندي، شكّل حداً فاصلاً بين المملكتين وكان كلٌّ من الملكين يدّعي ملكيته. وفي ثمانينات القرن الثاني عشر

كان هنري الثاني قد تقدّمت به السن، واقترب منه الموت. وكان شديد التذمر من كلّ شيءٍ: من البيرة السيئة والسمك السيء الطعم ـ ومع ذلك فقد كانت تتبعه في مسيرته قافلةٌ من النسَاء، والممثلين، واللاعبين، والمهرّجين. أمّا هو فكان يحيك في مخيلته أوهاماً عن زياراتٍ لضريحي الملكين الأسطوريين آرثر وجنيفر. ولأنّ الملك هنري تعب من النزاع على ڤاكسِين Vexin، فقد توصل الملك الشاب فيليب ومستشاريهما إلىٰ اتفاقٍ حولها. فحصن جيسور Gisors والأراضي التي حوله ستكون مهراً لأخت فيليب غير الشقيقة الجميلة أليس Alais، التي خُطبت لريتشارد سنة 1161م عندما كان عمره أربع سنوات! وقد نشأت أليس في بلاط إليانور كما أراد ريتشارد، فلمّا كبرت أقام هنري، نهّاز الفرص معها علاقةً من خارج الزواج، مما أساء لسمعتها، وأغضب أخاها فيليب وأحبط خِطَطَهُ، وأساء للعلاقة بين الأُسرتين؛ في حين كان ريتشارد غير آبهٍ بكلّ ذلك، وغير راغبٍ في علاقاتٍ زوجيةٍ شرعية. وهكذا دارت دسائس البلاط وخصوماته في دائرتين اثنتين. من جهة كان هناك هنري العجوز الشرس، وزوجته إليانور السجينة، وجميلة البلاط أليس. وهؤلاء الثلاثة كانوا غاضبين كلٌّ منهم من الآخر، كما يبدو في الرواية العصرية: الأسد في الشتاء The Lion in Winter. ومن جهةٍ أخرى كان هناك ريتشارد وفيليب وأليس. وكان ذلك مثلثاً من نوعٍ آخر. فريتشارد وفيليب كانا متحابَّين. بيد أنَّ ورقة فيليب للحصول على ڤاكسن Vexin ومبلغ كبير من المال كانت شقيقته أليس. ولذلك فقد طلب من ريتشارد أن يتزوج أخته. ومع ذلك فإنّ هذه الوقائع لا تحيط بكل تعقيدات الموضوع. فقد كانت هناك علاقةٌ بين هنري الثاني وأليس حافلة بالمسرّات الجسدية، وهناك علاقة بين ريتشارد وفيليب، وهناك أخيراً حُلُم الملك الشاب فيليب في إعادة تكوين مملكة شارلمان في وسط أوروبا، كأنما سيعيش إلىٰ الأبد. أما الملك هنري فلم يكن راغباً في إعطاء أيّ سلطةٍ لأحدٍ من أبنائه في حياته وبخاصةٍ ريتشارد. بل إنه فكّر لسنواتٍ طويلةٍ في أن يجرِّد ابنَه ريتشارد من أي حقٍ في العرش أو في الإقطاع. فإذا كانت إليانور

فضَّلت ريتشارد من بين جميع أبنائها؛ فإنّ هنري كره ابنه الثالث بالذات، لأنه كان غير سلِس القياد، وطامحاً للمُلك، وشديد الشبه بوالده في طباعه. ولأنّ دوق أكيتان (ريتشارد) لم يحصل على الدوقية من طريق أبيه بل من طريق أمّه؛ فقد كان هنري يبحثُ عن طريقةٍ للتخلّص مما كان يراه تهديداً لسلطته. لذلك فبدلاً من ريتشارد نقل هنري عواطفه وإيثاره إلىٰ ابنه الأصغر جون، أقلّ أولاده صلاحيةً وكفاية.

بين سنتي 1180 و1187م تركّز اهتمام البابا إسكندر الثالث على النزاعات المتكاثرة والمشرذِمة بين البيوت المالكة والإقطاعية في أوروبا، والتي وصلت إلىٰ حالة فوضى كاملة. فبيت بلانتاجينيه الكبير كان في نزاعٍ مع نفسه ومع رعاياه ومع الخصم الفرنسي من بيت كابت. ففيما بين سنتي 1180 و1183 طلب هنري الثاني من ابنه ريتشارد أن يبايع أخاه الأكبر هنري (الصغير) باعتباره ملك أنغفين Angevin. وعندما رفض ريتشارد أغار الأخ الأكبر (هنري) على أكيتان؛ بموافقة ودعم والدهما هنري الثاني؛ الذي قال عبارته المشهورة لابنه هنري: إنهض واكسِر كبرياء ريتشارد! أمّا الأخ الصغير لريتشارد جيوفري، والذي أعطاه والدُهُ أصغر الإقطاعيات، إقطاعية بريتاني Brittani فقد سارع للانضمام لأخيه الأكبر هنري بحماس، في الإغارة على إقطاعية أخيهما ريتشارد. بيد أنّ الثائرين على ريتشارد ما كانوا محظوظين بانضمام جيوفري إليهم. فقد كان كما وصفه كاتب الحوليات جيرالد أوف ويلز: «مملوءًا بالكلمات الطنّانة، لزجاً مثل الزيت، مسحوراً بنفسه وبقدراته البلاغية، مؤمناً بإمكان إفساد المملكتين بلسانه الذرِب، مغامراً لا يكلّ، منافقاً في كل شيء، وخدّاعاً وشريراً». كان الشاب شخصيةً مليئةً بالمشاكل إذن. انتشرت الفوضى والمعارك، مع قوّاتٍ هاجمت أكيتان من بريتاني ومن غسْقونيا، بينما انصرف البارونات إلىٰ تحصين أنفسهم داخل قلاعهم ضد سادتهم. وقد رأوا في هنري الصغير أداةً للتخلّص من حكم ريتشارد وسيطرته، ولذلك فقد كانوا مسرورين للانضمام إلىٰ المؤامرة. أما

ريتشارد فقد واجه الأمر بطريقةٍ مختلفة. خرج في الليل بقوةٍ صغيرةٍ، وضرب ضربته ضدّ إحدى كتائب المتمردين على مبعدة أميالٍ من ليموج Limoges، فقتل بعضاً من الفرسان، وأسر البعض الآخر. ثم مضى قُدُماً كأنما يريد تعميق شهرته بالقسْوة وسفك الدم عبر أوروبا، فوصل إلىٰ أكس Aix حيث عمد، تبعاً لما يقول كاتب حوليات، إلىٰ إغراق بعض الأسرى، وقطع رؤوس آخرين بالسيف، كما سمل عيون الباقين. وهكذا فما بدا في ذهن هنري باعتباره حملةً لمعاقبة ابنه ريتشارد وتأديبه، تحوّل إلىٰ كارثةٍ كبرى، اضطرت الملك العجوزَ نفسه للمجيء إلىٰ بواتو Poitou من أجل إعادة الأمور إلىٰ نصابها. في ذلك الوقت (حزيران/ يونيو 1183م) مرض هنري شقيق ريتشارد ثم مات، فتوقّف الجنون. فقد أُحبطت بذلك خطط الملك هنري الثاني إحباطاً تاماً. وصار الشرير نفسه، المستبد، وغير المنضبط، والقاسي أكبر أبناء هنري سناً، وبذلك صار الأحقّ بولاية العرش الإنكليزي. عندها حاول الملك الإنكليزي العجوز سلوكَ طريقٍ أُخرى. فما دام ريتشارد قد صار وارثاً لعرش إنكلترا؛ والنورماندي، وأنجو؛ فإنَّ أكيتان ينبغي أن تُعطى لشقيق ريتشارد الأصغر جون؛ الذي لم يكن له أي إقطاع. وهكذا طلب هنري من ريتشارد أن يعطي أكيتان لشقيقه، وأن يتلقى بَيعَتَهُ في مقابل ذلك. وكانت تلك فكرةً لا أرجُلَ لها لأنّ أكيتان كانت حياةَ ريتشارد. فقد تلقى الإقطاعية من أمه وليس من أبيه، وإذا كان هناك أحدٌ ينبغي أن يَدينَ له بالولاء فهو ملك فرنسا، ولا أحد غيره. وتلا ذلك ردّ فعلٍ سريعٍ من جانب ريتشارد: لن يعطي بواتو Poitou لأحدٍ إلاّ لنفسه. وعندما خفّض هنري مطالبه، ورأى إعطاء جزءٍ من أكيتان فقط لجون، رفض ريتشارد أيضاً. وهكذا، فكما كانت عادة هنري في حالات الضيق والغضب والتي قادته إحداها لقتل توماس بيكيت، غضب غضباً شديداً وسمح لابنه جون بالإغارة على ممتلكات ريتشارد في أكيتان.

غضب هنري الثاني من ابنه ريتشارد أدّى إلىٰ حربٍ مرةً أخرى بدفعٍ من

الملك هنري نفسه، الذي كان يثير الحروبَ بين أبنائه ثم يتوسط لإخمادها ومصالحتهم. ومن أجل ذلك فإنّ العلاقات داخل بيت بلانتاجينيه أوشكت أن تتحوّل إلىٰ ما يشبه الكوميديا الفرنسية. وكأنما لم يكف ما في الموقف من تعقيد؛ فقد تدخّل ملك فرنسا فيليب طالباً من محبّه السابق أن يتزوج أخته أليس، التي كانت حتى ذلك الوقت عشيقةً لهنري والد ريتشارد. أما أولاد هنري فقد كانوا تارةً يلقون أنفسهم أمام قدمي والدهم مقسمين على طاعته والتحابّ فيما بينهم، وطوراً يشنون الحرب عليه. كما كان يقيمون أحياناً في البلاط الإنكليزي، وأحياناً أخرى في البلاط الفرنسي. وبعيداً عن هذه الأجنحة المتحاربة، كانت إليانور أمّ هؤلاء الأولاد، تقبع في السجن، شاهداً عديم الحيلة. وبما أنّ جيوفري أمير أنغفن Angevin كان مقيماً في بلاط فيليب ملك فرنسا؛ فإنّ هذا الأخير وجد نفسه إلىٰ جانبه، وهو الأخ الأصغر لريتشارد، والأكثر فَشَراً ولزوجةً. وقد أعطاه لقب سيد فرنسا الإقطاعي، نكايةً بوالده العجوز هنري الثاني. لكنّ جيوفري الرياضي قُتِل في مبارَزةٍ في 19 آب/ أغسطس 1186م، ودُفن في احتفالاتٍ مهيبةٍ بكنيسة نوتردام. وقد كان حزن الملك فيليب عليه عظيماً إلىٰ حدّ محاولة القفز إلىٰ تابوته أثناء الجنازة. بيد أنّ الملك ما لبث أن تجاوز حزنه. ففي ربيع سنة 1187م عاد فيليب بعواطفه باتجاه ريتشارد. وعندما وصلت أخبار العلاقة المتجدّدة إلىٰ هنري اشتدّ غضبه، وتساءل عمّا تعنيه هذه «الصداقة». وسرعان ما اكتشف الملك العجوز أبعاد التحالف. فقد ركب ابنه ريتشارد إلى شينون Chinon، واستولى على قلعة الملك هنري على نهر اللوار Loire، ومن هناك أخذ كلَّ خزائنه وكنوزه وعاد بها إلىٰ أكيتان، حيث بدأ بجمع جيشٍ عرمرم لمقاتلة والده.

لكنْ مع نهاية سنة 1187م جاءت أنباءٌ مفاجئةٌ ومرعبةٌ من العالم البعيد، غطّت على الخصومات الملكية، والنزاعات الصغيرة إلىٰ الأبد، وشدّت الانتباه إلىٰ أمورٍ أخرى.

الفصل التاسع

العروس والجمل

بعد الانتصار الكبير الذي حقّقه صلاح الدِّين في حطّين في 4 تموز/ يوليو 1187م تابع السلطان سيره بسرعةٍ نحو الشمال، فاستولى على عكّا وبيروت وصيدا، دونما قتالٍ كبير. فقد كانت تحصيناتُ تلك المدن ضعيفة، وسقطت بسرعةٍ في أيدي المسلمين. أمّا في صور؛ لقد فوجىء السلطان مفاجأةً غير سارّة. فقد توقع أن تسقط الثكنة الساحلية جنوبَ بيروت كما سقطت سائر المدن المسيحية الأخرى. وكان ريموند الطرابلسي قد تلبّثَ قليلاً أثناءَ فراره من حطّين في صور، ثم تابع سيره، باعتبار أنّ دفاعات المدينة ليست جيدة. وأقبل صلاح الدين على التفاوض مع القائم على أمر المدينة من أجل تسليمها صلحاً، على أن يكونَ أهلُها آمنين في الخروج منها بما يملكونه دونما اعتراض. لكنْ عندما وصلت الفرق الإسلامية إلىٰ صور، وجدوها محصّنةً جيداً، ولها قيادةٌ حازمة. فالفارس الذي جرى التفاوض معه من قبل نحّاه قادمٌ جديدٌ عنيف اسمه كونراد أوف مونتفرّا Conrad of Montferrat. وصل كونراد إلىٰ المدينة في ضيقٍ من الوقت، أي قبل أيامٍ من ظهور المسلمين أمام أسوار المُدينة. وكونراد شخصيةٌ مغامرةٌ غامضةٌ أخرىٰ مثل الملك غي وشاتيون، تملك تاريخاً في القتل

والتآمر. وقد وصل على متن سفينةٍ من بيزا، فارّاً من مؤامرةٍ حيكت ضده في القسطنطينية. ظهرت سفينته أولاً أمام عكّا لكنّه عرف أنّ المدينة سقطت بيد صلاح الدّين، فسارع المركيز إلىٰ تحويل السفينة شمالاً باتجاه صور، الحصن الاستراتيجي الأخير للمملكة اللاتينية، حيث تتجمّع البقايا الباقية من الجيش الصليبي المهزوم. ونظر أهالي صور إلىٰ مونتفرّا باعتباره مبعوثاً من الله (لإنقاذهم). وقد رجَوهُ أن يأخذ على عاتقه أمر تنظيم الدفاع عن المدينة. ووافق هو على ذلك بشرط القَسَم له على الطاعة الكاملة باعتباره القائد الوحيد. وعندما بدأ المسلمون يحاصرون المدينة، كان مونتفرّا يرفع الروح المعنوية للجنود المسيحيين، ويعيد تنظيمهم لدفاعٍ قويٍ ومصمِّم. وقد دفع ذلك الظهور للسلطان بالرايات المزركشة، المدافعين عن المدينة إلىٰ الصعود على الأسوار، وتمزيق الأعلام الصلاحية في حركةٍ استفزازيةٍ واضحة. وبعد أن استخبر السلطان عمن يقود الدفاعَ عن المدينة، أدرك أنه يحتفظ بوالده أسيراً في دمشق. وهكذا جُلب وليم أوف مونتفرّا، وهو شيخٌ متعَبٌ، ومحاربٌ من محاربي حطّين، وعُرض مقيَّداً بالسلاسل أمام عيون المدافعين على الأسوار. وأرسل صلاح الدِّين رسولاً إلىٰ كونراد مع وعدٍ بإطلاق سراح والده، والإنعام عليه بمالٍ كثيرٍ، إن سلّم الابن المدينة. وصاح كونراد بجوابه من على الأسوار: «قطِّعه إرَباً، فماذا يُهمني؟ سأكون أول من يطلق عليه سهماً، لأنه عجوزٌ ولا قيمة له!». وعندما قُرِّب وليم للأسوار لاختبار تهديدات الابن، لم يبدُ منزعجاً من افتقار ولده إلىٰ حسّ العرفان والوفاءِ له. فقد صاح وليم بولده: كونراد، أحرس المدينةَ ودافعْ عنها جيداً! وأخذ كونراد سهماً وأطلقه من قوسه على والده. وعندما سمع صلاح الدِّين القصة بدا متأثِّراً: «هذا الرجل كافر، وبالغ القسوة». وقد أدرك أنه سيفقد فرصته وهيبته إن أقام طويلاً أمام أسوار المدينة حبيسَ الحصار الذي يضربُهُ عليها. وكان رجاله متعبين من القتال الطويل، لكنهم كانوا مشتاقين للنهب والغنائم. ولم يرد السلطان الاعتراف بالعجز.

ولكي يُرضي مطامع ضباطه وعسكره فقد ترك حصار صور واتجه إلىٰ أهدافٍ أقلّ مناعةً، وأكثر غنىً. تحرّك نحو الجنوب فأخذ قيسارية وأرسوف ويافا، إلىٰ أن توقف مرةً أخرى أمام عسقلان.

كانت عسقلان إحدى المدن الخمس الكبرى في فلسطين. وتقع على الطرف الأقصى للمملكة اللاتينية من ناحية الجنوب. ويمتد سورها على هيئة قوس، كما أنّ ميناءَها محصَّنٌ تحصيناً جيداً. وهو محميٌّ بجدرانٍ عاليةٍ تتخلّلُها أبراجٌ ومَراقبُ بارزةٌ وقوية. وعلى بعد ثلاثين ميلاً إلىٰ الجنوب من عسقلان تقعُ يافا، كما أنّها على مبعدة يومٍ واحدٍ من القدس. وتكمن أهمية عسقلان الاستراتيجية في علاقتها بمصر. فإذا وقعت في يد المسلمين فإنّها ستتحوّل بسرعةٍ إلىٰ مركزٍ للقوات البحرية والبرية معاً. ومع أنّ المدينة كانت مبنيةً جيداً؛ فإنّ أسوارها لم تكن بالإتقان والصيانة نفسها. ولذلك اعتقد صلاح الدّين أنّ بوسعه أخذها بسهولة. وحيث كان بوسعه تجنُّب الحصار وحفر الخنادق؛ فإنه كان يفعلُ ذلك بحماس. فالوقت عاملٌ مهمٌّ في تلك الظروف، لأنّ العروس والجائزة: القدس، تنتظره. وكانت كلماتُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هي التي تقوده: «من فُتح له بابُ خيرٍ فلينتهزه، فإنه لا يدري متى يُغلقُ دونه»[1].

ولكي يشجّع السلطان المدافعين عن المدينة على الاستسلام، فقد دعا أسيراً آخر مهماً، إنه الملك غي دو لوزينيان. عرض السلطان على الملك صفقةً مؤدّاها أنّه إذا نجح غي في دفع حرس المدينة إلىٰ الاستسلام، فسيُطلق سراحه. وبهذا الوعد اقتيد الملك إلىٰ أسوار المدينة، وتُرك هناك، للعمل على إطلاق سَراحِ نفسِه. اقترب الملك من الأسوار ورفع صوته وسط شكوك المستشارين

(1) في أصل المؤلف أنّ هذا القول نصّ قرآني. وهو في الحقيقة أثرٌ منسوبٌ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، نقله ابن شدّاد في السيرة، مرجع سابق، ص 81، واقتبسه منه أبو شامة في كتاب الروضتين 2/ 92.

وانتظارهم: «أيها السادة! صلاح الدِّين قال إنكم إذا سلّمتم المدينة إليه فسيُطلقُ سراحي. وأنا لا أرى أن تُسلَّم مدينةٌ جميلةٌ كهذه من أجل حرية رجلٍ واحد. فإذا كنتم تظنون أنه يمكنكم الاحتفاظ بعسقلان للمسيحية فلا تسلّموها. لكنْ إذا ظننتم أنه لن يكونَ بوسعكم الدفاعُ عنها، فأرجوكم أن تسلّموها لكي أُطلقَ من الأسر». وقال الرجل أكثر من ذلك. أخبرهم أنّه إذا صار حراً، فإنه سيطلب النجدة من أوروبا فيما وراء البحار. بيد أنَّ اقتراحات الملك لم تعجب فرسان المدينة، ذلك أنّ ثقتهم به كانت أقلّ من ثقتهم بالسلطان. وهكذا عاد الملك غي إلىٰ معسكر صلاح الدِّين فارغَ اليدين، موقناً أنه سيبقى أسيراً عند صلاح الدِّين. ومع استمرار تلك المفاوضات، فإنّ صلاح الدِّين واصل جهوده لأخذ المدينة بالقوة. فمع كلّ ساعةٍ كان المسلمون يتقدمون في ضرب الأسوار وتشعيثها، وهو الأمر الذي كان المستشارون يتابعونه وينظرون فيه. وقبل أن لا يعودَ أمامهم خيار، قرّروا أن يستسلموا. وقد شرح صلاح الدِّين لأخيه الملك العادل أسباب تسامُحه مع المدافعين: «نضمنُ لهم الأمان لأنفسهم وأموالهم، اقتناعاً بأنّهم يفرون من قَدَر الله إلىٰ قَدَرِ الله. ويدفعُني لذلك الحرصُ على نساء المسلمين وأطفالهم بالمدينة أن ينالهم سوءٌ من الجيش المسيحي، كما أنّ ذلك حريٌّ بأن يحفظ المدينة من السلب والنهب». وهكذا فإنّ المدينة التي سقطت في يد الفرنج قبل أربع وثلاثين سنة بعد حصارٍ دام سبعة أشهر، أثبتت أهميتَها بالنسبة للمملكة اللاتينية، لكنها تعودُ الآن إلىٰ أيدي المسلمين. وعندما كان السلطان يفاوض لاستلام المدينة، كانت كتائبه العسكرية تحصد فتوحاتٍ أخرى من حصون المسيحيين الضعيفة الدفاع: غزة، والنطرون[1]، والرملة، والداروم. وفي حصن فرسان الهيكل بغزة استخدم صلاح الدِّين أداته التفاوضية الأخرى. فقد أرسل أسيره جيرار دو ريدفور Gerard de Ridefort، الذي كان رئيس فرسان الهيكل، إليهم، ليطلب منهم التسليم. وقد أثبت دو ريدفور أنّه

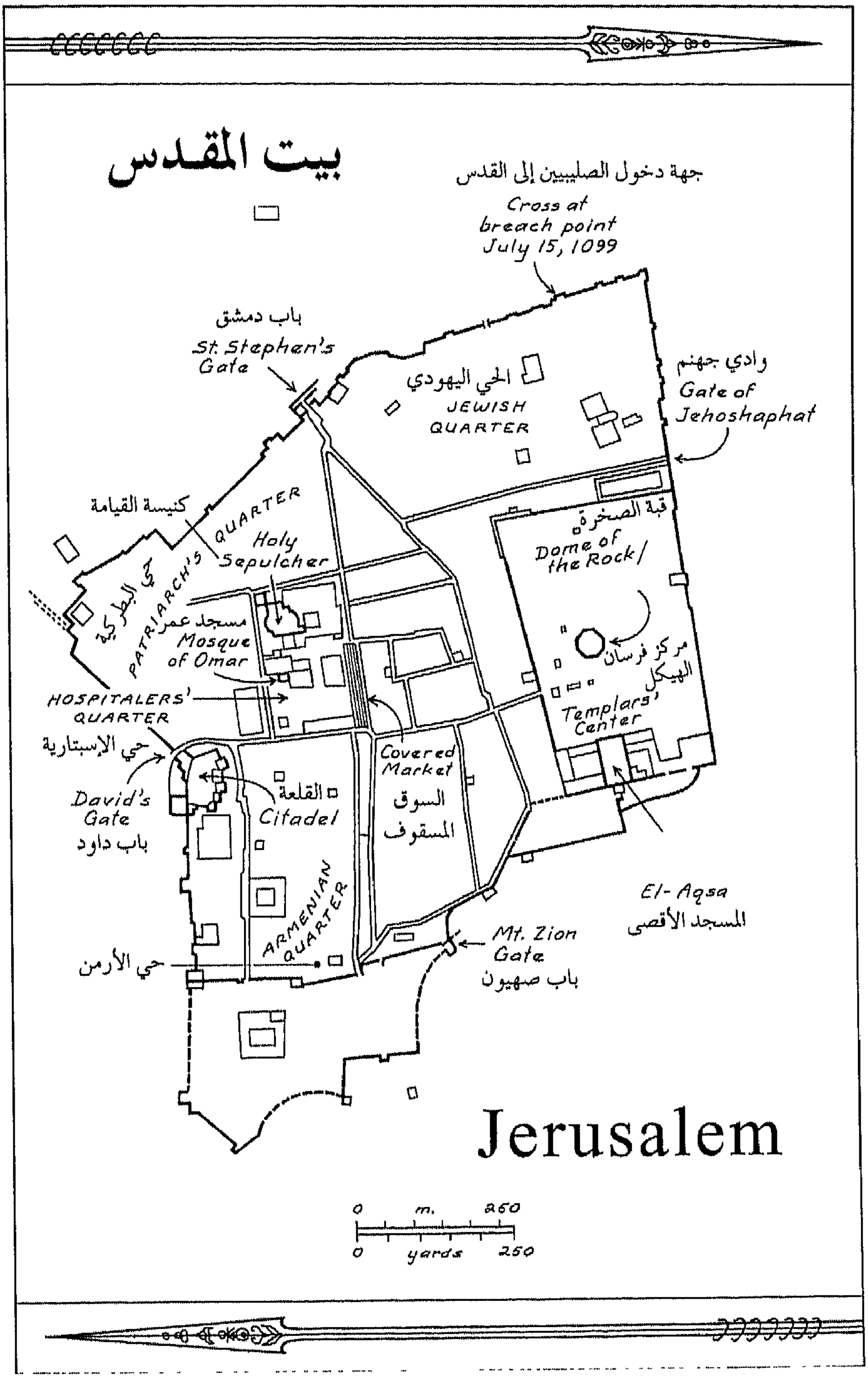
(1) عند المؤلف: لطرون Latron، وفي المصادر العربية: النطرون.

أكثر إقناعاً من الملك غي. ونتيجةً لذلك فقد كسِب حريته. وهكذا قاد مباشرةً الهيكليين المحرَّرين شمالاً إلىٰ صور. وسيزيد ذلك من متاعب صلاح الدِّين لاحقاً. لكنْ الآن، كان صلاح الدِّين قد حقَّق أهدافه المباشرة. فالدائرة حول القدس صارت كلها بيده.

ارتاح السلطان أياماً في عسقلان، معداً نفسه للاندفاعة النهائية باتجاه القدس. بعد مكة والمدينة، تُعتبر القدس ثالثة المدن المقدَّسة لدى المسلمين. وحسب الموروثات الإِسلامية؛ فإنّ المدن الثلاث (بالإِضافة إِلىٰ مدينة الكوفة بالعراق) خُلقت من نفس المادة قبل خَلْق الأرض. كانت القدس الجائزة الكبرى؛ هدف صلاح الدِّين في حياته كلها ـ كما أنها كانت هدف أسلافه (عماد الدين) زنكي، ونور الدين. إنها عبء التسعين سنةً الأخيرة من التاريخ العربي، وآخِر فرائض الجهاد وأهمّها. لقد كانت موطن إبراهيم ودار الأنبياء، حيث نزل عليهم الوحي، وهي موطن قبة الصخرة، حيث بابُ الرحمة، ومقر سليمان وداود، ونبع البركة. وسيؤدي فتحها إلىٰ إكمال استعادته فلسطين بعد حوالي المائة سنة على احتلالها.

وقعت القدس دائماً في قلب الإسلام. فقبل خمسمائة وثمانٍ وثلاثين سنةً، أُسري بالنبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، كما يذكر القرآن، من المسجد الحرام بمكّة على متن البُراق، إلىٰ المسجد الأقصى بالقدس. وهناك اجتمع كل الأنبياء السابقين، بمن فيهم المسيح، واحتفوا بالنبي (محمَّد) على مائدةٍ ضخمة. ثم إنه في الليلة العظيمة، في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب الفرد، ومن على الصخرة التي تعودُ في أصلها للجنّة، عُرج بالنبي محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ السماء وصولاً إلىٰ سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى. وهكذا فما كذب الفؤاد ما رأى. . . وهكذا كانت رحلة النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ القدس ومن القدس.

وقفت العروس، القدس، على مشارف التحرير. فقد انفتح نقابُها، بعد


بيت المقدس
جهة دخول الصليبيين إلى القدس
Cross at breach point July 15, 1099
باب دمشق
St. Stephen's Gate
الحي اليهودي
JEWISH QUARTER
وادي جهنم
Gate of Jehoshaphat
كنيسة القيامة
PATRIARCH'S QUARTER
حي البطركية
Holy Sepulcher
قبة الصخرة
Dome of the Rock
مسجد عمر
Mosque of Omar
مركز فرسان الهيكل
HOSPITALERS' QUARTER
حي الإسبتارية
Templars' Center
Covered Market
السوق المسقوف
القلعة
Citadel
David's Gate
باب داود
ARMENIAN QUARTER
حي الأرمن
El-Aqsa
المسجد الأقصى
Mt. Zion Gate
باب صهيون
Jerusalem
0 m. 250
0 yards 250

ثمانٍ وثمانين سنةً تحت سيطرة الكفار. استعاد الإسلام القدس، أو لكي يستعيد الإسلام القدس، كما يقول كاتبٌ ومؤرخٌ عربيٌّ معروف: «رحل السلطان من عسقلان للقدس طالباً، وبالعزم غالباً، وللنصر مصاحباً، ولذيل العزّ ساحباً؛ والإسلامُ يخطُبُ من القدس عَروساً، ويبذل لها في المهر نفوساً، ويحمل إليها نُعمى ليَحمل عنها بوساً، ويهدي بشرى ليُذهب عبوساً، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لأعدائها على أعدائها وإجابة دعائها وتلبية ندائها، وإطلاع زُهر المصابيح في سمائها... وإقْصاء إعداء الدين أقصاهم الله تعالى بلعنته»[1]. في هذه اللحظة الحافلة بالتوقعات الكبيرة، كان صلاح الدِّين يكافحُ مشاعره، ويحاولُ أن يضبط غضبه وإحساساته الثأر من الغزاة ذوي العيون الزُرق. في التاسع عشر من أيلول/سبنمبر قوَّضَ خيامه، وسار باتجاه القدس، توكَّلَ على الله وسلّم أمره إليه، وأمَّلَ أن يكونَ بابُ الفرج مفتوحاً له على مصراعيه. وقد أثارت سنابكُ خيله من الغبار ما غطّى عينَ الشمس، بحيث عادت الظلمة وعاد القتام. وشاركه جنوده في تقلب المشاعر، وتوقعات النصر. وعندما كانوا يزحفون كانوا يرفعون أصواتهم بالتهليل والدعاء لله سبحانه وتعالى. وكانت أعلامهم المزركشة تخفق فيها الرياح بالكتابات القرآنية التي تطرّز قصبها وحواشيها: «لا إله إلا الله، محمَّد رسول الله». وأقبل بعضهم على بعضٍ يقولون عندما سمعوا الأذان: قريباً سيحلُّ نداءُ المؤذّن محلّ قرع الأجراس. ووسط هذا الجوّ العابق بالحبور، كان صلاح الدِّين الذي جلب الله على يديه النصر، لعمق إيمانه وشدة ورعه يتقدم على جواده وسط جموع الجند الزاحفين. وفي اليوم التالي وقف جنوده أمام باب داود عند الجانب الغربي من أسوار المدينة المقدَّسة.

ما كانت هذه اللحظة التاريخية لتغيب عن بال صلاح الدِّين وانتباهه. إذ هو يعرف تماماً عار الحرب الصليبية الأولى وكوارثها. فقبل ثمانٍ وثمانين سنةً

(1) عن الفتح القسّي، ص37.

نظّم القائد تانكريد قواته عند هذا المكان، ونظر إلىٰ أعلى الأسوار كما ينظر هو الآن، إلىٰ مدينةٍ كانت وقتها مدينةً إسلاميةً حصينة. وحماس الإيمان يتملك هؤلاء الصليبيين أيضاً. فقبل أن يهاجموا الأسوار يؤدون هم أيضاً صلاةً معينة. ثم إنهم يصومون، ويعترفون، ويتناولوا، ويتصدقون على الفقراء، ويصغون إلىٰ الشعائر المتلوّة، ويسعون حفاةً على الأقدام لزيارة الأماكن المقدَّسة تائبين. ثم إنهم هم أيضاً أرادوا تحرير مدينتهم المقدَّسة، حيث عاش مخلّصهم ومات. بيد أنّ الجنود المسيحيين كانوا أيضاً في قبضة الكراهية العنيفة. وكان ذلك هو الجانب الضعيف من إيمانهم. فهم ممتلئون بالعنف وحبّ سفك الدم. وقد أتت بالنسبة لهم أيضاً لحظة الثأر.

استغرق الحصار خمسة أسابيع، من 7 حزيران/ يونيو إلىٰ 15 تموز/ يوليو 1099م. خلال تلك المدة نجح أحد قادتهم واسمه ريموند أوف سانت جيل بردم الخندق المائي، ثم بدأ بنصب السلالم الخشبية على السور من الناحية الجنوبية من أجل تَسَلُّقِه، في الوقت الذي استمرّ فيه ضربُ الأسوار وتشعيثها بحيث بدأت تتساقطُ نحو وادي جهنّم. كان الجنود يهاجمون، بينما كان المهندسون يبنون برجين للحصار، وحاجزاً ضخماً بتجهيزاتٍ تسليحيةٍ، ومزيدٍ من السلالم. وبعد أربعة أسابيع على الحصار، ترك تانكريد Tancred الهجوم على برج داود، وتحرّك نحو الجهة الشرقية على طول الأسوار وصولاً إلىٰ الباب الشمالي للمدينة المسمَّى باب دمشق (والذي سمّاه الصليبيّون باب ستيفن Stephen)، حيث انضمّ إلىٰ القوات الرئيسية لقائد الجيش الصليبي يومَها غودفري دو بويون Godfrey de Bouillon. كان غودفري بطَلَهم الأسمى، «عبد المسيح»، ورمز الفروسية، وحامي الذخيرة المقدسة، وصار فيما بعد أول ملكٍ مسيحي في القدس.

في 15 تموز/ يوليو 1099م، في يوم الربّ، يوم الجمعة، الذي كان المسيحيون في العصور الوسطى يعتقدون، أنّ المسيحَ فَدَى فيه البشرية على

الصليب، نجح تانكريد في خرق السور. ومن ذلك الخَرْق تدفق الجنود الصليبيّون إلىٰ داخل الحي اليهودي من المدينة، بينما دخل جنود غودفري من الباب الشرقي، واندفعت قوات سان جيل في الوقت نفسه تقريباً من الباب الجنوبي. وتلاقوا جميعاً على الجبل عند المسجد الأقصى، حيث تجمعت أعدادٌ هائلةٌ من المسلمين الذين لجأوا للحرم، وكانوا مستعدين للموت. وهناك بدأت المذبحة الوحشية. فطوال يومين انصرف الجنود المسيحيون لذبح كلّ من رأوه ليس من بني جِلدتهم. ويذكر فولشيه دو شارتر Fulcher de Chartre أنّ جثث كثيرٍ من القتلى كانت مشقوقةً أَو مفتوحة لما شاع من أنّ المسلمين كانوا يخفون ذَهَباً في أجسادهم. وبلغت أعدادُ المذبوحين بالمدينة حسب التقديرات حوالي الأربعين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال. أما كنيسةُ القيامة، كنيسةُ الذخيرة المقدَّسة، أكثر الكنائس قداسةً في العالم المسيحي، فقد تحولت إلىٰ بركةٍ من الدم. ووجد الصليبيّون أنّ اليهود تجمعوا في كنيسهم، وقد هيأوا أنفسهم للشهادة. أقبل الجنود على إحراق الكنيس، وانصرفوا للرقص ورفع الصوت بالأناشيد الدينية. وبعد القتل بدأت عمليات النهب. نهب الغُزاة مسجد عمر المسمّى باسم الخليفة (الثاني) للنبي، والمجاور لكنيسة القيامة، ثم أحرقوه. كما دُمّر قبرُ إبراهيم. وقد قام الصليبيّون بكلّ تلك الأعمال براحةٍ وفرح، واثقين من عدالة أفعالهم، وفخورين بالقيام بتلك الأعمال لنصرة الدين، بقدر الأخلاقية المتواضعة التي كانوا يمتلكونها آنذاك. يقول ريموند دو أغيلار Raymond de Aguilers، أحد المشاركين المتحمسين في تلك المذابح: «في الهيكل وموقع سليمان، كان بوسع الرجال الغوص في الدماء إلىٰ رُكَبهم. . وقد كان ذلك عملاً عظيماً، وجزءًا من عدالة الله، أن يمتلىء ذلك المكان بدماء الكفَرة، لأنه عانى طويلاً من أعمالهم الفاجرة».

وبعد أن انتهت المذبحة، عمد غودفري والفرسان الآخرون إلىٰ نزع أسلحتهم وثيابهم وغسلوا الدماءَ التي غمّست دروعَهم وأجسادهم، وارتدوا

أردية التوبة، وذهبوا للصلاة في كنيسة القيامة، ممتلئين بهجةً وحبوراً. لقد قاموا في نظر أنفسهم بعملٍ رائع، يدخل في أعلى تقاليد الفروسية، أوَلم يكونوا هم فرسان المسيح؟ وقاد بطركُ القدس مسيرةً احتفاليةً إلىٰ جبل الهيكل، حيث أنشد الجمع نشيداً شعائرياً مرفوعاً للرب: «بصوت مملوءٍ بالبهجة». ومن هناك مضت القافلة إلىٰ الكنيسة التي بُنيت بسرعة بجانب الباب الذهبي، ثم إلىٰ المكان الذي خُرقت فيه الأسوار. وفي تلك اللحظة التاريخية رفعوا أكُفَّ الضراعة والشكر لله (على ما وهبهم من نصر)، وقاد البطرك صلاةَ توبةٍ وعرفان.

يقول غيبرت دو نوغنت Guibert de Nogent المؤرخ الأشهر للحملة الصليبية الأولى: «إذا نظرنا إلىٰ معارك الأُمم، وفكرنا في الأعمال العسكرية الكبرى التي اجتيحت بها ممالك، فلن نجد إنجازاً مثلَ ذاك الذي حقّقه جيشُنا». وهو لا يجد نفسه مضطراً للاعتذار عما حدث للنساء: «وما أضَرَّ الفرنج بالنساء اللواتي وجدوهنّ في معسكر العدو، باستثناء أنّهم استلوا سيوفهم وبقروا بها بطونهنّ». أما فولشر، السالف الذكر، فيقول بحماسٍ وشَغَف: «آه، أيها اليومُ المرغوب والرائع. لقد كان مرغوباً من أعماق الفؤاد، لأننا أمَّلْنا دائماً نحن المؤمنين من أهل الاعتقاد الكاثوليكي، أن نتمكّن من العيش في الموطن الذي شَهَد ربَّ الأرباب، الذي تجسَّدَ، رحمةً بالعباد، مولداً، وموتاً، وقيامةً، وتحقيقاً للخلاص. أردْنا لهذا المكان أن يعودَ لسابق عزته وكرامته. وأردْنا له، وقد دنّسته أقدام وأفعال السكان الوثنيين، أن يتحرّر من الأَوضار».

(هكذا كانت العصور الوسطى). كلُّ ما تعتبره ديانةٌ معيَّنةٌ صحيحاً وماجداً، تعتبره ديانةٌ أخرى عاراً وشناراً.

لقد كانت وقائع وأياماً لا يستطيع المسلم أن ينساها. فإذا كانت المدينة قد ظلّت لستة أشهرٍ بعد المذبحة تتصاعدُ منها روائح الجثث؛ فإنّ تلك المذبحة ظلّت في ذاكرة المسلمين لتسعين سنة ـ بل ولتسعمائة سنة ـ. ولا شكَّ أنّها

كانت تشتعل في ذاكرة صلاح الدِّين ونفسيته، وتؤثِّرُ في عزيمته وطريقته في التفكير من خلال التربية والتصميم؛ مضخَّمةً إلىٰ الحدّ الأقصى. لقد كان استيلاءً فظيعاً ليس خليقاً أن يشعر بالمجد الذي أحسَّ به الصليبيّون الأوائل، وكان على صلاح الدِّين أن يضبط رغباتِهِ، في الغضب والثأر وردّ الفعل والاستيعاب والعدالة.

الآن، جاء دورُهُ هو.

أقبل صلاح الدِّين على استطلاع المدينة، وتفقد أسوارها طول خمسة أيام. وفي اليوم السادس، أي السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر بدأ الهجوم. قدّر صلاح الدِّين عدد المدافعين عن المدينة بعشرة آلاف مقاتل، وقد كان ضجيجهم عالياً يُسمع من الخارج. ثم إنهم أقبلوا على النفخ في الأبواق، والتحميس بالأناشيد الدينية من فوق الأسوار: أيها الصليب الحقيقي المقدَّس! أنقِذ مدينة جيروسالم! إحمِ الذخيرةَ المقدَّسة. وأقبل بعضُهم على تحميس البعض الآخر، بالزعْم أنَّ الواحدَ منهم يستطيع أن يُواجهَ مائة مسلم. كما أقبلوا على الصلاة والاستغفار وإنشاد نشيد الموت تدليلاً على استعدادهم للاستقتال. أما عن هجوم المسلمين؛ فإنّ مسيحياً ذكر أنّه لم يكن بوسع الواحد أن يرفع إصبعه فوق السور بدون أن يُضرب، لكثافة الرمي بالسهام من جانب المُهاجمين. بيد أنّ هذه الهجمة الأولى لم تُحدث الأثر المرجوّ. ولذلك فقد غيّر صلاحُ الدين تكتيكه بعد عدة أيام. وراقب المدافعون من على الأسوار المسلمين وهم ينسحبون ليعيدوا نَصْب خيامهم على جبل الزيتون، وفي وادي جهنم. وقد ظنّ المدافعون لحظاتٍ أنّ المسلمين قرروا ترك حصار المدينة؛ ولذلك فقد صاحوا: ملك الشام يهرب! وترددت صرخاتهم داخلَ المدينة: لم يستطع تدمير المدينة كما خطَّط! لكنّ الواقع أنَّ السلطان كان ينتقل إلىٰ موقعٍ أعلى، من باب داود إلىٰ السور الشمالي عند باب ستيفن أَو باب دمشق. وكانت قواته بعد تغيير التكتيك تُعَسكِرُ في الموقع نفسه الذي عسكر فيه

غودفري دو بويون وتانكريد قبل ثمانيةٍ وثمانين سنة. وأحضر صلاح الدِّين المناجيق (جمع منجنيق) والعرَّادات وآلات الحصار إلىٰ جانب السور الشمالي، ومن هناك بدأ ضرْبُ المدينة. كما أحضر المُحاصِرون آلةً تُشبه القوس لكنها أضخمُ وأقوى، ترمي الحجارة بدلاً من النبال. واستمرَّ قصفُ أسوار المدينة بالقوس الضخم، وبالمنجنيق، في الوقت الذي كان فيه المهندسون يعملون على هدم السور بالحفر تحته أو بمحاولة إحداث ثقوبٍ فيه كانوا يُدخلون النارَ منها إلىٰ الداخل.

بعد يومين من ضرب الأسوار، بدأت تترنح في بعض المَوَاطن. واستطاع المسلمون هدْم أجزاء برجٍ عند باب سان ستيڤن (باب دمشق من قبل). وفي نفس الموقع الذي تمكن الصليبيّون من إحداثِ خَرقٍ فيه من قبل، استطاع المسلمون أيضاً. وسقطت الصخور باتجاه الوادي، كما سقط الصليب التذكاري الذي أقامه الصليبيّون الأوائل. واعتبر المدافعون أنَّهم خاسرون، وبدأوا يهربون. كان في القدس شخصان يعتبران نفسيهما مسؤولين: البطرك أيراكليوس Eraclius، وقائد الجيش الذي يتولى تنظيم الدفاع عن المدينة؛ باليان أوف إبَلين Balian of Ibelin. كان باليان من عائلة نبلاء كبار، طويل القامة. وكان يحكم الإقطاع الذي ورثه عن أبيه من قلعته في نابلس. وهو الذي حمل الطفل بلدوين الخامس، بين ذراعيه لكنيسة الذخيرة المقدَّسة، لكي يتوَّجَ ملكاً بعد وفاة الملك المجذوم بلدوين الرابع. ثم إنه كان هو الذي نصح الملك غي ـ مع حليفه الآخر ريموند الطرابلسي ـ في معاركَ سابقة، وتزعم فرسان الهيكل الذين أغاروا على ساقة جند صلاح الدِّين في حطّين. وقد استطاع النجاة بأعجوبةٍ مع بعض فرسانه بدلاً من مقاساة العطش والموت في سهل لوبيا. وهكذا فقد كانت تجربة باليان غنيةً مع العرب، وكان معتاداً على الحديث والتفاوض مع صلاح الدِّين. ولذلك لم يكن عجيباً وهو اللاجىءُ إلىٰ صور، أن يطلب من صلاح الدِّين السماحَ له بالإتيان إلىٰ بيت المقدس لاصطحاب

امرأته. ووافق السلطان، على أن لا يحمل باليان السلاح ضد المسلمين، وعلى أن لا يبقى بالقدس غير يوم وليلة. ولكنْ بمجرد وصوله ألحَّ عليه المدافعون أن يتولى تنظيم الدفاع عن المدينة. وفي عصر الفروسية ذاك؛ فإنّ هذا الطلب تسبّب بأزمة ضميرٍ لباليان. فقد تعهد لصلاح الدِّين بأن لا يحمل السلاح، وأن لا يبقى بالقدس. وكتب إلىٰ صلاح الدِّين ليُحِلَّهُ من قَسَمه بحيث يستطيع البقاء. وقد فعل صلاح الدِّين ذلك، لأنه ما كان مهتماً بما عليه المدينة من قوة، أَو لأنه كان يعرِفُ وجوهَ ضعفها. وما كان هذا الفارس محتاجاً إلىٰ نصائح البطريرك الذي كانت حياته فضيحة؛ فقد كان يعيش مع صديقةٍ في منزله، كما كان معروفاً في نابلس باسم «السيدة البطريركة». ما عاد بالقدس غير نبيلين اثنين، وفرسان الهيكل غير المحبوبين هم الذين يحكمونها. بيد أنّ الناسَ ما كانوا يحبون الخضوع للهيكليين القُساة والمتشددين، وطلبوا من باليان أن يتولّى قيادتهم. واستجاب متردداً للرغبات الشعبية. وكان أول ما فعله إرسال أُناسٍ يشترون الطعام لتخزينه. ثم أعلن ستين من شبان المدينة، من أبناء عائلاتها المهمّة، فرساناً، استعداداً لتنظيم الدفاع عنها.

أمّا الآن، وقد حدث الاختراق الأول لسور المدينة؛ فإنّ باليان يعرفُ أنّ الموقف يائس. وإذا كان بحاجةٍ لدليل على أنّ الكفاح انتهى، والمعركة خُسرت، فليلتمسه عند البطرك، الذي عرض خمسة آلاف بيزنطية ذهبية على خمسين من شباب المدينة لحراسة السور في المكان الذي حدث فيه الخرق. وكان ذلك أكثر بخمسمائة مرة من أَجْر الفارس العادي، بيد أنّ البطرك لم يجد أولئك الخمسين بعد. بينما من الجهة الأخرى كان هناك حوالي الاثنتي عشرة رايةً مزركشةً مزروعةً في السور من جانب المسلمين. وبدأت النسوة بالتجمع في كنيسة الذخيرة المقدَّسة حيث جلبن أطفالهنّ، وملأن الأجرانَ بالماء البارد ووضعْنَهم فيها وقصصن شعرهم؛ في فعلٍ من أفعال اليأس، انتظاراً للشهادة. ومع ذلك فقد كان بين ذوي الرؤوس الحامية من اقترح هجوماً مضاداً أخيراً في

سياق التقليد الصليبي العريق للشجاعة والفروسية، لكنّ البطرك نصح بعدم المصير إلىٰ هذا الحماس الماجد. فإذا فشل الهجوم؛ سيموت الفرسان، وستباع نسْوتهم وأطفالهم وأرواحهم في أسواق العبودية، ويُحالُ بينهم وبين الدخول إلىٰ النعيم: «فالعرب لن يقتلوهم، بل سيدفعُونهم إلىٰ ترك إيمانهم بالمسيح، وسيضيعون جميعاً في عين الله». وبذلك فقد نُصح باليان بأن يبحث في حلٍ سلمي وأرسل القائد مبعوثيه إلىٰ صلاح الدِّين معلناً عن رغبته في الحديث. وبدا صلاح الدِّين غير مهتم للوهلة الأولى: «رجالي العقلاء يقولون إنه لا يمكن تنظيف المدينة إلاَّ بالدم المسيحي»؛ قالها بمرارةٍ وتحدٍ. ثم ذكّر المبعوثين بماحدث قبل ثمانٍ وثمانين سنة: «ومستشاريّ يقولون إنّ عليَّ أن آخُذَ بثأر أولئك المسلمين الذين قتلهم غودفري في الشوارع، بل وفي الكنائس والمساجد»[1]. ثم تراجعت هذه اللهجة العالية قليلاً عندما وافق صلاح الدِّين على العودة للتشاور مع العلماء. وأُرسلت سِفارةٌ أخرى فعادت خائبة. ثم جاءت بعثةٌ ثالثةٌ برئاسة باليان نفسه للتفاوض مع صلاح الدِّين. قال باليان إنّ على صلاح الدِّين أن يذْكُر شروطَهُ للاستسلام؛ بعد أن قال إنه مستعدٌ لتسليم المدينة مقابل العفو عن سكّانها. وأجاب صلاح الدِّين: «لا عفو عنكم ولا رحمة لكم! غداً سنصبح سادتكم، فنقتل رجالاتكم، ونبيع نساءكم وفقراءكم في سوق العبودية». وأمام هذا الإصرار من جانب صلاح الدِّين، بدأ باليان هجومه المضادّ مستجمعاً شجاعته المعهودة: «أيها الملك! اعلم أننا في هذه المدينة في خَلْقٍ كثير لا يعلمهم إلاَّ الله تعالى، وإنما يفرُّون عن القتال رجاءَ الأمان ظناً منهم أنك تُجيبُهُم إليه كما أجبْتَ غيرهم؛ وهم يكرهون الموتَ ويرغبون في الحياة. فإذا رأينا الموتَ لا بدَّ منه فوالله لنقتلَنّ أبناءَنا ونساءَنا

(1) في الكامل لابن الأثير 11/ 207، ومفرّج الكروب 2/ 213: «لا أفعل إلاّ كما فعلتم بأهله حين ملكتموه من المسلمين سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبْي، وجزاءُ السيئة بمثلها».

ونحرقَ ما نملِكُهُ من أموالِنا وأمتعتِنا، ولا نترككم تغنمون منا ديناراً ولا درهماً، ولا تأسرون رجلاً ولا امرأةً. فإذا فرغْنا من ذلك كلِّه أخربْنا الصخرةَ والمسجدَ الأقصى، وغيرهما من المواقع الشريفة. ثم نقتُل مَنْ عندنا من أسرى المسلمين؛ وهم خمسةُ آلاف أسير، ولا نترك لنا دابةً ولا حيواناً إلاَّ قتلناه، ثم خرجْنا إليكم، وقاتلْنا قتالَ من يريد أن يحمي دَمَهُ ونفسَهُ، وحينئذٍ لا يُقتلُ الرجلُ حتى يقتلَ أمثالَهُ، ونموتَ أعزاءَ أو نظفر كراماً»[1]. وأضاف باليان: «فما هي الفائدةُ التي ترجونَها من هذا التشدُّد غير الكريم؟ إنكم على وشك أن تفقدوا كلَّ شيء». وبدأ باليان يحظى باهتمام صلاح الدِّين منذ هدَّد خلال كلامه بتدمير المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وتأمل صلاح الدِّين وجه خصمه النبيل الحزين والجادّ فعرف أنّ الرجل لا يصطنع تهديداتٍ جوفاء. ومع ذلك، فما كان السلطان ليوافق على الاستسلام والأمان، وجائزتُهُ الكبرى في قبضته وأمام ناظريه. لا بد أن يكون واضحاً للجميع أنه أخذ المدينة عَنوةً لا صُلْحاً، وليس نتيجةَ تسويةٍ، بل بانتصارٍ ساحق. لقد كان هذا وعده لرعاياه، بل ولنبيه الكريم. وهكذا التفت السلطان إلىٰ باليان وقال: «سأُخبرك ماذا سأفعل. سأكونُ رحوماً مع بني قومك، وأحفظ قَسَمي في الوقت نفسه. تستسلمون كأنما أُخذت المدينةُ عنوة. وسأتركهم يأخذون معهم ممتلكاتهم وثرواتهم. أما أولئك الذين يستطيعون أن يفتدوا أنفسهم فسأتركهم يذهبون مقابل مبلغٍ معلوم. وأما الذين لا يستطيعون شراء حريتهم فسيظلون عبيداً عندنا». وتبع ذلك العرضَ جدالٌ حول الشروط، لأنّ النزاع صار هنا حول ثمن الحرية وليس حول الحرية ذاتها. وعُرضت شروطٌ وشروطٌ مُضادَّة. فقد كان إيراكليوس وباليان يتفاوضان من أجل الفوز بخلاص أكبر عددٍ ممكنٍ من الفقراء الذين لا يستطيعون دَفْعَ الفدية؛ وهم حوالي العشرين ألف إنسان؛ أمّا الأغنياء فيستطيعون دفع فديتهم بأنفسهم ولا داعيَ للمفاوضة حولهم. واستغرق الأمر

(1) عن الكامل لابن الأثير 11/ 206 – 208.

بعض الوقت حتى اتفق الطرفان علىٰ قدْر فدية الشخص الواحد: عشر بيزنطيات عن كل رجل، وخمس عن كل امرأة، وبيزنطية واحدة عن كل طفل[1]. وكان باليان والبطرك يعرفان أنّ بوسعهما جمع ثلاثين ألف بيزنطية من الاحتياطي الذي أرسله هنري الثاني ملك إنكلترا لدعم المملكة اللاتينية تكفيراً عن قتله توماس بيكيت. وسيحرر ذلك المبلغ سبعة آلاف مسيحي. ثم جرى جَمْعُ تبرعاتٍ من الناس في الشوارع أدت إلىٰ تحرير مئاتٍ آخرين.

(1) في ابن الأثير 11/ 208، وكتاب الروضتين 2/ 95، ومفرّج الكروب 2/ 214: «.. يزن كل رجلٍ عشرة دنانير يستوي فيها الغني والفقير. وتزن المرأة خمسة دنانير. ويزن الطفل الذكور والإناث دينارين...».

الفصل العاشر

الرحمن الرحيم

كانت عين صلاح الدِّين على التاريخ عندما أخّر دخوله إلىٰ المدينة المقدَّسة مدةَ يومين؛ بحيث يصادف الدخول يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب سنة 583هـ تشرين الأول/ أكتوبر، 1187م، ففي الذكرى السنوية لمسرى النبي محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعروجه إلىٰ سدرة المنتهى، عاد الإسلام إلىٰ القدس. وبداخل المدينة جلس صلاح الدِّين فخوراً ومتواضعاً في الوقت نفسه في احتفالٍ حاشدٍ لتقبُّل التهاني. وتجمع في مجلسه المفتوح الأمراء والعلماء والفقهاء والشعراء وأولياء الله الصالحون والزهّاد. وألقى الخطباءُ كلماتٍ في الثناء عليه. وقبَّل بعضُهم أطراف سجّادته، وقدَّموا الهدايا الرمزية، وألقى الشعراء القصائد الرنّانة. وبدا لأحد المراقبين كأنما عرش صلاح الدِّين يسبحُ في بحرٍ من الضوء.

وعلى عكس ما فعله الصليبيّون سنة 1099م ما كانت هناك أحداثُ قتلٍ وفوضى. فالعنف الذي حدث كان مقصوراً على القضايا الأساسية والرمزية. أُقفلت أبواب كنيسة القيامة. وكان بين مستشاري صلاح الدِّين متطرفون أرادوا تخريب الكنيسة، ووجدوا راحةً وانتقاماً في تحريف الاسم من القيامة، إلىٰ «القُمامة». وكانت وجهةُ نظرهم أنه إذا خُرّبت الكنيسة «وهُدمت القبة، ونُبشت

المقبرة، وحُرثت أرضها، وعفت، انحسمت عن قصدها موادّ أطماع الكفار، ومهما بقيت كانت الزيارةُ مستمرة»[1]: فهل تُهدم أو يجري الاحتفاظُ بها؟ هنا اشتعل النقاش واشتدّ. فلاحظ أمراءُ آخرون أنّ العقيدة المسيحية في التمسّك بالقدس لا تستند إلىٰ مبنى الكنيسة: «لا فائدة في هدمها. فإنّ متعبّدهم موضع الصليب والمقبرة لا ما نشاهد من البناء. فلو نُسفت أرضها. . لما انقطع عنها قصد أهل دين النصرانية. .». وتدخل رجلٌ ذو حسٍ تاريخي عميق، فذكّر بأنّ المسلمين تناقشوا حول المسألة نفسها قبل سقوط القدس سنة 1098م، وتوصلوا إلىٰ أنّ الأفضل إبقاء كنيسة القيامة على حالها. ذلك أنّ هدم الكنيسة، أقدس مكانٍ لدى المسيحيين، سيزيد من كراهيتهم للإسلام والمسلمين، ويزيد في تحريضهم على قَصْدِ القدس مرةً أُخرى، والانتقام. وأصغى صلاح الدِّين إلىٰ النقاش الدائر بصبرٍ وهدوء؛ لكنه كان قد اتخذ قراره؛ لن تُدمَّر كنيسةُ القيامة. فالمسلم الصالح هو ذلك الذي يحترم الديانات الأُخرى وأماكنها المقدَّسة ومعابدها. وبعد الدخول إلىٰ القدس أُقفلت الكنيسة لثلاثة أيامٍ فقط، وسُمح للمسيحيين بعد ذلك بالدخول إليها مقابل رسمٍ زهيد.

ووجد الفاتحون أنّ مسجد قبة الصخرة قد تحوّل إلىٰ كنيسة. كما أنّ المسيحيين بسطوا على الصخرة نفسها الرخام، بحيث لم يعد ممكناً رؤية أثر قدم النبي عند عروجه إلىٰ السماء، كما أنّ محيط الصخرة ما عاد ظاهراً. وقد بنى المسيحيون على الصخرة حيث القدم قبةً صغيرةً مذهّبةً بأعمدة الرخام، وعليها صُوَرٌ كثيرةٌ لأُناسٍ وحيواناتٍ بما في ذلك الخنازير. وفي مغارةٍ صغيرةٍ خلف المدخل نصب الصليبيون مذبحاً، كانوا يعتبرونه الموضع الأكثر قداسةً في الكنيسة. وكان ذلك المذبحُ مزيَّناً بصورة المسيح والمرأة الجَوَّالة التي جُلبت إليه لكي يعاقبها، فقال لمن حوله: «من كان منكم بلا خطيئةٍ فليرمها بحجر»!

(1) عن كتاب الروضتين 2/ 115، ومفرّج الكروب 2/ 231.

أمر صلاح الدِّين بإزالة كلّ ما أحدثه الصليبيّون بمسجد قبة الصخرة، بحيث تظهرُ الصخرةُ من جديدٍ وتتجلّى روعتُها. وعندما كُشف عنها الزحام، وجدوا أنّ أجزاء منها قد فُقدت. ويقال إنّ قِطَعاً وأجزاء منها كانت تُقطَعُ وتباعُ بالقسطنطينية. وفي مكان المذبح الذي أقامه الصليبيّون، أعاد المسلمون المغارة إلىٰ سابق عهدها باعتبارها مزاراً إبراهيمياً، يؤمنون بأنّه المكان الذي نذر فيه إبراهيم أن يضحّي بولده[1]. وصعد المسلمون إلىٰ أعلى قبة الصخرة، وأنزلوا عنها الصليب المعدني الضخم المذهّب. وجرى سحب الصليب في الشوارع، وإرسالُهُ إلىٰ بغداد للخليفة، الذي يدين له صلاح الدِّين بالولاء والبيعة رسمياً. وقام الخليفة بتثبيت الصليب في عتبة المسجد الجامع بالمدينة لكي يدوسَ عليه المصلون في دخولهم إلىٰ الجامع وخروجهم منه. أما المسجد الأقصى القائم في الجهة المقابلة، فكان قد تحوّل في حقبة سيطرة الصليبيين إلىٰ مقرٍ إداري وإصطبل للخيل لفرسان الهيكل. وقد قام المسلمون بتنظيفه ورشوه بماء الورد الذي جلبته معها من دمشق شقيقة السلطان، وهيأوه بذلك لإقامة الصلوات فيه من جديد. وكان المسلمون قد وجدوا أنّ محراب الجامع قد تحوّل إلىٰ مُستراحٍ ومكانٍ للغائط؛ مما اضطّرهم إلىٰ إزالة الجدران التي بُنيت من حوله، وتنظيفه أيضاً، وتعريضه للنور والهواء. وأمر صلاح الدِّين برصفه ببلاطٍ رائعٍ كُتب عليه اسمه، والنص التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإصلاح هذا المحراب المبارك، والمسجد الأقصى الذي أُسّس على التقوى عبد الله وسلطانه الملك الناصر صلاح الدِّين، بعد أن فتح الله على يديه المدينةَ في شهر رجب سنة 583. ويسأل السلطان الله سبحانه رحمته ورضاه، وأن يغفر له ذنوبه وخطاياه برحمته وعفوه». وقد جرت إزالةُ الصُوَر والتماثيل من المسجد بما في ذلك صُوَر الخنازير. وجُلب إليه المنبر الحلبيُ الخشبي الجميل الذي صُنع سنة 1168م بأمرٍ من نور الدين (محمود زنكي)، منقولاً من دمشق. ووضع

(1) يُجمعُ المسلمون أنّ النذر كان بمكة وليس بالقدس. وترى غالبية المفسّرين للقرآن أنّ الذبيح إسماعيل وليس إسحق.

المسلمون المصاحف محلّ الأناجيل، كما تضوَّعت في المجلس روائح البخور والطيوب. وبدأ المؤذنون ينادون للصلاة من على سطح الجامع بدلاً من قرع الأجراس والصنوج التي كان المسيحيون يستعملونها لراهباتهم وفرسانهم لسنواتٍ خَلَتْ. وتصاعدت من جديد أصوات القراء الجميلة بسورة الفاتحة في الصلوات والأدعية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ...﴾.

وكان قد مضى أسبوعٌ على فتح المدينة، عندما تدفق عليها الوجوه والأعيان والأمراء والشيوخ من سائر أنحاء المملكة في مصر والشام، بل ومن العراق. وكان الجميع ينتظرون قرار السلطان بشأن مَنْ سيلقي خطبة الجمعة الأولى بالمسجد الأقصى بعد استعادته ـ وذلك لأنّ خطيب الجمعة في هذه المناسبة التاريخية يحوطه تشريفٌ كبيرٌ من جانب السلطان. ولذلك فقد كان كبار العلماء بالمدينة والقادمين إليها يطمحون للحظوة بهذا التقدير. بل إنّ بعضهم قدَّم ما يشبه المسوّدة للخطبة آملين أن يقع اختيار السلطان عليهم. لكنّ صلاح الدّين صرف نظره عن الشيوخ، وعمد إلىٰ اختيار شابٍ في الثانية والثلاثين من العمر، معروف بألمعيته وقُدُراته الخطابية البارزة اسمه محيي الدين (ابن الزكي)، كان قاضياً بحلب. وقد عينه فيما بعد قاضياً بدمشق، (وكان معجباً به ليس لقدراته النثرية والخطابية وحسْب)؛ بل ولصنعته واقتباساته الشعرية الحماسية. فقد تنبَّأ في قصيدةٍ له من قبلُ بفتح القدس على يد السلطان بعد استيلائه على حلب، وقلعتها الشهباء. ومن أجل ذلك فقد ربط نفسَه نهائياً بصلاح الدين ومشروعه للتحرير:[1]

وفتحُكم حلباً بالسيف في صَفَرٍ ... مبشِّراً بفتوحِ القدسِ في رجبِ

(1) قائلُ البيت الشاعر ابن سناء المُلك، وهو مطلعُ قصيدةٍ يهنّىء فيها صلاح الدين بأخذ حلب، ويبشّره بفتح القدس. وقد استشهد به ابن الزكي هنا؛ قارن بديوان ابن سناء المُلك، ص 9 - 16. وقارن بما جاء في ص 31 من هذا الكتاب.

الرحمن الرحيم

صعد محيي الدين إلىٰ المنبر بالجبة السوداء، التي أُهديت إليه من الخليفة العباسي ببغداد. وما خيَّب ابن الزكي ظنَّ الحضور. فخلال ساعةٍ بعد ارتقائه المنبر راح الخطيب يشيد بذلك النصر التاريخي في لغةٍ عالية البلاغة، مازجاً البشرى بالحمد لله والشكر له على النصر، مستحضراً الآياتِ القرآنية، والأشعار، والتاريخ الإسلامي الأول. وهكذا فقد وضع الأساس الأخلاقيّ للإشادة بهذا العمل الذي يُرضي الله عن المجاهدين الأحياء المنتصرين الفرحين، والآخرين الذين يلبسون الخُضرة في جنات النعيم.

«. . إياكم أن يستذلَّكم الشيطان. . . فيخيّل إليكم أنّ هذا النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبِجِلادكم في موضع الجِلاد. واللهِ ما النصرُ إلاّ من عند الله. إنّ الله عزيزٌ حكيمٌ»[1]. ثم شرح محيي الدين أهمية القدس في الإسلام، وذكّر مستمعيه بقداسة المدينة؛ إذ إنّ النبيّ وجَّه المسلمين إليها في الصلاة في أول الإسلام فكانت أُولى القبلتَين. ومَثَّلَ للمدينة المقدَّسة بمَثَلِ الإبل الضالّة التي أُسيءَ إليها من جانب الكفار والمشركين لما يقرُبُ من مائة سنة حتى استُعيدت بفضل الله وتوفيقه: «أبشِروا برضوان الله. . وتطهير هذا البيت الذي أَذِن الله أن يُرفَع ويُذكَرَ فيه اسمُه. . ». وقارن بين التوحيد الإسلامي، والتثليث المسيحي، مقتبِساً القرآن بهذا الشأن: «وأشهدُ أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريكَ له. الواحد الأحد. الفرد الصمد. الذي لم يلدْ ولم يولد. ولم يكنْ له كفواً أحد». ثم أوضح الموقف الإسلاميَّ الصحيح من المسيح، النبي، المشرَّف والمصطفى من الله دونما رفع له عن رتبة الإنسانية. ثم إنه لم يتجنَّبْ موضوعَ الثأر: «. . الجهادَ الجهادَ فهو أفضلُ عباداتكم وأشرف عاداتكم. أنصُروا الله ينصركم. اذكروا الله يذكُرْكم. اشكروا الله يزدْكم

(1) نصُّ الخطبة في كتاب الروضتين 2/ 110 – 111، ومفرّج الكروب 2/ 218 – 228. والنصوص اللاحقة مأخوذة من المصدرين (المترجم).

ويشكركم. جدّوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض، واقطعوا فروعَ الكفر واجتثوا أُصوله». وأنهى خطبته بالثناء على صلاح الدِّين: «سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المُدافع، والذابّ عن حرمك وحرم رسولك المُمانع.. جامع كلمة الإيمان، وقامع عَبَدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهّر البيت المقدَّس... محيي دولة أمير المؤمنين».

كانت الخطبة بالغة الروعة والتأثير. وقد وصفها أحد الحضور بأنّها كانت بليغةً ورائعةً، غنيةً، وواضحة.

استغرق جلاءُ الصليبيين الحزين عن القدس زُهاء الأربعين يوماً. وعلى كل بابٍ من أبواب المدينة وقف أميرٌ يستوفي من الخارجين ما جرى الاتفاقُ عليه. وسرعان ما ظهرت سوقٌ سوداءُ إلىٰ جانب الجهات الرسمية. وصارت الرشوة عامةً وظاهرة. وقد استطاع بعض المسيحيين الفرار عبر الأسوار بالحبال، كما استطاع آخرون الخروج بدون فديةٍ ضمن صناديق المتاع. واستخفى فريقٌ ثالثٌ في ملابس عسكريين مسلمين. وقد اضطر كثيرٌ من الصليبيين إلىٰ بيع كل ما يملكونه بأسعارٍ بخسةٍ من أجل دفع الفدية التي كانت كبيرةً على البعض. وجرى تجريد الكنائس من الذهب والأقمشة الثمينة والأشياء القيمة للاستعمال في الفداء. بيد أنّ الكهنة احتجنوا الكثير أيضاً ولم يستعملوه في فداء الأسرى؛ بل آثروا أن يبقى من ضمن ثروات الكنائس. وكان البطرك إيراكليوس أسوأَ مثالٍ على ذلك؛ فقد استلب هو نفسه خزائن كنيسته. إذ جرَّد حتى جدران الكنائس من صفائح الذهب. وقد شكا مساعدٌ لصلاح الدِّين من جشع الكهنة؛ قال: «ذكرتُ للسلطان أن هذه أموال وافرة، وأحوال ظاهرة تبلغ مائتي ألف دينار، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار، فلا تتركها في أيدي هؤلاء الفجار. فقال: إذا تأوّلْنا عليهم نسبونا إلىٰ

الغدر . . . فنحن نجريهم على ظاهر الأمان؛ ولا نتركهم يرمون أهل الأيمان بنكث الأيمان، بل يتحدثون بما أفضيناهُ من الإحسان»(1) .

ومع كلّ الصفقات والرشاوى، وما دفعته الكنيسة، فقد بقي عدة أُلوفٍ بدون فدية، وبيعوا باعتبارهم عبيداً. بيد أنّ قلب صلاح الدِّين ما كان مع هذه التجارة بالبشر. ولذلك فقد ظلّ منفتحاً على مقترحات اللحظة الأخيرة. وقد ناشده البطرك أن يُطلق سراح خمسمائة من الأسرى الفقراء العاجزين عن دفع الفدية. وبذلك كسب خمسمائة جدد حرياتهم. وطلب المسيحيون الأرثوذكس أن يبقوا بالمدينة؛ وقد أذِن لهم صلاح الدِّين بذلك، وأعفاهم من الفدية، وطلب إليهم أن يدفعوا ضريبة الرؤوس فقط؛ كما سمح لهم باستلام الذخيرة المقدَّسة، وبشراء أمتعة الصليبيين المغادرين. وقد أُطلق سراح خمسمائة أرمني لمجرد أنَّهم أرمن. وهناك ألفٌ آخرون أُطلق سراحُهُم أيضاً؛ إذ قيل إنهم ضيوفٌ بالمدينة أتوا من الرُّها. وقد سُمح للملكة سبيلا وأعضاء بلاطها بمغادرة المدينة، مثلما سُمح أيضاً لامرأة ريجنالد أن تفتدي نفسَها بعد أن كان زوجُها قد قُتل. وقد كان صلاح الدِّين معروفاً بشفقته على النساء اللواتي توفي عنهن أزواجهن، والأُخريات اللواتي كنَّ زوجاتٍ لأسرى في سجون المسلمين. فقد كان صلاح الدِّين يطلق سراح الأزواج بدون مقابل، كما أنَّه كان يغمُرُ المحرَّرين بهدايا كثيرة. ومثل صلاح الدِّين كان شقيقه وخليفته الملك العادل، الذي تضامن مع اللاجئين، وطلب لهم الكثير: «سيدي! لقد ساعدتُك على فتح هذه البلاد، ودخول القدس: فهل تستطيع إعطائي ألف عبدٍ من الفقراء؟!»، ومنحه صلاح الدين ألف أسيرٍ كان يعرفُ أنه سيحررهم جميعاً.

حاول باليان شراء الوقت للوصول إلىٰ إطلاق سراح أعدادٍ أخرى، فقد اكتشف أنّ صلاح الدِّين في أعماق قلبه يريد تحريرهم جميعاً. لكنّ تحرير

---

(1) عنْ الكامل لابن الأثير 11/ 208، وكتاب الروضتين 2/ 96، ومفرّج الكروب 2/ 216.

الأسرى بدون مقابل توقف عندما اكتُشف رجلٌ يحاول تهريب ذَهَبه داخل زِقّ خمر. فقد أوقفه ضابطٌ على أحد أبواب المدينة، دون اشتباهٍ أنه يُخفي شيئاً، وقال له: «بسبب الخمر وشربها أخرج الله المسيحيين من القدس». وأخيراً، وبعد شتى أشكال التحرير، بقي ثمانية آلافٍ للإرسال إلىٰ العبودية. وعرض باليان والبطرك أن يضعا نفسيهما في الأسْر لصالح الثمانية آلاف. لكنّ السلطان لم يوافق: لا أستطيع تحرير ثمانية آلاف مقابل اثنين! وبذلك توقفت المفاوضات. ومن بين الأسرى تميزت النساء. فالكاتب العربي عماد الدين وجد أنّ صراخ النسوة ونواحَهنّ مُسَلٍ وشائق! إذ كان ينظر إلىٰ كل النساء الأوروبيات باعتبارهنّ فاسداتٍ وخبيثات ومملوءات بالشهوات، ومستعدات لتخطّي الأعراف الأخلاقية. ولهذا فإنّ أدنى خاطرةٍ حولهنّ كانت تدفعُهُ للتفكير في الجنس والاستثارة. فالنسوة الأوروبيات متكبرات ومحتقِرات، شهوانيات ومرتكِبات، ثائرات ومثيرات، راغبات ومرغوبات، سوداوات العين كبقر الوحش.. ويقدمن لمحبيهن ما احتفظن به في صدورهنّ. النسوة اللواتي كنّ يبكين وينُحن على أحبابهنّ وأولادهنّ وأزواجهنّ، هنّ اللواتي أثرن الكاتب: «فكم محبوبة هُتكت وما كانت مُلكت، وعزباء نُكحت، وعزيزة مُنحت، وعذراء افتُرعت، وغالية استُرخصت، وغانية استحاضت...»[1]. وبسبب كثرة اللاجئين فقد قُسّموا إلىٰ ثلاث فِرَق: ففرسان الهيكل والإسبتارية أُعطوا الرقابة على الآخرين في السجن، لكنّ الوضع بشكلٍ عام ما كان مُريحاً؛ ولذلك كانوا يعملون تحت توجيه حراسٍ مسلمين. وغادر باليان والبطرك بحراسةٍ ورقابةٍ مشدّدتين من جانب الحراس. فباليان كان في آخر العربة المغادرة التي كان البطرك يجلس في مؤخرتها ويضرب أخماساً بأسداس نتيجةً لضخامة الثروة التي أحضرها معه مخبّأة. وقد جرت مرافقة المحرَّرين إلىٰ حدود الدولة الإسلامية.

(1) عن الفتح القسّي، ص47.

الرحمن الرحيم

لكنْ عندما عاد الحراس المسلمون وجدوا أنّ اللصوص قد سطوا على القافلة ومحتوياتها.

وانتشر الخبر بسقوط القدس في الغرب. وظهرت أُغنيةٌ شعبيةٌ في رثائها:

راحيل تبكي ثانية،

من يلد صبياناً،

عليه أن لا يحمد رحمه (إشارة إلىٰ سفر التكوين 30: 1/ 2).

سقط الهيكل. والمعبد الذي كان شعبُ المدينة يملؤه

يقبع الآن مسلوباً (سفر المراثي 1: 1).

هكذا سلك جنود صلاح الدِّين سلوكاً مثالياً في احتلالهم للقدس سنة 1187م. وقد نظر صلاح الدِّين لنفسه وسمعته بعدم الانتقام لما فعله الصليبيّون في الحرب الأولى سنة 1099م. وبسبب حمايته لكنيسة القيامة، وأماكن مسيحية أخرى كثيرة، سيتذكر الجميع تسامحه تجاه أهل الأديان الأخرى، وتجاه الأماكن المقدَّسة للدين المسيحي. ويبدو أنّ أفعاله اعتُبرت عَلَماً ونموذجاً على كيفية سلوك المسلم الصالح. فبسبب عفوه، ووجوه الخير المتعددة في طبيعته، وسلوكه تجاه أعدائه، سيظل مشهوراً إلىٰ الأبد باللطف والتسامح والحكمة.

الفصل الحادي عشر

بيت داود

كان الصراع الكبير سنة 1187م صراعاً بين دينين. كان صراعاً بين مبدأ الإيمان بالإله الواحد القادر، الله ـ في مواجهة الآب ذي الثلاثة الأقانيم، الثالوث المقدس. بين تمثال الصليب، والصخرة، من حيث عُرج بالنبي محمَّدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) إلىٰ السماء ـ وبين كنيسة القيامة والمسجد الأقصى. لكنْ: ماذا عن اليهود؟ أليست القدس مقدَّسةً بالنسبة لهم أيضاً؟ إنها قدس الأقداس. إنها الجبل، موطن الهيكلين التوراتيين الأول والثاني. إنه المكان الذي أعدّه إبراهيم ليفيَ فيه نذره، بذبح ابنه، إسحق فيه[1]. وهو صهيون، قلب أو وسط دائرة إيمانهم. وهو المكان الذي كانت فيه السكينة، أي الحضور الإلهي واقعةً محقَّقةً عندهم. مكان الهيكل الذي دُمّر للمرة الثانية على يد الإمبراطور الروماني تيطس سنة 70م. وبسبب جاذبيته الهائلة؛ فإنّ ربّانيي

(1) هذا الفصل مُشكلٌ في اعتباره الصراعَ بين الصليبيين والمسلمين صراعاً دينياً حول مفاهيم لاهوتية، وفي رؤيته في السياق نفسه لموقع القدس في الديانة اليهودية، ولدى اليهود. ولا علاقة للموضوع في الحقيقة ببنية الكتاب لأنّ اليهودَ آنذاك ما كانوا طرفاً في الصراع. وقد سمح صلاح الدين لهم بالعودة للسكن داخل أسوار القدس التي كان الصليبيون قد أخرجوهم منها كما يظهر في هذا الفصل بالذات.

المدينة يحتكرون شعائر روزنامة تحديد الأوقات، وتواريخ الاحتفال في الدياسبورا. المكان الذي يكون لليهود فيه الحق في الموت وفي الحياة. وإشارةً إلىٰ قوة الرمز يقول شاعرٌ يهوديٌّ من القرن الثاني عشر الميلادي:

في حدود الغرب حيث كنتُ كأنما نزل بي الموت
إلىٰ أن بُعثتُ في صهيون مدينة الله
صهيون! هناك مُدُنٌ رائعة
لكن مثل روعتك ما رأت عين
ولستُ أدري ما إذا كانت الجبال لا تنحني لها
أو أنها هي التي تمتطي متن السحاب.

كان فرسان الصليب القادمون إلىٰ القدس بالنسبة لليهود مثل الغربان في الملاحم الأخيرة الداخلة في علامات القيامة والدينونة. وكانت أخبار الاضطهادات ضد اليهود في منطقة الراين وفي وادي الدانوب، قد سبقت الحرب الصليبية الأولى، وانتشرت الشائعات حولها في الشرق الأوسط. وعندما وصل الغربيون، كان الإحساس بالخطر، والاستعداد الفاجع للشهادة عميقين. وقد أراد بعض الرجال المقدَّسين اعتبار ظهور المسيحيين في الشرق أمارةً على ظهور المسيح (اليهودي). فهناك مسيحيون كثيرون اعتبروا الأراضي المقدسة موطناً تمهيدياً، وستظهر إرادة الله بعد ذلك فوراً، كما في (ميخا 4: 13): «قومي دوسي يا بنت صهيون، فإني أجعلُ قرنَكِ حديداً، وأظلافكِ نُحاساً فتسحقين شعوباً كثيرين، وأُبْسِلُ للرب غنيمتَهم وثروتَهم لسيّد الأرض كلّها».

كان وصول أولئك القُساة المتوحشين، المتعصبين المملوئين بالكراهية،

إيذاناً بنهاية الزمان، في حساباتهم. فقد مرت ألف سنةٍ منذ أمر تيطس بتدمير الهيكل. فهل يكون حملةُ الصليب هؤلاء، الذين ينشدون الأناشيد الدينية، ويطالبون بالثأر، تنفيذاً لنبوءة مملكة الألف سنة؟ هل جاء اليومُ ـ في كلمات أشعيا ـ الذي سوف يصغي فيه الله إِلىٰ الذبابة في أقصى أنهار مصر، والنحلة التي في بلاد أشور؟! قال يهودي: «لقد رأيتُ فرق الأشكنازيم، تتحرك جماعات، ولستُ أدري إلى أين يذهبون. لكنْ عندما احتلّ الصليبيّون القدس من خلال الثغرة في الأسوار سنة 1099م تدفق الفرسان المسيحيون أولَ ما دخلوا إِلىٰ الحيّ اليهودي للمدينة المقدَّسة، فكان اليهود أول ضحاياهم. كان يعيش في الحي اليهودي زُهاءَ المائتي إنسان على مقربةٍ من برج داود. وينهمك فرسان المسيح الآن بعد قتلهم، باللهو والرقص من حول كنيسِهم، وهو احتفالٌ مليءٌ بالضحك والرقص والسخريات الهزلية». وخلال المائة سنة التالية عاشت الجماعات اليهودية بشبه خفاءٍ في أماكن مثل الجليل وعكا، ولكنْ ليس في القدس. وقد أصدر الفرسان المسيحيون مراسيم منعوا بموجبها اليهود من العيش داخل أسوار المدينة؛ على الرغم من أنّ بضع مئاتٍ من اليهود كانوا يشاركون في صناعة الجلود والأقمشة؛ لكنهم كانوا يحيون خارج الأسوار. وفي كل مكانٍ ما كانت أعدادُهم كبيرةً أو عالية. وفي أواسط القرن الثاني عشر كان أربعمائة يهودي يعيشون في صور، ويعملون في صناعة الزجاج والسفن. وفي أماكن مثل الخليل والرملة وبيت لحم وبيت جبرين، فإنّ أعدادهم ما كانت تتجاوز أصابع اليد الواحدة. وبإيجازٍ يمكن القول إنّ عدد اليهود في المملكة الصليبية كلّها ما كان يتجاوز الألف نسمة. وكانوا فقراء ومنعزلين؛ أما الأوروبيون المحتلون فكانوا يعتبرونهم ملاعين قلباً وقالباً. كتب مطران عكا عن اليهود قائلاً: «لقد صاروا ضِعافاً، ويخشون الحرب مثل امرأة»، وتابع: «ويقال إنهم يعانون من نزيفٍ دموي كلَّ شهر. لقد ابتلاهم الله في سائر الأمور، وأورثهم عاراً دائماً. أما العربُ الذين يعيش هؤلاء في أوساطهم فإنّهم يكرهونهم ويحتقرونهم أكثر مما يفعل المسيحيون. إنهم يمارسون العمل

التجاريّ بأيديهم في أسوأ المِهَن وأحقرها. ومع ذلك فإنّ العرب لا يقتلونهم؛ بل إنما يفعلُ ذلك المسيحيون؛ لأنّ الله يحفظهم مثل جذعٍ خارج الغابة، ليجري إحراقُهُ بعد ذلك في الشتاء. إنهم يذكّروننا بموت المسيح».

في كل مكانٍ آخر في الشرق الأوسط، وبخاصةٍ في العراق، كان اليهود مشهورين، وكانت أعدادهم كبيرة، كما كانت أوضاعهم الاجتماعية حسنة. وقد تميزوا بحرَفٍ مثل صناعة الذهب وإنتاج وتطريز الحرير، والإقراض وصرف العملة؛ وكانوا الفئة التي سادت التجارة بين آسيا وإفريقيا وأوروبا. وكان يعيش بدمشق ما يزيد على الثلاثة آلاف يهودي وألفين في تدمر. وكانت بغداد مقرَّ رأس اليهود (رأس الجالوت) في الدياسبورا؛ الذي كان يعتبر نفسه متحدراً من نسل داود، وكان يتجول في المدينة بثيابه الحريرية، وأمامه الخدم والحشد يفتحون له الطريق بين صفوف الناس، ويصيحون: «سيدنا، ولد داود». أما في أقصى الشرق في سمرقند فقد كان اليهود يبلغون الخمسين ألفاً في العدد. وفي إسكندرية مصر كان هناك ثلاثة آلاف يهودي؛ وبالقاهرة ألفا يهودي؛ يتعبدون في كنيسين، وعندهم رئيسٌ تعترف السلطة الإسلامية بشرعيته. ولهذا فإنّ علاقة اليهود بفلسطين وبالقدس وبيهود الشرق كانت عاطفيةً وليست عملية. أما في مملكة صلاح الدِّين؛ فإنّ اليهود وإن لم يكونوا مساوين للمسلمين تماماً؛ فإنهم كانوا مقبولين اجتماعياً وسياسياً، ويتمتعون بالتقدير. وهم يدخلون جماعةً ضمن «غير المسلمين»، وقد وجدوا أنفسهم مجموعين مع المسيحيين (ضمن «أهل الكتاب»). وهؤلاء الذميون (من ذمة، وتعني عهداً واتفاقية للحماية)، كما كانوا يسمون؛ كانوا معتبرين رعايا للدولة. أما وجوه الإذلال التي كانوا يعانونها فليست شديدة الوضوح. ما كان مسموحاً لهم بركوب الخيل والبغال، بل دائماً الحمير. وهذه القاعدة وُضعت لتمييز الذين يعملون في مجال الطب أو خدمة السلطان والدولة. وكان عددٌ من الأطباء يطبب صلاح الدِّين نفسه. وبشكلٍ عام فقد كان مسروراً بعناية أولئك الرجال العلماء به؛ باستثناء مرةٍ واحدةٍ عندما

وصف طبيبٌ يهوديٌّ له الخمر باعتبارها دواءً؛ وكان مرض السلطان مغصاً معوياً. ولأنَّ الخمر محرَّمةٌ فإنّ السلطان تجاهل وصفة الطبيب. ولذلك فقد كان طبيعياً أن يكون بين أوائل مناشير صلاح الدِّين بعد فتح القدس، دعوة اليهود للعودة إلىٰ المدينة المقدسة. وقد كان بوسعه التذكر بطريقةٍ عاطفيةٍ حقيقة أنّ اليهود كافحوا إلىٰ جانب المسلمين دفاعاً عن المدينة في مواجهة الحملة الصليبية الأولى قبل تسعة عقود. كان صلاح الدِّين يرغب بالعودة بالمدينة إلىٰ أوضاعها السابقة قبل الغزو الغربي، وذلك يعني إعادة تكوين المجتمع المتنوع قبل الغزو الصليبي: «ليعد قلبكِ في حياةٍ جديدة. وكل براعم أفراييم الموعودة يمكن أن تتفتح، شأنها في ذلك شأن أخواتها في الموصل ومصر. ولتصل الأطياب المتضوعة، والداعية للعودة إلىٰ أقاصي الأرض. فلتأت من كل صوب البراعم، ولتتجمع داخل حدودها». تلك الأبيات هي التي أنشدها الشاعر اليهودي يهودا الحريزي متذكراً منشورَ صلاح الدِّين، والفرح الذي انتشر خلال عالم الدياسبورا. فمن جميع أجزاء الشرق الأوسط، ومن المغرب، ومن أماكن أخرى، تدفقت جماعاتٌ إلىٰ فلسطين، وإلىٰ المدينة المقدَّسة. وتأسس حيٌّ يهوديٌّ جديد في جنوب القدس.

إذا كان انفتاح صلاح الدِّين نبيلاً؛ فإنه كان أيضاً عملياً. فباستثناء الجنود المسلمين الفاتحين، كانت القدس مدينة أشباحٍ يومَها. فالساحة الرومانية كانت مقفرة. وأسواق الأفاويه والتوابل والملابس فارغة. وكذا الأمر بالنسبة لأسواق الأطعمة ذات الرائحة النفّاذة، وأسواق الدباغة والمشغولات والصناعات والحرف الأخرى. فإذا كان يُرادُ إعادة الحياة إلىٰ المدينة فإنها محتاجةٌ إلىٰ إمدادٍ بالمواطنين بسرعة. وقد عانى الصليبيّون سنة 1099م من المشكلة نفسها. إذ بعد المذابح التي ارتكبوها ضد المسلمين واليهود، صارت المدينة قليلة السكان إلىٰ حدّ القول إنّ شارعاً واحداً فيها كان مسكوناً. وقد بذل الصليبيّون جهوداً مضنية لاستجلاب مسيحيين قيل إنهم كانوا مضطَهَدين في البلاد العربية. وكذا الأمر

عندما استعاد المسلمون الرُّها سنة 1144م أيام سلف صلاح الدِّين (عماد الدين) زنكي؛ فقد استجلب زُهاء ثلاثمائة عائلة يهودية إلىٰ المدينة، لكي يعوِّض عن نقص السكان برحيل الصليبيين. صار السلطان صلاح الدِّين بحركته تلك بطلاً لدى اليهود. فمن أجلهم حَنَّن الله قلب السلطان. وقد كافأه الله على حنانه؛ فهو قد حاصر القدس، والله سبحانه فتحها على يديه.

بقي صلاح الدِّين شهراً في القدس، يشرف على تنظيم الأمور بعد الفتح. وقد تجنّب القصور المهجورة الكثيرة، واتخذ لنفسه مقاماً في الخانقاه الصوفية التي أُنشئت باسم الله الرحمن الرحيم؛ ليست بعيدةً عن كنيسة القيامة. وبدلاً من الانصراف للاحتفالات ومجالس الشراب، انصرف صلاح الدِّين لاستقبال الناس في مقره المكوَّن من غرفتين، ولا تسع الواحدة منهما أكثر من ستة أشخاص. لكأنما أراد بذلك أن يتجنّب عن عمد إغراءات الانتصار العسكري، والفساد الذي يمكن أن يحدُثَ بعد الأمجاد.

عمل صلاح الدِّين بعزيمةٍ على ترميم الأسوار وتقويتها، وتوسيع الخنادق، في الوقت الذي تواصلت فيه جهوده لإعادة الطابع الإسلامي للمدينة. أما الأموال التي حصلها من تحرير المسيحيين فقد أنفقها على الجند والأُمراء والفقهاء والرجال الصالحين والدراويش. وبأمرٍ من السلطان، أُخذ مقر البطرك في الجانب الشمالي الغربي من كنيسة القيامة، وأُعيد إلىٰ الدراويش الذين اتخذوا منه مقاماً ومصلًّى. ومن جهتهم، فإنَّ الدراويش سموا مقرهم باسم السلطان: الخانقاه الصلاحية. وفي الجانب الشرقي من المدينة، ليس بعيداً عن باب جهنّم، من حيث دخل المسيح القدس على حمار، اقتنى صلاح الدِّين إحدى أجمل كنائس الصليبيين (كنيسة القديسة حنة) وحوَّلها إلىٰ مدرسةٍ للدراسات المتقدمة في الفقه الإسلامي وعلم الكلام. وسمّيت هذه المدرسةُ باسمه أيضاً: المدرسة الصلاحية. وعندما نُظّف مقرّ فرسان الهيكل في باحة المسجد الأقصى، وأُعيد إلىٰ طبيعته الأصلية؛ فإنّ صلاح الدِّين حوّله إلىٰ

مدرسةٍ ومصلًىٰ بعد أن كان مستشفىً قبل الغزو الصليبي. اعتبر صلاح الدين أنّه لا وقتَ للراحة. وكان مستشاروه يلومونه. فقد كانت خزائنه فارغةً لإسرافه في الإنفاق، وتبذيره للأموال المكسوبة من افتداء الصليبيين. وضغط عليه مستشاروه وضبّاطه لاستمرار الكفاح لاستعادة المدن الساحلية، قبل أن يتبدد شمل الجيش. إنّ المسيحيين لن يرفعوا أيديهم عما احتازوهُ إلاَّ إذا قُطعت تلك الأيدي، كما يقول أحد المستشارين. ثم إنّ سيرة صلاح الدِّين (لابن شداد) تتساءل أيضاً حول كرمه؛ ولنتأمّل هذه الفقرة لابن الأثير(1):

«إنّ صلاح الدين هو الذي جَهَّز إلىٰ صور جنودَ الفرنجة وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس.. كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلىٰ صور، فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل... أفلا يمكن القول إنّ صلاح الدِّين نفسه هو الذي نظّم دفاعَ صور ضدَّ جيشه؟!».

في 30 تشرين الأول/ أكتوبر خرجت فِرَق الإسلام أخيراً من بيت المقدس، (واتجهت لإكمال الفتوحات).

(1) الكامل لابن الأثير 11/ 203 ـ 204، و12/ 23. وقارن بأمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص ص 255 ـ 256.

الفصل الثاني عشر

وثنيون في ميراثك

في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1187م ركب يوشع أسقف صور مسرعاً سفينةً من مرفأ تلك المدينة المشرقية، وأبحر باتجاه صقلية. ولكي تتلاءم السفينةُ مع وضعه الكئيب فقد كانت الأشرعة والجوانب مطليةً بالأسود. وما كان واثقاً أنه سيجد عند عودته الشاطئ بأيدي المسيحيين أم بيد صلاح الدِّين. وذلك لأنّ صور كانت الحصن الوحيدَ الباقيَ في المنطقة بعد أن أُخذت سائر حصون المملكة اللاتينية التي أنشأتها أَو استولت عليها القوات الصليبية في الحرب الصليبية الأولى قبل مائة سنة. كانت صور ما تزال صامدةً في وجه هجمات الكفار بسبب دفاعاتها القوية وقيادتها الحازمة. لكنْ لا أحد يعرف كم تستطيعُ المدينةُ الاستمرار. وإلى جانب ذكرياته ومشاهداته التي تصف الأهوالَ التي لقيها الصليبيّون، كان الأسقف يحمل معه تمثالاً صغيراً للمسيح يسيلُ الدمُ على وجهه بعد أن ضربه أحد العرب: «هذا هو المسيح، ضرب محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم نبي المسلمين وجهه، بحيث جرحه وقتله» . ثم إنه حمل رسالةً من مقدم فرسان الهيكل جيرار دو ريدفور، الذي ما كان ليعيش لولا تسامُحُ السلطان. وتقول رسالة دو ريدفور الشاكية أنه يحمل أخباراً إلى العالم المسيحي تُرعبُ الشمس والقمر: «كم هي المصائب والمحن التي سيضربنا

الرب بها، وكم تتطلب خطايانا. إنّ غضب الرب علينا هو الذي سمح بضربنا. وما عدنا قادرين، يا لغرابة المصير، على التعبير عما حدث لنا بالكلام أو بالكتابة..». ثم ذكر تفاصيل عن هؤلاء المسلمين الذين بعدد النمل. ثم وجَّهَ نداءَهُ: «أسرعوا بقدر ما تستطيعون لتجلبوا بعض العزاء والصمود لنا وللمسيحية. كل شيءٍ دمّر في الشرق. لكنْ بفضل الله، وفضائل محبتكم ومساعدتكم يمكن أن نستعيد بعض ما فقدناه، ونتشبَّث بما هو موجودٌ لدينا ودائم». لقد بدأت الفكرة تظهر وتثبُت، وهي القائلة إنّ انتصارات صلاح الدِّين ليست ناجمةً عن قوته وضعف الآخرين، بل إنّها بسبب ذنوب المسيحيين وانحطاطهم. لقد صار ثابتاً أنّ المسيحيين كانوا ينتصرون حتى عندما يكون العدو أكثر عدداً منهم، وبخاصةٍ عندما يكون معهم الصليب الأعظم. لكنّ الله سمح الآن بأن ننهزم، وأن ينتصر المسلمون. وهكذا فإنّ ذنوب المسيحيين هي التي تسبّبت، وجعلت من صلاح الدِّين الأداة الإلهية لذلك. فرب المسيحيين استخدم الكفار ليعلّم المؤمنين درساً. ومع ذلك فإنه في الوقت الذي كانت فيه قصة ذنوب المسيحيين التي تسببت في الهزائم تتعاظم، ظهرت قصةٌ أُخرى مناقضة. فقد أتى مهرِّج البلاط إلى صلاح الدين بعد وقعة حطين؛ وقال له: حكم الله على المسيحيين بالهزيمة من أجل التكفير عن جرائمهم، ثم إنه اختارك أنت أيها الأمير لإنفاذ المهمة. بيد أنّ الأب الدنيوي الذي يريد أن يؤدب أولاده، يستخدم عصاً قذرةً من أجل ذلك، ثم يعيد رميها في النفايات. يا لأسى للمهرج الصغير. فما كان هناك طبعاً مهرِّجٌ ولا مَنْ يحزنون في بلاط صلاح الدِّين. وحتى لو كان في بلاطه شيءٌ من ذلك ما كان ليرتكب خطأ الاستماع إليه. ومع ذلك فإنّ القصة وجدت مستمعين ومصدِّقين في أوروبا.

وصل الأسقف يوشع إلىٰ سواحل صقلية أوائل كانون الأول/ ديسمبر؛ جالباً معه الأخبار التي أذهلت البرابرة. الملك النورماندي وليم الثاني أُصيب بصدمة نتيجة تلك الأخبار إلىٰ حدّ أنه اعتزل في غرفته أربعة أيامٍ لا يكلِّمُ أحداً.

وفي اليوم الخامس عاد الملك إِلىٰ مجلسه معلناً عزمه على الكتابة إِلىٰ كل الأمراء الأوروبيين داعياً لحرب صليبيةٍ جديدة؛ وعلى لسانه المزمور التاسع والسبعون، يقول: «أيها الرب، إله الجنود، إِلىٰ متى تسخط على صلاة شعبك. لقد أطعمتَهم خبز الدمع وأسقيتَهم العَبَرات سِجالاً جعلتنا نزاعاً لجيراننا واستهزأ بنا أعداؤنا.. يا إله الجنود أرجِعْنا وأنِرْ بوجهكَ علينا فنخلُص». أما في روما فكانت الصدمة أشدَّ هَولاً. البابا أوربان الثالث كان قد مات قبل أيام قليلة على وصول الأسقف يوشع؛ وكان الفاتيكان في ارتباكِ انتخاب البابا الجديد. وجاء البابا الجديد واسمه غريغوري الثامن. ومع أنّ البابا الجديد كان كَسيرَ القلب، فإنه رفع صوتَه بنداء الحرب المقدَّسة بحماسٍ وشدة. إنّ على العالم المسيحي أن يتحمّل بعضاً من المسؤولية عن ضياع القدس. فلا شكَّ أنّ فقد القدس، والصليب الأعظم، جاء نتيجة تجاهل العالَم المسيحي لمراسيم البابوات وعظاتهم ومناشيرهم من قبل. فالأُمراءُ المسيحيون فضَّلوا حروبَهم الصغيرة على دعوة المخلّص. وضع غريغوري عقله وروحه في هذه الدعوة: «كل شخص عادي، يستطيع أن يدرك هَول الأخطار وفظاعتها، كما يستطيع أن يقدّر قسوة البرابرة المتعطشين لدماء المسيحيين. وإنّ هدف أولئك الذين انتهكوا حرمة الأماكن المقدَّسة ليس أقلّ من مسح اسم الله من على وجه الأرض». والرجال النبلاء الذين تأخذ بمجامع قلوبهم وأرواحهم محاولات إنقاذ القدس، يستطيعون أن يأمُلُوا طبعاً مغفرةً للذنوب، ورضواناً من الله والكنيسة في الحياة الأبدية.

مضى البابا غريغوري بندائه العاصف إِلىٰ بيزا وجنوا، القوتين البحريتين الكبيرتين في المتوسط، لكي يدفعهما للتصالح من جهة، ولكي يكسب دعمهما في الحملة الصليبية الجديدة. بيد أنّ البابا الضعيف الجسد، الذي أرهقه الترحال ما لبث أن توفي بعد شهرين على تنصيبه، وخَلَفه في المنصب كليمنت الثالث. وتسلّم البابا الجديد أيضاً مسألة الحرب الصليبية بحماس. وعاد

لمطالبة أمراء أوروبا بترك خلافاتهم، والاستجابة لنداء المسيح. وركّز الفاتيكان على إنكلترا لأنها كانت أغنى ممالك أوروبا وأكثرها قوة. وطلب البابا من المطارنة البريطانيين حَمْلَ المسألة بجدٍ لإنقاذ المسيحية التي تتهددها «مؤامرة أبناء إسماعيل». وطلب كليمنت من يوشع أن يذهب إلىٰ جيسور Gisors حيث كان من المقرَّر أن يلتقي فيها ملكا فرنسا وإنكلترا في ربيع سنة 1188م فيستطيع الأسقف أن يوجّه إليهما نداءً شخصياً. وعندما سمع الأمير ريتشارد دوق أكيتان، والملك المقبل للإنجلترا نداءَ الحرب المقدَّسة، خرَّ راكعاً وأخذ الصليب في كانون الأول/ ديسمبر 1187م؛ فكان بذلك أولَ أميرٍ مسيحي يستجيب النداء.

في 21 كانون الثاني/ يناير 1188م التقى هنري وفيليب ثانيةً تحت شجرة الدردار في جيسور. وبقي ريتشارد في جنوب فرنسا، لكنّ الملكين سمعا هناك الآثار التي خلّفتها أخبار المشرق المزعجة على المَلَكيات الأوروبية. استمع الملكان إلىٰ الأسقف يوشع يحدثهما عن خسارة الأرض المقدَّسة. وكان غضبه ويأسه كبيرين. وهذه المشاعر العميقة المتلاطمة هي التي أفضت لاحقاً إلىٰ أنشودة: «جيروسالم في الريح»: «جيروسالم في الغبار والريح. ضع رماداً على رأسك. ضعه في غرفتك. هناك في المكان الذي تتأسس فيه دعائم الأمل. فأعمال الخير تفتقر إلىٰ الراية والإيثار. في قلب جيروسالم تُرضع الذئاب الكلاب. إنهم يهدمون أحجار البيت المقدس، ويحولونها إلىٰ سوق. والمصريون يدمّرون ما عمله العبرانيّون».

عندما كان الملكان يستمعان إلىٰ نداء الأسقف يوشع عادا للركوع والقَسَم وأخذ الصليب. وجرى الاتفاق على أن يحمل الفرنسيون في الحرب على صدورهم صلباناً حمراً والإنجليز صلباناً بيضاً والفلمنكيين صلباناً خضراً. كما تعهد الملكان بأن يذهبا للحرب خلال عام. وفي ذلك الاجتماع جرت الموافقة على «ضريبة صلاح الدِّين» التي طُبّقت في إنكلترا وفرنسا. وبدا للوهلة الأولى

أنّ البابوية نجحت مرةً أخرى في إشعال حربٍ صليبية. فقد كان مفيداً الآن كما في الماضي صرف الأمراء والنبلاء الصغار عن نزاعاتهم. والعدو الواحد يمكن أن يوحد كلمتهم في سبيل المسيح. فضلاً عن أنّ ذلك يمنح الأمراء والنبلاء الفرصة لاستعمال حبهم للفروسية في منحى إيجابي. ولأنّ هنري الثاني كان قد صار عجوزاً ومتعباً من النزاعات الداخلية، فقد كان مزاجه ملائماً أيضاً لتلك الحرب. وهكذا استطاع الوصول مع فيليب ومستشاريه إلىٰ حلٍ في قضية فاكسن Vexin. فحصن جيسور وما حوله سيكونان مهراً للأخت غير الشقيقة لفيليب، أليس، التي خُطبت لريتشارد سنة 1161م عندما كان ما يزال في الرابعة من عُمُره. وطالب فيليب من جديد بإتمام الزواج. بيد أنّ الروح المتسامية لحرب الثأر المقدَّسة لم تستمر أكثر من عدة أيامٍ بعد اجتماع جيسور في 21 كانون الثاني/ يناير 1188م. فقد عادت سائر الأطراف إلىٰ نزاعاتها. فإقدام هنري على أخذ الصليب كان المقصود به التخلص من ابنه، ولم يكن في نيته الذهاب للديار المقدَّسة بنفسه. وقد رأى أنه أعطى ما فيه الكفاية للحرب المقدَّسة من خلال المبالغ المالية الضخمة التي يدفعُها جزاءَ قتله لتوماس بيكيت. هكذا عاد هنري الثاني إلىٰ إنكلترا، إلىٰ ذراعي أليس، لكنه ما يزال يحنُّ للسيطرة على فاكسن التي حصل عليها فيليب في أسكرو Escrow مهراً لأليس التي ينبغي أن تتزوج من ريتشارد كما قيل منذ زمن. وفي تموز/ يوليو انفجر نزاعٌ علنيٌّ أطلقه هنري، مع بوادر هرطقة دينيةٍ أيضاً: لماذا يكون عليَّ أن أعبد المسيح؟ ولماذا يكون عليَّ أن أُبجّله في حين مكَّنَ صبياً من الاحتيال عليّ؟ وفي شهر آب/ أغسطس عاد الملوك إلىٰ دردارة جيسور للتفاوض، لكنّ السيوف ما لبثت أن شُهرت. ففي نوبة غضب أمر فيليب بقطع الدردارة. وعندما رآها هنري مقطوعة، أعلن الحرب. لكنه ما عاد يملك القلب أو النشاط للقتال. وطلبت منه روما الإقبال على التصالح فعاد للاجتماع بفيليب في تشرين الثاني/ نوفمبر، وهناك صُدم برؤية الحميمية التي بين فيليب وابنه ريتشارد، مما يُثبت الشائعات

حول شذوذه الجنسي. وهناك أيضاً طالب ريتشارد من جديد بأن يكون ولياً للعهد، وهناك رفض هنري أيضاً مطلبه. وأزعج الانقسام الجديد روما، فأرسلت مبعوثين لتنبيه المتخاصمين إلىٰ الخطر الماثل في الشرق، والذي ينبغي الانتباه إليه. وما أثمرت مساعي البابا لأول وهلة. ففيليب زعم أنّ البابا مهتمٌ بالسلام، لأنه شم رائحة المال الإنكليزي. وريتشارد سلَّ سيفه على المبعوث البابوي وهو في حالةٍ من الغضب الشديد. وبعد ستة أشهر على هذا الحدث، كان فيليب وريتشارد يشنان حملةً مشتركة على هنري الثاني. حاصر الرجلان الملك هنري في Le Mans مدينة مولده وأحرقاها، وقد لام هنري ابنه على هذا الفعل الشنيع وليس الملك الفرنسي: «لقد أحرقتَ بقسوةٍ المدينةَ التي أُحبّ، والتي فيها قبر والدي. لقد حرمْتني من أعزّ ما أملك، وسوف أعمل على حرمانك من أعزّ ما تُحب». ومضى ريتشارد وراء أبيه هنري مُريداً قتله، فتصدّى له معلّمه في الفروسية وليام مارشال لتبطئته، وكاد يقتله في كمين: لا تقتلني يا مارشال فأنا لستُ مسلحاً! وأجاب مارشال: أرجو أن يقتلك الشيطان، أما أنا فلا! وما مضت أشهر حتى اشتدّ المرض والشيخوخة بهنري، واضطُرّ في أيامه الأخيرة إلىٰ إعلان ابنه ريتشارد وارثاً للعرش، وإطلاق سراح إليانور امرأته، وترك أليس ليتزوجَها ريتشارد بعد عودته من الأرض المقدّسة، كما أنّه تخلّى عن Vexin لفيليب بعد أن خسر عدة قلاع. وأقبل ريتشارد على سرير والده تائباً ومستغفراً ونادماً على حروبه ضدّه؛ والتمس منه العفو والمغفرة، لكنّ الوالدَ أقفل كلَّ بابٍ للتسامح وقال: ليوفقْني الله بحيث لا أموت إلاّ بعد أن أنتقم منك! بيد أنّ هنري لم يستطع الانتقام، فقد حُمل إلىٰ Chinos حيث توفي بعد أيام قليلةٍ، ومن هناك أُخذ جثمانه إلىٰ Fontevrault حيث دُفن في كنيسة Nuns مشيَّعاً من ابنه النادم. وكما يقول المؤرّخ جيرالد أوف ويلز فإنّ الدماء نبعت من جسد الملك في شبه معجزةٍ كأنما ليقول إنّ ابنه ريتشارد قتله.

II

تتويج الأسد

بعد وفاة هنري الثاني ذهب ريتشارد لوقتٍ قصير إلىٰ إنكلترا من أجل احتفال التتويج. وقابله الشعب الإنكليزي بترحابٍ كبيرٍ، وتحدث الشعراء عن الملك الناضج القلب، وإن يكن صغيراً في السن. كما تحدث آخرون عن زهرة الفروسية الذي تأتي كلماته من الحقيقة النابعة من القلب. وعزمت إليانور بعد خروجها من السجن، أن تُعدَّ لابنها بدايةَ مُلكٍ لائقة، فمضت من حصنٍ إلىٰ حصنٍ، ومن حبسٍ إلىٰ حبسٍ، مطلقةً سَرَاحَ السجناء، لما عانته في السجن من قهرٍ ومشقّة. وبذلك استبشر الناسُ بالملك الجديد والعهد الجديد. وأُقيمت احتفالاتُ التنصيب بتاريخ 3 أيلول/ سبتمبر في وستمنستر. وكانت الأجواءُ مملوءةً، بالأمل والتجدد. وهذا ما عبّر عنه شاعر التروبادور برتران دو بورن عندما قال «إنه يحب انتقال المُلْك من ملكٍ إلىٰ ملك، من شيخٍ إلىٰ شاب، ومن عهد إلىٰ عهد». كان الذهب حاضراً في كل مكان: في الشمعدانات، وفي السيوف، وفي الصولجان الملكي، وفي الجِراب. أمّا ختمه الملكي، والذي كان يحمله أخوه جون، فقد كان عليه ثلاثة أسود فوقها تاج، على خلفية حمراء. وحلف الملك ثلاث مراتٍ على صون المملكة، والدفاع عن الكنيسة، وخوض الحرب المقدَّسة. عُرِّي ريتشارد حتى الوسط، حيث مسحه أسقف كنتربري بالزيت المقدَّس، ثم ارتدى ملابسه الملكية، ووضع التاج المرصَّع بالجواهر. وفي الاحتفال اللاحق على التتويج ما حضر غير رجالٍ ضخام عِراض الأكتاف. أما النساء فما كنَّ مدعوات.

ووسط هذا الحشد الهائل من الأمراء واللوردات والبارونات والإيرلات كان حفل «العُزَّاب» جيداً ومفرحاً، لولا أنَّ حادثاً عكّر صفوه. فقد جاء يهوديٌّ

عجوزٌ حاملاً هدايا للملك، فأُخذ من على الباب وطُرد وسلبت هداياه، وفاجأهُ نشيدٌ مُعادٍ لليهود:

هذا الذي يخلّص من الذنوب
أتى بسويةٍ مستقيمةٍ من الأب
ليشفي جروحَ الإنسانية
اعترف بالرب، أيها اليهودي
لقد مضى القانون القديم إلىٰ غير رجعة
والنظام القديم مضى أيضاً لغير رجعة
وما عادت الشعائر القديمة تنفع في غفران الذنوب
ولا عادت حروف القانون نافعة
يا قلب الشعب الغبي، الأغلظ من الحديد
انظر أمامك وخلفك، ولا تأبه للمُلهيات
إذا أكلتَ القشور فإنّك لن تأبه لقلب الثمرة
ومن الحبوب غير المختارة، لن تنتج خبزاً ممتازاً
كما أنك لا تملأ خابيتك
ثم إنّك تقدر بعض الأشياء أكثر مما تستحق

واستطاع أحد أعضاء الوفد النجاة بحياته وهو بنديكت أوف يورك Benedict of York باعتناق المسيحية في كنيسة الإينوسنت. لكنّ العوامَّ تحركوا إلىٰ الحي اليهودي بلندن، وبدأوا بإحراق كل مساكن اليهود. وما تدخلت السلطات إلاّ عندما امتدت النيران إلىٰ الممتلكات المسيحية. وفي اليوم التالي لم يُظهر الملك الجديد أيّ تعاطُفٍ مع اليهود، واكتفى بتعليق بعض الذين

أوصلوا النار إلىٰ مساكن المسيحيين. ثم ومن باب الفضول ربما، استدعى المسيحي الجديد إليه، وقال له:

ـ من أنت؟

ـ أنا بنديكت أوف يورك، أحد يهود مملكتك يا سيدي!

ـ ألم تخبروني أنه مسيحي؟ قالها الملك مائلاً على أسقف كنتربري.

ـ نعم، يا مولاي.

ـ أسقف كنتربري: إذا لم يختر أن يكون مسيحياً، فليكن واحداً من عبدة الشيطان!

وفي روايةٍ لهذه القصة، يذكر كاتب سيرة ريتشارد وبطولاته: روجر أوف هوفدن سفر الأمثال رقم 26: «ككلبٍ عائدٍ في قيئه، هكذا الجاهلُ المكرّر سفهه».

ويقال إنّ نزعة العداء للسامية مضت بعيداً بريتشارد قلب الأسد، إلىٰ حدّ أنه كان يتسلّى أحياناً بنزع أسنان بعض اليهود. وفي الشهور اللاحقة اشتد الحماس للحرب الصليبية والذهاب للقدس، وفي الوقت نفسه العداءُ لليهود واضطهادهم، ولم يفعل ريتشارد شيئاً ضدّ ذلك، باستثناء رسالةٍ جرى تجاهُلُها من جانب أتباعه، بعد مغادرته بريطانيا إلىٰ الأرض المقدّسة. وحدثت هجماتٌ أخرى على اليهود في يورك ونورويتش، إلى حدّ أن معلّقاً قال: «إن هناك كثيرين ممن يسرعون إلى القدس، ربما كانوا يريدون أولاً ضرب اليهود». قد بلغ الاضطهاد مدىً في يورك York أدى بالمسيحيين هناك قبل عيد الفصح سنة 1190م إلىٰ القبض على بضع مئاتٍ من اليهود ووضعهم في السجن، حيث قيل إنهم انتحروا؛ وربما كان بين المنتحرين بنديكت أيضاً. وقد ذكر مراسلٌ حربيٌّ اسمه ريتشارد أوف ديڤيس Devizes من ونشستر تلك المذبحة، وقال إنّ الذين قاموا بها إنما قصدوا أن يثأروا، وعملهم محمود، وأنه خَجِلٌ لأنّ مدينته لم

تشارك في المذبحة: «في يوم التتويج، وعندما كان الابن يخلُفُ أباه، ضُحّي باليهود لأبيهم، الشيطان. حدث ذلك في لندن. وقلّدت مُدُنٌ أخرى اللندنيين، فأرسلت مصاصي الدماء أولئك إلى الجحيم. وحدها ونشستر ترددت وتكاسلت. فالمدينة ما كانت مستعدةً لقطع دابر الداء الذي يتغلغل في جسمها..».

شارك ريتشارد منذ صغره في تقاليد الفروسية. ويقال إنه نظَّم مبارزاتٍ بعد تتويجه استمرت ثلاثة أيام لاختيار أشجع الفرسان الذين سيرافقونه إلى الشرق. ولأنه هو الوحيد الذي يستطيع اختبار الفرسان، فقد ظهر في ثلاث هيئاتٍ مختلفة. في الهيئة الأولى كانت عدته سوداء.. ثم اختفى في الغابة وعاد فارساً بملابس حمراء.. ليختفي ثانيةً في الغابة ويعود بملابس بيضاء وعلى فرسٍ أبيض. أما الصليب على خوذته فكان حمامةً بيضاء رمزاً للديار المقدسة نفسها. هذه المرة اصطدم الفارس الأبيض بقضيبٍ شائكٍ فسقط مغمىً عليه وحُمل إلى قصره. ولا شكّ أنّ هذا الاتّباع للتقاليد الآرثرية (نسبة للملك آرثر) يعني أن آخر خصمين للملك سيكونان معاونَيه الرئيسيين، فيقسمان له قَسَمَ الولاء والوفاء.

بعد عشرة أشهر وجد الملك نفسه في فيزيلي Vézelay مع جيشه الصليبي في ذلك المكان، وجنباً إلىٰ جنب مع الملك فيليب أغسطس ثانيةً؛ الذي يبدو أنّ مصيره ارتبط به، وكذلك عواطفه، في عُرىً لم تنفصم منذ بداية شبابهما.

الفصل الثالث عشر

موعد في ڤيزيلي

في تلك الحقول الوديعة بناحية بُرغنديا الفرنسية ظهر الملك ريتشارد في شهر تموز/ يوليو 1190م في أبهى صورةٍ له. كان في أبّهته الخارجية تلك مثال الفارس الشهم والنبيل. طويل القامة ورشيقاً، يتميّز بساقي المحارب الرياضي وذراعيه الطويلتين. وعلى رأسه خوذة مستطيلة من الطراز الرايني، ويغطّي جسده درعٌ من الزرد تحت معطف أبيض يحمل شارة الصليب الحمراء، بينما كان يشدّ إلىٰ وسطه سيفه الحربي الثقيل ذا القبضة الذهبية والذي كان يستخدمه بيديه الإثنتين، ويحمل بيساره ترسه الحربي، المزيّن بصورة أسدٍ يتوثّب نحو اليسار على خلفيةٍ حمراء لمّاعة.

كان الناظر إليه يلاحظ فيه ارتجافاً عصبياً يعود إلىٰ نوع نادر من حمّى الملاريا أصيب به في صغره، ويزيد من هيبته ورهبته. وقد رأى المراقبون في ذلك الارتعاش إشارةً إلىٰ عملٍ دؤوبٍ لدى ذهن متقد ومفرط النشاط. كان أكثر ما يشبه الأسد، وقال عنه مؤرّخ بلاطه جيرالد أوف ويلز: «أجل، كان أكثر من أسد، ومع ارتعاشه المستمر، كان يبدو مصمّماً على جعل العالم بأسره يرتعد أمامه».

كان من السهل بمكان تصوّر ذلك المحارب المرعب يشطر رجلاً إلىٰ نصفين بضربة واحدة من حدّ سيفه لأنّه، كما يقول مراقبٌ آخر: «لم تكن هناك ذراع أفضل مهارة في استلال السيف من ذراعه، ولا أقوى للضرب به». بعد خمس عشرة سنة من حروب الإخوة في بريتاني، وآنجو، ومين، وبواتو والنورماندي، وأكيتان، وكانت آخرها حرباً قادها ضد والده البطّاش، أصبحت الحكايات عن جرأة ريتشارد وقوّته على كلّ لسان، وكذا القصص عن قساوته، وكرمه، وحسّه الشعري. وقد نسب إليه شعراؤه الغنائيون شجاعة هكتور، وشهامة أسخيلوس، وهيبة الإسكندر ورولان، وتحرّر تيتوس، وفصاحة نستور، وتعقّل أوليسيس.

قبل أيّ شيء كانت تبدو عليه سيماء الزعامة؛ فقد كان بطل أوروبا، كان أميراً حقيقياً، وأعظم محارب في القارة، كان الأمير الذي أحبط محاولات أبيه، هنري الثاني، لحرمانه من الميراث، وجهود إخوته لإضعاف سيطرته على أكيتان، والتي استمرت على مدى السنوات العشر الماضية في ظلّ مناوشات دائمة بين بارونات أكيتان ودوقاتها. كان الابن المفضّل لدى والدته الشهيرة التي أُسيئت معاملتها، إليانور سيدة أكيتان المميّزة.

في سنّ الثالثة والثلاثين، كان شعر ريتشارد لا يزال أصهب اللون، وبشرته متورّدة. وربّما كان هذا الأمر الوحيد لديه الذي يبدو نوعاً ما إنكليزياً. بالنسبة إلىٰ تلك الشخصية الأوروبية بامتياز، كانت الفرنسية لغة المطاردة الطبيعية، وكذلك لغة التعبير في الحب والحرب. وكانت إنكلترا أسهل جزء في مملكته استولى عليه واحتفظ به، حيث رأى في ثروتها الهائلة البقرة الحلوب لحملته الصليبية. فمن دون أي تردّد عرض للبيع المناصب العليا في الكنيسة، واللورديات، والإيرليات، ومناصب الشرفاء، والقصور، والبلدات، والمزارع، وطلب من كلّ مدينة في إنكلترا جوادين مسرجين للركوب وحصاناً للشغل من أجل حربه المقدّسة.

«أبيع لندن لو وجدتُ لها شارياً». هكذا كان الملك يقول وهو يجمع جيشه الصليبي.

لقد فرض على المواطنين الإنكليز، بمن فيهم رجال الإكليروس، ضريبةً مباشرة عُرفت باسم ضريبة صلاح الدِّين، وكانت عبارةً عن رسم يُجبى على مدى ثلاث سنوات ويبلغ العُشر من دخل الفرد. كانت كلّ أبرشية في البلاد تجمع هذا الرسم وتعاقب من لا يدفع بالحرم الكنسي. أمّا المنضمّون إلىٰ الحملة الصليبية فكانوا يُعفون من الضريبة. ولا شكّ أنّ هذه كانت وسيلة تجنيد ناجعة. وعُرِف عن أحد الخيالة أنّه باع زوجته وكلّ ممتلكاتها كي يدفعَ ضريبته. لكن بالرغم من القصد النبيل من هذه الضريبة، فهي لم تحظَ بأي شعبية، شأنها شأن كلّ الضرائب. وقد وصفها روجر أوف ندوڤر بأنها «انتهاك عنيف حجب رذيلة الطمع خلف ستار البر وعمل الخير وأزعج الكهنة والشعب على السواء».

ومع وجود عدد كبير من أعلام الفرسان الملوّنة في المقدّمة وجبال الألب المرتفعة بعيداً تحت سماء الصيف الدافئة، كان الحشد يقدّم منظراً بهياً. وكان المخيّم يبدو مثل مدينة مؤقّتة: «هناك ترون شباباً شجاعاً من أمم مختلفة مجهّزاً للحرب ويبدو مستعدّاً لأن يُخضع الأرض بأسرها، ذلك أنّه لا يوجد مكان يستعصي على الغزو أَو عدوّ يستعصي على القهر»، كما كتب كبير مؤرّخي الحملة الصليبية الثالثة الذي تابع قائلاً: «لن يخطئوا طالما هم يساعدون ويساندون بعضهم، مدفوعين ببسالتهم».

في ذلك البحر من الأعلام المثلثة والفولاذ، كانت الأبرز رايات ملكية تعود إلىٰ ملكين اثنين: الأولى هي راية حمراء لريتشارد الأوّل، ملك إنكلترا وأكيتان، إنّها علم القديس جورج، وهو يتكوّن من ثلاثة أسود ذهبية اللون مستطيلة على خلفية قرمزية. أمّا راية فيليب أغسطس، ملك فرنسا، فهي عبارة عن زوج من زهور الزنبق على خلفية لمّاعة من الأزرق اللازوردي. كان الخيالة في مواجهة الملكين في الصف الأوّل. وعلى جيادهم القتالية الفارهة، والتي

كانت أفضلها الخيول الفرنسية، المسماة تركمانية، كان عدد من النبلاء يرتدون فخورين الرمز الحقيقي لهذا الطقس المهيب، من أجل الصليب، وهو ثوب أبيض خيط به من الأمام ومن الخلف قماش على شكل صليب باللون الأحمر. هذا المعطف يغطّي حُلّةً كاملة من درع الزرد وهو عبارة عن حلقات متّصلة تشكّل ثوباً واحداً من الرأس حتى القدمين لصدّ السهام العربية أو على الأقل التخفيف من صدمة رأس حربة يطعن بها أحد «الكفّار». كانت خوذهم المخروطية أو التي تشبه القدور تتلألأ تحت الشمس، وكذلك رؤوس رماحهم، التي تحمل أعلام أسرهم النبيلة المثلثة. كما كانوا يمسكون بأذرعتهم تروساً على شكل الطائرات الورقية تصل إلىٰ الركاب وتحمي لهم أطرافهم. وعلى جوانبهم نرى مرافقيهم، الذين كانوا يهتمّون لهم بهندامهم، وأسلحتهم، وجيادهم، ويقفون متأهّبين للّحاق بأسيادهم إلىٰ المعركة.

وراء الخيالة كانت هناك صفوف أقل تسلّحاً فيها الجنود الراجلون والمهندسون. وبينهم عدد لا بأس به من رجال الدين «الذين هاجروا من الدير إلىٰ المعسكر، وبعد استبدالهم بالقلنسوة الدرع، وبالمكتبة التدرب على السلاح، ظهروا كجنود مسيح حقيقيين». أمّا الرماة في فيالق ريتشارد فكان لهم الدور الأبرز بحكم شغف الملك بقوسٍ تقذف النيران اسمها القوس القذوف. باعتماده هذا السلاح الجبّار، كان ريتشارد ينتهك إرادة روما، حيث كانت قد صدرت مراسيم بابوية ضد استعماله، كما لو أنّ وجود آلة فتّاكة كهذه في ساحة الفروسية هو أمر غير أخلاقي. لكن ريتشارد تصوّر مداها ونيرانها الخارقة وضمن أنّ أعداءه الشرقيين لا يملكون شيئاً يشبه ولو من بعيد تلك السهام والمقذوفات البالستية! من هنا المكانة المميّزة التي شغلها رماة النشاب في طليعة مشاته. ففي معاركه في أنحاء مملكته على مدى السنوات العشر السابقة، كان قد اعتمد عليهم أكبر الاعتماد لخططه الحربية. كما ظهرت القوس القذوف كذلك بحجم أكبر وباسم المنجنيق، وهي سلاح حوّل مفهوم القوس

الميكانيكي إلىٰ قطعة مدفعية صغيرة. وقصة الجنديين العدوّين اللذين اخترقهما سهم واحد أطلقته المنجنيق تثير ضحك ريتشارد، لأنّه صار بالإمكان التقاط ضحايا المعركة بضربة واحدة كما لو كانوا يُحملون مباشرة إلىٰ المطبخ للشواء.

كان المشهد في ڤيزيلي كافياً ليحرّك القلوب ويلهم الشعراء الغنائيين. فمعاني الحب، والنبل، والولاء، والشهامة تجلّت في صفوف الجند:

أنت الذي تمتلىء حبّاً صادقاً

انهض! لا تنم!

فالطائر يحمل لنا النور

ويبشّرنا في هذا المخبأ

بوصول يوم السلام،

وبأنّ الربّ الكريم

سيكافىء الذين حبّاً به

حملوا الصليب، وهم بما يفعلون

يتحمّلون عذاب الليل والنهار

فيُعرف بهذا من يحبّه صادق الحب

كان هذا الحشد الذي استنقذه الرب من الشيطان. «آخذهم صراحةً وبنُبل/ ومن أجله هو اجتمعوا هنا». في دير ڤيزيلي Vézelay كانت تُحفظ رفات مريم المجدلية، هذه القدّيسة التي جاءت إلىٰ جنوب فرنسا بعد وفاة المسيح للتبشير بالإنجيل، قبل وفاتها متنسّكةً هناك في منطقة الألب. وهكذا أضفَتْ هالة القديسة سكينةً ورعةً على ذلك الاستنفار المهيب ومنحته صفة القداسة. وتقليدياً، كانت ڤيزيلي نقطة انطلاق كلّ حملة صليبية.

عندما اجتمع الجيشان في ڤيزيلي اختلطت المملكتان الإنكليزية والفرنسية

اختلاطاً غريباً ومعقّداً، معقّداً أكثر منه مفهوماً. وفي هذه الحملة الثالثة الجديدة كان أولاد المملكتين مصمّمين على تفادي أخطاء الأهل في الحملة الثانية. كان يملأ ريتشارد وفيليب أغسطس شغفٌ أكبر من حماس رحلة الحج. وعلى المستوى عسكري، كان التحدّي الذي يواجههما أكثر رهبة، فكلّ الديار المقدّسة باستثناء مدينة صور ضاعت من الغرب، وليس مدينة الرّها المهمّة وحدها. الشام ومصر اتّحدتا ثمّ ضمّتا فلسطين إلىٰ الإمبراطورية الإسلامية. وفي صلاح الدِّين كانا يواجهان أخطر قائد شرقي منذ قورش العظيم.

كان الملك الفرنسي عازباً وفي ريعان شبابه، متّصفاً بحساسية شديدة. وكان ريتشارد يعرف أنّه عصبي المزاج، يغضب بسرعة ويصفح بسرعة. لم يكن فيليب أغسطس يهوى المخاطرة، ولا مأخوذاً بولع ريتشارد بالصيد والمبارزة والشعر. وبينما كان هذا الأخير يؤلّف قصائده، أخفق فيليب في تعلّم اللاتينيّة وكان يُعتبر عملياً شخصاً أمّيّاً. ومقابل جواد ريتشارد الإسباني الرائع، كان يفضّل الخيول الوديعة. وعبّر الشاعر برتران دو بورن أحسن تعبير عن اختلاف وجهات نظرهما، فكتب أنّ «السير ريتشارد يصطاد الأسود بالأرانب، فلا يبقى منها واحد في السهول أو الغابات. ومن الآن فصاعداً، في نيته أن يلتقط أكبر النسور بطائرات ورقية وأن يسخر من طيور الباز بكلب صيد. . . . الملك فيليب يصطاد عصافير الدوري وصغار الطيور بالصقور، ولا يجرؤ رجاله على مواجهته بحقيقة أنّهم، شيئاً فشيئاً، إلىٰ انحدار».

وبالرغم من أنّ فيليب كان الأصغر سنّاً، فقد مرّ عقد كامل على اعتلائه العرش. وفي حين أنّه يبدو شاحباً كمحارب ورياضي أمام ريتشارد، فإنّ سنوات حكمه العشر أكسبته خبرةً عسكريةً، لا سيّما مع الفلمنكيين المشاغبين. كما أظهر حكمه هذا أنّه دبلوماسي ماكر وحازم وإداري لامع. وإذا كان ريتشارد يبدو بأفضل أحواله على جواده، حاملاً سيفه الذهبي ومستعدّاً للضرب به، فإنّ أفضل أحوال فيليب الجلوس على عرشه الفخم، يمسك متأمّلاً بصولجان من

خشب البندق الأخضر ويقيّم علاقاته الخارجية. وكما كتب برتران دو بورن، كان «الملك الفرنسي يسرح بعيداً وأحياناً أخشى أن يقفز عليّ فجأة». غالباً ما بدا الملك الفرنسي واهناً وشارد الذهن. كان موسوساً بأعدائه. ومقارنةً مع فجور ريتشارد، كان محتشماً في كلامه وصعب الإرضاء في مجالات التسلية.

اغتنم ريتشارد كلّ فرصة ليصدم صديقه الحميم بأغاني أكيتان وطرائفها المجدّفة والعابثة، التي كان يلقيها بوقاحة بلكنته الجنوبية المتشدّقة، يزيد من تسليته افتقار فيليب إلىٰ حسّ الفكاهة وتكلّفه الابتسام. ذات يوم، حين سمع فيليب أحد الخيالة يقسم في لعبة للقمار، أمر بتغطيسه ثلاث مرات ثمّ أصدر بياناً يمنع القسم في أنحاء البلاد. أمّا ريتشارد فبالعكس غالباً ما كان يتجاوز يمينه «والقديس جورج!» ليحلف بأجزاء جسد يسوع الحميمة ويستمتع بشتم إكليريكييه، لعلمه بأنّهم عاجزون عن الردّ عليه.

تحت هذا المشهد الخلاّب لجيش المسيح العالمي المتنوع، المنتشر في حقول برغنديا مثل أزهار الربيع، كانت المكائد والصراعات تسبح خفيةً في الأجواء. فحتّى مؤرّخ ذلك الحج البطولي لاحظ ما يجري وقال: «كان ذلك الجيش الهائل يتّقد حماسةً وانتظاماً عسكرياً مشتركاً وإرادةً طيبة. كان بمقدوره أن يكون جيشاً لا يُهزم في العالم أجمع، ولكن كانت تمزّقه الخلافات ويرهقه الشقاق الداخلي. كانت روابط الزمالة منتهكة، والبيت المنقسم على نفسه يخرب».

في تعاطيهما الخاص أظهر الملكان نكد الحبيبين المفترقين. عندما كان فيليب وحده ملكاً، كانت سلطته توازي الجاذبية التي تميّز بها ريتشارد. والآن انقلب دوراهما، فإضافةً إلىٰ حضور ريتشارد القوي هناك جيشه الأكثر عدداً، وأسطوله الأقوى، وخزينته الأغنى، وشهرته الفائقة كمحارب. لقد حجب نجم فيليب كلّياً، واستاء فيليب من الوضع. ويبدو أنّ هذا الاستياء دفع ريتشارد للاعتزاز والتباهي أكثر أيضاً أمام الملك الفرنسي، ليظهر تفوّقه على حليفه في

كل مناسبة. وقد تأسّف أحد المؤرّخين قائلاً: «لو أنّ محبّتهما دامت أكثر، لحظيا بالتشريف لمدى الأزمان، ولعلا شأن المسيحية في كلّ مكان».

عوضاً عن ذلك، شوّش أحدهما على الآخر وعنّفه وأوقع به. وبالرغم من ذلك تمكّنا خلال يومَي إقامتهما في فيزيلي من التمويه على خلافاتهما الشخصية بما يكفي لعقد معاهدة مهمّة. فقد التزما بسلام دائم، وبالتخلّي عن كلّ صراع بين إنكلترا وفرنسا طالما هما في خدمة الله، ووعدا بأن يدعم أحدهما الآخر عند الحاجة وأن يعملا بإخلاص. كما اعتُبرت مملكتاهما مقدّستين طيلة وجودهما في رحلة الحج العسكرية المشتركة. وإذا قُتل أحدهما، فعلى الآخر أن يستلم شؤون عسكر الضحية وأن يضاعف جهوده من أجل المسيح، والذي يخالف هذا الالتزام المقدّس يعرّض نفسه للحرم الكنسي. ودُمغ هذا القرار بختم رئيسي أساقفتهما.

وبقي موضوع أليس Alais عالقاً. وقد بَسَط ريتشارد الأمر بالكلمات الملزِمة التالية: «أسألكَ أن تؤجّل الزواج إلىٰ حين عودتي. أقسم على أن أتزوّج أختكَ خلال أربعين يوماً بعد رجوعي». وبالنسبة إلىٰ فيليب كان هذا كافياً مبدئياً.

بعد تسجيل هذه الوعود والالتزامات على الورق، استلم كلّ من ريتشارد وفيليب صكّ رحلة الحج وصولجانها من رجال الدين. وفي 24 حزيران/ يونيو 1190م، يوم الاحتفال بذكرى ولادة القديس يوحنا المعمدان، ترك جيشاهما المعسكر وانطلقا. كانت الخطّة أن يفترقا بعد اجتياز نهر الرون عند مدينة ليون، كي يتّجه فيليب إلىٰ جنوى حيث حجز خدمات أسطول جنوى للعبور الشرقي، في حين يتّجه ريتشارد إلىٰ مرسيليا لملاقاة أسطوله الإنكليزي. ثمّ كان المقرّر أن يبحرا إلىٰ مسينا في صقلية ليلتقيا من أجل اجتماع أخير قبل أن يبحرا معاً إلىٰ الديار المقدّسة. وسار أبطال المسيح عبر سان ليونارد أوف كوربوني، في مولين Mulins، قرب سانت ماري دو بوا، وكانوا مجتمعين أكثر من مئة ألف

رجل. في جيش فيليب كان هناك عدد من كبار شخصيات فرنسا، بينهم فيليب كونت فلاندريا، وهنري كونت شمباني، وستيفن كونت سانسير. كما لحق جنود ريتشارد مبتهجين الراية القرمزية وأسودها الملكية الإنكليزية.

كانت حماستهم ظاهرة. وتباهى أهل روما قائلين: «لم يعد السؤال عمّن يجب أن يحمل الصليب بل عمّن لم يحمله بعد». ومع ضجيج الدروع الذي يصمّ الآذان، ورفرفة آلاف الأعلام، وتدافع الفولاذ، وصرير العجلات تحت الأحمال الثقيلة، علت الأصوات بالنشيد اللاتيني، ومعناه:

خلف خشبة الصليب، وراية القيادة

يسير جيش لا يتراجع

بل ينطلق بقوّة الروح القدس

كان سكان القرى يستديرون بحماس لتحيّة العساكر ويبكون من شدّة التأثّر. وقد غنّى الشعراء لتمجيده:

أيها الرب العظيم

هؤلاء الشبّان، أين ولدوا ونشأوا؟

تأمّل وجوههم المتورّدة والدافئة!

وفكّر في حزن أمّهاتهم،

وذويهم، وأبنائهم، وإخوتهم،

وأصدقائهم وكلّ من يَمُتُّ بصلة

إلىٰ الذين يشكّلون هذا الحشد الجبّار!

بينما كان شعراء التروبادور يتغنّون بالشجاعة، كانوا أيضاً يبكون على الشبّان اليافعين المنطلقين إلىٰ الحرب ويلعنون «سلالة المفترين» الذين ساقوا إليهم هذا القدر. «مع الفصل الجديد، شهر مايو/ دعاني البنفسج والعندليب

إِلىٰ الغناء/ وقدّم لي قلبي الرقيق هدية حبّ جميلة/ لم أجرؤ على رفضها» كانت تقول إحدى قصائد الشاعر الغنائي لو شاتلان دو كوسي، الذي كان هو نفسه جندياً في الحملة: «ليعطِني الربّ نعمة الارتفاع إِلىٰ هذا الشرف/ ويسمح لي بأن أضمّ التي سلبت قلبي وعقلي/ ولو مرّةً، بين ذراعي/ قبل أن أمضي إِلىٰ ما وراء البحار».

عند مدينة ليون أوقف نهر الرون تقدّم الجند، وكان مرتفعاً بفعل الأمطار الصيفية، فتباطأ الملكان لاستطلاع أحوال الجيش قبل أن يعبر العساكر ويخيّموا في الحقول خارج المدينة. وعندما داست أقدام الجنود مجتمعةً الجسر الخشبي، ارتخى وانهار تحت الثقل، فوقع في المجرى أكثر من مئة رجل؛ ما سبَّب تأخيراً لثلاثة أيام استلم ريتشارد فيها قيادة أسطول صغير من المراكب بين عالية النهر وسافلته. ثمّ افترق الجيشان كما كان مقرّراً وذهب كلّ قسم في طريقه، الأوّل إِلىٰ مرسيليا والثاني إِلىٰ جنوى. وعلى طريقه في البروفانس استمال ريتشارد جموعاً من المتطوّعين، فنقض المثل الشعبي القائل: «الفرنج إِلىٰ المعركة، والبورفانسيون إِلىٰ المائدة».

الفصل الرابع عشر

الأشرعة الحمراء

بعد عيد الفصح بفترة قصيرة، في سنة 1190م لميلاد السيد المسيح، اجتمعت عشر سفن حربية تعود إلىٰ ملك الإنكليز عند مرفأ دارتموث وبدأت رحلة الحج نحو الديار المقدَّسة. بعد اجتيازها رأساً اسمه غودستارت Godestart، أي «الانطلاقة الجيّدة»، رسمت خطّة لعبور بحيرة پواتو إلىٰ لشبونة، حيث كانت على موعد للقاء الجزء الأساسي من الأسطول. وكانت السفن الأخرى آتيةً من موانىء موجودة في إنكلترا، وبريتاني، والنورماندي، وپواتو، أي على امتداد مملكة عائلة بلانتاجينيه في الجزر البريطانية وفي القارة. وحالما يجتمع شمل الأسطول الملكي في البرتغال، كانت خطّته أن يعبر مضائق أفريقيا عبوراً مهيباً ويتابع إلىٰ مرسيليا ليلقى قائده المندفع، المعروف باسم **قلب الأسد**، وجيشه.

كانت كلّ من تلك السفن الشراعية، أو القوادس، تحمل ثلاث دفّات احتياطية، وثلاث عشرة مرساة وثلاثين مجذافاً، وشراعين، وثلاث مجموعات من الحبال، وقبطاناً وطاقماً مؤلّفاً من خمسة عشر فرداً. كما كانت مجهّزةً لتحمل مائة رجل مسلّح تسليحاً جيّداً. أمّا من ناحية التصميم فإنّ تلك السفن الحربية كانت مستطيلةً وضيّقة، ثابتة بما يكفي لتصمد في البحار العالية، ولكنها

مصنوعة للإبحار منخفضةً في المياه. كان لديها صفّان من المجاذيف ومهماز مستدقّ الرأس في المقدّمة، مطليّ برسم مميّز. وكان الهدف من مقدّم السفينة في المعركة أن يعيق سفينة عدوّه.

كان أميرال هذا الأسطول روبير دو سابل الجدير بالاحترام، وكشخص ملتزم بمهمّته المقدَّسة، رافقه رجلا دين هما رئيس أساقفة أوكسيان وأسقف بايون. كان دو سابل ثرياً ومن عائلة عريقة، رجلاً وحيداً توفّي كلّ من زوجته وابنه وتزوّجت بناته زيجات موفّقة ومستقرّة. فكان بذلك خالي البال قادراً على التفرّغ كلّيّاً لمهمّته. إنّه رجل قتال صاحب خبرة وإداري ماهر وعلى صلة قرابة بعيدة بالملك نفسه، ولهذا الأمر أيضاً دلالته. بعد فترة غير طويلة من قيادته أسطول الملك إلىٰ فلسطين، أصبح روبير دو سابل مقدَّماً لفرسان الهيكل.

اندفعت الحامية الأمامية للحملة الصليبية الكبرى في عباب بحر پواتو في رحلة هادئة وادعة. لكن عندما دخل الأسطول الصغير البحر الإسباني في يوم عيد الصعود المقدّس، هبّت عاصفة عاتية وبعثرت السفن على مساحاتٍ شاسعةٍ جدّاً؛ فَخَرَّ رجال الدين راكعين وأخذوا يصلّون من أجل الخلاص، فاستُجيب لصلواتهم وقيل إنّه ظهر عليهم شبح القديس الإنكليزي توماس بيكيت ثلاث مرّات بدل المرّة الواحدة وفي ثلاثة أماكن مختلفة.

تكلّم شبح الشهيد إلىٰ المحاربين المنهكين فقال: «لا تخافوا أنا توماس وقد كلّفني الربّ بحماية أسطول ملك إنكلترا. إذا حمى رجال هذا الأسطول أنفسهم من الرذيلة وتابوا عن خطاياهم الماضية، سيمنّ عليهم الربّ برحلة موفّقة ويقود خطاهم إلىٰ سبيله القويم».

عندها اختفى الشبح وهدأت الرياح وسكن البحر.

يُعتقد أنّ تسعاً من السفن العشر وصلت بعد جهد إلىٰ ميناء لشبونة، أمّا العاشرة فساقتها الريح جنوباً إلىٰ بلدة سيلڤا، وهي قرية كانت قد وقعت قبل سنةٍ واحدة فقط تحت السيطرة المسيحية، ممّا كان يعرّضها لهجمات متكرّرة

من أهل إسبانيا المسلمين، فأمسكت السلطات المحلية بالسفينة الصليبية وجعلت منها متراساً ضدّ «الوثنيين». إذاً أنقذت العناية الإلهية طواقم السفن الباقية بأعجوبة امتنّ لها البحارة جزيل الامتنان، كما رفع من معنوياتهم وصول فرقة من 63 سفينة أخرى إلىٰ لشبونة من عدّة مرافىء أوروبية. وبعد مضي فترة قصيرة ظهرت مجموعة حربية ثانية مؤلفة من 30 سفينة رفعت عديدَ الأسطول الملكي إلىٰ 106 سفن، بينها ستّ للشحن. ولم تكن هذه سوى القوادس ثلاثية الصواري الشهيرة المعروفة باسم جمال البحر، أو الباصات، التي تملك ثلاثة صفوف من المجاذيف وتحمل شحنة مزدوجة من البضائع والأسلحة وما يفوق الأربعين حصاناً.

وكالمتوقّع كان هؤلاء المرتزقة الآتون من أنحاء ڤيزيلي في هياج دائم وتوّاقين إلىٰ القتال. فهم مطمئنّون إلىٰ حماية الربّ لهم وقد أدّت بهم ثقتهم الزائدة إلىٰ الخروج عن طاعة قادتهم. فاشتعلت الشجارات بين الحجّاج المسيحيين وأهل البرتغال، واستغلّ النهّابون واللصوص الموجودون في الجيش الصليبي هذه المناوشات وساقوا اليهود والمسلمين إلىٰ خارج منازلهم وسلبوا ممتلكاتهم وأحرقوا بيوتهم واغتصبوا عدداً من نسائهم، في تصرّف لا يشبه في شيء السلوك المستقيم الورع الذي فكّر فيه شبح بيكيت عندما دعا العاصفة إلىٰ الهدوء. عندها أُغلقت أبواب لشبونة في وجه النهّابين ورُمي في السجون أكثر من سبعمائة من الأكثر عصياناً بينهم.

قبل أن يبدأ الأسطول رحلته البحرية، كان ملك الإنكليز الكبير قد وضع قواعد لمعاقبة سوء التصرّف في صفوف جنوده. في قصره على نهر اللوار والمعروف باسم شينون، وقبل انطلاقه إلىٰ نقطة استنفار جيشه في ڤيزيلي، كان قد سنّ قواعد تتعلّق بالسلوك العسكري. إذا قتل جندي رجلاً على متن السفينة يتم تقييده إلىٰ ضحيته ويرميان في البحر. وإذا حصل الاعتداء على اليابسة، يُقيّد المجرم إلىٰ ضحيته ويُحرق حيّاً. وإذا أراق جندي الدم بسكّينه، يخسر

يده، وإذا نخس زميلاً له من دون أن يراق دمه، يغطّس في مياه البحر ثلاث مرّات. أمّا إذا شتم جندي زميلاً له، فعليه أن يدفع أونصة من الفضّة عن كلّ عبارة بذيئة. وإذا دين صليبي بتهمة السرقة، يُحلق رأسه «على غرار المساجين» قبل أن يُسكب عليه الزفت المغلي.

لكن قوانين الملك لم تكن مناسبة لحوادث لشبونة على كلّ حال فأُلقي بوسائل العقاب من النافذة. لم يُسكب القار على رأس أحد ولم يُنثر الريش ولم يُغطّس أيّ مجرم في البحر، وذلك لأنّ روبير دو سابل كان يعرف أنّه في حاجة إلىٰ كلّ رجل في كامل عافيته لمحاربة العرب. وإن كان لرجاله أن يموتوا، فهو يفضّل أن يفارقوا الحياة في ساحة الحرب وباسم يسوع المسيح. لذلك تمّ التغاضي عن المخالفات، واستراح ملك البرتغال عندما شاهد آخر سفينة من الأسطول الصليبي تختفي خلف أفق الجنوب.

في مواجهة قمة «كالبي» في جزيرة جبل طارق إلىٰ اليسار وسلسلة جبال الأطلس الأفريقية إلىٰ اليمين، انسلّت السفن عبر مضائق أفريقية واجتازت ساحل إسبانيا الجنوبي. وبعدما أصبحت إسبانيا «الكافرة» وراءهم، عرف الحجّاج أنّه انطلاقاً من هذه النقطة وطوال عبورهم في البحر المتوسط، فإنّ الأراضي التي إلىٰ يسارهم مسيحية والتي إلىٰ يمينهم «كافرة». وعملياً، كان من الأسهل عليهم في مشروعهم أن يقسّموا العالم إلىٰ خير وشر، أبيض وأسود، أوروبيين وكلّ الآخرين.

بالنسبة إلىٰ هذا الوصول إلىٰ مرسيليا في 22 آب/ أغسطس، تتحدّث السجلاّت فقط عن نجاة الأسطول من «الركامات الرملية الخطرة وتهديد الصخور المخيفة، ومضيق أفريقية العاصف وكلّ مخاطر المحيط» من دون أي إشارة إلىٰ حوادث التخريب. كان رفع شأن مسعى الصليبيين قد بدأ منذ ذلك الوقت. وعند وصولهم، ألقوا بالمعابر إلىٰ البرّ لاستقبال ملكهم، سيّدهم الذي لم يهدأ منذ تتويجه فترك خلفه كلّ ملذّات حياة البلاط والتزم كما لو أنّ الربّ

قد اختاره، في رحلة جديرة بالثناء وعمل يمتاز «بخير كثير، عمل شاق، عمل ضروري».

لكن الملك لم يظهر للعيان. في الواقع، كان ريتشارد الموصوف بضيق الصدر الدائم قد وصل إلىٰ مرسيليا قبل ثلاثة أسابيع وإذ لم يجد أيّ أسطول تابع طريقه نزولاً نحو الساحل الإيطالي في سفينة مصادَرة، ثمّ إلىٰ مسينا في صقلية.

II

إلى صقلية

في مرسيليا في 31 تموز/يوليو، خاب ظنّ ريتشارد حين لم يجد الأسطول. كانت أمام سفنه ثلاثة أسابيع تمضيها في عرض البحر حيث لا تزال تعبر مضيق أفريقية (لكنّه لم يكن على علم بذلك). ولعدم وجود وسيلة للتيقّن من موعد وصولها، سرعان ما نفد صبر الملك الإنكليزي، لمعرفته أنّه في وضع طبيعي وفي ظروف ممتازة لا يبعد أكثر من خمسة عشر يوماً بحراً عن فلسطين. ويعرف أيضاً أنّ هناك جيشاً ألمانياً، يقارب بالقوّة وبالعدد الجيش البريطاني والفرنسي مجتمعين، عالقاً من دون قائد في مكان ما في شمال وغرب بلاد الشام. مع ذلك، تلبّثَ في المدينة الساحلية مدّة أسبوع، وأمضى وقته يتأمّل عظم فكّي القديس أليعازر، ويسمع أحاديث الرهبان السود في دير القديس فيكتور. وربّما لعدم تحمّله المزيد من التأخير، استخدم سفينتي شحن كبيرتين وعشرين قادساً، وحمّل أجناده على متنها واتّجه جنوباً.

كان يبحر متباطئاً، آملاً أن يلحق به أسطوله، وعرج على جنوى ليزور فيليب الذي كان يرقد مريضاً في سريره. في هذيانه، طلب فيليب من ريتشارد السماح له باستعمال خمس سفن لرحلته الماضية قدماً. وبما أنّ ريتشارد لا

يملك أن يقاوم رغبته في إغاظة فيليب، اقترح عليه استعمال ثلاث منها، وكان هذا استخفافاً أزعج فيليب، تماماً كما أراد ريتشارد، فرفض الملك الفرنسي العرض. وفي مكان متقدّم من الساحل، بعد المرور بمعقل تشيڤيتا ڤيكيا البابوي البحري، توقّف ريتشارد في أوستيا قرب مصبّ نهر التيبر. وهناك وجد فرصة ثانية لإزعاج حلفائه، عندما لاقاه موفدان بابويان بحرارة وسلّماه دعوة لقصد روما ومقابلة كليمانت الثالث.

بتعالٍ مسرحي أزاح ريتشارد الدعوتين جانباً. ومن مفارقات الأمور أن يزدري الملك الرجل نفسه الذي دعا إلىٰ الحرب الصليبية وكان هو أوّل المستجيبين لندائه. إذ لم يكن العاهل الإنكليزي مختلفاً عن أسلافه من حيث تشنّج علاقاته مع روما بالنسبة إلىٰ الكنيسة والدولة. وبالفعل، من خلال إشارة إلىٰ الخلاف الذي أدّى إلىٰ مقتل توماس بيكيت قبل تسع عشرة سنة، بدأ ريتشارد عهده بالشكوى إلىٰ البابا حول رهبان كنتربري المستقلين، وبعث إليه برسالة شديدة اللهجة تتضمّن تهديداً بالعنف، حيث كتب الملك الجديد آنذاك يقول: «إن لم تقف حكمة الكرسي الرسولي في الثغرة لكسر غطرسة هؤلاء الرهبان، سنحسم الأمر ونضع عليهم أيدينا الملكية الصارمة. . .». هذا الوعيد لم يقده إلىٰ مكان، وبقيت الخلافات الأخرى حول عدّة تعيينات من طرف الكنيسة، بما فيها تعيين أخيه غير الشقيق، جيوفري، رئيساً لأساقفة يورك، تثير الاستياء والاضطراب.

بدلاً من التحادث مع الكرادلة، اتّجه الملك إلىٰ الأرياف للاستمتاع بالمناظر الطبيعية. فاصطاد ومرح على ساحل أمالفي، وأمضى في نابولي أسبوعين فترت خلالهما همّته، وأسبوعاً إضافياً في ساليرنو، كان فيه توّاقاً لمعرفة أخبار أسطوله. وهل وصل سالماً إلىٰ مرسيليا؟ هل نُقل عساكره على متن السفينة المتوجّهة إلىٰ مسينا؟ هل حصلت حوادث مؤسفة؟

بعدما تعب من سجن نفسه في السفينة، اجتاز ريتشارد كالابريا راكباً

جواده، جاهلاً ما يجري في أماكن أخرى، متوّقفاً ليلاً للاستراحة في الأديرة الموجودة على طريقه، إلىٰ أن وصل إلىٰ بلدة ميليتو الأسقفية القديمة، وهناك كاد يخسر حياته. حصلت المشكلة عندما كان ريتشارد يجول على واده، يرافقه حارس أوحد، في قرية صغيرة معزولة. فسمع هناك صراخ صقر يعلو من كوخ مزارع قريب. وبما أنّ احتفاظ فلاح متواضع بصقر للصيد كان يُعتبر مخالفة لقوانين الفروسية، ترجّل الملك الضجِر عن مطيته، ودخل المنزل وأمسك بالطائر كما لو أنّه شريف المحلّة. وتجاه هذا الاعتداء الدخيل، اقترب منه حشد غاضب من المزارعين الذين أخذوا يرشقونه بالعصي والحجارة، حتّى أنّ أحد الأشخاص الجسورين سحب سكيناً في وجه أعظم محاربي أوروبا، فجلب المسكين لنفسه سلسلة ضربات من حدّ السيف الملكي، إلىٰ أن انقصف السيف نفسه وأُجبر ريتشارد، الذي بقي ممسكا بأرومة القبضة الذهبية، على الانسحاب انسحاباً لا يليق بملك وراح يرمي الحجارة ردّاً على الفلاحين الغاضبين، قبل أن يلجأ أخيراً إلىٰ دير لابانيارا المحلّي. وتتفادى أكثرية مؤرّخي الحملة الصليبية الثالثة ذكر هذه الرواية المهينة.

وماذا لو مات ريتشارد تلك الميتة الخسيسة؟ لا شكّ في أنّه راودته حينها ذكرى الحادثة المروعة التي تعرّض لها ملك صليبي آخر هو فريدريك بربروسا، إمبراطور ألمانيا. هذا القائد الجليل البالغ من العمر سبعين سنة، كان فارساً نبيلاً ومقداماً، وشبيهاً بريتشارد في كلّ شيء. وبالرغم من تحوّل شعره الأشقر ولحيته الحمراء إلىٰ اللون الرمادي، كانت لا تزال تشعّ في عينيه شجاعة المقاتل. كان عريض المنكبين فارع القامة ذا طلعة مهيبة بقيت نموذجاً للأجيال. ومثل ريتشارد، التزم فريدريك بالصليب حالما وردت إليه الأخبار المؤسفة من الديار المقدّسة، فبادر بمزيد من العجلة والفعالية والعزم وبانتباه أقل للنزاعات الملكية، إلىٰ استنفار جيشه الصليبي من أقاصي إمبراطوريته الكاثوليكية المقدّسة وانطلق على طريق الصليبيين البرّية التقليدية، عبر المجر

ورومانيا وصولاً إلىٰ بيزنطية. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة 1189م كان يقف قبالة القسطنطينية.

وكما يليق بفارس شريف، شعر بربروسا بأنّه ملزم بكتابة رسالة إلىٰ خصمه الكبير صلاح الدِّين يحذّر فيها القائد المسلم من الاجتياح المقبل: «بعدما انتهكتَ حرمة الديار المقدَّسة، التي يعود إلينا أمر حكمها، بإذن من الملك الأبدي، سنتصرّف بالصرامة اللازمة تجاه هذه الجرأة الوقحة والجانية... أعد الأرض التي استوليتَ عليها!» وتابع: «نعطيكم مهلة مدّتها اثنا عشر شهراً تكون بعدها الحرب مصيركم... ستشهدون بمشيئة الله قوّة النسور الظافرة وتواجهون غضب ألمانيا، وشباب الدانوب الذي لا يعرف الهرب، والباڤاريين الأشدّاء، وأهل سوابيا المحنّكين، والبرغنديين المندفعين، وسكّان جبال الألب الرشيقين... ستتعلّمون كيف أنّ يدنا اليمنى، التي تحسبونها ضعفت مع السنين، لا تزال تبرع في استخدام السيف كما في ذلك اليوم المجيد والسعيد الذي شهد نقطة تحوّل في انتصار قضية المسيح».

بخلاف الصليبيين الأوائل، نجا الجيش الألماني الجبار من مكائد البيزنطيين البارعة، وسهام الأتراك السلاجقة، ووعورة جبال الأناضول. فاجتاز هضبة آسيا الصغرى بنجاح، لا سيما بفضل انتظامه وقوّة قيادته، وحلّ مؤقّتاً في أرمينيا في ربيع سنة 1190م. كان صلاح الدِّين يستلم التقارير المتواصلة حول تقدّم هذا الجيش من إمبراطور القسطنطينية وقدّر حجم الخطر الداهم. تجاه هذه القوّة الهائلة، حسنة القيادة، والمنتظمة والمندفعة، أطلق السلطان نداءه إلىٰ الجهاد، أو الحرب المقدَّسة، في أنحاء الإمبراطورية الإسلامية، إلىٰ أمراء سنجار، وجزيرة ابن عمر، والموصل، لا بل وصل نداؤه إلىٰ خليفة بغداد. وصدرت الأوامر بحرق حقول القمح والمخازن أمام المجتاحين، وأُخليت القلاع على الحدود مع بيزنطية، وفُكّكت الحصون في صيدا، ويافا، وقيسارية.

لكن بالرغم من هذا الذعر وجد صلاح الدِّين الوقت للرد على رسالة بربروسا الاستفزازية متظاهراً بالشجاعة على نحو خاص به.

كتب إليه يقول: «إذا أحصيتَ المسيحيين، تجد أنّ المسلمين يفوقونهم عدداً بأضعاف كثيرة. وإن كان البحر يفصل بيننا وبين المسيحيين، فلا بحر يفصل بين العرب الذين لا يُحون. بيننا وبين الذين سيساعدوننا لا يوجد أيّ حاجز مانع. معنا البدو، والتركمان، والفلاحون أيضاً، الذين سيقاتلون بضراوة أمماً آتية لاجتياح البلاد ونهب ثرواتها والقضاء عليهم. سنواجهكم ومعنا بأس الله، وعندما يمنّ علينا الله بإذنه بالنصر عليكم، لن يبقى سوى أن نستولي بحرّية على أراضيكم، بقدرته وبرضاه تعالى».

في 10 حزيران/ يونيو 1190م، وتحت رحمة القيظ في السهل الأغبر، بدأ الصليبيون الألمان يخوضون نهراً صغيراً في كيليكيا اسمه كاليكادوس، ويقال له أيضاً نهر الحديد، من أجل تقدّمهم الأخير نحو بلاد الشام. كان الإمبراطور يختنق من شدّة الحر في بدلته الحديدية الواقية ويصدر الأوامر صارخاً في النهر الضحل بين فرقه من خيول التحميل عندما أُجفلت فجأةً تلك الدواب الكبيرة واهتاج جواده ورمى بالإمبراطور إِلىٰ الماء. ومع أنّ النهر لم يكن يصل إِلىٰ وركه، شدّة ثقل الدرع إِلىٰ أسفل، وعند وصول المياه الباردة التي تدفّقت عبر شقوق الصفائح المعدنية إِلىٰ بشرته الحامية، أصيب بنوبة قلبية وغرق. وقد ورد في مرثاة حزينة حول موته: «كوكب الراين انقضّ ماضياً نحو الموت والخراب. النجمة هوت، ومع سقوط النجمة دخلت البلاد في الظلام».

أمّا ما جرى بعد موت الإمبراطور فكان بالفعل رهيباً، فقد عمّت الفوضى صفوف جيشه وشرذمتها تقريباً على الفور. فاغتنم الأتراك الفرصة وهاجموها من كلّ صوب، فتفرّق الجنود الألمان من دون قائد في الأرياف. من المئة ألف رجل تقريباً الذين اجتازوا الممتلكات البيزنطية، وصل خمسة آلاف منهكي القوى إِلىٰ عكّا بعد أسابيع.

إذاً، من حسن الحظ أنّه في ذلك اليوم البائس من تموز/ يوليو، وجد ريتشارد في أحد الأديرة ملاذاً من أحجار الفلاحين. فحملته الصليبية كانت هشّة وفي خطر، ومعرّضة للهلاك إن خسرت قائدها. وكما لاحظ مؤرّخ صلاح الدِّين بشأن موت فريدريك بربروسا: «لو أنّ الله لم يشمل بلطفه وكرمه المسلمين بتقدير الموت على ملك الألمان في الوقت الذي كان يستعدّ فيه لقهر الشام، لكان الناس يقولون اليوم: كانت بلاد الشام ومصر في ما مضى من بلاد الإسلام».

أمّا ريتشارد فوصلته أخبار أفضل. فالأسطول الإنكليزي اقترب أخيراً من صقلية، ما أفرح قلب الملك الإنكليزي المشتاق للقاء رجاله. وفي مروره السريع خلال ثلاثين دقيقة في مضيق مسينا، لم يغب عن باله ما ترمز إليه تلك المياه، فأمامه كان يربض رأس فارو وصخرة سكيلا، الثنائي الذي كان يرعب البحارة القدامى، حيث كان يقال إنّ الصخرتين تمثّلان الطمع والتكبّر. وكان بإمكانه أن يماثل نفسه مع أوديسيوس، المندفع مذعوباً هارباً من الدوّامات التي قذفها كاريبديس أو من الوحش سداسي الرؤوس الذي حاول ابتلاعه هو ورجاله. إن كانت الوحوش لم تلتهم حملة ريتشارد، فقد كان هناك الشبح المعروف باسم مورغان لو فاي من أسطورة آرثر الحديثة. هذا الطيف يكمن أيضاً للمبحرين في ذلك المضيق. ومورغان هي الجنية الساحرة التي تعلّمت السحر من مرلين وبمقدورها إمّا أن تداوي المسافر المتألّم أو أن تنتقم وتدمّر بسبب حبّ لم يقابَل بمثله.

لا شكّ في أن ريتشارد تساءل عمّا سيكون قدره بينما هو يمرّ بصقلية؟ ولو كان ممّن يستسلمون للهواجس لتساءل أيضاً إن كان هدفه الكبير في استعادة الديار المقدّسة سراباً هو الآخر.

الفصل الخامس عشر

رسائل من الأرض الموعودة

خلال الأشهر التي مكث فيها ريتشارد في صقلية، راح يقيّم الأنباء التي كانت تصله حول وضع الأعداء وحول خصمه اللدود صلاح الدِّين.

في السنوات الأربع منذ سقوط القدس في يد المسلمين، قلّما وجد السلطان الوقت ليستريح. لم يعد لمملكة القدس اللاتينيّة من وجود. لقد اختفت مدنها وشبكة قلاعها الدفاعية، واقتصر قلبها على بضعة متاريس تافهة عند الساحل. وأصبحت كلّ المرافىء جنوب طرابلس، باستثناء صور، في قبضة المسلمين. ومن شبكة الحصون الصليبية الهائلة على الساحل وفي داخل البلاد، لم يبقَ في يد المسيحيين سوى حصن الأكراد وحصن المرقب. لكن هذا كان أفضل من لا شيء. كان لدى ريتشارد هدف محدّد، وهو رأس جسر ساحلي لا يزال موجوداً حتى بعد الهزائم المسيحية الكثيرة ومنه قد يطلق حملته للاستيلاء مجدّداً على الديار المقدَّسة: صور، هذه المدينة المعزولة والمحفوفة بالمخاطر، كانت نتيجة خطأ فادح ارتكبه صلاح الدِّين مباشرةً بعد استيلائه على القدس. وكان الأوّل بين خطأين خطيرين اثنين.

في طلائع شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1187م، تحرّك السلطان نحو

صور للمرّة الثانية. ولو تمكّن من احتلال هذا المعقل الأخير، لكان نجح في إلقاء المسيحيين في البحر بكلّ معنى الكلمة. إذ لم يكن الباقي أكثر من مجرّد عملية تطهير. منذ أوّل هجوم لصلاح الدّين في مطلع تلك السنة، استطاع المتمرّد البارع، كونراد دو مونتفرّا، أن يعزّز دفاعات صور ويدعمها دعماً معتبراً. وتابع اللاجئون المسيحيون توافدهم إلىٰ هذه المدينة المعزولة من القدس ومن أماكن محرَّرة أخرى. ويعود ازدهار صور بهذا الشكل إلىٰ سلوك صلاح الدِّين الليّن وغير الحكيم تجاه الأسرى والسكان.

كانت صور مدينة محصّنةً تحصيناً رائعاً، وتقع في محيط طبيعي مميّز وتشتهر بزجاجها وسكّرها، وصبغتها الأرجوانية الفريدة، وشعبها الودود والمضياف، وخصوبة السهول المحيطة بها، التي تكلّم عنها سليمان في نشيده واصفاً إيّاها بأنّها «ينبوع من الحدائق وبئر من المياه الحيّة». في القدم، كانت هي كبرى مدن الفينيقيين، والمكان الذي منع فيه المسيح من الاستمرار في تجواله بمحاذاة الشاطىء، ليس بعيداً عن مكان سيره على الماء، وحيث قال المخلّص لامرأة من كنعان سكن الشيطان ابنتها: «يا امرأة، عظيم هو إيمانك»، قبل أن يشفي الابنة. مثل يد تمتدّ داخل البحر، كانت المدينة بحكم الجزيرة، رباعية الزوايا من حيث الشكل، تحيط بها من جهات ثلاث مياه مضطربة تخبّىءُ صخوراً مترصّدةً، ومتّصلةً باليابسة بواسطة ممرّ يبلغ طوله مسافة رمية قوس. وكانت تسيّج هذه المدينة المعزولة أسوار بسماكة اثنين وعشرين قدماً، مجهّزة باثني عشر برجاً قوياً. ومواجهة مع مدخلها البرّي الشرقي بمحاذاة الممرّ الضيق الذي شيّده الناس وأُطلق عليه اسم بانيه، الإسكندر الأكبر، كانت هناك أبراجٌ ضخمة، وشاهقةٌ، ومتجاورة. أمّا الأرض التي كان يمكن أن ينطلق منها أيّ هجوم على المدينة فكانت ضيقةً جدّاً.

فقط بهجومٍ مشترك برّي وبحري كان يؤمل أن يُملك المكان، إلاّ إذا كان العدو مستعدّاً لتجويع المدينة وإخضاعها بحصار طويل وغير محدّد. ولم يكن

هذا أسلوب صلاح الدِّين. كان بإمكان كونراد دو مونتفرّا أن يراهن مطمئناً على أنّه في غياب نتائج سريعة، يفقد السلطان وجيشه كلّ صبر وطاقة على الانتظار.

عند الناحية البحرية الشمالية كان هناك مدخل واسع يُفضي إلىٰ ميناء داخلي وهو الفتحة الوحيدة في الأسوار. يحرس هذا المدخل برجان وتسدّه كجسر سلسلة ضخمة كي ينخفض أمام السفن الصديقة ويرتفع عند وجود عدوّ قبالة الساحل، مثلما يحدث الآن مع خمسة من قوادس صلاح الدِّين. وكان ذلك المرفأ المحمي مجهّزاً لاستقبال أكبر السفن الحربية في ذلك الزمان.

وصل صلاح الدِّين إلىٰ خارج أسوار المدينة في منتصف تشرين الأول/ نوفمبر من سنة 1187م وبدأ حصاره. بالنسبة إلىٰ قواته البرّية كانت المهمّة عسيرة، وذلك لأنّ ممرّ الإسكندر كان ضيقاً ومكشوفاً. فأسرع كونراد بإرسال عدّة قوادس من مينائه الداخلي ليضايق الجنود المسلمين ويضرب آلياتهم من كلّ جهة من الممر، وبالفعل أنهك العديد من المهاجمين. ولمواجهة سفن كونراد أرسل صلاح الدِّين في طلب عشر سفن من البحرية المصرية، كانت راسيةً آنذاك في عكّا، لتتحرّك إلىٰ صور وتضرب حصاراً. ممّا أدّى إلىٰ وقفٍ للعمليات استمرّ حتّى عيد الميلاد.

كانت خمس من سفن صلاح الدِّين مكلّفة بمهمّة الحصار الليلي. ولكن كان على رأسها بحّارة قليلو الخبرة يفتقرون إلىٰ التدريب الحسن، فأحسّ كونراد بأنّ في مقدوره أن يعلّم هؤلاء الأغرار درساً جيداً. وفي ليلة الثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر قام المركيز مونتفرّا بغارة جريئة عند الفجر. فعند شروق الشمس، كان البحارة المصريون قد هدهدهم النعاس معتقدين أنّهم أتمّوا واجبهم الليلي، فأخلدوا إلىٰ النوم مطمئنّين، إلىٰ أن أيقظتهم ضربات بحّارة كونراد المفاجئة. هكذا قفز الكثير من المسلمين إلىٰ البحر وجُرّت القوادس المصرية إلىٰ داخل الميناء. وعندما علم صلاح الدِّين بالكارثة، أمر سفنه الباقية بأن تبحر مسرعةً إلىٰ بيروت، كمن وجد نفسه فجأةً من دون سلاح. لكنّ سفن

كونراد تابعت مطاردتها، فسحب المسلمون مذعورين سفنهم إلىٰ الشاطىء وهربوا. وكما لو أنّ هذا الخزي لا يكفي، اضطر صلاح الدِّين إلىٰ تدمير مراكبه عند الشاطىء كي لا تقع في أيدي الأعداء.

بعد ضرب قدرته البحرية حالياً وقبل حلول فصل الشتاء، قرّر صلاح الدِّين أن يحدّ من خسائره. كانت سنة 583 للهجرة (1187م) حافلةً بالانتصارات، ولا يجوز تلطيخ السجل بجهود لا طائل من ورائها. كما أنّ قوّاته المتعبة كانت في حاجة إلىٰ استراحة قبل التقدّم الآتي. وهكذا بدأ انسحابه في الأيام الأولى من السنة الجديدة.

هل كانت هذه نقطة التحوّل؟ عندما شاهد المدافعون المسيحيون من أسوارهم كيف انسحب الأعداء وأحرقوا آليات حصارهم الضخمة الغائصة في الوحل، راحوا يهتفون من فرحهم، لأنّ بريق الأمل لاح فجأة. فطالما بقيت مدينتهم مسيحية، كان الدعم الأوروبي ممكناً. وخلال فصل الشتاء، كان أمام المدينة شهور لتقوّي نفسها وتوسّع محيطها صوب الداخل الخصب والقريب. وصار يمكن للفرنجة أن يؤمنوا بأنّ دفاعهم الجريء أحبط عزيمة القوات المسلمة إلىٰ الأبد.

نجت صور من الهلاك. وهكذا فإنّ مملكة القدس، مهما تكن صغيرة، لا تزال حيّة. وعندما وصلت هذه الأخبار إلىٰ أوروبا، أصبح كونراد دو مونتفرّا فجأةً بطل الساعة. وقد كرّمه أكبر الشعراء الغنائيين في ذلك العصر، برتران دو بورن، بقصيدةٍ جاء فيها:

«أعرف لمن يعود الفضل الأكبر، إلىٰ السير كونراد من دون شك، لأنّه دافع عن نفسه في صور ضد صلاح الدِّين وفريقه الهزيل. ليساعده الرب! لأنّ المساعدة تأتي رويداً. هو وحده سينال المكافأة لأنّه وحده عانى وتعذّب».

أمّا في صفوف صلاح الدِّين فقد وقع عليه اللوم بسبب الجراح التي سبّبها

لنفسه. وقد كتب معلّق عربي باستخفافٍ[1] قائلاً: «لم يكن لأحدٍ ذنب في أمر صور غير صلاح الدِّين، فهو الذي جهّز إليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكّا وعسقلان والقدس». خلال فصل الشتاء وبداية الربيع، راجع صلاح الدِّين دروس السنة المنصرمة في عكّا ودمشق ووضع مخطّطاً لإتمام العمل. وكان يقوم أساساً على مهاجمة الضعيف وتجنّب القوي.

لكن بدا أنّه في حاجة إلىٰ درس إضافي ليحسم أمر خطّته نهائياً. ففي 30 أيار/مايو سنة 1188م، حاصرت قواته كرك الفرسان، أكبر الحصون الصليبية ويعرف لدى المسلمين باسم حصن الأكراد. ينتصب هذا المبنى الهائل عالياً فوق أحد الوديان. وكان تصميمه ككتلة متراصة من ثلاثة أبراج نصف دائرية ضخمة، وحلقات من التحصينات مشتركة المركز، وأسوار شاهقة، تتويجاً للهندسة العسكرية الصليبية. وسرعان ما ثبطت هيئته المهيبة همّة السلطان، الذي قرّر أن يتجاوزه. لقد فهم الدرس الآن.

من تجربته في صور وحصن الأكراد ظهرت معالم الخطّة الجديدة لهذه الحملة الشمالية. منذ تلك اللحظة، انطلق صلاح الدِّين للاستيلاء على القواعد الصليبية السهلة وتخطّى قلاع حصن الأكراد، والمرقب، الرابضة، القاتمة، المشرفة على البحر جنوب اللاذقية، وقلعة صافيتا، المعروفة بالحصن الأبيض، وكلّها قلاع قادرة على أن تدافع عن نفسها دفاعاً قاسياً وطويلاً. فعرف أنّه في وسعه استبعادها عن محاولاته، وأعلن لقواته خطواتها التالية، حيث الغزو من جهة الداخل محفوف بالخطر.

«سندخل المناطق من الجهة الساحلية. المؤن قليلة هناك، وبما أنّ العدو سيلقانا على أرضه، سيحيط بنا من كلّ جانب. لذلك، عليكم أن تتزوّدوا بما يكفي من الطعام لمدّة شهر».

(1) عن الكامل لابن الأثير 11/ 555 - 556.

بالرغم من حسّ القيادة الذي قد يوحي به هذا الكلام، فإنّ فيه مبالغةً في تقدير الخطر المباشر، فالصليبيون لم يكونوا في موقع القدرة على حصار أي شيء، وكان تحدّيهم في تفادي أن يُهزموا ويسقطوا في البحر. لكن كان هناك أساس آخر لهذه الحملة الشمالية. ففي منتصف سنة 1188م، عرف صلاح الدِّين أنّ أخبار سقوط القدس وصلت إلىٰ أوروبا محدثةً بالغ الأثر وأنّه يتمّ التحضير لخطوات للرد العسكري. كما سمع عن تنظيم حملة صليبية ألمانية على رأسها قائد يثير الإعجاب، هو الإمبراطور الكاثوليكي فريدريك بربروسا. ومن مصادره في القسطنطينية، عرف صلاح الدِّين أنّ الجيش الألماني خطّط للتحرّك برّاً عبر تركيا، ليدخل بلاد الشام من شمال أنطاكية. لذلك كان السلطان في حاجة إلىٰ التقليل من الأراضي الصليبية شمال الشام إلىٰ أدنى حدّ ممكن، لكي يصعب عليها أن تزوّد الجيش الصليبي بالمؤن عند وصوله. بعد ترك حصن الأكراد معزولاً وغير خطر، توجّه صلاح الدِّين غرباً صوب البحر وتقدّم شمالاً في قوس دائرة كبيرة، فاستولى على طرطوس وأحرقها. والتفّ حول حصن المرقب، وفاوض على استسلام جبلة، ثمّ ملك اللاذقية وكلّ ثروتها التجارية الكبيرة.

وقبل أن يتابع شمالاً إلىٰ أنطاكية، تحوّل بقواته عشرين ميلاً إلىٰ الداخل نحو حصن مميّز في صهيون، ربّما هو أكثر حصون الصليبيين رومانسية. هذه القلعة المدهشة تربض عالياً على نتوء فوق ممرّات جبلية شاهقة، ويلتقي أسفلها نهران. وكانت قلعة صهيون تحمي معبراً مهمّاً من بادية الشام في الشرق باتجاه البحر. وتلتفّ أسوارها بمحاذاة طرف الجرف الصخري، فتنشىء فناءً واسعاً أكثر انخفاضاً يسمو إلىٰ حصن داخلي وبرج مهيب. أمّا المدخل الوحيد إلىٰ هذه القاعدة المهمّة فكان عبر جسر متحرّك فوق صدع شديد الانحدار بعمق خمسين قدماً يحميه برجان مربّعان كبيران. ومثل حصون صليبية كثيرة، كان حصن صهيون يعيش وادعاً، مطمئناً إلىٰ مناعته الأسطورية.

قاد صلاح الدِّين الهجوم بنفسه. وجمع قواته الأساسية على الأرض العالية عند الشقّ الصخري وضرب البرجين بلا رحمة، ولكن بلا نتيجة. كان موقع صهيون ممتازاً للدفاع، ولكن حاميتها تستنفد بسرعة، وهذا ينطبق على الكثير من المراكز الصليبية الأخرى. فقوّتها تكمن في واجهتها المهيبة عند الصدع، لكن ضعفها في محيطها الطويل الذي يتبع حرف أنف الجبل متسامياً فوق النهرين. عندما حوّل السلطان آلات حصاره إلىٰ السياج الموجود عند جهتي الحصن الأسفل، ظهر أنّ امتداد الأسوار الطويل يعيق عملية الدفاع. فدكّت منجنيقات صلاح الدِّين قسماً من السور الشمالي في الفناء الأسفل وحوّلته إلىٰ ركام. وراح الجند المسلمون يطلقون صرخات مرعبة ويتسلّقون الوهاد شديدة الانحدار، ويتدفّقون إلىٰ داخل المكان. بعد الاستيلاء على قلعة صهيون، تمّ تغيير اسمها إلىٰ قلعة صلاح الدِّين.

استمر التقدّم شمالاً، في خطّ يتجاوز نهر العاصي، حيث وضع صلاح الدِّين يده على حصون أكثر أسطورية رابضة على قمم التلال التي على طريقه. ثم توقّف جيشه قرب أسوار أنطاكية في أواخر شهر سبتمبر؛ فاحتل جنوب المدينة قلعة بغراس، وهي معقل مهمّ يتحكّم بمدخل ممرّ بيلان وكان مركزاً دفاعياً أساسياً على طريق أنطاكية ـ الإسكندرون ـ كيليكيا. حالما استولى صلاح الدِّين عليه، أعطى الأوامر بدكّه، كي لا يستعمله الصليبيون الألمان عند وصولهم في المستقبل.

مع عرض القوّة هذا، أظهرت أنطاكيةُ نفسُها رغبةً بالسلام. وكما كان صلاح الدِّين محسناً تجاه أهل القدس المهزومين، غلّب لينه من جديد على حكمته. فبعدما قدّر أنّ الحملة الصليبية الأوروبية لن تتحقّق قبل عدّة سنوات، منح سكّان أنطاكية مهلة سبعة أشهر لتسليم المدينة بسلام.

وضع صلاح الدِّين يده إذن على أقصى أهدافه الشمالية، ثم عاد والتفت جنوباً إلىٰ بحر الجليل، حيث كان هناك حصنان إسبتاريان أحبطا طويلاً كلّ

محاولاته لدخول بيت المقدس من دمشق، لكنّه الآن استولى عليهما بسهولة وهما قلعة الشقيف التي تتحكّم بالمرتفعات جنوب البحر، ثمّ صفد، التي كانت تتحكّم بالمرتفعات الشمالية فوق البحيرة المتلألئة. وفي الوقت عينه تقريباً، أزيحت حوصلة أخرى من عنق المملكة، فقد سقط الكرك، أي حصن الغراب الذي كان المشؤوم شاتيون قد شيّده قبل موته، لعنةً على طريق الحج، أمام قوات شقيق صلاح الدِّين، بعد حصار دام ثمانية شهور. والآن أصبحت كلّ الأراضي على جانبي نهر الأردن تحت سيطرة صلاح الدِّين.

بفضل هذه الحملة الشمالية الناجحة امتلأ الجيش المسلم بمشاعر الحماس مقتنعاً بصوابية مسلكه. وبينما كان الحبل يرفع على إحدى آلات الحصار أمام أسوار صفد، التفت أحد المستشارين إلىٰ صلاح الدِّين راضياً وذكر كلمات الحديث النبوي الشريف: «**عينان لا تمسّهما النار؛ عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**». عندئذٍ سُحب الزند وضرب جلمود ضخم آخر الأسوار. وتابع جيش المسلمين المعركة وفي صدورهم «آيات السيف» من القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [سورة التوبة: 5].

كان الجهاد من واجبات الجند الفعليين، لكنّه أيضاً مفهوم يطال كلّ مؤمن حقيقي. تماماً كما رفع جيش صلاح الدِّين الجهاد في وجه المحتلّ المسيحي، رفع الجندي المسلم لواء جهاده الشخصي؛ إنّه جهاد القلب، حيث يكافح ضدّ ارتكاب الذنوب والمحارم، وجهاد اللسان، حيث يقاوم الرغبة في بذيء الكلام، وجهاد اليد، الذي يمنعه من القيام بأفعال كريهة، وأخيراً جهاد السيف لقتل الكفّار وخصوصاً الغزاة من أهل التثليث.

لم يقلّل ريتشارد من شأن التزام خصمه المتقد في ساحة المعركة.

في صيف سنة 1188م، ارتكب صلاح الدِّين خطأه الفادح الثاني. فمنذ

سنة وهو يحتفظ بملك القدس السابق، غي دو لوزينيان، سجيناً في طرطوس. لكن بعدما تحوّلت مملكته إلىٰ مجرّد سراب، مع سقوط عسقلان في قبضة صلاح الدِّين، بدا الملك غير مؤذ. وكان صلاح الدِّين مستعدّاً لإطلاق سراحه شرط أن يتخلّى عن مملكته، وأن لا يعود لشهر السلاح على المسلمين، وأن يقسم على ولائه لمحرّره إلىٰ الأبد وأن يغادر الشرق الأوسط في أقرب وقت. فضلاً عن ذلك، وجّهتْ الملكة الشغوفة بالملك، سبيلا، نداءً شخصياً للسلطان، الذي يبدو أنّه يرقّ لتوسّلات النساء. في جميع الأحوال، ربّما رأى صلاح الدِّين فائدةً سياسيةً من تقديم منافس للمحنّك كونراد دو مونتفرّا بهدف زرع الشقاق في معسكر الأعداء. وهكذا في شهر تموز/ يوليو سنة 1189م، أُطلق سراح **غي**، في بادرة يعود قسم منها إلىٰ المشاعر، وقسم إلىٰ المبادىء، وقسم إلىٰ السياسة.

لكن الملك حنث بوعده على الفور. إذ قال لإكليريكييه إنّ قسمه كان تحت وطأة التهديد، فأعفوه منه مباشرة. عندئذٍ ذهب إلىٰ صور، وكانت له الجرأة في طلب مفاتيح المدينة من المركيز. كان جواب مونتفرّا غير مباشر بادىء الأمر، حيث قال بلطف: «أنا قائم مقام الملوك ما وراء البحار فقط، وهم لم يسمحوا لي بأن أسلّمك المدينة».

وسرعان ما سقطت الشكليات، وتحوّلت نبرة مونتفرّا من الرسمية إلىٰ الباردة إلىٰ المزدرية، وأغدق على الملك انتقاداتٍ لعدم كفايته الحربية. وقال إنّ **غي** خسر حقّه في أن يكون ملكاً بعد كارثة حطّين. وبصفته آخر أبطال المملكة، طالب كونراد بالعرش لنفسه. وهكذا اقتيد **غي** من دون تشريفات إلىٰ خارج المدينة، فآتى رهان صلاح الدِّين على زرع الخلاف بين الخصمين ثماره.

وبالرغم من ازدراء كلٍّ منهما للآخر، توصّل غي ومونتفرّا إلىٰ اتفاق بالنسبة إلىٰ ما تبقّى من الجيش الصليبي. فقد كان كونراد من جهة يريد تخفيف

التوتّر الذي يسود في مدينته المكتظّة، ثم لأنّه من جهة ثانية لم يكن متحمّساً للقتال بعيداً عن المدينة التي أنقذها، سمح لِغي بأن يجنّد من نجا من العساكر في قوّةٍ محاربةٍ خارجَ جدران مدينته.

خلال سنة تكونت لدى الملك نواةٌ لقوّته الجديدة: سبعمائة فارس، أكثرهم من الداوية أو فرسان الهيكل، بمن فيهم سيّدهم نفسه، جيرار دو ريدفور. كما انضمّ نحو تسعة آلاف رجل إلىٰ هذه النخبة. إضافةً إلىٰ ذلك، فإنّ عناصر القوة الصليبية، الذين بدأوا يصلون دفعةً وراء الأخرى من الدانمارك وهولندا، رفعت من هذا العدد. ومن جديد، علت الصرخة من أجل الحرب المقدَّسة، وكذلك صرخات النبي أشعيا للرياح: «سوف أجمع لكم البذور من الشمال، ومن الغرب، ثم أضعها معاً. سأقول للشمال أَعطِ، وللجنوب: لا تمنع».

في شهر آب/أغسطس من سنة 1189م وقف هذا الجيش المسيحي الجديد أمام أسوار عكّا، على مسافة ثمانية فراسخ جنوب صور. وقرّر صلاح الدِّين اللحاق به بالقوة التي كانت في حوزته، لكنه هذه المرة أيضاً وصل متأخّراً. فالمدينة كانت قد أصبحت معزولة، وقواته أقلّ عدداً من أن تقهر العدو المنتعش والمصمّم. فمع انتشار جيشه من حلب في الشمال إلىٰ الكرك في مؤاب، لم يكن صلاح الدِّين قادراً على وضع حدّ للخطر الجديد. أمّا الجنود المسيحيون فقد صمدوا بعناد، فهم من جهة حاصروا المدينة، ومن جهة ثانية كانوا يمتنعون خلف خندق كبير حماهم من هجوم الخيالة المسلمين. وبذلك كانوا المهاجِمين والمهاجَمين في وقت واحد عاجزين عن التقدّم وعن التراجع.

مضى أكثر من شهر، حتى تشرين الأول/أكتوبر 1189م، في هجمات وهجمات مضادة، وبقي القتال حامياً ولكن غير حاسم. وفي 4 تشرين الأول/ أكتوبر، على كلّ حال، حصل اصطدام عنيف ودامٍ قُتل فيه مئات الرجال من

الطرفين، وأظهر خلاله الملك غي، غير الكفء عادة، حنكةً تستحقّ الثناء، كما تعاون وخصمه اللدود، كونراد دو مونتفرّا، تعاوناً وثيقاً وفعّالاً. والنتيجة كانت انتصاراً للمسلمين، لكنه غير نهائي؛ قام خلاله الطرفان بهجمات وهجمات مضادّة. وفي إحدى مراحل الصراع تمّ اكتساح معسكر صلاح الدِّين لكنه استجمع خيالة بلاد ما بين النهرين وقلب الموقف لصالحه.

في هذه المعركة تمّ إعدام آخر الشخصيات المسيحية الكبرى، جيرار دو ريدفور، مقدم فرسان الهيكل، بعد القبض عليه في هجوم جريء ولكن متهوّر. فجرى تطويبه قدّيساً على الفور. قيل إنّ أصدقاءه توسّلوا إليه كي يلين وينسحب، فأجاب بشجاعة: «أتحدّى أيّاً كان أن يسمّي مكاناً كنتُ فيه حين كان العدو يعتدي على الهيكل فهربتُ خائفاً». وهكذا أصبح مثير الفتنة شهيداً وقديساً. وكتب أحد المعلّقين كلمةً لإحياء ذكراه جاء فيها: «سعيد هو من أغدق عليه الله هذا المجد العظيم، فليكن له إكليل الغار الذي فاز به في حروب كثيرة وليُقبل كبيراً بين الشهداء».

بيد أن يوم عكا لم يكن يوماً سعيداً لأيّ من الجهتين. ففي محاولةٍ لإخافة المسيحيين وتثبيط همّتهم، رمى المسلمون بالعديد من ضحاياهم في النهر قرب البلدة، كي تستقرّ الجثث المنتفخة والعفنة في أسفل النهر عند خطوط المسيحيين. لكن هذا العمل الشنيع أعطى عكس النتيجة المرجوة وانتشر المرض في كلّ من جهتي الخنادق. وصلاح الدِّين نفسه أصابه الوهن بسبب المغص الذي كان يشكو منه غالباً، والأسوأ أنّه أصيب بالاكتئاب: «اقتلوني ومالكاً/ واقتلوا مالكاً معي»[1]، كان يردّد حزيناً هذا البيت، الذي كان يعني به على ما يبدو أنّه مستعدٌ للموت، بشرط أن يموت معه أعداؤه. ونظر الأطباء نظرةً قلقة إلىٰ مرضه، وكذلك أمراؤه. ونصحوا كلّهم السلطان

(1) قاله عبدالله بن الزبير في موقعة الجمل بالبصرة سنة 36هـ عندما كان يصارع مالكاً الأشتر (المترجم).

بالانسحاب لصالحه ولصالح جيشه المنهك ولكن أيضاً ليسمح للجيش المسيحي بالتراجع، إن أراد.

لكن الجيش الصليبي لم ينسحب. وعوضاً عن ذلك حفر خنادق أعمق واستعدّ لأطول حصار في الحملة الصليبية الثالثة. وعندما استعاد صلاح الدِّين عافيته في كانون الثاني/ يناير سنة 1190م، جدّد نداءه حتّى أطراف العالم الإسلامي، من بغداد إلىٰ المغرب، لاستجلاب قواتٍ جديدة وكسر هذا الحصار الجهنمي. فكتب يقول «الإسلام يطلب مساعدتكم كما يصرخ الغريق طالباً النجدة»[1]. كان الأوروبيون مثل حبوب الذرة، لا يمكن أن تلتهمهم غير جنودٍ كالجراد. فضلاً على ذلك، كانت تصله التقارير عن اقتراب الإمبراطور الألماني، فريدريك بربروسا، من القسطنطينية على رأس قوّة تقدّر بمائتين وستّين ألف رجل، فوضع هذا النبأ السلطان في حالة من القلق الشديد. إذ لم يكن يعرف أنّ تلك القوة ستذوب بسرعة مع موت الإمبراطور في شهر تموز/ يوليو من تلك السنة.

أصبح لصلاح الدِّين الآن معارضون يحطّون من قدره ويؤولون القرآن ضدّه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [سورة الرعد: 11]. مرّةً جديدة عادت أشكال الحسد والغيرة الضيقة إلىٰ الانتشار في العالم الإسلامي، ووصل الشِقاق حتّى معسكر صلاح الدِّين نفسه. وقد كتب مؤرّخ مسلم أنّ «الأشرار كثروا وملأوا المكان. إنّهم يشتمّون رائحة الفتنة، جدع الله الأنوف التي يشمّون بها». وهذا ما ثنى صلاح الدِّين عن الاستفادة من تقدّمه ضدّ القوّة المسيحية الشجاعة ولكن الصغيرة خلال السنة التي شهدت استنفار جيوش الحملة الصليبية الكبرى في أوروبا.

هكذا كان الوضع مأزقياً سنة 1191؛ عندما وصل ملك إنكلترا ريتشارد

---

(1) قارن بالفتح القسّي للأصفهاني، ص 197 - 198.

قلب الأسد وملك فرنسا فيليب أوغسطس إلىٰ صقلية من أجل الرحلة إلىٰ الديار المقدَّسة؛ وهذا ما علما به هناك: بقيت صور في أيدٍ مسيحيةٍ كموطىء قدم. لكن لا يمكن الاعتماد على مساعدة صاحبها المتعجرف، المركيز دو مونتفرّا. فريدريك بربروسا مات، وتفكّك جيشه في تركيا. مرّت سنة ونصف وعكّا تحت الحصار، لكن قائد الحصار هو غي الملك الضعيف، الذي تقوّضت شرعيته بسبب خطل رأيه، وقلة كفايته.

الفصل السادس عشر

زيارات في صقلية

في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر كانت صقلية ملتقى طرق الحضارات المتوسّطية. هنا كان عرب الشرق، ولومبارديو شمال إيطاليا، ويونانيّو كالابريا وبيزنطية، ونورمانديو شمال أوروبا يعيشون معاً في انسجام نسبي داخل بلد محسوب على النورمانديين. وبهذا المزيج من الديانات، واللغات، والعادات، كانت الجزيرة نموذجاً للتنوّع الموجود في منطقة البحر المتوسّط الشاسعة. كان علماؤها المنفتحون على كلّ الثقافات يترجمون علوم الشرق، ورياضياته، وفلسفته من العربية إلىٰ اللاتينيّة وينقلون المعرفة إلىٰ الشمال. كذلك، كانت أساطير الملك آرثر وحكايات الفروسية تُترجم إلىٰ اللغة العربية وتُنقل إلىٰ الشرق. ولم يتقبّل الصقليّون المعتدون بأنفسهم أن يُعاملوا كأهل مستوطنة أقلّ شأناً أو مجرّد محطّة لتجمّع القوات لخدمة مطامح الأمم الأخرى.

بالنسبة إلىٰ سكّان صقلية الأصليين، كان وصول الأسطول الإنكليزي إلىٰ مسينا من أكثر المشاهد التي يمكن تصوّرها مهابة. فمن أبعد ما يمكن للعين أن ترى عند الأفق، كان البحر يعجّ بالسفن الحربية، الممتلئة بجنود شاكي السلاح متحفّزين، تصطفق الرايات على رؤوس حرابهم، وتلمع تروسهم ودروعهم

تحت الشمس، وتعلو حناجرهم بصيحات النصر. كان رنين المعدن، وحفيف الحبال، وضربات العوارض الخشبية، وأصوات الأبواق تملأ الأجواء؛ بكثيرٍ من الفرح، وبكثيرٍ من الأمل. عند مقدّمة سفينة القائد روبير دو سابل كان ريتشارد نفسه يقف بكلّ هيبته، متألّقاً بثوبه الملكي ومتأبطاً لباس الحاج. كان ذلك عرضاً يستحقّ التسجيل. وقبل أيّ شيء، كان ريتشارد سيّد العروض. فقد كان يتبع القول المأثور: «بحسب ما تبدو عليه، يكون انطباعي عنك».

قبل ذلك بيومين فقط، كان فيليب أغسطس قد وصل بهدوء ومن دون مراسيم، مثل تاجر عادي يتسلّل لأداء مهمّة غير ذات قيمة. كان أسطوله عبارة عن سفينة واحدة، وقد دار حول الحشد الذي كان في انتظاره على الشاطىء بأمل استقبال شخصية بهذا النبل والأهمّية على أرضه. لكن المشاة من مرافقيه تحرّكوا بسرعة وأوصلوه إلىٰ قصره، بينما عاد المرحّبون ناقمين إلىٰ بيوتهم، متذمّرين يتمتمون أنّ ملكاً كهذا لا يمكن أن يكون مخلّص المسيحية. وأثار فيليب المزيد من سخط السكّان المحليّن عندما ارتكب عساكره بعد نزولهم إلىٰ الشاطىء تجاوزات متعمّدة، كما يفعل أيّ جنود في أوقات الفراغ، أحياناً. وقد غضّ فيليب الطرف عن أعمالهم.

أمّا ريتشارد، فبعدما نزل إلىٰ البر، لم يكن في نيّته أن يرتكب الخطأ ذاته. وكان من أول أعماله أن رفع مشنقة وعلّق عدداً من اللصوص والمجرمين. وقد ميّزه عرض القوّة هذا عن فيليب وجاء في صالحه وأثار كبير إعجاب السكّان المحليّين. ولذلك سُمع أحدهم يقول عنه: «إنّ الشهرة التي سبقته باهتة جدّاً إذا قورنت بحقيقة رؤيته». ولم يطل الأمر بأهل صقلية حتّى صاروا يعرفون فيليب باسم **الحمل** وريتشارد باسم **الأسد**.

في البداية تصافح الملكان ورفاقهما ودّياً، فهناك الكثير من الأعمال التي عليهما القيام بها معاً، وبعض المشاكل التي يجب القضاء عليها. لكن لقاءهما الأوّل لم يكن فاتحة خير للمستقبل. وفي اليوم التالي، وكما لو أنّه أمضى ليلة

زفاف مرهقة، اتّجه فيليب إلىٰ سفينته مستاءً وانطلق نحو الديار المقدَّسة. فكان خروجه متألّقاً أكثر من رجوعه. طيلة يومه الأوّل في البحر صادفه طقس قاس، فأصيب بدوار البحر وسرعان ما عاد إلىٰ مسينا، وفي باله أسلوب أفضل للتعاطي مع ريتشارد.

المشكلة الأكبر تمثّلت في ملك صقلية. كان تانكريد، الذي استولى على العرش قبل ذلك بسنتين، بعد وفاة الملك الشرعي وليام الصالح (الملك المسيحي الصالح الذي كان أوّل من سمع بكارثة الديار المقدَّسة وأنذر بقية البلدان). وكانت أرملة وليام جوانا بلانتاجينيه، ابنة إليانور وشقيقة ريتشارد الصغرى. عندما وضع تانكريد يده على العرش خطر له لسوء الحظ أن يسجن جوانا وهذا السجن طبعاً لم يرق لريتشارد. إضافةً إلىٰ ذلك، كانت هناك أموال في خطر. فمهر جوانا، الذي قدّمه وليام للعرش الإنكليزي كشرط للزواج، كان عبارة عن كرسيّ مذهّب هو عرشها بوصفها الملكة زوجة وليام، وطاولة من الذهب يبلغ طولها اثني عشر قدماً، وخيمة كبيرة من الحرير، ودزينتين من الكؤوس ودزينتين من الأطباق كلّها من الذهب، وأخيراً وليس آخراً استعمال مائة قادس مسلّح لمدّة سنتين. وعندما أبدى ريتشارد انزعاجه من سوء معاملة أخته، أطلق تانكريد سراح جوانا وفي حوزتها أثاثها اليومي لا أكثر.

أثارت الإهانات المتزايدة من قِبل الملك المغتصب للعرش قلق السكّان الأصليين، كما أثارتهم تدخلات ريتشارد. وبشكل عام، كان الصقليّون يرتابون بالأوروبيين الشماليين وينزعجون منهم، ولم يشذّ اجتياح ريتشارد لأراضيهم عن القاعدة. فقد تحرّك بسرعة وقبض على الحصون الاستراتيجيّة في مسّينا. وخلال مروره في المضيق، استولى على دير لابانيارا، وحصّنه، وأسكن فيه أخته جوانا ليبعدها عن الخطر. ثمّ احتلّ ديراً على جزيرة في نهر فار Far، وطرد رهبانه، وأقام فيه حاميةً وحوّله إلىٰ ترسانةٍ له. فتوجّس الصقلّيون من هذه التحرّكات، ورأوا فيها نُذُرَ عمليةٍ واسعة النطاق على جزيرتهم.

بدأ الوضع يسوء مع بدء التنابُذ والتشاتم، عندما هزيء رجال تانكريد من «الإنكليز أصحاب الأذيال الطويلة» وكأنّه نبت لهم ذيل الشيطان، ووصف الإنكليز السكّان المحلّيين ب-«الأشخاص قصيري القامة ذوي النسب العربي». حتّى ريتشارد نفسه، مع الخليط العجيب الذي لديه بين الذكورة والمثلية الجنسية، أطلق على الصقليين تسمية «مخنّثين». ولم يكن الظرف في حاجة إلىٰ أكثر من شرارة. وقد اشتعلت نتيجة شجار بين جندي إنكليزي وامرأة بائعة بشأن وزن رغيف من الخبز وسعره. إذ بسبب صراخه حول المبلغ التافه، تعرّض الجندي لهجوم المارّة، الذين داسوه بأقدامهم وتركوه يموت. بعد ذلك بقليل، سرت حوادث الشغب في الشوارع، وقُتل عدد لا بأس به من الجنود الإنكليز ورموا في المراحيض. وحاول ريتشارد نفسه تلطيف الأجواء، فخرج إلىٰ الشوارع داعياً إلىٰ التهدئة، لكن الصقلّيين لم يتوانوا عن توبيخه ساخرين، وأُغلقت أبواب مسينا على الفور.

سرعان ما تحوّل هذا العمل العدواني إلىٰ قتال شامل. أمّا ريتشارد، فكان شخصياً يرى في تلك المناوشات إعداداً للصراع في الديار المقدّسة، واختباراً جيّداً له وطريقةً لاختبار قدرة عساكره على الاحتمال. هل هم مستعدّون للقاء صلاح الدِّين؟ كان الشاعر الغنائي برتران دو بورن قد كتب يقول: «الربّ صقلهم ووضعهم على حجر الشحذ كالسكاكين، كسكاكين سميكة عند الرأس وضعيفة عند الحدّ القاطع. وبفضل الصقل أصبحوا أهلاً لثقة أكبر من ذي قبل، وبهذا يصلون كلّهم إلىٰ الحياة الخالدة». تقدّم الملك جيشه بغضب ساطع، وبدا بحسب كلام شاهد عيان مثل «وحش نبيل».

«يا جنودي! يا قوّة مملكتي، يا من عشتم معي آلاف المخاطر، وأخضعتم طغاةً كثيرين ومدناً كثيرة، هل ترون كيف يهيننا رعاع جبناء؟ هل سنغلب الأتراك والعرب؟ هل ستفزع منّا أمم لا تُقهر؟ كيف سنعيد مملكة إسرائيل إذا أدرنا ظهورنا لهؤلاء الصقلّيين الخِساس والمخنّثين؟ كنت أتمنّى أن

توفّروا جهودكم، ربّما لكفاح أفضل ضد صلاح الدِّين فيما بعد.

«أنا سيّدكم وملككم، أحبّكم وأجلّ نبلكم وفضائلكم. لكنّي أحذّركم أيضاً وأيضاً، إن لم تنتقموا لهذه الإساءة، سيسبقكم جبنكم ويرافقكم. وسيحسبكم كلّ عدوّ رعاديد هاربين، ويضاعف قوّته ضدّكم. سيثور عليكم العجائز والأطفال. ولن آمر أيّاً منكم بالبقاء معي، خشية أن يزعزع جبن فرد ثقة رفيقه في المعركة. أمّا أنا فإمّا أن أموت هنا أو أنتقمَ لهذا الباطل. وإن انطلقتُ حيّاً، فلن أكون إلاّ منتصراً في عين صلاح الدِّين.

«فهل ستتخلّون عنّي، أنا ملككم، وتدعونني وحدي في مواجهة هذا النزاع؟».

عندئذٍ علت صيحات جنوده بالتأييد، وبدمدمة خافتة أبدى الملك سروره وقال: «أنتم تشدّون عزمي بتصميمكم على التخلّص من الذل». ثمّ طلب ألفي جندي من الأشدّاء، «رجالاً قلوبهم ليست في جزمهم»، وألفي رامي سهام. وأخرج مهندسوه المنجنيق الضاربة، ونُشر علم المعركة وعليه رسم التنين المثير للضحك. ثمّ تقلّد ريتشارد الملك الجليل درعه. عندما شاهد رجال البلدة اقتراب هذه القوّة من النخبة، وعلى رأسها الملك ريتشارد، فرّوا كالخراف أمام الذئب، بحسب ما نقل كشّافه. ليس بهذه السرعة، فالأمر لم يكن بهذه السهولة، لأنّه مرّت عشر ساعات قبل أن ترفرف رايات بلانتاجنيت على أسوار مسينا. على كلٍّ خُلّدَتْ سرعة تلك العملية في هذين البيتين من الشعر:

ملكنا ورجاله استولوا على مسينا

بأسرع من راهب حين يتلو صلاة الصبح

ربّما يشير البيتان أيضاً إلىٰ السرعة التي وضع بها تانكريد أمام ريتشارد أربعين ألف أونصة من الذهب كتعويض عن الاضطرابات التي حدثت.

ومع أنّ الفرنسيين لم يشاركوا في عملية ضبط الأمن تلك، فإن زهرة

الزنبق رفرفت إِلىٰ جانب الأسود الإِنكليزية على جدران مسّينا، وكأن فيليب يطالب بحصته من الغنيمة. فقد أشار إِلىٰ اتفاق ڤيزيلي حول تقاسم كلّ ما تجنيه الحملة الصليبية تقاسماً عادلاً. وما كان ريتشارد ليسمح بأن يمرّ ذلك من دون التعليق بكلمات اعتنى باختيارها، فقال ساخراً: «من الأجدر بأن تعلو راياته؟ من يتنحّى جانباً ويتلكّأ، عاجزاً عن المشاركة في المعركة، أم من يتقدّم ويهجم؟» كانت هذه واحدةً من المشاحنات الكثيرة، وقد لان ريتشارد، بسبب مسائل أكثر جدّية تتعيّن مناقشتها.

من هذه المسائل مثلاً ملكيّة ضحايا الحرب، والمقامرة، وحتّى سعر الخبز. في ڤيزيلي، تناول الملكان شؤون الملوك والدول، وفي شينون Chinon، وضع ريتشارد قانون سوء السلوك العسكري. لكن ماذا عن ملكية ضحايا الحرب، أَو إقدام جنوده على عمل محظور، أَو استغلال ظروف الحرب؟ بعد أيام من استسلام مسّينا، انكبّ الملكان على هذه التفاصيل. وكان للحادثة بين الجندي وبائعة الخبز انعكاس واسع النطاق بالنسبة إِلىٰ السياسة. كانت التجارة في حاجة إِلىٰ تنظيم وتقنين، لا سيّما بيع الخبز والنبيذ للجنود. لهذا وضع مبدأ أنّه لا يمكن للتجّار أن يستفيدوا بأكثر من عشرة بالمئة من الربح على بضاعتهم، أَو من ربع بنس بالمقياس الواحد. كما منع الجميع من شراء اللحم الميت لإعادة بيعه، وكذلك مبيع لحم أيّ حيوان حي قبل ذبحه داخل المعسكر.

أمّا قوانين المقامرة فكانت مثيرةً أكثر للاهتمام. إذ لم يكن يُسمح لأيّ جندي أَو بحّار بالمشاركة في أيّ لعبة زهر من أجل المال (لعبة النرد مثلاً والتي كانت منتشرة في القرون الوسطى). وكان عقاب هذه التجاوزات قاسياً، حيث كان الجندي يُجلَد عارياً أمام العساكر لمدّة ثلاثة أيام، ويُغطّس البحّار في مياه البحر كل صباح على مدى ثلاثة أيام أيضاً. وبالطبع، لم يطل هذا المنع الصارم الفرسان ورجال الإكليروس، ولكن لم يكن يُسمح لهم بأن يخسروا في لعبة

النرد أكثر من عشرين شلناً في يوم واحد. وإذا ضُبط كاهن أو نبيل يخسر أكثر من هذا المبلغ فعليه أن يدفع أيضاً مئة شلن لصندوق الحرب عن كلّ يوم لا يقف فيه الحظ إلىٰ جانبه. أمّا الملوك، فكان بإمكانهم أن يقامروا متى يشاءون وقدر ما يشاءون. فألعابهم ذات الرهانات العالية لم يكن هناك حدّ للمبالغ التي يمكن المراهنة بها.

وبقيت نقطة خلاف أساسية بين ريتشارد وفيليب. كان اسمها آليس كابت، أميرة فرنسا، نسيبة فيليب، المخطوبة إلىٰ ريتشارد، والآن سجينة إليانور في روان.

II

الملكة الجديدة

لو تمّ استنفار القوة الصليبية بسرعة وفعالية أكبر، لكان الجيش المسيحي قد وصل إلىٰ الديار المقدّسة في أواخر سنة 1190. ولكن أقبل الخريف، وحلّت العواصف مكان النسائم والطقس اللطيف. ولم يكن فيليب، الذي يصاب بدوار بحر رهيب راغباً في المضي في رحلة غير مضمونة ومحفوفة بالمخاطر. كما أنّه ما من قتال جدّي في وحول الشتاء على أيّ حال. إضافةً إلىٰ ذلك، ألغت أخبار فاجعة موت فريدريك بربروسا في تركيا وتبخّر جيشه الألماني، الحاجة إلى العجلة في تنفيذ الاجتياح المسيحي. كما عنى هلاك هذا الجيش التيوتوني أنّه لم يعد بإمكان الألمان أن ينافسوا للحصول على المجد أو الغنائم. فقرّر الملكان تمضية فصل الشتاء في صقلية.

مع احتجاب فيليب في قصر مسينا الملكي وعدائية السكّان المحلّيين للجنود الإنكليز، انطلق ريتشارد راضياً في بناء قصر كبير له من الخشب على تلّة تشرف على المدينة. شرع في العمل بنشاط كبير وسمّى تحفته ماتي ـ

غريفون أي «اقتل اليونانيين»، في إشارة لتحذير تانكريد ومشاغبيه المحلّيين. وفي فترة عيد الميلاد قام الملكان بمبادرات تتّسم بالكياسة، فزار أحدهما مكان إقامة الآخر للاحتفالات والألعاب، بالرغم من أنّ الواقع لم يتغيّر. لقد كبت الملك فيليب غيرته من ريتشارد واستياءه منه «بدهاء الثعلب»، كما أشار أحد المعلّقين. وبعد فترة وجيزة، وقع الثعلب في شرَكه.

خلال السنة الجديدة 1191م، ارتأى ريتشارد أنّه من السياسة أن يعقد الصلح مع المتبجّح المحلّي. وهكذا في الخامس من شباط/ فبراير، التقى هو وتانكريد في كاتانيا للتباحث وللصلاة أمام ضريح القديسة الشهيدة أغاثا. ولم يكن بالإمكان أن يجدا في غير القديسة أغاثا صورة أفضل للضحية الكاملة لهمجية الرجل تجاه النساء. فتبعاً لكتاب القديسين الكاثوليكي، تعرّضت تلك القديسة في القرن الثالث الميلادي للاغتصاب من قِبل قاض شرير أراد أن يسرق ثروتها، ثمّ للتعذيب إذ مزّقت الخطّافات جسدها وقطع نهداها: «أيها الرجل القاسي، هل نسيتَ أمّكَ والصدر الذي منه تغذّيت؟» هكذا قيل إنّها صرخت قبل أن تُدحرج عاريةً فوق الجمر الملتهب.

يبدو أنّ الحج إلى مقام القديسة أغاثا أسبغ على الملكين نفحةً من الرقّة ولين العريكة. فجأة غمرت الخصمين السابقين محبّة أخوية، فصلّيا واحتفلا معاً وتبادلا الهدايا الرائعة. قدّم تانكريد للملك الإنكليزي أغراضاً ثمينةً من الذهب والفضّة، وخيولاً حربية وحريراً نادراً، والأهمّ من كلّ ذلك أربع سفن شحن كبيرة وخمسة عشر قادساً حربياً. بالمقابل، وضع ريتشارد أمام تانكريد أجمل سيف عريض الحد تمّ صنعه، والذي قال عنه إنّه المهنّد الخارق نفسه، السيف السحري الذي كان للملك الأسطوري والجبّار آرثر.

في هذه الأجواء من الصداقة والانسجام أسرّ تانكريد بتحذير لريتشارد من الملك فيليب، لأنّ الثعلب كان رابضاً أمام وكره يتحيّن الفرصة للوثب. وعرض تانكريد رسالةً من الملك فيليب يصف فيها ريتشارد بالخائن ويعد نفسه

بالتحالف مع تانكريد، في حال انقضّ هذا الأخير على الإنكليزي.

عندها صرخ ريتشارد قائلاً: «لستُ بخائن، لم أكن يوماً خائناً ولن أكونه أبداً! يصعب عليّ أن أصدّق أنّ ملك فرنسا أرسل لكَ بهذا الكلام عنّي».

فأقسم تانكريد على صحّة الرسالة ووعد بإحضار الشهود. وطبعاً، عندما عُرضت الرسالة أمام فيليب قال إنّها ملفّقة. لكن ريتشارد وجد فيها العذر ليفعل ما تاق دائماً إلىٰ فعله، وقرّر وضع حدّ لمهزلة خطوبته على آليس كابيه. ولتحقيق هذه الرغبة قديمة العهد، استدعى كونت فلاندريا، الذي وصل حديثاً إلىٰ صقلية ومعه مجموعة لا بأس بها من الجنود الصليبيين. كان الكونت الفلمنكي معروفاً بلباقته وفصاحته، إذ كان لديه «لسان سعره بأغلى الأثمان». فوضع ريتشارد أمر التفاوض بين يديه.

وكان ردّ فيليب عنيفاً: «إذا تخلّى عنها وتزوّج امرأةً غيرها، سأكون عدوّاً له طالما أنا على قيد الحياة». عند سماع ريتشارد لهذا التهديد، أجاب بكلّ هدوء أنّه سيحضر عدّة شهود ليثبت كيف أنّ والده دنّس الأمير الكابيتية والتي أنجبت منه ولداً. لم يكن يليق بها أن تصبح ملكة إنكلتره. أمام قدري الملكين المتشابكين الآن عسكرياً، لم يسع فيليب إلاّ أن يطلق أنيناً خاضعاً ويمدّ يده لقبول عشرة آلاف ليرة من الفضّة كتعويض عن هذا الإخلال بالوعد الذي لا يُغتفر. وإضافةً إلىٰ كلّ الإهانات، وكل أشكال الاستياء لديه، كان على الملك الفرنسي أن يتحمّل هذا المقلب أيضاً.

في حين أزاح هذا التصرّف عبئاً عن كتفي ريتشارد، فقد ترك المجال مفتوحاً للسؤال الكبير حول مصير العرش الإنكليزي. إن لم يتزوّج ريتشارد وينجب وريثاً، فقد يؤول التاج إلىٰ أخيه الأصغر المتباكي جون، وهذا كابوس تنكمش منه ذعراً كلّ إنكلترا وكلّ أوروبا.

بعيداً في فرنسا كانت أليانور أوف أكيتان التي لا تُقهر تهتمّ بمسألة الخلافة الشائكة هذه. الآن مع استرسالها في حرّيتها الجديدة، خبّأت آليس في برج في

روان وبدأت تطوف على منازل أوروبا الملكية بحثاً عن بديلة مناسبة. التفتت بنظرها إلى أسبانيا، التي كان ريتشارد قصدها ليصارع في بامبلونا قبل سنوات بصفته كونت بواتو. وراء البرينيه، وهناك أبدى بعض اهتمام بابنة ملك ناڤار Navarre، فتاة لائقة وحالمة اسمها بيرنغاريا Perengaria. لا شكّ في أن إليانور كانت تعي قلّة اهتمام ريتشارد بالجنس اللطيف، لكنّها تغافلت عن هذه الناحية. فعندما تكون أمور أكثر أهميّة في خطر، يمكن التغاضي عن انحراف جنسي لدى الرجل كواحد من العيوب الكثيرة لدى هذا الجنس من البشر.

إذاً ريتشارد سيترفّع عن انحرافه إكراماً للسلالة الملكية. فالواجب ينادي. في النهاية، ألم يعاشر نساءً من وقت لآخر؟ أي أنّ هويته الجنسية كانت. . . مزدوجة. وبالنسبة إلىٰ شاعر بلاطه الغنائي، برتران دو بورن، كان معروفاً بلقب اللورد **نعم ولا**. والآن، أصبح عليه أن يكون **بلى**. ألم يكن صحيحاً أنّه أنجب صبياً من فتاة من كونياك؟ (ريتشارد سمى لقيطه فيليب في بادرة يمكن تفسيرها بطريقتين). وكانت إليانور ترى أنّه على ابنها المفضّل ببساطة أن يضغط على نفسه ويفعل الشيء ذاته من أجل مجد سلالة بلاتاجنيت واستمرارها.

بينما انطلق ريتشارد بجيشه إلىٰ مرسيليا، توجّهت إليانور بهدوء إلىٰ إسبانيا واستلمت بيرنغاريا الوادعة. وقد طوّع مؤرّخو البلاط لغتهم لتقديم هذه الآنسة المطيعة في أفضل صورة. كانت «مثقّفة أكثر منها جميلة». (فهل هذا يعني أنّها كانت عادية؟) كانت «فتاة يقظة، وسيدة لطيفة، فاضلة وعادلة، لا تعرف الزيف ولا النفاق». (فهل هذا يعني أنّها كانت باهتة؟) بالنسبة إلىٰ إليانور كانت فضيلتها الكبرى إذعانها، إذ كانت تلك الفتاة تقف خائفةً وراء إليانور الجبّارة.

بينما كانت الترتيبات تتم، ذهب فصل الخريف ودخل الشتاء وأصبحت الرحلة عبر جبال الألب خطرة. لكن ليس على إليانور، التي شقّت طريقها،

والنعجة إلىٰ جانبها، بين الثلوج باتجاه أسدِها، وقوّت من أُسطورتها في حياتها.

لقد كتب أحد معاصريها يقول: «الملكة إليانور، امرأة لا يمكن مقارنتها. . . جميلة وعفيفة، قوية ومتواضعة، حليمة وبليغة، وهذا قلّما نلتقيه لدى امرأة؛ وهي لا تعرف التعب في كلّ مهمّة تضطلع بها، وقوّتها موضع تقدير بالنسبة إلىٰ سنّها». وكان ريتشارد كأنّه يشعر بمجيء أمّه المسيطرة والمتملّكة إليه، وطبعاً حزر أنّها في منتصف طريقها عبر القارة وفوق أعلى سلاسلها الجبلية لترغمه على الاقتران بامرأةٍ أخرى.

قبل وصول إليانور برفقة بيرنغاريا ببضعة أسابيع، جمع ريتشارد رؤساء أساقفته وأساقفته حوله في كنيسة ريجينالد دو موياك Reginald de Moyac في مسّينا. وهناك صرّح عن خوف عميق لديه من مثل دمار سدوم[1]، وتجرّد من ثيابه واعترف بفحش مثليته الجنسية. لقد رمى بنفسه تحت رحمة ربّه، والتمس السماح والقوة ليقاوم دوافعه غير الطبيعية ويكفّ عن سلوك الطرقات المحرّمة. فوعد بالامتناع والتوبة. وفي محاولاته لكبح ميوله الشاذة، كان مأخوذاً بقصّة حمار بلعام الواردة في الكتاب المقدّس. في تلك الحكاية، ارتدّت الدابّة عندما وقف ملاك من عند الله في الطريق رافعاً سيفه، فضربها بلعام ثلاث مرّات. عندها سأله الملاك: «لِمَ ضربتَ حمارك ثلاث مرّات؟ أنا وقفتُ في طريقك، لأنّي أرى أنّها طريق الضلال».

رأى أساقفته أنّ توبته صادقة، ووضعوا قواعد العمل التكفيري، وأعلنوا أنّ «أشواك الفسق» زالت من رأسه. وكتب مؤرّخه روجر أوف هوفدن يقول: «سعيد هو الإنسان الذي يهبط إلىٰ هذا المستوى الدنيء ثمّ يرتفع بقوّة أكبر. سعيد هو الإنسان الذي بعد التوبة، لا ينحدر إلىٰ طريق الهلاك!».

---

(1) سدوم وعمورة، البلدتان اللتان دُمّرتا حسب العهد القديم بالغضب الإلهي على قوم لوط؛ لشذوذهم الجنسي، ومعاصيهم الأخرى (المترجم).

قد يكون ريتشارد رأى في تصريحه عن شذوذه تحصيناً ضد أي مشروع زواج تنوي أمّه إلزامه به. وبمزيج من الفرح والخوف قادها وآنستها اللطيفة إلىٰ مسكنهما في ماتي غريفون.

بالنسبة إلىٰ الجنود الإنكليز والفرنسيين الذين شاهدوا الدخول المهيب لإليانور وموكبها، بدت والدة الملك وجهاً في قمّة غموضه. كانت قوية، وجميلة، لا تعرف التعب، حسّاسة، وأديبة، كانت نسراً يحلّق فوق البشر العاديين، والدة لعشرة أبناء ملكيين. ومع ذلك، لم تنجح في كلّ زيجاتها الملكية في أن تنجب وريثاً ذكراً لملك فرنسا وهذا سبب طردها. كما كانت الشائعات منتشرةً حول خيانات ربّما قامت بها من وراء ظهر ملكها، من شقيق الملك نفسه إلىٰ صلاح الدّين (وهذا أسوأ ما يمكن أن يقال)! كما أنجبت خمسة أولاد لملك إنكلترا، الذي قدّر لها ذلك لدرجة أنّه سجنها ستّة عشر عاماً. كان بعض الناس يرون فيها الأم الشيطان التي اتّخذت مرّة، في الحمام، شكل التنين. وحتّى ريتشارد نفسه، ربّما في خضم يأسه من «قذارة» حياته المنحرفة، قال عن أسلافه إنّهم «أتوا كلّهم من الشيطان وإلىٰ الشيطان يعودون. ومع جذور عفنة كلّياً كهذه، كيف يمكن أن تنبثق ذرّية مثمرة وصالحة؟».

لكن لا شيء من تلك الشؤون، سواء السامية منها أو دركات العار المشينة، كان يعني الجيش الصليبي أكثر من دور إليانور في كارثة سنة 1147م. إنّ رؤية هذه الملكة، التي تقدّم بها العمر ولكن حفظ لها جمالها، تنزل بأبّهة من سفينتها برفقة حرسها العسكري أعادت إلىٰ الأذهان صورة كابوس مضت عليه أربع وأربعون سنة، حين كانت إليانور تمتطي جواداً وتعدّ العدّة للمشاركة في الحرب مع غيرها من الجنديات الصليبيات، تتبعها بطانة كبيرة من الوصيفات والشعراء الغنائيين وقافلة طويلة من الحمولة الزائدة. رؤيتها الآن تذكّر بالكارثة عند تلّة قدموس، عندما تباطأت قافلة أغراض الملكة فشقّت الجيش الصليبي، وأدّت إلىٰ هزيمة مروعة على يد الأتراك. معها عادت صورة

حملة صليبية يسيطر عليها العنصر النسائي وحيث كان يتحوّل الحج المقدّس في النهار إلىٰ مهرجان كبير في الليل للشعر والموسيقى والرقص والتباري بكلام عن الحب. كانت إليانور رمزاً للانغماس الذاتي والهزيمة، وبسببها لم يكن يحبّذ وجود النساء في تلك الحملة.

يومها كتب راهب ونشستر، ريتشارد أوف دڤايزز Devizes، آسفاً: «عرف الكثيرون ما أتمنّى لو لم يعرفه أيّ منّا. الملكة نفسها ذهبت في زمن زوجها السابق إلىٰ القدس. فلا تدعوا أحداً يتكلّم. أنا أيضاً أعرف جيّداً. أوصيكم بالصمت».

لم تمكث إليانور في صقلية سوى أيام قليلة، استُقبلت خلالها عزيزتها بيرنغاريا كما يجب في دارة ريتشارد ووُضعت في عهدة شقيقته جوانا، لكن أجراس الزواج لم تكن تدقّ في بال أحد على ما يبدو، ولا في بال ريتشارد طبعاً. وجاءت فترة الصوم لتقدّم حجّة مفيدة للتأجيل. فأوكل ريتشارد إلىٰ أمّه مهمّة معالجة بعض المشاكل الداخلية، وأرسلها على متن سفينتها عائدةً إلىٰ روما.

ثمّ حوّل انتباهه من جديد إلىٰ الحملة الصليبية.

في غمرة توقه إلىٰ إعداد نفسه روحانياً، استدعى ريتشارد ناسك كالابريا الكبير، يواكيم أوف فيوري، إلىٰ جانبه للتعلّم منه ومعرفة تنبؤاته. ماذا ينتظر الحرب الكبيرة بين المسيحيين والكفّار؟ هل لرؤيا القديس يوحنّا تأثير على مشروعهم؟ قيل إنّ هذا الراهب البندكتي المثير للجدل كان يملك موهبة التنبّؤ وكان عارفاً جدّاً في تفسيره لرؤى القديس يوحنّا في سفر الرؤيا.

بينما كان ريتشارد وأساقفته ورؤساء أساقفته يستمعون إليه لساعات، رسم الراهب المتنسّك صورة مأخوذة عن الرؤيا 12: 1، هي صورة السيدة العذراء يلفّها ضوء شمس العدالة، وتسند الكنيسة المباركة قدميها الثابتتين، وعلى رأسها تاج تزيّنه اثنتا عشرة نجمة تعني الرسل الاثني عشر. وتجاهها تنين بسبعة

رؤوس، هو الشيطان بنفسه. والسبعة هو العدد المتناهي، كما قال الراهب، لكن قدرته على الشر غير متناهية، لأنّ رؤوس الشيطان تمثّل الشر الذي بإمكانه فعله. كذلك، تمثّل الرؤوس المضطهدين السبعة الرئيسيين للإيمان المقدّس، وبينهم هيرود ومحمّد. وقال يواكيم إنّ خمسة من السبعة كانوا من الأموات، بينما يبقى اثنان على قيد الحياة. الأخير كان المسيح الدجّال الذي كان الآن في الخامسة عشرة من عمره بحسب ما قال الناسك. ويعيش في روما.

«في هذه الحالة، البابا الحالي كليمان هو المسيح الدجّال»، قال ريتشارد مبتهجاً. عند هذا الاقتراح، أبدى أساقفة ريتشارد اعتراضهم. على كلّ حال، كان عمر كليمانت الثالث أكثر من خمس عشرة سنة. وشدّد يواكيم على الأمر قائلاً: بعد فترة وجيزة سيصبح النبي الكذّاب بابا ويحاول أن يغري المؤمنين، إلىٰ أن يُكشف أمره، «ويقضي عليه يسوع المسيح بنفخةٍ من فمه». عند هذه التصوّرات الثقيلة لا شكّ في أنّ ريتشارد حكّ رأسه مفكّراً.

مضطهد الكنيسة السادس الرئيسي كان، برأي الناسك، صلاح الدِّين نفسه. صلاح الدِّين يُعتبر الآن المضطهد الأفظع لكنيسة الله، ومن الضروري أن يُهزم. فقد دنّس مدينة القدس المباركة وضريح ربّنا والأرض التي مشى عليها مخلّصنا. لهذا يجب أن يرفع يده عن هذه الممتلكات المسيحية، لمن سينعم إلىٰ الأبد بمجد الإيمان.

فسأل ريتشارد: «متى سيحدث ذلك؟».

«بعد مضي سبع سنوات منذ يوم احتلال القدس».

قام ريتشارد بعملية حسابية سريعة. إذ كان صلاح الدِّين استولى على القدس قبل خمس سنوات. فسأل الملك نفسه «هل بكّرنا في المجيء؟».

«وصولكم ضروري جدّاً، أجاب الناسك، رافعاً يده ليسكّن القلق، «لأنّ الربّ سيمنحكم النصر على أعدائه ويمجّد اسمكم ويرفعه فوق كلّ أمراء الأرض».

الفصل السابع عشر

فاكهة أفروديت

غادر فيليب ملك فرنسا صقلية في 30 آذار/ مايو سنة 1191م في استياء واتّجه إلىٰ الديار المقدَّسة. لقد تركها على وجه السرعة ومن دون أية مراسم، إذ كان يريد أن يتفادى حرج اللقاء مع الأميرة بيرنغاريا، التي حلّت مكان أخته غير الشقيقة آليس خطيبةً لريتشارد. وبمعزل عن حالته النفسية، كان سفر فيليب مسهّلاً لم يعقه أي حادث مؤسف، فوصل إلىٰ عكّا بعد ثلاثة أسابيع في 20 نيسان/ أبريل بمعنويات جيّدة.

أمّا ريتشارد، ففي كلّ مراحل حياته، كانت لانطلاقاته جلبة أكثر ولأسفاره وقع الدراما. معه انطلق القسم الأعظم من الأسطول الصليبي، الذي ارتفع عدده خلال الشتاء بدرجة كبيرة. وصارت لوجستيات تنظيمه ليعبر البحر المتوسّط على شيء كثير من التعقيد. وبعدما تصالح ريتشارد مع الملك الصقلّي، دكّ في بادرة رمزية قصره الخشبي الاستفزازي، ماتي غريفون، قبل أن يقول وداعاً بنبرة لعوبة. وفي 10 نيسان/ أبريل انطلق الأسطول الكبير في البحر، وكان عدد سفنه 219، اتجهت كلها صوب الشرق.

في ثلاث من أبطأ سفنه ولكن أقواها، وكانت تسمّى الدرمندات، وضع

بيرنغاريا وأخته جوانا، ترافقهما كتيبة من الحرس الملكي وحصة لا بأس بها من كنوزه، وأرسل الجميع ليكونوا في الطليعة. وأصبحت هذه الدرمندات الملكية الثلاث رأس مثلّث كبير في عرض البحر. كانت هناك ثمانية صفوف، يزيد عدد سفن كلّ منها عن الذي يسبقه وذلك حتى الصف السابع، الذي كانت تشكّله ستّون سفينة منتشرة في خطّ واحد. وبقي ريتشارد في المؤخّرة مع بعض أسرع قوادسه. كان هذا الأسطول يبدو من بعيد مثل سرب من الطيور، كما لاحظ أحد المؤرّخين. وبفضل الريح العليلة التي حلّت عليه في يومه الأوّل في البحر، أبحرت السفن متقاربة بما يكفي لتتّصل الصفوف فيما بينها بالبوق أو حتّى بمجرّد الصراخ. وعندما هبط الليل، تبعت السفن ضوء شموع كبيرة وُضعت عالياً في سفينة المقدّمة كما وضع مثلها في سفينة الملك في الخلف.

لكن النسيم اللطيف لم يستمر. في يوم الجمعة العظيمة، بقي الأسطول هادئاً، ولكن في اليوم التالي، يوم العيد، هبّت ريح عاصفة أخذت الأسطول بكامله في غمرة غضبها. فتبعثرت الصفوف الهندسية الأنيقة، وأضحى التواصل مستحيلاً. وعجز القباطنة عن إبقاء سفنهم في خطوطها واضطروا إلىٰ بذل كلّ جهدهم ومهارتهم لمجرّد أن تبقى عائمة. وصارع الجنود للحفاظ على حياتهم وتحوّل كهنة الأسطول إلىٰ إرميا لأنّه كان صوت الرب: «الذي جعل الأبخرة تتصاعد من أطراف الأرض. . . وأطلق الرياح خارج كنوزه».

عندما هدأ البحر أخيراً، كان الأسطول الصليبي مشرذماً وسفنه متباعدة على مساحة واسعة، تطلّبت من ريتشارد بضعة أيام لإعادة تجميعه. وقد شبّه أحد الكتّاب هذه العملية بتجميع الدجاجة لفراخها. لكن بعض الفراخ بقيت مفقودة، وأهمّها الدرمندات الثلاثة التي كانت في المقدّمة، وعلى متنها ملكة إنكلترا العتيدة.

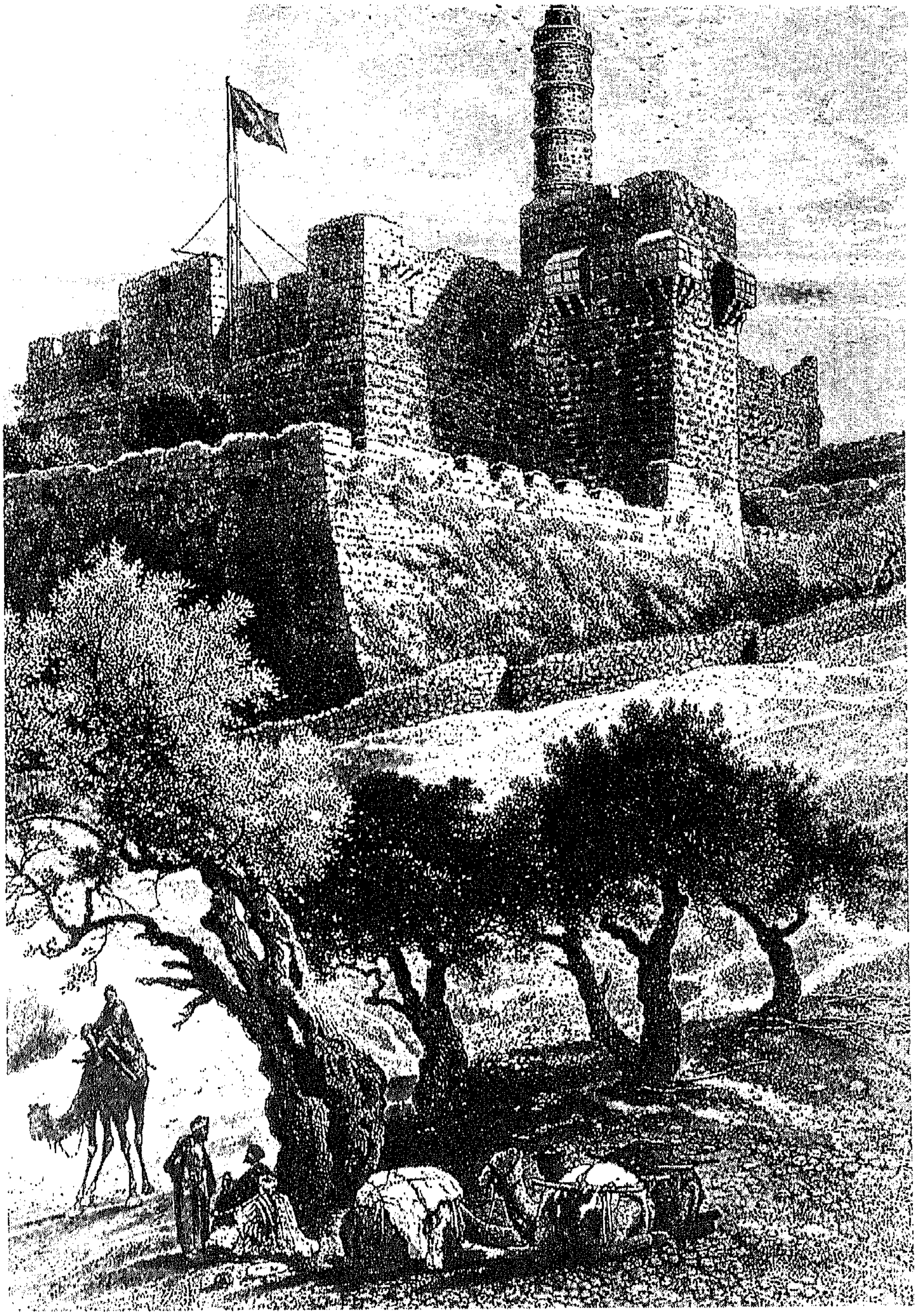
بعد عشرة أيام في البحر ألقى الأسطول المصاب مرساته عند سفح جبل إيدا في كريت وكان عزاؤه أنّ هذه الجزيرة التي كانت مكان ولادة زيوس هي

محطّة على منتصف الطريق بين صقلية وفلسطين. بعد أيام قليلة، انطلق الأسطول مجدّداً تحت ريح شديدة استمرّت طوال الليل. وفي الصباح وجدت السفن نفسها عند شواطىء رودس الصخرية.

بين آثار هذه الجزيرة القديمة، التي تحفل بتاريخ عظيم ثمّ لم تعد أكثر من ظلّ لمجدها السابق، مكث ريتشارد عشرة أيام. وأثناء انتظاره وصول السفن التائهة، أعاد تزويد أسطوله بالمؤن من الحقول الخصبة القريبة. وشعر الملك بالتوعّك بعد ذلك العبور العسير، ولكن ليس إلىٰ درجة تمنعه من إرسال عدد من أفضل قوادسه وأسرعها لتبحث عن خطيبته. وبعد فترة قصيرة وجدها هؤلاء المستطلعون على بعد مئات الأميال في قبرص، فقد قادت العاصفة سفن المقدّمة الثلاث أكثر باتجاه الجنوب، فتحطّمت إحداها على صخور أفروديت، ليس بعيداً عن ميناء ليماسول، لكن سفينة بيرنغاريا وصلت إليه سليمة ورست قبالته. وكانت الأميرة بخير لا يزعجها إلاّ المهانة.

كان على جزيرة قبرص والٍ بيزنطي اسمه إسحق كومنينوس Isaac Comnenus، وقد عامل التائهين الصليبيين معاملة جائرة. فبين الذين غرقوا مع السفينة المحطّمة كان نائب مستشار الملك، الذي كان يضع دائماً ختم الملك حول عنقه، فقبض الإمبراطور القبرصي على هذه القلادة الملكية، وعلى كلّ النقود التي أمكن مصادرتها من السفينة، وسجن الناجين، ورفض السماح لبيرنغاريا بدخول ثغر ليماسول، ومنع جنودها من الوصول إلىٰ الشاطىء لأخذ الماء.

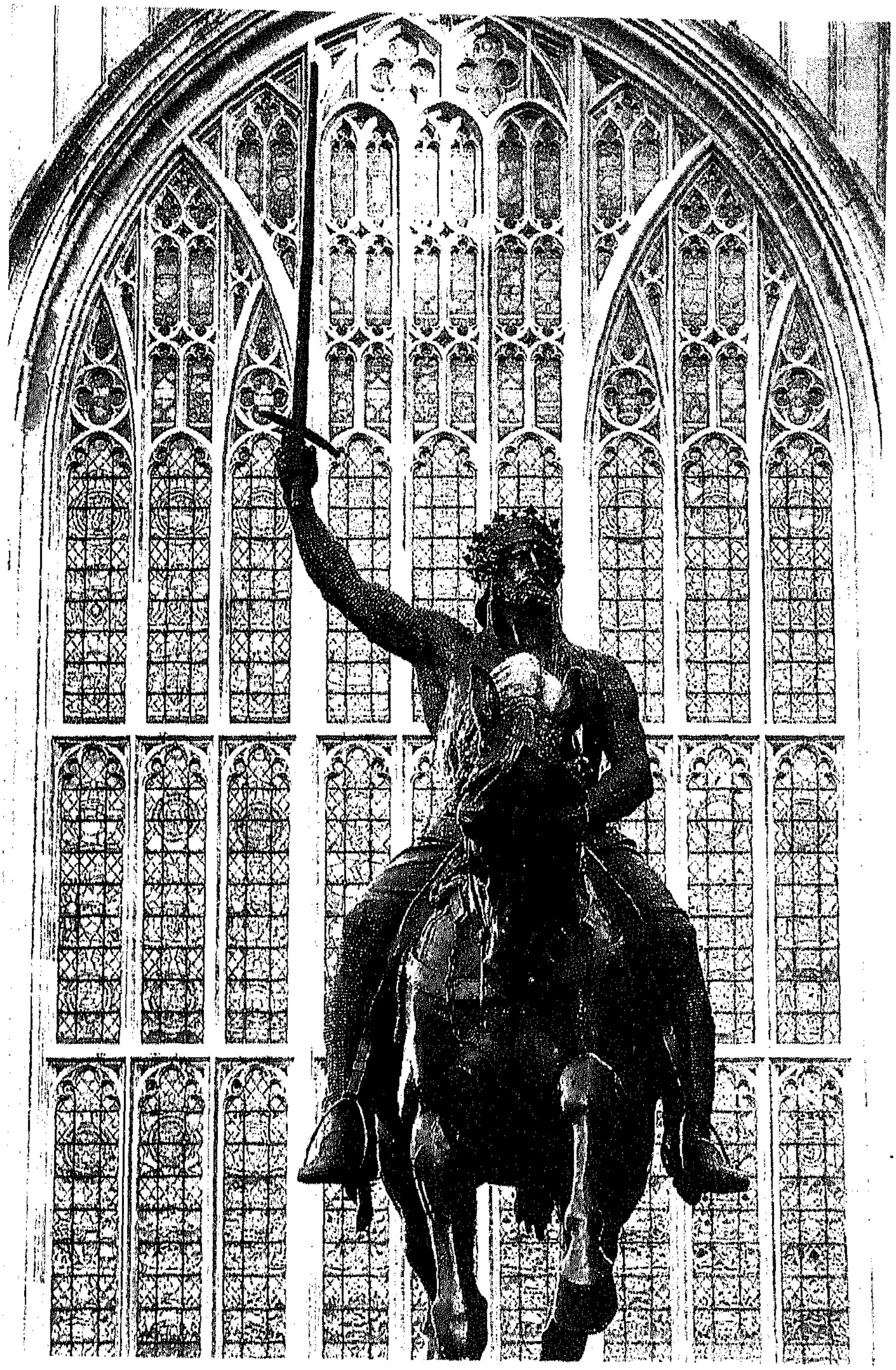
لكن الإمبراطور سيدفع ثمن خشونته هذه. فعندما تلقّى ريتشارد أخبار بيرنغاريا، انفجر غاضباً: من هو ذاك الطاغية التافه؟ أراد أن يعرف. كيف يجرؤ على اعتقال الحجّاج وسرقتهم في طريقهم إلىٰ الديار المقدّسة؟ على ما يبدو، لم يكن إنقاذ بيرنغاريا هو ما يشغل بال ريتشارد، لكن المسألة كانت مسألة مبدأ بالنسبة إليه.



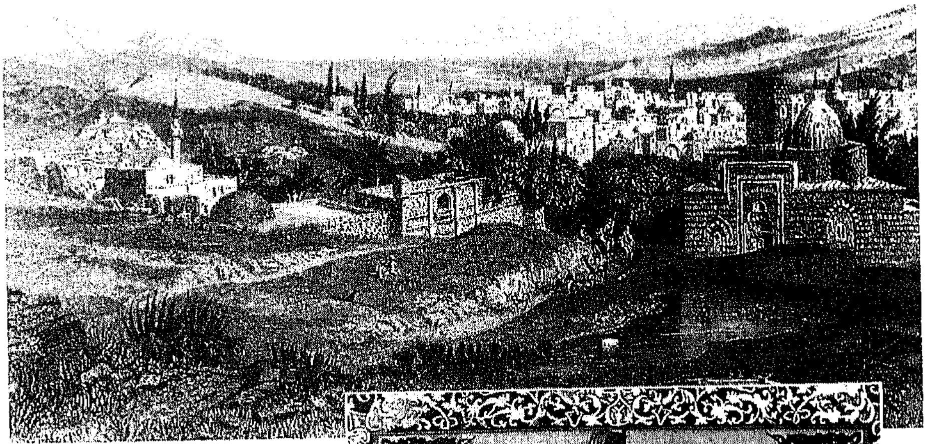
قلعة القدس، المشرفة على الجلجلة، قبة الصخرة والمسجد الأقصى من كتاب Picturesque Palestine
لـ س.و. ولسون (مكتبة Gelman، جامعة جورج واشنطن).



تمثال صلاح الدين، سوق الحميدية، دمشق (أنطون مزاوي).



تمثال ريتشارد قلب الأسد، مبنى البرلمان، لندن (Judah Passon).



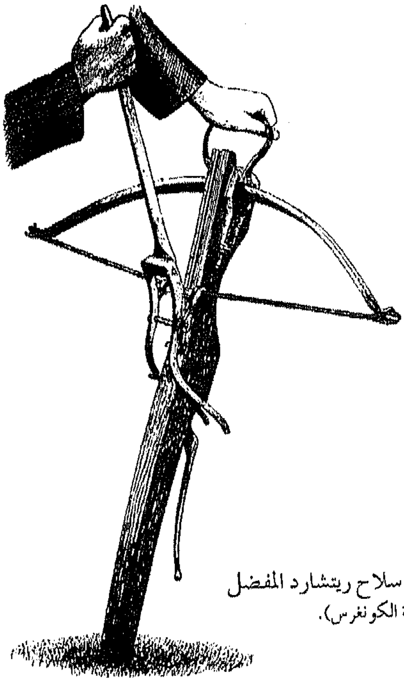
أنهار دمشق، من كتاب
Picturesque Palestine
لـ س.و.ولسون
(مكتبة Gelman، جامعة جورج واشنطن).



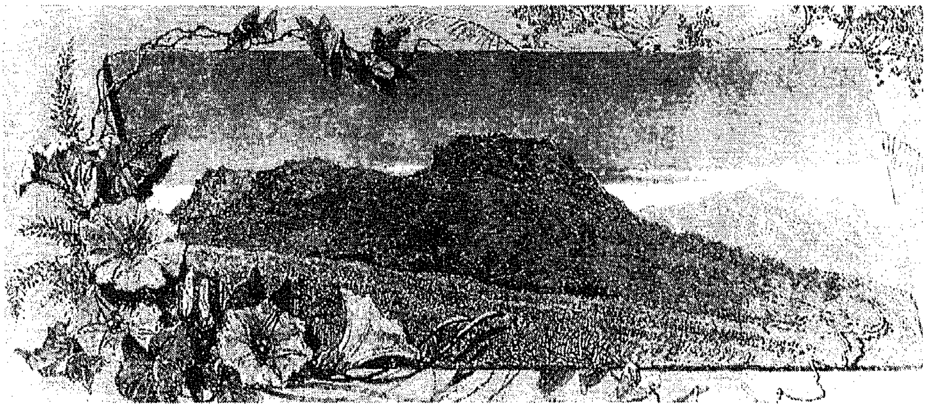
رسم قديم لصلاح الدين



نقطة تحرك الحملة الصليبية الثالثة
(الهيئة الإقليمية للسياحة في برغندي)



القوس القذوف، سلاح ريتشارد المفضل
(مكتبة الكونغرس).



قرون حطين، حيث انهارت مملكة القدس



القدس كما تبدو من جبل الزيتون، من كتاب Picturesque Palestine
لـ س.و.ولسون (مكتبة Gelman، جامعة جورج واشنطن).

وأطلع المستشارون ملكهم على كلّ ما يعرفون، أي أنّ إسحق كومنينوس كان ابن أخ إمبراطور بيزنطي بالقسطنطينية؛ وقد وقع في شبابه في إحدى الحروب مع الأرمن في الأسر وقيّده الأوروبيون بالسلاسل لسنواتٍ، فنشأ عنده مذ ذاك كره عميق للاّتين وعقدة من السلاسل. وقد وصل إلىٰ قبرص قبل ثلاث سنوات آتياً من القسطنطينية، وتمرّد، ونجح في فصل الجزيرة عن الإمبراطورية البيزنطية. وهو الآن يحكم قبرص حكماً مستقلاً ولكن شعبها يشتمه بسبب جوره وغشّه. وقد فرّ العديد من مواطني الجزيرة الميسورين والمنتجين، بينما استُغلّ الذين بقوا وسُرقت منهم ثروتهم.

لقد كتب راهب يدعى نيوفيتوس عن نكبة قبرص تحت حكم إسحق وقال: «لم يكتفِ إسحاق بالإساءة إلىٰ البلاد وسلب ممتلكات الأثرياء، ولكنه ضايق أيضاً ضبّاطه أنفسهم، وفرض عليهم العقاب يومياً، واضطهدهم وملأ حياتهم كلّها بالبؤس».

وبتدخّل محفوف بالخطر من قبل قبرصي نزيه (قُطع رأسه فيما بعد بسبب الاضطرابات التي أثارها) تمكّن الناجون من حطام السفينة من الإفلات من حكم الإمبراطور العنيف عليهم بالإعدام. وقد حاول خداع الملكتين السابقة والعتيدة لتقتربا من الشاطىء، لكنهما لحكمتهما تردّدتا، وفضّلتا الخلاص على يد الملك ريتشارد. وكان يقال إنّ إسحٰق كان صديقاً لصلاح الدّين نفسه وإنّ أحدهما شرب من دم الآخر عربون أخوّة في طقس غريب وهمجي. إثر سماعه لهذا الوصف للإمبراطور الشرير، طلب ريتشاردُ اثنين من أسرع قوادسه، وجهّزهما بمجموعة من نخبة العساكر، ومضى إلىٰ عملية الإنقاذ.

انطلق ريتشارد مباشرةً إلىٰ صخب خليج الأناضول، حيث تتلاطم أمواج أربعة بحار ويصعب توقّع تحرّك رياح «الميلتمي Meltémi». كان هذا الامتداد الخادع من المياه كابوساً للبحارة، وكان يقال إنّه حلّت عليه لعنتان. الأولى من أسطورة عن آنسة رفضت فارساً طوال حياتها، وليلة وفاتها، أتى الفارس إليها

وضاجعها. فدخل الشيطان جسدها وبعد تسعة أشهر أنجب ولداً مُخدَجاً. فقطع الفارس رأس ابن الشيطان وحفظه في صندوق ومتى هاجمه أعداؤه، كان يكفي أن يرفع الرأس في وجههم فيُهزمون. ثمّ تزوّج هذا الفارس، ودعا الفضول عروسه إلىٰ الرغبة في اكتشاف سبب قدرة زوجها على قهر جيوش كبيرة دون مساعدة جندي من جنوده. فبحثت ذات يوم في غرفته ووجدت الرأس في الصندوق ولشدّة ذعرها، ركضت صوب المياه ورمت بالرأس إلىٰ البحر. بعد ذلك قال البحّارة إنّه حين يكون وجه الرأس العائم إلىٰ أعلى، يزمجر البحر عواصف مرعبة، وإن كان الوجه إلىٰ أسفل، يكون البحر هادئاً وتمرّ السفن من دون عائق.

وتقول الأسطورة الثانية إنّ تنيناً أسود اللون هائل الحجم كان يتردّد إلىٰ الخليج ولشهر واحد خلال السنة كان يغطس رأسه في البحر ويرشف كمية هائلة من المياه. وإن كان البحارة لا يريدون أن يمتصّهم فم التنين الفاغر، فعليهم أن يصرخوا عالياً ويضربوا عصاتين ببعضهما لإخافته بينما هم يجتازون الخليج.

سواء بسبب رأس الشيطان المتّجه إلىٰ أعلى أم بسبب التنين الأسود، فإن الرياح تقاذفت السفن الملكية، التي راحت تدور كاللوالب، يردّها التيار إلىٰ الوراء، ثمّ تدفعها الرياح إلى الأمام. وكتب أحد الحجّاج يقول: «خوفاً من غضبه، فعلنا كلّ ما في وسعنا لنحمي أنفسنا من مخاطر المكان، ونتجاوز الأمواج التي كانت ترغي وتزبد من حولنا».

يبدو أنّ السفن عبرت هذه البقعة الخطرة والتقت بسفينة كبيرة عائدة من الديار المقدّسة. فعرف ريتشارد من بحارتها أنّ فيليب وصل سليماً إلىٰ عكّا، وأنّه كان يبني آلات الحصار، وينتظر وصول ريتشارد بفارغ الصبر. فمضى ريتشارد قدماً بمعنويات عالية.

وجد ريتشارد سفينة بيرنغاريا خارج ميناء ليماسول راسيةً في عرض البحر، تتلاعب بها الرياح والأمواج، وكانت الآنسة في حالة يائسة. فارتفعت

حرارة الملك من جديد، وأرسل إلىٰ الإمبراطور المزعوم رسالةً مفاجئة بتحفّظها، نظراً لازدراء ريتشارد عادة للمتنمّرين وضيعي الأصل: محبّةً بالرب واحتراماً للصليب، على الإمبراطور أن يطلق سراح أسراه ويعيد أموالهم وممتلكاتهم، وكذلك الكنز الذي استحوذ عليه من حطام السفينة. إن فعل هذا سيسدي به خدمة لله، فيكمل الأسطول الصليبي مسيرته مباشرة إلىٰ الديار المقدَّسة من دون المزيد من اللغط. لكن الردّ على رسالة ريتشارد جاء رفضاً جافياً يقول إنّ الإمبراطور لن يطلق أسراه ولن يسلّم ذهبهم. إضافةً إلىٰ ذلك، ليس لإمبراطور، أن يتعاطى مع مجرّد ملك.

عند هذه الإهانة ارتدى ريتشارد درعه وأصدر الأوامر لكلّ جنوده بأن يفعلوا مثله: «اتبعوني»، قال لهم ممسكاً بطرف عارضة الشراع، «اتبعوني، كي نثأر للأذى الذي ألحقه هذا الإمبراطور الغادر للرب ولنا، إنّه يهذر ضد عدالة الله ويبقي حجّاجنا مقيّدين». ثمّ نظر ريتشارد إلىٰ الشاطىء ورأى الإمبراطور يختال راكباً جواده وجنوده وراء متاريسهم المؤقّتة يطلقون التهديدات فقال: «لا تخافوا منهم، فهم من دون أسلحة حقيقية، إنّهم مهيّئون للفرار وليس للقتال». وأعجب ريتشارد بشكل حصان الإمبراطور.

انطلقت المراكب وضرب الصليبيون الشاطىء بشجاعة. فأمطرت أقواسهم سهاماً على المدافعين المساكين، «كالمطر فوق العشب» قال أحد المراقبين: في البداية، أدّى القبارصة، الذين يعوزهم التدريب الحسن، بأقواسهم ومقاليعهم دفاعاً جريئاً وعنيداً، لكن رماح الأوروبيين وسهامهم الحديثة حصدتهم بلا رحمة. فانهارت المتاريس، وفرّ المدافعون منسحبين في فوضى، أوّلاً إلىٰ داخل المدينة ثمّ إلىٰ السهل وراءها. حال وصول ريتشارد إلىٰ الشاطىء، طلب حصاناً وحاول أن يلحق الإمبراطور علّه يستدرج هذا الشرير إلىٰ مبارزة فردية. لكن جواد الإمبراطور الرائع كان سريعاً جدّاً وحمل إسحق إلىٰ البعيد.

خلال الليل أنزل الصليبيون خيولهم الكبيرة إلىٰ البر. لكن الدواب كانت مرهقة من التأرجح المتواصل في البحر ومترهّلة من السجن منذ شهر، وبالتالي لم يكن بالإمكان دفعها، لا سيما إلىٰ معركة. وهكذا تقدّم الملك باكراً في صباح اليوم التالي، مع خمسين فارساً بحذر شديد خمسة أميال إلىٰ الشرق قرب قلعة تدعى كولوسي، جمع فيها إسحق جنده واستعدّ للقتال. حتّى في وميض الفجر الخافت، والمعسكر نائم، بدا الجيش المحلّي مثبطاً للهمّة. وكان أحد الموظّفين المرافقين من الجرأة بحيث همس للملك قائلاً: «سيدي، أرى أنّه من الحكمة أن نتفادى معركة مع هذا الحشد الهائل والجبّار». فأجابه الملك: «أيها الشاب، من الأفضل أن تنكبّ على كتاباتك، وتترك أمر الحرب لنا. احرص على أن تبقى بعيداً عن التجمّعات».

وكان الاشتباك في كولوسي سريعاً، وعنيفاً، وقصيراً. وهزمت مفاجأةُ الجيش الصغير للمعسكر النائم الجيش القوي والكثير. وقيل لاحقاً إنّ ريتشارد إمّا طارد الإمبراطور عبر منطقة الخيم أَو انتزع حصان الشرير. ففي حالته المهينة، ولّى الإمبراطور الأدبار على جواده الأصفر العربي الجميل. وبينما كان إسحق يفرّ عبر جبال ترودوس باتجاه نيقوسيا، عاد ريتشارد إلىٰ ليماسول بغنائم لا بأس بها، بما فيها كؤوس ذهبية وخيم إمبراطورية وراية جميلة كانت للإمبراطور نفسه، اعتبرها الملك ملكية خاصة قيّمة. لكنه كان يريد الإمبراطور، وجواده الأصفر الرائع.

في البلدة أصدر ريتشارد مرسوماً للسكان المحلّيين وعد فيه كلّ من يقف في صفّه بالمعاملة الحسنة واللائقة، وحماية المنازل، بينما سيكون قاسياً مع الذين يبقون مستنفرين ضدّه. وركّز الملك على عامل اللباقة النفسي في الحرب وطلب من جنوده أن يقيموا حاميتهم خارج البلدة في المراعي القريبة، كي لا يجرح أحداً من السكّان الأصليين. فمال القبارصة إلىٰ الجانب الإنكليزي، وقد كتب بمرارة فيما بعد المؤرخ القبرصي المحلّي **نيوفيتوس** Neophytus أنّ

الملك الإنكليزي، «الخسيس»، وجد في قبرص «أمّاً حنوناً». ولو لم يكن القبارصة بهذا الإذعان، أكمل الكاتب، لكان ريتشارد لاقى على جزيرته المصير الذي ناله الملك الألماني، فريدريك بربروسا، في تركيا. وبالفعل كانت الجزيرة أمّاً حنوناً حقيقية.

بعد انتصاره الحديث على الوغد المحلّي، من الطبيعي أن تكون معنويات ريتشارد مرتفعة. ويبدو أنّه كان ملتفتاً التفاتة خاصة إلىٰ الجغرافيا السياسية في مملكته الأوروبية؛ لأنّه في ذلك اليوم، وكان يوم أحد ويوم عيد القديس الشهيد بانكراس Pancras، وبعد موسم الصوم الكبير بفترة، تزوّج بيرنغاريا. وعلى أرض أفروديت وأدونيس كان للمناسبة مظهر رومانسي وحسّي. وقد عقد نيكولاس، قسيس ريتشارد الشخصي، القران في كنيسة صغيرة في قلعة ليماسول منذورة للقديس جورج قاتل التنين. وتميّز الاحتفال بكلّ الأبّهة الملكية التي يستحقّها. وأُخذ المشاهدون بذلك الثنائي الذي بدا رومانسياً ومتكاملاً.

وهناك في ليماسول تُوّجت
أجمل العرائس في زمانها
ملكة فاضلة حلوة القسمات
الآن اكتمل مجد الملك
لأنه انتصر
و لأنه اقترن بزوجة
أعطاها كلمته وحياته

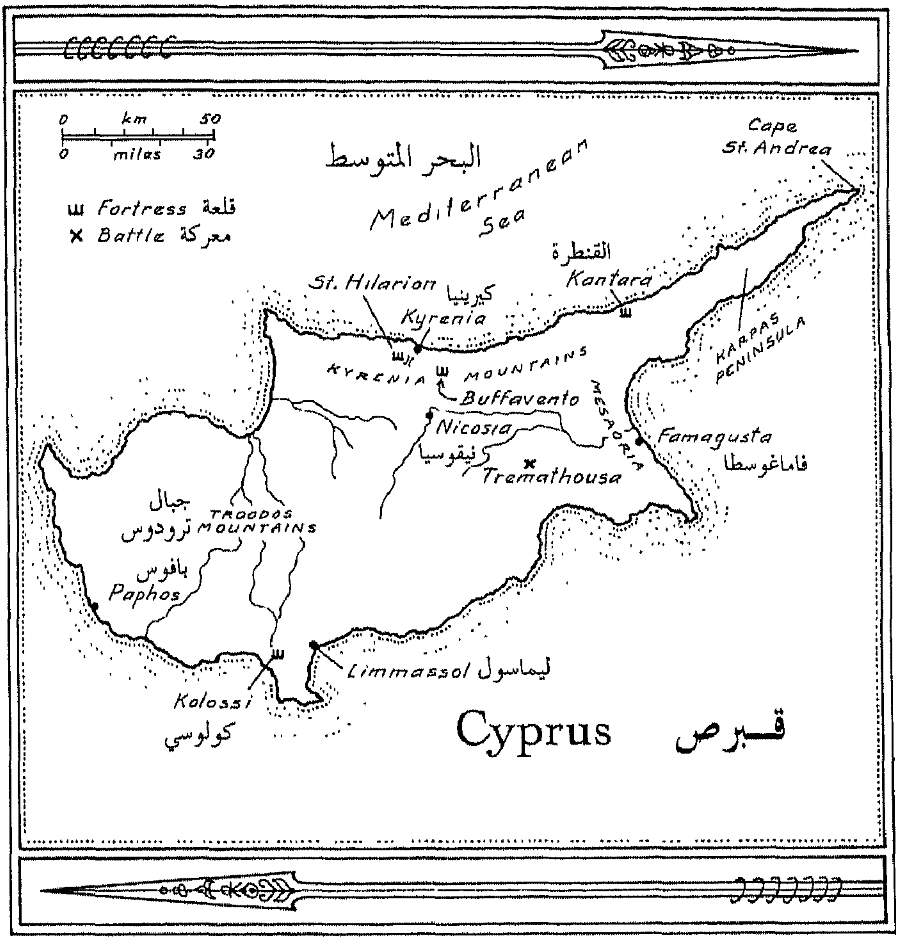
بالنسبة إلىٰ الحاضرين الذين تبعوا المنزل الملكي بعيون تتلألأ فيها الدموع شكّل العروسان ثنائياً رومانسياً، وقد كتب شاعر حاضر: «وفيما بعد سُمّيت الملكة. شيء جميل، أحبّها الملك وأجلّها». بعد ذلك، قام أسقف

إيڤرو Evreux، يساعده أسقف بايون Bayonne ورئيس أساقفة أوكسيان وأراميا Auxienne, Aramia، بوضع التاج على رأس العروس وأعلنوا هذه السيدة من مملكة ناڤار الصغيرة، ملكةً على إنكلترا.

لِمَ قام ريتشارد بهذا العمل الذي بدا مناقضاً لشخصيته وميوله؟ لِمَ الآن؟ ولِمَ أصلاً؟ ألم يكن في وسعه أن يؤجّل الزواج حتّى وصوله إلىٰ الديار المقدَّسة؟ أو أن يؤجّله إلىٰ ما لا نهاية بحجّة حملته الصليبية؟ أم تراه قصد الآن بالذات، وبجهد بطولي، في غمرة حملته، أن ينجب وريثاً لعرش بلانتاجينيه؟

بين الأجوبة المتحيّزة عن هذه الأسئلة جواب ينتمي إلىٰ مجال الجغرافيا السياسية غير الرومانسي. فقد كان الملك ولا شك قلقاً على مملكة بلانتاجينيه النائية والمتراجعة بعيداً عن قبضته. وفي عقد قرانه، وهب الملك للملكة الجديدة كلّ أراضيه في غسْقونيا تحت نهر الغارون. كانت هذه الناحية من ممتلكاته في جنوب غرب فرنسا ممزّقة بسبب النزاعات ويقيم فيها عدد من النبلاء الجموحين والمستقلّين، ولم يكونوا معجبين بريتشارد أو موالين لأسرة بواتييه. لكن غسْقونيا متاخمة لناڤار. ومعاً كانت المنطقتان تشكّلان وقاءً ضد منطقة تولوز في الشرق، والتي تكنّ تقليدياً وصراحة عدائية لدوق أكيتان. وإذا كانت الجغرافيا السياسية بالفعل تفرض المهمّة، فعليه أن يؤدّيها هنا، في قبرص، قبل أن يصل إلىٰ الديار المقدَّسة، في حضور حبيبه السابق المحب للانتقام، والحسّاس، والماكر، والساخط، فيليب ملك فرنسا. أمّا بالنسبة إلىٰ إنجاب وريث، فالحلوى تثبت جودتها عند الأكل.

في يوم ذلك الحدث المفرح وصلت بقية أسطول ريتشارد إلىٰ ليماسول آتيةً من رودس. ربّما كان ذلك، وأكثر بكثير من زواجه الصوري، هو ما ساهم في رفع معنويات الملك مساهمة كبيرة.



0 km 50
0 miles 30
Fortress قلعة
Battle معركة
البحر المتوسط
Mediterranean Sea
Cape St. Andrea
القنطرة
Kantara
St. Hilarion
كيرينيا
Kyrenia
KYRENIA MOUNTAINS
Buffavento
KARPAS PENINSULA
MESAORIA
Nicosia
نيقوسيا
Famagusta
فاماغوسطا
Tremathousa
جبال ترودوس
TROODOS MOUNTAINS
بافوس
Paphos
Limmassol ليماسول
Kolossi
كولوسي
Cyprus قبرص

II
سلاسل من الفضّة

قبل الزواج بيوم واحد وصل ملك القدس **غي** إلىٰ قبرص ومعه ثلاث سفن. كان آتياً مباشرة من خنادق عكّا، يرافقه بعض وجهاء المملكة اللاتينيّة و160 فارساً. وبالرغم من التحضيرات التي كانت جارية على قدم وساق للزفاف في اليوم التالي، وجد ريتشارد الوقت ليخرج ويرحّب بحليفه ويشرّفه باصطحابه له كندّ إلىٰ مكان إقامته في قلعة ليماسول.

مهما يكن منصبه ملوكياً، يمثّل **غي** صورة مؤسفة: فقد كانت سنواته الأربع الأخيرة قاسية، إذ أسره صلاح الدِّين لمدّة سنة بعد موقعة حطين ثمّ أطلق سراحه في شهر تموز/يوليو 1188م بشرط ألاّ يعود ويوجّه سلاحاً ضدّ المسلمين. ولم يحافظ **غي** على عهده هذا أكثر من سنة واحدة حنث به بعدها وبدأ في تموز/يوليو 1189م حصار عكّا الذي استمرّ حوالي السنتين بلا جدوى. فبقي لا يحظى بالتقدير، ويتلقّى الجزء الأكبر من الملامة على الهزيمة في حطّين، والتحدّي المباشر من أجل منصب القيادة من قبل مركيز صور، كونراد دو مونتفرّا. ولزيادة وضع غي تعقيداً، كانت زوجته سبيلا قد توفّيت الخريف الماضي بسبب وباءٍ انتشر في صفوف المسيحيين، وهكذا ضعفت أكثر مطالبته بالعرش، الذي يأتيه مباشرة عبرها. إذاً جاء الآن يشكو إلىٰ ريتشارد أنّ فيليب ملك فرنسا، وفور وصوله إلىٰ الديار المقدَّسة، تحالف مع خصمه كونراد، ويعمل على إضعاف كلمته في حصار عكّا.

كان الملك المسكين في حاجة إلىٰ من يسانده، وقد زوّده ريتشارد بما يلزم، فقدّم له ألفي مارك من الفضّة (كان المارك يساوي ثلثي الليرة) وعشرين كأساً ثمينة، اثنتان منها من الذهب الخالص. وفي المقابل، أقسم الملك غي على الولاء لريتشارد قائداً له. وفي حين كانت لهذا التحالف فوائده في المدى

القصير، كرّس ذلك انقساماً آخر في المعسكر المسيحي. كان هناك أصلاً التوتّر بين الإسبتارية والداوية، وبين الجيلين المسيحيين الثاني والثالث وكانا يسمّيان المبتدئين ومحدثي النعمة، وبين الملك غي وريمون كونت طرابلس، وبين الإنكليز والفرنسيين، وبين ريتشارد وفيليب. والآن أصبح ريتشارد وغي ضد فيليب وكونراد، ولم يعد هناك من مجال للشروع بمغامرة بطولية لاستعادة الأراضي المقدَّسة. وهذا أكثر ما يسرّ صلاح الدِّين.

في اليوم الذي تلا حفلة الزفاف أتى الإمبراطور إسحٰق متسلّلاً، قاصداً ريتشارد وساعياً للسلام. فرُتّب موعد للقاء بين الملك والإمبراطور في السهل القريب من ليماسول. وقرّر ريتشارد أن يجعل من المناسبة عرضاً حقيقياً. فارتدى أفخر ما لديه من البذلات الملوكية، ورمى بساقيه الطويلتين فوق جواده الإسباني الكبير. كان سرجه يتلألأ بالتوشيات الذهبية، والحصان مكسوّاً بثوب مزركش تثبّته زينة من أسدين صغيرين ومصبوبين من الذهب. كذلك كان مهماز ريتشارد من الذهب الخالص. أما رداؤه الفضفاض فكانورديّ اللون تزيّنه أهلّة من الفضّة. وحول وسطه كان حزامه المنسوج يمسك بسيفه الشهير وقبضته الذهبية. وكان يعتمر قبعة قرمزية واسعة نُسجت عليها أشكال حيوانات وطيور متنوّعة، ويحمل بيده صولجان الحكم. كان يبدو رائعاً.

أوقع المشهد في قلب إسحق الرعب والهيبة، وأقسم على ولائه الدائم. ووعد بمشاركة متواضعة في الحملة بمئة فارس، وأربعمائة من خيّالته، وخمسمائة من مشاته وعرض كلّ قلاعه في قبرص لتكون معاقل للجنود الصليبيين. وكتسوية لسرقته النقود من حطام السفينتين الصليبيين، قدّم ألفي مارك ذهبي، وللضمانة قدّم ابنته ووريثته الوحيدة لريتشارد رهينة. عندها التفت ريتشارد إلىٰ مجلسه وقال: «سادتي، أنتم ذراعي اليمنى. هل يؤذي هذا الصلح كرامتكم، المعرّضة للخطر هنا؟ إن كان يرضيكم فليكن، وليبطل إن بدا لكم مضرّاً». فأجابوا قائلين: «نرى أنّه مفيد يا سيد، بسلام كهذا تُحفظ كرامتنا».

وهكذا كان. وقّع على الهدنة وخُتمت بقبلة السلام، وعاد الملك على حضانه إلىٰ ليماسول في كامل الرضا، بعدما أعاد إلىٰ الإمبراطور الخبيث رايته في بادرة صداقة. وقد رُفعت بطقس احتفالي في المكان الذي شهد مؤتمر السلام، تحت نظرات حرّاس الملك، طبعاً.

غير أنّه في تلك الليلة، وفي جوّ شبيه بأجواء خيانة قبرصية أخرى جرت بعد أربعمائة سنة (ياغو وعطيل)، جاء فارس إلىٰ إسحق وأثار الشكوك حول تطمينات ريتشارد وقال إنّها كاذبة وإنّ الملك الإنكليزي ينوي القبض على الإمبراطور وتقييده بالسلاسل. السلاسل؟ ارتعد إسحق لمجرّد الفكرة. فمنذ سنوات سجنه الأوروبي، بقيت السلاسل تخيفه أكثر من أيّ شيء آخر. أمّا حافز ذلك الواشي، الذي كان من صف فيليب ملك فرنسا ولكن لا يعمل بموجب أوامر، فكان تأخير ريتشارد أكثر وشغله بقتال داخلي في قبرص ليعطي معلّمه، فيليب، فرصةً أكبر للحصول بمفرده على المجد في الديار المقدَّسة بعيداً عن ظل ريتشارد. عندئذٍ غافل إسحق حرّاس الملك النائمين، وامتطى جواده الأصفر وهرب إلىٰ فاماغوستا. ومن هناك أعلم ريتشارد بانقلاب رأيه، وأعلن عداءه، وأقسم على طرد هذا المحتلّ الأجنبي خارج جزيرته.

ربّما كان تغيّر رأي إسحاق بالضبط هو ما كان يتمنّاه ريتشارد. فقد قدّم للملك الإنكليزي ذريعةً إخضاع الجزيرة كلّها لاستغلال ثرواتها. فبفضل موقع قبرص الاستراتيجي قبالة ساحل فلسطين وخصوبة أرضها، كانت هذه الجزيرة القاعدة المثالية للتموّن ولانطلاق الحملة الصليبية. وإذا استحوذ عليها الملك، ستؤمّن له مصدراً دائماً للمؤن على مدى الحملة بكاملها. مسكينة قبرص. أفروديت تُنتهك من جديد. لقد قُدّر للجزيرة أن تكون ضحيّة الآخرين، سلّة خبز الآخرين، حصن الآخرين الاستراتيجي. في النهاية، ومن وجهة نظر المواطنين، ظهر أنّ ريتشارد ليس أفضل من إسحق. وبحسب كلمات الراهب نيوفيتوس، أخرجت العناية الإلهية الكلاب وأحضرت الذئاب مكانها.

كانت مشكلة ريتشارد الآنية ـ أو فرصته ـ مطاردة إسحق والإيقاع به.

لذلك قسّم أسطوله إلىٰ نصفين، وأرسل مجموعة حربية غرباً نحو بافوس وشبه جزيرة أكاما إلىٰ كيرينيا، وأمر باكتساح كلّ السفن التي يمكن إيجادها، بينما أخذ النصف الثاني ناحية آيانابا إلىٰ فاماغوستا. وفي هذه الأثناء سلّم الملك غي قيادة جيشه وأرسله برّاً إلىٰ فاماغوستا. فمنذ سقوط عكّا في يد صلاح الدِّين قبل أربع سنوات أصبحت فاماغوستا، على ساحل قبرص الشرقي، مرفأ كبيراً وسوقاً تجارياً مهمّاً شرق البحر المتوسّط. كما استقرّ فيها الكثيرون من مواطني عكّا. كانت قلعتها ومدينتها المسوّرة تواجهان البحر، وبعد عدّة قرون صار برج تلك القلعة يُعرف باسم «برج عطيل». كان ثغرها أفضل ثغور الجزيرة، وشوارعها الضيقة تعجّ بتجّار وبضائع القارات الثلاث. لقد أصاب إسحق في هربه وسط تلك الفوضى العارمة.

لكن رؤية سفن ريتشارد تصل بهذه السرعة إلىٰ الميناء بعد وصول إسحق بقليل أوقعت الوجل في قلبه. فهرب من فاماغوستا إلىٰ سهل الجزيرة الكبير، ميزاوريا، وهو محيط واسع من العشب تتخلّله أشجار زيتون وتقصده النمور والسراب. وترتفع خلف هذا الامتداد المحيّر القمم المستدقّة لسلسلة جبال كيرينيا الشمالية، التي تنتصب في أعاليها قلاع إسحق الضخمة بوفافنتو Buffavento، وديودامور Dieudamour، وكانتارا Kantara.

قبل أن يدخل ميزاوريا Misaoria، تباطأ ريتشارد في فاماغوستا. فقد وصل رسل من عكّا وجاءوا لزيارته وإعاقته هناك. إذ أرسل إليه الملك فيليب أسقف بوفي Beauvais المحنّك وكبير موظّفيه لمعرفة سبب تأخّر ريتشارد المكلّف عن الذهاب لإنقاذ الأراضي المقدّسة. كان فيليب قد بنى آلات حصاره وانتظر متأهّباً، يدير إبهاماً حول الآخر. لم يشأ أن يبدأ هجومه على عكّا قبل وصول ريتشارد. أين هو حليفه؟ تميّز اللقاء بجوّ من التوتّر، ومال السفيران إلىٰ اتّهام ريتشارد بالكسل وعدم الانتظام. فما شأن قبرص بحملتهم الصليبية؟ يبدو

أن أفكار الملك تشتّتت فضلّ سبيله. لِمَ لم يبقَ ريتشارد مركّزاً على السبب الأساسي لمجيئه إلىٰ الشرق؟ وقال الشاعر إنّه «قيل كلام لا يليق به أن يُذكر أَو يُكتب هنا». لقد بذل ريتشارد كلّ جهده ليحافظ على هدوئه تجاه هذا التشهير، الذي لم يمنعه من الإصرار على تحقيق مطلبه. كان يجب إخضاع شرير قبرص. وأكثر من ذلك، كان ريتشارد يريد حصان الإمبراطور الجميل.

في نيقوسيا في تلك الأثناء، كان إسحاق يجمع كلّ الجنود الذين يستطيع حشدهم. وكانت مهمّته عسيرة، نظراً لكون الكثيرين انضمّوا إلىٰ ريتشارد. وحتّى في داخل حرسه، كان يواجه التحدّي. ذات ليلة عند العشاء في نيقوسيا قال له أحد نبلائه: «سيدي، ننصحكَ بأن تعقد الصلح مع ملك إنكلترا، وإلاّ ستدمَّر مملكتكَ بكاملها». عندما قدّم المنشق هذه الملاحظة الجريئة، صدف أنّ إسحق كان يحمل سكّيناً، على وشك أن يقطع به شريحة من اللحم أمامه. لكن بدل أن يهجم الإمبراطور على شريحته، هاجم النبيل وقطع أنفه.

مضى إسحق بسبعمائة رجل تقريباً إلىٰ خارج نيقوسيا نحو السهل وواجه قوات ريتشارد في مكان يسمّى تريماتوسا. فجرت معركة سريعة وضارية هناك، لكن المستوى كان متفاوتاً جدّاً. كلّ ما يستحقّ الذكر من تلك الواقعة محاولة إسحق إطلاق سهام مسمّمة على ريتشارد. لقد أراد إسحق أن يضرب ويهرب، لكنه أخفق، والآن عليه أن يفرّ بأقصى سرعته إلىٰ مرتفعات بوفافنتو على حصانه الرشيق، لأنّ ريتشارد كان غاضباً فعلاً.

بينما كان إسحق يراجع مصيره، بدا المشهد من بوفافنتو ملفتاً، كان اسم قلعته على قمّة ذلك الجبل مناسباً جدّاً، حيث كانت أسوار ذلك المعقل متشبّثة بالجرف الصخري على القمة الثانية من حيث العلو في السلسلة الشمالية، وكانت الرياح تضرب جدرانه والسحاب يلفّها. عندما انقشعت الغيوم، نظر إسحق صوب الجنوب فوق ميزاوريا حتّى نيقوسيا، التي أصبحت الآن في قبضة ريتشارد، ورأى صفوف قوات الملك تشقّ طريقها نحوه. وإلىٰ الشمال، نظر

إلىٰ البحر المتوسّط في زرقته وإلىٰ ثغر كيرينيا الصغير، الذي ملك فيه أجمل قلاعه. الآن تحيط به قوادس ريتشارد، ولم تعد للسلسلة الكبيرة عند مدخله أي جدوى. هناك كانت ابنته، التي سرعان ما أدركت عبث مقاومة هذه القوة الكاسحة، وركعت على ركبتيها أمام الملك غي. وأثّر هذا المشهد في نفس الملك، ربّما لأنّ ابنة إسحق كانت على قدر من الجمال. فأرسلها إلىٰ خارج ليماسول لتصبح وصيفة الملكة بيرنغاريا.

بعدما وقعت قلعة كيرينيا في يد الملك غي، قسم قواته لمهاجمة القلاع الموجودة في الأعلى. وعندماشاهد إسحق الجنود يلتقون في بوفافنتو، غادرها إلىٰ ديودامور، حصنه الذي سُمّي على اسم كيوبيد إلٰه الحب وغالباً ما ربط بينه وبين أسطورة الحسناء النائمة. الآن لن ينجده الحبّ ولا الأسطورة، ولو أنّ حصن ديودامور كان يُعتبر مستعصياً على الاختراق. لقد أغرق جنوده أنفسهم في شرب الخمر وهم يشاهدون عساكر ريتشارد يصعدون الجبل. فترك الإمبراطور حرّاسه في ثمالتهم وتحرّك شرقاً بمحاذاة الحرف الجبلي إلىٰ قلعته الأخيرة، كانتارا، حصن المائة غرفة. لكن وضعه كان ميؤوساً منه، وجنوده بلا معنويات، وخصمه في عزم وإصرار. لقد حُشر أخيراً عند طرف شبه جزيرة كارباس، ذيل الثور الذي يشير نحو الديار المقدّسة والذي يباركه وجود دير القديس أندراوس.

في رأس القديس أندراوس، المكان الذي دخل عبره الرسول نفسه إلىٰ قبرص لأوّل مرّة، تمّ القبض على إسحق كومنينوس، فصادر ريتشارد على الفور حصان أسيره الرائع، الذي أسماه فوڤيل، في تحريف للكلمة اللاتينيّة «فولفوس fulvus»، بسبب لون الجواد الأصفر الزاهي. خرّ الإمبراطور على الأرض أمام الملك الإنكليزي وتوسّل إليه، قبل أيّ شيء، ألاّ يقيّده بسلاسل حديدية. لقد أصبح خوفه من السلاسل مرضياً. لذلك أوصى ريتشارد بصنع سلاسل من الفضّة. وعندما قيّد بها الإمبراطور، وضع على سفينة أبحرت به

إلىٰ قلعة المرقب الإسبتارية المظلمة والموحشة على الساحل السوري.

كان آخر إمبراطور بيزنطي حكم قبرص.

بعدما تخلّص الملك الصليبي الكبير من هذه المشكلة المزعجة، صار بإمكانه أن يحوّل انتباهه إلىٰ القضية الأساسية. كانت الأرض الموعودة تومىء إليه وتلتمس مساعدته. وكذلك عكّا، المدينة المعذّبة. كانت المقصد الأوّل والهدف الأوّل لهذه الحملة المقدّسة والمجيدة. وقد كتب كبير مؤرّخي الحملة الصليبية الثالثة يقول: «إن كانت حرب عشر سنوات شهرت مدينة طروادة، وإن كان انتصار المسيحيين عرّف أنطاكية إلىٰ العالم، فإنّ عكّا ولا شك ستنال شهرة أبدية كمدينة تنافس عليها العالم بأسره».

عكّا! بوّابة الأراضي المقدّسة. الاسم وحده كان يملأ بالحماس صدور أفراد الجيش المسيحي.

القسم الثاني

المبارزة

إذا أتى الملك، فعندي إيمان بالله
بأنّي سأعيش
أَو بأنّي سأقطّع إرباً؛
وإذا عشت، سيكون هذا حظّاً وافراً لي؛
وإذا متّ، خلاصاً عظيماً.

برتران دو بورن، شاعر غنائي

الفصل الثامن عشر

الاختبار المقدَّس

أخيراً صعد الجنود المسيحيون على متن سفنهم الحربية في قبرص ليباشروا مهمّتهم الحقيقية ضدّ الوثنيين، المهمّة التي من أجلها قدّموا حياتهم، وممتلكاتهم، وشرفهم. أقلعوا وحناجرهم تعلو بالغناء بينما الأبواق تُنفخ والزمامير تصدح بنغماتها العالية. «تركتُ الشرّ ورائي وتحوّلتُ إلىٰ حياة كريمة وأريد أن يسمع الناس أغنيتي»، هذا ما كانت تقوله أغنية صليبية حماسية عنوانها «Parti de mal»، ابتعدتُ عن الشر. «نادانا الرب في حاجته إلينا ولن يخذله امرؤ كريم النفس. لقد تواضع ومات على الصليب من أجلنا؛ والصحيح أنّه يجب أن ينال مكافأته؛ فبموته كلّنا افتُدينا». ولكن كان هناك خوف على قدر الفرح. فقلّة هم الصليبيون الذين يعودون من تلك الأراضي الوحشية، حيث العرب غدّارون والمخاطر عظيمة. «أغنّي لأريح قلبي»، كانت أغنية أخرى تقول، حول هذه الحملة الصليبية الملحمية ما وراء البحار: «لأنّي لا أريد أن أموت أو أجنّ بالرغم من اضطرابي الكبير. يا رب! عندما يصرخون «ما وراء البحار Outremer»، ساعد هذا الحاج لأنّي أرتجف».

وكان هدفهم الأوّل أن يساعدوا في حصار عكّا.

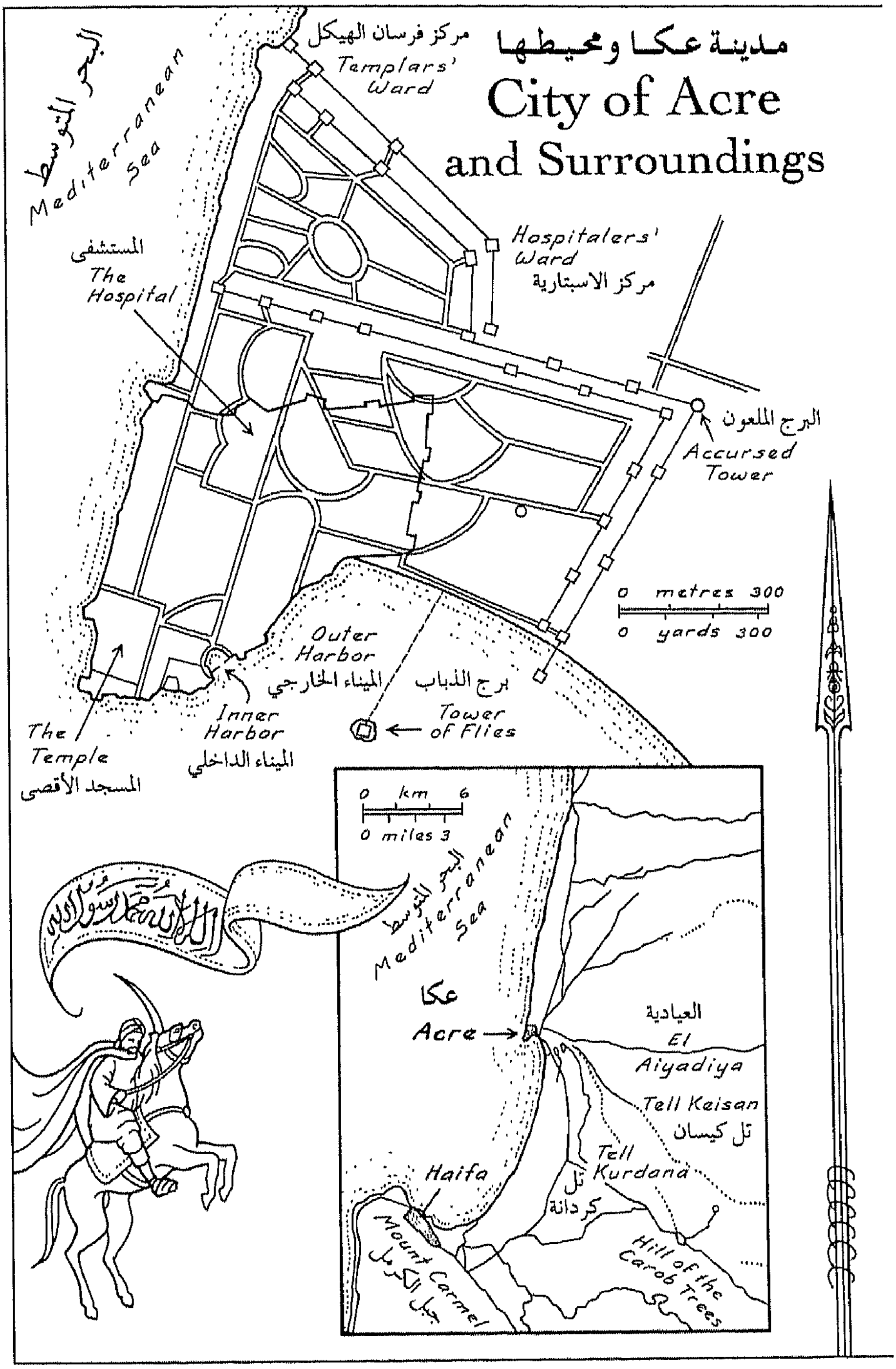
في أيام أسعد عاشتها المملكة اللاتينيّة، كانت عكّا المرفأ الفلسطيني الرئيسي، والنقطة التقليدية التي ينزل فيها حجّاج أوروبا المسيحيون، والسوق التجاري الكبير شرق المتوسّط. كان المرفأ يقع في أرض على شكل عقيفة عند الطرف الشمالي لخليج عكّا تجاه حيفا عبر المياه، والتي تقع على مسافة ثمانية أميال، عند طرف الخليج الجنوبي. وكان الخط الساحلي بين المدينتين عبارة عن صفّ عريض من الكثبان والرمال الناعمة، من نوع الرمل الذي كان يقدّره الصاغة الفرس لعملهم. من ميناء عكّا كان المؤمنون يسافرون برّاً ليس إلىٰ القدس وحسب بل أيضاً إلىٰ الناصرة والجليل وحتّى إلىٰ أماكن بعيدة مثل ضريح سيدة صيدنايا. هذا المكان المقدّس الذي لا يبعد أكثر من خمسة وعشرين ميلاً عن عرين الكفّار، دمشق، ولذا كان السفر محفوفاً بالمخاطر ويجب القيام به برفقة مواكبة من فرسان الداوية الشجعان.

لكن الزيارة كانت تعود بفائدة كبيرة. يقال إنّ الضريح تأسّس سنة 546 بعد الميلاد عندما كان جوستينيان الأوّل، إمبراطور بيزنطية، في حرب مع فرس المنطقة وقد أخذ فترة راحة من القتال خصّصها للصيد. كان يطارد غزالة، يبدو عليها التعب، وأدركها الإمبراطور قرب صخرة بجانب بحيرة صغيرة. وعندما شدّ المحارب وتر قوسه ليقتلها، تحوّلت الغزالة إلىٰ أيقونة تمثّل السيدة العذراء مريم، ومن هذه الأيقونة امتدّت يد بيضاء معترضة. وسمع الإمبراطور صوتاً رنّاناً يقول له: «لا لن تقتلني يا جوستينيان، إنّما ستبني لي كنيسة على هذه التلّة». وهكذا فعل. وأصبحت الكنيسة ديراً تلوح قببه وأبراجه المدهشة عالياً فوق تلك المنطقة الصحراوية. وفي الداخل كانت توجد أيقونة، رسمها القدّيس لوقا نفسه، كان يعتقد أنّ لديها قوى عجائبية. كما قيل إنّه نما لحم للأيقونة من العنق حتّى البطن، وإنّه كان يرشح من الصدر زيت له رائحة أعذب من البلسم الذي يشفي من كلّ داء. وهكذا في السنوات التي سبقت سقوط عكّا في يد صلاح الدّين سنة 1187م، كانت تنطلق فرق صغيرة من المرضى والمقعدين من

المرفأ مع حرّاس من الداوية، خصوصاً في منتصف آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر للاحتفال بيومي الصعود ومولد السيدة العذراء مريم، ويتحدّون طريق الرحلة الطويلة والخطرة عبر التلال وفي بادية الشام سعياً وراء بضع قطرات من ذلك الزيت العجيب والشفاء المبارك.

كانت عكّا بالنسبة إلىٰ إنسان عاش في القرون الوسطى حاضرة كبيرة تقارن ثروتها بثروة القسطنطينية. وفي القدم، كانت مدينة الفينيقيين الجنوبية، ثمّ أصبحت مدينة متعدّدة اللغات والأديان والأجناس تلتقي عندها القارّات الثلاث، فيختلط فيها باعة من البندقية ومرسيليا بتجّار من شمال أفريقيا واليمن، وتتلامس أكتاف اليهود والأرمن بأكتاف نسطوريين من الموصل وأئمّة من بغداد. كما يندسّ في ظلالها أحياناً حشّاشون من مصيف ومن الكهف. أمّا شارعها الرئيسي، شارع القصّابين Rue de la Boucherie، فيمتدّ من السور الخارجي إلىٰ الميناء وكان يومها بيئةً صاخبة، تعبق بالروائح والفوضى، وتعجّ بالناس والحركة.

كانت عكّا مدينة تقية المزاعم ودنيوية الميول. تعيش نخبتها الثرية في أبّهة القصور الواسعة ورفاهيتها. ويشجب رئيس أساقفتها فساد هذه الطبقة الميسورة وعنفها. كان معدّل الجريمة في المدينة مرتفعاً والملفت هو عدد الزوجات الراقيات المولد اللواتي كنّ يسمّمن أزواجهن. أمّا تجارة الرقيق الأبيض فكانت مركّزة في مواخيرها العديدة، التي كانت تتضمّن أيضاً بيوتاً يؤجّرها رهبان للمومسات. ويشكو زوّارها المسلمين من رؤية مسلمات مقيّدات بالسلاسل، ويزجرون الغواني الأوروبيات اللواتي «جعلن من أنفسهن أهدافاً لسهام الرجال، وأفسحن في المجال لأعمال الحرام، وقدّمن أنفسهن لضربات الرماح، وأذللن أنفسهن لعشاقهن». كان المسلمون يكرهون خنازير المدينة وصلبانها ويأسفون على مساجدها التي تحوّلت إلىٰ كنائس ومآذنها التي صارت أبراجاً للأجراس. وحده محراب مسجد الجمعة الكبير، الذي يسمّى الآن كنيسة القديس يوحنا، تُرك كملجأ للمؤمنين بدين الإسلام.


مدينة عكا ومحيطها
City of Acre
and Surroundings
البحر المتوسط
Mediterranean Sea
مركز فرسان الهيكل
Templars' Ward
Hospitalers' Ward
مركز الاسبتارية
المستشفى
The Hospital
البرج الملعون
Accursed Tower
0 metres 300
0 yards 300
Outer Harbor
الميناء الخارجي
برج الذباب
Tower of Flies
Inner Harbor
الميناء الداخلي
The Temple
المسجد الأقصى
0 km 6
0 miles 3
البحر المتوسط
Mediterranean Sea
عكا
Acre
العيادية
El Aiyadiya
Tell Keisan
تل كيسان
Tell Kurdana
تل كردانة
Haifa
Mount Carmel
جبل الكرمل
Hill of the Carob Trees

كان يمكن لعكّا أن تكون قاسية القلب وعنيفة، لكنّها كانت أيضاً حنونة. فقد كُرّس «شارعها الإنكليزي» للاعتناء بالحجّاج الفقراء وأقيم فيه مأوى باسم توماس آ. بيكيت. كما استلم الإسبتاريون أكبر مستشفى ونزل في كلّ الشرق الأوسط، إذ كان بمثابة مدينة تحت الأرض فيها غرف محترمة معقودة الأسقف وأسرّة تستقبل ألفي مريض وعاص تائب. عند البوّابة الشمالية وقبالة السهل حيث يلتقي السور الشمالي بالبحر، كان فرسان الداوية يقيمون حامية كبيرة لهم، وهناك كان يقوم المرء بترتيباته للحصول على حرّاس من الرهبان المقاتلين يرافقه عبر الجبال والصحراء إلى صيدنايا أَو نزولاً إلى القدس.

والمدينة على شكل ترس مثلّث، اثنان من جوانبها يواجهان البحر، بينما كان يحمي حدّها الشرقي البرّي سور مزدوج، وخنادق وحصون أمامية مختلفة، وأبراج تقع على مرمى حجر. ومثل صور، كانت تملك ميناء داخلياً ترتفع أمام ثغره أَو تهبط سلسلة حديدية فتفتحه أَو تغلقه. ويحمي المدخل عند طرف مكسر الموج، برج حجري يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً، ويُعرف باسم برج الذباب. هذا الاسم الذي نُسب إلى بعلزبوب، أَو صاحب الذباب، إذا اعتمدنا التفسير البريء. إذ يقال أيضاً إنّ الصخرة التي أنشىء عليها كانت مكاناً للتضحية في الأزمنة القديمة، وإنّ دماء الضحايا كانت تجذب عواصف من الذباب الأزرق. ومن سطوح مباني المدينة، لم يكن غريباً أن يرى من ينظر صوب البحر نحو ثمانين سفينة، راسية في الميناء أَو تنتظر خارجه. تعيد هذه الغابة من الصواري والأشرعة المصفّقة والعوارض الخشبية إلى ذهن الزائر المسلم عبارة من القرآن الكريم حول سفن «رواسي شامخات»، أعمال عظيمة من صنع الإنسان ولكن أمكن وجودها بنعمة الله وحده.

عندما استحوذ صلاح الدِّين على المدينة سنة 1187م، أعاد مسجد الجمعة فيها وضريح النبي صالح عليه السلام إلى سابق مجدهما ثمّ حوّل انتباهه إلى وسائل الدفاع عن المدينة. كانت أضعف النقاط الأسوار المتضرّرة تجاه

سهل عكّا، والأكثر تعرّضاً فيها نتوء عند الركن الشمالي الشرقي. وحيث يلتقي الجداران في زاوية بارزة أقيم عليها برج عال. كان المسيحيون يدعون هذا البرج «البرج الملعون» ـ توريس ماليديكتا ـ لأنّه قيل إنّ قطع يهوذا الأسخريوطي الثلاثين الفضية سكّت فيه.

عند وصول الملك غي أمام أسوار عكّا في آب/ أغسطس 1189م، أقامت القوات المسيحية مراكز قيادتها على تلّة رملية، ترتفع تسعين قدماً، إلىٰ شرق بوابة المدينة. وقد سمّوا هذا الموقع لو تورون Le Toron، أمّا المسلمون فكانوا يعرفونه باسم تل المصلّين. من هناك انتشرت الكتائب المسيحية، وأقامت آلات حصارها على طول الجانب الشمالي وركّزت ضرباتها حول البرج الملعون. كما حفروا في عنق شبه الجزيرة التي تربض عكّا عليها، خندقاً كبيراً يحمون به خطوط حصارهم من اعتداءات خارجية محتملة.

أمّا صلاح الدّين، بالمقابل، فقد تحرّك إلىٰ المنطقة على مهل من الجهة الجنوبية الشرقية، على طول الطريق القديمة الآتية من الناصرة. فأقام في البداية موقعاً متقدّماً على تلّة تعرف باسم العياضية، لكنه سحب قاعدته فيما بعد إلىٰ تلّة أعلى وأبعد، ترتفع مئتين وخمسين قدماً، شرق جبل الكرمل، وتعرف باسم جبل الخروبة. من هناك كان بإمكانه أن يشرف على ساحة معركة واسعة، ويرى الشق الطولي عند عنق شبه الجزيرة. وتدريجياً، نشر مختلف فرقه نحو الأمام إلىٰ مواقع قريبة من روابي العياضية الصغيرة، مثل تل كيسان وتل كردانة.

مع بداية سنة 1191م، تداخل الحصاران. أصبحت عكّا معزولة تماماً وراحت تختنق على مهل. وإضافة إلىٰ محاصرةٍ بحريةٍ فعّالة، امتدّ خط الخندق المسيحي على مسافة ميلين عند عنق الأرض الذي يؤدّي إلىٰ المدينة، ومنع أيّ وصول إليها. لكن المسيحيين أنفسهم كانوا أيضاً محاصرين، يحيط بهم قوس دائرة طوله أكثر من ثلاثة أميال أقامه صلاح الدّين في التلال المجاورة.

مضى شتاءان والقوات الصليبية معسكرة عند أسوار عكّا، تواجه هي أيضاً

صعوبة في الحصول على مؤن لمتابعة جهودها. حتّى أنّه ذُبحت عدّة جياد قتالية للأكل، بالرغم من أنّه لم يكن من السهل إيجاد جياد بديلة. وأصبح الحصان الميت أكثر قيمة من حصان حي. وعند ذبح أحد الخيول، كان يجتمع عليه الجنود كالنسور. حين رأى قسيس هذا المشهد دار بخاطره ذكر هذه الكلمات من الإنجيل: «حيث تكون الجثة، هناك تجتمع النسور» [لوقا 17: 37]. كذلك بدأ الاستغلال ينتشر، فأصبح بنس الفضّة لا يشتري أكثر من ثلاث عشرة حبّة فاصوليا أو بيضة واحدة، والمائة بيزنط ذهبي لا يشتري أكثر من كيس واحد من الذرة، والعشر صلديات أكثر من أمعاء حصان. وفي حين أنّه في أيام السلم كان مكيال القمح بنصف بيزنط، صار يباع بستين بيزنطاً. وبسبب هذه الأسعار تحوّل العساكر إلىٰ أكل العشب.

وللتواصل مع مواطنيه المحَاصَرين عَبَرَ فوق الخنادق المسيحية، كان على صلاح الدِّين أن يعتمد على الطيور والسبّاحين. كان هناك جندي مسلم درّب فرقة من الحمام الزاجل على حمل الرسائل والعودة بها وشيّد بيت حمام واسعاً من القصب لرسله في مكان غير بعيد عن خيمة صلاح الدِّين. وأصبحت هذه الطيور من أبطال القضية المشهود لهم وأُثني عليها لاحقاً لإخلاصها في خدمتها. كتب أحد المؤرّخين العرب يقول: «كانت تلك الطيور وفيّة تحفظ الأسرار، وتضمن وصول الأخبار، وعَمل الرسائل، وقد أظهرت أنّها مخلوقات كريمة مثل أفضل النبلاء. كانت تتحدّى الأخطار، ولا ترتكب أيّ خطأ، وتُقدَّر باعتبارها ممتلكات ثمينة».

وكان السبّاحون الذين عرّضوا أنفسهم لمخاطر البحر ومراقبة العدو للوصول إلىٰ المدينة اليائسة وتسليم جنود الحامية رواتبهم، هم الأكثر بطولة. لقد كان هناك سبّاح مميّز، يقدّره الجنود المسلمون، اسمه عيسى، أصبح ماهراً في حمل مال الحامية عبر مياه البحر في حزام حريري يعقده إلىٰ خصره، ويغوص غالباً تحت السفن المسيحية. وكان دائماً يطلق حمامة إلىٰ جبل

الخروبة ليخبر بوصوله آمناً إلىٰ المدينة. ولمّا لم تصل أيّ إشارة ذات ليلة، توجّس مواطنوه وخافوا. وبعد عدّة أيام، برزت جثته عند الصخور ليس بعيداً عن البلدة. كان المال لا يزال عالقاً في حزامه فسُلّم إلىٰ أصحابه الشرعيين. وقد كتب المؤرّخ يقول[1]: «ما رُئي من أدّى الأمانة في حال حياته، وقد أدّاها بعد وفاته إلاّ هذا الرجل».

وإذا كان الحمام والسبّاحون وأحياناً المغاوير في مراكب شراعية صغيرة هم أبطال الطرف المسلم، فإنّ الأخبار التي كانوا ينقلونها من المدينة إلىٰ السلطان في شتائهم الثاني أخذت تزداد تجهّماً. فالجوع راح يزحف إلىٰ عكّا التي بدأت تفقد رباطة جأشها. وصلاح الدّين نفسه بدأ ييأس من فكّ الحصار، لا سيّما أنّ القوات المسيحية كانت تزداد كلّ يوم عدداً ومنعةً بجنود وافدين حديثاً من أوروبا. والجدير بالذكر أنّ ألوية الطليعة من الدانمركيين، والساكسون، والفلمنكيين تبعها وصول هنري دو شامباني، حفيد إليانور أوف أكيتان ابن إحدى بناتها من زواجها من الملك الفرنسي. كانت لدى هذا الفارس الشاب ثقة الملكين الفرنسي والإنكليزي اللذين كانا عمّيه بينما كان هو طليقهما.

بحضوره وبصفته طليعة الملك، نظّم شمبانيْ لعملية الحصار المسيحية إدارة شاملة ومركزية، بعد أن كانت حتّى ذلك الحين تعتمد على عناصر شجعان ولكن متنافسين، أنجزوا بدورهم هجماتٍ شجاعة ولكن عشوائية على الأسوار. أمّا أبناء بيزا وجنوى المتخصّصون في المعارك البحرية، فقد انتشروا في الشمال والجنوب حيث يلتقي السور بالبحر؛ وبينهم كان هناك الإسبتارية والداوية، وأجناد الملك غي وكونراد دو مونتفرّا، وفلمنكيون، ودانماركيون، وألمان. أخيراً أصبح هذا الخليط بإمرة قائد أعلى.

(1) سيرة ابن شدّاد، مرجع سابق، ص 136.

أحضر شامباني معه عشرة آلاف جندي، وعدداً من النبلاء ورجال الدين المهمّين ـ بمن فيهم رئيس أساقفة كنتربري (الذي سيموت بعد عدّة شهور، ممتعضاً، كما زُعم، من الطريقة التي أغرق فيها الجيش الصليبي نفسه في الخمر، والنساء، ولعب النرد) ـ ومجموعة من السفن لمساندة الحصار وتموين الجيش المحاصِر، وعدداً من آلات الحصار. وسرعان ما وُضعت هذه المنجنيقات في أمكنتها وبدأت الضرب بلا هوادة.

في السنة الثانية من الحصار كانت هناك أيضاً أعمال بطولية لدى الجانب المسلم. كان المغيرون المسلمون يتسلّلون أحياناً في الليل ويضرمون النار في واحدة من تلك الآلات الكبيرة، أو يرمون، إن حالفهم الحظ، علبة من النار اليونانية، نابالم القرن الثاني عشر، التي كانت تشتعل حتّى عبر الفولاذ ولا يمكن إطفاؤها إلاّ بكمّيات هائلة من الخل. كانوا يرمونها من فوق السور على المهاجمين فتصل إلىٰ هدفها.

أمّا أشهر تلك الأعمال الشجاعة فكانت حيلةً لإدخال سفينة شحن آتية من بيروت، محمّلة بالميتة والغنم والجبن والبصل وأطعمة أخرى، وخرق الحصار المسيحي المحكم.

من أجل هذه المهمّة الجريئة لبست مجموعة من المغاوير المسلمين ملبس الفرنج، حتّى حلقوا لحاهم، وفي هذا أقصى المذلّة ونكران الذات في عمل منبثق أساساً عن منتهى التفاني. إذ كانت اللحية الطويلة والمتدلّية سمة الرجل الشرقي، بينما كان منظر الرجال الأوروبيين بوجوههم الحليقة مثل وجوه الأشباح يبعث في الشرق الخوف في النفوس. وكما لو أنّ الوجوه النظيفة لا تكفي، علّق المغاوير صلباناً على سارية السفينة وسمحوا لأكثر الحيوانات قذارة، الخنزير، بالتنقّل بحريّة على سطحها وتلويثه. فمرّ قادس مسيحي بمحاذاة السفينة المتنكّرة، وصرخ قبطانها: «نراكم متوجّهين إلىٰ عكّا!» وتظاهر المسلمون بالدهشة وسألوا: «ألم تستولوا على المدينة؟» وأجاب الفرنج: «لا

لم نأخذ البلد بعد». قال المسلمون: «حسناً سوف نرسو إذن بمحاذاة العسكر، ولكن هناك سفينة أخرى وراءنا، وينبغي تحذيرها في الحال كي لا تتوجّه إلىٰ الميناء».

وانطلت الحيلة على المحاصِرين المسيحيين الذين توجّهوا إلىٰ السفينة الأخرى، التي كانت تلوح عند الأفق، في حين أقلعت السفينة المنقذة بكل ما لديها من أشرعة إلىٰ ميناء عكّا حيث استُقبلت بالتهليل لأنّ المجاعة كانت تسود المدينة[1].

بعد تلك الحادثة بفترة قصيرة، وربّما في سورة غضبها من وقوعها في ذلك الفخّ، قرّرت القيادة المسيحية مهاجمة برج الذباب نفسه. كان هذا البريج النحيل عند مدخل الميناء يقف كصرح يمجّد صمود المدينة؛ وسيكون لتدمير رمز بارز مثله بالغ الأثر. رست هذه المهمّة على البحّارة أبناء بيزا الإيطالية الذين كانوا أشرس المقاتلين في البحر وأوسعهم خبرة. ولإتمام هذا العمل شيّد الإيطاليون المهرة قلعة خشبية ضخمة على متن أحد قوادسهم، وغطّوا جوانبها بجلود حيوانات منقوعة في الماء، وملأوا سطحها بحزم من القضبان خطّطوا لإشعالها عندما تقترب السفينة وقذفها من نوافذ البرج. وكانت هناك سفينة ثانية، منخفضة البدن، فخّخوها بنابالم القرون الوسطى ومحروقات أخرى؛ وكان المقرّر لهذه السفينة الطربيد أن تُحرق وتُطلق عبر ثغر الميناء وإلىٰ الأسطول المسلم في داخله. كذلك شُيّدت على ظهر سفينة ثالثة سقيفة لحماية مجموعة من قوات الهجوم المجتمعة تحتها من مقذوفات المدافعين فوقها، إلىٰ أن يقترب هؤلاء البحارة من مكسر الموج ويقفزون فوق صخوره، ومن ثمّ يمدّون سلالم طويلة تصل إلىٰ أعلى البرج فيتسلّقونها نحوه.

بقدر ما كانت الخطّة جريئة وذكية، جاءت النتيجة مخيبة للآمال. فقد

(1) ابن شدّاد، مرجع سابق، ص 135.

أُحرقت سفينة الحطب كما كان مقرّراً، ولكن عندما اقتربت هي والسفينة التي تحمل القلعة من برج الذباب، غيّرت الريح اتجاهها وبدأت السفينتان تنساقان بعيداً. وعندما حاول المهاجمون يائسين الإمساكَ بالسفينة ثقيلة الرأس عند مكسر الموج، أمطرهم المدافعون عن البرج بوابل من النيران اليونانية، ثمّ أخذت السفينة بالاشتعال. غير أنّ بعض أبناء بيزا تمكنوا من الوصول إلىٰ المكسر. وبينما هم يسندون سلالمهم إلىٰ البرج، انهالت عليهم حزم كبيرة وكميات من النيران اليونانية من علٍ، واضطرتهم إلىٰ الانسحاب. في هذه الأثناء، شاهد البحّارة ما حلّ بزملائهم من كارثة، ووقعوا في حيرة من أمرهم وضياع، وقبض عليهم عدوّهم من دون كبير عناء. عندما انتهت هذه المعركة البحرية المأسوية، ارتفعت جلبة من صفوف المدافعين وعلت أصوات الصنوج وأنغام المزامير. وبالطبع عزوا ذلك الانتصار إلىٰ مؤازرة الله عزّ وجل.

كتب المؤرخ العربي الكبير بهاء الدين يقول: « . . وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى، وأندر العجائب في نُصرة دين الله، ولله الحمد، وكان يوماً مشهوداً»[1].

بالنسبة إلىٰ الجانب المسلم كانت لحظات النصر تلك قليلة. فكلّ مرة كان يصل فيها مركب إليهم أو يدمّرون منجنيقاً فرنجياً أو يصدُّون هجوماً مسيحياً، كان المزيد من السفن المسيحية يظهر من البحر وعلى متونها قوات جديدة، ومؤن جديدة والمزيد من سلاح المدفعية. ومع اشتداد الحصار المسيحي، وجد صلاح الدّين نفسه مضطراً إلىٰ سحب فرقه من مواقعها المتقدّمة، فلم يترك غير ألف جندي على تل كيسان. ومع هذا التراجع اتّسعت الدائرة المحيطة بالمحاصِرين المسيحيين، ويظهر أنّ السلطان كان يأمل من هذه الفسحة أن تدفع المتهوّرين من المعسكر المسيحي إلىٰ القيام بمزيد من الأعمال

(1) ابن شدّاد، ص 138 - 139. واسم البرج عنده: برج الذبان، أما السفينة فاسمها بطسة. وقارن بمفرّج الكروب 2/ 335 - 336.

الطائشة. لكنّه كان أملاً بلا طائل، وقدّر صلاح الدِّين أنّ قادةً أكفّاء أمسكوا بزمام الأمور.

خلال مأزق السنة الثانية من الحصار كان من الطبيعي أن تحصل مناوشات وأعمال شجاعة فردية من الطرفين، لكن الوضع عموماً استقرّ على رتابة ثقيلة بين العناصر المتقاتلة. وبينما كان دخان نيران الجنود المسيحيين ينبعث فوق المدينة المحاصَرة أو شرقاً فوق خيام محاصِريهم، كانوا يمضون الوقت في أخبار قصص معاركهم البطولية وتجميلها. والكثير من هذه الحكايات التي وصلت إلينا، كانت مثل قصص العساكر في كلّ زمان، قصصاً بذيئة. منها مثلاً حكاية المسيحي الذي يهاجمه مسلم يمتطي جواداً وبينما هو يدافع عن نفسه ببطولة أوقع عدوّه الشرير بضربة حجر على رأسه. وحكاية الجندي المسلم الذي كان يبوّل على صليب في أعالي سور عكّا، فتلقّى سهماً مباشراً في قلبه. وحكاية الأمير المسلم الشجاع الذي بقي في الخلف لمحاربة المسيحيين بعد تراجع جنوده، فأوقع عن ظهر جواده بينما كان يحمل وعاء من النار اليونانية انكسر خلال سقوطه واندلقت النار على أعضائه التناسلية فكان «ما نوى أن يفعله لإيذائنا وبالاً عليه».

هناك أيضاً قصّة رجلين الأوّل تركي من بارثيا والثاني من مقاطعة ويلز البريطانية، التقيا في أرض مقفرة.

تكلّم التركي المقدام أولاً فقال: «أرى أنّكَ رامي سهام ماهر. أنا مواطن من بارثيا، نشأتُ منذ طفولتي على فن الرماية، واسمي غراماهير. لي سمعة ذائعة في قومي حول أعمالي المشهورة وانتصاراتي. من أيّ بلد أنت؟ وبأيّ اسمٍ أُناديك؟».

فأجاب ابن ويلز، بمقتضى عاداته وشخصيته الويلزية، بجفاف واقتضاب من دون أي زيادة.

عندئذٍ قال التركي الثرثار: «لنر من الرامي الأفضل بيننا، فيأخذ كلّ منّا

سهماً ويسدّده بقوسه إلىٰ الآخر. قف أوّلاً في مكانك ساكناً لأسدّد سهمي إليك. وبعد ذلك ترميني بالطريقة ذاتها».

ويبدو أنّ الويلزي كان على شيء من البساطة، ووافق على هذا الاقتراح. حضّر التركي سهمه، وباعد ما بين رجليه، وعاين، وأطلق، وأخفق. عندئذٍ حضّر الويلزي المسرور دوره في الرمي. فاعترض التركي وقال: «لا، لست موافقاً. ستتلقّى محاولة ثانية منّي ثمّ ترميني مرّتين». فعلا غضب الويلزي وصرخ يقول: «أنتَ لا تلتزم بشروطك. إن لم تقف الآن، سينتقم الربّ منك ومن خداعك». ثمّ أطلق على الفور سهمه مباشرة إلىٰ قلب البارثي الذي كان قد حوّل انتباهه لاختيار سهم لرميته الثانية.

اقترب الويلزي من خصمه الجريح وقال له: «لم تكن وفياً لاتفاقك، ولا أنا لكلمتي». عند رواية هذه القصة حول النار كان الجنود يطلقون صيحات فرح وسرور تكاد تُسمع حتّى الآن.

وكانت للمعسكر المسلم أيضاً حكاياته، وكثيرة كانت الحكايات التي تدور حول كرم قائدهم. ففي مطلع ربيع سنة 1191م وقعت في الأسر جماعةٌ من الفرنج في بيروت وأُحضروا إلىٰ السلطان. وكان بين الأسرى رجل تقدّمت به السن فسأله صلاح الدِّين عمّا أتى به حتّى فلسطين. فأجاب الكهل: «جئتُ إلىٰ هذه الأرض فقط لأحجّ إلىٰ كنيسة القيامة». وقد أثّرت هذه الإجابة في صلاح الدِّين، فأطلق سراح الشيخ، وأمّن له حصاناً ومرافقةً أوصلته حتّى حدود شعبه وأهله. عندئذٍ اعترض ضبّاط صلاح الدِّين الشبّان وطلبوا إذنه لإعدام باقي الأسرى فرفض. وعندما سُئل عن أسبابه، أجاب بخصوص الشبّان المندفعين: «يجب ألاّ يعتادوا في فتوّتهم على إراقة الدماء والضحك منها»!!

في تلك الأثناء، وفي خيمته الخشبية عالياً فوق جبل الخروبة، كانت تشغل بال صلاح الدِّين مسائل استراتيجية أكبر حجماً، والذين بقوا من جيش فريدريك بربروسا الألماني يثيرون قلقه إلىٰ حدّ بعيد. كان السلطان قد استراح

عندم علم أنّه بعد غرق الإمبراطور في تركيا، تضاءل عديد قواته من مائة ألف جندي إلىٰ خمسة آلاف. لكن هؤلاء الأشدّاء الذين نجوا أصبحوا في طرابلس، وبدأوا يتحرّكون جنوباً، بقيادة محكمة من دوق النمسا، للانضمام إلىٰ حصار عكّا. لذلك طلب أمراء صلاح الدِّين منه أن يهاجم الكتائب الألمانية في طريقهم نحو الجنوب على ممرّ ساحلي مرتفع وخطر يُعرف باسم سلّم صور، ولكنه لم يوافق.

بيد أنّ مشكلته الحقيقية كانت أعمق وأكثر جدّية من القوات الألمانية وحدها. فمن عيونه في معسكر الأعداء، ومن مصادره في القسنطينية، ومن رجال الدين الكاثوليك في أرمينيا، عرف أيضاً أنّ الملكين الإنكليزي والفرنسي آتيان على رأس جيشين هائلين. وبهدف زعزعة إرادة السلطان، كان النبلاء والصليبيون ومنذ فترة يروّجون أخباراً عن وصول الملك الإنكليزي، وعن قوّته وإنجازاته شبه الأسطورية في أوروبا. وكان المسيحيون يتباهون قائلين إنّه عند وصول هذا العملاق، فإنّ الشجرة التي ذبلت في منطقة الخليل عند موت المسيح ستُنبت أوراقاً جديدة. إن كان صلاح الدِّين لم ينجح في فكّ الحصار الذي ضربه حول عكّا جيش محلّي، بقيادة الملك غي الذي يفتقر إلىٰ الكفاءة، فكيف سيواجه الاجتياح الكبير الذي يقترب منه، بقيادة ملك عملاق؟

ازداد الوضع تأزّماً يوماً بعد يوم، فبحث السلطان التقي عن مواساة له في تلاوة القرآن، ولا سيما في مشاهد المحنة والابتلاء التي تصف هجوم أعداء الإسلام على المدينة المنوّرة في ما عرف باسم معركة الخندق. ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۞ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [سورة الأحزاب: 10 ـ 11].

وكما سخر المنافقون يومها من المؤمنين ومن آمالهم، الوهمية برأيهم، كان لدى صلاح الدِّين منافقوه ومشكّكوه في معركة خندقه. في الآية الكريمة

أنّ الله أنقذ المسلمين بنعمته، لذا لا بدّ أن ينقذهم الآن من جديد. كان صلاح الدِّين واثقاً بنصر الله وتوفيقه.

هكذا ارتأى السلطان أن يجدّد نداءه إلىٰ الجهاد. لذلك أظهر لأمراء إمبراطوريته الشاسعة مدى تصميم أعدائهم. فالفرنج لم يوفّروا جهداً، ولم يبخلوا بالمال، والآن ها هما ملكان من أقوى ملوكهم على وشك الوصول. لقد آن الأوان للتخلّي عن التقاعس وأن يستجيب كلّ مؤمن تجري الدماء في عروقه لهذا النداء.

كان يدعو قائلاً: «طالما البحار ترسل بالتعزيزات إلىٰ الأعداء وطالما الأرض لا تطردهم، ستبقى بلادنا تعاني على أيديهم، وقلوبنا تضطرب من الأذى الذي يسبّبونه لنا. فأين شرف المسلمين، وكرامة المؤمنين، وحماسة الأوفياء؟».

وأخيراً وجد نداءه صدى في العالم الإسلامي، وتوافدت التعزيزات من أقاصي الإمبراطورية، ووصل المؤمنون من بلاد ما بين النهرين ومن مناطق بعيدة تتجاوز غرب إفريقيا دجلة والفرات، ومن مصر، ملحق بهم أفارقة من غرب إفريقيا. وكان الجميع يقدّرون أنّهم ليسوا بصدد جهاد عادي، كان مشروعاً حاسماً ذروتُهُ معركة نهائية بين جند الله وجنود الكفر.

II

مقلاع الرب
عند البرج الملعون

في 20 نيسان/ أبريل 1191م، وصل ملك فرنسا فيليب أغسطس إلىٰ عكّا. وكان قوام البطانة الملكية ست سفن، تملؤها المؤن وخيول حربية كبيرة استُولدت في النورماندي وفلاندريا، ودُرّبت لتحمل محاربين بعدّتهم الكاملة

من دروع الصفيح والزرد. فعلت أصوات الفرح على رمال الخليج عند ظهور الملك. وفي غياب ريتشارد، تصرّف الملك الفرنسي على نحو إيجابي على طريقة ريتشارد، كأنّه كان يعلم أنّ فترة تسلّمه للقيادة العليا ستكون قصيرة. فوقف بأبّهته مختالاً أمام المدينة المحاصرة وسط رايات ترفرف وأبواق تصدح مع صقر أبيض رائع من أصل نادر جاثم على ذراعه. ونصب خيمته في أقرب ما يمكن من الأسوار بحيث «يرمي أعداء المسيح رماحهم وسهامهم من فوقها». وخلال جولته التفقّدية على فتحات المتاريس وآلات الحصار التي كان هنري دو شامباني قد أطلقها، قال الملك بنبرة تخلو من اللباقة إنّه «من الغريب أن تبقى المدينة في أيدي الأعداء بالرغم من هذا العدد الكبير من المحاربين». ولكن بمهارته كإداري ودبلوماسي، عاد بسرعة وأثنى على جهود هنري في دمج حلفاء متنوّعين ضمن قوّة متماسكة متكاملة.

بعد وصوله بفترة تركه صقره الأبيض الجميل الذي حلّق بعيداً عن سيّده وتجاهل نداءات الملك والبازدار المتكرّرة، قبل أن يحطّ بصفاقة على أسوار عكّا. وقد أثار هذا الظهور المدافعين عن المدينة، الذين أمسكوا في الحال بهذه الجائزة الناصعة واعتبروا الحدث فأل خير لما سيأتي. ولم يعجب تمرّد الطائر الملك فيليب، خصوصاً لأنّه جعل أوّل احتكاك له بأعدائه الوثنيين يتم عبر التماس متكلّف لاسترداد طائره الفريد. فعرض مكافأة ضخمة مقدارها ألف قطعة ذهبية، لكن المسلمين لم يتكرّموا بردّ على هذا العرض.

بعد دراسته للوضع، قرّر الملك فيليب إقامة المركز الفرنسي بالضبط تجاه الزاوية البارزة المعروفة باسم البرج الملعون. كانت هذه الزاوية وفي وقت واحد أكثر النقاط تحصيناً وأكثرها تعرّضاً للخطر في الأسوار الخارجية. فبدأ على الفور بإضافة آلات حصاره إلى غابة المدفعية الموجودة أساساً، مع تدعيم قطعه المختلفة بالحجر والحديد لتثبيط همّة أيّ محرِق مسلم محتمل.

بين قطع مدفعيته السبع الأقوى كان هناك منجنيق حجري أسماه جنوده

«جار الشيطان» (وكي لا يتخلّف المسلمون، أقاموا منجنيقهم الخاص داخل الأسوار مقابل جار الشيطان وأسموه «نسيب الشيطان»). وهكذا بقي جار الشيطان لفترة من الوقت يتبادل المقذوفات الحجرية مع نسيب الشيطان. كذلك كان هناك منجنيق بإمرة دوق برغنديا، واسمه «مقلاع الرب». لقد رفع الملك الفرنسي جداراً وشيّد في أعلاه متاريس مدعمة بالحديد. ومن خلف هذا الوقاء الحديدي بدأت نشابياته وأقواسه الطويلة تضرب السور بلا انقطاع. فامتلأت نقاط معيّنة من الخندق المائي الخارجي بالشظايا، ومضى اللغّامون إِلىٰ تقويض الأسوار تحت أداة غريبة عرفت باسم «القط». كانت عبارة عن رواق مغطّى له مقدّمة على شكل شفرة وعجلات، بحيث ينسلّ إِلىٰ الأمام مثل قط ويلتصق بالجدار كما بالبراثن.

وضع الملك الفرنسي عند نقاط الهجوم هذه منجنيقاته المدرّعة، التي تسمّى أيضاً أكباشاً أو مقاليع. وبدأ يقذف الجلاميد على الأسوار ومن فوقها على شارع القصّابين وساحة اسمها «وثبة الثور» كان يجلّها منذ قرون المسيحيون، والمسلمون، واليهود لكونها الساحة التي جلب إليها الله ثوراً لآدم، وأياً تكن التسمية التي أعطاها آدم لكلّ كائن حي، أصبحت الاسم المعتمد.

بينما كانت هذه التحضيرات تسير قدماً، حوّل فيليب أغسطس انتباهه إِلىٰ الشؤون السياسية. فرمى بكلّ ثقله لتأييد كونراد دو مونتفرّا وريثاً شرعياً لعرش القدس. في تلك الظروف، كان يصعب استيعاب التنافس من أجل عرش مملكة غير موجودة، لكن كلاً من كونراد والملك غي كان يتخبّط للحصول عليه. حتّى في المبدأ، كانت المملكة تعمل على أساس قوانين البيوتات الكبرى في أوروبا، أي بالنسب، بالدم، حتّى لو كان هذا الدم وبحسب المعايير الأوروبية فاسقاً. كان غي قد أصبح ملكاً فقط بفضل نسب زوجته، سبيلا الملكي، لكن الآن بعد مماتها لم تعد مطالبته منطقية، ولو أنّه لا يزال عملياً محتفظاً بالتاج.

تمرّ الآن السلالة عبر الأخت الصغرى للملكة سبيلا، إيزابيلا، لكنّها كانت متزوّجة. فقد ارتبطت منذ سنّ صغيرة بمثلي جنسي جبان اسمه هنري أوف تورون Hanri of Toron، وهو ابن زوجة ريجينالد أوف شاتيون. وحفلة زفافهما قبل سنوات في قصر شاتيون في الكرك هي التي قطعها ظهور عساكر صلاح الدِّين. والآن عبر سلسلة من الخطوات الماكرة، بما فيها تقديم الهدايا والرشاوى لإفساد رجال الدين، نجح كونراد في إبطال زواج إيزابيلا وهنري، ثمّ اتّخذها زوجةً له. فما كان من الملك غي الذي غضب غضباً شديداً إلاّ أن يدعو كونراد إلىٰ مبارزة شخصية، لكن كونراد هزأ بهذا التحدّي. وامتعض رئيس أساقفة كنتربري من سلوك القيادة المسيحية لدرجة أودت بحياته، لكن ذلك لم يغيّر في الوضع الشيء الكثير. فمع دعم فيليب ملك فرنسا الأكيد لكونراد، ازدادت حجّة الملك غي ضعفاً، وكان هذا هو السبب الذي دفعه للإسراع إلىٰ قبرص لإقناع الملك ريتشارد تأييد قضيته.

مع وقوف فيليب إلىٰ جانب كونراد، ازداد الشقاق في صفوف الصليبيين عمقاً: ريتشارد مقابل فيليب، كونراد مقابل غي، أبناء بيزا مقابل أبناء جنوى، الداوية أو فرسان الهيكل ضد الإسبتارية. كانت طريقة غريبة لإدارة حرب صليبية. غير أنّه بين عيد الفصح والعنصرة وبالرغم من هذه النزاعات الداخلية، حقّق فيليب تقدّماً حقيقياً في تقوية الهجوم. فقد بدأ قصفه المتواصل يعطّل الدفاع. كما تمّ خرق الجدار مرّتين قرب برج يهوذا، ولكن سرعان ما كان المدافعون يسدون الثغرة.

بالرغم من كون فيليب منظّماً ودبلوماسياً لامعاً فقد كان يفتقر إلىٰ خامة القائد الأعلى. لقد تمكّن من تحضير المائدة لريتشارد، ولكن لم يكن يملك التصميم أو الصبر لدفع جهده إلىٰ القمة من دون منافسه الإنكليزي. إضافةً، إلىٰ ذلك، حصل قبل وصول ريتشارد بأسبوع، حادث مؤسف آخر أزعج فيليب وزعزع إرادة القتال عنده. في الأوّل من حزيران/يونيو 1191م، قتل كونت

فلاندريا النبيل خلال الحصار. لقد كانت الفرقة الفلمنكية، بصلبانها الخضراء والتزامها الراسخ، فرقة قوية العزيمة في الحملة الصليبية منذ اليوم الأوّل لوصول خبر سقوط القدس، وكان كونت فلاندريا نفسه صرحاً من القوة. كان بالنسبة إلىٰ معاصريه «غنياً بالممتلكات المادية وبالشرف، كبيراً بذكائه وبقوّته، متحمّساً وعلى حق، شجاعاً وبارعاً في السلاح». لكنه كان أيضاً من دعاة طريقة الأرض المحروقة في سياسة الحرب الشاملة.

لقد نقل عنه فيما بعد قوله: «هكذا يجب أن تبدأ الحرب، هذه هي نصيحتي. أوّلاً دمّروا الأرض، ومن ثمّ الأعداء».

قبل أن تصبح المملكة اللاتينيّة في خطر بسنوات، كان الكونت يحجّ إلىٰ الديار المقدَّسة. وعندما وصف له رئيس أساقفة صور الكارثة في جيسور Gisors، كان بين أوائل الذين حملوا الصليب. وبعدما جمع مبلغاً كبيراً من المال، اكتسب قوّة كبيرة. وقد استلم الكونت قيادة القوات الدانماركية إضافة إلىٰ قواته. وكان بين مقاتليه واحد من أكثر الفرسان شهامة في الحملة الصليبية، جيمس داڤين d'Avesnes، وهو محارب شهير كان شعار نبالته أرضية ذهبية وشرائط حمراء. تميّز الكونت الألزاسي بالقوة، ولكن أيضاً باللباقة، وهذا ما أثبته حين تدخّل في صقلية لحظة قام الخلاف بين ريتشارد وفيليب بسبب أليس وهدّد التحالف.

والآن لاقى حتفه. هذه المأساة التي حصلت عند الأسوار كانت ضربةً قاسية للحملة. ولكن في رأس فيليب الماكر كان لها تداعيات سياسية عميقة تتعلّق بمجال سيطرته في أوروبا. فقد توفّي كونت فلاندريا ولم يخلّف وريثاً، ما دفع إلىٰ التنافس على منطقتي آرتوا وڤيرماندوا، اللتين طالما طمع ملك فرنسا بضمّهما إلىٰ مملكته. الآن إذاً يجب أن تصبح فلاندريا له، لولا أنّه في مكان بعيد، هنا في الشرق، ولا يستطيع الإفادة من تحوّل الأحداث المحزن والمثير للاهتمام.

الفصل التاسع عشر

لا تضيّعوا الأجر

في قبرص، كاد ريتشارد يفقد صبره عند وصول الأخبار السارّة عن نجاح فيليب في عكّا. إن لم يسرع الملك الإنكليزي، فقد يستولي منافسه المحنّك على الجائزة ويسرق المجد لنفسه.

في الخامس من حزيران/يونيو 1191م، غادر فاماغوستا على متن أسرع قوادسه، الذي سماه ترنشمير Trenchemere أي حافر الخندق، بسبب الغور الذي يشقّه بين الأمواج. وأصدر الأوامر لبقية الأسطول للحاق به بأسرع ما يمكن. في اليوم التالي، لاحت كتلة قلعة المرقب المتجهّمة من خلال السديم، عالياً فوق الساحل السوري. كانت أراضي العدو تحيط كلّياً بهذا الحصن الإسبتاري المهيب. وخلال تقدّم ريتشارد نحو الجنوب، اجتاز طرطوس وطرابلس وصيدا وبيروت، وكلّها أراض عدوّه إلىٰ أن وصل إلىٰ صور، حيث لم يتصرّف الأصدقاء بأفضل من الأعداء، إذ أغلق كونراد أبواب المدينة وأجبر الملك على أن يخيّم، كأيّ متشرّد عادي، على الشاطىء.

في 7 حزيران/يونيو، كان ريتشارد يبحر من جديد، فالتقى جنوب بيروت بسفينة ضخمة ثلاثية الصواري، عالية السطح، تمتلىء بالمؤن، وكان جانباها

مخطّطين بالأحمر والأصفر. عند الاتصال الأوّل عرّفت السفينة عن نفسها بأنّها تابعة لملك فرنسا. فاقترب ريتشارد بسرعة طمعاً في معرفة آخر الأخبار. عندها غيّرت السفينة الغريبة فجأة روايتها وقالت إنّها في الحقيقة آتية من جنوى ومتوجّهة إلىٰ صور. لكن جاسوساً عربياً كان على متن سفينة ريتشارد لاحظ التشابه بين هذا الصرح وسفينة كان قد رآها حديثاً في ميناء بيروت، وعلى ظهرها حمولة مائة جمل من الأسلحة، وصناديق من النار اليونانية في زجاجات، وأكثر ما يرعب، قوارير تملؤها مئتا أفعى مميتة. وسرعان ما بانت الحقيقة، فجمل البحر الكبير هذا كان يحوم خارج عكّا، بانتظار اللحظة المناسبة لخرق الحصار. كانت هذه السفينة تحمل 650 من الجنود الممتازين وكمية من المؤن لمساعدة المدينة الجائعة على التحمّل لأشهر مقبلة.

عندما اقتربت ترنشمير، انهالت عليها السهام والنيران اليونانية من سطح سفينة العدو المرتفع. هذا الهجوم العنيف وغير المتوقّع أبعد الصليبيين فتراجعوا. عندئذٍ راح ريتشارد يوبّخ رجاله الجبناء، وصرخ بهم قائلاً: «أستسمحون لهذه السفينة بالابتعاد من دون أن تمسّوها بأي أذى؟ هذا مؤسف، مؤسف. لقد أصبحتم جبناء من كثرة الكسل، ومن الانتصارات العديدة على أعداء ضعفاء! العالم بأسره يعرف أنّكم في خدمة الصليب!» وقد استحثّ هذا الكلام رجاله، فغطس العديد منهم تحت سفينة العدو وشبكوا دفّتها بالحبال لإعاقة حركتها وإبطائها. وكرّر البعض الآخر هجومهم لكنّهم صُدّوا على الفور.

ما حدث فيما بعد ليس واضحاً. تقول بعض الأخبار إنّ ريتشارد، عندما أدرك أنّ رجاله لم يقدروا على أخذ السفينة، أمر قوادسه بضربها بمقدّماتها. وتقول أخبار أخرى إنّ الأميرال العربي، إذ لاحظ أنّ وضعه ميؤوس منه، أغرق السفينة. في كلا الحالتين كانت النتيجة واحدة. بدأت السفينة الضخمة تغرق، وفجأة امتلأ البحر رجالاً ومؤناً. كذلك، كانت هناك روايات مختلفة حول ردّة

فعل صلاح الدِّين عندما سمع بفقدان السفينة المنقذة. وقد نقل عنه مصدر مسيحي أنّه قال: «يا إلهي، الآن خسرتُ عكّا. إنّها خسارة كبيرة، وسأهلك». لكن هذا الانتحاب لم يكن من صفاته، والمؤرّخ العربي نقل عنه ردّة فعل مختلفة، فقال إنّه لجأ إلىٰ قرآنه بكل هدوء وأشار بإصبعه إلىٰ الآية التي يردد فيها: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة هود: 115].

في 8 حزيران/يونيو، وصل ريتشارد أخيراً إلىٰ عكّا بمجموعته الحربية المؤلّفة من خمس وعشرين سفينة. ومن البحر رأى التحدّي الذي ينتظره منبسطاً أمامه. كانت أسوار المدينة المتعبة وفتحاتها محاطة محاصَرة، وبرج الذباب والبرج الملعون متضررين ولكن لا يزالان منتصبين، والخطوط المسيحية الملوّنة خارج الأسوار تقطعها آلات الحصار الكبيرة، والدخان يرتفع من انفجارات النيران اليونانية حولهم. وكانت القوات المسلمة، المتدافعة حتّى الخنادق المسيحية الخارجية، وخيام الأعداء وراياتهم مزركشة اللون، بما فيها مركز القائد صلاح الدِّين على جبل الخروبة، تنتشر مبعثرة على التلال المحيطة.

طبعاً كان هناك سرور وغبطة مع وصول ريتشارد. تلك الليلة رُوكمت أكوام الحطب وأُشعلت النيران على الشواطىء وقرب البرج الملعون. وعلت صيحات الحشد عبر التلال، يرافقها دوي الأبواق ورنين الصنوج. هذه الجلبة أفسحت المجال في عمق الليل لكورس الأغاني الصليبية:

Lıgnum crucis, Signum ducis, Sequitur exercitus...

أي «راية القائد تسير بقدرة الروح القدس»، وكذلك نشيد فرجيل:

Uma salus victis nullam Salutem...

أي «لا يساعد المنهزمينَ إلاّ الأمل بعدم جدوى المساعدة». تليها القصائد الدينية. وأخيراً نحيب القِرَب الإسكتلندية، وقرع الطبول الصغيرة

للرقص تحت آلاف المشاعل، وأنغام القيثارة. بالنسبة إلىٰ المسلمين المتمركزين على التلال المحيطة بدا كأنّ الوادي كلّه يحترق. لقد سمعوا عن ملك الملوك هذا وعن منجزاته الجريئة. والآن قد أتى، وهم يخشون الأسوأ. بينما كان صلاح الدّين يستمع إلىٰ الضجيج وينظر إلىٰ ذلك المشهد أمام عينيه، احتفظ بهدوئه، لأنّه كان يتّكل على رحمة ربّه وحمايته، مطمئنّاً إلىٰ إخلاص دوافعه.

عندما وطأت قدم ريتشارد اليابسة، استقبله فيليب بالترحاب وواكبه حتّى خيمته الملكية التي أُعدّت له. فتحادثا بحماس عن سُبل إخضاع سريع للمدينة المرهقة. ولكن لم يمرّ زمن طويل حتّى وقع بينهما خلاف سببه المال، فقد كان فيليب الأكثر تسرّعاً بين الاثنين ممّا يعرّضه لاتّخاذ قرارات غبية في ما يتعلّق بالأرض والذهب. إنّه يطلب الآن وبكلّ بلاهة نصف غنيمة قبرص، تبعاً للاتفاق الذي عقداه في ڤيزيلي. وإذ لم يعترض ريتشارد فقد طالب بدوره بنصف فلاندريا. وكان الطلبان من كلا الطرفين مستحيلين، لأنّ اتّفاق ڤيزيلي يُطبّق فقط على أراضٍ يستوليان عليها معاً في فلسطين. غير أنّهما تجاوزا هذه النزاعات، ربّما مع غمزة ظريفة، والتفتا إلىٰ المشاكل الجدّية التي تنتظرهما.

لم تنتهِ هنا نزعة فيليب إلىٰ اتخاذ القرارات الخاطئة في المسائل المالية. مثلاً عندما جاء إليه تابعه الوفي ونسيبه هنري دو شامباني لحاجته إلىٰ مؤن جديدة، بعد عدّة أشهرٍ من قيادته الحصار وحده، عرض عليه فيليب مائة ألف قطعة ذهب باريسية، لكن على شرط أن يتنازل نسيبه عن إقطاعيته في شامباني للتاج الفرنسي. فصدم هنري وخيّب أمله نكران الجميل فأجاب: «أنا فعلتُ ما كان عليّ فعله، والآن سأفعل ما تمليه عليّ الضرورة. أردتُ أن أقاتل من أجل ملكي، لكنه لا يحتاج إليّ إلاّ مقابل أخذ ما هو لي. سأذهب إلىٰ من يستقبلني ومن هو أكثر استعداداً للعطاء من الأخذ». فسعد ريتشارد بهذه الفرصة

واغتنمها، مغدقاً على هنري أربعة آلاف مكيال من القمح، وأربعة آلاف ذبيحة خنزير، وأربعة آلاف ليرة من الفضة.

كان فيليب رخيصاً، ورأى ريتشارد في فشل رفيقه القديم طريقة سريعة لوضعه في الظل. وعندما سمع أنّ فيليب يعطي الجنود الذين في إمرته ثلاثة بيزنطيات ذهبية أجراً لهم في الأسبوع، نشر رجال ريتشارد أنّ الملك الإنكليزي يدفع أربع قطع ذهبية. ومن جديد تجاوز فيليب وتفوّق عليه، فانسحب فيليب ساخطاً لبضعة أيام. لقد كتب مؤرّخ إنكليزي يقول: «عندما جاء ريتشارد، خبا بريق ملك الفرنسيين وذوى اسمه، كما يشحب ضوء القمر عند شروق الشمس».

وبما أنّ فيليب اعتمد الزاوية البارزة عند البرج الملعون منطقة هجوم له، فقد أقام ريتشارد آلات حصاره مقابل البوابة الشمالية. ونقل مؤرّخ القرن الثالث عشر العربي أبو الفرج لاحقاً أنّ الملكين نشرا أكثر من ثلاثمئة كبش ومنجنيق خارج أسوار عكّا. وبما أنّ أبناء جنوى كانوا قد أقسموا على الولاء لفيليب، جلب ريتشارد أبناء بيزا إلىٰ معسكره. وفي ثالث أيامه في البلاد أعاد بناء قلعته الخشبية ماتي غريفون، التي أحضر أخشابها من صقلية، وغلّف جدرانها بالحبال والجلود المنقوعة بالخل للحماية ضد النار اليونانية. ومن على سطحها بدأ الرماة يقذفون أسهمهم على جدران البرج الملعون. كذلك بدأ قاذف المنجنيق بتقويض الأسوار، ورفع رجاله سلالمهم. كانت منجنيقاته أصغر من التي يملكها فيليب، لكنه أحضر معه من صقلية جلاميد من الغرانيت أكثر فعاليّة من أحجار فلسطين الكلسية الناعمة. فكانت ترمي هذه المقذوفات الثقيلة على البوابة الشمالية. وريتشارد نفسه كان في حركة دائمة. «كان الملك يركض صعوداً ونزولاً بين الصفوف، يوجّه البعض، ويؤنّب البعض، ويشجّع البعض. هكذا كان حاضراً في كلّ مكان ومع كلّ واحد من جنده، بحيث كان كلّ ما يفعلونه ينبغي أن يُنقل إليه».

خلال تلك الأيام التي شهدت نشاطاً محموماً، وبينما كان ريتشارد يستعدّ لسحق مدينة عكّا والانتقام من أعدائه، تساءل، ولا شكّ، أيّ نوع من الرجال هو الإنسان الذي يقف في مواجهته. فبعد وصوله بقليل تلقّى بدل المقذوفات هدايا من صلاح الدِّين. سلال من الإجاص، والخوخ الدمشقي وثمار أخرى، إضافةً إلىٰ هدايا صغيرة أخرى وصلت إلىٰ ريتشارد وفيليب كبادرة سلام ورغبة في التفاوض. مع هذه الطريقة الغريبة في التعاطي مع الأعداء، بعث ريتشارد برسول إلىٰ صلاح الدِّين عبر خطوط الجبهة واقترح لقاءً بين القائدين وجهاً لوجه.

وتردّد صلاح الدِّين قبل أن يجيب[1]: «الملوك لا يجتمعون إلاّ عن قاعدة. وما يحسُنُ منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة».

II

الصيحة المدوّية

حوالي نهاية شهر حزيران/ يونيو حصل كسوف للشمس أغرق ساحة القتال في الظلام لثلاث ساعات وأثار بلبلة في صفوف الجيش المسيحي. وأدّى موافقة هذه الظاهرة الاستثنائية لذكرى ولادة القديس يوحنا المعمداني إلىٰ جعل الظهور أكثر رهبة أيضاً. وبالفعل لم يمضِ وقت كثير حتّى تطوّرت الأحداث على نحو سيّىء. فقد أصاب الملك ريتشارد مرض غريب أقعده في السرير، رافقته حمّى مرتفعة وتقرّح مؤلم في فمه ولثّته، وبعد بضعة أيام بدأ شعره يتساقط وأظافره تضعف. وبعد فترة قصيرة أصاب فيليب أغسطس البلاء نفسه. وشخّص الأطباء المشكلة على أنّها أرنالديا أو ليونارديا، المعروفة عموماً باسم

(1) ابن شدّاد، ص 163.

الخناق الغشائي المتقرّح أَو الأسقربوط، وهو اعتلال نتج على الأرجح من نقص الفيتامين في نظامهما الغذائي.

خلال مرض ريتشارد، تابع الفريقان اتّصالاتهما الدبلوماسية بشأن لقاء محتمل بين الملك الإنكليزي وصلاح الدِّين. وبدا لوهلة أنّ هذا الأخير سيلين ويوافق على اللقاء، وانعقاده في سهل عكّا بين فرق الجيشين. ووصلت إلىٰ معسكر صلاح الدِّين شائعات عن معارضة قوية قامت ضدّ هذا اللقاء في الصفوف المسيحية. حينئذ وصلت رسالة ثانية من ريتشارد يقول فيها: «لا تصدّق الأخبار التي نُشرت بالنسبة إلىٰ سبب تأخّري. أنا وحدي المسؤول عن نفسي، وسيّد أفعالي. ولكن في الأيام الأخيرة منعني المرض من القيام بأيّ عمل».

وتابع يقول: «من عادة الملوك أن يتبادلوا الهدايا. لديّ الآن هدية تستحقّ أن يقبلها السلطان، وأطلب الإذن لإرسالها له».

وأجاب الملك العادل، شقيق صلاح الدِّين، قائلاً: «يمكنه أن يرسل الهدية شرط أن يقبل هدية منّا بقيمة مماثلة».

عندها قال السفير الصليبي: «قد تكون هديتنا صقوراً من وراء البحار، لكنّها هزيلة جدّاً، وسنكون ممتنّين إن أرسلتم إلينا بعض الدجاج لإطعام الصقور وتنشيطها، وحينئذٍ نرسلها إليكم».

استُقبل هذا الكلام بالضحك، وخمّن العادل أنّ «الملك يريد الدجاج لنفسه».

وبدا أنّ المبادلات الدبلوماسية تراجعت من هنا، إلىٰ أن قال الموفد المسيحي أخيراً: «هل لديكَ ما تضيفه، تكلّم فنعرف ما هو».

«لسنا من قدّم عروضاً للتفاهم؛ أنتم أتيتم إلينا. إن كان لديك ما تقوله، فلك أن تتكلّم وتعلمنا بوجهات نظركم. نحن على أتمّ الاستعداد لسماعك».

على هذا انتهى اللقاء، وأوصل الموفد إلىٰ الباب، بعد إهدائه ثوباً ملكياً. ورأى المسلمون أنّ الدافع للخوض في هذه المفاوضات هو معرفة مواطن ضعف الأعداء وقوّتهم، وما يجول في خاطرهم.

أُبعد فيليب عن الأجواء الدبلوماسية. لكنّ تقرّح فمه كان نوعاً ما أقلّ حدّة ممّا هو حال ريتشارد، كان الملك الفرنسي مستعدّاً للعودة إلىٰ خطوط المعركة في الأوّل من تموز/ يوليو. أمّا ريتشارد فقد طلب في هذيانه من فيليب أن ينتظر بضعة أيام قبل الهجوم الأخير. لقد كان الجزء الأكبر من أسطوله الإنكليزي وجيشه النورماندي عالقين في صور، يحتجزهما طقس معاكس هو ما يعرف بالريح العصوف. بعد أيام قليلة سيكون في حالة أفضل، وستكون كلّ قواته إلىٰ جانبه. لكن فيليب رفض، ربّما اعتقاداً منه أنّه حانت اللحظة المناسبة لانتزاع كلّ المجد لنفسه. فنشر حرس الدفاع على طول الخندق وعمد إلىٰ مهاجمة البرج الملعون بقوّة هائلة.

كان الصليبيون يملكون فكرة معيّنة عن وضع المدينة خلف الأسوار، إذ كان لديهم عينٌ في الداخل يرسل لهم بانتظام تقارير تبدأ دائماً بالعبارة «باسم الآب والابن والروح القدس، آمين». غير أنّ حالة المدينة البائسة لم تكن ظاهرة في طريقة قتال المدافعين عنها. فقبل أن يتمّ عزلها، كان يدافع عنها تسعة آلاف جندي، أُنهكت مدينتهم مع الوقت، لكن شجاعة المدافعين ويقظتهم بقيتا مذهلتين. لقد عهد بقيادة الدفاع عن المدينة إلىٰ أميرين مهمّين، يعرفهما المسيحيون فقط بلقبيهما قراقوش المشطوب. كان قراقوش، وهي كلمة تركية تعني «النسر»، مسؤولاً منذ بداية الحصار قبل سنتين. إنّه أساساً من الخصيان العبيد لدى صلاح الدّين في مصر. لكن مواهبه كانت ظاهرة من البداية، فسلّمه السلطان مسؤولية كبيرة. فقد عرفت مصر وفاءه وجدارته في مجال البناء، حيث أشرف على إنشاء قلعة القاهرة، المعروفة باسم «قلعة الجبل»، وكذلك أسوار المدينة والجسور التي تؤدّي إلىٰ الأهرام. كان يبدي

سمتاً يوحي بالأهمية، ممّا جعل كثيرين يقلّدونه ساخرين، حتّى في صفوف شعبه، لسذاجته الظاهرة. لكنّه كان أميراً معتبراً وموثوقاً به.

أمّا المشطوب فكان الأكثر تميّزاً بين أمراء صلاح الدِّين. إنّه كردي نبيل المشاعر معروف بكرمه وسمو أخلاقه. وقد أُعطي هذا اللقب بسبب ندبة كبيرة ظاهرة في وجهه. لسنوات كانت علاقته بصلاح الدِّين متينة، متينة لدرجة أنّه عندما ولد ابن للمشطوب، كتب السلطان إلىٰ أميره يقول: «لقد فرحنا بالنجم الذي لاح من خلف الحجاب؛ ونأمل أن نفرح بثمرة شجرة النخل التي لا تزالْ في برعمها». لقد حظي المشطوب بلقب الأمير الكبير واستلم قيادة عكّا منذ شهر شباط/ فبراير الفائت فقط.

بعث الأميران إلىٰ السلطان برسائل تعلمه أنّ المدينة في ضيق شديد، وأنّ الحامية منهكة، والأبنية خرائب، خصوصاً حول ينبوع ثور آدم، بسبب القصف اليومي. كانت الشروط الصحية تعيسة، ليس بسبب نقص الطعام ووجود جثث أموات المدينة وحسب، بل أيضاً بسبب جثث الخيول والأبقار الميتة التي كان المسيحيون يقذفونها من فوق الأسوار بمنجنيقاتهم. كان بعض الجنود يقفزون لملاقاة حتفهم يائسين، وبعض آخر يرتدّون وحتّى يقبلون العمادة بحسب الدين المسيحي. إن لم يفكّ صلاح الدِّين الحصار، سيجدون أنفسهم مضطرّين للاستسلام في وقت قريب.

وأجاب صلاح الدين: حاولوا الصمود أسبوعاً آخر. فهناك أسطول من السفن المصرية في طريقه من الإسكندرية[1]، وفرقة للتعزيز آتية بالبرّ من بغداد. كان صلاح الدِّين يكتب مهتاجاً إلىٰ خليفة بغداد وإلىٰ حاكم القاهرة ويقول: «لقد هدموا الأسوار والمدينة في خطر. . . لم يبق لنا سوى أن نسأل الله أن يمنّ

(1) في الأصل: من القاهرة.

علينا بتجاوز المحنة. إن لم تأتِ النجدة الآن فمتى؟ من يصل عندما لا تدعو الحاجة إليه فكأنّه لم يصل قط».

بينما كان فيليب يضاعف هجومه على البرج الملعون، ارتفعت من المدينة إشارة دخان مع قرع الطبول بنيّة إعلام مركز القيادة على التلال البعيدة بأنّ العدو بدأ هجوماً آخر وأنّه حان لقوات صلاح الدِّين أن تقترب من الخندق. بعد ذلك بقليل تقدّم جنود السلطان باتجاه المواقع، وحاولوا بكلّ شجاعتهم أن يخترقوا بعض الثغرات ويتجاوزوا الصفوف المسيحية. وبالفعل نجح بعض الجنود المنفردين في أكثر من مكان في عبور الخندق وتمزيق الخيام المسيحية وزرع الفوضى. ولكن بشكل عام كان هؤلاء المغاوير المسلمون يُصدّون. لكنّهم نجحوا على الأقل في وضع حزمة من الحطب، المنقوع في النار اليونانية، على إحدى آلات فيليب وأضرموا فيها النار؛ ما بطّأ الاعتداء الفرنسي على البرج، وعند نهاية النهار قاد فيليب هجومه الوحيد، وبدا أنّه، كما هو حظّه في الحياة، عليه أن ينتظر ريتشارد مرّة جديدة.

بدأ اليوم الثاني من تموز/يوليو حارّاً مشعّاً، وكان يبشّر بنشاط غير عادي. فأخيراً لاح الأسطول الإنكليزي في البحر، حاملاً معه عدداً من قادة المعارك النورمان والإنكليز الكبار. لقد وصلوا في الوقت المناسب، لأنّه من جديد عادت القوات المسلمة، هذه المرّة بقيادة ابن شقيق صلاح الدِّين، وظهرت عند الخندق الخارجي وحاولت مجدّداً إقامة جسر لعبوره. لكن قاذفي فيليب أحرزوا أخيراً تقدّماً في تدمير البرج الملعون. وفي باطن الأرض، حيث كانت الأساسات تتصدّع، التقى نفقهم بنفق اللغّامين المسلمين المقابل وحصلت معارك تشابك بالأيدي في أماكن مغلقة ومظلمة. إذاً ردّت القذائف المضادة اللغّامين المسيحيين، حتّى عندما كان السور ينهار مصدراً ضجيجاً مروّعاً فوقهم في أحد الصدوع.

بينما كان الجدار يغور عند البرج الملعون، لم يعد ريتشارد يطيق توعّكه.

فطلب أن يُحمل، بلثّته المتقرّحة وشعره المتساقط وكلّ شيء، إلىٰ البوابة الشمالية على فراش مصنوع من لحافه الملكي. ومن أعلى ماتي غريفون، وصل إلىٰ نشابيته وراح يصطاد المسلمين المنطلقين بسرعة بمحاذاة السور في الأسفل. ومن ضرباته الموفّقة سهم رماه فأصاب قلب مدافع كانت لديه الجرأة في ارتداء درع فارس فرنسي سقط عن جواده.

عندئذ حضرت كلّ عناصر المعركة لدى ريتشارد. فراح قاذفوه يعملون تحت برج البوّابة، ومرجامه يضرب جزءاً من الجدار، بينما يقصف منجنيقه جزءًا آخر بقنابله الصقلية. ولعجز الملك عن رفع الصوت بأوامره، طلب من مذيعيه أن ينشروا خبر مكافأته أيّ جندي بأجر أسبوع يبلغ أربع بيزنطيات ذهبية عن كلّ حجر ينتزعه بنفسه من الأسوار. حتّى مع هذا الخطر المحيق والأعمال المروعة، تمسّك العديد من الضباط والمرافقين بالفرصة، وكثيرون منهم لم يوفّقوا. وأخيراً بدأت بوّابة البرج تميل وسرعان ما وقعت على نفسها. لكن عندها أيضاً هرع مسلمون شجعان لحماية المدينة من الاقتحام. إذ لم ينجح تحريض أسقف سالزبوري للجند، ولا إلهام راية كونت ليستر، ولا شجاعة محاربي بيزا الشرسين في إحباط تصميم المدافعين الجريء.

في 4 تموز/يوليو طفح كيل المشطوب وقراقوش فأطلقوا أوّل اقتراح للسلام. تحت الراية البيضاء، تمّت مرافقة النسر وصاحب الندبة إلىٰ خيمة الداوية قرب البوّابة الشمالية وفي حضور الملكين. وهناك قدّما اقتراحهما. كانا مستعدّين لتسليم المدينة، كما قالا، ولدفع كميّة من الذهب والفضّة، إذا ضُمنت سلامتهما وجرت حماية أملاكهما، وإذا تلقّى السكان معاملة جيّدة. بهذا الشأن قال الأمير الكبير(1): «إنّا أخذنا منكم بلاداً عدّة، وكنا نهدم البلد وندخل فيه. ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم وأكرمناهم. ونحن نسلّم البلد، وتعطينا الأمان على أنفسنا».

---

(1) كتاب الروضتين 2/ 257.

فردّ ريتشارد بحدّة: «الذين أخذتموهم كانوا خدمنا وعبيدنا، وأنتم كذلك عبيدنا». عندها أجاب المشطوب على نحو مسرحي: «نفضّل أن نقتل أنفسنا على أن نسلّمكم المدينة. ولن يموت أيّ منّا قبل أن يقضي خمسون من كباركم». فلم يُدهش ريتشارد، بل قال ببرودة أعصاب: «إنّ فدية جسديكما ستكون رأسيكما».

لكن فيليب يتعذّب. كان على استعداد للقبض على هذه الفرصة وإنهاء الصراع. هو أيضاً ضجر وتعب، أكثر من سنة من الإهانات على يد ريتشارد وستّة أسابيع من الحصار الجهنّمي. كان متعباً من المهانة ومن بقائه في الظل، ومتعباً من الحرب، وقلقاً بسبب إهمال فرص ليس من يسهر عليها في أوروبا. كان يريد مخرجاً بأسرع ما يمكن.

غير أنّ ريتشارد تلكأ. كان محارباً ويهوى الحرب أكثر من أيّ شيء آخر. لا مجد في استسلام العدو، بعد تفاوض وشروط. وهو لم يأتِ كلّ هذه المسافة من أوروبا مع جنوده، متحمّلاً فقدان أكثر خيّالته شجاعة، ومخاطراً بمملكته في دياره، ليكتفي بدخول مدينة فارغة. مع خراب أبراج عكّا ووقوع جدرانها، ووجود قواته على حافة الانتصار، كان يصرّ على إتمام عمله.

بالرغم من ذلك فقد قدّم عرضاً مقابلاً. لقاء حياتهم وسلامة ممتلكاتهم، يقبل الملك ريتشارد بعودة كامل المملكة اللاتينيّة كما تحدّدت قبل أربع وأربعين سنة عندما قام لويس، ملك فرنسا، بزيارة القدس. إضافةً إلىٰ ذلك، تجب إعادة الصليب الأعظم، الذي أُخذ خلال معركة حطين.

انتاب الأميرين خوف كبير، واعترضا قائلين: «من دون موافقة السلطان صلاح الدِّين لا يسعنا الإذعان لهذه المطالب الفادحة. أعطنا هدنةً ثلاثة أيام نتشاور فيها مع السلطان».

عند عودتهما إلىٰ المدينة، ومع استمرار القصف بلا هوادة، كتبا رسالةً إلىٰ السلطان أرسلاها مع حمامة زاجلة إلىٰ التلّة البعيدة: «لقد ضعفنا وأُنهكنا

كثيراً ولم يعد من خيار أمامنا غير تسليم المدينة. إن لم تفعلوا شيئاً لإنقاذنا سنضطر إلىٰ الاستسلام من دون شرط سوى الإبقاء على حياتنا».

لكن صلاح الدِّين لم يكن مستعدّاً للاستسلام. كان لا يزال يتوقّع المزيد من التعزيزات من الجنوب والشرق. وطلب من أمرائه أن يثابروا. إن لم يستطع إنقاذهم في غضون أيام، سيوافق على استلام مشرّف. وعلى الفور، شنّ هجوماً عنيفاً على الخندق، قاده هذه المرّة بنفسه. وبحسب ما يقول مؤرّخه كان يتنقّل من كتيبة إلىٰ كتيبة، «وهو أشدّ حالةً من الوالدة الثكلى والوالهة الحيرى»، وصارخاً برجاله: «هيّا، في سبيل الله».

لكن المسيحيين شكّلوا جبهة متينة. ورجع جنوده بحكايات عجيبة عن شجاعة الصليبيين. كان هناك صليبي ضخم أمسك بحاجز عند الخندق حتّى بعدما اخترقه أكثر من خمسين سهماً، ولم يصرعه إلاّ رامي شعلةٍ مسلم قذف عليه زجاجةً ملتهبةً، أحرقتْهُ حيّاً. وكانت هناك أيضاً حكاية عن امرأة صليبية، ملتفّة برداء أخضر اللون، بقيت تقتل المهاجمين بقوسها الطويل إلىٰ أن قُتلت بدورها. وقد أحضر قوسها إلىٰ صلاح الدِّين، الذي أبدى استغرابه.

بعد يومه عند الأسوار عاد صلاح الدِّين إلىٰ خيمته مرهقاً وحزيناً وانكبّ على الصلاة لوقت طويل. من جديد بحث عن المواساة في الآية القرآنية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة هود: 115].

عندما نهض في اليوم التالي واستعدّ لهجوم جديد على الخندق، وجد اعتراضاً حتّى من رجاله. «أنت تعرّض الإسلام بأسره للخطر. لا يمكن لهذه الخطّة أن تفضي إلىٰ النجاح». وهكذا لان صلاح الدِّين وبقي في المعسكر.

في 8 تموز/يوليو اخترق العدو السور الخارجي لجهة الشرق وراح يعمل على السور الداخلي. ردّاً على ذلك، وكأنّه فهم أنّ عكّا ضائعة لا محالة، أحرق صلاح الدِّين بلدة حيفا، إلىٰ الجنوب عند الطرف الثاني من خليج عكّا، بحيث لم يعد لمرفئها ومنشآتها لبناء السفن أيّ فائدة للأعداء. وازداد أساه عمقاً

عندما نجح أحد السبّاحين في تجاوز خطّ الحصار ومعه رسالة أخرى من الأمير الكبير[1]: «إنّا قد تبايعنا على الموت، فإياكم أن تخضعوا للعدو، وتنيبوا لهم، فإن نمت قد فات أمرنا. يجب أن تفعلوا كلّ ما في وسعكم لإلهاء العدو ومنعه من مهاجمتنا. لا تتواضعوا أمام الأعداء ولا تظهروا بمظهر ضعاف القلوب». وبتعهّدهم على الانتحار جماعياً، لفّ الحماة أنفسهم برداء الشهادة الأخضر.

بينما كانت حيفا تحترق، عاد صلاح الدّين بعرض مقابل يقوم على رد الصليب الأعظم وتبادل أسير لقاء أسير لتحرير المدافعين عن عكّا. ثلاثة آلاف أسير مسيحي مقابل سكّان عكّا. لكن ريتشارد رفض من جديد. لن يرضيه سوى كلّ الأسرى المسيحيين الواقعين في قبضة صلاح الدّين وكلّ مدن المملكة اللاتينيّة. فسخر صلاح الدّين من طمع ريتشارد المنافي للعقل ومن عناده، واستنتج أنّه لا يتعامل مع رجل محنّك في الدبلوماسية الرفيعة، فذكر العبارة الواردة في القرآن: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: 54].

عند انهيار هذه «الدبلوماسية» شنّ فيليب هجوماً عنيفاً آخر على البرج الملعون، حيث صار هناك صدع بطول إحدى عشرة ياردة قرب المتراس. لكنّه رُدّ من جديد بعد مصرع أربعين من رجاله. وبعد هذا الهجوم المسعور والعقيم حصل ظهور عجائبي لدى كلّ من الفريقين. تبعاً لما يذكره روجر أوف هوفدن، مؤرّخ الحملة الصليبية الثالثة الكبير، أشرق نور من السماء، وظهرت السيدة مريم العذراء على الحرّاس المسيحيين عند برج يهوذا، فتكرّمت وقالت: «لا تخافوا، لأنّ الربّ أرسلني إليْ هنا من أجل سلامتكم. حالما يطلع الفجر، اذهبوا وقولوا لمليكيكم، باسم يسوع المسيح ابني وسيّدي، أن يمتنعا عن تقويض أسوار هذه المدينة. بعد أربعة أيام سيضعها الرب بين أيديهما». عند

(1) قارن بمفرّج الكروب 2/ 359.

اختفائها اهتزّت الأرض كما من جراء زلزال. فأجفل الطرف المسلم وخاف أيضاً، ولكن تقدّم أحد الجنود وقدّم تفسيراً. لقد رأى ألف جندي من الخيالة يظهرون فجأة، ويهزّون الأرض، وكانوا كلّهم في لباس الشهادة الأخضر. وهكذا جاء شهداء الماضي للانضمام إلىٰ جيش المسلمين، ولا بدّ للخلاص من أن يكون قريباً.

بعد أربعة أيام، في 12 تموز/يوليو 1191م، سقطت عكّا. ولحماية المستسلمين والمساومة على حياتهم، أخذ المشطوب وقراقوش زمام المبادرة وعند الانتهاء من المشاورات، أعلما صلاح الدِّين. من جديد شقّ الأميران طريقهما إلىٰ خيمة الداوية للقاء الملكين. كانت شروط الاستسلام قاسية. فإضافةً إلىٰ المدينة، كان المطلوب تسليم خمسمائة أسير مسيحي ومئتي ألف بيزنطية ذهبية. ويبقى ألفا مسلم في الأسر، كذلك يؤخذ مائة من الأكثر ثراء، ومن الشخصيات الوجيهة في البلدة، كرهائن. ومن ضمنهم المشطوب وقراقوش. وربّما من الأمور الأكثر أهميّة أنّ الأميرين وعدا بإعادة صليب المسيح الأعظم إلىٰ الجانب المسيحي في غضون شهر واحد. وعندما دفع المال وصارت الرهائن في السجن، صار بإمكان بقية أهالي البلدة المغادرة، آخذين معهم ممتلكاتهم وزوجاتهم وأولادهم.

حدث الإخلاء في يوم واحد، وانتشر العساكر المسيحيون في خطّ واحد حتى تلة تورون لمشاهدة رحيل اللاجئين. لقد توقّعوا حشداً موسّخاً ورثّ الثياب ومكتئباً. لكن المسلمين غادروا المدينة مرفوعي الرأس، سالمي الكرامة، مع مفاخرة ظاهرة. وكان المسيحيون ينظرون مندهشين.

وقال أحد المراقبين المستغربين: «لو لم يكونوا كفّاراً، لأمكن القول إنّه لا يوجد شعب أكثر حشمة وإقداماً منهم». وكتب آخر أنّ العرب أظهروا ما يُعرف عنهم من شجاعة وجرأة وهيبة يُشهد لهم بها. كذلك كتب المؤرّخ يقول: «لم تبد عليهم أمارات الهم وهم يتقدّمون، ولا دلالات الأسى لفقدانهم

كلّ ما كانوا يملكون. بالحزم الظاهر على محيّاهم بدوا كأنّهم المنتصرون بفضل قدرتهم الشجاعة على التحمّل».

أمّا صلاح الدِّين الحزين كأب خسر ولده، فكان قانطاً. كان يسمع صيحات الفرح ويشاهد رايات الفرق الصليبية وأعلامها ترتفع على الأسوار وعلى مآذن المسجد. كان يودّ أن ينقض بنود هذه المعاهدة، ولكنّه استلمها من أحد السبّاحين، وقبل وصولها إليه، كان استسلام عكّا أمراً واقعاً. فانسحب المسلمون متأسفين، وصيحات الفرح ترن في آذانهم.

تحوّلت قيثارتهم إلىٰ الانتحاب، وطربهم إلىٰ التجهّم. فلجأ صلاح الدِّين إلىٰ كتابه الكريم، ليجد عزاءه في الآية: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: 156]. لم يعد هناك من جدوى للإبقاء على مواقعه الأمامية، وسرعان ما حلّ المعسكر وانسحب جنوباً، حيث نصحه مستشاروه بالسهر على المدن الساحلية وعلى القدس نفسها.

عندما أصبح المسلمون خارج عكّا، دخلها الملكان منتصرين، بالموسيقى والرقص و«بصيحة مدوية». وكانت في الحناجر كلمات زكريا [لوقا 1: 68]: «مبارك الرب إله إسرائيل، لأنّه انقذ وصنع فداء لشعبه». استلم فيليب قصر الداوية، بأبراجه الثلاثة الضخمة المطلّة على البحر، بينما مكث ريتشارد وملكته برنغاريا في القلعة الملكية وسط المدينة. وكانت جائزة فيليب الأسير قراقوش، بينما أخذ ريتشارد الأَمير الكبير، المشطوب. بعد فترة قصيرة دُفعت فدية هذا الأخير وكانت ثلاثين ألف بيزنطية، بينما لم يجمع قراقوش، بالرغم من اعتداده بنفسه ومباهاته، أكثر من ثمانية آلاف. وعندما استقرّ الملكان في المدينة، عمدا إلىٰ قسمة الغنائم بينهما بالتساوي.

لقد صدمت ترتيبات التسليم في عكّا صلاح الدِّين. كان معارضاً شديداً لها، لكن حكّامه المتسرّعين سبقوه. وعندما عرف البنود، بما فيها ما يتوجّب عليه في إطار هذا التفاهم، كانت رايات العدو الحمراء والزرقاء اللازوردية

والخضراء ترفرف بألوانها على سطوح عكّا، لا سيما على مئذنة مسجد الجمعة، وكان أهلوها قد حُشدوا في واحد من أحيائها. في الأيام التي تلت، استغرق صلاح الدّين في الكآبة ولكن بقي لديه أمل ضئيل في أن يقوم فرسان سريعو الاهتياج من الجيش المسيحي بهجوم متهوّر يمنحهم يوماً آخر من المجد، فيستفرد بهم السلطان ويقوّم هذه المذلّة الفظيعة. غير أنّه لم تلح في الأفق أيّ مجموعة من الطائشين المسيحيين.

لم يظهر غير سفراء من الملكين الأوروبيين، مزوّدين بمطالب، مصوغة بعبارات لبقة ولكن حازمة، لمعرفة كيف ومتى سيسلّم السلطان أسراه، ويقدّم ذهبه، ويرسل صليب المسيح الأعظم. هل كان الأسرى، والذهب، والصليب المقدّس في حوزة السلطان، أم يتعيّن جلبهم من دمشق؟ ذكرت روايات المسلمين فيما بعد أنّ الصليب المقدّس أُظهر للمبعوثين المسيحيين على جبل الخرّوبة فخرّوا راكعين على الغبار في خوف واحترام كبيرين. لكن يبدو أنّ هذا عارٍ من الصحة.

كانت أجوبة صلاح الدّين على أسئلة الموفدين مبهمة. وقد فسّر السفراء هذا الغموض بأنّه إشارة إلىٰ وجود مشاكل في تطبيق بنود المعاهدة. فاقترح السلطان نظام دفع بالتقسيط، يستحق أوّل أقساطه الثلاثة بعد مضي شهر. ومن جديد، كان هناك التباس حول الفترة الزمنية، لأنّ بعض المسلمين فهموا أنّ لديهم ثلاثة شهور قبل الشروع بالوفاء بتعهّداتهم.

وسعى صلاح الدّين لتشويش الصورة أكثر عبر مبادرات وفاقية عديدة. وبدل الأمور المطلوب تسليمها، اقترح سلاماً شاملاً ودائماً تُعاد من خلاله كلّ المنطقة الجنوبية من فلسطين إلىٰ المملكة اللاتينيّة، باستثناء قلعتي الكرك والشوبك على طريق الحجّ، إذا قبل الفرنج إعارته ألفي خيال وخمسة آلاف جندي من المشاة لسنة واحدة للقضاء على العناصر المنشقّة في بلاد ما بين النهرين العليا. عندما رفض ريتشارد هذا العرض الغريب، أرسل صلاح الدّين،

إلىٰ جانب الهدايا الوافرة، أسئلة يستفسر بها عن الدين المسيحي نفسه، وكأنّه يفكّر جدّياً في اعتناقه. ولم يقع ريتشارد في فخ هذه المناورة أيضاً وأعاد كلّ الهدايا السخية.

عندما كان الموفدون الأوروبيون يذرعون الطريق إلىٰ معسكر صلاح الدِّين جيئة وذهاباً، حضّر ريتشارد المرحلة التالية من عملياته. ففكّك آلات حصاره وجمعها في صناديقها للترحيل. ورُمّمت أسوار عكّا فنُظّفت الحفر من الغبار والأحجار والنفايات. ومع اقتراب اليوم الذي يُفترض فيه بصلاح الدِّين أن يعيد الصليب، كتب ريتشارد إلىٰ إنكلترا عن نجاحاته العظيمة. كتب يطلب انتظار وصوله، منتصراً، قبل بداية الصوم الكبير.

بعد شهر من سقوط عكّا جاء الموفدون لجمع ما يتعيّن تسليمه. كان لدى صلاح الدِّين بعض الأسرى، لكن كان يجد صعوبة في تكملة العدد حتّى الستمائة. كذلك، كان ينقص من العدد الذي قدّمه بعض المحاربين الكبار الذين خصّهم الموفدون بالذكر. كان صلاح الدِّين يحاول كسب الوقت بطلب إطلاق سراح الأسرى المسلمين أوّلاً قبل أن يدفع فديته.

هذه الخدع الواضحة أثارت حفيظة ريتشارد. فبعدما يفي صلاح الدِّين بالتزامه بالكامل، يتمّ تسليم الأسرى المسلمين. هذا ما قاله الملك الإنكليزي. ومن الأفضل للسلطان أن يعجّل في الأمور، فالاتّفاق بدأ يتفكّك. إمّا أنّ صلاح الدِّين لم يفلح في جمع ما يكفي من المال والأسرى، أو أنّه كان لا يثق بذلك المحارب الشهير. وخشي أنّه بعد حصول ريتشارد على ماله، وسجنائه، وصليبه، قد تكون هذه نهاية المبادلة، وربّما نهاية أسراه.

في أجواء مشحونة بالشدّ والجذب كان موعد المهلة ينزلق إلىٰ أن طلب ريتشارد، بعد مرور عدّة أيام، وللمرّة الأخيرة، تنفيذاً فورياً لشروط الاتفاق. لقد هدّد ريتشارد بإعدام 2700 مقاتل مسلم في حوزته، إن لم يستلم أمواله وصليبه ورجاله في الحال. ثمّ مرّت أيّام أخرى من دون حسم، أمضاها

صلاح الدِّين في التأجيل والمواربة، ربّما اعتقاداً منه أن ريتشارد يخادع. ولم يكن اعتقاده في محلّه.

في 22 آب/ أغسطس 1191م، طلب الملك الصليبي الذي دفعه ورعه للمجيء واسترجاع الأرض الموعودة للمسيحية وليسوع، جمع الـ 2700 جندي مسلم. واقتيد هؤلاء إلىٰ خارج المدينة على طريق الناصرة، حيث نُظّموا في صفّ في منبسط بين موقع الجيش المسيحي الأمامي على تل العياضية وموقع الجيش المسلم الأمامي على تل كيسان. وهناك، تمّ قتلهم واحداً تلو الآخر؛

وتعليقاً على المذبحة قال كبير شعراء الحملة: هكذا تبارك الخالق!.

الفصل العشرون

الوطن: النار تحت الرماد

قبل الأحداث المروعة في عكّا ببضعة شهور، تركت إليانور المقتدرة والمتفرّدة والمتمرّدة ابنها المفضّل، ريتشارد، في صقلية واتجهت شمالاً نحو روما. وكان بين وجهاء حاشيتها رئيس أساقفة روان Rouen الذي أُبطل قَسَمُ مشاركته في الحملة الصليبية في مسّينا لكي يمكنه التفرّغ لأعمال سياسية أكثر أهمية. وبوضع برنغاريا في موكب الملك وإصدار الأوامر الصارمة بضرورة زواجهما بعد انتهاء فترة الصوم الكبير في أيّ مكان وُجدا (لم يخطر لإليانور أن تكون قبرص مكاناً للزواج)، لا بدّ أنّها شعرت بالرضا لكونها حلّت مشكلةً أساسيةً من مشاكل المستقبل.

لم تكن استمرارية سلالة بلانتاجينيه من اسكتلندا إلى البيرنيه الهمّ الوحيد الذي يُثقل على أفرادها. ومع انشغال الملك بحملته الصليبية بعيداً في فلسطين، كان لإليانور، أو بالأحرى هي اغتنمت الفرصة، أن تُخمد نيران البيت، وتحافظ على أجزاء المملكة موحّدةً حتّى عودة ريتشارد. وهكذا أصبحت إليانور أكثر من ملكة عادية، لقد أصبحت ملكةً مطلقة السلطة.

والتحدّي الفوري الذي كان عليها مواجهته هو مراقبة الطامعين بعرش

ريتشارد، خصوصاً ابنها الأصغر والأقل مكانةً لديها جون. فقبل سنتين، عندما تُوّج الملك الجديد، أظهر ريتشارد كرماً غير عادي تجاه أخيه الأصغر، رغم أنّه كان يضمر ازدراء الأخ الأكبر تجاه تصرّفات جون الصبيانية والنزقة. أعاد ريتشارد أخاه جون معه إلىٰ إنكلترا لكي يشارك الأمير في أبّهة احتفالات التتويج. وفي دير وستمنستر، قاد جون بكلّ أناقة الملك المنتظر إلىٰ المذبح، وهو يمسك بواحد من السيوف الملكية الذهبية. وبعد انتهاء المراسم سلّم ريتشارد أخاه حكم مقاطعة مورتاني في النورماندي، ونوتنغهام، وقلعة مارلبورو، وأضاف إليها مقاطعات دورست، وسومرست، وديربي، ولانكستر، وإرلية غلوسستر. وخلال أسابيع قليلة، عيّن الملك أخاه على رأس حملة لقمع تمرّد في إمارة ويلز. بعد إنجاز هذه المهمّة بنجاح، كافأ ريتشارد أخاه جون بإضافة مقاطعة ديفون إلىٰ مجالات سلطته. والجدير بالذكر أنّه قبل بضع سنوات فقط، كان جون عرضة للسخرية ولقبه «جان بلا أرض»، أمّا الآن فقد أصبح غرب إنكلترا بكامله تحت قيادته.

وبالرغم من كلّ كرمه هذا، لم يسمّ ريتشارد أخاه جون خلفاً له على العرش وقد أثار هذا الأمر بلبلةً ونقاشاً حادّين، وبالأخصّ مع احتمال مقتل ريتشارد في الأراضي المقدَّسة. كما سبّب عذاباً كبيراً لجون الشكّاك، الذي تخوّف من إمكانية إقدام أخيه الملك في قرار متسرّع على تسمية ابن أخيهما الأصغر، جوفري، وريثاً للعرش. وممّا زاد في إغاظة جون أنّ ريتشارد سلّم زمام الحكم لأحد مستشاريه، وليم لونشان Longchamp، بعد تعيين هذا النورماندي المقدام رئيساً للمحكمة وأسقفاً لمنطقة ألي Ely. حالما أصبح لونشان أسقف ألي، أقنع البابا بأن يجعله مندوباً بابوياً لكلّ من إنكلترا، وويلز، واسكتلندا، وإيرلندا، وكما يقول المؤرّخ ريتشارد أوف دفيز: «هكذا بثلاثة ألقاب، وثلاثة مناصب، يستطيع استعمال كلتا يديه بدلاً من يده اليمنى وحدها، كما يمكن لسيف بطرس أن يساعد سيف القائد».

لم يكن لونشان يتكلّم الإنكليزية ولم يكن لديه الاستعداد لتعلّمها. ميزته الرئيسية ليصبح وصيّاً على العرش، كان ولاءه الثابت لريتشارد، منذ كان مستشاراً له في أكيتان. وقد كان مستشاراً فطناً وقاسياً أيضاً، أي كان يمتلك الصفات الصارمة التي يحتاج إليها الملك الغائب في شخص قوي ليصون حكمه أثناء غيابه.

ولكي يضمن عدم تدخّل جون بسلطة المستشار، أصدر ريتشارد في بادىء الأمر قراراً يقضي بمغادرة جون إنكلترا لمدّة ثلاث سنوات. وبالرغم من أنّ إليانور أقنعت ريتشارد بالتخلّي عن هذا القرار، فإنّ الساحة كانت تتهيّأ لمعركة شرسة بين جون ولونشان في غياب ريتشارد.

كان هناك لاعب ثالث في ما وراء كواليس هذه المسرحية وهو جوفري Geoffrey آخر، الابن غير الشرعي لهنري الثاني من امرأة إنكليزية مجهولة. لقد كان مختالاً فخوراً يفتقر إلىٰ اللباقة، بالإضافة إلىٰ عصبيته وسرعة غضبه. كان كمن حمل ولادته غير الشرعية على ذراعه متباهياً بها وراح يتصرّف كأنّه مدينٌ بالكثير لهذه المهانة المحرجة. وبما أنّه كان انفعالياً ومفاجئاً بمواقفه، كان يبدو متأرجحاً طوال الوقت، بين العناد والتواضع المتملّق. أمّا إليانور التي أُجبرت على تربية هذا الولد من قبل زوجها، فكانت تكرهه كثيراً لأنّه ثمرة فجور هنري، وتُعامله معاملة زوجة الأب الشريرة. على أي حال لقد خدم جوفري أباه جيداً. فقد أظهر موهبةً لافتةً في الإدارة بالإضافة إلىٰ نهضته للدفاع عن أبيه خلال ثورات متعدّدة. وهكذا أيقن ريتشارد وإليانور أنّ عليهما تلبية طلبات جوفري الشرعية. وقد شكّلت رغبات هنري حلاً محموداً بالنسبة لريتشارد وإليانور؛ فقد عبّر هنري الثاني وهو على فراش الموت عن رغبته في أن يكون ابن نزوته (جوفري) أسقفاً لمدينة يورك. وبجعله أسقفاً، حُرم جوفري من الحلم باعتلاء العرش. وفي يورك تمّ نفيه بعيداً إلىٰ الشمال، بالإضافة إلىٰ قيام السلطات الملكية بالتقليل من أهميّة منصب الأسقف في يورك.

كان الحلّ ممتازاً، إلاّ أنّه لم يُعمل به بسبب اعتراض عدّة أساقفة على تعيين جوفري أسقفاً واعتبارهم هذا التعيين باطلاً، لأنّ جوفري بدا غير مناسب بتاتاً لاعتمار القلنسوة. فقد كان بطبعه محبّاً لاقتناء السيوف ذات القبضتين، والصقور، وكلاب الصيد الرشيقة بدلاً من الاقتناع بعباءة رجل الدين وعكازه. وقد أُطلقت عليه تسمية القاتل وابن العاهرة. وسئل البابا مرّات أن يكرّس تعيين جوفري أو أن يبطله. وقد ناشد جوفري ريتشارد آملاً منه أن يبقيه في خانة أصدقائه واعداً إياه بجمع المال لدعم الحملة الصليبية. إلاّ أنّه انقلب ليصبح في خانة أعداء الملك بعدما فشل في تحقيق وعده. وكان ريتشارد يزدري أخاه غير الشقيق مرّة ويجده نافعاً مرّة أخرى.

في صقلية، حملت إليانور الأخبار السيئة إلى ريتشارد ومفادها أنّ أخاه جون ووليم لونشان أصبحا خارج السيطرة. لقد كان جون يستعرض نفسه في البلاد وكأنّه الملك ساعياً لإخضاع المملكة لسيطرته مدّعياً أنّ ريتشارد لن يعود حيّاً من حملته الصليبية في الديار المقدّسة. أمّا لونشان، بدوره، والذي لم يكن يطمح لأن يكون ملك إنكلترا، فقد أراد أن يكون دكتاتوراً عليها. وقد وصفه أسقف كوفنتري، أحد أصدقائه، بأنّه كان يجول في البلاد «مقفلاً خياشميه، مع تكشيرة على قسمات وجهه وسخرية في عيونه وعجرفة على جبينه». لقد كان المستشار يتنقّل داخل البلاد ومعه رتل كبير من التوابع والكلاب والصقور والخيول بشكل يجعل من شرف استقبال مبعوث الملك هذا كضيف، يفلس صاحب الدعوة لسنوات. لقد خصّص أسقف ألي Ely أراضي لنفسه ولعائلته، كما أجبر أبناء النبلاء الإنكليز على إهانة أنفسهم وعائلاتهم بجعلهم يخدمونه وهم راكعون على ركبهم. وقد استقرّ لونشان في أكسفورد مع ديوان ملكي مؤلّف من النورمانديين والفلمنكيين الذين كان همّهم الأساسي السخرية من الإنكليز.

إثر ذلك، عمّت موجة اشمئزاز عارمة ضد لونشان في مختلف أرجاء

إنكلترا. وكتب عنه شمّاس يوركشاير: «اعتبره العلماني ملكاً بل أكثر من ملك، واعتبره رجل الدين بابا وأكثر من بابا، وكلاهما رأيا فيه مستبدّاً لا يطاق». ولأنّه كان من أصل نورماندي، كان يتصرّف وكأنّه ينتمي إلىٰ عرقٍ أسمى. لقد ظهر في معظم الأحيان وهو «يجاهد من أجل أن يضع نفسه في المستوى ذاته مع الصفوة». وكتب جيرالد أوف كامبريدج، وهو أحد الكتبة الرئيسيين للحملة الصليبية الثالثة، مقالاً عن لونشان يصف فيه ولادته الدنيئة؛ كما يقدّم وصفاً لجسده مشبّهاً إياه بالقرد والكلب معاً بسبب «ساقيه المنحرفتين، وقدميه الهائلتين، ورأسه الكبير، وبشرته السمراء، وعينيه السوداوين والغارقتين، ووجهه المكسو بالشعر، وابتسامته الشريرة»، فضلاً عن طباعه السيئة وأخلاقه المنحلّة. ويبدو من خلال هذا الوصف اللاذع أنّ جيرالد لم يكن يحبّ النورمانديين.

وخلال صيف سنة 1191م بينما كان ريتشارد يضرب أسوار عكّا، كان الصراع بين أخيه جون ومستشاره لونشان قد بلغ حدّ الانفجار. قام لونشان بمحاصرة قلعة لينكولن في حين قام جون بمحاصرة نوتنغهام وتيكهيل؛ والشيء الوحيد الذي حال دون تطوّر هذا الانقسام الحاصل إلىٰ حرب أهلية واسعة كان نداء عدد من الأساقفة أقنعوا الفريقين بضرورة الهدوء وإعلان الهدنة. لكن الاتفاق كان يدور حول الأمور المستقبلية أكثر من الأمور الآنية، إذ كان هناك احتمال أن يفارق الملك هذه الحياة خلال رحلة حجّه إلىٰ الأراضي المقدّسة. وبالرغم من أنّ الوضع هدأ في الوقت الحاضر، إلاّ أنّ الأطراف المختلفة راحت تقسّم القلاع الخاضعة لسلطة ريتشارد فيما بينها.

في صقلية، رأت إليانور ومعها ريتشارد ضرورة تثبيت جوفري أسقفاً ليورك، لأنّه كان لا يزال محبوباً في إنكلترا كونه ابناً لملك إنكليزي وأخاً لخلفه بالإضافة إلىٰ كونه ابن امرأة عادية من عامّة الشعب، وهذا ما جعل الناس العاديين يحبونه. هذه الشعبية التي تمتّع بها لعبت لترجيح الكفّة المقابلة

لتجاوزات جون ولونشان. كما وضع ريتشارد في يدي إليانور بعض الرسائل المختومة التي كان من شأنها إعادة المتخاصمين إلىٰ طريق الصواب مجدّداً. ولكن هذه الرسائل التي كتبت بعيداً عن الوطن لم تكن كافيةً لوضع حدّ للصراع القائم.

وقد وقعت هذه المشاكل في إنكلترا بالرغم من الإرشادات العريضة التي نصّت عليها واحدةٌ من أكثر الوثائق مهابة في الحملة الصليبية والتي أُطلق عليها اسم «وثيقة هدنة الله» وكان جوهرها القسَم المطلق لأي ملك أو أمير مسيحي أثناء الحج العسكري في حرب عادلة ومقّدسة. وقد كانت لهذا القسم جذوره في الحملة الصليبية الثانية. ووفقاً لبنوده، وافق الملوك على عدم استغلال غياب نظرائهم من الأمراء والملوك خلال قيادتهم للحملة الصليبية للاستيلاء على الحكم وتحقيق مطامع شخصية. ونصّت هذه الوثيقة على أن تتوّج هدنة الله بقبلة يتبادلها الطرفان المتنازعان. وتطبيقاً لنص هذه الوثيقة، أقسم لويس ملك فرنسا وزوج إليانور الأوّل قسم الحج قبل مغادرته إلىٰ الأراضي المقدَّسة سنة 1147م. كما طبّق هذه الهدنة هنري الثاني، زوج إليانور الثاني، مع فيليب أغسطس تحت شجرة الدردار في جيسور Gisors سنة 1187م، وطبّقها ريتشارد مع فيليب أغسطس أيضاً وتبادلا قبلة السلام في ڤيزيلي خلال اجتماع جيشيهما سنة 1190م.

وقد أعادت الاتفاقيات التي حملتها إليانور معها إلىٰ روما الاعتبار لوثيقة هدنة الله، خصوصاً وأنّ النزاع القائم بين جون ولونشان جعل منهما خارقين كبيرين لأُسس تلك الهدنة المقدَّسة. وقد أرادت إليانور أن تضع بركة البابا حدّاً لهذا النزاع المدني ووفقاً لشروطه. ومن أجل ذلك وصلت إلىٰ روما المدينة الخالدة في اليوم ذاته الذي أُعلن فيه الإكليريكي هياسنتوس بوبو Hyacinthus Bobo والبالغ من العمر ثمانين سنة باباً جديداً باسم لستين الثالث وكان في السابق رئيس شمّاسي الكنيسة خلال الأزمة الرهيبة المتعلّقة بتوماس آ. بيكيت

قبل سنوات عديدة، ممّا يعني أنّه يعرف جيّداً المخاطر والفرص التي كانت كامنةً في الصراعات القائمة بين الملوك والأساقفة. لقد كان البابا الجديد مؤيّداً بالطبع للحملة الصليبية، ولكن لم يكن لديه أيّ تصوّر حول دوافع المشاركين فيها، وممّا يقوله حرفيّاً في هذا السياق: «لم يكن بالطبع الخوف من الله أو الشعور بالندم الدافع الذي دفعهم للقيام بالحملة بل إنّ الكبرياء والصلف كانا الدافعين الوحيدين».

وبالرغم من ذلك، كان البابا ما يزال متعاطفاً مع مطالب إليانور. فمنح الطيلسان رسمياً لجوفري بصفته أسقفاً لمدينة يورك، وكرّس أسقف روان Rouen ممثّلاً أعلى للبابا، الأمر الذي جعله أرفع مكانةً من وليم لونشان باعتباره مستشاراً وأسقفاً لألي Ely. أمّا إليانور التي كُلّفت رسمياً بإدارة شؤون السلطة من قبل ريتشارد في الرسائل المختومة، فقد تعزّز موقفها بالمرسوم البابوي الذي كرّسها وصيّةً على عرش ريتشارد. بكلّ هذه الثقة تركت إليانور روما وعبرت نحو جبال الألب. وفي منتصف فصل الصيف، حجبت نفسها في قلعة روان وهي تلقي عيناً حذرةً عبر القناة، وعين حبّ واهتمامٍ على أراضيها الأوروبية.

وإذا كان ريتشارد قد عزم على الحدّ من تجاوزات مستشاره القوي، فهو لم يقوّض سلطته بل على العكس. وفي 6 آب/ أغسطس، وبينما هو في انتظار أن يوافق صلاح الدّين على شروط الاستسلام في عكّا، كتب رسالةً إلىٰ لونشان يشرح له فيها وضعه الحالي. وفي تقييم سريع لمجريات الأمور، قام الملك بإعلان نبأ فتحه قبرص وإحكام قبضته على عكّا متوقّعاً أن يعود إلىٰ دياره في إنكلترا مع بداية الصوم الكبير المقبل عودة المنتصر والمسيحي المتواضع، مع تأكيده بأنّ القدس وقبر القيامة سيكونان مجدّداً تحت سيطرتهم المشروعة.

ومع صحوة إليانور، اتّجه جوفري إلىٰ إنكلترا مدعوماً بتعيين البابا له أسقفاً ليورك، إلاّ أنّ عملاء وليم لونشان حجزوه في النورماندي ومنعوه من

عبور القناة مؤكّدين له أنّ الملك نفسه قد أصدر قبل سفره إلىٰ الأرض المقدّسة أمراً يقضي بمنع عودة جوفري إلىٰ دياره لمدّة ثلاث سنوات. ولم تلاقِ احتجاجات جوفري على أوامر ريتشارد الجديدة آذاناً صاغية. إلاّ أنّ جوفري تجاهل التحذير وعبر القناة إلىٰ دوڤر حيث تمّ اعتقاله من قبل شرطة لونشان بطريقة وحشية. إذ كان الأسقف قد توجّه بعد عبوره القناة بسرعة شديدة إلىٰ دير القدّيس مايكل المحلّي حيث كان يقيم قدّاساً عندما اقتحم رجال لونشان المكان. بعد خمسة أيام من الأعمال العدائية، دخل رجال لونشان الكنيسة عنوة وقاموا بجرّ الأسقف من على المذبح وهو لم يزل في ردائه الأسقفي وجالوا به شوارع دوڤر رغم اعتراضات الناس حتى وصلوا به إلىٰ قلعة دوڤر حيث أودع السجن.

وقد أعطى هذا التعدّي على الأسقف جوفري الإيرل جون فرصةً لطالما بحث عنها، فأمر بإطلاق سراح جوفري واستجاب لونشان لهذا الأمر، ولكن بعد ذلك راح جون يحرّض رجال الدين في إنكلترا على المستشار لونشان مستغلاً حادثة اعتقال جوفري التي سبّبت جرجاً عميقاً في قلوب الكثيرين منهم، وولّدت اعتراضاتٍ صاخبةً من جانبهم ضد لونشان. وممّا يدلّ على مدى سخط رجال الدين على لونشان هذا الاتّهام الشامل على لسان أسقف كوفنتري الموجّه ضد لونشان وقد جاء فيه:

«لقد أرهق هو وأصدقاؤه المعربدون كاهل المملكة بحيث لم يحفظوا لرجل حزامه، ولا لامرأةٍ قلادتها، ولا لنبيل خاتمه، ولا أيّ شيء ذي قيمة حتّى بالنسبة ليهودي. لقد أفرغ لونشان خزينة الملك كلّياً من المال بحيث لم يترك في الصناديق أو الأكياس سوى مفاتيح الخزائن؛ وذلك بعد مضي أقل من سنتين على غياب الملك». ومع تزايد الحملة ضدّه، لجأ لونشان إلىٰ برج لندن حيث راح يحتجّ بشدّة على الاتهامات الموجّهة له، وممّا قال في سياق الدفاع عن نفسه: «لقد تمّ القبض على أسقف يورك من دون علمي أو موافقتي، وإنّني

مستعدّ لأن أقدّم بياناً بجميع الأموال التابعة لخزينة الملك والتي صرفتها محدّداً أسباب صرفها وعلام صُرفت، ذلك لأنّني أخاف الملك أكثر ممّا تخافونه أنتم».

ثمّ تعالت بعد ذلك صيحات الناس مردّدين الكلمات التالية: «اقتلوا ذلك الذي يقف وراء كلّ دمار». ثمّ استحضروا إلىٰ الذاكرة كلام القدّيس لوقا: «ذلك الذي لا يستطيع أن يحطّم الجميع، دعوه يتحطّم. وإذا كان قد فعل ذلك في شجرةٍ خضراء، فما الذي سيفعله في شجرةٍ يابسة؟».

أمّا الهيئة القضائية المؤلّفة من النبلاء والأساقفة، الذين اجتمعوا للاستماع إلىٰ الاتّهامات الموجّهة ضد لونشان، فكان يُشهد لها بلياقتها ونظامها واهتمامها الشديد بمبادىء القانون المحدث والذي شُرّع في إنكلترا في أواخر عهد هنري الثاني. كما أنّ جون، إيرل مورتاني Mortaigne، تصرّف ببراعة سياسية ملفتة بتركه القرار لحكم القضاء من دون أي تدخّل منه، فقد كان يقدّر رأي القضاء ويحترمه ويحرص على عدم تجاوزه لأنّه كان يعي بقوّة أنّ الرهان كان منصبّاً عليه في هذه القضية أكثر من براءة لونشان.

أمّا بالنسبة إلىٰ المستشار لونشان فإنّ النتيجة كانت محسومة، ونصّت إحدى الرسائل التي بعث بها الملك ريتشارد من صقلية بأنّه إذا تصرّف لونشان ضدّ الوزراء الملكيين المعيّنين من قبل ريتشارد، فيتوجّب خلعه واستبداله أسقف روان به، ومع هذا النص انتهت قضية لونشان وبالتالي تمّت تبرئته وحرمانه كنسياً في وقت واحد.

استغلّ جون الدعوى لتحقيق رغباته، فقد أعلنت المحكمة أنّ الوريث الشرعي للعرش في حال وفاة الملك ريتشارد قلب الأسد سيكون حتماً جون، إيرل مورتاني.

لم يكن لونشان موجوداً أثناء محاكمته بسبب هروبه إلىٰ دوفر. وأثناء هروبه، راودته لفترة وجيزة فكرة أن يحمل الصليب وينضمّ إلىٰ حملة ريتشارد

الصليبية كوسيلة للهروب من بؤسه. إلاّ أنّه عدل عن هذه الفكرة وقرّر أن يحتجّ على سوء معاملته في روما خصوصاً وأنّه كان لا يزال يتمتّع بدعم بعض المؤيّدين هناك. غير أنّ المشكلة التي واجهته كانت كيفية الخروج من إنكلترا. ومن أجل تحقيق هدفه، طرح ثيابه الكهنوتية جانباً، وعُدّة سلطته الزمنية، وتنكّر في زيّ امرأة سالكاً طريقاً طويلة مكسوّة بالأشجار الخضراء حتّى وصل إلىٰ الشاطىء حيث كان ينتظره زورق صغير. وقد علّق أسقف كوفنتري بسخرية على مشهد هروبه قائلاً: «تظاهر بأنّه امرأة رغم أنّه كره هذا الجنس دائماً، لقد استبدل بعباءة الكاهن ثوب المومس. يا للعار، لقد أصبح الرجل امرأة، وغدا المستشار مستشارة، والكاهن غانية، والأسقف مهرّجاً».

بينما كان لونشان جالساً على صخرة شاحب الوجه مرّ به صياد سمك، وكما يقول أسقف كوفنتري، «ربّما كان الصيّاد يبحث عن الدفء»، وهكذا عندما رأى امرأةً جالسةً لوحدها سارع إلىٰ معانقتها إلاّ أنّ الغطاء سقط وكشف عن سحنة لونشان السمراء. فقفز الصيّاد من مكانه مذهولاً وصاح مخاطباً أصدقاءه: «تعالوا لتروا الأعجوبة، لقد وجدتُ امرأة هي في الحقيقة رجل». فاحتشد حوله جمع من الناس ليروا المنظر العجيب وراحوا يتحدّثون معه ويطرحون عليه أسئلة علّها تكشف لغز تلك الأعجوبة؛ لكن لونشان لم يكن يفهم الإنكليزية، وقد أثار عدم ردّه على الأسئلة غضب الناس من حوله. الأمر الذي جعل الأمور تأخذ مساراً سيئاً. فقد صاح واحد من الجمع قائلاً: «ارموا هذا الوحش بالحجارة». لكنّهم في النهاية قاموا بجرّه من أكمامه على طول الشاطىء وعبروا المدينة حتّى وضعوه في الزنزانة نفسها التي كان قد سجن فيها جوفري في قلعة دوفر.

واستطاع لونشان في النهاية أن يذهب إلىٰ أوروبا حيث تمكّن من إحداث بعض المشاكل والاضطرابات لبضعة شهور. ومن أعماله التخريبية الذكية إعلام ريتشارد بطموح جون للوصول إلىٰ العرش، والقيام في الوقت ذاته بدفع مبلغ

من المال لجون من أجل إعادته إلىٰ منصبه القديم. وكي يحقّق مبتغاه ويفوز بقضيته صبَّ جام غضبه على صديقه المزيّف أسقف كوفنتري الذي كشف فضيحة تنكّره بزيّ امرأة في دوفر على العلن وبكلّ سرور وبهجة. وفي سياق هجومه على أسقف كوفنتري، كتب لونشان يقول إنّه «يجب على الجميع تفادي أسقف كوفنتري بحيث لا يتمكّن في المستقبل خروف مريض من القضاء على القطيع كلّه». إنّ براعة فقهاء ذلك الزمان في إهانة أحدهم الآخر أمر لا جدال فيه، ولكن لم تنجح أي إهانة من قِبل لونشان للمشنّعين عليه في أن تنقذه، فتوارى من الساحة.

وأضرّت نتيجة قضية لونشان بالملك ريتشارد، إذ أصبح أخوه الأصغر جون في مركز أقوى يمكّنه من تعطيل حكمه. وبالفعل كان الإبقاء على حالة اللااستقرار الوطني من أولى اهتمامات جون، بحيث عُطّلت قبضة ريتشارد الحديديَّة في بلاده، وفقدت اتّفاقية هدنة الله أهميّتها. لقد أصبح الخداع سيّد الموقف في إنكلترا، وإذ لم يلتفت الملك الغائب إلىٰ نداء التحذير، فقد كان من الطبيعي أن يعرّض نفسه لخسارة كلّ شيء. وبعد وصول أنباء كلّ هذه المشاكل تدريجياً إلىٰ ريتشارد، وهو لم يزل ينعم بانتصاره في عكّا، لا بدّ أنّه تساءل عمّا إذا كان الأمر يستحقّ المغامرة بحياته ومملكته.

وبعد أسابيع قليلة من سقوط عكّا، وقعت كارثة أعظم من كلّ ما سبق، وأدّت إلىٰ اشتداد الخطر المحدق بسلطة ريتشارد فعلياً.

II

الغنائم

من الصحيح فعلاً أنّه مع وصول القوّات الإنكليزية والفرنسية المكتسحة سقطت مدينة عكّا. لكن بعد سقوطها، استمرّ ريتشارد وفيليب في جمع الغنائم

كلّها بحرص شديد منهما للحصول عليها وكأنّهما المعنيان الوحيدان بهذا الانتصار البطولي. لقد تجاهل الملكان حلفاءهما بابتهاج متناسيّين حقيقة أنّ الغنائم يجب أن تعود فعلياً إلىٰ من اغتنمها. كما سخر الملكان من مطالبة النبلاء المحلّيين بمملكة القدس والذين كانوا قد خسروا ملكيتهم باستيلاء صلاح الدِّين عليها قبل أربع سنوات. هؤلاء النبلاء كافحوا وبذلوا جهداً كبيراً للحفاظ على موطىء قدم للمسيحيين في الديار المقدَّسة. لقد صمدوا لمدّة سنتين في وجه نزاعات كبيرة قبل وصول الجيوش الأوروبية المجهّزة.

بعد ذلك إذاً قام الملكان بالتخلّي عن دور الجنود الإيطاليين والألمان والنمساويين. وقد ولّد احتقار الجنود الإنكليز للجنود الألمان نتائج رهيبة. وبعد انتشار نبأ وفاة فريدريك بربروسا، سارع شقيقه ليوبولد الخامس، دوق النمسا، في الذهاب إلىٰ الأراضي المقدَّسة ليتولّى قيادة الجنود الألمان بنفسه. وفي أحد الأيام، وخلال احتفالهم وابتهاجهم بالاستيلاء على المدينة، قام رجال ليوبولد برفع راية ذات خطوط بيضاء وحمراء فوق أحد المباني المهمّة، الأمر الذي دفع بالجنود الإنكليز إلىٰ إنزالها وتمزيقها والرمي بها في إحدى الحفر وهم يضحكون ويهزأون بإخوانهم الألمان. بعد هذه الحادثة، تمّ تعيين حرّاس على أبواب مدينة عكّا بحيث لم يعد يُسمح سوى للإنكليز والفرنسيين بدخولها، في حين تمّ منع الآخرين بقساوة غير عادية. ومن علامات التشدّد المتّبع في مدينة عكّا إجبار ثلاثة عشر جندياً غير إنكليز أو فرنسيين على دفع غرامة مالية باهظة لمحاولتهم دخول المدينة من دون تصريح. لقد تناسى المحاسبون الفرنسيون والإنكليز بعض الأمور الحسّاسة واندفعوا وراء أطماعهم، وقاموا بتهيئة جداولهم وبدأوا بعملية العد والحسبان للغنائم والتي استهلكت وقتاً طويلاً، وقاموا بتقسيمها بالتساوي فيما بينهما. وبقي خارج هذا الاقتسام أولئك الذين يستحقّون فعلاً هذه الغنائم والذين خرجوا منها فارغي الأيدي.

وبالطبع أدّى هذا التكبّر إلى كُرهٍ مسوَّغ للإنكليز. وقام الدوق ليوبولد، ردّاً على تدنيس رايته والاستهزاء بتضحية الجنود الألمان الهائلة، بسحب جيشه من الحملة الصليبية تعبيراً عن استيائه وسخطه ممّا حصل متوعّداً بالانتقام من ريتشارد صاحب الدم الطائش والمولع بالقرصنة. ولم يتم بحث مسألة الملكية إلاّ عندما اجتمع الفرسان المحلّيون مع بعضهم وأجبروا الملك على الاهتمام بطلباتهم. وأثناء اجتماعهم في قصر الداوية، حدّد النبلاء مطالبهم بوضوح، وقال أحدهم: «لقد استولى العرب على أرضنا بالقوّة، وقد جئتم أنتم لتحرّروا مملكة أورشليم. ولكن لا يحقّ لكم أن تحرمونا من حقّنا في حكم أرضنا. لقد استولى فرسانكم على بيوتنا بحجّة أنّهم حرّروها من العرب. لذلك نرجوكم ألاّ تسمحوا بطردنا من بيوتنا».

كان الملك فيليب أوّل من رأى أنّ هذه المطالب محقّة، لأنّه كما يبدو بدأ يلين بعض الشيء، إضافةً إلىٰ فقدانه الشهية للحرب والقتال في هذه الأماكن القاحلة. لذلك قال للنبلاء: «نحن لم نأتِ إلىٰ هنا لكي نفوز بأرض أَو نستولي على ملكية أحد، إنّما جئنا في سبيل الله وكي ننقذ أرواحنا ونطهّر مملكة أورشليم من الكفرة. وبما أنّ الله منحنا هذه المدينة، فلا يجدر بنا أن نأخذها من ورثتها الحقيقيين». وأيّد المجتمعون ما قاله فيليب ووضعوا اتفاقية نصّت على أحقيّة الفرسان الأصليين باسترداد بيوتهم لكن بعد أن يخليها الجنود الإنكليز.

بعد ذلك تباطأت تلبية الشكاوى، وكتب أحد الإيطاليين بخصوص هذا الموضوع: «من الممكن أن تحكم الكنيسة والأجيال المقبلة عمّا إذا كان ملائماً طبقاً لعظمة الملوك أن يحتفظوا لأنفسهم بما اغتنمه غيرهم لمدّة سنتين متتاليتين مع كلّ ما قدّموه من التضحية والمعاناة. فبدلاً من التفكير في أنفسهم، كان عليهم أن يعوا أن عظام العديد من الناس ابيضّت في هذه الأراضي المقدَّسة. فهذا النصر لا يمكن أن يُنسب إلىٰ الملكين، بل هو نصر من الله». والأمر الذي

يزيد من جدّية هذا البيان هو أنّ المقابر التابعة للمستشفى الألماني ومستشفى القديس نقولا أصبحت ممتلئة بجثث آلاف الجنود المدفونين فيها والذين لم يكونوا ضحايا القتل فقط بل أيضاً ضحايا الجوع والطاعون.

وهكذا ذابت لحظة الانتصار في هذا الاتهام المضاد ومفاده أنّه لو حافظ النصر في عكّا على الوحدة وألهم الجنود المسيحيين، كان لتحوّلَ من دون شك إلىٰ قوةٍ كبيرةٍ تكتسح الأراضي بسرعة ما بين عكّا والقدس. لكن جشع ريتشارد نسف التحالف الهشّ الذي كان قائماً بينه وبين فيليب. وفي أوائل تموز/يوليو، أصيب الملك فيليب بداء الزحار وراح يبحث عن علاج له بعدما كان قد فقد شعره قبل شهر بالأرنالديا. وقد دفع به كلّ ذلك إلىٰ الهذيان والتركيز فقط على إيجاد العلاج لمرضه وإهمال كلّ الأشياء الأخرى.

وفي استغلالٍ فرنسي ذكي وخبيث لهذا الظرف المهم، شاع خبر ملفّق عن قيام الملك ريتشارد بزيارةٍ للملك فيليب وهو على فراش المرض، وكأنّه يريد عافية حليفه المريض لكنّه في الحقيقة يسعى لأن يزيده مرضاً، وبشكل أدقّ يريد أن يقتله من الصدمة.

وتتابع الرواية الفرنسية بأنّه بعد استعلامات مملّة من قبل ريتشارد حول مدى خطورة مرض حليفه السابق فيليب، قال له بحسب المؤرّخ الفرنسي: «وكيف تواسي نفسك في ما يختص بابنك لويس؟» كان هذا الموضوع شديد الحساسية بالنسبة إلىٰ فيليب، خصوصاً وأنّ لويس كان ابنه الوحيد من إيزابيلا وقد وُلد قبل أربع سنوات وأصبح بالتالي الوريث الشرعي الوحيد لعرش فرنسا.

فردّ فيليب بقلق على سؤال ريتشارد قائلاً: «وماذا حصل لابني لويس يجعلني أواسي نفسي؟» فأجابه ريتشارد: «لقد جئتُ لهذا السبب، ألا وهو أن أواسيكَ بموت ابنك».

هذا تأريخ رخيص وتزييف للوقائع. إنّه تلفيق شرير للأحداث غايته تصوير فيليب ضحيةً لريتشارد مرّة أخرى، كما يهدف إلىٰ تزويد التاريخ ببعض التعاطف

مع فيليب في الأحداث التي تلت. ولكي لا تتحقّق أهداف الفرنسيين، قام مؤرّخ إنكليزي بإصدار تأريخه الخاص للأحداث. فقد كتب ريتشارد أوف ديڤايزز Devizes، وهو راهب من ونشستر، أنّ فيليب أمر كتّابه بأن يفبركوا رسالةً دبلوماسيةً من فرنسا تتوسّله لكي يعود بسبب مرض ابنه الميؤوس منه. ولكن في الحالتين، فإنّ هذه التأريخات المزيّفة كُتبت بعد انتهاء الحملة الصليبية.

وهناك دليل على أنّ ابن فيليب كان بالفعل مريضاً في فرنسا بمرض الزحار في وقت مرض والده الملك فيليب في عكّا. لكن الملكين كانا عاجزين عن معرفة ما يحدث في باريس البعيدة عنهما آلاف الأميال. ولإضافة لمسة عجائبية على الحكاية المستحيلة، ادّعت الرواية الفرنسية للأحداث أنّ موكباً مهيباً انطلق إلىٰ سان لازار، حيث رفع الدوقات الصلوات من أجل شفاء لويس. وعندما لمس الولد المريض الأثر المقدّس في الكنيسة ألا وهو مسمار من صليب الجلجلة، شُفي مباشرة، وهذا ما كنّا نعتقد، كما فعل أبوه، الموجود بعيداً في فلسطين.

وبغضّ النظر عمّا إذا كانت قوّة طبيعية أم خارقة وراء شفاء فيليب، إلاّ أنّه بدأ بالفعل يشعر بالتحسّن، وقد شكّل ذلك ذريعةً له لكي يعود إلىٰ بلاده. وبعد النصر الذي تحقّق في عكّا، عاد السؤال الشائك حول ملك القدس الشرعي يطرح نفسه. فبعد إدراك كونراد مونتفرّا أنّ بطله، فيليب ملك فرنسا، أصبح ضعيفاً ولم يعد في شوق إلىٰ الأراضي المقدَّسة، جاء إلىٰ الملك ريتشارد وجثا على ركبتيه سائلاً إيّاه أن يسامحه وأن يعطيه فرصةً لتصحيح خطئه.

كان ريتشارد وفيليب يختلفان دائماً حول مرشّحهما لتولي الحكم في الديار المقدَّسة. وقد وبّخ ريتشارد فيليب ذات يوم لقطعه وعداً بترك رهائنه والتخلّي عن فتوحاته في المستقبل لصالح كونراد مونتفرّا إذا مات أو قرّر العودة إلىٰ بلاده. كما وبّخ الملك الإنكليزي فيليب مرّة أخرى في منتدى عام أمام أعين الناس قائلاً له: «لا يليق برجل في مقامك أن يتخلّى عن أشياء لم يفز بها

أصلاً أو يعد بتقديمها». وتابع يقول: «إذا كان حبّكَ للمسيح هو الدافع حقّاً وراء حجّكَ إلىٰ الأراضي المقدّسة، فعلى الأقل عندما تُحرِّرُ القدس، يجب أن تسلّمها إلىٰ شخص يستحقّ أن يكون بجدارة ملك القدس. وتذكّر أنّكَ لم تكن لتستولي على عكّا من دون مساعدتي، واليد الواحدة لا ينبغي لها أن توزّع ما هو ملك ليدين اثنتين».

في النهاية تمّ الوصول إلىٰ اتفاق، ولكنّ احتدام النزاع قبل ذلك واستعداد الملكين لأن يضرب أحدهما الآخر، جعل الثمن يرتفع كثيراً. وقد نصّ الاتّفاق بين الملكين على أن يتولّى حكم القدس، مرشّح الملك ريتشارد غي دو لوزينيان، الذي كان أوّل من شرع بحصار عكّا؛ إلاّ أنّ الاتفاق نصّ على عدم تولّي أولاده العرش بعده. وبعد وفاة غي، يصبح مرشّح فيليب كونراد مونتفرّا الأكثر حظّاً ليكون ملكاً مع السماح لورثته بتسلّم العرش من بعده. وبالتالي يبسط كونراد سيادته على صور، وبيروت وصيدا. أمّا جوفري، شقيق غي، فيتولّى حكم يافا وعسقلان، عند تحريرهما من صلاح الدّين. أمّا بالنسبة إلىٰ مداخيل المملكة، فقد تمّ الاتفاق على وجوب تقسيمها بالتساوي بين الملكين. وبالرغم من ركوع غي وكونراد على ركبتيهما وقسمهما على أن يتقيّدا ببنود هذا الاتفاق، تركت حدّةُ النقاش بين الملكين فيليب وريتشارد أثراً سيئاً على التحالف.

وفي الثاني والعشرين من تموز/ يوليو، وبعد عشرة أيام فقط على سقوط عكّا، استقبل الملك ريتشارد وفداً مرسلاً من قِبل الملك فيليب ضمّ أسقف بوفيه Beauvais وأسقف برغنديا. قدّم الوفد الفرنسي اعتذاراً متودّداً لغياب سيّدهم الملك، مصارحين ريتشارد بأنّه لم يزل مكتئباً بعض الشيء. لكن هذا الأخير خمّن على الفور سبب مجيء هذا الوفد بطريقة رسمية ومهذّبة وهادئة، متكلّمين عن الشعور بالخزي والعار.

فقال لهم ريتشارد ببرودة: «يريد سيدكم أن يعود إلىٰ بلاده، وأنتم جئتم

تأخذون الإذن منّي». لقد اعتقد ريتشارد أنّ فيليب قد شفي من مرضه نهائياً ولكن الحقيقة أنّ فيليب لم يعد لديه عمود فقري ليظهر واقفاً، أي بمعنى آخر لقد أصيب بالشلل.

وعبّر المبعوثون الفرنسيون عن مخاوف ملكهم من أن يموت في حال بقائه في فلسطين. لقد كان الملك فيليب قلقاً على ابنه وعلى تاجه ويفكّر في مسألة تسلّم الحكم في الفلاندرز. وقد أولى الملك فيليب هذا الأمر اهتماماً شديداً بسبب تطلّب مثل هذه الأمور جهداً شخصياً وفورياً.

استمع ريتشارد إلىٰ كلام المبعوثين الفرنسيين بصبر وتأنّ. وربّما ذهب بفكره إلىٰ مشاكله الخاصّة في إنكلترا والنورماندي وآنجو، إضافةً إلىٰ مواجهة أخيه جون واستبداد لونشان. وسط كلّ هذه التحدّيات، خاطر هو بنفسه بالبقاء في هذه الحملة النبيلة والمغامرة. وربّما يكون قد فكّر أيضاً في النذور والتعهدات في جيسور وڤيزيلي حيث أقسم مع جنوده على أمور تتعلّق باهتماماتهم الدنيوية، وقاموا بحياكة صليب الجلجلة على معاطفهم، وتقبّلوا فكرة الاستشهاد مسرورين.

«سيكون من الخزي والعار على ملك فرنسا، وفرنسا نفسها، أن يترك الحملة قبل إنجاز مهمّتنا على نحو كامل. لذلك أنصحه بألاّ يقدم على هذه الخطوة». قال ريتشارد هذا الكلام مع يقينه بأنّه لم يعد هناك أي مجال للتفاوض بخصوص هذا الأمر وبأنّه لن يستطيع أن يقنع فيليب بالعدول عن الرحيل. وأضاف ريتشارد قائلاً: «إذا كان يحدّد اختياره بين الموت هنا والعودة إلىٰ دياره، فعليه إذاً أن يفعل ما يريد». وقد شكّلت هذه الكلمات بالنسبة إلىٰ ريتشارد مخرجاً جيداً من الموقف.

بعد ذلك، ذاع خبر انسحاب فيليب بسرعة بين الجنود، الأمر الذي سبّب ذعراً كبيراً في صفوفهم. وفي اليوم التالي قام عدد من الفرسان بزيارة الملك الفرنسي، وقد انفجروا بالبكاء وتوسّلوا سيّدهم كي لا يلحق العار بمجد الملوك

الذين سبقوه أو الذين سيخلفونه. قالوا للملك إنّه لا يوجد شيء أكثر خزياً من أن ينقض الحاج قسمه. قالوا له ذلك وهم يبذلون جهداً كبيراً لإخفاء كرههم له، لكن الملك لم يحرّك ساكناً وبقي غير متأثّر.

وفي 29 تموز/ يوليو سنة 1191م، أي بعد مضي أسبوع على خبر مغادرته، عاد الملك فيليب مجدّداً يطلب مباركة ريتشارد لسفره. ولم يكن أمام ريتشارد أيّ خيار غير الموافقة على سفر فيليب. وأيّاً تكن الظروف فلم تكن لدى الملك الفرنسي نوايا عدوانية تجاه الأراضي الخاضعة لحكم ريتشارد في أوروبا طالما بقي الملك الإنكليزي في الديار المقدَّسة. وبشكل مهيب أعلن فيليب هذا الأمر وأقسم بذلك على كومة من الكتب المقدّسة. وقطع الملك الفرنسي وعداً بأن يحافظ على هذا القسم المقدّس لمدّة أربعين يوماً بعد عودة ريتشارد من الحملة الصليبية.

نظرياً، يُعتبر قَسَمُ فيليب تجديداً لاتفاقية هدنة الله. إلاّ أنّه سرعان ما ستتحوّل هذه الاتفاقية كما سابقاتها، إلىٰ نقض لعهد الرجال. فقبل مغادرة فيليب لفلسطين، سلّم نصف ما اغتنمه في عكّا إلىٰ مونتفرّا، وبعد أيام قليلة سلّمه أيضاً الرهائن المسلمين بمن فيهم قراقوشٰ. كما سلّم قيادة جيشه لدوق برغنديا، مغدقاً عليه غنيمةً أخرى من غنائمه.

وهكذا بعدما لحق به الخزي والإهانة، وأصبح أفقر ممّا كان عليه في الأيام القليلة الماضية، وتساقط شعر رأسه، وأُصيب بقروح جلدية؛ غادر الملك الفرنسي الأراضي المقدَّسة متسللاً في خمس سفن، استعار اثنتين منها من الملك ريتشارد. لقد كان الهواء مثقلاً بجريمة انتهاك فيليب لقسمه، وقد ردّد أحد المواطنين الغاضبين من هرب فيليب قائلاً:

«يا للعار، لقد تركت أرض الله، مُسْخِطاً جميع القديسين ومُغضِباً الربّ نفسه. يجب أن يُستقبل استقبال الأشرار؛ إنّه وغد وستكون عظته خبيثة». كما كتب ريتشارد عن الملك فيليب، عندما عاد إلىٰ دياره: «تخلّى عن الهدف من

وراء حملته إلىٰ الحج، نكث عهده لله فألحق الخزي السرمدي بنفسه ومملكته». ولم يمرّ وقت طويل حتى تمّ تشبيه ما حصل بين الملكين فيليب وريتشارد بذلك الذي حصل بين النبيّين إبراهيم ولوط في سفر التكوين. فقد كان إبراهيم ولوط أخوين لم يستطيعا العيش معاً، وهكذا بقي إبراهيم في أرض كنعان في حين غادر لوط إلىٰ الأرض الملعونة سدوم.

كانت المرحلة الأولى من رحلة عودة الملك فيليب إلىٰ فرنسا خاليةً من حوادث تُذكر وقد عبر خلالها أنطاكية، ثم اجتاز نهر «سالف Salef» حيث غرق الإمبراطور بربروسا، وبعد ذلك أبحر على طول ساحل المملكة التي منها أحضر الملوك الثلاثة الذهب واللبان والمر إلىٰ الطفل «يسوع». ولكن عندما دخلت سفينة الملك فيليب خليج الأناضول (في المكان الذي تشتّتت فيه سفن ريتشارد سابقاً) هبّت عاصفة عاتية حوّلت اتجاه السفينة بشكل معكوس، فاجتمع الفرسان على الفور حول ملكهم مدّعين أنّ السبب هو إمّا أنّ رأس الشيطان يعترض سفينتهم، وإمّا أن يكون التنين الأسود الضخم قد بدأ يشدّهم إلىٰ الأسفل. وطبقاً للرواية الفرنسية، وضع الملك الفرنسي مخاوف فرسانه من رأس الشيطان والتنين الأسود جانباً وقال لهم: «ليؤمن اليهودي بهذه الأخبار، أمّا أنا فلن أؤمن بها». لقد أصبح فجأة شجاعاً مقداماً مستنشقاً هواء النبل والتجبّر؛ وعندما سأل الملك الهارب فرسانه عن الوقت، أجابوه بأنّه منتصف الليل. فقال عندئذٍ: «في هذه الحالة، لا تخافوا، لأنّه في هذه الساعة تحديداً، فإنّ الرهبان في بلادنا مستيقظون ويصلّون من أجلنا». ولم يمضِ وقت كثير حتّى هدأت العاصفة ووصلت السفن بسلام إلىٰ برنديزي.

مرّت القافلة الملكية في طريق عودتها، بروما. وهناك احتجّ الملك فيليب بشدّة إلىٰ البابا على تصرّفات ريتشارد الوقحة، معلناً بجرأة أنّه أجبره على ترك الحملة الصليبية رغماً عنه. واستجدى البابا لكي يعفيه من قسمه بعدم مهاجمة أراضي ريتشارد أثناء وجود هذا الأخير في الأراضي المقدّسة. لقد أكّدت هذه

التصرّفات الرخيصة من قبل فيليب وريتشارد صوابية رأي البابا لستين الثالث لجهة الدوافع الخسيسة والفاسدة لدى أبطال الحملة الصليبية. ورغم ذلك، منح البابا الملك فيليب سعف نخلة ووضع صليباً حول عنقه. إلاّ أنّه لم يخفِ الاحتقار والغضب في صوته وهو يذكّر الملك الفرنسي بوثيقة هدنة الله محذّراً إيّاه، تحت طائلة الحرمان الكنسي، من الإقدام على حمل السلاح ضد آخر الملوك الموجودين في الحملة الصليبية.

تحسّنت علاقة الملك فيليب بالإمبراطور الروماني، الذي كان مرتبطاً بعلاقة قرابة مع دوق النمسا المعزول وإمبراطور قبرص كومنينوس. وقد سرد الملك الفرنسي للبابا قصصاً كثيرة حول إذلال ريتشارد لأقاربه وأتباعه، وأخذ من البابا وعداً بأنّه إذا حاول ريتشارد أن يعبر أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة خلال عودته من الأراضي المقدَّسة، سيأمر بتوقيفه فوراً.

وهكذا، وقف ريتشارد قلب الأسد الآن، وحيداً تماماً، في مساعيه لاستعادة الديار المقدّسة.

الفصل الحادي والعشرون

سهل شارون

خلال الشهر الذي سبق مغادرة الجيش لعكّا، شَغَل الملك ريتشارد نفسه في إصلاح الأضرار التي لحقت بأسوار المدينة ورفعها حتى بلغت علوّاً هائلاً.

كان مهندساً عسكرياً لا مثيل له، دائم الحركة، مواظباً على التفكّر، فتراه يَذرع بخطى قلقة على طول المتراس المرتجل، مصدراً أوامره بصوت أشبه بالنباح، مستحثّاً رجاله على بذل المزيد من الجهد. في هذه الأثناء، كانت أسلحته المدفعية ـ أي المجانيق الضخمة ـ موضّبة بعناية استعداداً لأي حصار يُتوقع حصوله في المستقبل. ومع مرور الأيام، تزايد قلق الملك بسبب هذا الترف وما قد ينتج عنه من فساد، فعدد النساء كان كبيراً وحجم الإغراءات ما يزال كبيراً. ولذلك، أمَرَ حجّاجه الفاسقين بمغادرة عكّا والإقامة في خيم نُصبت لهم في سهل خارج المدينة. غاسلات الثياب كنّ الإناث الوحيدات اللواتي سُمِح لهنّ بدخول المعسكر. غادر الجنود المدينة بخطى بطيئة ووجوه بَرِمة، وكان الفرنسيون أكثر الجنود بطئاً وأكثرهم انزعاجاً.

خيّل للسير ولتر سكوت، بعد عدة قرون، أنّ الملك ريتشارد سعى لإرضاء المستائين بإقامة مبارزاتٍ عظيمة، أعقبت النصر والمجازر، بهدف

تسلية محاربيه المتعَبين والمنتصرين. وأوردت «لوائح سان جون أوف عكا» أنّ الفارس الساكسوني الشجاع، إيفانهو أوف يور Ivanhoe of Yore، هزم الفارس النورماندي الشرير، بريان دو بوا ـ غيلبير Brian de Bois-Guilbert. وعندما أُطلقت على لغة إنكلترا تسمية «الإنكليزية الوسطى»، نُظمت الأبيات الشعرية الرومانسية في البسالة التي أظهرها ريتشارد في عكّا، ولا سيّما في براعته في استخدام فأس ضخم متقن الصنع يزن عشرين باونداً. وعندما دنا قادِسُه ترنشمير من عكّا، وجد ريتشارد سلسلة هائلة تسدّ مدخل المرفأ، فوصفه أحد الشعراء بالملك الشجاع الذي حمل الفأس في يده، ودنا من السلسلة وقطعها إلىٰ نصفين بضربة فأس واحد، ما حثّ البارونات على القول بأنّه صاحب قوة جبّارة:

كان الملك ريتشارد شديد الشجاعة

وقد وقف بفأسه في مواجهة السلسلة

وضربها بفأسه فانقطعت نصفين

حتى قال كل البارونات إنه فارس نبيل وقوي

لقد كان فعلاً صاحب قوّة جبّارة ـ حتى وإن لم يتعدّ الأمر مخيّلة الشاعر.

بعد يومين من المجزرة الرهيبة التي ذهب ضحيتها المسلمون، وفي يوم السبت المقدّس المكرّس للاحتفال بالقدّيس بارثولوميو، أُطلق النداء للجنود. فأُضرِمت النيران فجراً كما جرت عادة الصليبيين قبل الزحف، وانقسم الجيش إلىٰ ثلاث فِرَق. حمل كل جندي زاداً يكفيه عشرة أيام، فيما شُحِن القسم الأعظم من المؤونة على متن زوارق. وأبحرت الزوارق والسمّاكات المُثْقلة بالطعام والأسلحة بموازاة الجيش المتوجّه جنوباً على طول الطريق الرومانية البحرية القديمة. وأعقبتها قادِسات خالية على استعداد لاستقبال الجنود في حالات الطوارىء. احتل الملك ريتشارد مكانه على رأس فرسان الهيكل،

والنورمانديين، والإنكليز، فيما توسّط الملك غي الجيش مع قوّاته من سكان البلاد وحرس الشرف الذين كانوا يحيطون بالعلم الصليبي.

رُفع علم الصليبيين العظيم على سارية شاهقة العلو أُفْرِدت لها عربة خاصة تجرّها أربعة أحصنة عظيمة يبلغ طول كل منها ثماني عشرة يداً. وكان يمكن رؤية العلم على بُعد أميال. لم يكن مجرد علم خاص بالحروب بل كان مُحمَّلاً بمعانٍ إنجيلية فقد كان يقصد منه الرمز إلى تحدّر المسيح من سلالة داود الملكيّة، أي الراية التي تحلّق حول المؤمنون خلال العصور النَبَوية الأولى. وفي مؤخرة الجيش، خيّم السكون على الإسبتاريين والفرنسيين المنزعجين الذين كانوا لا يزالون يتذمّرون لاضطرارهم إِلىٰ هجر ملذّات عكّا ويشعرون بالأسى لمغادرة ملكهم.

عَبَر الجيش نهر عكّا وشقّ طريقه في السهول والكثبان الرملية متجهاً إِلىٰ حيفا. وما أن دنا من هضبات سلسلة جبل الكرمل وتلاله حتى أطلق العدو غاراته. كان صلاح الدِّين يراقب التقدم البطيء للجيش الصليبي من مركز قيادته في أعلى التلال، وعندما حان الوقت المناسب، أذِن بانطلاق الفرق المُغيرة التي انقضّت على الجيش الصليبي بمجموعات من عشرين أَو ثلاثين رجلاً وهاجمتهم بشراسة. لقد كان مَثَل هؤلاء المغيرين عند الصليبيين كَمَثل الذبابة المزعجة. التي كتب عنها وعنهم أحد المؤرخين المسيحيين قائلاً: «إن أبعدْتَها عنك فستتركك وشأنك. ولكن ما أن تتوقف حتى تعود إليك مجدداً. وما دمت تلاحقها، فستواصل الهروب ولكنها ستظهر من جديد فور توقفك عن ملاحقتها».

إلاَّ أنّ الذبابة كلّفتهم الكثير في الأيام الأولى. فقد صُرع عدد من الجنود الفرنسيين غير النظاميين بالإضافة إِلىٰ أربعمائة فرس لا تضاهى. ولفترة وجيزة، فقدت الكتيبة الأخيرة اتصالها بالكتيبة المتوسطة. ولو كان الملك الأفضل ابن صلاح الدِّين على رأس عدد أكبر من الجنود، لنجح في القضاء على

الفرنسيين. بعث الأفضل رسالة لأبيه يقول له فيها: «لو كنا بكامل عدادنا وقوّتنا لكنّا تمكنا من أسرهم جميعاً»[1] ولكن في الوقت الذي بلغت هذه الرسالة هدفها وأرسل صلاح الدِّين مزيداً من قوّاته، سرّع الفرنسيون خطاهم وأقاموا اتصالاً من جديد مع الوحدات المتقدمة. وخلال هذه العملية، أَسَرَ المسلمون نبيلاً كونتاً هنغارياً سمح لشعوره بالإحباط بالسيطرة عليه واندفع بلا احتراس خلف مُلاحِقيه.

تميّز التقدّم حول رعْن جبل الكرمل بالبطء. فبالإضافة إلىٰ المضايقات من جانب المسلمين، كان التنسيق بين العناصر البريّة والبحرية صعْباً. ومع ذلك، خيّبت طول أناة ريتشارد آمال قادته الجنرالات. لم يكن يبدو في عجلة من أمره. كان يأمر رجاله بالسير في الصباح الباكر المنعش هواؤه، وبالتوقف في فترة بعد الظهر القائظ حرّها. وبسبب قلّة عدد دواب التحميل، اضطرّ حوالي نصف الجنود للتحوّل إلىٰ حمّالين في جوّ حارّ خانق. سار الجيش الصليبي سيراً بطيئاً مبتعداً عن حيفا، وهي المعقل الصليبي الأوّل الذي فكّكه صلاح الدِّين قبل أربع سنوات، ثم دار حول جبل الكرمل متجهاً نحو مكان للراحة يدعى نهر القَصَب.

في هذه الأثناءِ، عُرِض الكونت الهنغاري على صلاح الدِّين عقب أدائه صلاة الظهر. بدا الكونت المَجَريُّ مهيباً بقامته النبيلة وأنامله الرقيقة ورأسه المحلوق بدون تنسيق وترك انطباعاً طيباً على حاشية صلاح الدِّين التي تمكّنت من أن تستخلص من الأسير معلومات قيّمة عن الأيام القليلة الماضية. وبعد الحصول على ما كانوا يبتغون، أَمَر صلاح الدِّين بإخراجه وقطع رأسه دون التمثيل به احتراماً لمقامه الرفيع.

(1) في ابن شداد، ص 175: «انقطع طائفة منهم عن الرفقة، وقد لززناهم بالقتال حتى قد عادوا يطلبون خبامهم، فلو قوينا لأخذناهم».

لقد كان هذا التسامح يُعدُّ تنازلاً من صلاح الدِّين الذي كان لا يزال غاضباً من المجزرة التي اقترفها ريتشارد قبل بضعة أيام. فسمح لجنوده بالردّ عليها والانتقام عن طريق تقطيع أسراهم إرباً إرباً. وفي ظلّ هذه الظروف، يجيز القرآن هذا الردّ العنيف في الآية التي تنص على ما يلي: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [سورة المائدة: 45]. ولكن صلاح الدِّين بحاجة إلىٰ بعض الوقت كي يتمكّن من قتل عدد من المسيحيين مساوٍ لعدد الضحايا من رجاله. شعر الهنغاري بدنو أجله، فطلب أن يُترجَم له أمر صلاح الدِّين.

وما إن سمع الترجمة حتى صرخ قائلاً: (1) «أنا أُخلِّص لكُم أسيراً من عكّا».

وأجابه صلاح الدّين ببرود: «بل أميراً».

واعترض الكونت بقوله: «لا أقدر على خلاص أمير». وهزّ صلاح الدِّين كتفيه غير مبالٍ فالقضية ليست ذات أهمية بالنسبة له. ومع ذلك، طالبه أمراؤه بمعاملة الأسير باللين، كما طالبوه بإعادة النظر في المسألة، في فترة ما بعد الظهر. امتطى السلطان حصانه لاستعراض فرقه واستطلاع قوات العدو المنتظمة الصفوف في مواجهة كتائبه. ولا بد أن يكون ما رآه قد ترك أثراً بالغاً في نفسه فقد أمر عند عودته بقطع رأس الهنغاري دون تلكؤ، علاوةً على سجينين مسيحيين، على سبيل الحذر والاحتراز.

بعد عبور محطة نهر القَصَب، خطا الصليبيون داخل مناطق غير مألوفة. وقد كانت الصورة التي ارتسمت في مخيلتهم للأرض المقدَّسة قبل قدومهم إليها صورة مساحات مقفرة إلاّ من الرمال والصخور، وتلال دائرية الجلاميد يسهل تصوّر المسيح فيها منتعلاً صندالهُ يطأ به الأرض ويخطب في الجماهير.

(1) عن ابن شداد، ص 178.

وينشد الصليبيون في إحدى أغنياتهم: «أيها الأرض المقدَّسة، منذ المرة الأولى التي وقع نظري الخطّاء فيها عليك، بدأت أعيش حياة نبيلة للمرة الأولى. لقد تحقّق لي ما رغبت فيه دوماً فقد وصلت إلىٰ الأرض التي مشى عليها الرب بشحمه ولحمه».

وما إن التفوا حول جبل الكرمل ودخلوا سهل شارون حتى تبدّلت المناظر الطبيعيّة فحلّ محلّ الصحراء والكثبان أراضٍ ومستنقعات تغطيها نباتاتٌ عالية وأشجار باسقةٌ وكثيفة. لقد وعدتهم كتبهم المقدَّسة بأرض ريفية تزخر بالينابيع والجداول الشفَّافة ماؤها، وحقول قصب السكر الخصبة، والمراعي المليئة بأزهار زنبق الوادي ووردة شارون. لم يشكِّل المسلمون الخطر الوحيد. فقد كانت فلسطين آنذاك تعجُّ بالأسود والنمور وبقر الوحش والنعام والفهود واللبوءات والضباع؛ فكان البارونات من الطرفين يحترسون منها ويزاولون رياضة الصيد بفضلها في الوقت نفسه.

ولقد طرح فارس سوري صارع الأسود كأي إفرنجي السؤال التالي[1]: «أي عمل يمكن أن يزاوله الرجل إن لم يكن الصيد والحرب؟» أما الطلب على صقور الصيد فقد كان كبيراً، ولا سيّما على الصقر الذي يبلغ عدد ريش ذيله ثلاث عشرة. وإذا أُجيد تدريب هذا الطير، يصبح قادراً على صيد مالك الحزين والغُرْنوق وحتى الغزلان.

في جداول سهل شارون وكثبانه ومراتعه كما في تلال الكرمل، اندسّت الثعابين والعناكب والتماسيح وتوارى المسلمون. أصابت الرِعْدة الرجال المحيطين بنيران المعسكر لدى سماعهم قصة الحية السامة المخيفة التي تنجب بطريقة ترتعد لها الفرائص. فعند حلول موسم التوالد، يقترب الذكر من الأنثى ويدخل رأسه في فاها حيث يضع بذوره. وما أن ينتهي من ذلك حتى تقضم

(1) قارن بأسامة بن منقذ: الاعتبار، مرجع سابق، ص 192.

الأنثى رأس الذكر المسكين وتنتج بكل سعادة ذريتها المتكوّنة من «دودة» ذكرية وأخرى أنثوية. وذكر المحاربون القدامى قصة «الأفعى الصمّاء» التي تقطن هذه المناطق وتسدّ «أذنيها» بذيلها فلا تسمع بالتالي صوت خطوات الجنود الدانية. وعلى الجنود أن يتنبّهوا عند جني البخور والمرّ من أجل الصلوات أو لتطهير جثمان الميت، إذ يقال إنّ شجر الصمغ في فلسطين يزخر بالثعابين الطائرة ذات الجلد المرقّط بألوان عديدة والقاتلة عضتها. كما يتوجب عليهم لبلوغ القدس أن يعبروا نهر التماسيح، وهو تيّار جارفٌ، يعجّ بالتماسيح الكريهة التي تعشق التهام الرجال وتولع على وجه الخصوص بالحجّاج المسيحيين. ويا له من مخلوق مثير للقرف والاشمئزاز. فحَسب قول الرواة المتجمعين حول النار، لم تكن لهذا الحيوان أية وسيلة للتخلّص من طعامه بعد مضغه ولذلك فإنه يخلد للنوم بعد الانتهاء من وجبة الطعام على النهر فتزحف الثعابين من خلال فمه الفاغر إلىٰ معدته «وتنظّفها» له من الفضلات. وبذلك تأكل الثعابين الضحايا المسيحية المنحوسة مرتين.

وبما أنّ العقارب والعناكب الذئبية كثيرة العدد يُنْصح الجنود بقرع القدور قرعاً وحشياً في أثناء توغلهم في العشب الفارع لبثّ الرعب في الهوام وحضّها على الهرب؛ حتى وإن كانت أصوات القرع تجعل العدو أكثر دنواً. ومن أجل إبعاد خطر الكفّار والزواحف والعناكب ليلاً، تجمّع الصليبيون حول النار وعيّنوا واحداً منهم موجِّهاً للهتافات. فكان يهتف بالقول التالي: «انقذوا الضريح المقدس. ساعدونا! ساعدونا في إنقاذ الضريح المقدس». ويردد الجموع وراءه: «أنقذوا الضريح المقدّس».

وعلى الرغم من العويل والنحيب، يبدو أن الهتاف كان يهدىء روع الجنود وقلقهم ولذلك كان هتاف القائد وترديد الجموع المخيف ينبعث انبعاث الأنين ليلة بعد ليلة ويترجَّعُ صداه فوق التلال والسهول.

شكّلت الكثبان والأشجار الباسقة حاجزاً طبيعياً على طول الطريق

الساحلية المتجهة شرقاً فحال بين الجنود الزاحفين وأعداءهم المتمركزين في التلال. ولذلك تقدم الجيش الصليبي جنوباً باتجاه قيسارية، بأمان نسبي بضعة أميال. إلاّ أنّه كان بالإمكان رؤية علمهم العظيم من أعلى التلال باتجاه الشرق فقد كان يعتلي صارية بطول مئذنة. لكن قيظ فصل الصيف كان شديداً وتسبّب بفقدان وعي عددٍ كبير، وحتى بموت البعض داخل دروعهم الضيقة التي تزن الواحدة منها تسعين باونداً.

واكب المسلمون المتمركزون في التلال المسيحيين كظلهم. حتى أنّ صلاح الدِّين واظب على خطى سريعة وكان يواصل استشارة قادة جيشه واستطلاع فرقه والتخطيط للأعمال الحربية ولم يكن يوقف نشاطاته إلاّ لإقامة صلاة الظهر والعشاء. عُرِض عليه عدد من الأسرى المسيحيين ومن بينهم أربعة عشر أسيراً إحداهم امرأة في كامل لباسهم الحربي فأصدر الأمر بإعدامهم جميعاً إذ لم يكن السلطان آنذاك في مزاجٍ طيبٍ أو متسامح، بعد عكا، وقوة العدو.

وجّه صلاح الدِّين قواته الرئيسية نحو الجنوب الشرقي بحيث تعبر وادي جزريل وأنزلها عند تلّ قيمونة فيما ظلّ الكشّافة في نقاط المراقبة في قمم التلال. وظلّ السلطان ينتقل بين جنوده وكشافته. فكان يسير، في اليوم الواحد، خمسة وثلاثين ميلاً، فيسرع خطى حصانه متخطياً هضبة مجدُّو حيث يُفْترض وقوع هرمجدّون، ثم يهمز جواده ويعبر موقع قرية إسخريوط (التي يعتقد البعض بأنها موطن يهوذا الإسخريوطي[1] علماً أنّ القرية الواقعة جنوب الخليل هي التي تجتمع الآراء على أنها موقع ولادته) باتجاه قيسارية متقدماً طلائع الجيش المسيحي. وربما يقيم السلطان موقعه في هذا المكان ـ أي في البلدة التي هدمها منذ أربع سنوات بحيث لا يستخدم الصليبيون مجدداً القلعة البحرية. ولكن مرضاً أصابه وشلّ حركته. فقد غطّت بثور مخيفة مجهولة العلة الجزء السفلي من جسده فكان بالكاد يتمكّن من الجلوس منتصباً متغلباً على

(1) الشخص الذي تقول الأناجيل إنه خان المسيح ودلّ الجنود الرومان عليه.

الألم الفظيع الذي كانت تسبّبه له. وعلى الرغم من مصابه هذا، فقد كان حسّه بالواجب وشعوره بالخطر يدفعانه لامتطاء حصانه ومواصلة العمل حابساً أنين الألم من البثور الفظيعة.

وأفضى بدخيلة نفسه إلىٰ مساعده قائلاً له:

«يهجرني الألم عندما أكون على صهوة حصاني ويعود إليّ ما إن أترجّل».

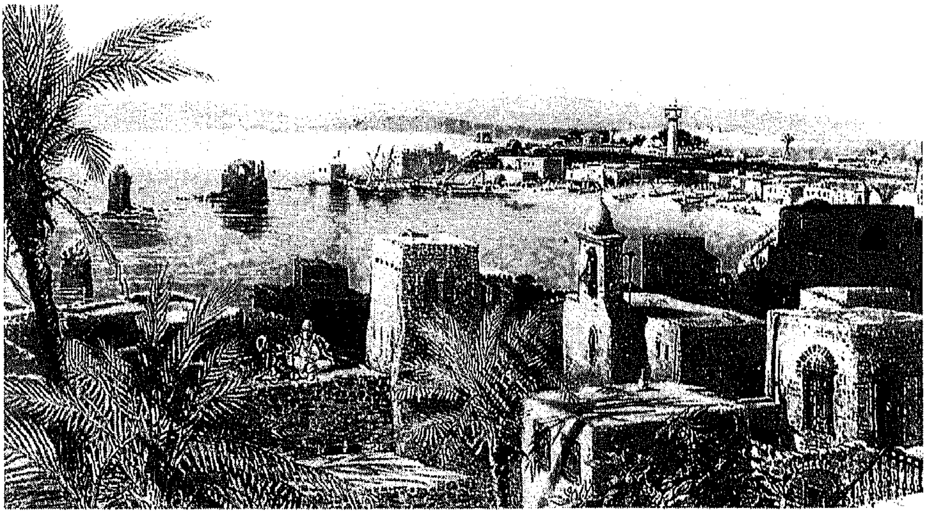
قيسارية.. هذه المدينة الرومانية العتيقة التي اشتهرت يوماً بنخيلها وبساتين البرتقال وحليب الجاموس، بنى فيها هيرود ميناءً من الرخام، وعمّد فيها بطرس كورنيليوس، وعاش فيها فيليب الإنجيلي وأنجب أربع بنات كلهنّ عذروات ونبيات. لقد أصبحت مدينةً للأشباح مهجورة تماماً.

ومع ذلك ظل صلاح الدِّين صامداً. كان الصبر من أهم ميزاته كما كان يهتدي بالآيات القرآنية التي تنص على ما يلي: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة النحل: 110].

لقد كان يحذر من توريط قوات جيشه بأسرها، إذ كان لا يزال يأمل في وصول إمدادات جديدة. وكان يدمدم أمام قادة جيشه متذمراً من الأمراء غير المتجاوبين الذين يفتقرون لما يكفي من الحمية حيال أعداء الإسلام. وقد أظهر طوال عدة أيام عدةٍ حيرةً وتردداً فقد كان يأمر بنقل المتاع الخفيف والثقيل نحو الأمام ثم يأمرُ بالعودة كما لو أنه كان يتحضّر لهجوم كبير ثم يتراجع عن فكرته. كان يرغب، في أحسن الأحوال، في إبطاء الخطى كي يتمكّن من الهجوم على العدو على حين غرّة تساعده في ذلك إمدادات عسكرية جديدة يتوقع وصولها بين يومٍ وآخر. ولكن حلم الحصول على ساحة حرب مثالية ووصول القوات التعزيزية لمٍ يتحقّقا. دخل الصليبيون مدينة قيسارية المهدّمة دون حصول أي تصادم وتقدموا مسافة ثلاثة أميال جنوباً إلىٰ ضفتي نهر يعرف باسم النهر الميت.

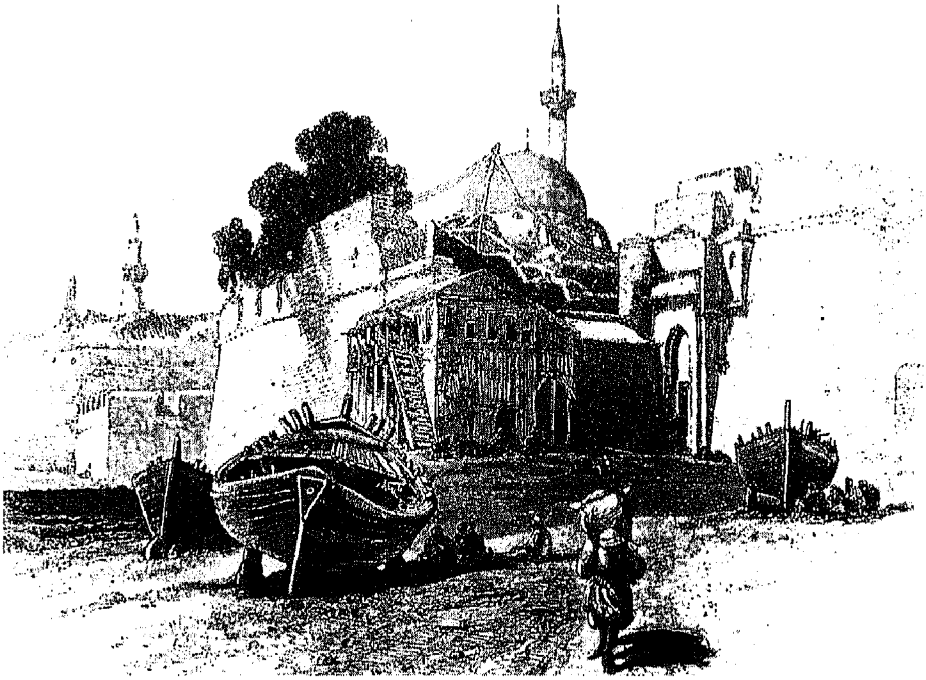


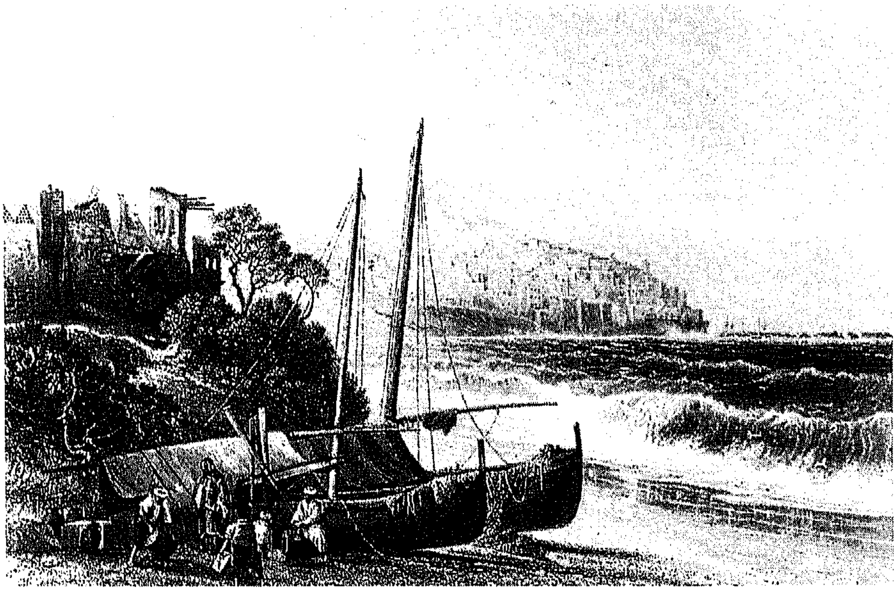
الجنود العرب، القرن الثاني عشر (مكتبة الكونغرس)



صور

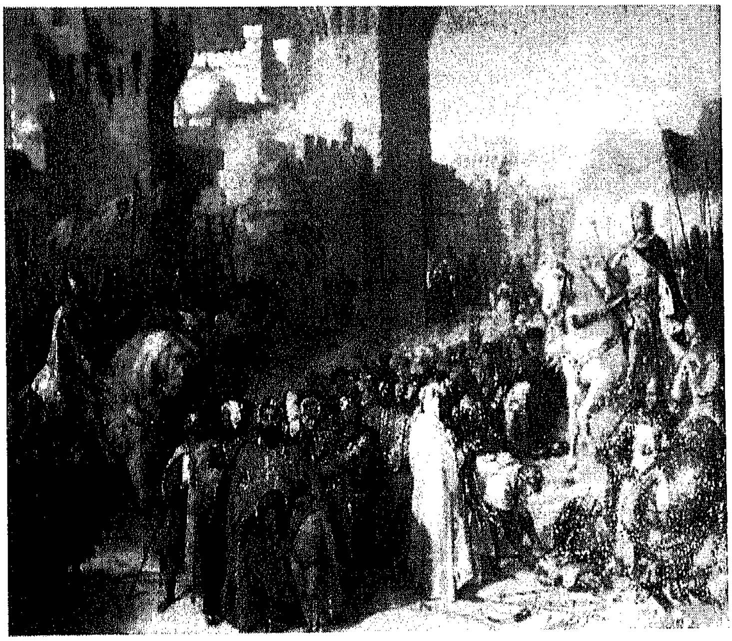
بوابة في عكا، من كتاب Picturesque Palestine
لـ س.و.ولسون (مكتبة Gelman، جامعة جورج واشنطن).





مدينة حيفا العتيقة

ريتشارد قلب الأسد يغادر عسقلان استعداداً للهجوم الأخير على القدس (الذي لم يحدث) (مكتبة الكونغرس)





قبر صلاح الدين، الجامع الأموي، دمشق (مكتبة الكونغرس).

مؤذن يؤذن للصلاة قرب الجامع الأموي الكبير، دمشق (مكتبة الكونغرس).



ما أن غادر الصليبيون المدينة المهجورة حتى زادت المناوشات عنفاً. ومع ارتفاع حدة الاعتداءات، انتقل الملك ريتشارد إلىٰ الوسط لقيادة الدفاع وسلّم الملك غي زمام قيادة الطلائع فيما قاد «أبناء سيدة طبرية» قوات المؤخرة. لقد كان انضباط الصليبيين مشهداً له في قلوب المهاجمين المسلمين أبلغ وقع. وفيما هاجم فرسان الطليعة، صفوف الصليبيين، انضبط المسيحيون في نظام محدّد للحرب كما لو أنهم يجرون تمرينات اعتيادية؛ فتقدّم الرماة المدرّعون طليعة الجيش ومن ورائهم وقف الفرسان بانتظار أمر إطلاق النار! وسجّل أحد المؤرخين العرب الحدث بقوله(1): «هم يرمون بالزنبورك، فيجرح خيول المسلمين وخيّالتهم ورجالتهم. ولقد شاهدتهم وينغرز في ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج». وظهر الجنود المسيحيون لمؤرخ آخر أشبه بالمناجذ لكثرة السهام المنغرزة في أجسادهم(2).

«. . وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا، وهم يحفظون أنفسهم حفظاً عظيماً. . ويسيرون سيراً رفيقاً. . إلى أن أتوا المنزل ونزلوا. . . فانظروا إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوانٍ ولا نفع. .»(3).

لقد عكس هذا الزحفُ المنضبطةُ صفوفُهُ صورةً لقائد هذا الجيش.

دوّت أصوات المعركة مخيفةً من فوق الكثبان والمستنقعات. فتنافس القرع على الطبول والنفخ في البوق مع هتاف التهليل والتكبير (لا إله إلاّ الله! الله أكبر) و«أنقذوا الضريح المقدس» وهتاف فرسان الهيكل باسم بوسيان Beaux-Seant، رايتهم نصف البيضاء ونصف السوداء حيث يشير اللون الأبيض

(1) عن ابن شداد، ص 179.
(2) عن كتاب الروضتين، 2/ 190.
(3) ابن شداد، ص 179 – 180.

إلىٰ وفائهم للمسيحيين واللون الأسود إلىٰ عنفهم حيال غير المؤمنين.

وفيما تصادمت فرق الخيالة، جرت مبارزات جانبية قضى فيها ببطولة أحد الفرسان المسلمين البارزين. كان رجلاً فارع الطول لقّب بالطويل اعتاد على حمل رمح ضخم لا مثيل له بضخامته أو ثخانته أو ثقله في كل فرنسا. ذاع صيت هذا البطل المسلم بين الصليبيين لمشاركاته العديدة في المبارزات الفردية التي كانت تُجرى في أرض تتوسط القوى المتنازعة. أما عند المسلمين فقد كان «من خيالتهم وشجعانهم. وكانت قد استفاضت شهرته بين العسكريين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدّقت أخبار الأوائل.. تقنطر به فرسه فاستُشهِد في ذلك اليوم..»[1].

دوّن أحد الكتبة العرب ما يلي: «كان لا يهوله الهول إذ همّت به همّته. وهو أول من يركب وآخر من ينزل. ويُدْبر سواه وهو مُقبل. ويُسابق إلى المضار ولا يهمل. وهو أبداً يدعو إلى المبارزة، ويعدو على المفاخرة.. فكم كفٍ للكفر كفّها، وبكر للنصر زفّها، وأنفٍ للشِرْك جَدَعه..»[2].

مرّة أخرى، تقدَّم الأسد بجهد إلىٰ أرض المعركة متحدياً أي بطل مسيحي في قبول منازعته. ولكنه بدا، في هذه المرّة، أكثر تهوراً كما لو أنّه كان يمنّي نفسه بالموت شهيداً في هذه التحديات الصارخة أو القيام برحلة سريعة إلىٰ الجنة وسعادتها. وعوضاً عن فارسٍ واحد، شنّت مجموعة من الذئاب المسيحية هجوماً عنيفاً عليه. ويخبرنا المؤرخ العربي أن العملاق العربي جَدَعَ أنوف العديد من الكفار قبل أن يسلم الروح. واستناداً لروايةٍ إسلامية، لم يكن المحارب العظيم ليموت لو لم يخنه حصانه ويتقنطر به، ويسمح بأن يُصْرع. وكَمَثَل سلحفاة مقلوبة، أصبح الطويل عاجزاً أمام المهاجمين المسيحيين

(1) ابن شداد، ص 180.

(2) عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسّي، ص 275.

المندفعين، وقد أثقل الدرع كاهله فمنعه عن الحركة. «ولما أدركه الأصحاب ألفوه وقد فات، ورافق في عليين الأحياء في سبيل الله لا الأموات»[1].

سبَّب مصرع البطل فاجعة كبيرة. وقطع المحاربون المسلمون ذيول أحصنتهم إشارة إلىٰ عميق حزنهم. ودفنوا أسدهم في مكان يُعرف باسم مجاهد شيخة. وفي وقت لاحق، أعطاه المؤرخ المسيحي حقّه فقال: «لقد كان رجلاً كيِّساً يتميّز بقوة ومهارة يعجز أي امرءٍ آخر عن قهرها، ولم يكن أحد ليجرؤ على منازلته».

وعند النهر الميت، جُرِح الملك ريتشارد أيضاً جرحه الأول في الحرب الصليبية. كان يُشارك في عراك عندما طُعِن بحربة طعنةً غير مباشرة في جانبه. ويبدو أن الجرح زاده إثارة، فتوغّل أكثر في صفوف العدو. وفيما استمرت المناوشة، كان شغل الملك الشاغل فقدان الأحصنة عوضاً عن الرجال. فقد بدا أنّ المهاجمين المسلمين يستهدفون دوابه عالمين علم اليقين أن أحصنة المعارك الأوروبية ضخمة الأطراف وأحصنة التحميل الضخمة لا يمكن استبدالها. وقدِّرت الخسارة بألف حصان. وما إن أسدل الليل ستاره حتى بدأ الجنود يتساومون حول لحوم الأحصنة المصروعة فاضطر ريتشارد إلىٰ إصدار تعليماته بمنح حصان جديد لكل فارس خسر حصاناً شريطة أن يهب لحم حصانه المصروع إلىٰ الجياع: «وهكذا التهموا لحم الأحصنة كأنّهم لحم غزلان ووجدوه من أطيب ما يكون فالجوع حلّ محلّ التوابل».

استمرّ هذا الاحتكاك الدامي عدة أيام دون أي تبديل في الوضع الاستراتيجي. واصل الجيش الصليبي تقدمه جنوباً عبر سهل شارون. وبسبب اعتماده على الزحف النظامي، كان يتقدّم ببطء السلحفاة فلا يمشي إلاّ في الصباح عندما يكون الطقس منعشاً بارداً ويحتمي بكل براعة من أي مضايقات

(1) الفتح القسّي، ص 276.

قد يتعرّض لها ويستغل وجود الأنهار كي يعسكر إلىٰ جانبها لعدة أيام؛ يجدّد خلالها نشاطه ويعيد تجميع صفوفه. ولذلك فلم يقطع خلال خمسة عشر يوماً سوى اثنين وستين ميلاً. ولكنه أصبح الآن على بعد مسافة من المَعْقل الصليبي القديم في أرسوف، وهي مدينة ساحلية مسوَّرة ذات قلعة مُجهَّزة بأبراج.

إنَّها المدينة الإغريقية العتيقة التي تحمل اسم أبولونيا، وهي حلقة أخرى في سلسلة القلاع الساحلية التي كانت تسيطر عليها المملكة الصليبية السابقة ومن بينها حيفا وقيسارية، وقد هدمها صلاح الدِّين بعد سنة 1187م. ومن الممكن أن تؤدي إعادة احتلالها إلى عواقب خطيرة. فإن لم يوقف السلطان ريتشارد عند حدّه، تصبح يافا على بعد أميال باتجاه الجنوب. وكتب ريتشارد في هذا الصدد: «سوف نعزّز، من حيفا، مصالح الدين المسيحي، ونناضل لتحقيق أهداف نذرنا». وعندما يسيطر الجيش الصليبي مجدداً على حيفا، والقيصرية، وأرسوف، ويافا، يتحوَّل نحو داخل البلاد ويزحف باتجاه القدس عينها، مدينة الرب الحيّ، ويصبح ردعه عندئذٍ من المستحيلات.

كانت مدينة أرسوف محاطة بغابات وفيرة وحقول خصبة. وغطَّت غاباتها اثني عشر ميلاً شمالاً، وقد أحاط بها أحد المروج القليلة عدداً في فلسطين كلها. ومثّلت الغابات لصلاح الدِّين فرصة عسكرية إذ كان يستطيع أن يخبيء جنوده فعلياً داخلها بانتظار لحظة الهجوم. ووجد في ذلك فرصته الذهبية لوضع حدّ لريتشارد. وما عليه سوى تحقيق هذا الهدف الآن. هكذا بدأ برسم المخططات. لكنّ الشكوك راودت القادة المسيحيين وسرت الشائعات المهدّدة بوجود كمين في انتظارهم. في أن يدخلوا الغابات حتى يضرم «قطيع الوثنيين وجنس الكفّار سود الوجوه، النارَ فيها».

ثم طُرِح اقتراح للسلام. وخرج صلاح الدِّين من مكمنه بكلمة أبلغها العدوّ إليه عند اتصاله بأحد حراس الطلائع. وطُلِب إجراء مقابلة مع شقيقه الملك العادل. ولم يَرَ السلطان أنّ هذا الطلب قد يلحق بهم الأذى لا بل بدا له

اختباراً لإرادته، ولذلك سمح بإجراء المقابلة. واتجه العادل إلىٰ خطوط القتال الأمامية، وتباحث طوال الليل مع المبعوثين الصليبيين وتميّزت الأجواء بالمودّة إلىٰ حد ما ونقل في اليوم التالي جوهر العرض الصليبي في رسالةٍ إلىٰ المقر العام جاء فيها ما يلي:

قال الفرنجة: «إنّا قد طال بيننا القتال، وإنه قُتل من الجانبين الرجال الأبطال. وإنّا نحن جئنا في نُصرة فرنج الساحل، فاصطلحوا أنتم وهم، وكلٌّ منّا يرجع إلى مكانه»[1].

ساورت الشكوك السلطان حول جدِّية هذا العرض. فردّ على رسالة أخيه بقوله: «حاول إطالة المباحثات. وأبقهم حيث هم إلىٰ أن تصلنا الإمدادات التي نتوقعها»[2].

سرعان ما علم ريتشارد بوجود العادل في المواقع الأمامية، فطلب مقابلة شقيق السلطان شخصياً. وخرج الملك في موكب مهيب ترفرف فوقه الرايات وتقعقع الأسلحة الفولاذية. ومشى إلىٰ جانبه ابن همفري أوف تورون ليترجم له. ذكر أحد المؤرخين المسلمين[3] أنّ همفري أَوف تورون كان جندياً شاباً جميل الوجه يأسر القلوب كما ذكر وجهه الحليق الشعر؛ وهذا رمز للتخنّث وما يبث في قلوب صغار المسلمين الرعب.

بدأ ريتشارد بإعلان رغبته بالسلام.

انحنى العادل إشارة قبولٍ لهذا التعبير بحسن نيّة وقال: «إن كنت ترغب بالسلام وتودّ أن أكون وكيلك لدى السلطان، عليك أن تفيدني بالشروط التي

(1) ابن شداد، ص 182.

(2) عند ابن شداد: «إن قدرت أن تطاول الفرنج في الحديث فلعلهم يفومون اليوم حتى يلحقنا التركمان، فإنهم قد قربوا منا».

(3) يقصد ابن شداد، وأوصاف «ابن الهنفري» عنده.

تدور في خلدك»[1]. ثمّ مال إلىٰ الوراء واستعدّ لحوار مطوّل هو بالتحديد ما انتدب لأجله.

وأجاب ريتشارد بقوله: «يقوم أساس هذه المعاهدة على ضرورة إعادة كل أراضينا إلينا وانسحابكم عائدين إلىٰ بلادكم».

كلامٌ وَقَع وقع الإهانة، وتعبير عن العجرفة التي اعتاد المسلمون أن تصدر عن الأوروبيين. شعر العادل بالاشمئزاز. لكن وردت في القرآن الكريم الآية التالية: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة الفتح: 26]. وما استطاع العادل التزام كلمة التقوى بل نشب خلاف بينهما على الفور. وسرعان ما عاد القائد المسلم إلىٰ معسكره شاحب الوجه يحثُّ على الاستمرار في الحرب.

وفشلت المباحثات المطوّلة.

عندما سمع صلاح الدِّين الإهانة التي وجّهها ريتشارد لهم، أدار فرقه إلىٰ مواقعهم في السهل جنوب الغابة. دنا الجيش الصليبي منهم فانطلق من نهر الملح إلىٰ نهر العوجاء عابراً أراضي رملية منبسطة ومستنقعات مالحة الماء. ووقف العدو على مسافة ستة أميال فقط من أرسوف. وعشية السادس من أيلول/ سبتمبر من سنة 1191م عُرِض على صلاح الدِّين جنديان صليبيان آخران سيئا الطالع ومن أجل أن يحضّر النفوس ويمهّد للمعركة المتوقع حدوثها في اليوم التالي، أمر بقطع رأسيهما دونما رحمة. وإلىٰ فسطاط ريتشارد أيضاً، بلّغ الكشافة الملك بأنّ الجنود المسلمين متمركزون في الأراضي المواجهة، وأنّ عددهم يفوق عدد عناصر الجيش الصليبي ثلاثة أضعاف.

صادف اليوم التالي عشية ميلاد مريم العذراء.

---

(1) ابن شداد، أيضاً، ص 182 – 183.

الفصل الثاني والعشرون

اليوم الرابع عشر من شعبان المعظَّم

وفقاً للتقويم الإِسلامي، يوافق اليوم السابع المشؤوم من أيلول/ سبتمبر سنة 1191م اليوم الرابع عشر من شعبان المعظَّم، الشهر الثامن من السنة الذي يسبق شهر رمضان المبارك، أقدس شهور السنة، وهو شهر الصوم والتجديد الروحي لا الحرب. وما من شك في أنّ صلاح الدِّين المدافع عن الدين والإِيمان كان متنبّهاً لاقتراب الشهر المقدّس. لقد حان الوقت لمعركة كبرى، أكبر معركة في حياته، معركة حطين الثانية. فعلى هذه الأراضي، لا بد من الدفاع عن القدس، هذه المدينة المقدسة التي لا يفصله عنها أكثر من خمسين ميلاً. لم يعد باستطاعته تأجيل موعد المواجهة. لقد حان وقت الانتصار الحاسم والنهائي لجهاده.

عسكر الصليبيون على مقربة من مصب نهر العوجاء، وحال مستنقع عريض مُغلق يعرف باسم بركة رمضان دون حصول أي هجوم من الأراضي الداخلية فحمى المعسكر، ولذلك اضطر صلاح الدِّين لتأخير الهجوم إِلىٰ أن يتحرك الصليبيون ويدخلوا منطقة مفتوحة. أضرَم الصليبيون نيرانهم فجراً،

وقوّضوا خيامهم، ورحلوا على صوت البوق متجهين نحو قلعة أرسوف المشيّدة بالحجر الرملي على مسافة خمسة أميال جنوباً. في البداية، عبروا منطقة رملية تتخلّلها الكثبان ذات تربة ناعمة رقيقة منعت جياد المسلمين السريعة من بذل أقصى جهد. وظهر، على بعد ميل من نهر العوجاء، خطّ من الهضاب المنخفضة الارتفاع الموازية للطريق الساحلية. وتمتد هذه الطريق الصلبة حتى البساتين خارج أرسوف.

توقّع ريتشارد هذه المواجهة الهامة طوال عدة أيام، ولذلك كان جنوده متيقظين تيقظاً أقصى. واستعدّ الملك للأميال الحاسمة المقبلة فأعاد تنظيم جيشه في خمس فرق محاربة. أُلحق بفرسان الهيكل في طليعة الجيش فيلق من التُركُبُلّي[1]، وهم فرسان محمّلون بأسلحة خفيفة سريعو الحركة، مدرّبون تدريباً خاصاً لصدّ هجوم الغزاة المسلمين على أحصنتهم اليمنية الرشيقة. عقب فرسان الهيكل جنود من أكيتان أي من رعايا ريتشارد الأوروبيين، بالإضافة إلىٰ جنود من أنجي وبواتييه وفيلق من مقاطعة بريتانيا الفرنسية. خضعت هذه الفرق لقيادة الملك غي الذي كانت براعته العسكرية في طور التحسّن. ومن بعدها، مشى النورمانديون والإنكليز حماة راية الحرب. وفي المؤخرة جاء الفرنسيون مدعومين بالإسبتاريين المخيفين. وقد اختلطوا بعدد من البارونات السوريين المحليين تحت قيادة هنري دو شامباني القدير، ابن عم ريتشارد وبرفقة الكونت الفلمنكي جايمس دافين، أكثر المحاربين شهامة وكياسة في الجيش الأوروبي كله، ما خلا ريتشارد. استطلع ريتشارد ودوق برغنديا، نائب الملك الفرنسي فيليب، صفوف الجنود واستحثّوهم على التضامن والاندماج. ووصفهم أحد المؤرخين بقوله إنّ الرجال كانوا ملتزمين إلىٰ حد لا يمكن أن

(1) التركبلّي: فرقة من الفرسان الخفيفي الحركة، والخفيفي السلاح، والذين يركبون خيولاً سريعةً أيضاً. ويبدو أنّ البيزنطيين والأيوبيين والصليبيين اقتبسوا نظامها من الأتراك السلاجقة بعد وقعة ملازكرد سنة 1071؛ قارن بمفرّج الكروب 2/ 149.

ترمى تفاحة إلاَّ أن اصطدمت برجل أَو بحصان قبل السقوط على الأرض.

عندما لاح صلاح الدِّين من موقعه الحربي على الأرض المرتفعة، أتاح للصليبيين فرصة الزحف عدة أميال على طول الطريق قبل إطلاق العنان لهجومه. انصبّ الخيّالة المسلمون من وراء أشجار سنديان الغابة. وقُدِّر عددُهم بين ألفين وعشرة آلاف فارسٍ ورامٍ. ولكنّ الصليبيين لحظوا لون بشرتهم بقدر ما لحظوا عددهم. لقد كانَ البدو أصحاب البشرة السوداء، «الأكثر سواداً من السُّخام كما لو أن الله لعنهم وجعلهم جنساً متوحشاً» يزرعون الرعب الأكبر بين صفوف المسيحيين. أتى بدو الصحراء في الطليعة وتبعتهم قوة منظّمة منصاعة لأوامر القيادة انقسمت إلىٰ أفواج وفرق خاصّة، وكان بالإمكان رؤية الشعار المخصّص لكل وحدة على الألوية الصفراء المشقوقة كذيل الخطّاف والخفّاقة على رماحهم. وإلىٰ جانب الغبار والرّماح المثلّثة الشكل والوجوه السوداء المرعبة، انطلقت جَلَبة مخيفة من أفواه المهاجمين المسلمين؛ كانوا يستصرخون الله. واخْتلطت أصوات الأبواق بقرع الأجراس والضرب على الدفّ. مشى السلطان على صهوة جواده بين سريّة الخيالة، مطلقاً عبارات التشجيع على المضي قدماً في سبيل الله، ومكتفياً لحمايته الخاصة بحاجبين يقودان حصاناً بينهما تحسّباً لإمكانية مصرع جواده. ولكنّهما كانا عاجزين عن التصرّف بأي شكل من الأشكال حيال السهام التي كانت تئزّ على مقربة منهم.

وخلافاً لما حصل في معركة حطين، حمى البحر هذه المرّة مؤخرة الجيش المسيحي، بحيث استحال على الخيالة المسلمين على الأقل تطويق الجيش. لا بل إنّ الهجوم دفع الجيش المسيحي إلىٰ رصّ الصفوف وصولاً إلىٰ درجة الاختناق تقريباً. وحدث ذلك على وجه الخصوص عندما أمر صلاح الدِّين قواته الرئيسية بالهجوم.

وقعت الوطأة العظمى من الهجوم على مؤخرة الجيش، ما اضطرّ

الإسبتاريين والفرنسيين على التجمّع والتراصّ. قوِي ضغط الهجوم حتى أصبح لا يطاق. وكتب شاهد عيان يقول: «لقد طوّقت أعداد العرب الكبيرة شعبنا القليل العدد بحيث حالوا دون إمكانية فرارهم حتى وإن رغبوا في ذلك. وبدا أنهم كانوا يفتقرون لما يكفي من الشجاعة لمقاومة هذا العدد الكبير من الخصوم. كانوا منحصرين مثل قطيع من الخراف بين فكّي الذئب، ولا شيء غير السماء من فوقهم والعدو من حولهم».

أرسل القادة لريتشارد يبلغونه بعدم قدرتهم على المزيد من الصمود. وأعلموه بوجوب شن هجوم. لكنّ ريتشارد لم يوافق على طلبهم فقد كان يعلم علم اليقين العواقب المشؤومة التي قد تنجم عن هجوم متهوّر. وعلى الرغم من الضغوطات، تابع خط الجنود المرصوص زحفه جنوباً نحو آرسوف، وأحسّ ريتشارد بخيبة أمل المسلمين لعجزهم عن كسر هذا الخط. وزاد شعور المحاربين المنحصرين بأنهم «شهداء المسيح» لوجودهم في خضمّ هذه المِلْزَمة المنغلقة عليهم، ويستشهد كاتبهم فيما بعد بالمزمور 129 لوصف حالتهم: «على ظهري حرث الحُرّاث. طوّلوا أثلامهم».

وعلى الرغم من قدرة الدروع والأغطية اللبادية على مقاومة السهام العديدة، فإن الضغط الأكبر وقع على كاهل الفرقة المهاجمة. لقد بدا للصليبيين أنّ «وحشية الوثنية كلها قد اجتمعت يداً واحدة» فيما انصهرت روح الشباب المزهرة في جسد واحد «كَمَثل حبوب القمح على سنبلتها».

تفاقم الغضب والإحباط في صفوف الإسبتاريين وتضرّع سيدهم غارنييه دو نابلس Garnier de Nablus مستنجداً بالقديس الراعي للصليبيين جميعاً. لعلّ القديس جورج يعود ثانية ليقدم يد العون للصليبيين كما سبق وفعل في الحرب الصليبية الأولى في معركة أنطاكية سنة 1098م. «أيها القديس جورج العظيم. هل ستتركنا كي يبثّوا في صفوفنا الفوضى والبلبلة؟ إنّ المسيحية بأكملها عرضة

للانهيار لخوفها من الرد على هجوم هذا الجنس المجرّد من الإيمان». وشقّ الزعيم طريقه عبر الجلبة نحو الوسط حيث وجد الملك ريتشارد.

وصرخ بصوت مرتفع للتغلّب على الضجيج فقال لقائده: «مولاي، إنّ العدوّ يُحْكم قبضته حولنا بمزيد من العنف. ونحن عرضة لخطر ارتكاب جرم مشين أبدي، كما لو كنا لا نجرؤ على الردّ على ضرباتهم. كل واحد منا يوشك أن يخسر حصانه. لم علينا تحمّل هذا العار لفترة أطول؟» وأجابه الملك: «صبراً أيها السيّد الطيب. عليك أن تصدّ هجومهم. لا يمكن لأي كان الوجود في كل مكان في وقت واحد». يجب على خط الجنود الصمود ومواصلة الزحف حتى بلوغ برّ الأمان عند أسوار أرسوف. وحده انضباط الرهبان العسكريين يمكّنهم من تحقيق هذا الهدف. وفي حال شن هجوم، ينبغي أن يصدر من كل المواقع في آن واحد، على طول الخط من أوله إلىٰ آخره، وقد وضعت له خطة.

لم يشعر غارنييه دو نابلس بالعزاء فبقاؤه ساكناً بلا حراك يضرب في وجه الحائط بقسمه كراهب عسكري وبولائه لمسقط رأسه سورية. عاد إلىٰ مؤخرة الجيش وهو ما فتىء في حالة من الاهتياج والاضطراب الشديدين فوجد أنَّ الكرب قد تفاقم عن ذي قبل وأن فرسانه يوشكون على إعلان العصيان والتمرّد.

وصرخوا في وجه قائدهم: «لماذا لا نهاجمهم بكل قوّتنا؟ سنوسَم بالجبن إلىٰ الأبد. لم يلحق بأي جيش يواجه كفاراً هذا القدر من العار! سنكون عرضة لفضيحة مستديمة ما لم ندافع عن أنفسنا. وتتفاقم الفضيحة بتأخير المواجهة». لم يسع القائد الإجابة فقد كان متضامناً مع هذا الشعور».

سرعان ما خرجت الأمور عن السيطرة. مورس الضغط للمرة تلو الأخرى على الجناح الأيسر إلىٰ أن انفجر. واتفقت قيادة ريتشارد العليا مسبقاً على إشارة معيّنة تطلق هجوماً منظّماً منسّقاً للخط بكامله عند فقدان الأمل وإن

اقتضت الحاجة. وهكذا تقرّر بدء الهجوم عند سماع صفرتين مميزتين من البوق من القسم الأمامي من الخط ووسطه وآخره تكونان متناسقتين وحادتين بحيث تسمعان رغم الضجيج والجلبة. وفي أفضل الأحوال، لن يكتفي هذا التيار المندفع من الخيالة بإرباك المسلمين وإلحاق هزيمة منكرة بهم؛ بل سيسحقونهم ويقضون عليهم عن بكْرة أبيهم. ولكن عوضاً عن ذلك، فقد حصل الإنفجار تلقائياً.

توقّع صلاح الدِّين، انطلاقاً من موقعه العالي المطلّ على الجيش، حصول هذا الانفجار. وفي هذا الصدد، دوّن كاتبه: «شكَّل الجيش وحدة موحّدة وقرَّروا المباشرة بالهجوم لقناعتهم بأنّ إنقاذهم يتطلب جهوداً جمَّة. ولكنّ الأمور لم تحدث على هذا المنوال. فقد انطلقت الشرارة من فارسين أحدهما مارشال من الإسبتاريين وثانيهما فارس فلمنكي وصديق مقرّب لريتشارد. لقد اخترق، دون إذن، خط الحماية الذي توفره كتيبة المشاة، سائلين القديس جورج العون وبدأوا بشن الهجوم على المهاجمين. وعلى الفور، تَشَرْذَمَ خط المشاة وتفرّق، وشنّ باقي الإسبتاريين الهجوم. ولم يجد القائد هنري أوف شامباني أمامه خياراً آخر إلاّ أن يحذو حذوهم تماماً كما فعل جايمس دافين. انتشر هجوم حرس المؤخرة انتشاراً سريعاً نحو الوسط ومن ثم إلى طلائع فرسان الهيكل. وبدا الوضع كأن هذه الاستراتيجية الدينامية الموفَّقة كانت مخطَّطة. وعلى غرار كتيبة مشاة المؤخرة، انقسمت هذه الكتيبة في الوسط ودون أن يرفع الملك يده بإشارة أَو يطلق صفيراً واحداً من البوق، شنّت فرقة الخيالة هجوماً شاملاً كما لو كان متفقاً عليه من قبل.

كانت هذه الاندفاعة اجتياحاً. فتفرّق المسلمون ودبّ الذعر والارتباك العام في صفوفهم. وهُرع كل المهاجمين من الخط الأمامي، والذين كانوا يمارسون ضغطاً شديداً وترجلوا عن أحصنتهم. «مَثَلُ رؤوسهم الملتحية الكثيفة الشعر كَمَثل سنابل القمح المجزوزة في موسم الحصاد». وفرّ الجنود وراءهم

والفوضى تعمّ صفوفهم. وفي وصفهم، كتب شاهد عيان مسلم ما يلي[1]: «واتفق أني كنت في الوسط. وعندما فرّت تلك الكتيبة بفوضى عارمة، خيّل لي إمكان اللجوء للجناح الأيمن الأقرب لي. ولكن ما أن أدركته حتى وجدت الذعر يسود صفوفه أيضاً وأفراده يلوذون بالفرار بسرعة تفوق سرعة الآخرين. فالتجأت للجناح الأيمن ولكني وجدت، عندما لحقت بهم، أن البلبلة التي يعانونها أسوأ بعد مما هي عليه في الجناح الأيسر». والتفتَ (بهاء الدين ابن شداد) أخيراً باحثاً عن الموقع الذي كان يجدر بحراس صلاح الدِّين الشخصيين أن يشكِّلوا عنده نقطة تجمّع، ولكنّه لم يجد سوى سبعة عشر رجلاً يقرعون الطبول قرعاً قوياً غير ذي جدوى. واستناداً لرواية مسيحي، كان بالإمكان رؤية المسلمين يلوذون بالفرار في مختلف الاتجاهات على مساحة ميلين. وذكر الكاتب المسيحي بجذل إينياد فرجيل: «الخوف وحده كان كافياً لكي يعطي أرجلهم أجنحة».

شهدت مقدمة خط الإسبتاريين مجزرة فظيعة. وغطّت جثث المسلمين، بالآلاف على الأرجح، رمال مساحة شاسعة انْتَثَرت وسط جثث الأحصنة والجمال. لقد تحوّل شعور الإحباط والانحصار الذي غمر الرهبان العسكريين إلىٰ رغبة وحشية بالثأر. وتخلّل الجثث المجزّأة والمقطوعة الرأس مجموعة من الأسلحة كالسيوف الحدباء والرّماح والأقواس والنّشابات، بأعداد كافية لملء عشرين مركبة. وفي فترة لاحقة، افتخر ريتشارد بتمكُّن ثلث رجاله من القضاء على جيش صلاح الدِّين العظيم.

فور رؤية ريتشارد للهجوم التلقائي، سارع على صهوة فحله الكُمَيْت القبرصي المسمّى فوفيل زاعقاً عبارات «ساعدنا يا رب!» و«أنقذ الضريح المقدّس». هرول من الوسط إلىٰ مقدمة الإسبتاريين إلىٰ اليسار وساهم مساهمة

(1) هو بهاء الدين ابن شداد؛ قارن كتابه، ص 183 – 184.

كبيرة في أعمال الذبح. دوّن الكاتب في وصفه لهذا الحدث لاحقاً: «أخذ الملك العظيم الجبّار يضرب المسلمين في كل الاتجاهات. لا أحد كان يستطيع النجاة من قوة ذراعه. كلّما أدار وجهه، شق طريقاً واسعةً له بسيفه المسلّط. وظلّ يتقدم بفضل ضربات سيفه المتكرّرة يصرع المسلمين كمثل مِنْجل الحصّاد».

وعلى مسافةٍ من هذا الموقع، وقف صلاح الدِّين كالقَصَبة عاجزاً عجزاً شبه كلي حيال تدفق الهاربين نحو الهضبات بأسرع ما يمكنهم. وأمرّ بجرّ بعض الفارين وعرضهم أمامه، في محاولة يائسة، من أجل توبيخهم وتحميلهم الإثم وتهديدهم بعقوباتٍ فظيعة، ولكنه سرعان ما تخلّى عن هذه المحاولة لعدم جدواها. توالت الضربات على الطبل مستديمةً حزينةً خاوية؛ بغيةَ تجميع الجنود وإعادة تنظيمهم ولكنّها اقتصرت على زيادة الجلبة صخباً.

عندما بلغ ريتشارد حافة غابة أرسوف، على بعيد ميل من خط كتيبة المشاة، أوقف الهجوم وحظر على فرسانه دخول الأحراج. لقد دفع الصليبيون، مرات عديدة في الماضي، ثمناً باهظاً للحاقهم بالعدو على مسافة أبعد مما كان الوضع يستلزمه. وخلال هذا التوقف، أظهر ريتشارد مجدداً تحفّظه ونضوجه بوصفه قائداً عسكرياً بالإضافة إِلىٰ براعةٍ في القيادة سبقت زمانه. إنّ تحفّظه بالذات في فترة مبكرة من النهار أدّى فيما بعد إِلىٰ الهزيمة المنكرة كما لو كان يعرف غريزياً أن الانحصار الذي مورس على الإسبتاريين سيدفعهم إِلىٰ شنّ هجوم معاكس.

وعندما توقف الصليبيون، حذت بعض وحدات المسلمين حذوهم. وتمكن تقي الدين وهو ابن شقيق صلاح الدِّين والنائب السابق على مصر والذي يقال إنّه «كان يضمر الكره الشديد لدولة الفرنجة» من تجميع حوالي سبعمائة مقاتل تحت لوائه الوحيد ورمزه الغريب الذي كان يصوّر بنطال النبيل الأيوبي. وأطلقوا، من خلف هذا البنطال، هجوماً معاكساً فعّالاً. وقد أكرهت

هذه المقاومة الشديدة ريتشارد على إطلاق هجوم ثانٍ وثالث إلىٰ أن فارقت قوات المسلمين الشجاعة الباقية، ومضوا نحو الجبال، وتوغلوا فيها.

ودوّن الكاتب العربي: «لقد اكتملت الهزيمة».

في تلك الليلة، عسكر الجيش الصليبي بأمان داخل أسوار أرسوف المهدّمة. لقد حقّقوا أكثر الانتصارات اكتمالاً في حربهم الصليبية. وبالمقارنة بحوالي سبعة آلاف ضحية خسرها العدو بالإضافة إلىٰ حوالي ثلاثين أميراً مفقوداً، لم يتكبّد المسيحيون سوى عشر هذه الخسارة أي حوالي سبعمائة. ومع ذلك. وجدوا عزاءهم وسلوانهم لحزنهم على الضحايا التي سقطت في المزمور 34 الذي ينص على ما يلي: «كثيرة هي بلايا الصديق. ومن جميعها ينجيه الربّ». كما وجدوا في المزمور (78) تبريراً وجيهاً للقضاء على عدوهم حيث قال: «لم يحفظوا عهد الله وأبوا السلوك في شريعته».

جلس الصليبيّون، في تلك الليلة، حول نيران معسكرهم، كما جاء في سفر أيوب (31)، مكسورةً قلوبُهم دامعةً أعينُهم. فقد كان من بين الضحايا رجلٌ مميَّزٌ قُتل خلال الهجوم الذي شنّه تقي الدين في ظل رايته ذات البنطال. إنّه البارون الفلمنكي المعروف باسم جايمس دافين الذي ذاع صيته بالقدر ذاته لدى طرفي النزاع. لقد كانت هذه الشخصية النبيلة من بين موجة الدانمركيين والفريزيين الأولى التي قدمت إلىٰ الأرض المقدَّسة سنة 1189م. هو من اضطلع بمهام القيادة في حصار عكّا بعد انتزاعها من الملك غي غير الكفء، وهو من راقب عملية حفر الخنادق الدفاعية، وهو من تسلّم زمام الأمور حتى وصول رئيسه هنري أوف شامباني. كان مثالاً صارخاً للشهامة كما كان من المستفيدين منها.

أُسقط عن صهوة جواده خلال مناوشة جرت خارج أسوار عكّا، وأنقذه أحد الضبّاط بمنحه جواده الخاص وكان الموت جزاءه على عمله النبيل. أُعجِب العرب إعجاباً شديداً بالفارس الفلمنكي لشجاعته وبراعته في القيادة،

إلىٰ حد أنّه يقال بأن صلاح الدِّين أرسل في طلبه خلال الحصار وحاول رشوته للانضمام لصف المسلمين. ومَثَل الطويل للجانب العربي كَمَثل جايمس دافين للمسيحيين.

في الصباح التالي، تجرأت مفرزة من فرسان الهيكل والإسبتاريين بمعية فرقة من التركبوليين على العودة إلىٰ ساحة الحرب المخيفة بحثاً عن جثة البطل. ولم يصعب التعرّف عليه بين العدد الهائل من القتلى إذ تضمّن زيّه درعاً مميزاً من ستة خطوط عرضية باللونين الذهبي والأحمر. وفي نهاية المطاف، وبين الدماء والمعدّات المنتشرة، وجدوا جثته المشوهة منقوصة ذراعاً ورجلاً ومن حوله خمسة عشر قتيلاً من المسلمين. (وفيما بعد، عندما غدا البطل أسطورة، يقال إنه تابع القتال حتى بعد قطع ذراعه ورجله وإنه صرخ عند موته: «يا ريتشارد، اثأر لموتي!»). غُسل جسد البطل وكُفِّن وأعيد إلىٰ ريتشارد في أرسوف حيث حمله الملك ريتشارد والملك غي إلىٰ الكنيسة المكرّسة للسيدة ملكة الجنة في يوم عيد ميلادها. وأقيمت مراسم جنائزية مناسبة في الكنيسة.

كتب أحد المسيحيين في وصفه العبارات التالية: «كان شبيه هكتور في نصائحه الحكيمة، وشبيه أخيل في القتال، وفاق زيغولوس شهامة».

II

لغز عسقلان

في التلال، كان صلاح الدِّين في حالة من الحزن. لا عزاء فيها، ما كاد يأكل أو يتحدَّث مع أقرب معاونيه. وذكر كاتبه الذي حاول عبثاً إخراجه من حالة الكآبة[1]: «وكان في قلبه من الوقعة أمرٌ لا يعلمه إلا الله تعالى». لقد هُزِم السلطان للمرّة الثانية على يد هذا الملك الإنكليزي المرْعِب الذي لا يُقْهر.

(1) ابن سداد، ص 185.

شعر الجنود المسلمون بالانكسار وبصعوبة تمكّن صلاح الدِّين من إعادة ما يشبه الانضباط إِلىٰ صفوفه المتفرقة.

كان صلاح الدِّين في حالة من الغليان. وعلى غرار ما حصل بعد سقوط عكّا، ساورتهم الشكوك مرة أخرى حيال كفاءة صلاح الدِّين في القيادة. بل إن بعض الجنود رفضوا، عقب سقوط عكّا، تنفيذ أوامره في الهجوم على العدو في طريقه إِلىٰ حيفا. فكيف سيتصرّفون بعدما حصل في أرسوف؟ شكّ البعض في مقدرة السلطان على إقناع حلفائه في الداخل الإسلامي بإرسال جنودٍ يحلّون محلّ من قتل.

لقد ثَبتت استحالة هزيمة الغازين عندما يكونون محصَّنين بالخنادق، على غرار ما حصل في عكا. كما ظهرت استحالة التغلّب عليهم عندما يتحرَّكون في صفوف منضبطة، مع احتفاظهم بالهجوم المخيف كسلاح أخير يلجأون له. كان عليه أن يتفادى، بأيّ ثمن، معركة ضارية ويتبنّى مجدداً وسيلة موثوقاً بها تقوم على المضايقة والمناوشة والانسحاب المكروه، وتوحيد القوى مع قيظ الصحراء وتوسيع رقعة الأراضي الداخلية العربية توسيعاً كبيراً واستغلال الوقت لتثبيط عزيمة الغزاة.

بدت الطريق المؤدية إِلىٰ القدس مفتوحة أمام الغزاة. ولم تكن يافا تبعد أكثر من عشرة أميال جنوباً. ومن هناك شُقَّت الطريق الرومانية القديمة مباشرة في الاتجاه الجنوبي الغربي مجتازةً برام الله واللطرون نحو المدينة المقدَّسة، على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً. كَمَن أمل صلاح الدِّين الوحيد في إبطاء حركة زحف العدو ما أن يتجه نحو الأراضي الداخلية. وبما أن الجيش المسيحي قد انفصل عن التعزيزات البحرية، وسيضطر لإطالة خطّ التموين وصولاً إِلىٰ الساحل وسيشكِّل الماء مصدراً للقلق. وعلى المجموعة العربية محاصرة العدو والإغارة عليه دون مواجهته مواجهة مباشرة.

أدرك صلاح الدِّين، عند خروجه من حالة الكآبة التي كان فيها، أن

جيشه كان سليماً. وقد أعاد انتشاره في المناطق الريفية وقمم الجبال. كما أنّه أخذ عدداً كبيراً من جياد فرسان العدو وبغال الإفرنج المرافقين لهم. صحيح أن عدد الضحايا من رجاله فاق عشر مرات ما تكبّده الصليبيّون في أرسوف، إلاّ أنّ الجيش الصليبي فقد العديد من عناصره خلال حصار عكّا، نتيجةً لانتشار الطاعون وللحرب على السواء. تمكّن صلاح الدِّين من استبدال قتلاه بمقاتلين آخرين خلافاً لعدوّه. وقد تقترف قوى الخصم خطأ ما عند توغله في الأراضي الداخلية. أو قد يحثونهم على شن هجوم متهوّر آخر، على غرار ما حدث منذ عدة سنوات خلت عند ينابيع الأقحوانة. أو قد يصطادهم السلطان بعد أن نضبت مياههم فيطوّقهم ويضربهم مرّة أخرى بسوط حطّين. واقتباساً لكلمات الملك ريتشارد في وصف صلاح الدِّين، فإنّ السلطان «أسد في عرينه، يخطّط بسرية لكمين في أعلى المواقع بغية طعن أصدقاء الصليب كالخراف المخصصة للذبح». كان بحاجة لدعم خط التموين الجنوبي الخاص وصولاً إلىٰ مصر من خلال قاعدته الجنوبية في عسقلان ولإعادة تعزيز القدس عينها لضمان تطويق ريتشارد تطويقاً طويل الأمد ومؤلماً.

فيما بعد، ذكر الرواة المسيحيون أنّ صلاح الدِّين جمع قادته، عقب معركة أرسوف، وعنّفهم بقوله: «هل هذه منجزات جنودي الشجعان الذين أغدقت عليهم العطايا والهدايا؟ لقد كنتم، في يوم من الأيام، متبجّحين إلىٰ حد كبير، أما اليوم فقد أصبح المسيحيون يجولون في أرجاء البلاد كلها بحرية فما من أحد يقاومهم. أين سيوفي ورماحي لأهددهم بها؟ أين النصر الذي وعدتم به؟ أين الكوارث التي تنبأ كتابنا المقدس بإنزالها بالكفّار؟ نحن وصمة عار في جبين سلفنا الشريف الذي سدّد ضربات عنيفة لجبروت الوقاحة المسيحية!».

أنهى صلاح الدِّين تقريعه المُسْهَب لرجاله، وساد الخجل والصمت إلىٰ أن قطعه، ابن صلاح الدِّين الثالث والمفضّل بين أولاده والبالغ الثامنة عشرة من عمره. تميَّز هذا المحارب الشاب الذي عيّن، في تلك الفترة، والياً على حلب

بكلامه الهادىء وطباعه الجادة، كما اشتهر نبله وحلمه وإحساسه العالي بالعدل، وحبّه للشعر. ولذلك فقد كان لكلامه وزن كبير وقال بجدية: «أيّها السلطان المعظَّم، إن كلامك غير منصفٍ، فقد حاربنا بكل ما أوتينا من قوّة ضد الإفرنج. وهجمنا عليهم بقلوب لا تعرف الوجل، ولكنّهم مدجّجون بدروع لا يخترقها سلاح، ولذلك لم تسبِّب ضرباتنا أي أذى كما لو كنا نضرب في الصوّان. والأكثر من ذلكم، ففي عدادهم قائد يفوق أي رجل آخر وقعت عليه أعيننا قوةً. فمن على صهوة حصانه، يتقدم المهاجمين ويطيح برجالنا بالعشرات. ما من أحد يستطيع الوقوف في وجه هذا الرجل الذي يدعونه الملك ريك أَو التملُّص من قبضته. ملك كهذا وُلِد ليحكم العالم بأسره».

وللمفارقة، بثّت هذه الكلمات الأمل في نفس السلطان. فقد استرجع صلاح الدِّين القدرة على تهديد الجيش المسيحي في غضون أربع وعشرين ساعة من هزيمته النكراء في أرسوف.

وبعد أن أمضى الصليبيّون يوماً أخلدوا خلاله للراحة ودفنوا بطلهم الصريع وأقاموا الصلوات تضرعاً لمريم العذراء، تحرَّكوا نحو الجنوب باتجاه حيفا. نشر صلاح الدِّين رجاله لقطع الطريق عليهم وأمطرهم بالسهام أملاً في حثّهم على شنّ هجوم جديد تكون استعداداته له أفضل من ذي قبل. ولكنّ الهجوم لم يقع. واصل الطابور المسير قُدُماً وانسحب صلاح الدِّين من أمامه. عُرِض المزيد من الأسرى المسيحيين على السلطان ومن بينهم المزيد من النساء بالزيّ الحربي الكامل. وفور الانتهاء من استجوابهم، قُطِعَت رؤوسهم دونما تأخير.

واستناداً إلىٰ أحد الاستجوابات، عَلِمَ القائد المسلم أنّ ريتشارد قرَّر المكوث بضعة أيام في يافا لإعادة بناء أسوارها، وحَفْر خنادقها الدفاعية، لكي يكون هذا المَعْقِل المدخلَ الجديدَ للأراضي المقدَّسة للحجاج اللاحقين.

ولكن أي مكان يزمع العدو قصده بعد يافا؟

لم تكن يافا أفضل ميناء بحري في فلسطين الساحلية. بل هذا هو حال عسقلان التي تبعد ثلاثين ميلاً باتجاه الجنوب. تمكّن الصليبيّون من الاستيلاء على هذا الميناء وطرد المسلمين منه سنة 1155م ولكنّ المسلمين استعادوه وفقدوه ثانية سنة 1154م إلىٰ أن أعاد صلاح الدِّين إليه سيطرة المسلمين عليه سنة 1187م. وبات ميناء الآن مركز صلاح الدِّين لربط جزأي الإمبراطورية العربية في مصر وسورية، كما صار قاعدته البحرية الأمامية. وفي حال انهزام صلاح الدِّين أمام ريتشارد وخسارة هذا الميناء، سينقطع الاتصال بين نصفي إمبراطوريته.

كانت عسقلان مدينةً جميلةً تحتلّ مكانةً كبيرة في قلوب المسلمين. فقد كانت تمثّل إحدى المدن الرئيسيَّة الخمس في فلسطين القديمة، والموقع الذي ذَبح فيه شمشمون غاضباً ثلاثين رجلاً، ومكان ولادة هيرود ويقع خارج المدينة وادي النمل حيث يفيدنا القرآن وفقاً لرواية ترمز لتعقيدات مسألة القوة والضعف، بأنّ سليمان نطق بلغة النمل وخشي أن يهرسهم عرضياً، ما حثّ نملةً للقول في الآية القرآنية من سورة النمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [سورة النمل: 18].

كان في الميناء مسجد يعود تاريخه إلىٰ أربعمائة سنة خلت يُعرف بمسجد عُمَر بالإضافة إلىٰ سوق رفيع المستوى صاخب يطلّ على ساحة من الرّخام. وعُرفت المدينة بزيتونها وجُمَّيْزها ودود القزّ الشهير وكذلك بذباب الرمل الضارّة. حُصّن الميناء المقوّس الشكل بجدار مزدوج وثلاثة وخمسين برجاً وأسوار خارجية منيعة. وَمَثَّل موقعها الاستراتيجي للعرب القدرة على تعبئة قوة عسكرية بسرعة من موارد مصرية تهدّد المملكة اللاتينية متى شاءوا. واسم المدينة يعني باللغة العربية «رأس سوريا».

لم تكن عسقلان الميناء الأمامي لشن هجوم على المملكة الصليبية ومركز الإمبراطورية العربية فحسب، بل مَثَّل أيضاً خط الدفاع الأوّل ضدّ غزو صليبي

لمصر وضدّ أي خطر يسلّط على أقدس الأماكن الإسلامية. وفي هذا الصدد، لم يكن صلاح الدِّين واثقاً بأنّ ريتشارد يزمع التوجّه إلىٰ القدس عبر الأراضي الداخلية. فمن يستطيع أن يؤكّد، بغضّ النظر عن كلامه حول «الحرب الصليبية المقدّسة»، بأن طموحاته ستقتصر على القدس؟ فقد يقرّر، عوضاً عن ذلك، مواصلة المَطْلب التاريخي الذي سعى إليه أجداده الأوروبيون للسيطرة على مصر وتنصيب نفسه مجدداً إمبراطوراً على منطقة البحر المتوسط، على غرار القيصر أغسطس والإسكندر الكبير.

لهذا الكلام، من وجهة النظر العسكرية، معنى منطقي. فإن تحرّك الملك الإنكليزي جنوباً على طول الساحل، ستدعمه قواته البحرية المتفوّقة، وعقب سيطرته على مصر، قد تصبح عسقلان مركزاً للحكم الجديد للشرق الأدنى كما كانت الإسكندرية لقيصر أغسطس والإسكندر الكبير. وبالتالي تنعكس الأوضاع. فبدلاً من أن تكون مركز الإمبراطورية العربية الموحّدة، ستصبح الموقع الأساسي لمملكة صليبية جديدة وموسّعة تجعل من القدس جوهرة تاجها.

وفي كل الأحوال، كانت مصر خزان إمبراطورية صلاح الدِّين. وخلال السنوات التسعين الأخيرة، قام عبء التاريخ العربي ومجده على بذل الجهود بغية توحيد مصر وسوريا في إمبراطورية واحدة تتبع المذهب السنِّي، وتحول دون وجود أوروبي في الشرق الأوسط. وتصادف وصول صلاح الدِّين لسدّة الحكم مع هذا التوق للاتحاد، على الرغم من جهود الملوك الإفرنجة لمنعه. حاول ملك صليبي خمس مرّات، من سنة 1163 إلىٰ سنة 1169م، اجتياح مصر والسيطرة عليها للحؤول دون توحيد الأراضي العربية. حتى أن والد صلاح الدِّين بالذات سقط عن صهوة جواده خارج بوابة النصر في القاهرة خلال الحروب التي وقعت في مصر ضد الإفرنج. أما عمّه شيركوه فقد كان قائد الحملة التي غزت مصر وبالتالي سلّم هذه الأرض إلىٰ الإمبراطور في

دمشق. وفي نهاية المطاف، عندما تمّت الإطاحة بالإفرنج، أصبح صلاح الدِّين إمبراطور مصر.

لم تكن الوحدةُ الإنجازَ الوحيدَ في التاريخ العربي الحديث!! بل إن القرآن باركها باعتبارها قيمةً عقدية وسياسية.

ما الذي يمكن أن يضع حدّاً للملك ريك، هذا المحارب الجبار الذي وجد فيه ابن صلاح الدِّين ذاته الشخصية الكفيلة لجعله يسيطر على العالم، فيمنعه من السعي مباشرة للحصول على ذهب القاهرة؟ من يستطيع أن ينسى الغزو المخيف الذي شنّه ريجينالد دو شاتيون على الأماكن المقدَّسة في المدينة ومكة سنة 1182م؟ قد يكون هذا الملك العملاق نسخة باهرة عن شاتيون الذي لم يقتصر مسعاه على استرداد القدس فحسب بل أراد القضاء على الإسلام بحد ذاته. ولذلك، كانت كوابيس صلاح الدِّين على قدر كبير من الضخامة.

فماذا عن عسقلان؟

بهدف إيجاد حلّ لهذه المعضلة الاستراتيجية، استدعى صلاح الدِّين قادة جيشه وجمعهم في جلسة استشارية في مُنْعَزله الذي أقامه في الرملة وكان السؤال: هل الدفاع عن عسقلان ممكن؟ أو إن أعدنا صياغة السؤال بشكل مغاير، هل كانت إمكانياتهم تتيح لهم الدفاع عن عسقلان والقدس في آن واحد وخوض حرب مزدوجة إذا حوصرت المدينتان في الوقت ذاته؟ إنّ الذود عن كل مدينة يتطلّب عشرين ألف رجل. فمن أي احتياطي ومن أي وحدات يمكن استدعاء هؤلاء الرجال؟

ما زالت ذكرى كارثة عكا حيّة في أذهانهم جميعاً، وقد شحُبَت وجوه قادة الجيش للتفكير في حصار آخر طويل الأمد ـ بصعوباته، وجوعه، والمجزرة التي سيذهبون ضحية لها، في نهاية المطاف، على يد الملك ريك الوحشي ـ، وقال قائد كردي ساخط يكنّى بالسمين ما يلي: «إن كنت تودّ الدفاع عن عسقلان، فما عليك غير الذهاب إليها بنفسك أو ابعث أحد أبنائك.

دع أنذالك القذرين يقومون بهذه المهمة. لن يرافقهم أحد فنحن لا نستسيغ مصيراً كمصير عكّا».

كادت هذه العبارات الوقحة أن تسبِّب عصياناً. واختار صلاح الدِّين تجاهل هذا التمرّد، في الوقت الحالي، لعلمه أنّ التفرقة تكشف حالة الضعف التي آل إليه وضعه. ولكن أن يُنْعت رجاله بـ«الأنذال القذرين؟» انعدام الاحترام هذا أوقع الكآبة في نفس السلطان، فانسحب وحيداً وعزل نفسه داخل فسطاطه ليوم كامل كيف يمكن لرجل ينتمي إِلىٰ عرقه الكردي الأبيّ أن يتفوّه بهذا الكلام؟ وأقام الصلاة لعلّه يجد فيها ما يرشده متخطياً نصيحة قادته. «اسْتَخار الله تعالى، فأوقع الله في نفسه أن المصلحة خرابها لعجز المسلمين عن حفظها من الفرنج». وبعد عذاب طويل، قرّر تخريب عسقلان وهجرها.

بعد هزيمة صلاح الدِّين في أرسوف بأربعة أيام، لم يجد مناصاً من تقسيم جيشه. ترك قوة رمزية لابنه البكر الملك الأفضل على مقربة من يافا بغية مراقبة جهود ريتشارد، فيما توجّه صلاح الدِّين بمعية شقيقه العادل إِلىٰ عسقلان. ورافقتهما المعدات الثقيلة والقسم الأكبر من الجيش المسلم. وعقب مسير نصف نهار، وصلوا إِلىٰ يُبْنى، وهي مدينة سامريّة تقع على قمة هضبة، تُعْرف لدى المسيحيين باسم إيبلين Ibelin ولكنّ معرفة صلاح الدِّين بها تعود لمسجدها العريق والجميل، ولأنها تضم مدافن بعض أصحاب النبي وبستانٍ للتين الدمشقي اللذيذ المذاق.

لدى وصولهم، أصدر صلاح الدِّين أمره لجنوده بأخذ قسط من الراحة، وفيما أسدل الليل ستاره، تزايد قلقه حيال قراره المتعلّق بعسقلان. وبعد التشاور مع ابنه الملك الأفضل، التفت نحو مستشاره الأوّل وقال له والتعاسة تغمره[1]: «والله لأن أفقد أولادي كلّهم أحبُّ إليَّ من أن أهدمَ منها حجراً

(1) مستشاره هو بهاء الدين ابن شداد صاحب السيرة الصلاحية، والنص في السيرة، ص 186.

واحداً. ولكنْ إذا قضى الله بذلك وعيّنه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً، فكيف أصنع؟». فقد تذكّر بأن الاستيلاء على عسقلان كان السِّناد الذي فتح له أبواب القدس منذ أربع سنوات خلت. لقد خيِّل له أنّه بتخلّيه عن عسقلان يخرِق وحدة الإمبراطورية، ويدير ظهره لإنجازات السنوات الثلاثين المنصرمة، ويسحق الحلم العربي الأحبّ إلى قلب العرب، ويفتري على مبدأ الوحدة المقدّس.

عندما يدير المرءُ ظهره للوحدة فإنما يدير ظهره للإرادة الطيبة ويختار طريق التشرذم والانقسام والألم والأسى والأنانية والسوء والجهل واليأس والكفر في العالم الخارجي وفي نفسه[1].

في اليوم التالي، أقام معسكره خارج المدينة. تجمهر العمّال للاستماع إِلىٰ إعلانٍ عن مهمتهم المقيتة. وانتقل جنود السلطان من منزلٍ إِلىٰ آخر لتجنيد المزيد من الأيدي العاملة في عملية الهدم. وتعالى صراخ عام. انتحبت النساء على هذا المصير الرهيب، وباعت الناس ممتلكاتهم بأبخس الأسعار، وشدّت الرّحال نحو مصر أو سوريا في موكب حزين حاملات على ظهورهنّ ما غلا سعره وخفّ حمله. وبيعت عشر دجاجات بدرهم واحد.

إن تهديم مدينة قديمة أثيرة متينة البناء مشروع هائل. فقد كان عرض الجدران يصل أحياناً إِلىٰ تسعة أو عشرة أذرعة (أو حوالي ثمانية عشر إنشاً). أما الجندي فقد كان يقيس الثخانة بشكل مغاير. ثخانة الأسوار تساوي طول رمحه الحربي. جذبت الأبراج اهتماماً خاصاً. اضطلع كل أمير بمهمة قيادة مجموعة من عمّال الهدْم، واستحوذ على أكبر قدر من الاهتمام برج الإسبتاريين الضخم المشرِف على البحر. مُليء البرج بزنود الخشب في اليوم الأوّل من رمضان، وظلّت تشتعل طوال يومين كاملين إِلىٰ أن أدرك الضعف مِلاطَها ووصَلاتِها

---

(1) يبدو أنه شعر، لكنني لم أعرف مصدره (المترجم).

وباتت حجارتها هشّة بما فيه الكفاية كي تنغرز فيها معاول عمال المناجم.

وفيما كانت أعمال التهديم تتقدم، أخذ السلطان يحثّ جنوده وعماله على بذل جهود مضاعفة. لكن الحرب قد أنهكتهم، ومن الطبيعي أن يبطىء العمّال من سكان البلاد في إزالة منازلهم ودفاعاتهم الخاصة! إلاَّ أنّ صلاح الدِّين كان يخشى أن يصل خبر التدمير إلىٰ ريتشارد فيعجّل في شنّ هجومه. نُقل معسكر السلطان إلىٰ موقع أقرب للأسوار بحيث يتمكن الحمّالون والحمّارون من المشاركة في العمل.

واصل الأفضل ابن صلاح الدِّين إرسال رسائل يومية من يافا يرصد فيها تحركات ريتشارد الموضوع تحت المراقبة. أقام المسيحيون معسكرهم خارج أسوار مدينة يافا وتمتعوا، في جنائنها البديعة، بما توفر فيها من رمان وتين وعنب. وكان أسطولهم البحري قد قدم من عكّا محمّلاً بالتعزيزات والمؤونة ـ وبالنساء. وفيما بعد، ألقى كاتب مسيحي اللوم على السيدات ـ كما لو كان الأمر عبارة عن قصة جماعية لآدم وحواء. «جاءتهم النساء من عكّا كي تثير مشاعر الرجال وتحثّهم على الإكثار من المعاصي. فعمّ الفساد الجميع، وفترت حماستهم في أداء فريضة الحجّ، وأُهْملت الواجبات الدينية كلّها». عاد عدد من جنود ريتشارد إلىٰ عكّا على متن المراكب وانغمسوا في المزيد من الفسق والملذّات. لم يحصل جواسيس صلاح الدِّين على أي معلومة تختصّ بهذا التراخي. وظلّت المناوشات بين الطرفين حدثاً يومياً ولكنها تزايدت حدّةً مع دخول رمضان المبارك. وحلم صلاح الدِّين مرة أخرى بإيقاع الصليبيين في كمين ينصبه لهم في أحد الممرّات الضيّقة.

وفجأة أبلغه ابنه باتصال دبلوماسي جديد. مرّة أخرى، طلب همفريد الجميل، ابن همفري أوف تورون، هذا الاجتماع. فهل من الممكن أن يكون النزاع قد أتعب الصليبيين؟ اقترح الطرف الصليبي عندها أن يسلّم صلاح الدِّين المدن الساحلية كافة دون أي مقاومة. أما المقابل فلم يكن واضحاً. وبما أنّ

الصليبيين كانوا قد استولوا على المدن الساحلية الهامّة الواقعة إلىٰ شمال يافا وبما أنّ صلاح الدِّين كان يهدم عسقلان، فلم يتبقّ في المنطقة الجنوبية سوى حصني غزة والداروم الصغيرين.

اقترح بعض الأمراء قبول العرض بعد حصول المسلمين على أقصى ما يمكن من التنازلات. إلاّ أنّ صلاح الدِّين لم يحمل العرض على محمل الجد. والأكثر من ذلك، لم يكن يرغب في تسليم المدن الساحلية إلىٰ ريتشارد بهذه السهولة والانصياع، وبخاصةٍ مع سيطرة فكرة إمكان غزو مصر من جانب ريتشارد على هواجسه.

لكن السلطان استفاد من هذه المبادرة في تأجيل المعارك. أثارت المناوشات اهتمام صلاح الدِّين. ومع تضاؤل رقعة عسقلان يوماً بعد يوم، قاد قواته مرّة أخرى في زحفهم نحو الرملة.

وكتب الملك العادل لأخيه بخصوص محادثات السلام: «إننا نؤجل المواضيع قدر المستطاع. وسوف نطيل أمد المباحثات قدر استطاعتنا لمنحكم الوقت الكافي لإنهاء تهديم المدينة».

الفصل الثالث والعشرون

ذعر واهتياج وسط أشجار الرمّان

في مطلع شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1191م، أوقفت مجموعةٌ مثيرةٌ للشفقة من اللاجئين الناقمين الملطخين بالوحول الفارّين من عسقلان لا يحملون على ظهورهم غير بعض ما لا يستُرُ عارياً ولا يَسُدُّ الرَمَق. ومن فحوى غمغماتِهم وبؤسهم، علم الصليبيّون بتهديم القاعدة الأمامية الجنوبية. ومع أن الملك لم يشكّ في صحة هذه التقارير، إلاّ أنه كان بحاجة لمعرفة حجم التهديم قبل أن يحلّل مقصده. ولذلك جهّز قادساً متيناً، وعيّن شقيق الملك غي قائداً له ـ جيوفري أوف لوسينيان Geoffrey of Lusignan، وهو قائد كفء ـ وأصدر له أوامره بالإبحار إلى المياه المتاخمة لعسقلان ومرفئها. جيوفري أوف لوسينيان كان قائداً متحمّساً ولكنه كان، قبل كل شيء، مزهوّاً بنفسه أكثر من شقيقه. ولذلك كان يسرُّ لنفسه: «بما أنهم جعلوا منه ملكاً، فلا بدّ أن يجعلوا مني إلهاً!». عندما عادت السفينة تخبر بمشاهد مروّعة لأبراج مهدّمة، وبيوت أُضرمت فيها النيران، كان ريتشارد مستعداً للمباشرة في العمل.

قال ريتشارد قلب الأسد لمجلسه: «إنّ العرب يخافون من مواجهتنا في

الساحة. إنهم يهدّمون عسقلان، وأعتقد بأنّه من واجبنا أن نسعى لإنقاذها، وسيلةً لحماية الحجّاج اللاحقين الذين قد يمرّون بها».

إلاّ أنَّ هنري دو شامباني ودوق برغندي والقادة الفرنسيين الآخرين أبدوا معارضة عنيفة لهذه الفكرة. فيافا، وإن كانت مدينةً أصغر مساحة، أقرب لأوروبا وتتلاءم بشكل أفضل مع احتياجات حجّاج المستقبل، وتصلح بالتالي، على أكمل وجه، ميناءً للدخول، وقد سبق للرجال أن بذلوا جهوداً خارقة في تنظيف خنادقها المائية وترميم أسوارها. أما عسقلان، فهي على العكس مجرد تحويل، قاعدة أمامية، لاحقة أثرية للمملكة الصليبية. كما أن موقعها المكشوف والموغل بعداً نحو الجنوب لا يساعد غير الحجّاج القادمين من أفريقيا، ولن يكون عددهم، على الأرجح، كبيراً. وفعلت حجة الفرنسيين فعلها في إقناع المجتمعين إما لقوّتها أو لعدد مناصريها. ولذلك خسر ريتشارد في التصويت ولم يسعه سوى الدمدمة لإخفاق حجته بقوله: «قد لا تكون خلافاتنا عديمة الفائدة على جيشنا فحسب بل قد تعرّضه للخطر أيضاً».

كتب مؤرخ إنكليزي لاحقاً عن هذا القرار: «مشورة غبية! عناد قاتل من جانب رجالٍ خاملين! لأنّ الفرنسيين اهتموا أولاً براحتهم المباشرة وحاولوا تفادي المزيد من المشقّة والتكاليف، ارتكبوا خطأً سيندمون عليه فيما بعد. فلو كانوا أنقذوا عسقلان، لكانت البلاد بأسرها قد تخلّصت من الكفّار». وحتى الماركيز المستقلّ، كونراد دو مونتفرّا، الذي لم يشارك في الحرب الصليبية، أرسل من معقله الشمالي في صور رسالةً وقحة إلى ريتشارد لبقائه ساكناً حيال ما تعرّضت له عسقلان. واستناداً لمصدر عربي، يبدو أن مونتفرّا كتب إلى ريتشارد بما يلي: «مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً ويتقدم على الجيوش! تسمع أنّ صلاح الدين قد خرّب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل؟ يا جاهل! لمّا بلغك أنه قد شرع في تخريبها كنتَ سرتَ إليه مجدّاً فرحّلْتَهُ

وملّكتها عفواً بغير قتالٍ ولا حصار، فإنه ما خرّبها إلاّ وهو عاجزٌ عن حفظها. . »[1]

في اليوم الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1191م، انصرف ريتشارد في يافا لكتابة رسالة لرئيس دير كليرفو (خليفة سان برنارد أوف كليرفو، رائد الحرب الصليبية الثانية، وممثّل البابا في منطقة لودوني Loudunais المتنازع عليها والواقعة شمال بواتييه). تضمّنت رسالته تبصُّراً هامّاً بحالته الفكرية وطموحاته المستقبلية. وشاب وصف تفوّقه على العدوّ شيء من المبالغة: فلم يهدم صلاح الدِّين عسقلان إلاّ لأنه سَمِع بأنَّ ريتشارد «يزحف نحوه بخطى سريعة». كما أنّ السلطان لم «يجرؤ» على مواجهة المسيحيين وقد «تخلّى وغضّ النظر عن الأراضي السورية كلّها».

لم يخلُ تزويق ريتشارد للوضع من باعث خفيّ. وخلافاً لما خشيه صلاح الدِّين من توسيع لرقعة النزاع، بدا الملك في رسالته مُقلِّلاً من طموحاته عوضاً عن الإكثار منها. لم يُبدِ أيّ اهتمام بمصر ولم يظهر أي طموح في أن يصبح القيصر أغسطس الجديد في منطقة المتوسط. لا بل أظهر، خلافاً لذلك، نيته في الإستيلاء على القدس ومغادرة هذه الصحراء اللعينة بأسرع وقت ممكن. وانساق فكره نحو موعد رجوعه لبلاده. أما فيما يتعلّق بالمضائق والحيل التي يفترض أن تكون حركاتٍ يائسةً من جانب صلاح الدِّين، فإن ريتشارد لم يعتبرها عائقاً: «إننا نأمُلُ أملاً كبيراً بأن نستحوذ قريباً، بفضل الله، على إرث الرب بكامله. وبما أننا استحوذنا على هذا الإرث إلىٰ حد ما، وبما أنّنا تحملنا قيظ النهار ومشقّاته وصرفنا كل أموالنا. . . لم نستنفد أموالنا فحسب بل قوة أجسادنا أيضاً. . . فإننا نفيدكم بأننا لن نتمكّن من البقاء في الأراضي السورية بعد دخول عيد الفصح».

(1) الكامل لابن الأثير 12/ 71.

وانطلاقاً من إبلاغه بالمغادرة بعد ستة أشهر، توسّل الملك للبابوية للبدء في تعبئة جيش للاحتلال «بغية الدفاع وحماية مملكة الرب التي سنحكم السيطرة عليها، بإذن الله، بحلول عيد الفصح». أما أين يمكن إيجاد جيش الاحتلال، فإنّها مشكلة على البابا أن يواجهها. اعتبر عيد الفصح من سنة 1192م تاريخ المهلة الأخيرة. لم تكن هذه الرسالة مجرد بلاغ بل كانت إنذاراً «كي لا نُنعت، في آخر المطاف، بالكسل والإهمال في حال توقُّفِنا عن إبلاغ رجل في موقعه وقدسيته مسبقاً بمصالح النصرانية الملحّة. إن أكثر الحاجات إلحاحاً تستدعي من نيافتكم حثّ شعب الرب على العمل». وباختصار، انتهى دور ريتشارد عند هذا الحد. ومن واجب البابا الآن أن يمسك بزمام الأمور.

بيد أن الرسالة التي كتبها ريتشارد لرئيس دير كليرفو لم تتضمّن آخر ما وصلت إليه حالته. فبعد مرور أسبوعين، وبالتحديد في الحادي عشر من تشرين الأول/أكتوبر، كتب للأميرالات رسالة مناقضةً تماماً. فبعد أن كانت طموحاته متواضعة في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر، كَبُرت وعظُمت إلىٰ حد بعيد في الحادي عشر من الشهر ذاته: «ينبغي أن تعلموا أنّنا نزمع، بعد الحصول على موافقتكم، إرسال قواتنا، في فصل الصيف المقبل، لغزو مصر ودخول القاهرة والإسكندرية إكراماً لله ودوساً لكرامة المسلمين. . .» وتابع في تخيّل كل الهبات التي يمكنه الحصول عليها في هذه الحملة. ربما استخدم هذه الحيلة من أجل إقحام المزيد من المراكب الجنوية في الحرب ودافعه في ذلك طمعه وحسب. لم يكن ريتشارد، حتى الآن، قد تخلّى عن رغبته في أن يكون القيصر أغسطس.

II

المأزق

أدى قرار المكوث في يافا إلىٰ ظهور ثغرة دامت شهرين، ويبدو أن الاسترخاء بين أشجار التين والرمان أطفأ نار الحرب الصليبية. وأبحرت المراكب متنقلة بين عكّا ويافا تحمل مواد غذائية ونساءً ممتلئات القوام.

إلىٰ الجيش عادت النساء

وشاعت تجارة العار وقلة الحياء

كلمات دوّنها الشاعر الأوّل للحملة الصليبية. وبدورهم، سارع العديد من الجنود للصعود على متن المراكب المتجولة بين يافا وعكا، رغبةً منهم في الإنغماس في ملذات الحانات والمواخير التي تقدّم إغراءاتٍ أكثر بكثير. ساهم ريتشارد، بغير ذكاء في نشر هذا السلوك غير المنضبط باستدعائه ملكته بيرينغاريا وشقيقته جوهانا، ملكة صقلية سابقاً، من قلعة المرقب الحصينة. فقدمتا برفقة حاشيتهما وحشمهما وخدمهما وموسيقاهما وحفيف ثيابهما الفاخرة. وبما أنّ الملك انغمس في حياة المرح والتسلية، فكيف يمكن لجنوده التشبُّث بثيابهم الحربية؟

أدرك ريتشارد، بعد مرور عدة أسابيع، ما تعرّضت له قواته من استنزاف وأرسل الملك غي إلىٰ عكّا لتجميع الرجال الضالين وإعادتهم استعداداً للمرحلة التالية من الحملة. وعلى الرغم من استعادته مؤخراً لمنصب قائد تحت أمرة الملك ريتشارد إلاّ أنَّه كان لا يحظى إلا بالقليل من الاحترام في صفوف الجند. كتب أحد المؤرخين بسخرية: «لقد عادوا بخطى بطيئة حبّاً بالملك غي»، لذلك أصبح من الضروري أن يسافر ريتشارد شخصياً إلىٰ عكّا لتوبيخ جنوده وتهديدهم وفرض الانضباط عليهم بقوة السوط. وفيما نجح الملك في إعادة

المتكاسلين إلىٰ رشدهم وصفوفهم، إلاّ أنّه قوّض؛ إلىٰ حد ما، الهدف الذي كان يتّبعه بعودته مصطحباً مجموعة من الخدم ومبلغاً مالياً كبيراً ليوفّر للعائلة الملكية المزيد من الراحة في يافا.

أثناء هذه الإجازة في يافا، كادت مصيبة أن تقع على الطرف الصليبي. ففي اليوم الثامن من رمضان، خرج ريتشارد لصيد الصقور ترافقه حاشية قليلة العدد، إرضاءً لرغبته في ممارسة رياضة بريئة. ولا شك في أنه كان يأمل باصطياد بعض الطرائد، لكنّه كان مستعداً للإنقضاض على بضعة أتراك أيضاً في حال لاحوا لناظريه. من الناحية الجدلية، كان لغزوته هذه هدف عسكري شرعي فقد كان بحاجة لاستكشاف المواقع المترامية أمام ناظريه أثناء تقدّمه على الطريق الرومانية القديمة جنوب شرق الرملة.

وجد نفسه، بعد مرور عدة ساعات من الجري المتعب، على مسافة غير بعيدة من اللُّد ـ ولعلّه زار الكنيسة العظيمة المكرّسة للقديس جورج ـ فقرَّر أن يخلد للراحة في بعض الأحراج واستسلم للنوم. صادف ذلك مرور دورية قوية من المسلمين في هذه المنطقة الساكنة، وعندما رأى أفرادها أنّ الحارس مستغرق في النوم، انقضّوا كالصاعقة على المجموعة المتهوّرة. استيقظ ريتشارد على صوت الصخب وبالكاد استطاع امتطاء فوفيل قبل أن يهجموا عليه. فاق المهاجمون مجموعة الصيد عدداً ولذلك كان أسرهم مؤكداً ووشيكاً لو لم يتخلله تصرّف ماكر من أحد الفرسان النورمانديين. وجد ويليام دو بريو William de Préaux، وهو من حاشية الملك، أنّ كارثة هائلة توشك أن تضربهم فبدأ يصرخ مدّعياً أنّه الملك ريك الباسل ولا أحد غيره، وأنّه لا يحقّ لهم أخذه أسيراً، وهذا بالضبط ما قام به العدو على الفور.

استفاد ريتشارد من هذه البلبلة كي يبتعد عن الموقع. فقد كانت «يد الله تحميه كي يحقّق إنجازات كبرى» حسب قول أحد المؤرخين. وألقي ويليام دو بريو المسكين في سجن المسلمين حيث استمرّ أسره حتى نهاية الحرب

الصليبية حين أطلق سراحه مقابل فدية باهظة. وما أن انتشر خبر هذه الكارثة الوشيكة بين صفوف الجنود حتى ساد الذهول الجميع للمخاطرة التي عرّض قائدهم نفسه لها. وجّه إليه بعض الفرسان اللوم على تهوّره ولكنّه استخفّ بخوفهم بحركة من يده. وقال لهم بنبرة يملؤها التهكّم: «ما من أحد يستطيع أن يبدّل في طبيعتي ما أن أخرج إِلىٰ الفلاة».

وفي حادثة أخرى، وجدت مجموعةٌ من فرسان الهيكل نفسها في وضع حرج، وتوسّل مساعد ريتشارد إلى مليكهم عدم المخاطرة في القيام بعملية إنقاذ بطولية. فقال أحدهم: «مولاي، إنّه لضرب من الجنون أن نقاوم بعديدنا القليل هذه المجموعة الكثيرة. إننا عاجزون عن إنقاذ رجالنا الذين يقاتلون ومن الأفضل أن نتركهم يلاقوا حتفهم على أن تتعرّض جلالتكم والدين المسيحي بأكمله لخطر محتم فيما كان الوقت لا يزال يسنح بإمكانية الفرار».

وصرخ ريتشارد معترضاً: «ماذا! لو أني تجاهلت تقديم العون لرجالي الذين أرسلتهم في الطليعة واعداً إياهم باللحاق بهم، فلن أستحق أبداً أن أكون ملكاً».

وعلى الرغم من هذه الشجاعة، كانت هواجس ريتشارد وقلقه حيال العملية كلّها تتزايد. فقد امتد سهل الرملة، على الطريق الرومانية المؤدية إِلىٰ أورشليم. كانت الرملة عاصمة فلسطين القديمة. ومع أنها لم تكن موجودة في زمن ظهور الإنجيل، إلاّ أنها كبرت وعَظُمت خلال الأربعمائة سنة الأخيرة من وجودها حتى ماثلت، في مرحلة من المراحل، أورشليم مساحةً. وقد لفتت هذه المدينة الانتباه إليها بحمّاماتها المنعشة ومنازلها الشاسعة والعدد الكبير لليهود فيها فقد بلغ عددهم حوالي ثلاثمائة نسمة عاشت في جوّ هادىء دون التعرّض للتنكيل وبتناغم مع سكّان البلدة المسلمين وحكّامهم الصليبيين.

اتّخذ جيش صلاح الدِّين من هذه المدينة مركزاً دفاعياً له. واكتشفت

البعثات الصليبية الاستكشافية أنّ صلاح الدِّين يهدم أي تجهيزات ذات قيمة عسكرية تقع بين الجيشين. وانطلاقاً من وجهة نظر استراتيجية، قام مخطط صلاح الدِّين على التهديم والانسحاب مع الإغارات المستمرة على الجنود الصليبيين أثناء تقدمهم على الساحل، وباتجاه القدس.

وفيما كانت كتائب ريتشارد تغادر يافا إما لأغراض استكشافية أو بحثاً عن العلف، انقضت عليهم خيالة العدو أرسالاً. وبصدّ ضربات العدو صداً شجاعاً، سقطت ضحايا جديدة عند كل مواجهة. وفي كل قتال، يسطع نجم أحد الفرسان النبلاء الجسورين وينضم إلىٰ قافلة الرجال الأسطوريين عندما يسقط على أرض المعركة. وحول البطل يتوارى أيضاً، رجال آخرون دونه مرتبة لكنهم يوازونه قيمة. وبسبب المضايقات المتكرّرة، كان لا بد من تعزيز الحراسة على الكتائب الباحثة عن العلف بالإضافة إلىٰ تقصير مسافة ابتعادها عن قوى الجيش الأساسية.

في أكثر من مناوشة، سارع ريتشارد على صهوة جواده لإنقاذ جنوده مع ما يكتنف هذا الأمر من مخاطر جمّة، وبخاصةٍ أنّ جواده لم يكن بالرشاقة المطلوبة كي يَلْحق بالمسلمين سريعي الخطى ومثيري الغضب. أما مواصلة الجري وراءهم بحيث يتوغل في مناطق بعيدة فعمل يجرّ وراءه الكوارث. بعث الملك بمهندسيه لإعادة بناء برج السهول وبرج معان، وهما قاعدتان عسكريتان صغيرتان تقعان على طريق رملة. ولكن أي حامية ستقيم فيهما عند انتهاء أعمال البناء؟ وكم ستدوم فترة الإقامة قبل أن تحثهم الوحدة أو الهزيمة أو الجوع على هجرهما؟ شاعت أخبار عصابات منظّمة من اللصوص المسلمين الذين كانوا يتسلّلون إلىٰ معسكرات الصليبيين ويقتلون الحرّاس ويسطون على مخزون الطعام حتى وصلت إلىٰ مؤخرة الجيش في أراضي كلّفت السيطرة عليها ثمناً باهظاً من أرواح المسيحيين. كم من الوقت يستطيع المسيحيون التعايش مع هذا

الوضع؟ أوليست تلك نبوءة بما يخبئه لهم المستقبل؟ في هذه الأثناء، علم ريتشارد بأنّ صلاح الدِّين هدم كاتدرائية القديس جورج الجميلة في اللد ودمّر قلعة الرملة.

وفي رواية المؤرّخ العربي بهاء الدين (ابن شداد)، فإن ريتشارد أشار من جديد إلى رغبته في التفاوض، وكان ذلك في اليوم السادس والعشرين من رمضان الموافق السابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر من سنة 1191م. وطلب الاجتماع بالملك العادل شقيق صلاح الدِّين. وعند تقاطع طرق يازور التي تبعد ثلاثة أميال عن يافا وثمانية عن الرملة، التقى مبعوثان من الطرفين وسط قرقعةٍ صاخبة وسُلِّمت الرسالة التي وجّهها ريتشارد لصلاح الدِّين بكل لياقة. وعاد السفير بعدها إلىٰ الرملة ودخل على حضرة السلطان نفسه.

قرأ صلاح الدِّين في رسالة ريتشارد قوله: «إنّ المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد، وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقّه»[1].

بهذه الألفاظ المنتقاة، أشارت الرسالة إلىٰ أنّ أورشليم، والصليب المقدس، والمملكة اللاتينية تمثّل نقاط النزاع الرئيسية بينهما. «. . ليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد. والقدس معبدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبقَ منا واحد»[2]. وطالب ريتشارد باستعادة منطقة مملكة القدس بأسرها كحق وراثي لهم. وألحق بطلبه هذا، كما لو كان فعلاً القيصر أغسطس، مطالبته بالقاهرة باعتبارها إتاوة![3].

وتطرّق أخيراً لموضوع الصليب فقال: «وأما الصليب فهو خشبةٌ لا مقدار

(1) ابن شداد، مصدر سابق، ص 193 - 194.
(2) ابن شداد، ص194.
(3) ليس في نص ابن شداد ذكرٌ لذلك، وهو مستبعَد!

له عندكم، وهو عندنا عظيم، فيمنُّ به السلطان علينا، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم»[1].

وعلى غرار العديد من المبادرات الدبلوماسية، تمحورت أهمية هذا الاستهلال في ما يمكن قراءته بين السطور. ولذلك قرأه صلاح الدِّين بعناية الكرّة تلو الكرّة. علامات الدهشة علت وجوه المسلمين لسماعهم بهذه الشروط التي يطالب بها شخص يجد نفسه مطوّقاً وجيشه مثبّط الهمة وحلفه في انحلال. ولكنّ كلمات الرسالة الاستهلالية تنمّ عن تعب وتشير إلىٰ توق لمخرج يحفظ الكرامة. وعلى صلاح الدِّين أن يتعامل مع هذه المناورة بكل حذق. لم يغب عن فكره أنّ الحرب قد أنهكته هو أيضاً. فأي هزيمةٍ أخرى تصيبه تؤدي إلىٰ تلاشي جيشه كله.

قال صلاح الدِّين للمبعوث المسيحي: «إن ملككم يطالبني بتقديم ما لا أستطيع أن أقدّمه له دون إلحاق المهانة بالدين الحقّ. إلاّ أنني أعرض عليه أراضي منطقة القدس كلها، ابتداءً من نهر الأردن وصولاً إلىٰ البحر الغربي، شريطة ألا يقوم المسيحيون ولا المسلمون بإعادة بناء عسقلان». ويبدو أنّ هذه الملاحظة بثّت الأمل في قلوب سفراء الصليبيين. ولكن عندما جلس صلاح الدِّين للردّ على رسالة ريتشارد، لم يأتِ على ذكر هذا العرض الجديد.

كتب صلاح الدِّين في ردّه: «القدس لنا كما هي لكم، وهي عندنا أعظم مما هي عندكم؛ فإنها مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنها، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين. وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت. وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دامت الحرب قائمة. وما في أيدينا نحن نأكل بحمد الله مغلّه وننتفع به. وأما الصليب فهلاكُهُ عندنا

(1) ابن شداد، ص194.

قُربة عظيمة، ولا يجوز لنا أن نفرّط فيها إلا لمصلحةٍ راجعةٍ إلىٰ الإسلام هي أوفى منها»[1].

بات الوضع شبيهاً بلعبة «ضربة منك وضربة مني»؛ في لغة الدبلوماسيين، عرض الفريقان مبادئهما الخاصة وكان بينهما تبادلٌ صريح للآراء والمصالح. بدا خلافهما عسيراً يصعب حلّه. ولا تحلّ الكلمات محل كل شيء آخر. أصبح العادل شخصياً حامل ردّ صلاح الدِّين الحادّ على رسالة ريتشارد، وعندما وصل شقيق السلطان إلىٰ معسكر الصليبيين، قوبل بترحاب حار. كان ريتشارد عليلاً، ولم يتمكن من استقبال المبعوث، فقد كان الملك يخضع لعملية فصد (لم يكن عليلاً بل كان يخضع لعلاج وقائي وحسب، إذ كان يُنصح بفصد كل المسافرين في تلك الفترة من السنة لوقايتهم من الوقوع في المرض). وتلبيةً لتعليمات الملك، دُعي العادل إلىٰ عشاء فاخر. وردّ القائد العربي على هذه الحفاوة بتقديم هدايا قيّمة هي عبارة عن سبعة جمال وفسطاط رائع لريتشارد. ونمت بين الملك والأمير مشاعر الألفة والتفاهم.

وانطلاقاً من هذا التبادل الجدي للعروض الذي تخلّلته لمساتٌ مليّنة للأجواء تمثّلت في الهدايا والمجاملات والمآدب، تحوّل الوضع لفترة وجيزة إلىٰ مَهْزَلة. أما كيف تطوّر العرض السخيف بعض الشيء فغير واضح؛ لكنّ المعروف أن نظرة ريتشارد للمرأة باعتبارها وسيلةً للتسلية كانت متأصّلة فيه، وقد بقي العادل في الضيافة الغربية لفترة كافية للإحساس بالإعجاب تجاه السيدات الغربيات. إلاّ أنه ترك المعسكر الصليبي وعاد إلىٰ فسطاط شقيقه في الرملة حاملاً عرضاً رائعاً من «الأنكتار» وهو اللقب الذي عرف به ريتشارد في بلاد المسلمين.[2]

(1) ابن شداد، ص 194.

(2) يبدو أن هذا اللقب، والذي يعني: الإنكليزي، تحوير للمفرد الفرنسي: انكتير، مع إسقاط «اللام» للتسهيل. وما يزال لقبه: الإنكتير واضحاً (الإنكتار) في بعض مخطوطات ابن الأثير، وابن واصل.

طرح العادل رسمياً العرض الجديد على شقيقه على النحو التالي. يتقدّم الملك العادل الملقّب بسيف الدين لخطبة جوانا شقيقة ريتشارد وملكة صقلية السابقة. وبعد الزواج، يتشارك العروسان في حكم مملكة أورشليم الجديدة ويكون المركز الملكي في القدس. يسلّم صلاح الدِّين الأراضي الفلسطينية كافة إلى شقيقه، ويسلّم ريتشارد كل الأراضي التي يسيطر عليها إلى شقيقته. ينصهر النصفان لتكوين المملكة المهجّنة، على الرغم من أنه سيُسمح لفرسان الهيكل والإسبتاريين بالاحتفاظ بقلاعهم ضماناً لأمن وراحة الحجّاج الوافدين، وتُعطى الحرية للمسلمين لزيارة المواقع المقدَّسة في القدس دون أن تعترضهم أية صعاب. يسترجع ريتشارد الصليب الحقيقي ويغادر بعدها الأراضي المقدَّسة.

قبل أن ينتهي العادل من طرح فكرته الخيالية على السلطان، انتشر خبر العرض بسرعة في أنحاء معسكر المسلمين، وأثارت طبيعته المغرية شعوراً كبيراً بالفرح في صفوف الجنود العاديين. هل بات السلام وشيكاً؟ قرّر صلاح الدِّين، احتراماً لشقيقه الموقّر، أن يستمع إلى عرضه حتى النهاية على الرغم مما واجهه من صعوبة في لجم نفسه عن إطلاق ضحكة صاخبة. فهو لم يعد يشك الآن في أنّ الملك ريتشارد صاحب روح فكاهة عملية.

بادىء ذي بدء، لا يحرّم القرآن الزواج من مسيحية. لكن التناغم الروحي بين الرجل وزوجه في الدنيا وفي جنة الخلد عقيدة أساسية من عقائد الإسلام. فالأفضل للزوجين معرفة الله وعبادته بالطريقة ذاتها. وفي هذا الصدد، تنصّ الآية القرآنية على ما يلي:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ﴾ [سورة البقرة: 221].

فلكي ينجح هذا النكاح، كان السلطان يفضّل أن تعتنق جوانّا الإسلام.

ولو حدثت المعجزة، وأقيم حفل الزفاف الإسلامي ـ المسيحي

المشترك، فيمكننا سماع الشعراء يطيلون في مدح الملك العادل. وفيما بعد، كُتبت عنه قصيدةٌ جاء فيها:

«عدالته وهيبته انتشرتا في كل البلدان؛ وكذلك الأمر في كرمه وجوده.

هيبته هي التي جعلت الذئاب تتجمّد جوعاً ورعباً طوال الليالي رغم وجود الغزلان الرقطاء على مقربة منها.

ولا أحد من المسلمين يمكنه أن يتطرق إليه الشكُّ في أمانته على الإيمان والإسلام.

وهو سيف الله الذي حُلّتُهُ سطورُ المجد؛ ومعدِنُ الحُسام أصالتُهُ من أصالة معدن حامله.

كرمُ خُلُقه يدفعه للعفو عن كبار الذنوب.

لا تذكروا الملوك السوالفَ عند ذكره، فقد تفرد بين الحاضرين، كما بين السابقين..»[1].

ومع ذلك، وكما جرت العادة بخصوص معالجة أمور الدولة، جمع صلاح الدّين مجلس الأمراء، وقرىء العرض ثلاث مرّات. وبعد كل قراءة، كان صلاح الدّين يعبّر عن موافقته الرسمية متيقناً كل اليقين، كما أوضحه المؤرّخ المسلم[2]، بأنّ ريتشارد لن يوافق أبداً عليه وجلّ ما يقصده من هذا الاقتراح هو التسبّب بإزعاجهم. ومهما كانت الأمور المرتبطة بهذا العرض المضحك، فقد تمكّن المسلمون من تأخير القتال لفترة طويلة.

ولكن كان لا بد أن تُرَدَّ الكرة إلىٰ ملعب الصليبيين ثانية. فعند سماع هذا الطرح، طرحت جوانّا نفسها أرضاً تصرخ وتزعق تعبيراً عن رفضها مقسمةً بكل

---

(1) ترجمتُ القصيدة ترجمةً مقاربة؛ لأنني لم أستطع العثور عليها في المصادر (المترجم).

(2) ابن شداد، ص 196: «بادر إلى الرضا بهذه القاعدة، معتقداً أن الملك الإنكتار لا يوافق على ذلك أصلاً، وأن هذا منه هزوٌ ومكر..».

مقدّس أنّها لن تتزوج بمسلم. وفي ظل ظروف مماثلة، لم يكن ريتشارد في أحسن حالاته. وعندما عاد المبعوث المسلم بالردّ، وصف الملك المرتبك حزن شقيقته وقال: «إنْ كان الملك العادل يتنصر، فأنا أتمم ذلك». ومع تجاهله الظاهر لاستحالة تحقيق هذا المطلب لكنّه أصرّ عليه كما لو أنه موشِكٌ على عقد الاتفاق!

أما رسالته الرسمية التي وجّهها إلىٰ السلطان فتختصّ بالقدس واقتراح بتقسيم الأراضي. كتب لعدوه قائلاً: «إني أحب صداقتك ومودتك. وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه، ولا بد أن يكون لنا عُلقة بالقدس الشريف. ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لومٌ من المسلمين، ولا عليّ لومٌ من الإفرنجية»[1].

وأمام رفض جوانا، ضَمن ريتشارد بديلةً لها فعَرضَ ابنة شقيقته إليانور أوف بريتاني. قد لا تكون ملكةً إلاَّ أنّها بِكر مطواعة. وبتقديم هذه الفتاة القاصر، لن يحتاج لموافقة البابا كما كان يجب أن يحدث في حال ملكة سابقة، كما أن وصول الإذن من روما يستلزم تأخيراً يدوم ثلاثة أشهر على أقل تقدير. ولكن العادل شعر بالإحباط عند وصول هذه الرسالة إليه. لقد اختار قلبُه ملكةً نصرانية، ولن يرضى إلاَّ بملكة نصرانية. هكذا أظهر اللاعبان أنهما صعبا المراس.

وسط هذه التمثيلية، ظهرت حبكة ثانوية غريبة زادت الوضع تعقيداً. في اليوم ذاته الذي كان يفترض أن يقابل فيه همفري أوف تورون بالنيابة عن ريتشارد صلاح الدِّين، وصل بارون محلي آخر، هو أمير صيدا، إلىٰ معسكر المسلمين وكان يحمل في جعبته رسائل رقيقة المشاعر من كونراد أوف مونتفرّا، ماركيز صور. كان أمير صيدا شخصية مألوفة للمسلمين. فقد شغل لسنوات

(1) ابن شداد، ص 202.

عدةٍ خَلَت مركز اللورد الحاكم لقلعة الشقيف الواقعة في جنوب لبنان. نجا من معركة حطين ولكنّه وقع أسيراً في معركة أخرى ودام أسره في دمشق حتى فترة قريبة. طوّق صلاح الدّين حصنه في الشقيف لأكثر من سنة ابتداءً من سنة 1189م ولم يسلّم إلاّ بعد أن أنهكه الجوع. عقد حلفاً مع كونراد أملاً في استعادة بلدته الساحلية التي يسيطر عليها المسلمون.

بالطبع، كان لا بدّ أن يدير ظهره لعملية ريتشارد بأسرها ما أن انحاز ريتشارد إلىٰ الملك غي. غادر عكّا ساخطاً قبيل سقوطها، ودخل في شراكة مع فيليب ملك فرنسا واستقبل أسرى فيليب ونصف الغنائم الفرنسية قبل أن يغادر الملك فيليب سرّاً إلىٰ فرنسا. وكما لو أن كونراد بديل عن فيليب، زاد التوتر حدّة مع زحف ريتشارد نحو الجنوب. وعندما أبحر ريتشارد من يافا إلىٰ عكا عقب معركة أرسوف، كان ينوي، بالإضافة إلىٰ عملية تجميع الجنود المتهربين المتكاسلين، تسوية خلافاته مع كونراد ومجموعة الرفض الفرنسية، ولكنه أخفق في هذه المهمة الأخيرة، وظلّ كونراد، بالنسبة للمسلمين، أكثر البارونات المحليين إرعاباً بفضل قدراته وشجاعته وطاقته الحيوانية.

فماذا كان يدور في خَلَده الآن؟

بعد خروج العجوز همفري أوف تورون، أُذِن لأمير صيدا بالدخول على صلاح الدّين وطرح عليه عرضاً مميّزاً. لقد ضاق ذرع كونراد أوف مونتفرّا من هذا الإنكليزي المستأسد المتعجرف. وهو اليوم مستعدّ للتحالف مع صلاح الدّين من أجل طرد المنافق خارج الأراضي المقدّسة. وفي مقابل هذا التحالف الخالي من أي طبيعة قدسية، يتنازل صلاح الدّين عن مدينتي صيدا وبيروت. وأكثر من ذلك بعد، فإنّ كونراد مستعد لحصار الصليبيين في عكّا. ومتى سقطت هذه المدينة بين يديه فإن حكمها يصبح من حقّه. ولم يكن من الصعب تخمين ما دار في مخيّلة كونراد. كان يسعى للحصول على دولة من نوع آخر تضم مدن بيروت وصيدا وصور وعكّا الشمالية، يقطنها أحفاد أبطال

الحرب الصليبية الأولى عوضاً عن هؤلاء المتطفلين «القادمين من وراء البحار»، ويرأسها هذا المرتد من بيدمونت.

اغتبط صلاح الدِّين بهذا العرض المستقلّ. وشعر بالارتياح لإمكانية زرع التفرقة في صفوف الصليبيين بين الأوائل منهم والغزاة الجدد. وبقبول صلاح الدِّين عرض كونراد (وهو ما كان يميل للقيام به على الفور)، يحيل الأوروبيين شاحبي الوجوه لقتال غيره. وإذا اقتحم كونراد عكّا، سيضطر ريتشارد إلىٰ إيقاف تقدمه نحو أورشليم والعودة للدفاع عن الأراضي القديمة.

أُعِدَّت خيمة فخمة لأمير صيدا في معسكر المسلمين كُسِيَت أرضيتها بالسّجاد المترف والوسادات الوثيرة. وأُقيمت له مآدبُ وفيرة، وصحبه العادل شقيق صلاح الدِّين لاستكشاف خطوط القتال. وهكذا عومل أمير صيدا معاملة الحلفاء أو السادة، وقدّمت له الحفاوة اللازمة لبضعة أيام فيما كان الأمراء يتشاورون في العرضين المتنافسين المطروحين عليهم.

وفي جو لا يمت للواقع بصلة، تنقّل المفاوضون المسلمون ذهاباً وإياباً بين المعسكرين المختلفَين. وفي مرحلة من المراحل، نُصب فسطاط خاص بين الطرفين، فرش بأنفس المفارش كان العادل وريتشارد يلتقيان فيه ويقوّيان روابط الصداقة بينهما على مائدة المأكولات والمشروبات. ونقلاً عن مؤرخ عربي، انفصلا «بعد التوكيد على الرغبة في المودة والصداقة»[1]. وفي السادس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، قدّم ريتشارد للعادل حصان قتال مهيباً هديةً منه للسلطان.

وفي دورة أخرى مع مبعوث ريتشارد، تمّ التطرّق لموضوع الأسرى. قال السلطان بسخرية لهمفري أوف تورون: «إن كان الصلح فعلى الجميع، وإن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء»[2]. عندما غادر المبعوث،

(1) ابن شداد، ص 219.

(2) المصدر السابق، ص 202.

التفت صلاح الدّين إلىٰ مستشاره قائلاً: «متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم، فإني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الفرنج. والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل، أو يأتينا الموت»[1].

ومع ذلك، جمع السلطان أمراءه التزاماً منه بالشكليات كي يسألهم عن رأيهم في هذين العرضين. وأجابوه بأنّ عرض ريتشارد أفضل شريطة أن يكون صادقاً؛ فإن خبرتهم الطويلة علّمتهم أن التوصّل لاتفاق صريح مع البارونات المحليين مستحيل. فلطالما خرقوا وعودهم. كما أنّ خبرتهم الجديدة الأمد بيّنت لهم أن التخلّص من الإنكتار وجيشه من مصلحتهم.

وهكذا ضعفت مبادرة كونراد. وفي غضون أيام قليلة، أنهى أمير صيدا ضيافته الفخمة في معسكر المسلمين وغادره. في هذه الأثناء، فرض الواقع نفسه على جبهة الزواج. ولم يبدُ الوضع كأنّ الحرب الصليبية الثالثة ستضع أوزارها بفضل مشاعر أخوية ملتهبة. ذكر ريتشارد في رسالته الأخيرة ما أثاره عرض الزواج من رعب في المعسكر المسيحي فلم يصدر فقط عن جوانا بل أيضاً عن الكهنة. فَمَثل كتاب المسلمين المقدّس في تحريم الزواج بالمشركات كمَثَل الكتاب المقدس لدى المسيحيين في المقابل، إذ ورد في سِفر تثنية الاشتراع ما يلي: «ولا تصاهرهم. بنتك لا تعطِ لابنه وبنته لا تأخذ لابنك. لأنه يردّ ابنك من ورائي فيعبد آلهةً أخرى فيحمى غضب الرب عليكم ويهلككم سريعاً» [سفر التثنية: 17/ 1 ـ 4].

المعارضة كانت مضاعفة. كتب ريتشارد في رسالة له إلىٰ صلاح الدّين يقول له: «إنّ معاشر دين النصرانية أنكروا عليّ وضع أختي تحت مسلم بدون مشورة البابا، وهو كبير دين النصرانية ومقدّمه. وها أنا أُسيِّرُ إليه رسولاً يعود في ثلاثة

(1) المصدر السابق، ص 202 – 203.

أشهر، فإنْ أذِن فبها ونعمت، وإلاّ زوجتك ابنة أختي، وما أحتاج إذنه في ذلك»[1].

عندما وجد صلاح الدِّين نفسه أمام استحالة البقاء ساكناً طوال ثلاثة أشهر ومعارضة جوانا للزواج من العادل، ورفض العادل الزواج بإليانور أوف بريتاني، لم يكلّف نفسه عناء الردّ على هذه الرسالة. لقد آن أوان العودة إلى العمليات الحربية. حاول ريتشارد مرّةً يائسة أخيرة وضع حدّ للنزاع بالطُّرق الدبلوماسية. وعن طريق صديقه الجديد وصهره العتيد، جدّد طلبه في لقاء شخصي يجمعه بصلاح الدِّين. أثار هذا الطلب اهتمام حاشية السلطان، ولكنّ صلاح الدِّين أعطى الردّ ذاته فكتب إليه قائلاً: «إنه لعار وخزي أن يقاتل الملوك واحدهما الآخر بعد أن يجتمعوا. فلنجد حلاً للنزاع بيننا أولاً ومن ثمّ يصبح من المناسب لنا أن نلتقي ونتحادث بمواضيع جدية. وعندها فقط، يمكننا أن لا نعودَ للحرب، ونضع حجر الأساس لعلاقة صداقةٍ خالصةٍ بين الأمتين».

III

اتركوا الأمور تأخذ مجراها

فيما كانت هذه الاتصالات الخيالية جارية، لم تبق الجيوش عاطلة عن العمل. فلم تخمد نار المناوشات والاستكشافات في سهل الرملة، فيما التقت الفرق الباحثة عن العلف من الطرفين وجهاً لوجه. بلغ صلاح الدِّين الخبر المرعب بأنّ الفلاحين في المنطقة الشمالية من عكّا يمدّون جيش الصليبيين بكميات وفيرة من الحبوب واللحوم، ويقضون بالتالي على أمل تجويع القوة الغازية في المنطقة الداخلية. وأخبرته عيونه بأنّ ريتشارد يزمع مغادرة يافا والزحف نحو الرملة.

بفضل هذه المعلومات التجسّسية، واصل صلاح الدِّين تهديمه للقلاع

(1) المصدر السابق، ص 203 – 204.

قبل وصول الصليبيين الزاحفين إليها. أُعجب بجمال كنيسة القديس جورج في اللد قبل أن يهدمها ويسوّيها بالأرض. ولاقت المصير ذاته كنيسة نظيرة لها هي كاتدرائية القديس جورج في الرملة وقلعتها التي سقطت ضحية لمنجنيقه ومعوله. أُصدِر إلىٰ سكان البلدة أمر المغادرة والإخلاء وكان عزاؤهم الوحيد حصولهم على حق أخذ الحبوب من مستودعات الدولة. وفي الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر، نظر السلطان بإعجاب إلىٰ قلعة النطرون Latron المنيعة المعروفة أيضاً باسم طورون الفرسان قبل أن يأمر بهدم أبراجها الخمسة. وفي مطلع شهر رمضان، قام برحلة سرّية دامت ثلاثة أيام إلىٰ القدس للتحقق من مخزون أسلحتها ولتقوية بعض الشرفات المشعّثة في الأبراج. هكذا أصبحت المدينة المقدّسة مستعدّة للمواجهة.

في أواخر شهر تشرين الأول/ أكتوبر، هجر الجيش الصليبي أخيراً ملذات يافا. وبعد أن تخطّى يازور، المحطة الرئيسية على درب الحجّاج، عسكر في أطلال اللد والرملة. وفي هذا الموقع الموحش المليء بحجارة قرميدية منثورة وجدران مهدّمة مكثوا طوال اثنين وعشرين يوماً بسبب سوء الأحوال الجوية في الغالب. فقد انهمرت الأمطار الغزيرة والبَرَد على الجنود، واقتلعت الرياح أوتاد الخيم، وغرقت الأحصنة، و فَسد الخبز. نخر الصدأ الدروع التي يلبسها الفرسان. وتحوّلت التربة إلىٰ بحر من الوحول حال دون تقدّم الجيش. إلاّ أن الأمطار الغامرة لم تمنع العدو من إمطار معسكرهم بالسهام.

وفيما كان صلاح الدِّين يدمّر الأرض قبل حصول الغزو، سرت في معسكر المسلمين شائعات وأخبار النكسات السياسية. وبلغ السلطان خبر كاذب بأن ملك فرنسا توفي في طريق عودته إلىٰ أوروبا. وسرعان ما تحوّل شعور الفرح الذي سبّبه هذا الخبر إلىٰ حزن ودموع عند وصول خبر موت تقي الدين في سورية[1].

(1) هو الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (– 588/ 1191م). قارن عنه وما جرى بعد وفاته: مفرج الكروب 2/ 375 – 379.

كان هذا القائد الجسور مقرباً من صلاح الدِّين. ومن بين الدموع المتساقطة من عينيه، ردّد: أستغفر الله العظيم، والآية القرآنية: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: 156]. إنّ الكره الشديد الذي كان يكنّه ابن شقيقه، للصليبيين الغُزاة، رسّخ وجوده وقوّاه، ولن يسدّد موته صفعة للجهاد فحسب بل وللتكافل الذي يجمع إمبراطوريته. أدّت هذه المأساة إلىٰ ظهور تمزقات داخلية ومطالبات تنافسية في مقاطعات بلاد ما بين النهرين. ولذلك كان لا بدّ من تحويل بعض الكتائب من جبهة القتال لقمع أعمال العنف. ثم وصلت رسالة من البلاط الخليفي المهيب في بغداد يوبّخ فيها أمير المؤمنين السلطان الناصر بسبب عمليات سياسية قام بها في الجزء الشرقي من الإمبراطورية. ووجد صلاح الدِّين نفسه إذن في مواجهة التمرّد في الموصل، والاستنكار في بغداد، ولذا لم يتوقع أن ترده مساعدة قيّمة من جهة الشرق. وألقيت مهمة الدفاع عن المدينة المقدَّسة على كاهل فيالقه السورية والمصرية والتركية والكردية.

ظلّت طلائع الجيش المسلم تسبق الفرنجة في التلال، وبقي البدو على أهبة الاستعداد للهجوم على طول خط اتصال الغدو بالبحر، في حين توجهت قوات الجيش الرئيسية نحو القدس. لم يكن يتوقع أن يبدأ الحصار قبل انتهاء موسم الأمطار في الربيع، لكنه لم يكن واثقاً من دفاعه ويخشى نفاد الاحتياطي من مخزون الأسلحة. وفي رسالة كتبها لأمير بعيد، قال: «إن لم تصلنا أي إمدادات قبل الربيع المقبل، سنجد أنفسنا في وضع حرج». استغلت بعض الفرق هذا الشتاء الكئيب لتنفصل عن الجيش إلاَّ أن إمدادات من الجنود وصلت من مصر، في الفترة ذاتها تقريباً، بقيادة أبي الهيجاء الكبير.

وفي الثاني عشر من كانون الأول/ ديسمبر، عند حصول انفراج في الأحوال الجوية، تحرّك الجيش الصليبي من جديد. وغادر الصليبيون الرملة باتجاه طورون الفرسان وعسكروا وسط أبراجها المهدّمة. وبعد قضاء يوم في

هذا المكان، تحرّكوا نحو موقع يُعرف باسم بيت نوبة أُخلي منذ فترة قصيرة ويقع على بُعد ثلاثة أميال شمال شرق النطرون. لقد بات المحرّرون الآن على بُعد عشرين ميلاً فقط من أورشليم. وقد اضطروا للتوقف مجدّداً بسبب تساقط الأمطار والثلوج.

وللمفارقة، وعلى الرغم من الظروف السيئة، كانت معنويات الصليبيين في ارتفاع مستمرّ. أقاموا معسكرهم عند سفح الهضبات ذات الجلاميد المميّزة والأودية الضيقة. ووجد الجنود الصليبيّون أنفسهم وسط الأماكن التي ألهبت أحلامهم وصلواتهم. وصلوا أخيراً إلىٰ الهضاب الدائرية التي خطى عليها مخلّصهم بصنداله وخطب في الجماهير. لقد باتت مدينة المخلّص الحيّ قريبة إلىٰ حد الاقتراب من شمّ رائحتها. لا أحد يرغب في تفويت هذا النصر الأخير المجيد. حتى جرحى يافا أصرّوا على مواجهة مخاطر الطريق المزروعة بالبدو كي يشاركوا، هم أيضاً، في هذه السعادة. قدم العديد منهم على حمّالات من بيت نوبة، حتى وإن كانوا يعلمون بأنّ الإحساس بالشفقة لن يمنع البدو من الانقضاض على هذه القوافل المحمّلة بالمرضى والجرحى ومن لا حول له ولا قوة.

كانوا يعودون مرةً ثانيةً مثل مُحرّري سنة 1099م. وَمَثل ملكهم ريتشارد كَمثل غودفري دو بويون جديد الذي جعل شوارع القدس قبل ثمانين عاماً تموج بدماء المسلمين واليهود. وهو من تردّد في أن يكون ملكاً وحكم، بكل بساطة، على أنّه «المدافع عن الضريح المقدّس». ولذلك كُتبت على قبر غودفري دي بويون العبارات التالية:

هنا يرقد النجم الساطع، دوق غودفري

من نشر الرعب في مصر، وفرّ من أمامه العرب

وبدّد شمل مصر،

أُنْتُخب ليكون ملكاً لكنه رفض اللقب
وأبى أن يتوج فهو «عبد للمسيح»
على كاهله ألقيت مهمة إعادة الحقوق لكنيسة السيد المسيح
كان مثال الكاثوليكي الذي يتّبع تعاليم الحق والمساواة المقدسة.
استحق، كما القديسين، تاجاً على رأسه
كان مرآة الجيش، قوة الشعب، ملاذ رجال الدين

لم يكن مجدهم أقل إبهاراً. لقد أوشكوا على مرثاة البابا غريغوريوس الذي ذكّر بالسِفر التاسع والسبعين حيث يقول: «يا إله الجنود، وثنيون في ميراثك. دخلوا بيتك ونجّسوه. وتركوا أورشليم في دمار». [سفر المزامير، 79].

ابتهج العسكر بالوصول رغم الوحول والثلوج، ولوّح الجنود بأسلحتهم في الهواء والريح في حركات احتفالية. تناقش الفرسان بشأن القوائم التي سيضعونها عقب التحرير، تماماً كما أقاموا مبارياتهم بعد سقوط عكّا. وتعالى صراخ ينادي بترك الأمور تأخذ مجراها في المغسكر استباقاً لما سيحصل. وعكفوا، داخل خيامهم، يلمّعون دروعهم ورماحهم، ويغسلون معاطفهم، وينظّفون صدرياتهم الجلدية، ويهندمون راياتهم استعداداً للمعركة.

وبدأوا ينشدون: «أيها الرب، لقد جئنا بفضلك إلى هذا المكان. وها نحن أخيراً على الدرب الصحيح».

الفصل الرابع والعشرون

لهبٌ مقدَّس وشيطاني

في الفترة ما بين عيد الميلاد سنة 1191م وليلة الغطاس في الثاني عشر، كان مصير الحملة الصليبية الثالثة على المحك. وخلال هذه الأيام العصيبة، تأرجح ريتشارد قلب الأسد بين شعور قوي بالثقة بالنفس وشكوك تنخر فيه وفي قدراته. وسط الوحول وابتهاجات بيت نوبة، كان لا بد أن يكون له عيد غطاس خاص به. وفيما دار فرسان الهيكل بكل جسارة في المناطق الريفية المحيطة بالمدينة المقدَّسة وعادوا يجرّون مئتي رأس ماشية ـ لحمٌ طازج يعطي الطاقة الكافية للجيش المسيحي خلال هجومه الأخير الفائق القوة على أسوار أورشليم ـ جلس الملك مستكيناً مستغرقاً في أفكاره.

كانت هُوامات سَحَرةٍ، تُضافُ إلى أعمال صلاح الدين، تلك التي تؤثر على فكر ريتشارد ومخططاته المستقبلية. لقد كانت والدته، إليانور، وعائلته وخدمه في أوروبا يقيمون في النورماندي وتحديداً في بونفيل سور توك Bonville sur Toke حيث كانت إليانور تراقب بعين النسر عشيقة زوجها السابقة أليس في روان، وتجمع ملكية بلانتاجينيه البعيدة كمثل الخيوط الصوفية.

أما شقيقه الأصغر جون فكان موجوداً في هاودن Howden في يوركشير

بمعية هيوج، مطران دِرَم Durham المحروم كنسياً تُخالجُهُ مشاعر الحقد حيال ريتشارد، وتكبر فيه الجسارة والجرأة كلما دخل في إطار سلطته المزيد من القصور والأراضي الإنكليزية، ويفصّل في مخيلته مخططات شيطانية ضد مملكة شقيقه.

قبيل حلول عيد الميلاد، عاد أخيراً إلىٰ باريس الرأس المدبّر للمكائد، أي ملك فرنسا فيليب أغسطس. وقدّم نفسه لرعاياه الشغوفين به على أنه بطل الحملة الصليبية الثالثة. مشى في الطرقات مختالاً مزهواً بنفسه لكونه هازم عكّا ونمر منطقة المتوسط. وسجد متظاهراً بالتقوى أمام مذبح القديس دنيس لتقديم الشكر على عودته بالسلامة. وبالفعل عاد بالسلامة. إلاَّ أن ربع الجنود الفرنسيين فقط من الذين غادروا بصحبته من ڤيزيلي بمعنويات مرتفعة وتقوى شديدة، عادوا إلىٰ موطنهم. فقد غيّب الموت الكثير الكثير منهم بسبب الأمراض والحرب. ولم يكن فيليب أوف فلاندرز سوى أكثر الضحايا شهرة. وضع الملك من باب التوقير رقعةً من الحرير الشرقي الغالي الثمن على المذبح إشارةً لخدماته البطولية، وغادر بعد ذلك إلىٰ فونتينبلو لتدبير مخطّطه.

استحوذ ريتشارد على تفكيره. ربما كان هاجسه من زمن طويل كما لو أنّ ريتشارد شكّل قصة حياة فيليب. مرّت علاقتهما بسلسلة من المشاعر ولكن مشاعر فيليب الآن استقرت استقراراً دائماً عند النفور. في مطلع سنة 1192م تخلّى عن التظاهر بالتقيّد بالوعود التي قطعها لريتشارد وللبابا أو باحترامه لهدنة الله كما لو كان يتخذ قراراً للسنة الجديدة. كان يرغب بالفلاندرز. ويرغب بفاكسن والنورماندي وأي شيء آخر يمكنه أن ينتزعه من ملكية بلانتاجينيه فيما كان مالكها مرهقاً في الأراضي المقدَّسة.

«إن العالم يعلم بما فيه الكفاية مقدار الإخلاص والالتزام اللذين أبداهما لنذره»، كلمات دوَّنها كاتب إنكليزي بمرارة ليصف السهولة التي أنهى بها

الملك الفرنسي حملته الصليبية النبيلة، وأبدى مشاعره المكبوتة، وعاد إلىٰ مخططاته الماكرة.

في مطلع سنة 1192م، استلم ريتشارد برقيات من لونشان، مستشاره الجلف السمين يبلّغه فيها بعصيان شقيقه في إنكلترا، وبأنّ جون يطالب البارونات بأن يخلصوا له الولاء، ويحذر ريتشارد من عواقب عودة فيليب، ويحضّ الملك على التخلّي عن الحرب المقدّسة والعودة إلىٰ دياره «بسرعة الريح» إن كان يرغب في الاحتفاظ بمملكته.

لم يعر ريتشارد هذه الرسالة اهتمامه لصدورها عن شخص غير موثوق به لا يفكّر سوى بمصلحته الخاصة، فقد تلقّى برقيات مستعجلة من أشخاص يثق بمصداقيتهم وبدا له أن الجميع يتكلمون بصوت واحد. بيد أن ما أثار قلقه هو أنّ الأخبار التي تحملها هذه الرسائل مضى عليها شهران. جلّ ما كان يشغل باله تمحور حول النتائج الرهيبة التي ستنجم عن عودة حبيبه وحليفه السابق إلىٰ الساحة الأوروبية.

في الواقع، لم يكن فيليب يضيّع الوقت. في العشرين من كانون الثاني/ يناير من سنة 1192م، دنا من أسوار القصر النورماندي الاستراتيجي في جيسور Gisors، نقطة الالتقاء القديمة التي جمعت الملكين الفرنسي والإنكليزي وزُيّنت بشجرة الدردار الشهيرة. في هذا المكان بالذات، وقف وجهاً لوجه أمام ويليام فيتز هيوج، مدبّرالنورماندي وطالب هذا الضابط الرفيع الرتبة بإطلاق سراح أُخته أليس المحتجزة في روان. لم تكن جركته هذه تنم عن أحاسيس رقيقة فحسب. طلبه هذا كان يخفي سبباً راجحاً إذ كان ينوي استغلال أليس للمرة الألف بما تبقى لها من قيمة. في هذه الأثناء، قدم مبعوثو فيليب سرّاً إلىٰ إنكلترا وطرحوا على جون عرضاً شيطانياً فقالوا له: تعال إلىٰ فرنسا على رأس قوة وتزوج من أليس الجميلة حتى وإن تقلّبت بين أيدٍ كثيرة، وضعْ يدك بفضلها على المنطقة الحدودية التي خصّصها ريتشارد بمثابة مهر لمن يتزوّج بأليس.

ومع أنّ جون كان متزوجاً إلاّ أن فيليب وجون نفسه لم يعتبرا هذا الزواج غير أمر تافه يسهل التخلّص منه.

عند الوصول إلىٰ أسوار جيسور، أظهر فيليب وثيقةً رسميةَ الشكل. وأعلن أنّها معاهدة رسمية عُقِدت مع ريتشارد في صقلية؛ وعد فيها بعودة أليس وإعادة أراضيها القيّمة. وعلت وجهه أمارات تبيّن أن وثيقة فيليب مزيّفة. فلم يكن يخفى على أحد أن ريتشارد لم يتفوّه بأي وعود أو تنازلات تخص أليس في صقلية. لا بل العكس حصل في الواقع. ففي مسينا، أنهى المسألة بشكل صارم متخلياً عن عشيقة والده ومقدّماً لفيليب مبلغاً زهيداً لتخفيف آلامه. ومع ذلك، أطال ويليام فيتز هيوج مناقشاته مع فيليب للحصول على توضيحات من سلطة عليا.

ودخلت إليانور عليهما. وسيطرت الملكة الأم البالغة السبعين من عمرها، بخطواتها الرشيقة وصوتها القوي، على الحديث. تولّى جواسيسها عملية إبلاغها بالاتصال المشكوك بأمره بين فيليب وجون. ولم تكن مفاوضات جيسور سوى الجزء السهل والظاهر. فالمشكلة العويصة كانت تكمن في ابنها الأصغر. أرسلت إلىٰ ويليام فيتز هيوج تعليمات مقتضبة مفادها ما يلي: بلّغ صاحب الجلالة الملك فيليب أنّ معاهدته ليست سوى تزييف واضح، وإن المدبِّر لم يتلقّ من الملك ريتشارد أي تعليمات عن تسليم أشخاص أو أراضٍ لفرنسا، وأنّ القيام بأمر مماثل فيه انتهاك لعهد الله المعقود من قبل. وسرعان ما عاد فيليب إلىٰ باريس مكتئباً خاوي اليدين. في هذه الأثناء، غادرت الملكة على عجل إلىٰ إنكلترا للتفاهم مع ابنها جون «الطائش». عن هذا الموضوع كتب المؤرّخ الإنكليزي ريتشارد أوف ديفيز: «بكل قوتها، أرادت أن تضمن بقاء الثقة بين صغيري أبنائها... كي تموت أمهما، على الأقل، أكثر ارتياحاً من والدهما».

وصلت الملكة إلىٰ بورتسموث في الحادي عشر من فبراير (شباط)،

وصُدِمَت عندما اكتشفت أنّ جون يعبىء أسطولاً وجنوداً في ساوثهامبتون.

لم تقتصر الصدمة على هذا الأمر. إذ فيما كانت في طريقها إلىٰ ممتلكاتها الموروثة في أَلي Ely، تدفق عامة الناس من بيوتهم وتحلّقوا حولها في طرقات بلداتهم الموحلة، تتخبّط أقدامهم في الوحل وتنهمر الدموع من أعينهم. روّعتها أخبارهم عن الفوضى والعصيان السائد في البلاد. بلاد غاب عنها ملكها فخطّط شقيقه الأصغر للاستيلاء على الحكم، وعمّت الفوضى في صفوف رجال الدين المرموقين، وحُرِم بعض الكهنة كنسياً فيما تصرّف آخرون تصرف السادة المالكين، وتجوّل الجنود في الطرقات الريفية يمثّلون فئة أَو أخرى. حتى المَيْت لم يكن يَحْظى بدفن يليق بحرمته. لقد كانت إنكلترا تنهار.

توجهت إليانور إلىٰ ويندسور تدفعها مشاعر الاضطراب والعزيمة ومن ثم إلىٰ أكسفورد فلندن ووينشستر. وفي كل محطة، كانت تحضّ النبلاء وتفتنهم وتهدّدهم كي يرفضوا تقديم المعونة التي تحتاج إليها مراكب جون ومرتزقته. وأرسلت لجون ذاته رسالةً لا لَبْس فيها: إن أصرّ على الذهاب إلىٰ فرنسا وكَسَر كلمتها، فإنّه سيخسر أراضيه وممتلكاته كلها في إنكلترا. كلامها هذا جعل جون يلين، وإن لفترة مؤقتة، رغماً عنه، ومشاعر الغضب تغمره.

بعد تحقيق غايتها هذه، وجّهت إليانور طاقاتها الجبارة نحو النزاع الشعبي المحيط بها. وكافحت كي تصلح بيد حديدية بين مختلف الفئات في الكنيسة من جهة وابن زوجها المكروه جوفري، ورئيس الأساقفة القويّ في يورك، ورفيق ابنها جون هيوج أوف دِرَم Hugh of Durham المحروم كنسياً، وحتى لونشان الخسيس الذي اختبأ في فرنسا وتاق للعودة إلىٰ إنكلترا ورغب أن يفرض سلطته مجدداً باعتباره مستشار ريتشارد الأوّل أَو أُسقف أَلي. استخدمت اللين والتهديد والصرامة والملاطفة كي تنشر السلام سعياً لإعادة النظام والانضباط إلىٰ البلاد. ومع دنو فترة الصوم مجدداً، شعرت إليانور بالإرهاق

بعد فصل رهيب أمضته في ترحال متواصل ودبلوماسية صعبة أعطت نتائج مرضية كما خيّبت أحياناً الآمال، جلست للكتابة لريتشارد:

يجب أن يتخلّى عن حملته الصليبية في الأراضي المقدَّسة. يجب أن يعود إلىٰ مملكته إن كان يريد الاحتفاظ بها. هذا الصوت كان، قبل أي شيء، صوتاً لا بد أن ينصاع لأوامره. إلاَّ أن مطلب إليانور لم يصل إليه قبل صيف سنة 1192م. وعندها كان قد وصل إلىٰ استنتاجاته الخاصة. لقد حان الوقت أن يكون له غطاسه الخاص.

II

أحمق أم حكيم؟

في مطلع شهر كانون الثاني/يناير، يوم عيد ختان المسيح، جمع ريتشارد مجلسه لوضع خطة لحركته المقبلة. خلافاً للابتهاج والتوقّعات المسكرة التي كانت تغمر المعسكر، ساد المجلس جوٌّ من الكآبة. بلغهم خبر يفيد أنّ صلاح الدِّين خرج من أورشليم عبر التلال الخلفية وأصبح مرة أخرى خلفهم في تلك الجزر على بعد خمسة أميال جنوب الرملة. بدا لهم أن اللعبة الحربية ستدوم إلىٰ الأبد فكلما تقدم المسيحيون خطوةً باتجاه هدفهم المحبوب وجدوا خصومهم الرهيبين خلفهم يطلّون عليهم من أعالي الجبال.

في داخل المجلس، أحال ريتشارد مهمة تقييم الوضع إلىٰ الفرنجة الأصليين. ولكنهم كانوا متشائمين. ولم يجدوا أي فائدة من حصار القدس الآن، في هذه الظروف التعيسة. أما الأمطار والوحول والبَرَد والرياح فتجعل العمليات العسكرية من المستحيلات. وإذا زحف الصليبيّون حتى أسوار المدينة المقدَّسة؛ فلا شكّ أنّ رجال صلاح الدِّين سينقضّون عليهم من الجبال. وإن حدثت المعجزة وتمكّنوا من احتلال المدينة، فمن سيتمكن من الحفاظ عليها؟

إن الدفاع عن القدس عملية تتطلّب حامية ضخمة دائمة تجمع أشجع الفرسان. وبالإضافة إلىٰ ذلك، من لديه الاستعداد للبقاء في هذه البلاد؟ باحتلال المدينة المقدّسة يتحقق هدف الحجّ المقدّس. وسرعان ما يهرول الأوروبيون على طريق العودة إلىٰ بلادهم على جناح السرعة. ويفتقر الفرنجة من أهل البلاد لقُدُراتٍ تسمح لهم بالسيطرة على مدينة محتلة دون مساعدة غربية.

وهكذا، وجد الصليبيّون أنفسهم أمام معضلة ضخمة. إن غزوا المدينة سيخسرون الرجال. وإن تخلّوا عنها سيقوّضون مجمل غاية الحملة الصليبية. ولم تقتصر المفارقة على هذا الحد. فقد اتفق أكثر المحاربين شجاعة والتزاماً، أي الرهبان العسكريون من فرسان الهيكل والإسبتاريين، على الرأي ذاته.

ذكر هؤلاء أنّ المنطق العسكري يقود إلىٰ الانسحاب لبضعة أشهر نحو عسقلان حيث يعيدون بناء المدينة الاستراتيجية كي تكون عقبة في وجه تعزيزات صلاح الدّين من جهة الجنوب. وربّما يعودون، في فصل الصيف، ويهجمون مرّة أخرى على القدس. وعبّر شاعر الحملة الصليبية فيما بعد عن شعور الرهبان العسكريين بالأبيات التالية:

إن لم تكن المدينة حاضرةً وعامرة
يقطنها أُناسٌ يودون البقاء فيها
فكل حاج من الحجاج، الأغبياء منهم والحكماء،
سيسارعون فور إنهاء حجهم
للعودة إلىٰ ديارهم
وبسبب تشرذم الجيش
ستُفقد الأرض من جديد

من يمكنه أن يتقدّم الآن ويدحض هذه الاستراتيجية الانهزامية ـ ما عدا الفرنسيين! فبعد الإكثار من الشكاوى والتمارض طوال الحملة الصليبية بأسرها،

والإحراج الذي سبّبه لهم فرار ملكهم، ملأ الاشمئزاز قلوب الفرنسيين حيال فكرة الانسحاب، وعلّلوا كلامهم بالرفض الذي سيصدر دون شك عن الجنود.

بالطبع كانوا على حق. ما أن انتشرت أخبار الانسحاب في صفوف الجند حتى انقلب الابتهاج إلىٰ ذعر وإنكار في البداية ثم تحوّل إلىٰ اليأس وجَلْد الذات. لعن الجنود اليوم الذي ولدوا فيه واليوم الذي انخرطوا فيه في هذه المهمّة الجبانة. وغادر العديد من الجنود الجيش فوراً، ولا سيما من صفوف الفرنسيين. غادر حوالي سبعمائة فارس فرنسي المعسكر للانغماس في ملذّات يافا وعكّا وصور، فيما كانوا يفيضون في اتهاماتهم لريتشارد وينادون بأنّهم وحدهم كانوا أصحاب عزيمة تجعلهم يواصلون الحرب.

راقب جنود صلاح الدين، من أعالي التلال، انسحاب القوات العدوة والذهول يغمرهم. لقد بدا لهم أنّ القدر إلىٰ جانبهم. ففي الحقيقة، كانت أسوار القدس تخفي وراءها دفاعات واهنة من الممكن أن تسقط بسرعة في حالة الحصار الشديد. وعندما اتّضح الموقف لصلاح الدّين، أذن بتسريح رجاله وأمرهم بالعودة مجدداً في شهر أيار/ مايو، على أتم الاستعداد لنضالاتٍ جديدة.

طوال الأسبوعين التاليين، أحس الصليبيون المحزونون أنّ المخلّص يعاقبهم على جبنهم. تواصل هطول الأمطار والبَرَد دون انقطاع، فيما كانت الفرق تخوض في الوحول تاركةً معداتها وهاجرةً جيادها الغارقة في الوحل. ولكن بقية القوة الفرنسية المستشيطة غضباً في الرملة بقيادة دوق برغندي تجاهلت أوامر قائدها الأبرز هنري دو شامبان ومشت في الطريق الشمالية الفرعية باتجاه يافا فيما كان ريتشارد يلتف جنوباً نحو يُبنى Ibelin.

وأخيراً، وصلت القوة الرئيسية إلىٰ مقصدها في العشرين من يناير/كانون الثاني. بدت عسقلان كومةً من الحجارة، واضطرّ الجنود للتسلّق على الصخور التي كانت تشكّل، في يوم من الأيام، البوّابة الرئيسية للمدينة الأبيّة. واستمرّ

هطول الأمطار لثمانية أيام عقب وصولهم. وعجزت المراكب عن الرسو في المرفأ بغية تزويد الحجّاج اليائسين الموحلين الجائعين بالزاد والمياه.

تحسّنت الأحوال الجوية خلال شهر شباط/فبراير. وبدأ ريتشارد بحيويته المألوفة وحُسن قيادته المرهف يبثّ تدريجياً النشاط في صفوف رجاله، ولو اقتصر الأمر على تكليفهم بأعمال شاقّة. وللمرّة الأولى، وضعت الاختلافات الطبقية جانباً وعمل الفرسان جنباً إلىٰ جنب مع من هم دونهم طبقياً وحتى إلىٰ جنب النساء من أجل إعادة بناء المدينة. ارتفعت الأبراج من فوق الأسوار وأطلق على أحد هذه الأبراج اسم البرج الدامي لأنّ بناءه تمّ على يد فرقة من المجرمين، وتكفّلت ببناء البرج الثاني مجموعة من البدو اللطفاء، فيما بنت النساء البرج الثالث الذي استحق تسمية برج العذارى. واستعاد الجنود، بفضل هذا التقدّم الملموس بهجتهم، إلىٰ حدّ جعل ريتشارد يفكّر في الاستعانة من جديد بالفرنسيين. وصلته من عكا وصور تقارير عن وجود مشاحنات داخلية. فقد عادت العداوات القديمة إلىٰ الواجهة ونشب قتال بين مناصري الملك غي ومؤيدي كونراد دو مونتفرّا. ووقف أهالي بيزا في مواجهة سكان جنوى. أما الفرنسيون فقد استسلموا للبغايا وأصحاب الحانات. دوق برغنديا نفسه اعتدى عليه أشخاص لم يعرفوه فرموه من على صهوة حصانه، وأسقطوه في الطين.

أرسل الملك رسائل إلىٰ الفرنسيين يناشدهم الانضمام مجدداً إلىٰ جيشه في عسقلان: «يفضّل أن نكون كلنا يداً واحدة عند إجراء المشاورات، فالتفرقة ستُضعفنا وتعرّضُنا لهجوم العدو». احتوت هذه الكلمات على الإشارة الأولى بأنّ المشاورات مع صلاح الدّين باتت وشيكة. واستناداً للتقارير الصادرة من صور وعكّا، فإن إقناع الفرنسيين بالتخلّي عن ملذاتهم في المدينة أمر في غاية الصعوبة. وعنهم كتب مؤرخ إنكليزي معروفٌ بانحيازه: «كانوا يستمتعون بمراقصة النساء. وأظهرت ملابسهم الفاخرة تخنّثهم؛ فقد كانت أكمام ملابسهم مربوطة بسلاسل ذهبية، وكشفوا بكل خلاعة عن خصورهم المطوّقة بأحزمة

مطرّزة. وضعوا حول أعناقهم قلادات مرصّعة بالجواهر، وزيّنوا رؤوسهم بأكاليل مجدولة تتخلّلها أزهار متعدّدة الألوان. حملوا في أيديهم كؤوس الخمر لا سيوف الحرب. وبعد تمضية الليل بطوله في معاقرة الخمر، راحوا يسلكون الدرب المؤدية إلىٰ بيوت البغايا».

من يرغب بعودة أشخاص بهذه المواصفات؟ ومع ذلك، هدأت أخبار المشاورات، لفترة مؤقتة، والفرنسيون المتذمرون، وافق العديد منهم على العودة إلىٰ عسقلان ـ شريطة ألا يبقوا لما بعد عيد الفصح. وفي حال لم يحدث شيء حتى ذلك الحين، طالبوا بحرية المغادرة والعودة بأمان إلىٰ أوروبا. لم يكن أمام ريتشارد خيار آخر سوى الموافقة على هذه التسوية.

لم يحصل الملك على هذا القدر من النجاح مع كونراد أوف مونتفرّا. ففي مؤتمر عقد في برج إمبر Casal Imbert شمال عكّا، أحبط المتمرّد جهود الملك في محاولة إقناعه بالانضمام مجدداً للحملة الصليبية. وبدا الوضع للإنكليزي وكأنّ مونتفرّا يبذل كل ما في وسعه لتقويض سلطة ريتشارد. وسرت في المعسكر شائعة تصف الماركيز بأنه يختبىء من حنق الملك في مقصورة زوجته في صور.

قبيل حلول عيد الفصح، بدت على عسقلان أخيراً مظاهر مدينة عامرة من القرون الوسطى مرة أخرى. وغمر الابتهاج ريتشارد على هذا الإنجاز. ولكنّ أسباباً أخرى دعته للشعور بهذا الابتهاج. فخلال مهمة استطلاعية إلىٰ القاعدة الأمامية الأبعد نحو الجنوب، أي قلعة الداروم، وهي القلعة الوحيدة في السهل الساحلي التي لم يهدمها صلاح الدّين، وقع ريتشارد على قافلة تنقل حوالي ألف ومئتي أسير مسيحي فحرّرهم دون قتال بعدما فرّ الحرّاس عند رؤية راية الملك المهيبة. أقام الملك حفلة فاخرة وأمر بتحضير ما لذّ وطاب للجنود وأغدق عليهم الهدايا والعلاوات إمّا لأنّ المهلة الأخيرة التي حدّدها الفرنسيون

لا تتعدّى عيد الفصح، وإما لأن الملك أَمل في بقاء حلفائه المتقلبين لشعورهم بالنشوة بسبب ما أنجزوه في عسقلان. وكتب شاعر البلاط ما يلي:

«حيث يتناغم القلب النبيل والعمل البطولي.

لا تكافؤ بين الفكر الشحيح واليد المعطاء

لا بل يهمه ما تعطيه

فلتكن كل عطية مرفقة بقلب كريم واسع الهبات».

لكنّ الحفلات والعلاوات لم تغيّر من قرار الفرنسيين بالرحيل. وأجبر ريتشارد، على مضض وبقلب ملؤه الحزن والمرارة، على الوفاء بوعده. وقف ينظر إلىٰ الجنود الفرنسيين يغيبون عن ناظريه على الطريق المؤدية إلىٰ يافا. وبسرعة، أرسل إلىٰ قادته في عكّا رسالة مستعجلة يأمرهم فيها بعدم إدخال الفرنسيين إلىٰ المدينة لدى وصولهم إليها.

في أورشليم البعيدة، شعر صلاح الدين بالسعادة عند تلقّيه أخبار التطوّرات الأخيرة. لعلّها تشكّل منعطف طريق. بلّغه يوماً أحد جواسيسه بانسحاب الفرنسيين من جيش الصليبيين، فأرسل السلطان رسالةً جذلةً عمَّمت الخبر في كل أنحاء مملكته. وفي هذه الظروف، كان لا بد من إيجاد الأعذار لنبرة التفاؤل المفرط المشحون في الرسالة: «إن ضعف عزيمة الفرنسيس جعلهم يغادرون البلاد ويتركونها دون مُدافعٍ عنها تقريباً. لقد خارت قوة الجيش الصليبي الحربية وانهارت سطوته. وسنتمكّن إن شاء الله في فترة قصيرة من فتح عكا وصور».

اتّسمت هذه الفترة على الجانبين بوفرة الأحلام والأماني. ودوّن أحد الكتّاب الإنكليز أنّ أجواء عيد الفصح الجذلة حَدَت بالملك ريتشارد إلىٰ مَنْح ابن الملك العادل رتبة فارس. أُغفل هدف هذا الاحتفال الغريب، الذي تمثّل ولا شكّ في التحضير بودّ ورفق لاتفاق بين الطرفين.

وفي عيد الفصح هذا، أَو كما أراد الكاتب أن يعتقده القرّاء، شعر صلاح الدِّين بالفضول حيال الأسطورة التي تذكر أنّه في كلّ عشية فصح، فإنّ لهيباً ينزل من السماء ليضيء الشموع في الكنيسة المباركة. هكذا جاء صلاح الدين تلك العشية إِلىٰ الكنيسة، واختلط بالأسرى المسيحيين فيها لرؤية اللهب المقدس بأمّ عينه. وكما تروي الأسطورة، اشتعلت النار كما توقّع الناس. ساورت الشكوك صلاح الدِّين فأمر بإخمادها. وبعد أن انطفأت، اشتعلت مرة ثانية. وللمرة الثانية، أُخْمِدت ولكنها اشتعلت من جديد، مما أثار الدهشة. واقترب الأسرى من المسيحيين الآخرين وتهامسوا: «ما الفائدة من مواجهة قوة الله المهيبة؟ لا يمكن دحض قدرة الله، ولا يمكن مقاومة إرادته»!

ونقلاً عن الكاتب الإنكليزي، يبدو أن السلطان تأثّر بما رآه إِلىٰ حدّ جعله يتنبأ بسقوط المدينة المقدَّسة في يد العدو في غضون سنة ـ أَو أنه تنبأ بموته.

لم يورد المؤرخ المسلم في ذلك الزمان أي ذكر للنار المقدَّسة في الضريح[1]. لا بل تتّسم هذه الفترة الزمنية بأمور ملموسة. فخلال عيد الفصح، تلقّى صلاح الدِّين رسالة من ريتشارد جاء فيها[2]: «إني أُوثر الاجتماع بالملك العادل أخي ففيه مصلحة تعود على الطائفتين، فقد بلغني أنّ السلطان فوّض أمر الصلح إِلىٰ أخي الملك العادل».

(1) بل ذكرها أبو شامة في كتاب الروضتين 2/ 231 – 232. فقال: «ولهم في هذا المكان – كنيسة القيامة – ضلالةٌ تقع في كل سنة في اليوم الذي يليه يوم فصحهم، وهو أنه يزعمون أن نوراً ينزل من السماء.. ولقد حضرتُ في زمن الصبا (أبو شامة من القدس) يوم سبت النور هذه الكنيسة على سبيل التفرّج.. فإذا كان وقت الظهر دخل البطرك القبة، وأخرج شمعة موقدة زعم أنه أوقدها من القنديل الذي اشتعل بالنور المنزّل من السماء، فيأتيه النصارى بشمعهم فيقدونه من تلك الشمعة، فيمتلىء المكان بالشموع الموقدة، ويظهر على النصارى من الفرح والاستبشار ما لا مزيد عليه...» (المترجم).

(2) ابن شداد، ص 205.

قد تنطوي هذه الرسالة على تقدّم مفاجىء. وقد تحتوي فقط على المزيد من الكلمات الخاوية. لذلك ردّ صلاح الدّين على ريتشارد برسالة قال فيها: «إن الحديث قد جرى بيننا مراراً وما أسفر عن مصلحة، فإن كانت الدفعة كتلك الدفعات، فلا حاجة إلىٰ الحديث. وإن كان الغرض بث حال تقارب الأمر فلا بأس. وأنا لا أجتمع بك إلاّ أن أرى ما يقارب فصل الحال»[1].

III

أهون الشرّين

بعد يومٍ من عيد الفصح، بدأ المسافرون القادمون من أوروبا إلىٰ سورية بالوفود إلىٰ الشرق. وكان بينهم الراهب هيرفور Hereford الذي حمل معه رسالة من لونشان، مستشار ريتشارد، يُطْلِعُهُ فيها على الخلافات الناشبة في إنكلترا وعن مطامع شقيقه جون في الاستيلاء على العرش: «أيها السيد الجليل، أتوسل إليك بكل احترام أن تعود إلىٰ الوطن، وأن تنتقم من كل أولئك الذين ينشرون هذا المرض، والذين ستزداد شرورهم. وذلك أنهم إذا استولوا على المملكة، فلن تستطيع استرجاعها إلاّ بنضالٍ مريرٍ».

أصيب ريتشارد بالذهول لكن عزيمته لم تضعف، فجمع باروناته وقرأ على مسامعهم رسالة لونشان. وأبلغهم بضرورة مغادرته الحملة الصليبية على الفور للعودة إلىٰ بلاده. وتُلقى على كاهل ثلاثمائة فارس وألفين من الرجّالة مهمة مواصلة الحرب على نفقته. فمن منهم سيبقى في مكانه ومن سيرافق الملك إلىٰ أوروبا؟

ساد الاهتياج جمع البارونات وغادروا المقصورة الملكية للتشاور فيما

---

(1) ابن شداد، ص 205.

بينهم. من سيستلم زمام القيادة في غياب ريتشارد؟ هل يوجد في عديدهم من يتّصف ببراعة كافية في العمليات الحربية، وبدبلوماسية كافية لضمان متابعة قضية الصليبيين حتى النهاية؟ بدا الأمر وكأنهم عادوا خمس سنوات في الزمان. ووجدوا أنفسهم مرّةً أخرى فريسةً لخيار ماكر بين شخص غير كفء وآخر خائن.

صحيح أنّ ملك أورشليم السابق، غي دو لوسينيان، وفيّ للقضية إلاّ أنه لم يكن أهلاً للقيادة. أما المركيز دو مونفرّا فقد كان مخادعاً كما أنه في طور التباحث مع صلاح الدِّين لمصلحته الخاصّة.

عاد الفرسان إلىٰ مقرّ ريتشارد في الوقت المحدّد. وقد اجتمعوا على رأي واحد: إن لم يحلّ محله من يضعون فيه ثقتهم فقد قرّروا جميعاً العودة مع ريتشارد إلىٰ بلادهم. لم يكن لغي أي فرصة في النجاح؛ فمعه القضية خاسرة ولا شك أنه ما من أحد يحترمه أو يطيع له أمراً. ظهر بكل جلاء أن كونراد أقوى الخيارين. إلاّ أنه قد ينضوي تحت راية من يدفع له أكثر. وهو لا يتصف بالمهارة والثبات فحسب، بل لا يرفض له الفرنسيون أمراً، تذمّر ريتشارد وراوغ وذكر المثل القائل[1]:

«ما بين غمضة عين وانتباهتها   يبدّل الله من حال إلىٰ حال»

ورَضخ الملك للقرار في آخر المطاف. وانطلق وفد من صور بقيادة هنري دو شامباني وعضوية النبيلين المحليين باليان أوف إيبلين ورينو أوف صيدون، بهدف إعادة ملك أورشليم الجديد بكل ما يستحقه من تألّق وبهاء.

في هذه الأثناء، قدم الملك غي الخاسر في النزاع السياسي إلىٰ ريتشارد سعياً وراء جائزة ترضية. فقبل سنة، سيطر فرسان الهيكل على قبرص بعد دفع

(1) في الأصل: «There is many a slip between the Cup and the Lip». ومعناه تقريباً: هناك إمكانياتٌ متعددة ما بين الكأس والشفة!

أربعين ألف قطعة ذهبية نقداً وعدّاً إلىٰ ريتشارد. وفي الواقع، قدمت الجزيرة للحملة الصليبية مساعدة قيمة في تأمينها للحبوب. ولكن بسبب غرور فرسان الهيكل وقسوتهم بالإضافة إلىٰ الضرائب الباهظة التي أثقلوا بها كاهل سكان قبرص، شابت حكمهم الاضطرابات والثورات. وعقب الثورة الثانية في نيسان/ أبريل 1192م، أعاد فرسان الهيكل الجزيرة إلىٰ ريتشارد بعد أن بان لهم بأنّ مشاكلها أكبر من فوائدها. عرض غي شراء الجزيرة ووضع في يد ريتشارد ستين ألف قطعة ذهبية أخرى. أُعجب ريتشارد بهذا الالتماس الذي يحلّ مشكلتين في آن واحد. وأبحر غي فرحاً إلىٰ فاماغوستا وسُرّ معظم الفلسطينيين لرحيله. يقول المثل: يضحك كثيراً من يضحك أخيراً. وكان الضحك الكثير من حظ غي فقد أطلق سلالة لوسينيان القبرصية الملكية التي توارثت عرش الجزيرة لحوالي ثلاثمائة سنة أخرى.

في هذه الأثناء، في صور، خرّ كونراد البارد الأعصاب عادةً على ركبتيه ما أن سمع بنتيجة المشاورات ورفع ساعديه نحو السماء بتذلّل وقال: «أيها الرب! يا من خلقتني ونفخت الروح في جسدي، أنت من ابتدعت ملكاً عادلاً رحوماً. أتوسّل إليك، اللهم، إن كنت ترى أنني أستحق حكم مملكتك، هبني عرشي. وإن كنت لا تجد فيّ خصال الملوك، فلا ترضَ بترقيتي». ثم مشى بزهو في شوارع مدينته ليتحسّس ابتهاج رعاياه. لقد تمكّن أن ينقذ، في الماضي، مدينته من براثن صلاح الدِّين. أما الآن، فقد كُلِّف بإنقاذ المملكة بأسرها.

ولكنّ فرحته لم تدم طويلاً وكذلك الأمر بالنسبة لابتهاج رعاياه.

الفصل الخامس والعشرون

الخنجر على الوسادة

بعد مرور عدة أيام على مغادرة هنري أوف شامباني لعكّا حيث أخذ مقاييس المركيز لتفصيل زي التتويج، كان مزاج كونراد ما يزال ودوداً. كان ينتظر بفارغ الصبر تمضية الأمسية برفقة أسقف بوفي اللطيف ولكن عيل صبره عندما أطالت زوجته مكوثها في الحمّام، فذهب إلىٰ الأسقفية بمفرده ساخطاً حانقاً على الزواج والزوجات. خاب أمله عندما عَلِم بأن الأسقف اللطيف قد سبقه في تناول العشاء وعجز بوفي عن إقناع الكونت بأن يتعشّى. كان تأخُّرُ زوجته في الحمّام قد أزعجه فارتدّ عائداً إلىٰ منزله بمفرده.

تنبأت الرواية الإسلامية لهذا الحدث بما سيحصل لهذا العدو القوي فوصف مؤرخ مسلم رحلة العودة عبر أحياء صور المغلقة بقوله: «إلىٰ جهنّم وبئس المصير. كان مالك منتظراً قدومه والجحيم مترقبةً وصوله. اشتعلت أسفل دركات النار والتهبت في انتظاره. دنت ساعة استقبال هاوية جهنّم له والتهاب النار من أجله، وأخذت ملائكة الجبار تبني له الموضع النتن حيث سيخضع للعذاب. لقد فتحت جهنّم أبوابها السبعة تتوق لابتلاعه».

وصل كونراد إلىٰ زقاق ضيّق في السوق، وعندما بلغ إلىٰ منتصفه تعرّف

على راهبين مألوفين من أتباعه، رجلين عملا في خدمته لأكثر من ستة أشهر وتمكنا من كسب ثقته بعملهما المتقن الأمين. جلسا على جانبي الطريق. وعندما ألقى عليهما كونراد السلام، وقف أحدهما وقدّم له رسالة. ومدَّ المركيز يده لأخذ الرسالة، فسحب الرجل سكيناً وغرزها في جنبه بينما وثب الرجل الآخر على مؤخرة حصان كونراد وطعنه في جنبه الآخر طعنات متكرّرة إلىٰ أن وقع كونراد أوف مونتفرّا لاهثاً على الأرض.

استغلّ المهاجمان الصخب والضجيج للفرار. أُلقي القبض على أحدهما وقُتِل على الفور. أما الثاني فاختبأ في الكنيسة ذاتها التي أُحْضِر إليها كونراد النازف دمه ولكن كان قلبه لا يزال يخفق. ونقلاً عن مصدر مسلم، انقضّ عليه المعتدي مرّة أخرى «كالذئب المسعور» وقتله. عندما جُرّ القاتل إلىٰ خارج الكنيسة وأُخضع للاستجواب، صرخ، في بادىء الأمر، مدعياً أن ملك إنكلترا هو من أرسلهما لتنفيذ هذه المهمة. الكثير رأى في كلامه مسحة من الحقيقة فلم يكن يخفى على أحد بأنّ ريتشارد لم يختر كونراد كي يكون ملكاً. لكن عند إخضاع القاتل لمزيد من الاستجواب تكشّفت حقيقة أكثر رعباً.

كان الرجلان عضوين في طائفة الحشاشين، وهي فرقة من الإسماعيلية الباطنية. وكان مجرّد ذكر اسمهم أمام مسيحيي فلسطين ومسلميها كافياً كي ترتعد فرائصهم رعباً وخوفاً. انصاع المجرمان لأوامر إمامهما سِنان المعروف لدى المسيحيين بلقب «شيخ الجبل». إنّه راشد الدين سِنان «الباطني المعتقد»، عراقي قدم إلىٰ سورية منذ أربعين سنة خلت كي يكون داعي الدعاة للطائفة، فجمع حوالي ستين ألف مريدٍ، وأقام شبكة من القلاع المنيعة في جبال الأنصارية شمال سورية. واعتبرت مصياف أكثر هذه الحصون تميّزاً؛ فقد كان معْقلاً شُيّد على رأس هضبة شديدة الانحدار يطلّ على بلدة يقطنها مريدوه عند طرف الصحراء السورية. كما برز الكهف «عش الصقر»، الذي شيّد مقراً له في أغوار الجبل على ارتفاع يفوق عشرة آلاف قدم؛ كان الرجل العجوز يعتصم فيه عند تعرّضه للمضايقة.

الخنجر على الوسادة

كان سِنان رجلاً ذكياً، متفتّح البصيرة، خالياً من العاطفة والرحمة، مخادعاً، روحانياً، محبّاً للزهد، عيونه كالنيازك قوة، يتمتع بقدرة الطبيب في مداواة الأمراض، وقوة الجبابرة في التهديم المُرْعب. تردّدت الروايات عن قدراته فوق الطبيعية وشروره على ألسنة الناس. وقد كانت قدرته على التخاطر عظيمة حتى قيل بأنّه كان يستطيع الردّ على رسالة دون الحاجة لقراءة محتواها.

طوّر، على مرّ العقود، مسألة الاغتيال السياسي إلىٰ فنّ مبدع. وقد أثبت عمله هذا بأنّه وسيلة مثلى لتأمين حماية استقلاليته والحؤول دون توحيد سورية تحت حكم قائد واحد. خضعت لنفوذ سِنان مجموعة من المترهبنين الملقبين بالفدائيين الذين كانوا يكنون لشخصه ولاءً وإخلاصاً مطلقين. إنّ الدرب المؤدي للتطهّر والنور والجنة يمرّ عبر حكمة الداعي نفسهِ. وقد كانوا مستعدين لتنفيذ أي مهمة انتحارية للتعبير عن ولائهم الحصري لقائدهم. أراد سنان يوماً أن يُثْبت لأحد القادة الصليبيين إخلاص مريديه له، فلوّح بيده تلويحة سريعة لفدائيَيْن متواجدين في أعالي برج من أبراج الكهف وسرعان ما قفز الرجلان فور رؤيتهما الإشارة ليلاقيا حتفهما في وهدٍ سحيق. هل يودّ الإفرنجي أن يرى إذعاناً لمبدأ الطاعة أكبر من هذا؟ وأجاب الإفرنجي، مرعوباً، بأنه اكتفى بذلك!

وفي رواية أخرى، يقال إنّ الرجل العجوز أرسل بطلب فدائييه إلىٰ مقصورته حيث وُضع على طبق من ذهب رأس أحد الحشاشين الذي عاد من مهمة اغتيال. وما أن جلس الفدائيون كل في مقعده، حتى وجّه سِنان كلامه إلىٰ الرأس وسأل الشهيد إن كان يرغب في العودة إلىٰ الأرض. ردّ الرأس بذكر محاسن الجنّة وسعادتها: «إن الله وملائكته ينصرون جلالتكم ويطرحون أعداءكم في نار جهنّم. لا قيمة لهذه الحياة، ومن يضلّل نفسه يندم يوم لا تنفع ندامة. أنا من الأشخاص الذين ابتعدوا عن متاع الدنيا واعتزلوها». بعد خروج الفدائيين، أبعد الرجل العجوز الرأس عن الطبق الذهبي وزحف شاب من حفرة

في الأرضية بعد أن أتم أداءَ دوره ـ وكان جزاؤه ضرب سِنان لعنقه فعلاً وإرساله إلىٰ جنته التي يشتهي!

يشتق اسم الحشاشين من «الحشيش» إذ إن جزءًا من تلقين الفدائي لمبادىء الفرقة يحصل في احتفال يُعْطى خلاله الشباب جرعة يضاف إليها بعض الحشيش فيتخدّرون ثم يُنقلون إلىٰ بستان الداعي الجميل. عندما يستفيق الشباب، يعتقدون بأنّهم أصبحوا في الجنّة. وتصدر أوامر الاغتيالات في احتفال مماثل. وفي جوّ مُضبب بدخان الحشيش وفي غمرة فرحة الحشاشين لولائهم للداعي، يمد كل واحد منهم يده ويتلقى خنجراً. يصدر الداعي أمره له فيقول: «اذهب واقتل كونراد أوف مونتفرّا وعند رجوعك، سيحملك ملائكتي إلىٰ الجنّة. حتى وإن لاقيت حتفك، سأرسل ملائكتي لإرجاعك إلىٰ الجنّة».

يتحدر سِنان من البصرة في العراق، إلاّ أن جذوره الدينية تعود أصولها لبلاد فارس ولغلاة الشيعة. حتى في القرن الثاني عشر، اتّسمت المنافسة بين المذهبين الشيعي والسني بالقوة والانفعال، وقد ألقى سِنان اللوم على صلاح الدِّين لقضائه على الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة وفرض المذهب السنّي بدلاً عنها. حاول اغتيال صلاح الدِّين مرتين. في المحاولة الأولى سنة 1174م، أوقف الحشاشون على بُعد خطوات قليلة من صلاح الدِّين. واستشاط السلطان غضباً. وبما أنّه كان قد وحّد مكاسبه في شمال سورية، حوّل جيشه ضدّ هؤلاء الإرهابيين ساكني الجبال. أما المحاولة الثانية فقد جاءت رداً على هذا الاحتلال وأوشكت على تحقيق الهدف. تظاهر القاتل بأنّه أحد حراس صلاح الدِّين الشخصيين فطعنه بخنجره في جمجمته. وعلى الرّغم من الدماء التي كانت تسيل من رأس صلاح الدِّين والرعب الذي أحسّ به إلاّ أنه قاوم القاتل إلىٰ أن تمكّن حراسه من قتل الدخيل. ونجا صلاح الدِّين من هذه المحاولة لأنه كان يضع غطاء نحاسياً تحت عمامته.

نجاة صلاح الدِّين بأعجوبة من محاولة الاغتيال أحدثت في نفسه حالةً

من جنون الارتياب حول هذه الطائفة الخبيثة التي يصعب السيطرة عليها. وزادت حالة الارتياب هذه سوءًا بعد برهةٍ من الزمن عندما استبدل الحشّاشون بمحاولة اغتيال ثالثة وضع بطاقة زيارة على وسادة السلطان؛ تمثّلت بخنجر وحلويات ساخنة. كيف تمكّن المجرمون من التسلل إلىٰ أكثر أماكن السلطان حميمية دون أن يلاحظهم أحد؟ ومنذ ذلك الحين، حرص صلاح الدِّين على السفر داخل مقصورة خشبية وعلى عدم توجيه الكلام إلىٰ أي شخص لا يعرفه في معسكره. ثم إنه ترك «شيخ الجبل» وشأنَه في مقاطعته المحاطة بالجبال الوعرة.

كانت أراضي الحشّاشين تقع في الجبال تتوسط نهر العاصي والبحر المتوسط غربي حماة، كما أنها كانت متاخمةً لمناطق يحكمها رهبان عسكريون. وبوجود قلعتي الإسبتاريين أي قلعة المرقب وحصن الأكراد، بالإضافة إلىٰ القاعدتين الأماميتين لفرسان الهيكل وهما كاستيل روج (قلعة يحمور) وكاستيل بلان (صافيتا)، تشكّلت دائرة واقية في الجنوب تحمي مقاطعة طرابلس ومدينة صور المسيحيتين.

ما اعتبر سنان المسيحيين اللاتين أعداءه الرئيسيين ـ بل كان الوزراء المسلمون في الشمال في حلب والموصل هم من يثيرون قلقه ـ ولذلك فعلى مرّ السنين، تكيّف الرجل العجوز مع وجود العنصر الأجنبي. اشترك الحشّاشون والرهبان المسيحيون في بعض النواحي. فقد كان هذان الفريقان من المتعصبين المحبّين للعزلة، وبدا أنّ كلاً منهما يفهم الآخر فهماً جيداً. كانت عمليات الاغتيال ضدّ الرهبان العسكريين عديمة الجدوى في كل المناسبات لأنّ القائد الكبير كان ينتقى من ضمن أعضاء الفرقة. ولكن عندما تخطى المسيحيون اللاتينيون الخط الفاصل وهدّدوا طائفة الحشّاشين، لم يتوانَ هؤلاء عن استخدام فنهم القاتل. فقضوا على ريتشارد الثاني الطرابلسي سنة 1154م عقب نزاع حدودي. وردّ فرسان الهيكل على عملية الاغتيال بذبح عدد من المسلمين.

وتم التوصل بعد ذلك إلىٰ تسوية ودفع الحشّاشون، لفترة من الزمن، جزية باهظة لفرسان الهيكل كي يتركوهم وشأنهم.

بعد مرور عقود على وجود سِنان في الجبال، ضعف ولاؤه لأئمة بلاد فارس القاصية ويعود السبب جزئياً إلىٰ معارضة الأئمة في بلاد فارس لادعاء سنان الألوهية. وخفّ بالتالي إيمانه بالمذهب الشيعي الإسماعيلي. فسمح لمريديه بمعاقرة الخمر وأكل الخنزير. وباشر الاهتمام بالنصرانية وبات متضلعاً في فهم تعاليم الكتاب المقدّس. وظهر عليه الاستعداد لاعتناق النصرانية لو أنّ فرسان الهيكل يوافقون على إعفائه من دفع الجزية السنوية.

كتب أُسقف صور ما يلي: «إن تعاليم المسيح النبيلة بالمقارنة مع ما أورثه محمّد لتابعيه المخدوعين قد جعلت سِنان يحتقر المعتقدات التي شربها مع حليب أمّه، ويكنّ البغض لتعاليم ذلك الدين المخادع». وفرح فرسان الهيكل على الأرجح للاهتمام الذي أبداه سِنان حيال دينهم.

في هذه الأثناء، تنكّر له أئمة طائفته. وقد كتب عنه رحّالةٌ مسلمٌ يدعى ابن جبير إبّان هذه الفترة، فقال: «.. قُيّضَ لهم شيطانٌ من الإنس يُعرف بسنان، خدعهم بأباطيل وخيالاتٍ موّه عليهم باستعمالها، وسحرهم بمُحالها، فاتخذوه إلهاً يعبدونه، ويبذلون الأنفس دونه، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره، بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقةِ جبلٍ فيتردى، ويستعجل في مرضاته الردى، والله يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء»[1].

بعد انفصال سِنان عن المذهب الشيعي، وادعائه الألوهية، والتلاعب بالدين المسيحي دون اعتناقه، اعتبرته كل الأطراف زنديقاً أو من أصحاب البدع. وبالتالي، زادت خطورة الرجل العجوز الساكن في الجبال. ذاع الصيت المرعب لهذه الطائفة الانتحارية وقائدها المتعصّب ذيوعاً سريعاً في كل أنحاء

(1) رحلة ابن جبير. تحقيق حسين نصار. مكتبة مصر، 1955، ص 243 (المترجم).

العالم. وانقلب الوضع انقلاباً غريباً حيث أصبحت هذه الطائفة موضوعاً لأبيات شعرية رومانسية ووُصف العنف الناتج عن المخدّرات بكل حرص على أنه عمل من أعمال الشيطان. إن بلوغ هذه الدرجة من الطاعة العمياء التي وصل إليها الحشّاشون تجسّد أوج الحب الرومانسي. وكتب أحد الشعراء: «إني لك بكليتي أكثر مما يطيع شيخَ الجبل الساكن في الجبال، فدائيوه». وجاء في كلام شاعر آخر «كما يخدم الحشّاشون سيدهم دون تردّد أهبك أيضاً حبي وإخلاصي المتناهي». وكتب شاعر ثالث: «أنا حشّاش في خدمتك يأمل الفوز بالجنّة عبر تنفيذ أوامرك».

بحلول سنة 1191م، كان كونراد المتغطرس قد تخطى عدداً كبيراً من الخطوط الحمراء الخطيرة. وباتخاذ كونت صور قرار رفض الحملة الصليبية للملك ريتشارد، كان يدفع ثمناً باهظاً لقاء استقلاله الخاص. فقد انقلب على الإنكليز وأمّن ملاذاً للفرنسيين الآبقين من جيش ريتشارد. وكان بحاجة ماسَّة للمال. وسقطت هدية مفاجئة بين يديه من حيث لا يعلم. فقد ساقت عاصفةٌ باخرةً للحشاشين طافحة بكل غالٍ ونفيس إلىٰ مرفأ صور، واستولى كونراد على حمولتها وأَسَر طاقمها وقتل ربّانها. طالب شيخ الجبل بإعادة باخرته وحمولتها وطاقمها، ودفع تعويض عن مقتل زميله. سخر كونراد بهذه المطالب؛ ولم يعتد الرجل العجوز على التقدّم بطلبات مماثلة أكثر من مرة. ولذلك جمع مريديه المخلصين بكل برودة أعصاب وأعلن فتواه. وبعد أقل من سنة، مشى كونراد في ذلك الزقاق الضيق الذي قاده إلىٰ أكثر نيران جهنّم تسعُّراً.

وعن مقتل كونراد، كتب المؤرخ المسلم ابن الأثير: «في هذه السنة، في ثالث عشر ربيع الآخر، قُتل المركيس الفرنجي، لعنه الله، صاحب صور، وهو أكبر شياطين الفرنج»[1].

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 12/ 78.

الفصل السادس والعشرون

حكاية الأعشاب الضارَّة

أدّى اغتيال كونراد إلىٰ بث البلبلة والفوضى من جديد. ولم يستفِد صلاح الدِّين ألبتة من مقتله إذ كان كونراد بمثابة الإسفين الذي يدسّ به التفرقة في صفوف الصليبيين. في كل مرّة كان كونراد يرسل مبعوثاً لمحاولة عقد اتفاق سلام منفصل، كان الخبر يصل إلىٰ مسامع ريتشارد من جواسيسه فيرسل مبعوثه الخاص حاملاً عرضاً خيراً من عرض كونراد. ولذلك فقد صلاح الدِّين دريئته وأحدمثيري المشاكل داخل الصفوف اللاتينية. ظهر سفير كونراد في معسكر صلاح قبل عملية الاغتيال بأربعة أيام. ووجد صلاح الدِّين مجالاً للمناورة طالما ظلت صور مستقلةً عن الحملة الصليبية باعتبارها قاعدةً أماميةً للمستائين من تدخل الإنكليز.

وبالطبع لم يعُد مقتل كونراد بالفائدة على ريتشارد. فقد عطّل خطته في الرحيل الوشيك. فعندما وافق على تتويج كونراد ملكاً أنجز العمل السياسي الأخير الهادف إلىٰ تسوية أمور أسرته. وها قد عادت الفوضى لتسود من جديد داخل أسرته وشك الفرنسيون في أن يكون المحرّض على هذا الاغتيال. واضطر بسبب هذه الفوضى أن يؤجل موعد رحيله. وهكذا فكّر الملك والخوف يساوره في جولةٍ أخرى من المناورات السياسية.

تقدّم هنري أوف شامباني بوضوح إلىٰ الواجهة. لقد بات الخيار المنطقي الآن على الرغم من صغر سنّه بسبب صلة القرابة التي كانت تربطه بالسلالتين الفرنسية والإنكليزية. حتى أنه كتبت له أغنية شعبية تقول كلماتها: «برضى الرب الرحوم، وحده الكونت أوف شامباني أشعل نار الأمل من جديد، ابن أورشليم البار تماماً كهرقل، ويقاتل وسيفه في يده، والإيمان في قلبه». كان المسلمون يجدون فيه خصال الرجل العقلاني، القادر، والمتسامح. أما الفرنجة فقد تبيَّن لهم أنه مقاتل قدير. قام بزيارة لشيخ الجبل في الوقت المناسب، وشهد رجلين من الفدائيين يلقون بأنفسهم إلىٰ التهلكة كي يثبتوا للمسيح على الأرض ولاءهم وإخلاصهم.

من أجل تعزيز ارتقائه على العرش، أُجْبر هنري نزولاً عند إصرار ريتشارد، على الزواج من إيزابيلا أرملة كونراد مع أنها كانت حاملاً بابن الكونت الراحل. سبَّب عرض الزواج هذا تبادلاً لكلمات قاسية بين هنري وعمه. فقد اعترض هنري عليه بقوله: «إن ولدت إيزابيلا وليداً ذكراً، فإنّه سيرث العرش. وعندها سأجد نفسي مرتبطاً بهذه المرأة ولا أعود أبداً إلىٰ شامباني».

وأجابه ريتشارد: «ما سأعطيك يفوق كل ما يمكنك الحصول عليه إن عدت إلىٰ شامباني. أعدك أنني، في حال أذِن الله بعودتي إلىٰ إنكلترا، سأرجع إليك على رأس قوة مسلَّحة عظيمة إلىٰ حد أنّها ستخوّلني احتلال المملكة بأسرها من أجلك بالإضافة إلىٰ العديد من أراضي الوثنيين. وأتوقع أن تصل قوتي، عند عودتي، إلىٰ حد يجعني احتل إمبراطورية القسطنطينية. وسأهبك جزيرة قبرص أيضاً بما أن الملك غي لم يدفع لي ثمنها بأكمله».

على الرغم من هذا الكلام المعسول، فإن هنري لم يجد مناصاً من قبول العرض. وبعد أربعة أيام من دفن كونراد في مستشفى صور، تزوّج هنري أرملته واستلم زمام السلطة في مدينته. سبَّب هذا الزواج غير المقدس اشمئزاز

المسلمين[1]. فكتب أحد المؤرخين المسلمين: «إنّها حامل ولكن وضعها لم يمنع هنري من الزواج بها، وفي ذلك ما يثير الاشمئزاز أكثر بعد من الجِماع. سألت أحد رجال حاشيتهم إلىٰ من سيُنسب المولود فقال لي: سيكون طفل الملكة! أرأيتم درجة فسق هؤلاء الكفّار القذرين!».

بعد مرور أسابيع وشهور على عملية الاغتيال، استمرّت الشائعات تدور حول مسألة هوية مرتكب الجريمة الحقيقي. فقد اعتُبر حشاشو شيخ الجبل الأدوات التي ارتكبت الجريمة لحساب قوةٍ أكبر. ووجّه الاتهام خفيةً لكل من ريتشارد وصلاح الدِّين علماً أنّ اتهام الفرنسيين لم يكن في السرّ بل على الملأ ومن أعالي الأبراج. وفي نهاية المطاف، بلغ خبر الاغتيال أوروبا وفرنسا. وكما يحدث عادةً بالشائعات، زوّقت قصة الاغتيال فبلغت مبلغ التهديد المبالغ فيه عند وصولها لمسامع الملك فيليب. فلم يكتفِ ريتشارد باستخدام الحشاشين لقتل كونراد، بل ينوي لفيليب النية ذاتها!

على الفور، عزّز فيليب حرسه الخاص وابتعد عن كل شخص لا يعرفه في فونتينبلو Fontainebleau.

استعان المؤرخ الإنكليزي في وصف هذا الوضع المَثَل الرمزي المذكور في إنجيل متى. في هذا المثال، يذرّ الرجل الطيب بذوره الجيدة ولكنّ عدوّه يزحف إليه خلال استغراقه في النوم وينشر بذور الأعشاب الضارة بين البذور الجيدة. تقول كلمة الرب: ولكنّ المزارعين تركوا الأعشاب الضارة تنبت جنباً إلىٰ جنب المحصول حتى حان موعد الحصاد فحشّ الحاصدون الأعشاب الضارّة كومات كومات وأضرموا فيها النار، وحصدوا بعد ذلك القمح على حدة.

---

(1) في الكامل لابن الأثير 12/ 79: «فلما قُتل المركيس وليَ بعده مدينة صور كَند (كونت) من الفرنج، من داخل البحر، يقال له الكَندهري (الكونت هنري)، وتزوج بالملكة من ليلته ودخل بها وهي حامل، وليس الحمل عندهم مما يمنع النكاح».

لقد استُخدم هذا المَثَلُ رمزاً ضدّ فيليب. فهو من زرع بذور الأعشاب المضرّة في حقل القمح النظيف والمقدس الذي أعدّه ريتشارد وها قد بدأت هذه الأعشاب تعطّل نمو حبوب القمح. ولكن حين يحين موعد الحصاد ستُقطَعُ كل هذه الأعشاب الضارة وتُضرم فيها النار. وسيتم تخليص ثمار مملكة الله رغم أنف أعدائه.

II

التماس قسيس

بحلول شهر أيار/مايو، عاد موسم القتال من جديد وترقّب الفريقان كيفية استغلال العدو للمناخ الجاف والحار. كان ريتشارد عرضة لتجاذب مضاد. فطبيعته الحربية كانت تحثّه على شنّ هجوم ولكنه كان يتمتع بدهاء سياسي كاف كي يأمل بأن يعطي عرضه الدبلوماسي الأخير الذي قدّمه لصلاح الدِّين نتائج مثمرة. توالى وفود الرسل حاملين أنباء متناقضة من أوروبا. فبعضهم كان يصف الوضع في البلاد وصفاً كئيباً، فيما نقل آخرون أخباراً عن التمكّن من خنق الثورات. البعض أصرّوا على ضرورة عودة ريتشارد إلىٰ البلاد على الفور فيما توسّل إليه آخرون أن يُتِمَّ حجّه. وبين الحضّ على القتال والتشاور، وجد نفسه يعد العدة للتخلي عن الحملة الصليبية يوماً وللبقاء في مكانه في اليوم التالي.

كان يغضّ النظر يوماً عن مكائد الملك فيليب، وينشغل في اليوم التالي في تدبُّر معاني المثل القائل: «إنّ الذي عنده جارٌ سيء، سيجد عند الصباح ولا شك ما يسوء».

لم يكن صلاح الدِّين في هذا الوضع المضطرب. فضّل استخدام لعبة الانتظار مراقباً عواقب عملية الاغتيال ـ لم يكن هنري أوف شامباني ذا شعبية كبيرة في مختلف قطاعات جيش الصليبيين ـ كما كان ينتظر حصول تطورات

جديدة على الجبهة الدبلوماسية. ومع أنّ الاضطراب كان مسيطراً على الوضع الحالي والقصير المدى، إلاّ أنه كان يعلم علم اليقين أنه في بلاده وبين رعيته. فمرور الوقت من صالحه وليس من صالح ريتشارد. أقام الملك العادل شقيق صلاح الدّين ومبعوثه الدبلوماسي اتصالات جديدة مع ريتشارد حين كان في طريقه إلىٰ القدس، في مطلع فصل الربيع قبيل مقتل كونراد. أرسل ريتشارد رسالةً إلىٰ السلطان يقول له فيها بكل تفاؤل: «نوافق على تقسيم البلاد. ولْيحتفظ كل جانب بما لديه الآن وإن كان لجهة أكثر من النصف، فما هو نصيبها العادل؟ يجب أن تعطي الجانب الآخر تنازلاً مناسباً. ستكون لنا المدينة المقدّسة، وتحتفظون لكم بالسهل الساحلي».

وجد قادة صلاح الدّين في جوهر هذه الرسالة عرضاً مرضياً. وزاد فرحهم عندما عاد الملك العادل إلىٰ فسطاط صلاح الدّين بعد أسبوعين بأخبار عن تنازلات وتحسينات إضافية قدّمها الصليبيّون. لقد بات ريتشارد مستعداً لتسليم قلعة القدس إلىٰ المسلمين علاوةً على قبة الصخرة ذاتها والمسجد الأقصى فيما يقسم ما تبقى من المدينة المقدَّسة إلىٰ نصفين بالتساوي. وتخصص البلدات الواقعة في محيط القدس بين الجانبين بالتساوي.

صحيح أنّ هذه التطورات كانت مشجعة إلاّ أنّ صلاح الدِّين استلم رسالةً من الجنوب قضت على تفاؤله. فمنها علم أنّ الصليبيين قد تجرأوا على الخروج من عسقلان ووصلوا إلىٰ ضواحي الداروم وهي القلعة الساحلية الأبعد جنوباً. وقد قصد صلاح الدِّين الإبقاء عليها وعدم تهديمها؛ إذ كان يعتبرها المستودع الأخير للمؤونة في السهل الساحلي الجنوبي، وموقعاً يمكن التراجُعُ إليه في حال استولى العدو على القدس. اعتُدي على معسكر مسلم خارج المدينة وقُتِل عدة مؤمنين وسطا الغزاة على ألف خروف. انزعج صلاح الدِّين من هذه الأخبار وسارع إلىٰ إرسال كتيبة من قوات الطلائع للبحث عن النهّابين ومعاقبتهم. عملية الاستفزاز هذه بيّنت أنّ ريتشارد لا يفكّر بالتخلي عن المعركة حتى الآن.

أقضّت الثورات الداخلية في أوروبا مضجع ريتشارد، والأمر سيّان لصلاح الدِّين الذي كان يواجه مشاكل خاصة به. إذ كان حفيد أخيه المدعو الملك المنصور أميراً شاباً شديد الطموح يطالب بالاستقلال بشمال سورية وبالسيطرة على عدة مدن هامّة، بما فيها الرها، وأراضي تقع ما وراء نهر الفرات. شحب لون صلاح الدِّين حيال تصرّف هذا الشاب الوقح، ولا سيّما أنّ توقيته كان سيئاً جداً، ومال إلىٰ تلقين هذا الغلام المراهق درساً قاسياً. ولكنّ قادة جيشه أعادوا السلطان إلىٰ صوابه في اجتماع عصيب.

تقدّم أحدهم بالقول: «نحن خدم جلالتك وعبيدك ولكن الشباب سيتّحدون ويتحالفون وخاصة إن أحسوا بالخوف. ومن المستحيل علينا أن ندخل حربين في آن واحد ضد المسلمين من جهة وضدّ الكفار من جهة أخرى. إن رغب السلطان في دخول حرب ضد المسلمين، يجب أن يسمح لنا بعقد اتفاق سلام مع الكفّار. عندئذ، سنعبر بكل سرور نهر الفرات ونحارب تحت قيادته. ولكن إن رغبتَ في متابعة الجهاد، فينبغي أن تسامح الأمير الشاب وتُعطيه الأمان». وافق القادة الآخرون على هذه المشورة الصائبة فرقّ قلب صلاح الدِّين. عيَّن شقيقه نائباً عنه في التوصل إلىٰ تسوية مع حفيد شقيقه واهتم مجدداً بالمسألة الأهم التي يواجهها. وقرّر أن يعالج مسألة هذا الصبي المتهوّر لاحقاً.

في هذه الأثناء تقريباً، تلقّى السلطان زيارةً مثيرةً للاهتمام من القسطنطينية. فقد جاءه مبعوث نبيل من طرف إمبراطور بيزنطة حاملاً هدايا وعروضاً هامّة. ومن أكثر هذه العروض إغراءً اقتراح باستعادة الصليب الحقيقي الذي غنمه مقابل مئتي ألف قطعة ذهبية. مبلغ هائل من المال يستطيع السلطان أن يستفيد به في المجهود الحربي. والأكثر من ذلك، التماس المبعوث من صلاح الدِّين أن يهب للطائفة الأرثوذكسية الشرقية البقعة التي يقع فيها الضريح المقدس. وانطوى هذا العرض الأخير أيضاً على إغراءات خاصة به؛ فبذلك

تُنزع أقدس كنيسة عند المسيحيين من ممتلكات روما. وأخيراً، طلب المبعوث مساعدة صلاح الدّين في الإعداد لغزوة ضد قبرص لانتزاعها من سيطرة الصليبيين، وإعادة تنشيط العلاقات التجارية والتاريخية مع بيزنطة. تضمّنت هذه الاقتراحات الثلاثة ما يحضّ على تزكيتها، إلاّ أنّ صلاح الدِّين رفضها. وفيما عاد المبعوث أدراجه خائباً، زاد تقدير صلاح الدِّين للضمانة التي كان الصليب الأعظم يوفّرها له.

طالما لم يتمكّن ريتشارد من اتخاذ قرار بالبقاء أَو الرحيل، لم يكن قادراً على المكوث دون حراك. لقد حلّ منتصف شهر أيار/ مايو والوقت يمرّ دون فائدة. أثبتت غزوة الداروم في الشهر المنصرم درجة الأهمية التي تتبوأها هذه المدينة ومحصول غلالها وهشاشتها. ولا شك في أنّ احتلال هذه القاعدة الأمامية الجنوبية الآن، فيما يتم التفاوض مع صلاح الدِّين، يعزّز إمكانية توصّل ريتشارد إلىٰ تسوية.

ومرةً أخرى، رفض الفرنسيون الانضمام إليه في هذه المغامرة الأخيرة. عدد كبير منهم كان لا يزال يحيي احتفالات تملُّك هنري أوف شامباني في عكّا. فقرّر ريتشارد أن يهجم على الداروم بقواته وحدها. وفي حين حمّلت معدّات الحصار على متن البواخر، حرّك ريتشارد قوّاته على رقعة الشطرنج. لم يكن بمقدوره أخذ قوة كبيرة إلىٰ مكان يبعد هذا القدر عن مركز الجيوش. فعليه تأمين حماية عسقلان وما تبقى من الأراضي التي احتلها. ولذلك انطلق على رأس كتيبة من فرقه العادية وأكثرهم رجال من النورماندي وبواتو.

يعتبر موقع الداروم فيما وراء غزة استراتيجياً؛ ولذلك لم يكن احتلاله سهلاً ولا ملائماً. احتوت البلدة على سبعة عشر برجاً على سور شاهق العلو، وخندق مائي، وقائد حازم يُعرف باسم علم الدين قيصر. كانت قلعةً مسلمةً متينة البناء، وفيرة التموين، ومحمية حماية جيدة. في السابع عشر من أيار/ مايو، وصل الملك إلى هذا المعقل المهيب، وترجّل عن صهوة حصانه،

وعمل جنباً إلىٰ جنب مع رجاله في حمل عوارض معدّات الحصار وقضبانها ودعاماتها الثقيلة الوزن على ظهورهم مسافة ميل يفصل بين الساحل وأسوار المدينة.

رأى المسلمون ريتشارد يقود قوة قليلة العدد. في البداية، حملتهم جسارتهم على تسديد الضربات. ولكن صيت هذا المقاتل العظيم سبقه. فبمجرّد النظر إلىٰ هذه الراية الملكية بأسودها النحيلة الثلاثة على الأرضية الحمراء ظهرت روح من القوة التي لا تقهر. كمثل قميص مُخَضَّب بالدماء. مجرّد النظر إليه كان كافياً لزعزعة ثقة العدو بنفسه.

بدت مهارة ريتشارد كمخطّط جلية على الفور. فبعد تركيز معدات الحصار، والقوة المتراصة أمام البرج الرئيسي، أصدر الملك أمره بضرب الشرفات المشعّثة بالصخور الجلمودية دون تهاون، فيما باشر اللغّامون في تقويض الأساسات. استمر القصف ثلاثة أيام وانتهى بانهيار البوابة الرئيسية واشتعال النار فيها. وعندما وجد القادة العرب أنفسهم محاصَرين دونما أملٍ بمدد، ظهروا حاملين راية بيضاء معلنين عن استسلامهم مقابل حياتهم وحياة أُسَرهم وممتلكاتهم. ورفض ريتشارد؛ وأعلمهم بأنّه يفترض أن يتمّ الاستسلام قبل سفك الدماء وليس عند حصول هزيمة نكراء. في غضون ساعات، انهار البرج الرئيسي وتحوّل إلىٰ ركام ورُفِعت رايات مختلف كتائب الصليبيين ـ ستيفن أوف لونشان وإيرل ليستر ثم أهالي بيزا وجنوى ـ على الأسوار. وقبل أن يسيطر اليأس على المدافعين عن المدينة ويختبئوا داخل منازلهم بانتظار المحتوم، حرموا الغزاة من حيواناتهم من خلال قطع أوتار قوائم خيولهم.

بعد مرور يوم على سقوط الداروم، وصلت كتيبة فرنسية تضم هنري أوف شامباني في الوقت المناسب للمشاركة في احتفالات النصر. لم يعد ريتشارد يظهر أي تنافسية منذ رحيل فيليب. ولا بد أن يسجّل التاريخ انتصاره في الداروم دون مساعدة الفرنسيين. لقد بات المجد مضموناً له. شعر أنه قادر

على العطاء. لقد حان موعد عيد العنصرة العظيم الذي يلي عيد الفصح بسبعة آحاد، ولا بدّ من وجود دعابات متداولة تحكي قصة وصول هنري بعد الأزمة بوقت طويل، كأنه الروح القدس يهبط على الرسل. وفيما عرض ثلاثمائة أسير مسلم مكبلي الأيدي أمام ريتشارد، قدّم هذا الأخير هديته الجديدة لابن شقيقته. امتطى ريتشارد وزملاؤه خيولهم، واتجهوا نحو الشمال فتخطوا حصن التين الذي أخلاه، على جناح السرعة، ألف مسلم خلال اليوم السابق، كما تخطوا كذلك قصراً آخر أُخلي يسمّى مجدل بايا نحو قرار محتوم.

وفيما تحرّك الموكب نحو الشمال عبر سهول يبنى مجتازاً بالخليل مكان ولادة حنّة والدة مريم العذراء، تلاشت مشاعر الفرح بما أحرز من نصر في الداروم مع الغبار المتصاعد من وقع حوافرهم. فعند وصول ريتشارد إلىٰ مجدل بايا، تلقى موجةً أخرى من الأخبار السيئة القادمة من إنكلترا وعلت وجهه الآن أمارات الكآبة. وانطبع في ذهن باروناته بأنّ الملك يمضي أيامه الأخيرة في الأراضي المقدّسة.

في هذه الأثناء، عقد الفرسان اجتماعاً مستقلاً فيما كان قائدهم بعيداً مشغول البال. لم يكن الصليبيّون متحدين في يوم من الأيام إلىٰ هذا الحد. فقد ساد حسن النيّة والرضى في نفوس الجميع. شعر الفرنسيون فجأةً بحس التكافل والتضامن مع الإنكليز كما حدث ذلك بين النورمانديين ورجال بواتو، وبين رجال بيزا وجنوى. وحاز قرارهم على الإجماع. سواء قرّر الملك ريتشارد البقاء أو الرحيل، لا بد أن تستمرّ الحملة الصليبية. وكانوا مصممين على الزحف نحو جيروسالم.

شعر الجنود بسعادةٍ غامرةٍ عندما تسربت أخبار قرار البارونات هذا إليهم وأُشعلت النيران، وبدأوا يرقصون ويغنون «فيما أمضوا الليل بطوله في الاحتفال والمرح». إلاّ أنه يبدو أنّ قرار البارونات ومعنويات الجيش المرتفعة؛ كلُّ ذلك أغرق ريتشارد في المزيد من الكآبة. بات وضعه ضعيفاً وبدت معضلاته بعيدةً

جداً عن الانفراج في الوضع الحالي. وكما لو أن خيانته استوجبت عقاباً إلهياً ضربت فجأة جحافلُ من الخنافس الكبيرة المتوحشة صفوف الجنود، وهجمت على المعسكر في موجاتٍ وخزت الرجال في وجوههم وسواعدهم حتى باتوا يشبهون المجذومين.

في الرابع من حزيران/ يونيو، انضم الطابور إلىٰ القوى الرئيسية في عسقلان. وفي اليوم التالي، حين كان ريتشارد يتجوّل في بستان خارج المدينة، التقى بقسيس بسيط من بواتييه كان ينظر إلىٰ الملك من بعيد والدموع تنهمر على وجنتيه:

«أيها القسيس، أرجوك، قل لي ما هي دواعي بكائك وبخاصةٍ إن كنتُ مسبّبها؟».

«لا أستطيع أن أتفوّه بكلمة قبل أن تؤكد لي جلالتكم أنكم لن تغضبوا مني»!

أعطى ريتشارد القسيس الأمان فأجابه: «يا مولاي، أبكي على السمعة السيئة التي تشوبكم وتشوب جيشكم بسبب نيتكم العودة إلىٰ بلادكم. فليمنع الله أن تؤدي بكم أخبار مشكوك في صحتها أتت من وراء البحار إلىٰ التخلي عن استعادة هذه الأراضي المدمّرة. إننا نعتقد بأن عملاً مماثلاً سيلصق بسمعتك العار إلىٰ الأبد. حولوا دون أن يقوّض انسحاب عجول متهوّر مجد عمل من أروع الأعمال. وامنع الناس من القول بأنّك عدت إلىٰ ديارك قبل إتمام مهمتك. وإن انتقصت من مجدك، لن تختلف النهاية عن البداية. حذار يا مولاي وإلاّ تلاشى مجدك الذي شقيت في بداياتك للوصول إليه وخاب في النهاية!».

توسّل القسيس البسيط إلى الملك أن يفكّر بكلّ ما وهبه الله من خصال القوة والعظمة، مقتبساً التعابير التي استخدمها بولس في رسالته الإنجيلية إلىٰ أهل إفسس: «على مقدار نعمته الوافرة التي أفاضها علينا» (1/ 13 ـ 14) وعدّد الانتصارات العديدة التي أحرزها ريتشارد: كان لا يزال لقبُهُ كونت أوف بواتو

عندما قَهَر أعداءَهم كلهم. وتمكّن من حكم مملكته من خلال انتصاراته على لوردات أقل منه قوةً وأصبح اسمه مصدراً للخوف في كل أنحاء أوروبا. كما أنه نجح في إخضاع مسينا وقهر الإغريق... وماذا عن قبرص وإمبراطورها. إن براعته في قيادة الجيوش أوقعت عكّا بين يديه وبقوّته تغلَّب على مرض Arnaldia وانتصر في أرسوف والداروم وشرذم المسلمين وحرّر مئات المسيحيين.

«تذكر أنّك عندما قدمت إلىٰ هذه البلاد من العالم الغربي، أحرزت انتصارات في كل مكان وكبّلت أعداءك بالحديد». ثم قارن ريتشارد بأنتايوس Antaeus العملاق المذكور في الميثولوجيا الإغريقية الذي كان يزداد قوةً كلّما لمس الأرض. وشبّه المسلمين بهيدرا الذي كان يستبدل بالرأس الذي يقطعه ريتشارد رأسين: «إن السلطان الآن يرتعد لمجرّد ذكر اسمك أمامه. ضربت الدهشة شعب مصر والرهبة الوثنيين. هل أحتاج لأن أقول المزيد؟ أجمع الكل على أنك أبو النصرانية وبطلها والمدافع عنها. شتّان بين ما فعلتَه، وبين التخلي عنهم وتركهم ليواجهوا العدو فيقضي عليهم. أيها الملك، أعِن شعبك إذ إنه يعلّق آماله عليك. أنت حاميهم الطبيعي. فليساعدك المسيح على مواصلة التقدم».

في اليوم التالي، أرسل ريتشارد في طلب المنادي وأمره بأن يذيع في صفوف الجنود خبر عزمه البقاء حتى عيد الفصح القادم عندما تتم السيطرة على كل الأراضي المقدَّسة.

فلتبدأ الاستعدادات لحصار أورشليم.

ركع الجنود فور سماعهم أوامره شاكرين مصلّين: «أيها الرب، نعبدك ونحمدك لدخولنا قريباً مدينة أورشليم التي سيطر عليها الكفار لفترة طويلة جداً. إن توقعاتنا لمباركة حتى بعد هذا التأخير الطويل الأمد. ويا للفائدة التي عادت علينا بها آلامنا. إن النظر إلىٰ المدينة المقدَّسة سيعوّض علينا كل ما سبق!».

الفصل السابع والعشرون

بلاد شمشون

في السابع من شهر حزيران/ يونيو سنة 1192م، بلغت الحملة الصليبية أوجها. انطلقت قوات الحصار، في جو من الفرح والترقب، من أرض الفلسطينيين وسلكت الطريق القديمة المؤدية إلىٰ أورشليم. الأجواء كانت تزخر بالتصميم والعزيمة وظهرت سماحة النفس جلية على وجوه الجميع. في أثناء بناء عسقلان، وُضِعت التفاوتات الطبقية جانباً وظل هذا الوضع سائداً. وانتشرت بين الفرسان والضباط كما بين الخدم وصغار الفرسان روح الحميمية والجَذل إذ «إنّ الطيبة تنبثق من القوة» حسب كلمات لغز شمشون. اتخذت أنشودة «انقذوا، انقذوا الضريح المقدس Sanctum Sepulcrum Adjuva» معنى ملموساً. وعادت الأناشيد تنطلق من حناجرهم، ولا سيما نشيد بعنوان: «Chantera por mon coraige» الذي تقول لازمته: «أيها الرب الكريم، عندما يصرخون: إلىٰ الأمام، قدّم العون للحجّاج فأنا أخاف عليهم. إن العرب لخائنون». لقد أوشكوا على إتمام حجهم. هلّلويا! استرجعت القوات الصليبية روح ڤيزيلي.

فيما كانوا يخرجون من عسقلان ويعبرون نهراً عذب المياه للدخول إلىٰ أرض شمشون، شكّلوا مشهداً ولا أبهى. مشى ريتشارد في الطليعة على صهوة

حصانه القبرصي المهيب متطلعاً للسيطرة على العالم بأسره تماماً كما لو أنه شمشون. كان الملك باهراً، واثقاً بنفسه، عملاقاً بين رجال عاديين كما لو أنه قادر كمثل شمشون أن يربط ثلاثمائة ثعلب، أَو يذبح الأسد بيديه العاريتين، أَو يقتل الآلاف من أعداءه بضربة من فك حمار. وكشف الملك عن التناغم الذي تتمتع به قضيته العادلة، كما طرح المشاغل التي تجذبه لدياره جانباً لفترةٍ من الزمن. وأعقبه طابور جَمَع الألوان المختلفة، وصخب وقع الحوافر، والغبار المتصاعد منهم، والفولاذ اللامع، والأناشيد. خفقت في الهواء والشمس اللاذعة رايات الأسَر الأوروبية النبيلة والدرجات الكهنوتية المقدسة ومختلف الشعوب الأوروبية صغيرها وكبيرها. وتخلّل جلبة ألف حصان الضرب المتقطع على الطبول والدفوف، وعويل مزامير القِرَب، والشّوم، وآلات النفخ.

اجتاز الجيش، خلال الأيام الأولى من الزحف، تسعة عشر ميلاً، وعسكر في موقع استراتيجي يعرف بتل الصافية عند تقاطع الطريق الشرقية مع الطريق الشمالية ـ الجنوبية المؤدية من بيت جبرين في الجنوب إلىٰ عماوس في الشمال. قبل خمسين سنة خلت، بنى الصليبيون هنا قلعة ذات أبراج أربعة على إحدى الهضاب من أجل حماية عسقلان من أي احتلال. وصل الآن صليبيو ريتشارد إلىٰ أطلال جديدة إذ هدّم صلاح الدِّين هذه القاعدة منذ عدة سنوات تماماً كما فعل في قلعتها التوأم في بيت جبرين مخلفاً وراءه ركاماً من الحجارة. هنا في وادي أيلة حيث قتل داود جالوت، أكرمهم وادي السنط بالماء الوفير. وظلوا في موقعهم هذا يومين؛ لكنّ هذه الفترةَ من الراحة أفسدها إنذارٌ بنحس فقد توفي فارس وجندي إثر عضة ثعبانين.

فيما كان الصليبيّون قابعين على تل الصافية، علم صلاح الدِّين في القدس من جواسيسه بتحركهم. لا شك بأن نشاطهم هذا ينبىء بالزحف الأخير على المدينة المقدَّسة. أرسل صلاح الدِّين بطلب أمرائه البعيدين لعقد مجلس حربي طارىء. بات من الضروري تحديد مصدر قوة شمشون هذا تحديداً دقيقاً

ومعرفة نقاط ضعفه. وكشف هذه الأمور منوط بهم في غياب «دليلة» تعمل لمصلحتهم؛ فقد اغتيلت كل الدليلات أو عُدْن إلىٰ ديارهن.

وبانتظار عقد اجتماعٍ برئاسة صلاح الدِّين، اجتاز الجيش الصليبي أحد عشر ميلاً شمال طورون الفرسان وأمضوا ليلة واحدة فقط على قمة إحدى هضابها قبل التحرّك مجدداً والاقتراب من معسكرهم القديم في بيت نوبة. ها هم يعودون مجدداً إلىٰ وادي أيالون حيث طلب يوشع من الله تجميد الشمس والقمر حتى يتمكّن من الانتقام لنفسه من العموريين. عادوا من جديد إلىٰ المكان الذي اضطروا لإخلائه في الشتاء المنصرم بسبب الأمطار والوحول. إلاّ أنّ الأحوال الجوية كانت مغايرة الآن. فهم في فصل القتال الأمثل. وباتت أورشليم على بعد اثني عشر ميلاً.

أطلق صلاح الدِّين إنذاراً حاداً بالخطر. كالملسوع أصدر أوامره للدفاع عن أسوار المدينة وأمر بتكثيف الهجوم على خطوط التموين الصليبية من البحر. عزاؤه الوحيد تمثل بوصول قادة رفيعي المرتبة. ووقف أخيراً إلىٰ جانبه رجله الحكيم الكردي المشطوب الوجه بعد أن وقع أسيراً شخصياً في يد ريتشارد عقب سقوط عكّا وكلّف تحريره ثلاثين ألف قطعة ذهبية. قدم بدر الدين دولدرين، سيّد تلّ باشر التي كانت سابقاً قلعة صليبية قريبة من نهر الفرات، على رأس كتيبة ضخمة من الأتراك. ووصل أيضاً أبو الهيجاء السمين الذي كان متمرساً في النزاعات الداخلية التي ضربت شمال سوريا، وقائداً قديراً على الرغم من الاضطرار لحمل جسده الهائل السمنة على كرسي ضخمة. وما ينطوي على أهمية أكبر: الإرسال في طلب ابن صلاح الدِّين الملك الأفضل من حلب حيث كان يعاقب حفيد شقيق السلطان على وقاحته وجسارته. واتخذ جنوده الذين كان البعض منهم تحت إمرة ابنٍ آخر من أبناء صلاح الدِّين مواقعهم على الحدود الغربية.

عقد الأمراء أخيراً مجلسَهم الحربي في فسطاط السلطان. وكانوا جميعاً

على يقين أن جهادهم قد وصل إلىٰ اللحظة المحتومة. أول المتكلمين كان بهاء الدين، مستشار صلاح الدِّين الرئيسي، وصديقه وكاتبه؛ فطالبهم أن يقسموا بأرواحهم عند قبة الصخرة:

«إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضي الله عنهم على الموت في لقاء العدو. ونحن أَولى من تأسّى به (صلى الله عليه وآله وسلم)، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، فلعلّ ببركة هذه النية يندفعُ هذا العدو»[1].

عوضاً عن صرخات التأييد، لم تَلْقَ هذه المناشدة غير همهماتٍ تخلو من الحماس بسبب وجود معارضة خفيةٍ شعر بها السلطان. انتظر الأمراء سماع كلام سيدهم. لكنه بقي لفترة طويلة من الزمن ملتزماً الصَّمت متفكّراً خافضاً عينيه، متصالب الرجلين، ساكناً على وسادته، شابكاً يديه أمامه. لم يجرؤ أي أمير على قطع تأملات السلطان تعبيراً عن احترامهم لصمته، وظلوا متوترين قلقين متخاصمين. لقد جلسوا ساكنين «كأنّ على رؤوسهم الطير».

أخيراً رفع صلاح الدِّين رأسه وتوجه للحضور بقوله: «اعلموا أنكم جنود الإسلام اليوم ومنعتُه. وأنتم تعلمون أنّ دماءَ المسلمين وأموالهم وذراريهم معلَّقةٌ في ذممكم، فإنّ هذا العدو، ليس له من المسلمين من يلقاه إلاّ أنتم. فإن لويتم أعنتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد كطي السجل للكتب، وكان ذلك قدْحاً في حقّكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا، وأَكلتم مال بيت المال. فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم. والسلام»[2].

ساد الصمت المكان من جديد إلىٰ أن قطعه المشطوب بقوله:

«مولاي، نحن مماليكك وعبيدك. وأنت الذي أنعمتَ علينا وكبرتَنا،

(1) ابن شدّاد، ص 216.

(2) المصدر السابق، ص 216.

وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا، وليس لنا إلاَّ رقابنا وهي بين يديك. والله ما يرجع أحدٌ منا عن نصرتك حتى يموت»[1].

سُمِعت من جديد تمتمات التأييد التي يبدو أنها أرضت صلاح الدِّين. ثم انتقل الجميع لتناول وجبة عشاء كئيبة وانسحب بعدها كل إلىٰ مركزه.

لم يمضِ يومٌ على ذاك المجلس حتى ظهر الخلاف بين أعضائه. أرسل أبو الهيجاء السمين رسالةً سرية للسلطان جاء فيها: «اجتمع عندي جماعةٌ من المماليك والأمراء وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له، وقالوا لا مصلحة في ذلك، فإنّا نخافُ أن نُحصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع، والرأي أن نلقى العدوَّ مصافاً، فإنْ قدّر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس»[2].

أثار هذا التقدير قلق السلطان ولكن رسالة الرجل السمين انطوت على تحذير: «إنك إن أردتنا فتكون معنا أو بعض أهلك، حتى نجتمع عنده، وإلاَّ فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد»[3].

اضطرب السلطان من وجود هذه التفرقة والانقسامات في صفوف رجاله. إن التخلي عن القدس عنده مثل التخلي عن الدين، وتشويه ذكرى معراج رسول الله، وتضييع ثالث أقدس مقام إسلامي. لم تتحمّل طبيعة صلاح الدِّين المتدينة فكرة انتهاك المحرمات هذه. أما خبرتُهُ العسكرية فقد وافقت على فكرة إخلاء المدينة. لقد كان أمراؤه على حق فحصر قواته بأسرها داخل حيِّز ضيق مغلق تطوّقه أسوار المدينة ضرب من الجنون. وهم بذلك ينصبون لأنفسهم الفخ ويعرّضون أنفسهم للحصار والتجويع وفي آخر المطاف للسحق والذبح.

(1) المصدر السابق، ص 216.
(2) المصدر السابق، ص 216.
(3) المصدر السابق، ص 216.

وجد السلطان نفسه في مأزق يتأرجح بين المشاعر والحسّ العملي.

تردّد لعدة ليال. وعايش صديقه بهاء الدين اضطراباته الليلية حتى بزوغ الفجر عندما علا صوت المؤذن في الجامع الأقصى يدعو للصلاة: الله أكبر! حي على الصلاة! الصلاة خير من النوم! تدافعت الكلمات العربية من فوق الحجارة القديمة.

بعد أن توضأ الرجلان، طلب بهاء الدين الإذن بالإدلاء برأيه بصراحة فأَذِن له: «المولى في اهتمامه وما قد حمّل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه. وقد عجزت أسبابه الأرضية، فينبغي أن يرجع إلىٰ الله تعالى، وهذا يوم جمعة، وهو أبرك أيام الأسبوع، وفيه دعوةٌ مستجابة ـ في صحيح الأحاديث ـ ونحن في أبرك موضعٍ نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا. . فليتصدق السلطان بشيءٍ خفية، وتصلي بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيهما ربك، وتفوض مقاليد أمرك إليه، وتعترف بعجزك عما تصديت له، فلعل الله يرحمك، ويستجب دعاءك»[1].

عمل السلطان بالنصيحة. وبين الأذان لصلاة يوم الجمعة والإقامة، سجد الرجلان في الجامع الأقصى وصليا سوياً. وراقب بهاء الدين بطرف عينيه سيده ومعلّمه يصلّي ركعتين. كانت الكلمات تخرج من فيه بصعوبة. ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ انهمرت الدموع من مقلتي صلاح الدّين وسالت على وجنتيه الرقيقتين وبلّلتا سجّادة الصلاة.

أعلن عن قراره بعد بضع ساعات. ينسحب القسم الأعظم من الجيش ولا يبقى سوى عدد قليل في القدس بقيادة حفيد شقيقه مجد الدين. حثّته الرغبة في الشهادة بوصفه قبطان مركب الإسلام على البقاء في المدينة. ولكنّه أُقنع

(1) المصدر السابق، ص 217.

بالعكس فرحيلُه من مصلحة الإسلام. ويجب أن يضحّى بالقدس سعياً وراء مصلحة كبرى وكان نشيدهم كترتيلة وفاة:

أيها الساقي، املأ كأسي
فالشغف يغمر قلبي.
يوم سعدي هو اليوم الذي أراك فيه
أنت مكتملٌ اكتمالَ البدر
رشاقتك تفوق رشاقة غصن الصفصاف
يعبق البستان برائحة عطرك
وجمالك يجعل الأزهار كلّها تَذْبَل.

II

دلائل مزيّفة وهجمات مضللةّ

في هذه الأثناء، استقرّ ريتشارد في «بيت نوبة» بانتظار وفود الكونت أوف شامباني. كان هنري قد أُرسل إلىٰ عكّا وصور لتجميع المشرّدين والمتسكّعين ومرافقة معدّات الحصار. لم يكن ثمة شك في الخطر الذي تتعرّض له الرحلة من عكّا إلىٰ معسكر الصليبيين الأمامي. فلا بد أن المناطق الريفية المحيطة كانت تزخر بالعدو. كان قد بدأ يتلقى تقارير عن غزوات عنيفة على طريق التموين المؤدية إلىٰ يافا.

وخلال إحدى المناوشات، انقضّ مائتا خيّال تركي من التلال على الحرس الخلفي لقافلة فرنسية وهم يطلقون صيحات الحرب «نصر الله والفرج». تسبَّب هذا الهجوم بموت حارسين ورُمي عن صهوة حصانه إسبتاريّ فلمنكي

جلف كان حماسه لوحده كفيلاً بإرساله إلىٰ الفارس التركي ولكنه تمكن من إنقاذ حياته بأخذ حصان ضابط (تعرّض للقتل). حتى هجوم الإسبتاريين وفرسان الهيكل لم يزرع الخوف في قلوب الأتراك الذين ثبتوا في مواقعهم وردوا على الهجوم المضاد بهجوم آخر. ولولا تدخّل أسقف سالزبوري الذي سارع لنجدة الفرنسيين لهُزموا هزيمةً نكراء.

وصف أحد المؤرخين تلك الوقعة على النحو التالي: «يا له من قتال عنيف. كنت ترى الرجال يتلقون الضربة تلو الضربة، ثم بسرعة لمعت نصال السيوف، وتواجه الطرفان مواجهة عنيفة، فكم من أعمال بطولية وجريئةٍ وقعت، وكم من خيّالٍ سقط عن جواده».

خضع الفارس المفرط الحماس روبرت أوف بروغز Robert of Bruges لمحاكمة عسكرية بتهمة عدم الانضباط، وتعريض حياة زملائه للخطر. إذ كانت ذكرى معركة الأُقحوانة التي وقعت منذ بضع سنوات لا تزال حيّة في الأذهان. لم تكن القوى الصليبية تتحمّل فقدان فارس واحد بدون داع. ولكن الرهبان العسكريين سامحوه واكتفوا بتوبيخه واستلهموا الغفران من الفصل الثالث من كتاب سفر صفنيا «في ذلك اليوم لا تحزن من كل أعمالك التي تعدّيت بها عليّ. لأني حينئذ أنزع من وسطك مبتهجي كبريائك ولن تعود بعدُ إلىٰ التكبر في جبل قدسي». [سفر صفنيا/ الإصحاح الثالث/ 11].

بعد يوم من وصول الجيش إلىٰ بيت نوبة، علم ريتشارد بأنّ الأتراك ينصبون الكمائن على بُعد عدة أميال غرباً عند ينبوع عماوس المقدس. في هذا المكان بالذات مشى المسيح بعد موته وقيامه بمعية تلميذين من تلامذته ولم يتعرفا عليه. حكي أن مياه عماوس مقدسة وتشفي العلل. لم يَسَع ريتشارد استيعاب فكرة إمكانية تدنيس الوثنيين لهذا المكان ولذلك أعد العدّة لطردهم.

قبيل بزوغ الفجر، هاجم العصابات المقاتلة على حين غرّة وقتل عشرين منهم. وكان في عديدهم رسول صلاح الدين الرسمي ولكنّ الصليبيين أحجموا

عن قتله إذ كانت قيمته حيّاً أكثر بكثير منه ميتاً. عزّزت هذه الرياضة معنويات ريتشارد ورجاله فاتجهوا نحو التلال الدائرية بحثاً عن المزيد من المشاكل. لم يعوا فعلاً مكان وجودهم فيما تحوّلوا نحو الشرق إلىٰ مكان يُعرف بالنبي صموئيل. التقوا عند وصولهم إلىٰ سلسلة جبال ضيقة ببعض العرب السيئي الحظ. ضرب ريتشارد أحدهم فطرحه عن صهوة حصانه أرضاً وفيما كان يسحب سيفه ذا القبضتين من صدر ضحيته، رفع نظره ورأى من بعيد... أورشليم!

منظر مفاجىء ومروّع. أثار الرعب في قلبه عوضاً عن السعادة. وجودها على مقربة منه، ثلاثة أميال وحسب، عذّبه عذاباً شديداً فقد كانت جميلة جداً وقريبة جداً وفي الوقت ذاته متملصة وربما صعبة المنال. بالكاد يستطيع تحمّل توقه إليها. مثل المدينة كمثل الشعلة المقدّسة وهو كمثل الفراشة الوضيعة التي سفعت النار جناحيها. وكأي جندي صليبي تائق، حجب عينيه وارتدّ عن الوهج كما لو أنّ النظر إلىٰ أورشليم دون السيطرة عليها يَسِمُه بالعار والمعصية. وقال: «أيها الرب الكريم، أتوسّل إليك. لا تجعلني أعاني من رؤية المدينة المقدّسة بما أنني عاجز عن تحريرها من أيدي أعدائك».

لاحقاً، عندما شاع قرار صلاح الدِّين بإخلاء المدينة المقدَّسة، كتب المؤرخون بحزن أنه لو كان ريتشارد مع جيشه في تلك اللحظة في المكان الذي يطلق عليه المسيحيون اسم مونجوا، لكان استولى على جائزته في اليوم نفسه. وهناك ببركة القديس جورج...

بعد مرور عشرة أيام، ظهر أمامه شخص سبّب له خيبة أمل قاسية. ففي يوم القديس ألبان St. Alban، أي في الثاني والعشرين من حزيران/ يونيو، قدم رئيس الدير البندكتي الشهير القريب من بلدة النبي صموئيل إلى معسكر ريتشارد. بدا هذا الرجل المهيب مخيفاً بلحيته الطويلة وشعره الملتهب بالشيب. فهو لم يعد يرتدي منذ أن احتل صلاح الدِّين القدس سوى الأسمال

البالية ولم يعد يأكل سوى الأعشاب والجذور المرّة. ولكن قيل إنه قادر على التنبؤ بالمستقبل. وها هو الآن يحمل أخباراً بأنه يعلم مكان الصليب المقدس. ففيما كان صلاح الدِّين يستولي على أورشليم منذ أربع سنوات خلت، عُهِدت إليه مهمة تخبئة بقايا الصليب المقدس، فأحكم الإغلاق عليه داخل جدران كنيسة. استناداً لرواية رئيس الدير، مارس صلاح الدِّين عليه ضغوطات شديدة لمعرفة مكان هذا الأثر المقدّس إلاَّ أنه كذب وأخبره بأنه ضاع أثناء احتلال المدينة. سرعان ما انطلق ريتشارد نحو المخبأ بمعية رئيس الدير وكتيبة كثيرة العدد. لم يجدوا الصليب العظيم عينه بل صليباً خشبياً صغيراً. صرّح رئيس الدير بأن الصليب الصغير مصنوع من الصليب العظيم.

ثم التفت رئيس الدير نحو ريتشارد وتنبأ بأن الملك لن ينجح في السيطرة على الأراضي المقدَّسة. ولإثبات صحة نبوءته، أعلن بأنه سيموت بعد سبعة أيام. ومع أنّ النبوءة ثبّطت من عزيمة ريتشارد، لكنه أعاد الأثر المقدس إلىٰ المعسكر وأقامه في وسطه حيث قدم الجنود إليه لتبجيله وتقبيله. وتوفي رئيس الدير بعد سبعة أيام فعلاً.

فيما كان ريتشارد منشغلاً مع رئيس الدير البندكتي، جاءه جاسوس عربي بإغراء أعظم. فقد عمل عدد من العرب في خدمة الملك إذ كان كريماً معهم ويدفع لهم قطعا فضية عندما يجلبون أخباراً هامة ـ وتوجب على الملك الحذرَ تُجاه أخبارهم كلما شعر بأن الحصول على القطع الفضية دافعهم الوحيد. أخبره هذا الجاسوس عن قافلة ضخمة قادمة من القاهرة تعجّ بالأحصنة والجمال وتحمل كنوزاً مصرية وتتجه جنوباً عبر الصحراء. في بادىء الأمر، ساورت ريتشارد الشكوك بشأن هذه المعلومات المفاجئة؛ ولذلك أمر بضعة رجال يثق بهم بالتنكر بثياب البدو والذهاب لتأكيد الخبر.

وما أن ثبت الخبر، حتى باتت الجائزة مغرية إلىٰ حد يحول دون رفضها. أصيب ريتشارد بفقدان مؤقت للذاكرة كما لو أنه نسي سبب وجوده في الأراضي

المقدّسة. أورشليم على مسافة قريبة، وأوشكت معدات الحصار على الوصول، ومع ذلك امتطى الملك حصانه المهيب وقاد قوة تعد سبعمائة خيّال، وألف جندي من المشاة، وألف من التركْبلي، وخرج في حملة صيد تجتاز ثلاثين ميلاً نحو الجنوب في الصحراء البعيدة. لم يفتقر يوماً للمتطوّعين طالما تعلّقت العملية بغنيمة بدلاً عن نعمة إلهية. حتى الفرنسيين وافقوا على المشاركة لقاء ثلث الغنيمة.

في غضون يوم واحد، وصلت القوة الغازية إلىٰ تل الصافية واكتشف ريتشارد وجودهم من أعالي التلال. بالطبع كان للمسلمين جواسيسهم أيضاً. وسرعان ما بُلّغ السلطان بتحركات العدو. سارع السلطان بإرسال رسالة عاجلة إلىٰ القافلة التي كانت تروي أحصنتها وجمالها العديدة عند آبار إبراهيم وإسحق السبعة في بئر السبع في الطرف الجنوبي من الأرض الموعودة. يجب على قادة القافلة تجنّب المواجهة مع الصليبيين الزاحفين بأي ثمن. وأفضل الطُّرق يكمن في الهرولة بالقافلة والتوغّل في المرتفعات الجبلية حتى يسدل الليل ستاره.

تجاهل قادة القافلة المتلبدو الفكر تعليمات السلطان؛ لأنهم كانوا يخشون أن تؤخرهم الطريق المؤدية إلىٰ قمة الجبل، وللارتباك الذي قد يحدثه السير ليلاً. ولم يحدّد كشافتهم بعد إن كان ريتشارد على مسافة قريبة منهم؛ لذلك فضلوا أن يندفعوا باتجاه القدس من أقصر طريق؛ لكنهم مكثوا في مكانهم لليلةٍ واحدة كانت أطول مما ينبغي بانتظار بزوغ الفجر كي يتمكّنوا من الارتحال في ضوء النهار. وهكذا استفاد الصليبيّون من قلّة كفاءة فريستهم. انقسمت القافلة، لأسباب مجهولة إلىٰ ثلاثة أقسام تحوّل قسم منها نحو الشرق على طريق الحج حول الطرف الجنوبي من البحر الميت باتجاه الكرك، فيما سلك قسم آخر الطريق الصحراوي متخطياً الخليل نحو بيت لحم.

وصلت قوة الغزو في ليلتها الثانية إلىٰ تل الحسْي عندما وصلت ريتشارد معلومات تفيد بأنّ القسم الثالث من القافلة يروي دوابه عند أسفل تلال الخليل

على مسافة أربعة عشر ميلاً نحو الجنوب في مكان تتوافر فيه المياه والمستنقعات. أُرسل عدة كشافة في لباس البدو للتأكد من صحة البلاغ (روى المؤرخون المسلمون لاحقاً أن ريتشارد شخصياً وضع لباس البدو وذهب لإلقاء نظرة على القافلة).

تحركت القوة الغازية بسرعة ولكن بهدوء تام في ضوء القمر. وهاجمت طريدتها المثقلة بالنفائس عند الفجر عندما كان أعضاء القافلة يحمّلون الجمال. أجفل الحراس وتراكضوا في شتى الاتجاهات كمثل الأرانب أمام كلب الصيد. وكعادته، توسّط ريتشارد ساحة المعركة. ولوصف سلوكه في ساحة الحرب، اقتبس مغنيه كلمات هوراس التالية: لقد كان «زهرة البطولات وتاج الشهامة وكسب الجائزة متفوقاً على الجميع». لوّح برمحه بعنف إلىٰ أن تحطّم في النهاية ولم يجد بداً من استخدام سهمه. فيما بعد، وصف مؤرخ مسلم فرار أفراد القافلة المذعورين بازدراء فقال(1): «فكان الشجاع الأيّد القوي الذي ركب فرسه، ونجا بنفسه».

كانت المجزرة فظيعة ولكنّ الغنيمة فاقت التصوّر، فقد حصل الصليبيّون على ثلاثة آلاف جمل وما يقارب هذا العدد من الأحصنة، ومئات البغال المحمّلة بالتوابل، والذهب والفضّة، والحرير، والملابس القرمزية والأرجوانية، والأسلحة، والخيم، والقمح والحبوب الأخرى، والأدوية والأموال، بالإضافة إلىٰ معدّاتٍ عسكرية. لم يستولِ الصليبيّون على مؤونة بهذا الثراء منذ أن سطا ريجينالد دو شاتيون على قافلة منذ ست سنوات خلت ففجّر الحملة الصليبية الثالثة. وبما أنّ البغّالين والجمّالين استسلموا على الفور، فقد أُكرهوا على العمل في خدمة الصليبيين كي يقودوا دوابهم إلىٰ شمال القدس.

---

(1) ابن شدّاد، ص 214.

وصل خبر الكارثة إلىٰ صلاح الدِّين في مساء اليوم ذاته. فحزن ولكنه استشاط غيظاً حيال القادة المصريين لتجاهلهم أوامره. تحوّلت الكارثة إلىٰ عار. وألقيت على عاتق السلطان مهمة عدم تحويل هذا العار إلىٰ هزيمة شاملة. لقد استقدم عدداً كبيراً من الجنود المصريين للدفاع عن أورشليم. وقد ازداد خط الدفاع ضعفاً بسبب تشرذم الجنود المصريين عند القافلة وباتت الطريق إلىٰ مصر سالكة مفتوحة أمام الصليبيين. ولقد بات من الممكن أن يعبر ريتشارد سيناء ويهاجم مصر طالما صار يمتلك هذا العدد الهائل من الجمال والجياد. لقد أصبح «الأنكتار»، كما كان لقب ريتشارد، من جديد، قائداً لقوّة الإسكندر الأكبر أو أغسطس قيصر.

ثارت ثائرة السلطان واتخذ إجراء يائساً أخيراً ليحرم العدو من القدس. فأمر بدسّ السم في الآبار، وتلويث الينابيع، وسحق الأحواض في محيط ميلين حول المدينة. لقد كان الماء سبباً لنصره المذهل في حطين منذ خمس سنوات خلت. فليعد التاريخ نفسه. إن تجرأ جنود ريتشارد وتوغلوا داخل هذه المنطقة المسمومة، فعليهم أن يحضروا مياههم معهم. وفي غضون أيام قليلة، طبّقت هذه السياسة في النَّجد الصخري المحيط بالمدينة على أكمل وجه.

توجّه ريتشارد بالغنائم نحو الشمال ونشوة النصر تغمره غافلاً عن الإجراءات الأخيرة التي طبّقها صلاح الدِّين. في الرملة، قدم الكونت هنري على رأس كتيبة من المتمارضين الذين وقفوا مبهورين أمام هذا العدد الهائل من الجمال والأحصنة. شرع ريتشارد التيّاه بتيه العَظَمة معتبراً نفسه الملك داود بتوزيع الدواب بسخاء على جنوده. ولم تقتصر هداياه على مقاتليه بل بلغت الفرنسيين الواصلين منذ أمد قريب. فقد انطوى قانون الملك داود في صحراء النقب على «أنّ نصيب من يرابط استعداداً للحرب مساوٍ لمن يشارك في المعركة». هذا هو قانون إسرائيل القديم. وربما استعان ريتشارد بكلمات داود حين قال: «احتفظوا بهدية لكم من غنائم أعداء الله!» ذُبحت بضعة جمال

وتحوّل لحمها إلىٰ شواء. ومهما كانت الظروف، ما فتىء اللحم الأبيض ذو الروائح الزكية يحظى بإعجاب الجنود.

لكنْ في غضون أيام من هذه المأدبة، اتخذ الفرح والرضى بالنفس منحى درامياً.

الفصل الثامن والعشرين

شجرة الخليل الجافة

في الرابع والعشرين من حزيران/ مايو، عاد الجيش الصليبي العظيم إلى موقعه الأمامي في بيت نوبة. وبدأ المعسكر على الفور يتساءل عن العملية القادمة. متى سيتحرَّكون مجدّداً؟ من سيحظى بامتياز الوقوف في الطليعة؟ أي قسم من السور سيباشر بتدميره؟ عَلَمُ من سيُرفع أولاً على الشرفات؟ ألا يجب تجنّب القلعة والاستيلاء على المرتفعات أولاً، في الجهة الشمالية من المدينة، في محيط بوابة دمشق؟ إنها دون شك أقلّ المناطق تحصيناً. هل يمكن أن تسفك دماء المسلمين مرةً ثانية في صحن الضريح المقدس؟ من سيتفوّق على أبطال الحرب الصليبية الأولى؟ من كان قائدهم غودفري أوف بويون مقارنةً بريتشارد الشجاع؟ ومن كان ريموند دو سان جيل على أي حال؟ بلغت همسات الاستفزاز مسامع قادتهم. فعقد مجلس القيادة الأعلى اجتماعاً لدراسة تحركهم المقبل.

ماذا حصل لريتشارد قلب الأسد فور عودته إلى بيت نوبة؟ ما من مؤرخ يستطيع أن يفيدنا بهذه المعلومات. توحدت قيادته. تاق الفرنسيون أخيراً للهجوم. جُمعت معدات الحصار وانتصبت. باتت أورشليم على مرمى حجر.

صلاح الدِّين يخلي المدينة. يشعر الفرنجة بالثقة في النفس والتفوّق. حتى الجمال عبّرت عن استعدادها بالخوار.

فجأة وبدون سابق إنذار، خالج قلب الأسد شعور التردد المخجل. وقف شاحب الوجه منفطر القلب يعرض أمام باروناته تقييماً كئيباً لوضعهم. يبدو أنه استنتج في يوم واحد أن احتلال أورشليم أمر ميئوس منه. لعل النبوءة الكئيبة التي تفوّه بها الأسقف قد أفقدته شجاعته ورباطة جأشه.

بدأ كلامه بالقول: «لن تروني أقود رجالاً إلاّ في درب أعتبره قويماً. ولا آبه لمن يلومني على عملي أينما ذهب جيشنا، فإنّ صلاح الدِّين على معرفة بمخططاتنا وبمسارنا وبعدد قواتنا. نحن بعيدون كل البعد عن الساحل. فإن دار حولنا ودخل بجيشه إلىٰ سهل الرملة وحال دون وصول التموين إلينا، ستجد القوّات المحَاصِرة نفسها في وضع حرج وستدفع الثمن غالياً وغالياً جداً. وبعد، إن محيط أورشليم طويل جداً وأسواره حصينةٌ ومنيعة. ولذلك يتطلّب خرق هذه الأسوار عدداً كبيراً من الجنود. فمن يحمي عندئذ خطوط التموين؟ لا أحد. ويمكن أن تتعرّض قوافل التموين للخراب الواحدة بعد الأخرى في حال عدم وجود حامٍ لها».

بالنسبة للفرسان أَو من دونهم رتبة، أَو حتى لأي شخص آخر شارك ريتشارد في آلام السنتين ونصف السنة المنصرمة وفي انتصاراتها وتضحياتها، فات أوان الكشف عن مهارة الأعداء أَو قوة دفاعات أورشليم الكئيبة. ألم يوشكوا على إحراز النصر؟ هل أمضوا السنتين الماضيتن هباء؟ هل ذهبت كل هذه الضحايا دون أي دافع؟ ساورت السامعين الشكوك والمخاوف، وتساءلوا: لماذا الآن؟ بعد كل هذه التضحيات التي قدّموا؟ استمع المجتمعون بصمت رهيب إلىٰ هذا الانهيار التام للإرادة والشجاعة. ربما لم يأبه ريتشارد لما كان يدور في خلدهم إذ تضمّن خطابه المزيد. فبعد الخجل استعان بعنصر الرأفة على الذات: «إن قدت الجيش لتطويق أورشليم بالأسلوب الذي تنصحون به

وهزمت في مسعاي هذا، سيلقى اللوم عليّ طوال حياتي، لا بل سيُلحق بي العار واللعنات. أعلم بالطبع أن البعض هنا وفي فرنسا يتوقون أن أرتكب خطأ مماثلاً كي يتسنّى لهم نشر الخبر وتشويه سمعتي. ولكن لبلوغ نتيجةٍ مشكوكٍ في تحقيقها، أعتقد أنه من الخطأ أن نتسرّع في التقدم. فنحن لا نعرف شيئاً عن الطرقات الضيقة والشعاب التي تفصلنا عن أورشليم. لو كانت معلوماتنا أوفر، لتمكنّا من التقدّم بأمان ولكن حالنا مغاير. يجب أن ننتظر ونحصل على نصيحة سكان هذه البلاد. ويجب أن ننتظر إلىٰ أن يصلنا خبر من فرسان الهيكل والإسبتاريين».

هذا الرجل الذي كان يوماً يخيف ولا يخاف، النبيل الفخور، حامل لقب قلب الأسد، الذي طالما ازدرى الضعيف، والمتردد.

«نعم، يجب أن ننتظر ونطلب نصيحةً من يعرفون طرقات هذه البلاد حق المعرفة. ينبغي أن نسألهم إن كانت محاصرة هذه المدينة خيراً من محاولة احتلال مصر أو بيروت أو دمشق. وما أن نطلب منهم المشورة، لن نبقى على هذا القدر من التفرقة. إن أصرّيتم على متابعة الزحف على أورشليم، فلن أخذلكم. سأكون رفيقاً لكم لا قائداً. سألحق بكم ولن أقودكم».

لحظة غريبة هي لحظة تخلّيه عن القيادة. أصبحت الإمرة والسلطة في يد مجلس مكوّن من عشرين عضواً. انسحب خمسة من فرسان الهيكل، وخمسة من الإسبتاريين، وخمسة من فرسان صليبيي سورية القُدامى، وخمسة من النبلاء الفرنسيين للتشاور والاتفاق على الاستراتيجية الواجب اتباعها دون مشاركة ريتشارد. وعادوا يوصون بالانسحاب من أورشليم والزحف على الفور لاحتلال مصر.

بدا الوضع كأن القيادة العليا تتأرجح مترددةً كالسمكة ترتطم على الأرض. وانقلب الحال بسرعة من التردد إلىٰ فكاهة ساخرة. وللمفارقة العظمى، تعالت أصوات الفرنسيين أنفسهم معارضةً قرار التخلي عن أورشليم

علماً أنهم اتسموا بالتردد والتباطؤ طوال العملية بأسرها. لم يفدوا إلىٰ فلسطين بغية احتلال مصر. إنهم حجّاج! لقد أقسموا على الصليب بتحرير قبر الربّ من أيدي الهمجيين! فما شأن القاهرة في كل هذا؟

تقدم أحدهم بشجاعة وقال: «لقد غادرنا بلادنا لأجل المدينة المقدّسة فقط ولن نتراجع حتى نحتلها!».

فأجابه ريتشارد: «لقد لوّثت كل الينابيع في محيط المدينة. ولا يمكننا أن نأخذ منها حتى ولا قطرة واحدة. فأين سنجد الماء؟».

ألم يواجه أبطال الحرب الصليبية الأولى مشكلة التلوّث ذاتها؟ ألم يأتوا بالماء من نهر الأردن؟

أجاب البارون الفرنسي مشيراً إلىٰ نبوءة عاموس في العهد القديم.

فسأل ريتشارد: «وكيف سنتمّكن من إرواء ظمئنا وظمأ دوابنا؟».

وجاءه الردّ من الفرنسي: «سنقسم الجيش إلىٰ قسمين. قسم يذهب إلىٰ نقاط الماء فيما يبقى القسم الثاني على مقربة من المدينة لمواصلة الحصار. نذهب إلىٰ نقاط الماء مرّة في اليوم».

«ما أن تدير كتيبة من الجيش ظهرها باتجاه نقاط الماء للارتواء وإرواء دوابها، ستنطلق قوة من المدينة وتهاجم الفرق الباقية وتقضي على المسيحية كلّها!».

كان ريتشارد يفقد احترامه وسيطرته على نفسه أمام ما أظهره له الفرنسي من ازدراء. عوضاً عن محاكاة غودفري دو بويون، بدا أشبه بيهوذا الإسخريوطي أو أسوأ بعد: أشبه بفيليب أغسطس! بدأ كلامه يرنّ كرنين العويل والنحيب. لعلّ المال يعيدهم إلىٰ رشدهم. فقال ريتشارد: «إن وافق الفرنسيون على خطتنا لاحتلال مصر، سأقدّم لهم أسطولي الموجود الآن في عكّا بكامل معداته. على متنه يستطيعون حمل مؤونتهم ويمكن للجيش أن يمشي بمحاذاة

الساحل بكل أمان. وأساهم، على نفقتي الخاصة، لتحقيق هذا المسعى بسبعمائة فارس وألفي جندي من المشاة. وإن ساورتكم الشكوك حيال التزامي، فإني أعدكم بالزحف بمعية جنودي وحدهم».

نزلت الصاعقة على الجنود ما أن وصل خبر الانسحاب إلىٰ مسامعهم. وشرعوا يتمرّغون في الغبار لمعاقبة أنفسهم مطلقين اللعنات على يوم انخراطهم في هذه العملية المنحوسة، وبعد ذلك، صبّوا غضبهم على ملكهم. يأسهم اليوم كان أعظم بكثيرٍ منه خلال الشتاء المنصرم. عندما أُخليت بيت نوبة للمرة الأولى على الأقل، كانت الأمطار والوحول هي التي حالت دون حصول هجوم. ولكن ماذا عن اليوم؟! انفجرت النزاعات بين مختلف الفئات.

الفرنسيون صبّوا اللوم على ريتشارد شخصياً. وبدأوا ينفصلون على المكشوف عن باقي فئات الجيش. بالغ هيوج Hugh، دوق أوف بُرغُندي، في الجسارة فألّف أغنية مقفّاة ماكرة تسخر من ريتشارد ولا تكتفي بالشك في براعته القيادية بل أيضاً في رجولته. لم يمرّ وقتٌ طويلٌ حتى ردد الجنود هذه الأغنية وأضافوا إليها الزعيق والنخير إلىٰ أن بلغت مسامع ريتشارد في الوقت المناسب. لم يشعر بالسرور وانتقم لنفسه بتأليف أغنيته الخاصة بدوق أوف برغندي. ونقلاً عن تقارير الحملة الصليبية، لم يكن يفتقر لمواضيع مثيرة للسخرية والتهكم.

دخلت الحملة الصليبية الثالثة طور تبادل الاتهامات.

لم يكن الشاعر الغنائي يكترث لمن يستحق اللوم. شغله الشاغل انصب على شجرة السنديان العتيقة في الخليل. كانت تُعرف باسم شجرة إبراهيم فقد كانت قديمةً بقدم العالم، وجافّةً تقريباً. كان المسيحيون في الأراضي المقدّسة يعتقدون أنّ هذه الشجرة ذبُلَت يوم صُلِب المسيح. على مرّ القرون، لم يبق من جذع الشجرة إلاّ ما يكفي من الحياة لتبقى قائمة؛ وقد تنبأ المسيحيون،

مدفوعين بحماسهم، أنّ شجرة إبراهيم ستعود للحياة مرة أخرى عندما تقع الأراضي المقدَّسة تحت سيطرة أمير مسيحي.

في السادس من تموز/يوليو، بعد خمس سنوات بالضبط من كارثة معركة حطين، باشرت القوات الصليبية انسحابها للمرة الثانية من بيت نوبة.

وفيما كان الانسحاب جارياً، كان الشاعر يحسُّ أنَّ آخِر نسْغٍ من الحيوية يغادر شجرةَ الخليل الجافة.

الفصل التاسع والعشرون

الكبش يتأخر لينطح

في الخطاب الذي ألقاه ريتشارد على مسامع باروناته وسلّم بإخفاق حملته الصليبية، تمحورت شكواه في أن صلاح الدِّين يبلّغ بكل تحركات الصليبيين حتى قبل أن يقوموا بها. وبالفعل كان لصلاح الدِّين جاسوس يعمل لحسابه ويتبوأ مركزاً عالياً في صفوف أعدائه. ففي غضون يوم من اتخاذ الصليبيين لقرار الانسحاب من بيت نوبة، لم يكن صلاح الدِّين على علم بماهية القرار وحسب بل بكيفية اتخاذه وبهويات من كان يدافع عن هذا الموقف أو ذاك. ففي رسالةٍ تبلغه بالنزاع القائم بين الملك والفرنسيين، نُقِل الحوار بين الطرفين حرفياً.

انتشر خبر الانسحاب بسرعة البرق في صفوف المسلمين، وراقبت العناصر الأمامية موكب الفرسان الكئيب يتحرك نزولاً على طريق الرملة، فبلغت نشوة الفرح أوجها. امتطى صلاح الدِّين شخصياً حصانه وذهب ليرى الموكب بأم عينه. إلاّ أنه لم يكن بمقدوره أن يترك العنان لعواطفه فقد كان يخشى احتلال مصر بقدر ما كان يخاف من حصار القدس.

بعد فترة قصيرة، أرسل بطلب السفير الذي يمثّل هنري أوف شامباني. عندما وقف المبعوث في حضرة السلطان، تصرّف بوقاحة واندفاع لا يليقان

بمن تنسلّ قواته للخروج من الصراع. حمل المبعوث رسالةً من هنري يقول فيها: «إنّ الأنكتار قد أعطاني البلاد الساحلية، وهي الآن لي. فأعد عليّ بلادي حتى أصالحك، وأكون أحد أولادك»(1).

استشاط السلطان غيظاً عند سماعه هذا الكلام الوقح وأمر السفير بالغروب عن وجهه. ولكن المبعوث أبى أن يتوقف فواصل كلامه متلعثماً: «إنّ الكونت متشوّق لمعرفة كم ستعطيه من الأراضي الواقعة حالياً تحت سيطرتكم؟» وبّخه صلاح الدِّين مرة أخرى على قلة تهذيبه. ليس على المنتصر توزيع الغنائم. ولكنّ صلاح الدِّين استدعى السفير ثانيةً في اليوم التالي بعد أن هدأ روعه. وقال له:

«يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ما كان مع المركيس»(2).

بعد مضيّ عدة أيام وفي حين كان الصليبيّون في طريقهم من الرملة إلى يافا، قدم سفير صلاح الدِّين، الحاج يوسف صاحب المشطوب، من بلاط ريتشارد. أثناء الانسحاب، استدعى الملك المبعوث وأمره بحمل مبادرة سلام جديدة لصلاح الدِّين. وصل المشطوب برفقة ضابطين من جيش ريتشارد للتأكد ظاهرياً من تسليم الرسالة بحذافيرها. ورد في الرسالة الملكية ما يلي:

«تقول لصاحبك بأن قد هلكنا نحن وأنتم، والأصلح حقن الدماء، ولا ينبغي أن تعتقد أنّ ذلك عن ضعف مني، بل للمصلحة ويكون هو الواسطة بيننا وبين السلطان، ولا تغتر بتأخري عن منزلي، فالكبش يتأخر لينطح»(3).

استمتع صلاح الدِّين بهذا الكلام المنمّق الشجاع. فقد كان يعلم علم اليقين، من خلال عيونه، أنّ الخلاف في صفوف الصليبيين يضعف كبش

(1) ابن شدّاد، ص 218.
(2) ابن شدّاد، ص 218.
(3) ابن شدّاد، ص 218.

ريتشارد يوماً بعد يوم، وبالتالي فلن يتمكّن من النطح عمّا قريب. وصل ريتشارد، بعد ثلاثة أيام، إلىٰ عكّا وأرسل مبعوثاً آخر إلىٰ صلاح الدِّين:

«إني راغبٌ في مودتك وصداقتك، وإنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض، ولا يظن ذلك فيك. ولا يجوز لك أن تُهلك المسلمين كلهم، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلّهم. وهذا ابن أُختي الكندهري قد ملكتُهُ هذه الديار، وسلمتُهُ إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم إِلىٰ الشرق سمعوا وأطعوا».

«إنّ جماعةً من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلْتَ عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسةً، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلتُ بتركها، وأعرضْتُ عنها. ولو أعطيتني مقرعة أَو قربة قبلتُها وقبّلتُها»[1].

يبدو أن هذا الالتماس المتواضع المطالب بكنيسة متواضعة في وسط القدس قد فعل فعله في تليين قلب صلاح الدِّين. لقد باتت الكرة في ملعب صلاح الدِّين خلافاً لما حصل خلال التداول الدبلوماسي في نوفمبر (تشرين الثاني) السابق حين طالب ريتشارد بكل صفاقة بكل الأراضي وصولاً إلىٰ نهر الأردن. إنه الآن يتفاوض من مركز قوة وبإمكانه أن يكون كريماً. كما أنه حان الوقت لتطبيق روح القرآن الذي يأمر المؤمنين بتقبّل الجهود الصادقة التي يبذلها العدو سعياً للسلام. فقد ورد في الآية 61 من سورة الأنفال: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الأنفال: 61].

أرسل صلاح الدِّين الردّ إلىٰ ريتشارد في الحادي عشر من يوليو (تموز): «ابن أختك يكون عنده كبعض أولاده.. وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي

(1) ابن شدّاد، ص 219.

القيامة. وبقية البلاد نقسمها، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا. وما بين العملين تكون مناصفة. وعسقلان وما وراءها تكون خراباً لا لنا ولا لكم. وإن أردتم قُراها تكون لكم. .»[1].

انطلاقاً من ردّ ريتشارد على هذه الرسالة، ظهر بأنّ الطرفين على طريق التوصل لاتفاق ما. وصل ردّ الملك إلىٰ صلاح الدِّين مرفقاً بهدية كانت عبارة عن صقرين رائعين من أفضل أنواع الصقور. وعبّر ريتشارد في ردّه عن امتنانه للعروض التي قدّمها صلاح الدِّين ولكنه يرغب في الحصول على حق إقامة عشرين من الإسبتاريين الشجعان في قلعة أورشليم. في الثالث عشر من يوليو (تموز)، جاء ردّ صلاح الدِّين فظاً: «إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة. وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بد من خرابه»[2].

لقد اصطدما بعائق، واسمه عسقلان. كان من المستحيل أن يبقي صلاح الدِّين هذه القلعة في أيدي المسيحيين. فقد ينتج عن ذلك اضطراب التنسيق بين نصفي إمبراطوريته. تمحورت السنون الثمانون الأخيرة من تاريخ العرب، بما فيها السنون العشرون الأخيرة من حكم صلاح الدِّين، على مواصلة الضغط لإعادة توحيد مصر وسورية. صلاح الدِّين هو من أنجز هذا الاتحاد. وهو إنجاز أضفى عليه مجداً وشرفاً. ومن خلال هذا الإنجاز وحسب، تقلصتْ رقعةُ مملكة الصليبيين وتعرّضت للخطر. كانت عسقلان تمثّل نقطة التحام الوحدة العربية[3]؛ ووجودُها بين أيدي الصليبيين يقوّض هذا الالتحام المهم الذي تحقق بعسر شديد.

أما النسبة لريتشارد، فقد أدّت إعادة بناء عسقلان عقب الانسحاب الأوّل

(1) ابن شدّاد، ص 219 – 220.
(2) ابن شدّاد، ص 220.
(3) ذكرتُ فيما سبق أنّ العروبة والإسلام تعنيان للمؤلف شيئاً واحداً (المترجم).

من بيت نوبة إلىٰ رفع معنويات رجاله اليائسين. طوال ستة أشهر، بذل جنوده أقصى جهدهم لإعادة بناء القلعة فارتفعت أبراجها من جديد فوق البحر. إنّ وجود عسقلان والداروم في أيدي الصليبيين، بوصفها المواقع الأمامية المتوجهة نحو مصر، يضمن توازن القوى بين الجانبين ويوفّر لمملكة أورشليم فرصةً مناسبةً للبقاء.

في السادس عشر من تموز/ يوليو، أجاب ريتشارد إجابةً مُبهمةً كما لو أنه لم يفهم المقصود. «بما أن المسيحيين اكتفوا بكنيسة واحدة فقط في المدينة المقدّسة، فإن مطالبتهم بثلاث قلاع ليست بالكثير. فليحتفظوا إذن بما يسيطرون عليه من الداروم حتى أنطاكية»[1].

ومجدداً، جاء ردّ صلاح الدِّين جافاً ومقتضباً: «إنّ أهل أنطاكية لنا معهم حديث، ورسلنا عندهم فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا. وأما البلاد التي يسألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه.. وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابله ما خسر عليه اللّد في الوطاة»[2] (وتوجد في اللد الواقعة جنوب شرق الرملة كاتدرائية القديس جورج التي هدمها صلاح الدِّين، ويمكن لريتشارد أن يعيد بناءها معقلاً استراتيجياً).

وفي العشرين من يوليو (تموز)، أجاب ريتشارد بدوره إجابةً جافةً مقتضبة: «لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً».

وفور ورود هذه الإهانة، أعد صلاح الدِّين العدّة لإعادة إشعال نار الحرب.

---

(1) ابن شدّاد، ص 221.

(2) ابن شدّاد، ص 221.

II
يـافـا

بات مفتاح الصراع الآن في يد المسلمين. واحتلّ صلاح الدِّين مركز قوة هائلة وغير متوقعة بفضل تقدمه وتصميمه وجواسيسه. اتّسم انسحاب الصليبيين بالبلبلة والتفرقة إذ كان كلٌّ من الفرنسيون وريتشارد ينتحي منحى مختلفاً. لقد فقد الكبش قرنيه وقوته على النطح. وبلّغ الجواسيس صلاح الدِّين أنّ المرضى والمرهقين هم من توقف في يافا بينما واصل القسم الأعظم من جيش ريتشارد المسير وراء الملك إلىٰ عكّا. الخبر الأهم جاء في تقرير أرسل من عكّا يشير إلىٰ أن ريتشارد قد ترك العنان لتهوّره واندفاعه ووجّه باخرة محمّلة بالبحارة نحو الشمال استعداداً لغزو بيروت. وبالتالي أصبح الملك على مسافة أربعة أيام من أزمةٍ تحصل في الجنوب.

فُتحت الطريق واسعة إذن لأي هجوم يُقْدم عليه صلاح الدِّين. وبحلول أواخر تموز/ يوليو، وصلت كتائبه الرئيسة وقادته الأبرز من مختلف أنحاء الإمبراطورية بهدف الدفاع عن القدس ظاهرياً. وبالطبع، سرى دم يافع مندفع في شرايين الجيش بانخراط مجندين جدد فور ورود أنباء عن انسحاب الصليبيين من المدينة المقدّسة، كما لو أنّ الجيش المسلم يجدّد الزحف لتسديد ضربته الأخيرة. أصبحت قوات صلاح الدِّين الآن في كامل قوتها لا بل أكثر.

في السادس والعشرين من تموز/ يوليو، وصلت كتائبه أمام أسوار يافا. اعتقد صلاح الدِّين أنّ السيطرة على المدينة أمر سهل فحاميتها عبارة عن قوة رمزية من خمسة آلاف رجل يفترض أنهم من المرضى والمرهقين. سلّم صلاح الدِّين قيادة الميسرة لشقيقه الملك العادل وقيادة الميمنة لولده الملك الظاهر بحيث طوّق الهجوم المدينة بأسرها وتوقع صلاح الدِّين سقوط المدينة بين يديه في غضون يوم واحد.

واشتدت دهشة عندما أبدت حامية المدينة مقاومةً فائقة القوة. أُحْضرت معدّات الحصار أي منجنيقان وأربع عرّادات إلىٰ مواقع أمامية، فيما أُرسل الحمّالون إلىٰ التلال للبحث عن جلاميد تحشى بها. تصدّع الجدار الخارجي بعد ثلاثة أيام من الجهد الذي شارك في بذله عمّال المناجم والمنجنيقيون. لكن عندما سقط جزء من السور، أضرم الصليبيّون مِشْعلةً هائلةً خلفه فتعالى حجابٌ من النار منع المسلمين من اختراق السور.

ألبيري أوف ريمز Alberi of Rheims هو اسم البارون الذي قاد الدفاع. لم يتصرّف البارون في البداية تصرفاً يليق بأرفع مناصب الفرسان النبلاء. إذ سارع فور سقوط السور للفرار من خطر الموت على متن زورق صغير. لكن زملاءه قطعوا الطريق عليه وأعادوا القائد السابق مكبَّلاً بالحديد لتخلّيه عن القضية. وفيما كان تحت المراقبة في أحد الأبراج، أنعم النظر إلىٰ المسلمين يضربون الدفاعات، فَعَلا صوت البارون الفرنسي وقال كمن يقف على خشبة المسرح: «إن علينا أن نكرّس أرواحنا في خدمة الله». فيما بعد، دوّن أحد المؤرخين هذا التعبير وألحقه بانتقاد ساخر: «لم يكن ثمة عملٌ آخر ليقوم به»!

أصبح الوقت الآن هو العامل الأهم. كالعادة، تخلّى ريتشارد عن زحفه المتهوّر نحو الشمال لغزو بيروت وسارع في اتجاه الجنوب لنجدة رجاله، وبلغ الخبر صلاح الدِّين على الفور. استحثّ السلطان جهود رجاله الأكراد عند المتاريس بتعابير واضحة: من الضروري احتلال المدينة قبل وصول الملك ريك! ولكنّ أمارات التعب والإرهاق بانت على وجوههم وما عادوا قادرين على الاستمرار في بذل مزيدٍ من الجهود البطولية.

في هذه الأثناء، حاول رجال الحامية كسب بعض الوقت. استلم زمام القيادة البطريرك المنتخب منذ فترة غير بعيدة، وهو الأسقف السابق لبيت لحم. أثبت الكاهن أنه رجل لا يقهره الخوف من الموت ولا يمكن لأي خطر أن يدبّ الرعب فيه. كما أنه كان ذكياً. أرسل مبعوثيه عبر الخطوط الفاصلة ليعرضوا

بكل تواضع على صلاح الدِّين تسليمه المدينة شريطة حصول تبادل للأسرى وإمكانية العودة إلىٰ معادلة دفع فدية للبقاء على قيد الحياة التي اعتمدت في أورشليم منذ أربع سنوات خلت، أي مبلغ عشر قطع ذهبية بيزنطية لكل رجل، وخمس لكل امرأة، وثلاثة لكل ولد. وتوالت الشروط.

رفض صلاح الدِّين هذا العرض المشروط حالاً ثم ندم فيما بعد على تسرّعه. ولم يؤد تحرك المبعوثين ذهاباً وإياباً محمّلين بأمل التوصل إلىٰ اتفاقية سلام وشيكة أَو الاستسلام إلىٰ تضييع وقت ثمين وتطويل الحصار، وحسب الحصار بل أسهم أكثر في إضعاف عزيمة الجنود المسلمين. وضرب الوهن المتزايد حصارهم.

ومع ذلك، وبعد مرور خمسة أيام على بدء الحصار، سقطت البوابة الشرقية المقابلة للقدس ركاماً. وتواجه الطرفان في فتحات مختلفة من السور. وتواصل تراجع رجال الحامية نحو القلعة القائمة على تلة في وسط المدينة. وللمرة الثانية، قدّم البطريرك عرضاً بشروط جديدة أكثر تساهلاً فاقترح أن يقدّم ضمانات هي عبارة عن رهائن مهمة كجزء من اتفاقية السلام. سارع صلاح الدِّين هذه المرة للقبول. وخرجت الرهائن بقيادة ألبيري أوف ريمز البائس.

انسحب رجال الحامية إلىٰ داخل القلعة أملاً في الصمود حتى وصول ريتشارد مستعدين في الوقت ذاته للشهادة. في هذه الأثناء، دخل الجنود المسلمون المدينة وأطلقوا العنان لأنفسهم في النهب والسلب. لم يستطع صلاح الدِّين كبحهم فقد كان جنوده يعانون من الكبت لفترة طويلة؛ فهم لم يستولوا منذ زمنٍ على مدينةٍ مسيحية. ووقف عند بوّابات المدينة أقوى جنوده الأكراد الذين كانوا يجردون الجنود من الغنائم عند خروجهم بها؛ مستأثرين بها لأنفسهم!

عند بزوغ فجر اليوم السادس من الحصار، في يوم يحتفل فيه بعيد

القديس بطرس المكبّل، ظهر في الأفق أسطول مؤلّف من خمس وثلاثين سفينة. اعتلى ريتشارد قيدوم باخرته الملكية «ترانشمير» المطلية باللون الأحمر رافعةً شراعاً أحمر وراية ملكية ضخمة رُسِم عليها ثلاثة أسود على أرضيةٍ حمراء. زوّدت المراكب بأشجع الإسبتاريين وفرسان الهيكل بالإضافة إلىٰ أهالي بيزا وجنوى «الذين أنجزوا أعمالاً رائعة عندما طُلِب منهم».

تأخر الملك يومين. فقد حالت الرياح العاتية دون تقدّم الأسطول عند حيفا. وعندما أحس الملك بالارتباك والكبت لغياب رياح مؤاتية، رفع رأسه إلىٰ السماء وصرخ: «الرحمة يا إلهي! لماذا تعيق مسيري وتؤخرني مع أنني أسارع لتلبية طلبك؟» إن كان هذا مخطّط الربّ الذي يتعذر فهمه، فلا شك أنه يصعّب الأمور. وفيما كان أسطول ريتشارد ينطلق من عكّا، تحرّكت كتيبة أخرى من الإسبتاريين وفرسان الهيكل برّاً. ولكن مجموعة مشتركة من جنود صلاح الدِّين والحشاشين قطعت عليهم الطريق بين قيسارية وأرسوف، وثبّتتهم في مواقعهم.

في صباح ذلك السبت، كانت فدية المسيحيين في طريقها إلىٰ المسلمين. فقد سدّد حوالي خمسين فارساً القطع الذهبية البيزنطية العشر المفروضة عليهم وأخلي سبيلهم. ولكن عندما بلغ صوت الأبواق برج القلعة، سارع رجال حاميتها إلىٰ الأسوار ليروا الشراع الملكي الأحمر عن بعد، فصرخوا مردّدين قول إشعيّا: «يجأرون بالضراعة إلىٰ الله من ظلم الطُّغاة. ويرسل الله إليهم مخلِّصاً، مخلِّصاً كبيراً. وهو يخلِّصهم».

توقفت فجأة عملية الاستسلام، وأُحْكِم إغلاق الباب من جديد، وطوّق رجال الحامية الباقون أنفسهم بدروعهم وانسحبوا إلىٰ داخل برج القلعة.

وفيما بلغت أصوات البوق نفسها فسطاط صلاح الدِّين، كان يخوض مع البطريرك المسيحي مفاوضات صباحية باكرة حول التفاصيل الأخيرة

للاستسلام. أُخرج البطريرك على عجل واستلم صلاح الدِّين زمام الوضع العسكري. أمر بزرع الساحل المقابل للمدينة بحشد من الجنود المسلمين معتقداً بأنّ خمسةً وثلاثين مركباً قوة بسيطة. ألقيت على كاهلهم مهمَّة منع الصليبيين من إرساء مراكبهم. شكّل الجنود المحتشدون على الساحل انطلاقاً من المراكب المسيحية عائقاً مخيفاً. لقد كان الجنود المدافعون محشورين كقضبان القش دون ترك مجال للحركة. خاض الرّماة في المياه وأطلقوا سهامهم الكثيفة بحيث حجبت السماء. خلفهم حاول الخيّالة كبح لجام خيولهم المندفعة. أصدر جنود الدفاع جَلبة بغرض تخويف العدو وأطلقوا صيحات الحرب وتعابير التهليل والتكبير تمجيداً لله الواحد الأحد، وتلمّظوا كأنما هم مُقْدِمون على وليمة. لم يكن ريتشارد واثقاً بأنّ القلعة لا تزال تحت سيطرة المسيحيين إذ كانت الرايات الإسلامية تخفق على السور. وما دام الوضع على هذه الحال من السوء، فلا سبب طارئاً يدعو لشن هجوم مباشر. ونشب خلاف حاد بين أعضاء مجلسه حول الخطوة القادمة.

وفجأةً، في خضم هذا التردّد، سقط شخصٌ بعيدٌ من أعالي البرج الشاهقة إلىٰ الساحل كما لو أنه يودع روحه؛ ثم غاص في الماء وسبح بحماس حتى وصل الباخرة الملكية. وتبيّن عندما سُحِب من الماء إلىٰ متن السفينة بأن الرسول هو في الحقيقة قسّ.

شرع القسّ يتكلم بدون تفكير: «أيها الملك العظيم، إن ما تبقى من شعبك ينتظر قدومك».

«أيها الصديق الطيب، ماذا تقول؟ ألا يزال البعض على قيد الحياة؟».

وفقاً لما يقال في المزمور: «لأجلك نُقتل طوال النهار. مثلنا كمثل الخرفان المساقة للذبح... إلاّ إذا ساقتك نعمة الله لنجدتنا».

«ألا يزال البعض على قيد الحياة؟».

«أجل، ولكنّهم مطوّقون وفي الطرف الأخير في مقابل البرج البعيد».

فصرخ الملك قائلاً: «أتوسل إليك يا إلهي، بهداك وصلنا وسنموت وإخوتنا الشجعان والسلاح في أيدينا ولتنزل اللعنة على كل من يتردّد». وما أن انتهى من كلامه، حتى تحرّكت المراكب باتجاه الساحل المزدحم بالحشود.

الملك كان أوّل من وثب إلىٰ الماء. كان قد نزع الدرع عن ساقه ووسطه ووصل علو الماء في البداية إلىٰ صدره وتقدّم في الماء بصعوبة حاملاً قوسه ونشابه في يد وسيفه في اليد الأخرى. اندفع رجاله بحماس وراءه يشعرون شعور من مسَّ الله قلبه. لقد كان منظر هذا الرجل العملاق، هذا الرياضيّ المميّز مرعباً وهو يتقدم عكس التيار البشري إلىٰ حد جعل المسلمين يتراجعون تلقائياً خوفاً ورهبة. وبدأ الحصاد. لم يمرّ وقت طويل حتى تمكّنوا من إقامة رأس جسر ساحلي. نُقلت ألواح خشبية وبراميل إلىٰ الشاطىء لتشكيل متراس. وانتظم الرّماة خلفه في صفٍ صلب ومستقيم.

وجد ريتشارد طريقاً مؤديةً إلىٰ سلّم لولبي قاده من الشاطىء إلىٰ مقر فرسان الهيكل، وسرعان ما أصبح في شوارع يافا بصحبة عصابة من الرهبان العسكريين المتعطشين لسفك الدماء. وعندما سنحت لهم الفرصة رفعوا راية الملك على السور بحيث بات من الممكن رؤيتها من البرج المطوّق البعيد.

لم يصدّق صلاح الدّين ما وصلت إليه فرقه من عجز وجبن ما أن سمع أخباراً عن سرعة تقدم الصليبيين، وإقامتهم للجسر الساحلي، والخوف الذي اجتاح جنوده الذين أصابهم الخَوَرُ في مواجهة العدو، ووجود الملك ريك في شوارع يافا وبأنّه يشق طريقه نحو البرج لتحريره في حين أنّ المدافعين عن البرج قد خرجوا للالتحاق بملكهم.

فقال لاهثاً: «كيف حصل ذلك؟ بأي ترتيب متفوّق استطاعوا تحقيق هذه الإنجازات؟ إن مجانيق جيشنا وخيّالته تفوقهم قوّةً إلىٰ حد بعيد». لقد بدأ

ريتشارد يومه بثلاثة أحصنة. أما الآن فقد أصبحت قوة الصليبيين تعدّ اثني عشر حصاناً، والقوى الإسلامية بأسرها تفرّ أمامها إما على الأقدام أو على صهوات الجياد.

شعر الأمراء بالخجل.

وتعجَّلَ أحد المستشارين في كلامه وهو يقول: «مولاي، ليس الأمر كما تعتقد. أنا لا زلت واثقاً بأنّ أخذ هذا الملك الرائع على حين غرّة أمر سهل إذ إنه يجلس لوحده تقريباً في خيمته وهو مرهق تماماً». وهكذا انعقدت آمالهم على هذا الحل: القضاء على الملك شخصياً. ابتعد صلاح الدِّين عنهم وأمارات الاشمئزاز تعلو وجهه.

III

حصانان عربيان

بعد مرور ثلاثة أيام على إعادة احتلال يافا، عسكر ريتشارد خارج المدينة على الهضبة التي حاول منها صلاح الدِّين الدفاع عن المدينة وركّز جهوده على إعادة بناء أسوار المدينة المهدّمة. ولكنه كان بالفعل منهكاً خائر القوى بعد ما بذله في المعركة فتدثّر وتمدّد على أريكته أملاً في الحصول على قسط من الراحة.

خلال فترة الفراغ هذه، تبادل ريتشارد وصلاح الدِّين عدداً من المراسلات. ومن كثرة ما تنقّل مبعوثوهم بين المقرّين، وتزايدت الاتصالات بات الوضع كأن القائدين العظيمين يتناقشان وجهاً لوجه. في الاتصال الأوّل، وخلال المجاملات البدائية مع سفير صلاح الدِّين، وبّخ ريتشارد منافسه العظيم توبيخاً ساخراً. قال: «إن سلطانكم عظيم. ولا يوجد أعظم منه في أرض

الإسلام هذه. أيها الإله العظيم الرحيم! كان يجب أن أتيقن أنه لا يستطيع أن يحتل يافا في شهرين ومع ذلك سيطر عليها في يومين! فلماذا إذن فرّ ما أن وقع بصره عليّ؟ والله! ما لبستُ لأمة حربي، ولا تأهبتُ لأمر، وليس في رجلي إلاّ زربول البحر، فلماذا هرب؟»[1].

لم يرد أي جواب بالطبع على هذا السؤال المهين. يبدو أنّ الملك كان مستمتعاً ولذلك تابع كلامه بغبطة:

«تسلّم على السلطان وتقول له: بالله عليك أجب سؤالي في الصلح، فهذا أمرٌ لا بد له من آخِر»[2].

اتخذت المفاوضات أكثر فأكثر منحى المزاح وليس منحى تبادل الأفكار حول الحلّ.

كتب إليه صلاح الدِّين: «لقد بدأت بالمطالبة باتفاقية سلام بشروط معينة. وفي تلك الفترة، شكّلت مسألة يافا وعسقلان نقطة الخلاف الرئيسية. إن يافا الآن مهدّمة. يمكنك الحصول على الأراضي الممتدة من صور إلىٰ قيسارية»[3].

فأجابه ريتشارد: «لقد سرت العادة عند الفرنجة أنه إذا أعطى واحدٌ لواحدٍ بلداً صار تبعه وغلامه. ولذلك إن أعطيتني مدينتي عسقلان ويافا فإن الكتائب التي أتركها فيهما ستكون دائماً في خدمتك. وإن احتجت يوماً لي، سأسارع إليك وأكون في خدمتك وأنت تعلم تماماً أنني أستطيع أن أقدم لك خدمات هامة»[4].

ردّ صلاح الدِّين على الطرافة التي اكتنفت هذه الرسالة بفكاهة مماثلة:

(1) ابن شدّاد، ص 228.
(2) ابن شدّاد، ص 228.
(3) ابن شدّاد، ص 228.
(4) ابن شدّاد، ص 228.

«بما أنّك تضع فيّ هذا القدر من الثقة، فإني أقترح تقسيم المدينتين. فتحصل على يافا وما وراءها وأحصل على عسقلان وما وراءها».

شكر ريتشارد صلاح الدِّين على حقه بالحصول على يافا ولكنه ظلّ يصرّ على الضمانات ذاتها بالنسبة لعسقلان. ووعد ريتشارد بالرحيل إلىٰ أوروبا في حال التوصّل إلىٰ اتفاقية سلام خلال الأيام الستة التالية.

حان الوقت كي يسخر صلاح الدِّين من ريتشارد. ولكنّ هذه السخرية اتخذت نبرة والد يتحدّى ولده. جاء في ردّ السلطان ما يلي: «أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه. وأما تشتيتُه في هذه البلاد فلا بد منها، لأنه قد استولى على هذه البلاد، ويعلم أنه متى غاب عنها أُخذت بالضرورة، وإذا أقام أيضاً، إن شاء الله»[1].

«وإذا سهُل عليه أن يشتّي ها هنا، ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان الشباب... أفلا يسهل علي أن أشتي وأصيف وأنا في وسط بلادي، وعندي أهلي وأولادي. ويأتي إليّ ما أريده ومن أريده[2].

..وأنا رجلٌ شيخٌ قد كرهتُ لذات الدنيا، وتعبتُ منها، ورفضتُها عني. «والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي عندي في الصيف، وأنا أعتقد أنني في أعظم العبادات. ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء»[3].

وفيما كانت المحادثات جارية، كان صلاح الدِّين يتحرّك. في جنوب شرق يافا، أصدر أوامره بتدمير قاعدة أمامية صليبية أخرى باسم بيت جان قبل أن يتحرك جيشه نحو الرملة للتفكير بتحركه القادم. أبلغه كشافته بأنّ قوة إنقاذ

(1) ابن شدّاد، ص 228.

(2) ابن شدّاد، ص 228.

(3) ابن شدّاد، ص 228.

جديدة في طريقها من عكّا «النجدة» قوة ريتشارد القليلة العدد في يافا. صمّم صلاح الدِّين على منع وصول القوة المعزّزة هذه بأي ثمن.

قال: «من الأفضل أن نهجم الآن على انتظار انضمام قوات جيش العدو والتوغل بعدها في الجبال كالمهزومين. نستطيع الآن أن نكون المتعقبين».

كلما تقدم الوقت، زادت معقولية خطة الأمراء بشنّ هجوم مفاجىء على ريتشارد أملاً في القبض عليه. لذلك ترك السلطان متاعه الثقيل الوزن في الرملة وسار في جنح الظلام. وصل عند الصباح إلىٰ حوالي عشرين خيمة بما فيها الفسطاط الملكي ووجد أصحابها مستغرقين في سبات هادىء في سهل خارج يافا.

تقدّمت القوات المسلمة بسكون وباتت عند الفجر على مقربة من فسطاط ريتشارد. وعندئذٍ شب نزاع بين قائدين مسلمين حول من سيحاول القبض على الملك كأنما هم في تمثيليةٍ لألفونس وغاستون، تتعلّق بالنزاع في لعبةٍ ما. قال الأوّل بشيء من الكبر: «امشِ على قدميك لمفاجأة الملك ومرافقيه فيما نبقى نحن على صهوة أحصنتنا للحؤول دون هربهم ولجوئهم إلىٰ القلعة».

فأجابه الثاني: «كلا، إنّه لمن واجبك أنت أن تذهب سيراً على الأقدام إذ إن رتبتي تفوق رتبتك. إننا راضون بالخدمة الواجبة علينا وتنفيذ هذه المهمة سيراً على الأقدام منوطٌ بك لا بنا».

لم يكن أي منهما متلهفاً للذهاب إلىٰ الخيمة وقطع السبات الهادىء الذي ينعم به أعظم المحاربين، وسفّاك دماء العرب والمسلمين على وجه المعمورة. ارتفعت أصوات المختلفين بما فيه الكفاية كي تصل إلىٰ معسكر الصليبيين حيث قرعت أجراس الإنذار.

خرج ريتشارد مهرولاً من خيمته مرتدياً درعه مصدراً أوامره بصوت يشبه النباح. اصطف جنود في خط دفاعي متراص بانضباط مذهل فيما خرجت سبع

سرايا مؤلفة من عدة آلاف من الخيالة من مخابئها وانقضت على الجنود. ركع مشاة ريتشارد، في الخط الأمامي، كتفاً إلىٰ كتف وفخذاً إلىٰ فخذ، وراء تروسهم موجهين رماحهم نحو الخارج وَرَبَض وراءهم الرماة أزواجاً فكان الأوّل يحشو القوس والثاني يطلقه بأقصى سرعة ممكنة. خلف هذين الصفين وقف ثمانون فارساً على أهبة الاستعداد للهجوم. اقتصرت دوابهم على اثني عشر حصاناً حربياً وبغل واحد. أخذ ريتشارد، في بادىء الأمر، يعدو على طول الخط الخلفي مستحثاً جنوده على بذل أقصى جهد. وقد تكون النداءات التي نُسِبت إليه فيما بعد أكثر فصاحة مما كانت عليه في تلك الآونة:

«تحملوا مصائب القدر!... خصائل البشر تبرز في المحن! يحقّق الرجل الشجاع المجد أَو يموت بطلاً!... قبل أن تقبض أرواحنا، فلننتقم لأنفسنا! أيها الرجال، إنها نهاية الأعمال الشاقة، وخاتمة الحياة والمعارك! فلنكسب الشهادة برحابة صدر!» أَو تعابير مماثلة.

على الرغم من أنّ عدد المسلمين فاق عدد المسيحيين بنسبة أربعة لواحد، أسقط وابل السهام ضحايا كثيرين في صفوف المهاجمين وأحصنتهم. ولاحظ صلاح الدِّين من مركز مراقبته على هضبة صغيرة بعيدة أنّ جنوده عجزوا عن الإطباق على كتيبة الصليبيين المتراصّة. وما أن انتهى دفع الموجة الأولى حتى برز فجأة من خلال الجنود وهجم على العدو يعقبه عشرة فرسان آخرين: «لقد كان الملك عملاقاً ضخماً في وسط المعركة تجده في كل مكان ـ تارة هنا وطوراً هناك أينما حمي وطيس هجوم الأتراك». بهذا القول وصف المؤرخ الملك ريتشارد إلىٰ أن وقع حدث لا تصدقه العين. لقد سقط الملك عن صهوة حصانه!

صاح أحد ضباط صلاح الدِّين لافتاً اهتمام سيده والحماس يغلي في عروقه: «مولاي، انظر إليه هناك! إنه واقف على قدميه».

وبهدوء، أجابه صلاح الدِّين: «كيف يكون هذا الأمر؟ أن يقف ملك مترجلاً مع رجاله! غير ممكن!» ثم التفت إلىٰ شقيقه الملك العادل وقال: «اذهب. خذ هذين الحصانين العربيين وقدهما إليه. بلّغه بأني أرسلهما إليه وأنه لا يليق برجل في مستواه العظيم أن يقف مترجلاً مع رجاله في ظروف كهذه».

فاق هذا التصرّف كل الأفعال الأخرى شهامةً في الحملة الصليبية الثالثة بأسرها. لقد قدّمت هذه الهدية له «لمكافأته على كل الأعمال البطولية التي أنجزها وكل الانتصارات التي حقّقها». هذه هي التعابير التي تلفّظ بها العادل عندما دنا من ريتشارد في وسط المعمعة. ولم يكن له سوى رجاء واحد وهو أن يتذكر الملك الهدية فيما بعد إن حالفه الحظ ونجا بحياته من هذه المعركة.

استمرت المعركة وانتشرت حتى شملت البلدة بأسرها. ولم يمرّ وقت طويل حتى أصبح درع ريتشارد المضرج وترسه مثل جلد القنفذ من كثرة السهام التي انغرزت فيهما. طوّقه عدد كبير من الأعداء، في فترة من الفترات، تطويقاً كاملاً ومع ذلك خرج سليماً معافى من بين كومة من الجثث وكأنه ممسوس وفقاً لما كتب في سفر تثنية الاشتراع: «أريد أن أجعل سهامي مغموسةً بالدم، وأن أجعل سيفي غائصاً في أجساد المقاتلين والأسرى. إنه الثأر من العدو».

وفي لحظةٍ أخرى، هجم عليه أمير يمتطي جواداً فاخراً مدفوعاً بشعور الغيظ حيال براعة ريتشارد وذكائه ومهارته الحربية ولم يقتصر جزاؤه على قطع رأسه فحسب بل على اجتثاث نصف كتفه وذراعه الأيمن أيضاً. تراجع المحاربون المسلمون عند رؤيتهم هذا المشهد المخيف. ومع مرور ساعات النهار، تجنّب الجنود المسلمون ريتشارد فقد أصبح الملك الرجل ـ الآلة القاتلة للبشر. إنّه قلب الأسد «والأسد أقوى الحيوانات لا يهاب أحداً». انخفضت حدّة المعركة عند انسدال الليل. ويقال إن الجانب المسلم فقد أكثر من سبعمائة رجل وألف وخمسمائة حصان فيما اقتصر عدد الضحايا في الجانب الصليبي على قتيلين وعدد من الجرحى.

سجّل بهاء الدين وهو كاتب صلاح الدّين ما يلي:

«ولقد بلغني أنّ الإنكتار أخذ رمحه ذلك اليوم، وحمل من طرف الميمنة إلىٰ طرف الميسرة فلم يَعْرِضْ له أحد»[1].

هكذا انتهت المعركة الأخيرة في الحملة الصليبية الثالثة.

معركة لا يمكن نسيانها سواء بسبب نبل الأخلاق والاحترام اللذين أبداهما صلاح الدّين لعدوه العظيم أو بسبب البسالة والشجاعة اللتين أظهرهما ريتشارد نفسه خلال المعركة.

(1) ابن شدّاد، ص 229 - 230.

الفصل الثلاثون

لنتصافح

انهار ريتشارد قلب الأسد بعد معركة يافا بسبب الإعياء، وبسبب نتانة أرض المعركة. ظل جسده يرتعد تارةً من وطأة الحمّى وطوراً من أدوار البرد التي كانت تصيبه. وقد شخّص أطباؤه حاله على أنه مصاب بالملاريا الثلثية وحذروه من صعوبة التعافي من هذا المرض. لم يكن ريتشارد وحده على هذه الحال. فقد أصبح الهواء مثقلاً برائحة الموت وبالتسمم التومنيني لحد جعل الجنود في المعسكرين يسقطون صرعى.

ومع انتشار الإشاعة حول وشوك «رحيله عن هذا العالم» في المعسكر، أدرك الملك حجم خطورة مرضه. فلطالما كان وجوده وحده كفيلاً بإنقاذ الموقف. فقد كتب مؤرخ الحوليات البريطاني «ريتشارد أوف ديفيز»: «لو علم صلاح الدّين أن ريتشارد قد مات لكان قذف الفرنسيين بروث البقر ولكان سمّم مدمني الخمر الإنكليز بجرعة كفيلة بجعل فرائصهم ترتعد. لم يعد الآن مستحيلاً على الملك أن ينسحب إذا ما حصل هجوم آخر وحسب، بل إنّ الفرنسيين المشتتين في عكّا أكّدوا مجدداً رفضهم القدوم إلىٰ يافا لمدّ يد العون والمساعدة».

انتقل خبر مرض ريتشارد بسرعة إلىٰ صلاح الدِّين إذ إنه كان قد أرسل أمين ماله أبو بكر عبر الخطوط العسكرية بمهمة، وكان ريتشارد وصورة الموت بادية على محياه قد قدم لاستقباله خارج سور المدينة ليمنع مبعوث السلطان من مشاهدة ما آلت إليه الأحوال في المدينة والضعف الذي أصاب دفاعاتها. فكان من البديهي أن يدور الحديث تلقائياً حول السلام. قال ريتشارد لأبي بكر: «إلىٰ متى سيظل السلطان يرفض عروض التفاهم؟ لقد كنت مشغولاً بالدرجة الأولى بالعودة إلىٰ بلادي. ولكن بما أن فصل الشتاء قد حل وبما أن موسم الأمطار قد ابتدأ فقد قرّرت المكوث حتى أنهي معالجة كل المسائل العالقة بيننا». حمل أبو بكر هذا التهديد الواهي والمخادع إلىٰ صلاح الدِّين وأعد له تقريراً كاملاً عن عجز ريتشارد. فاستدعى السلطان أمراءه على الفور وقال لهم: «إن الإنكتار قد مرض مرضاً شديداً، والإفرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلّت. وهذا عدوٌ قد مكّن الله منه. وأرى أن نسير إلىٰ يافا، فإنْ وجدْنا فيها طمعاً بلغناه، وإلاّ عُدْنا تحت الليل إلىٰ عسقلان..»(1).

قوبلت الدعوة للحرب هذه بتحية التبجيل المعتادة. ثم تقدم أحد الأمراء أخيراً للكلام بتأنٍ فقال: «لك ما شئت. عليك أن تنفذ ما ارتأيت والقرار الصائب هو الذي تتخذه. فقط ما تقرّه يترسخ وما تثبته يستقر. أيّدك الله بفضله ونعمته في كل أمر تحلّه أَو تربطه وفي كل ما تمنحه أَو تأخذه. لقد عرفنا معك نعمة الله الذي عاهدت نفسك على الجهاد في سبيله، وعلى تحصيل إبطال الباطل، ونصرة الحق، وعلى أخذ التدابير الضرورية للفوز مترفعاً عن الباطل وماقتاً للتخاذُل. وجدت في نفسك القوة والمثابرة والتماسك وإيمانك الراسخ يجعلك الوحيد الذي سيحقق الأهداف التي نناضل من أجلها».

كانت هذه مقدمةً استثنائيةً لاعتراضٍ لاحق ولكنها تعكس تماماً الأسلوب

(1) ابن شدّاد، ص 231.

المعتمد في الشرق. فصلاح الدين حامي الإيمان مهمته النضالية ذات رهبة، شبه مقدسة مما جعل أمراءه يقدّرون صعوبة موقفه. فقد قال لهم صلاح الدِّين: «إنّ من واجبي بعون الله تعالى أن أسلك أكثر السبل عزماً وتصميماً. فمن الصعوبة بمكان التخلي عما عهدناه. لا همّ لدينا سوى خوض الحرب فنحن لسنا ممن يزجي وقت الفراغ بضروب التسلية والانغماس في الملذات. ما عسانا نفعل إن عدلنا عن مهمتنا هذه؟ أين نضع آمالنا إن عدلنا عن أملنا في هزيمتهم؟

بعدما عبّر الأمير عن فائق احترامه انتقل للاعتراض وهو ينتقي كلماته: «ولكن أنظر إلىٰ ما آلت إليه البلاد. فهي خربةٌ ومرهقة ومسحوقة. انظر إلىٰ رعاياك. إنهم محبطون وفي حيرة من أمرهم. انظر إلىٰ جيوشك. فهي مرهقة ومريضة... انظر إلىٰ جيادك فهي مهملة ومنهارة. الماء قليل والغذاء لا يكفي، قواعد التموين بعيدة وقد عزّت علينا مقدرات الحياة. كل مؤوناتنا مصدرها مصر وهي معرّضة للأخطار المهلكة المحدقة بها في الصحراء. وقد تُقرّر فرق الجند المحتشدة أن تتفرّق فلا يبقى لشرحك المستفيض للوضع أي أثر يُذكر إن توقف التموين وسُدّت الطرقات، والأغنياء يشكون الجوع والفقراء يشكون الفقر المدقع والعوز بينما التبن أثمن من الذهب والشعير مفقود مهما دفع فيه من ثمن. فإن لم يحظوا بهدنتهم التي يطالبون بها لا بد أنهم سيكرسون طاقاتهم لتقوية وتمكين مواقعهم. سيجابهون الموت ببسالة في سبيل تحقيق أهدافهم. سيرفضون الخضوع للإهانة حبّاً بإيمانهم. وأفضل ما يمكن لك تذكّره هو الآية التي أوحى الله بها: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الأنفال: 61].

أما الاستشهاد بالقرآن الكريم أمام صلاح الدِّين فهو بمثابة اللجوء إلىٰ الملاذ الأخير. فمهما كانت لباقة الأمراء في تقديم احترامهم لسيّدهم ووضع الطاعة له، هم أيضاً استنفدوا ذرائعهم كلها. لم يعد لديهم ما يعطون. ومهما

نقل سيدهم عن مرض ريتشارد فالرجل لا مثيل له: «لم نسمع منذ ابتداء العالم عن فارس مثله يتمتع بهذا المقدار من البسالة والخبرة في القتال». هكذا علّق أحد الأمراء وتابع: «لا نجد له منافساً في أي من الفنون القتالية فهو أول من يهاجم وآخر من ينسحب. بذلنا كل جهدنا لأسره فلم نبلغ منه مبلغاً فلا أحد قادر على الهروب من سيفه. هجومه مروع. ومبارزته مهلكة، وأعماله خارقة».

فاجأ صلاح الدِّين الحضور عندها باعترافه بمخاوفه. ريتشارد نفسه لم يكن يخيفه ولكنه قال ملتفتاً إلىٰ بهاء الدين، كاتبه، قائلاً: «أخافُ أن أُصالح، وما أدري أي شيءٍ يكون مني، فيقوى هذا العدو، وقد بقي لهم هذه البلاد. فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم. وترى كل واحدٍ من هؤلاء الجماعة (قصد أولاده وأقاربه وعسكره) قد قعد في رأسه تلّه ـ يعني حصنه ـ وقال: لا أنزل، ويهلك المسلمون»[1].

مع ذلك وفي الأيام التالية اتسمت أعمال ريتشارد فعلاً بالكثير من الإنسانية. فقد بذل جهده لإخفاء استيائه من صلاح الدِّين وأرسل بالمقابل بطلب الثلج والفاكهة من السلطان خصوصاً فاكهة الدرّاق والإجاص مع الثلج، إذ إن برش الثلج كان معروفاً آنذاك، وقد كانت هذه الفاكهة المفضلة لديه. استجاب صلاح الدِّين لهذا الطلب لأسباب عسكرية راسخة. وعلم من الفاكهاني لديه أن الصليبيين يركزون جهودهم على إصلاح تحصينات القلعة مهملين جدران المدينة التي لحقها الضرر من جراء الهجمات العسكرية المتتالية، وأن الكونت «هنري دو شامباني» لم ينجح في إقناع الفرنسيين بالمشاركة في هذا المجهود، وأن عدد الفرسان الذين ما زالوا معافين في المدينة يبلغ عددهم الثلاثمئة فارس. تم عندها إرسال قوة مسلمة إلىٰ يافا للتأكد من صحة هذا التقرير من خلال استدراج المدافعين خارج المدينة لتعدادهم. وقد

(1) ابن شدّاد، ص 235.

تم فعلاً إحصاء ثلاثمئة فارس شجاع خرجوا للدفاع عن كرامتهم، فقد كان معظمهم يمتطون البغال! فرسان أغرار يمتطون بغالاً؟ لقد آل الوضع فعلاً لهذا.

بعدها وفي مقابلة رسمية ثانية لأبي بكر مع الملك جدد فيها ريتشارد نداءه الموجه لأخ صلاح الدِّين للدخول في مفاوضات جدّية. فقد كان يثق بـ «الملك العادل» ويحترمه، وكان قد التقى به أكثر من مرة في الماضي، ويعتبره حكيماً ومعتدلاً. قال لأبي بكر: أتوسل إلى أخي «الملك العادل» أن ينظر في الوسائل التي يمكن استعمالها لجعل السلطان يدخل في السلم. أطلب منه أن يمنحني مدينة عسقلان. سأرحل عن مكاني هذا تاركاً ورائي فرقة صغيرة واحدة فقط. فيقوم السلطان بعد ذلك بالاستيلاء على باقي الأراضي التي هي في أيدي الفرنسيين. مطلبي الوحيد هو الاحتفاظ بالموقع الذي أشغله مقابل الفرنسيين. إن لم يعدل السلطان عن مطامعه في عسقلان فليدفع لي «العادل» تعويضاً عن المبالغ التي تكبدتها في إصلاح التحصينات».

ظاهراً بدا هذا الموقف مطابقاً لموقف ريتشارد السابق. ومع ذلك ظلت الكلمات التي تضمّنها القرآن تراود صلاح الدِّين: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الأنفال: 61].

وكذلك عاودته كلمات الأمراء في مجلسه: «إن عقدت سلماً يعود المزارعون والسكان لأراضيهم. المحاصيل الزراعية والفاكهة ستكثر في زمن الهدنة. والجيوش ستجدد تجهيزاتها وستستريح. فإن عادت الحرب عدنا لها وجهّزنا لها أفضل الوسائل التي لا نملكها الآن بسبب العجز والإرهاق والديون. هذا لا يعني ترك الجهاد في سبيل الله. إنها فقط وسيلة لزيادة فعاليتنا وقدراتنا وفرص نجاحنا. لن يبقى الفرنجة طويلاً محافظين على أيمانهم كما أنهم لن يلتزموا بالمعاهدات المبرمة».

«من أجل ذلك يا مولاي أبرم اتفاق هدنة معهم كي يتفرقوا ويتشتتوا وهم

يعانون من الضربات التي تكبّدوها حتى لا يبقى أحد في فلسطين قادراً على مقاومتنا أو الوقوف ندّاً لنا».

أدّى هذا الحثّ إلىٰ خروج صلاح الدِّين من الجمود الذي تملكه، وبدأ الآن يرى بوضوح التحول الذي طرأ على موقف ريتشارد بشأن الحفاظ على عسقلان سابقاً. أرسل السلطان لأخيه تصريح ريتشارد مع الرسالة الملحّة التالية: «إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم، فإنّ العسكر قد ضجر من ملازمته البيطار والنفقات قد نفدت»[1].

عندما دخل «العادل» البلاط الملكي وقع نظره على «ريتشارد» مختلف تماماً. كانت حال الملك قد ساءت لدرجة أصبح ريتشارد نفسه قلقاً حول إمكان معافاته مجدداً. زد على ذلك أنه لم يعد لديه أي وهم فيما يتعلّق بجنوده. فقد فقدوا قدرتهم على القتال. لم يعد بالإمكان تعبئتهم من أجل قضية مشتركة. حافزهم الوحيد أصبح المال. وكقائد جيّد كان يعلم تماماً أن المال وحده حافز ضعيف. لم يستطع الملك أن يتظاهر بالشجاعة وهو على فراشه. ما كان مستطيعاً الوقوف على قدمبيه؛ مما جعله يتكلم كلاماً فلسفياً نابعاً من القلب كمن حسم قدره في موته أو فيما تبقى له من حياة؛ فقال: «آن الأوان للبحر أن يغيب وللأمواج أن ترتفع فإن قبلت الهدنة ومكّنتني من الرحيل كما هي أمنيتي رحلت وإن أردت الحرب وعاديتني، سأنصب فسطاطي وأثبت إقامتي ههنا. الطرفان منهكان. لقد تخليت عن القدس وإني الآن أتخلى عن عسقلان. إن حشود الجيوش المعادية من كل حدب وصوب لن تخدعني لأني أعلم أنها ستتفرق عند حلول فصل الشتاء. إن استمرارنا في صراعنا التعيس مؤداه الدمار لكلينا. فاستجب لأمنيتي واكسب صداقتي واقبل فائق احترامي ووقّع معي معاهدة ودعني أرحل».

(1) ابن شدّاد، ص 232.

وعندما انتقل الرجلان لمناقشة التفاصيل تخلى ريتشارد عن عسقلان وعن التعويض المالي الذي طلبه مقابل إعادته إعمار المدينة. فبلغا أخيراً النقطة التي يمكن عندها التوصل لاتفاق.

قام بعدها كتّاب صلاح الدِّين في «الرّملة» بخط هذا الاتفاق على ورق. وتم الاتفاق على تدمير عسقلان بمجهود مشترك من المهندسين المسيحيين والمسلمين على أن لا تتم إعادة بنائها قبل ثلاث سنوات، وعلى أنه يسمح لمن يستولي على المدينة بعد ثلاث سنوات أن يحصنها. تظل يافا بمقتضى هذا الاتفاق في أيدي الصليبيين باستثناء القلاع في الناحية الشرقية أي «رملة، واللد، ويبنى، ومجدل يابا». أما المدن الساحلية: «قيسارية، وأرسوف، وحيفا، وعكّا، وصور فتظل أيضاً في أيدي الصليبيين مع البلدات الملحقة بها باستثناء قلاع الناصرة وصفورية على طريق «بحر الخليل». تم أيضاً الاتفاق على حرية التنقل وحرية التجارة للفرنكيين والعرب على حدّ سواء في الأراضي التابعة للفريق الآخر. ويسمح للحجاج المسيحيين بزيارة الضريح المقدس في القدس من دون عراقيل أو أي مقابل مادي.

أرسل صلاح الدِّين هذه البنود إلىٰ ريتشارد مع رسالة شارحة مُلَغّزة (مليئة بالألغاز) يقول فيها: «هذه هي الحدود الثابتة للمنطقة العائدة لك. إن قبلت السلام على هذه الأُسس فليكن. سأصافحك مقابل وعودنا. فليرسل الملك إلىٰ السلطان رجلاً مفوضاً بأداء القسم باسمه. وليحصل ذلك نهار بعد غد، وإلاَّ اعتبرنا أنك تراوغ لكسب الوقت واعتبرنا عندها المفاوضات لاغية».

عندما دخل مبعوثو السلطان على الملك، كان ريتشارد مصاباً بالدوار ومحموماً. قرأ له السفراءُ بوقارٍ نصَّ المعاهدة. فإذا به يتساءل بعزم عن بند التعويض عن مصاريفه في عسقلان حتى تدخل مستشاروه بهدوء ليذكروه أنه كان قد عدل عن هذا المطلب منذ بضعة أيام فقال بوهَنٍ، وهو يستلقي على سريره: «سأفي بوعدي إن كنت قد سبق ووعدت بذلك. قولوا للسلطان أن

المعاهدة جيّدة وأني أقبلها وأني أثق بكرمه وأني أعلم تماماً أنه إذا ما منّ علي بمنحة إضافية فهذا من فضله الذي سأدين له به». وعندما همّوا بتسليمه المعاهدة استدار رافضاً تسلمها وهمس التالي: «لا أملك القوة الكافية لقراءتها ولكني أعلن بشكل قاطع أني سأعقد الصلح». ثم استدار نحوهم على مَهَلٍ وقال: «فلنتصافح».

الفصل الواحد والثلاثون

الخيط الرفيع

في شهر أيلول من سنة 1192م، تجمع في عكّا من ظل على قيد الحياة بعد الحملة الصليبية وجمعوا أسلحتهم وذكرياتهم واستعدوا للرحيل عن أرض الميعاد بعد أن جمعوا آلات المنجنيق وحزموا أمتعتهم الثقيلة الأخرى. أما عدد الرجال الذين ظلّوا على قيد الحياة بعد عذابهم الطويل فهو غير متوافر بدقّة. فقد تركز الجهد على تعداد عدد الموتى. وحسب التقديرات: واحدٌ فقط من كل اثني عشر ممن كانوا قد قدموا أساساً كُتب لهم الوقوف على رصيف عكّا الحجري في تلك الأيام المفعمة بالانفعالات بانتظار الإبحار على متن سفن القادس عائدين إلىٰ بلادهم. لقد كانوا يتطلعون إلىٰ «برج الذباب» وإلىٰ الوراء إلىٰ الأسوار التي كانوا قد اقتحموها قبل خمسة عشر شهراً. وقد ذكر مؤرخ الحوليات المسيحي الرئيسي للحملة الصليبية الثالثة أن عدد القتلى في عكّا وحدها وصل إلىٰ المئة ألف قتيل بينما وصل العدد الكامل للقتلى إلىٰ ثلاث مئة ألف قتيل. هذه الأرقام منافية للعقل ولكن ضريبة الموت في هذه الحرب تخطّت الخيال فعلاً وكذلك إمكانية الإحصاء الدقيق. وقد تخطّى عدد الذين قضوا بسبب المرض والمجاعة عدد الذين لقوا حتفهم في المعارك.

هل ماتوا سدى؟ لا لم يموتوا سدى إن كان الموت استشهاداً ونصيبه

دخول الجنّة مباشرة. ففي هذه المرحلة التاريخية الحزينة كان الهدف من هذه المغامرة الكبرى الاستشهاد.

كتب مؤرخ الحوليات: «في ذلك الزمان كان الكل من أحياء وأموات يخوضون كل على طريقته ضرباً من ضروب الاستشهاد. كل فرد منهم كان قد خاض هذه الحجّة البعيدة بقلب خاشع ومخلص في حبه لله. من ذا الذي يمكن له أن يشك في خلاص أرواح رجال يتمتعون بهذا المستوى من النبل والفضيلة؟ كان لا بدّ من الاعتقاد بأن هؤلاء مثواهم الجنّة».

لم تكن الأخطار قد زالت بعد. فهنالك أيضاً فرص جديدة للاستشهاد على طريق العودة إلىٰ الوطن والمحفوفة بالمخاطر. مع إبحار سفن القادس من عكّا عصفت بهم رياح الخريف التي لم يكن يمكن التنبؤ بها حاملةً إياهم في اتجاهات مختلفة. العديد منهم أبعدتهم الرياح عن وجهة سيرهم فضلّوا ولم يستطيعوا بلوغ مقصدهم قبل أشهر عدة. والبعض منهم غرق. والبعض الآخر كان ينتظر حتفه بعد أن تخلّف عن أرض المعركة من جراء الأوضاع الصحية السيئة في تلك البلاد.

«حُمِل الملك ريتشارد بعناية فائقة إلىٰ حيفا ومن ثم إلىٰ عكّا حيث استقبلته ملكته «برنغاريا» وأختها «جوانا» ملكة صقلية السابقة وكذلك مغنّيه المحبوب «بلونديل دونسل» Blondel de Nesle واللاتي حضنّه واعتنين به خلال فترة تعافيه البطيء.

عانى الملك في الأسابيع الأخيرة لفصل الصيف المنحسر من الإحساس بعدم أهليته باعتباره حاجاً، ومن الهواء المسموم المخيم على ميادين المعركة القاتلة. تشبث بإصرار بالوهم الذي كان يراوده أنه عائد إلىٰ موطنه مؤقتاً لمدة ثلاث سنوات فقط، وهي مدة الهدنة فينقذ مملكته وعرشه ثم يعود بعد ذلك مجدداً تلبيةً لنداءٍ سامٍ على رأس جيش كبير حتى يبلغ هدف حجته ويستعيد قبر المسيح.

كان قادراً بالرغم من إعيائه المحموم على استجماع طاقاته لإبلاغ صلاح الدِّين من خلال السفراء عن نيته العودة. لا بد أنّ هذه المحاولات الجريئة على الطريقة الحربية البارثية قد جعلت صلاح الدِّين يبتسم ولذلك فقد أبلغه صلاح الدِّين بسماحة المنتصر أنه يشهد الله أنه لو قدّر له خسارة الأراضي الخاضعة لسيطرته لما أراد إلا أن تكون من نصيب ملك عظيم كالملك ريتشارد. فريتشارد حسبما كان صلاح الدِّين يصرح رجل شريف وشهم ومتفوق عموماً. وكان هذا الشعور متبادلاً. حتى كاتب سيرة ريتشارد لم يسعه وهو يغطّي هذا التراسُل الأخير بين ريتشارد وصلاح الدِّين إلاّ أن يعلّق على طبيعة القدر المحيّرة. فالكثير من الشكوك كانت تلوح في الأفق. وكان ريتشارد وهو في صدد خطط مستقبلية لجمع جيوش صليبية إضافية والخوض في فتوحات ملحمية بطولية جديدة قد نسي قول الشاعر إذ قال:

تفكّرْ كيف أنّ كلَّ إنسان

معلّقٌ بخيطٍ رفيع

غادرت الملكة وشعراؤها ومغنوها في التاسع والعشرين من أيلول/ سبتمبر. ولكن ريتشارد اضطر للبقاء أحد عشر يوماً إضافيا من أجل إتمام بعض الأعمال العالقة. كان لا بد من التعامل مع مسألة، ألا وهي قضية ويليام دي بريو Williams des Préaux. إنّه الفارس النورماندي الشجاع المحب للناس الذي حال دون وقوع ريتشارد في الأسر منذ سنة خلت حين كان الملك وبعض حاشيته في أحراج على مقربة من اللد، وهاجمهم المسلمون على حين غرّة فبدأ بالصراخ منتحلاً شخصية الملك ريك تداركاً لوقوع الكارثة. وتم الآن تحرير ويليام لوحده مقابل فدية باهظة تتمثّل بعشرة من أهم الأسرى المسلمين الذين كانوا مستعدين لشراء حريتهم بدفع كمية هائلة من الذهب. وبذلك سدّد ريتشارد حسابه الأخير في فلسطين.

وفيما كان يصعد على متن مركبه الملكي، تعالت أصوات الندب والعويل

تقول: «يا أورشليم، لقد أصبحتِ بائسةً لا عونَ لك بعد أن حُرِمت من هذا البطل. وإن حصل ونُكِثَت هدنة، فمن سيحميك من مهاجميك في غياب الملك ريتشارد؟» كلمة شرف من صلاح الدِّين وحدها كفيلة بحمايتهم. هذه هي الإجابة الصادقة إذا كانوا يثقون بكلامه.

عندما أصبح ريتشارد في عرض البحر وشاهد الساحل يبتعد في الأفق، قال: «أيتها الأرض المقدسة أستودعك الله. فليعنّي الله وليمدّ بعمري كي أهبّ لنجدتك. إذ إني آمل وأنوي أن أمد لك يد العون في المستقبل». ثم انقطع الحبل الرقيق الذي كان يربطه بفلسطين وحوّل ناظريه نحو الغرب.

II

الملحمة

ابتداءً من اللحظة التي حوّل فيها ريتشارد قلب الأسد عينيه بعيداً عن الأرض المقدَّسة باتجاه الغرب حيث مسقط رأسه، خرجت سيرة حياته من ملاحم التاريخ ودخلت القصص الرومانسية. تركه مؤرخوه الجادّون ليركّزوا على معركتهم الخاصة للعودة إلىٰ ديارهم سالمين معافين وحلّ القصّاصون محلّهم. وُلِدت أسطورة ريتشارد قلب الأسد في إلياذة عودته إلىٰ دياره. لقد بات الأوديسة الجديدة، والملحمة البطولية، إلاَّ أنّ السَّيْرانات وآكلي اللوتس والمسخ أحادي العين اتخذوا شكل دوقات متلهفات على الثأر، وشعراء هزيلين، وشقيق خائن، وضباط عديمي القيمة، وسيدات يتكلفن الابتسام. وتضمنت مغامراته التنكر بشكل فارس هيكل وطباخ بالإضافة إلىٰ قلاع على قمم الجبال وزنزانات مظلمة، وكلاب الدّموم، وبطولات برزت فيها قوة هائلة وجسارة مذهلة، وفي آخر المطاف، كمية كبيرة من المال.

ولم تعد قصة ريتشارد مماثلة لقصة حملته الصليبية. لقد أصبح أخيراً

وحيداً وحدةً موحشة. أضيف الكثير إلىٰ خاتمة هذه القصة البطولية وتوسعت على مرّ العصور واحتوت على جرعات كبيرة من الخيال والابتكار إلىٰ أن وصلت إلينا اليوم، في زمننا الحديث، في صيغة قصص مناسبة للقراءة قبل الإخلاد للنوم. ولذلك علينا أن نكتفي بالذرات القليلة من الدلائل الحسية المتوفرة لنا ونتمتع بالحكايات المذهلة كما قدمت لنا.

طوال ستة أسابيع، هبّت الرياح الشرقية الحارة من صحراء ليبيا وتضاربت مع جبهات باردة من الشمال، وتلاعبت بباخرة الملك في البحر الأتروسكي كما تتلاعب بالريش. رست باخرته لبعض الوقت في قبرص بغية مباركة حكم غي دو لوسينيان، وبعد ذلك، تاهت الباخرة. في فترة من الفترات، حامت باخرته على مقربة من سواحل المغرب، وفي فترة أخرى، ظلّ ثلاثة أيام على مسافة قريبة من مارسيليا.

ولكنه لم يكن يكترث البتة بهذه الرياح العاتية. لقد أصبح البطل مطارداً. شعر مرافقوه العشرون بالخطر المحدق بهم أينما رست باخرتهم في أوروبا. ففي كل مرّة نظروا فيها إلىٰ الخرائط، وجدوا الشِراكَ منصوبة أمامهم. ففي كل أوروبا، تجمّع الأعداء القدامى والجُدد لمواجهته سواء في فرنسا وألمانيا أم في إيطاليا واليونان وبيزنطية. ابتعدت الباخرة عن ساحل مارسيليا عندما علموا من البواخر المارّة قربهم بأنّ الكونت دو تولوز، حفيد البطل الأسطوري للحملة الصليبية الأولى أي ريموند دو سان جيل، وكان عدواً قديماً من أيام النزاع الداخلي قبل بدء الحملات الصليبية، قد نصبا له شراكاً في جنوب فرنسا. وفي أماكن أخرى من وسط أوروبا، كانوا يستطيعون الاتكال على الملك فيليب أغسطس كي ينصب له الأفخاخ أينما تسنّى له، ليس في فرنسا فقط بل في أي مكان آخر. كانت الدبلوماسية موطن قوة عند فيليب كما كان ماكراً ومصرّاً على الثأر.

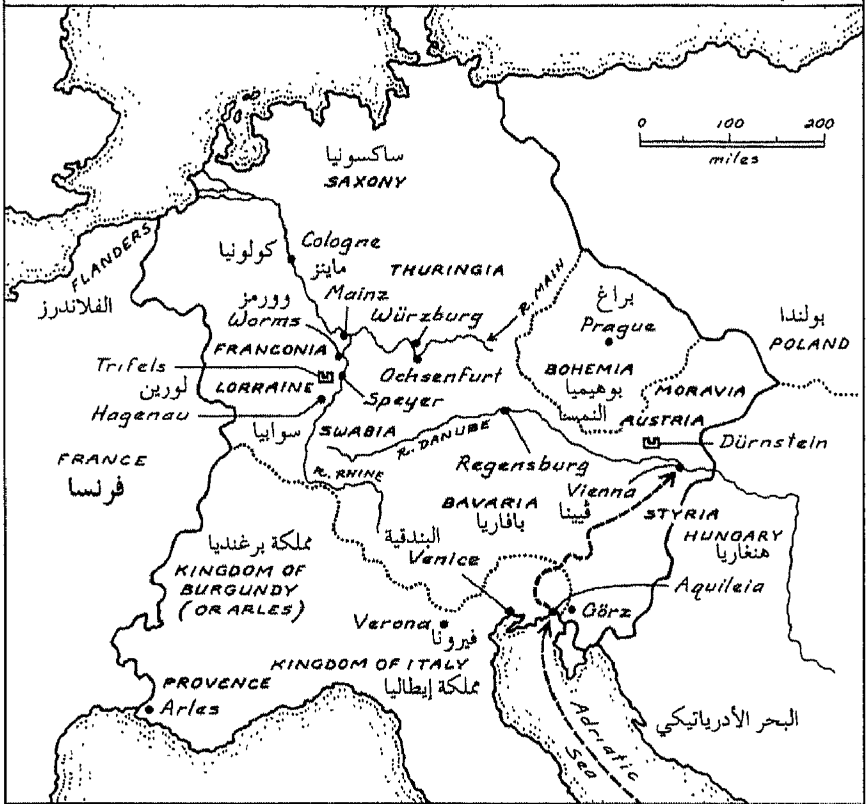
ولا شك في أن ملك فرنسا كان يشوّه سمعة ريتشارد لكل من يصغي

إليه. وفي الواقع، لم يكن بمقدور ريتشارد أن يدرك أبعاد هذا القذف والتشهير. فقد كان صديقه القديم يلصق به الاتهامات الخطيرة التي جمعت شغف المحبّ المطرود والمحارب المذلول في كل أنحاء أوروبا. فمنذ اللحظة الأولى التي وصل فيها فيليب إلىٰ الأرض المقدَّسة، حاول ريتشارد أن يخونه بتسليمه لصلاح الدِّين. وفور احتلال ريتشارد لصور، قتل كونراد أوف مونفرّا، كما أنه وضع السّم لدوق أوف برغندي وقضى عليه.

كان المستمعون المتحمّسون في أرجاء ألمانيا وإيطاليا كثرٌ. ومما نقلته استخبارات صليبين آخر وافدين؛ فإنّ هؤلاء، الأعداء كانوا مستنفرين للتصدي لهجوم وشيك يقوم به ريتشارد. في منطقة الـ «بيدمونت» كان أنسباء «كونراد أوف مونتفرّا» ما يزالون في غليان من جرّاء اغتياله الظاهري، بينما كان أعداء الملك «تنكرد أوف صقليّة» الذي اغتصب العرش والذي كان ريتشارد قد تحالف معه متحشدين في كل أرجاء إيطاليا. في ألمانيا أيضاً كانت الصلة مع «تانكرد» بمثابة مشكلة إذ إن إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة «هنري السادس» الذي كان قد دعم المرشح الخطأ ما زال يدفع ثمن الخطأ هذا. والواقع أن الإمبراطور كان قد كلّف كل بلدة في مملكته باعتقال ملك إنكلترا إن استطاعوا ذلك ومن ثم تسليمه إلىٰ الإمبراطور. أما في بيزنطية فقد كان الحكام ما يزالون مستائين من إهانة ريتشارد «لإسحق كومننوس» في قبرص. وعلى طول نهر «الدانوب» كان بانتظاره ألدّ أعدائه «دوق النمسا» الذي كانت رايته قد تعرضت للرمي في الوحل بعد سقوط عكّا، والذي كان يحمّل ريتشارد شخصياً مسؤولية هذا التدنيس. بالمختصر المفيد لم تكن هنالك طريق آمنة للعودة إلىٰ إنكلترا. حتى هناك كانت المتاعب في انتظاره. فأخوه «جون» كان يستولي على الحصون طالباً ولاءها وهو يراهن بتفاؤل على استحالة بلوغ ريتشارد الشواطىء الإنكليزية. وكأنه لم يكن هنالك في العالم بأسره أحد سوى أمه «إليانور» الموجودة في «روان» تتمنّى عودة ابنها الثالث المحبوب سالماً.

رحلات ريتشارد قلب الأسد في الأدرياتيك والنمسا وألمانيا

Richard's Journey Through the Adriatic, Austria, and Germany



Holy Roman Empire الإمبراطورية الرومانية المقدسة

Richard's journey before his arrest by Leopold — رحلة ريتشارد قبل أسره من جانب ليوبولد

Castles where Richard was imprisioned — القلاع التي أُسر فيها ريتشارد

رافقت ريتشارد في رحلة العودة إلىٰ الوطن مجموعة من الحلفاء المقربين الشجعان. كان هناك «بالدوين» Baldwin، قانوني «بتون» Bethune الذي كان تابعه الموالي له منذ أيام معارك «أنجو». كما كان هنالك كاتب الملك (فيليب)، وقسّيس القصر (انسيلم) وخادمه الشاب. أما الباقون فكانوا من الرهبان العسكريين من رهبنة فرسان الهيكل الأشدّاء.

ستة أسابيع بعد مغادرتهم عكا نزلت الفرقة على اليابسة في «كورفو». اختاروا سلوك مسار خطر عبر البحر «الأدرياتيكي» ومن ثم عبروا برّاً ألمانيا للوصول إلىٰ إنكلترا. كان من الممكن أن يكون هدفهم بلوغ «ساكسوني» حيث كان نسيب ريتشارد «هنري أوف ساكسوني» الموقر والماكر (والمعروف بالأسد) يقوم بحركة عصيان مفتوح على حكم إمبراطور ألمانيا الجديد. إذ إن ريتشارد كان قد قدّم في الماضي المساعدة والعون لدوق «ساكسوني» السابق وكان مؤكداً أن هذا المعروف سيُردّ له. ولكن «فيتنبرغ» Wittenberg عاصمة «ساكسوني» كانت تقع إلىٰ أقصى الشمال خلف منطقتي «النمسا» و«بافاريا» المعاديتين. كان من الممكن لهم نظرياً أن يمروا من خلال مضيق في أفريقيا ومن ثم الإبحار عائدين إلىٰ الوطن. ولكن أخطار البحر في تشرين الثاني تفوق أخطار البرّ. وأقل ما في الأمر أنه كان عليه أن يواجه على اليابسة مجرد مخلوقات بشرية في الوقت الذي كان عليه مواجهة قوى البحر الفوق طبيعية والخارقة والتي كان يتعذّر عليه التحكُّم بها.

وصل إلىٰ «كورفو» حسب المسار المقرّر، و«كورفو» جزيرة تقع مقابل الساحل الغربي لليونان. كانت في ذلك الوقت معقلاً للقراصنة ـ فالبحر الأدرياتيكي كله كان بالفعل يعج بهم ـ وقد انعكس هذا الواقع إيجاباً لمصلحة الملك الفار. كانت مشكلته مع القانون أكثر مما هي مع الخارجين على القانون. سرعان ما تخلى ريتشارد عن سفينة القادس الملكية مستبدلاً بها سفينتي قراصنة استخدمهما للتوجه أكثر شمالاً على طول الساحل «الدالماسي».

(فيما بعد تم تصوير تحالف ريتشارد مع القراصنة على أنه نتيجة لمعركة جرت بادىء ذي بدء بينه وبينهم حصد من جرّائها ريتشارد إعجاب القراصنة بقدراته وبطولته في المعارك مما جعلهم ينضمون إليه لمساندته).

بعدها شوهد الجمع الملكي في «داغوسا» المعروفة أيضاً بـ «دوبروفنيك». نقلت بعض التقارير أن سفينته تحطمت على جزيرة «لاكووما» الصغيرة جدّاً مقابل حصن «دوبروفنيك» القروسطي وأنه بنى على ما يبدو كنيسة رهبانية للرهبان «البينديكتيين» الذين كانوا يقطنون الجزيرة تعبيراً عن امتنانه لبقائه على قيد الحياة. إن كان لنبأ تحطم السفينة في هذا المكان صحة أَو أنه وقع أكثر شمالاً في خضم مياه «الأدرياتيكي» ـ أَو أن الروايتين واردتان أَو أن لا صحة لشيءٍ من ذلك ـ ليس بذي أهمية. مهما حدث فالخطوة التالية له كانت توجهه نحو منطقة تُعرف بـ «أكيليا» شمالي «ترييست».

أعاد الملك النظر في وضعه ووجده ميؤوساً منه. ففي الجهة الشمالية كانت تقع الأراضي الخاضعة لسيطرة «ليوپولد» دوق النمسا الذي كان يضمر أكثر الضغائن حدّةً ضده. أما في الجهة الغربية فقد كانت تقع الأراضي التابعة للبندقية مع تجارها الذين هم على أهبة لبيع أي شيء على الأرض لمن يدفع أعلى الأثمان وما بعد ذلك تقع سفوح جبال «البيدمونت» التابعة لـ «كونراد دو منفرّا».

أما هنا على ساحل «الأدرياتيكي» فقد كان «الكونت» المخادع «ماينهارد» حاكم «غورز» Görz والذي كان قريب «كونراد دو مونفرّا» على أقصى أهبة لرصد أي مسافرٍ يحمل الشعار الملكي قد يعبر. وظناً منه أن «هدنة الله» ما زالت قائمة حاول ريتشارد تمرير جماعته مع الصليبيين العائدين بقيادة «بالدوين أوف بيتون» وتاجر ثري اسمه «هيو». وقد قام «هيو» بإرسال خاتم من الذهب باهظ الثمن مرصّع بحجر ياقوت للـ «كونت» لاسترضائه ولكن الهدية السخية هذه كان لها مفعول عكسي إذ أثارت شكوك الـ «كونت»؛ فخاطب أتباعه قائلاً

إن «هيو» لا بد يخبّىء ريتشارد المخادع، ووضع خطةً حاذقةً إلىٰ حدّ بعيد للقبض عليه. قال لرسل ريتشارد، بغية كسب بعض الوقت لتجميع جماعته المدرّبة على القتال: «لقد قطعت عهداً على نفسي أن أعتقل كل حاج عائد من الديار المقدَّسة، وأن لا أقبل أية هديةٍ منهم. ولكن من أجل لقاء الشرف الذي خصني به سيدكم سأعيد له الهدية وآذن له بالرحيل». وكشف ريتشارد الخدعة فوراً ففر على ظهر جواده في الليل الدامس وهو متنكر بزي فرسان الهيكل.

مع تيقن أعدائه بوجوده في الجوار ازدادت الأخطار المحدقة به. في «فريولي» وجدت جماعة ريتشارد نفسها في مقاطعة «فريديريك أوف بيتاو» أخو الكونت «ماينهارد». وكان هذا اللورد التافه لا يقل حماساً عن غيره في الاستيلاء على الجائزة الملكية. وفي سبيل دعم هذا المسعى عيّن شخصاً «نورماندياً» من حاشيته اسمه «روجر أوف أرغنتون» لتفتيش كل نزل في المنطقة، يقصده الحجاج العائدون أدراجهم والاستماع إلىٰ أقوال الفرنسيين. وقطع له وعداً بمنحه نصف بيوت بلدته في حال استطاع «روجر» اعتقال الملك.

عندما وافى «روجر» «ريتشارد» وهو متنكر بزي أحد فرسان الهيكل، أصرّ على استجوابه حتى كشف هذا الأخير عن هويته. عندها وبدل تكبيل الملك بالسلاسل خرّ راكعاً من شدّة الانفعال وإجلالاً للملك. وأفضى بكل ما لديه حول الأخطار المحدقة بـ «ريتشارد» وقام بتزويده بدل السلاسل بجواد سريع يعينه على الفرار. عند هذا الإنذار قامت زمرة ريتشارد المؤلَّفة من عشرين شريد بالتفرّق في اتجاهات مختلفة. أما «روجر» العائد إلىٰ «فريدريك» فقد أعلمه بعدم وجود أي ملك سوى مجموعة من فرسان الهيكل بقيادة «بالدوين» ولكن دون جدوى. في حركة غضب عارمة قام «فريدريك» باعتقال كل حاج موجود في مقاطعته، ثم إنه عمد إلىٰ زج «روجر» المخلص في السجن معهم. في هذا الوقت كان ريتشارد يتوجه شمالاً نحو «كارنثيا» عبر سلسلة جبال «الألپ» ولم يعد معه من عصبته غير ثلاثة أشخاص.

هل كان على علم بما كان في انتظاره بعد ذلك؟ يسود الاعتقاد أنه تابع سفره عبر الجبال لمدة ثلاثة أيام دون طعام؛ لربما شوش الجوع تفكيره وحرمه من القدرة على التمييز. فقد كان يسير بشكل تلقائي وشبه مغناطيسي نحو «ڤيينا» مقر الدوق «ليوپولد». عندما وصل إلىٰ مشارف المدينة أدرك خطورة الوضع فعلياً فاختبأ في نزل صغير وأرسل خادمه الفتي إلىٰ السوق لجلب المؤن ولكن الولد الأرعن تمادى في الإنفاق وتباهى بتبجح وهو يتكلم عن سيده على أنه رجل ذو نفوذ، مما أدّى حتماً إلىٰ إثارة الفضول. وفي طريق العودة قام الخادم بالتبختر بين بائعي الخضار وهو يحمل قفّاز الملك مربوطاً إلىٰ حزامه. فاعتُقل وتم تعذيبه، فدلّ على سيده.

عندما اقتحم القاضي النزل الذي كان ريتشارد قد لجأ إليه محدثاً جلبة أسرع الملك بارتداء ثوب فضفاض متسخ وتوجه نحو المطبخ حيث تظاهر بأنّه أحد العاملين فيه مقلباً الدجاج على النار وهو يبدو كالفلاح المغلوب على أمره.

ولكن الملوك النبلاء لا يتحولون بسهولة أو بسرعة إلىٰ مساعدي طباخين. عندما طالع هذا المشهد السخيف رجل القانون تظاهر بالأسف على الملك. فقال بازدراء: «انهض يا مولاي. لقد مكثت ها هنا ما فيه الكفاية». وخلال بضع ساعات كان ريتشارد يمثل أمام «ليوپولد». وبعد أن عادت له بقوة ذكرى تعرضه للذل في عكّا على أيدي جنود إنكليز قام السجين بتسليم سيفه لمعتقله. بعد ذلك بقليل تمت مواكبة الملك غرباً باتجاه نهر «الدانوب» حتى قصر «دورنشتاين» Dürnstin الشاهق حيث سجن. لقد شكّلت حادثة سجن ريتشارد بالطبع خرقاً فاضحاً لقانون الأمم في أوروبا آنذاك والقانون الكنسي و«هدنة الله». لم يكن مسموحاً استغلال أي صليبي وهو في «خدمة الله». وقد قام ريتشارد بتذكير معتقليه بذلك بينما كانوا يقتادونه بخشونة لاحتجازه. ولكنه كان يمثل الآن جائزة ذات قيمة كبيرة على الصعيدين السياسي والمالي. سارع

الإمبراطور الروماني المقدس «هنري السادس» بتوجيه أوامره «لليوپولد» تابعه، كي يسلمه الملك «ريتشارد». وفي اجتماع عقد في «فرتزبورغ» قاما بالمساومة على سعر الصفقة التي تمّت في 14 شباط/ فبراير 1193م على أساس مبلغ ستين ألف ليرة من الفضة كرسم محدّد لمصلحة الدوق المغامر. أما الضغينة العميقة التي كان يحملها «هنري السادس» فقد كانت تعود لخسارته «لصقليّة» التي كانت سابقاً مقاطعة تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة وذلك على يد «تانكرد» المغتصب. وقد كان الإمبراطور الألماني نسيب «كونراد دو مونفرّا». ولكن «هنري السادس» كان له مبرر إضافي. فخلافه مع روما كان امتداداً للخلاف القديم والدائم بين سلطة الكنيسة وسلطة الدولة. فقد تم اغتيال أسقف بارز في مدينة «لياج» وكان الصرح البابوي قد حمّل «هنري السادس» مسؤولية هذا الحادث. وقد كانت غالبية الإمبراطورية تساند روما في موقفها، وكان «هنري الأسد» المحارب الماكر المحنّك هو من يقود العصيان هذا من عاصمته «فيتنبرغ». ولذلك فقد كان «ريتشارد» الرهينة والضمانة الأخيرة في هذه المعركة كذلك. ومن وجهة نظر «هنري» فإنّ العناية الإلهية أرسلت «ريتشارد» رهينةً بين يديه لمساعدته في معركته مع روما.

أسرع الإمبراطور الألماني بإرسال الأخبار المفرحة لـ «فيليب أغسطس» في فرنسا. وأعرب عن فرحته بتبليغه نبأ اعتقال الملك ذاكراً «الخيانة والخداع والأذى المتراكم» في «الأرض المقدّسة» والتي حمّل «ريتشارد» المسؤولية عنها وكذلك «كل ما فعله «ريتشارد» للإزعاج والمضايقة. ولكنه لم يفصح عن المكان الذي يسجن فيه «ريتشارد».

لاقى المبعوث الذي حمل هذا النبأ السعيد لـ «فيليب أغسطس» الترحاب وحُمل على الراحات. وأكثر ما أضحك «فيليب» هي الطريقة التي تم بها اعتقال «ريتشارد». فاعتقال رفيقه القديم وهو متنكر بزيّ «خادم مطبخ» وهو يقلّب الدجاج المحمّر كان بكل بساطة قصةً مضحكةً للغاية.

انتشر خبر اعتقال «ريتشارد» شيئاً فشيئاً في كل قصور أوروبا. ولا شك في أن الأمير «جون» في إنكلترا كان ليدفع ثمن هذا النبأ العظيم وغير المتوقع بالذهب واللآلىء عندما بلغته رسالة «هنري» من «فيليب أغسطس». فقد بادر إلىٰ عبور قناة النورماندي على الفور وأعلن نفسه وارث أخيه وطلب من «بارونات نورماندي» مبايعته، وقام بالتآمر مع «فيليب أغسطس». حالفه الحظ مع «فيليب» أكثر مما حالفه مع «البارونات النورمان» الذين عادوا وأكّدوا مبايعتهم «لريتشارد».

ولكن روما لم تكن لتفرح. فقد كلّف الدوق ليوبولد أوف أوستريا سجنه للحاج الملكي وخيانته التي كسب منها الفضة من خلال الصفقة الرخيصة التي عقدها مع «هنري السادس»، الحرمان الكنسي. وهدّد «سلستين الثالث» «هنري السادس» بالمصير نفسه إن لم يطلق سراح «ريتشارد» على الفور. فبالنسبة للبابا كان «فيليب أغسطس» على القدر نفسه من الخداع إذ إنه أبى أن يتجاوب مع شكاوى الملك الفرنسي الذي التقاه قبل ثمانية عشرة شهراً في روما عندما توعّده لرفع الخطر عن مسألة مهاجمة الأراضي العائدة «لريتشارد». لو أن الملك الفرنسي كان ليقوم بالاستيلاء على شبر واحد من أراضي «ريتشارد» خلال فترة سجنه المخزي لكان تم إلحاق الحرم «بفيليب» كذلك.

مرّت عدة أشهر دون أن يحصل أي تغيير يُذكر ومؤيدو «ريتشارد» يتساءلون عمّا يعيق الفاتيكان. ونظمت قصيدة سياسية تنتقد الحبر الأعظم وتتهمه بالجبن والخداع: «ماذا عن روما وعن النبلاء، ما الذي يحصل! لماذا ترجىء روما النبيلة استخدام سيف بطرس». وعكست هذا الشعور مجموعةٌ من الأساقفة النورمان بشدّة إذ شعروا أن التحرّك في هذه المسألة ملحّ معنوياً. واستشهدوا في هذا السياق بقصة «بطرس» الذي استل سيفه في الحديقة وقطع أذن خادم الكاهن الأعلى الذي جاء ليعتقل يسوع. كما أنّ هؤلاء الأساقفة كتبوا إلىٰ سلستين الثالث عن السجن الظالم الذي يتحدى كل القوانين والأعراف،

القديمة والجديدة، والذي يشكو منه الشعب، وتعاني منه الأقاليم، ويدفع الكنيسة إلىٰ الصراخ. فأرسلوا كتاباً لـ «سلستين الثالث» ينص على التالي: «هذا الاعتقال الظالم ترفضه القوانين كلها الحديثة والقديمة على حدّ سواء وينتحب له الشعب وترثي له المقاطعات ويدفع الكنيسة للاحتجاج عليه.

أطلق يديك أيها الأب الشكور واستل سيف «بطرس».

ولكن «سلستين الثالث» اختار أن يبقي على سيف «بطرس» المقدس مغمداً، إذ إنه لم يكن على استعداد لاستلاله وقطع أذن إمبراطوره الروماني المقدس.

الفصل الثاني والثلاثون

النصر الأخير

عندما تأكّد لصلاح الدِّين أنّ سفينة ريتشارد قد جلت أخيراً عن فلسطين، سجّل أهمية تلك اللحظة بإعلان نيّته الحجَّ إلىٰ مكة شكراً لله. بهذا الحج، يتم السلطان دينه فالحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام (بعد الشهادتين وإقامة الصلاة، وصوم رمضان، وتأدية الزكاة) التي بُني عليها الدين الإسلامي. والآن وقد أصبح الطريق مفتوحاً أمام الحجيج المسيحيين لزيارة الضريح المقدَّس في أورشليم، بات طريق الحج أيضاً آمناً من خطر قطاع الطرق الصليبيين انطلاقاً من سوريا ووصولاً إلىٰ الديار المقدَّسة في الجزيرة العربية. وحتى يطمئن صلاح الدِّين، أرسل ابنه الملك الأفضل إلىٰ قلعة الكرك وهي الحصن المنيع الذي كان لرينولد دو شاتيون لتفقد استعدادات كتيبته.

كان على السلطان أن يعاين المملكة الجديدة التي ظهرت إلىٰ الوجود قبل رحلته إلىٰ الجزيرة العربية فانطلق في عدد بسيط من الحراس ومرّ بمحاذاة المدن الساحلية التي كانت قد سلّمت للعدو غير أنّ عسقلان استحوذت على تفكيره. كان قد بعث مائة عامل نَشِط لتهديم الأسوار على أن يلتحق بهم عدد مماثل من المهندسين المسيحيين للمشاركة في عملية التهديم. وأصدر ريتشارد

لرجاله أمراً غامضاً يقول فيه: «يؤذن لكم بالمغادرة فور انتهائكم من الهدم»!

عاد صلاح الدِّين إلىٰ أورشليم بعد جولته القصيرة على القلاع الواقعة في أقصى الجنوب واختلى بنفسه بعيداً عن «طريق الآلام»، وتسنّى له التفرّغ لقضايا الدولة الأكثر سلماً. كان صلاح الدِّين قد سرّح جيشه ما خلا الجزء الأساسي منه وتفرّغ لمعالجة بعض المسائل الإدارية الروتينية وكذا بعض القضايا الدبلوماسية. أما الأعمال العسكرية فقد كانت منوطةً بالدرجة الأولى بالمهندسين فأوكلت لهم مهمات إصلاح الأضرار التي ألحقت بمنشآت المدن وتحصيناتها. وفي أثناءِ إقامته في أورشليم، أمر ببناء مستشفى ومدرسة في المدينة. وتخلّلت حياة السلطان لبرهةٍ من الزمن شهورٌ من الركود أَو الخمول؛ فقد انغمس في بحبوحة الأُلفة العائلية وإعجاب شعبه به.

في تلك الأثناء، استعد ابنه الملك الظاهر لمغادرة المدينة المقدَّسة بغية استئناف واجباته كحاكم لحلب. كان ابن صلاح الدِّين الثالث وقرّة عينه ولقّب بالمشمِّر إذ إنه قال: «وأنا كذلك مشمِّر» عندما أقدم أبوه على تقسيم الإمارات على أخويه الأكبرين. وقد استقرّ مسبقاً في نية صلاح الدِّين أن يجعل من ابنه هذا البالغ التاسعة عشرة من عمره ولياً لعهده. بعد أداء الصلاة في مسجد قبّة الصخرة، طلب الملك الظاهر أن يؤذن له برؤية أبيه لتوديعه. وعندما انفردا، أبدى السلطان اهتماماً أبوياً بعافية ابنه وبنجاح مهمته الجديدة وبتبوء ابنه للزعامة. قال صلاح الدِّين لابنه:

«أوصيك بتقوى الله تعالى فإنّها رأس كل خير. وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سببُ نجاتك. وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها؛ فإنّ الدم لا ينام. وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم. وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة وأكابرها فما بلغتُ ما بلغتُ إلاّ بمداراة الناس. ولا تحقد على أحدٍ، فإنّ الموت لا يُبقي أحداً.

واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يُغفر إلاّ برضاهم. وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم»[1].

في تلك الأثناء، وصل أوّل وفد من الحجاج المسيحيين إلىٰ مشارف المدينة. كان هؤلاء قد قاموا برحلة شاقة ومريعة عبر سهل الرملة إذ كانوا غير مسلمين ولم يكن في حوزتهم ما يحميهم ما عدا رخصة المرور التي سلِّمت إليهم في عكّا. وقد كان على رأس هذه الدفعة الأولى أندرو دو شوفيني، وهو راهب عسكري من كلوني، كان ضامن المعاهدة التي أُبرمت مع تانكريد أوف صقلية كما أنه أبلى بلاء حسناً في حصار عكّا. وقد حدث أن نام أعضاء فريق الاستطلاع في غابة فلم ينذروا القادة المسلمين باقترابهم. وأدّى ذلك إلىٰ وقوع الوفد في قبضة ألفي جندي مسلم أحاطوا بهم من كل جانب خارج أسوار المدينة. كانت تلك اللحظة مشحونة بالتوتر الحاد. علم صلاح الدِّين بهذا الحدث من بعض الذين كانت صدورهم تغلي حنقاً ووجدوا فرصة ثمينة تسمح لهم بالثأر لمقتل أبنائهم وإخوتهم. جعل صلاح الدِّين يهدئهم قائلاً:

ستكون وصمة عار وخزي في جبيننا إن نُقض العهد الذي أبرم بيننا وبين ملك إنكلترا بفعلنا. وسيصبح بعد ذلك صدق المسلمين محل ريبة إلىٰ الأبد.

أُذِن بعد ذلك للحجّاج الذين تملّكهم الروع بالاقتراب من أسوار المدينة. إلاّ أن مسيحياً دقيق الملاحظة سجّل مدى قلق الجميع وخوفهم وهم يمرّون عبر صفوف المسلمين ثم لمّا قضوا آخر ليلة لهم في سفح الجبل: «عند مرورنا بينهم كانوا مكشرين وعابسين، أنظارهم المسلّطة علينا كانت تنبىء بالحقد الذي يضمرونه لنا في قلوبهم. فالوجوه مرآة القلوب. وكان رجالنا مربكين إلىٰ درجة أنّهم كانوا يتمنّون لو أنّهم يرجعون إلىٰ صور أو حتى إلىٰ عكّا التي غادروها قبل وقت قليل. وهكذا، أمضينا الليلة على سفح جبلٍ ما في حال من الذعر الكبير».

---

(1) ابن شدّاد، ص 238.

حاول ريتشارد في الواقع أن يحدّ من تدفّق الحجاج بعد مغادرته بفرض تأشيرة رسمية لزيارة القدس تُسلَّم في عكّا وتطّلع عليها السلطات الإسلامية. كانت تلك محاولةً جريئةً منه لمنع الفرنسيين من الزيارة بعد خذلانهم إيّاه وتخلّيهم عنه في معركة يافا وغيرها. وقد حاول في مسعاه المُسيء هذا أن يكسب مساندة صلاح الدِّين له.

أما صلاح الدِّين فلم يعِر أدنى اعتبار لنوايا ريتشارد، بل تجاهلها تماماً. وكان يعتقد أن على كل حاج قد وفّق لأداء الحج وزيارة المدينة المقدَّسة مغادرة البلد فوراً وبذلك يكون في غاية السرور عندما يقدّم كل غريب من المحتلين احتراماته ومن ثمّ يغادر. ثم ذهب السلطان إلىٰ أبعد من ذلك. فقد أبلغ رجاله بأن الوثائق الرسمية من السلطات المسيحية لم تعد إجبارية من بعد هذه البعثة الأولى من الحجيج. ثم نصب مراكز للجنود على طول الطريق المؤدية إلىٰ القدس، لا ليزرع الرعب في قلوب الحجيج المسيحيين، بل على العكس من ذلك، ليوفّر لهم الأمن والسلامة.

وفي المدينة المقدَّسة ذاتها، خرج صلاح الدِّين عن المعهود باستقباله الحجّاج المسيحيين. ثمّ شجّعهم على تقبيل صليب سيّدهم الحقيقي الذي حُمِل في معركة حطين ثم ضاع منهم، كما شجعهم على زيارة جبل صهيون وزيارة مكان الجلجة والحديقة. فعلى كل حال، ليس المسلمون هم الذين صلبوا منقذهم، حسب رواية الإنجيل، ويسوع نبيّ من الأنبياء في الإسلام. وقد دعا صلاح الدِّين هؤلاء الحجاج إلىٰ مائدته حيث أجرى معهم حديثاً ودياً، بعيداً عن الشكليات وأكرم ضيافتهم. كما أنّه بعث برسالة إلىٰ عكا تعكس كرم معاملته إذ جاء فيها:

«عندنا هنا أناس قد أتوا من بعيد لزيارة الأماكن المقدَّسة. وإنّ شرعنا ينهانا عن منعهم من ذلك».

ثم كانت البعثة الثالثة لزيارة المدينة المقدَّسة يقودها هوبرت والتر Hubert

Walter، أسقف سالزبوري، وهو من أعظم وأحكم رجال ذلك العصر، وهو من أصبح رئيس أساقفة كنتربري، ورجل العدالة في المملكة بعد عودته إلىٰ إنكلترا. وكان، إلىٰ جانب ذلك، جندياً صنديداً سبق له أن أتى إلىٰ فلسطين قبل ريتشارد كما كان خلال المحنة من أوثق المستشارين لدى الملك. استقبل صلاح الدِّين هذا الضيف الوجيه بكرم واسع ودعاه للإقامة في القصر الملكي. لكنّ الأسقف اعترض وقال في تواضع: «نحن حجّاج، ولا يليق لنا الإقامة في ترف».

ورغم ذلك، فقد رافق صلاح الدِّين الأسقف عندما ذهب لرؤية «الصليب الحقيقي». وبعد ذلك، أقام مأدبة على شرفه حيث اغتنم الفرصة المناسبة ليستفسر بشيءٍ من الفضول أي صنف من الرجال كان بالفعل ريتشارد.

فأجاب الأسقف قائلاً: «لن أقول إلاّ ما يستدعيه الإنصاف وهو أن فرسان العالم أجمعين لا يضاهونه شجاعة وكرماً. فهو في كلّ الجوانب متميّز بكل صفة حميدة. وباختصار، حسب رأيي المتواضع، لو أنّ أحداً خاض في أخطاء فخامتكم، يأتي بفضائلكم مقابل فضائل الملك ريتشارد وينظر إلىٰ كليكما سويّة، لما وُجد رجلان غيركما في العالم يمكنهما منافستكما».

استمع صلاح الدِّين برحابة صدر إلىٰ هذا المدح المسهب، ثم قال بلطف: «لطالما أدركت أنّ ملككم رجلٌ على أعظم قدر من الشرف والشجاعة». وأضاف: «ولكنّه متهوّر، ولا أقصد بذلك الحماقة، إنّما كثيراً ما يدفع بنفسه إلىٰ المهالك. ويظهر عليه تهوّر كبير جداً في حياته الخاصة. أما أنا، فعلى الرغم من اتّساع البلاد التي أملكها، فإنّي أفضّل تولّي هذه الثروات الطائلة بالحكمة والاعتدال على أن أظهر الإفراط في الشجاعة والتهوّر».

ومع انقضاء المساء، كانت المشاعر الطيبة قد تعمّقت بين الرجلين. فدعا صلاح الدِّين الأسقف أن يسأل ما يشاء وسيؤتى سؤله. ونظراً لأهمية العرض، طلب هوبرت والتر الإذن في إرجائه إلىٰ الغد. عند صباح اليوم التالي، عاد

الأسقف للقاء الملك من جديد فاشتكي من أنّ أداء القدّاس الذي ترأسه مسيحيون سوريون في الضريح المقدَّس كان فاسداً. وعليه، طلب أن يُسمح لقساوسة لاتين وشمّاسين مكرّسين بشكل صحيح بالإقامة في أقدس أقداس المسيحية وأن يرسل عدد مماثل إلىٰ بيت لحم والناصرة.

قال الأسقف: «لهذا المطلب أهمية عظمى وإننا لنعتقد أنه يرضي الله».

فأعطاه صلاح الدِّين سؤله دون تردّد.

II

مـــاءٌ ودمـوع

مع اقتراب فصل الشتاء، كان صلاح الدِّين يتلهّف شوقاً للانتقال إلىٰ دمشق، مدينته المفضّلة حيث أقام عدد كبير من أفراد عائلته. فسار، عبر نابلس، إلىٰ القلعة العظيمة التي تشرف، من أعلاها، على الضفة الجنوبية لبحر الجليل، وهي قلعة شيّدها الصليبيّون ودعوها «بلفوار» ولكن صلاح الدِّين كان يعرفها باسم قلعة كوكب. مثّلت قلعة كوكب في نظر المسلمين قبل فتحهم لها «امرأة محصَّنة أو عذراء تستعصي على المريدين». وكذا كانت جميع القلاع الصليبية الهامّة إناثاً لدى المسلمين وكأنها تثير فيهم الرغبة وحب التملّك وهو ما يستدعي أحد الأمرين، إما أن تغازل غزلاً عفيفاً أو أن تغتصب. ومن «كوكب» التي كان قد فتحها السلطان، نظر هذا الأخير باعتزاز إلىٰ الطريق التاريخي الذي سلكه إلىٰ معركة حطين المجيدة. كما نظر عبر الوادي إلىٰ قلعة عجون التي رفع صرحها سنة 1184م لإقامة نوع من التوازن في مواجهة «بيلفوار». وبعد تفقّد حامية كوكب، تابع طريقه إلىٰ بيروت ومنها إلىٰ دمشق التي حلّ بها أخيراً في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر 1192م.

عند وصوله، استقبلته جموع الرعية بابتهاج وتكريم عظيمين. وكانت

الهتافات تعلو باسمه أينما انتقل عبر الطرقات. وأنشد الشعراء أهازيج حفاوة بناصرهم وحاميهم المظفّر. فكتب أحدهم: «بسط جناح العدل على الورى، وأمطرت سحب جوده وكرمه على الأنام عطايا».

ولا غرو في أن تكون دمشق مدينته المفضّلة، فهي أقدم مدينة مأهولة في العالم وأجمل بلاد الشام. وحقاً كانت دمشق واحة كبيرة يلطّف جوّها نهر بردى الذي يتخلّلها وسط امتداد سهل الغوطة المزدهر. بيوتها المبنية من الطوب كانت ضاربة في القِدم حتى قيل إنها وجدت قبل نوح. وكانت كثيْرة المكتبات والقصور. جامعها الكبير بفسيفسائه الرائعة لا مثيل له في الإسلام، وكانت قلعتها المفضلة لدى السلطان من بين كل قلاع إمبراطوريته. وفي جنائنها كتب الرحّالة العربي ابن جُبَير أنّها «قد أحدقت بها البساتين إحداقَ الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكِمامة بالزَهَر»[1]. لقد كانت جنة الشرق. وصدق المثل الشعبي القائل: «لو كانت الجنة الأرض، لكانت هي دمشق. وإن كانت في السماء، فإن دمشق صورتها على الأرض».

في هذه الجنة، التمّ شمل عائلة صلاح الدِّين. فقد رجع شقيقه العادل من مهمة تفقد الكرك وأطال البقاء فيها قبل الرحيل إلىٰ ممالكه الجديدة الواقعة ما وراء الفرات. وأتى الملك الظاهر ابن صلاح الدِّين من حلب وانضم إليهم ابناه الآخران وعائلاتهما. مدّت المآدب، ونُظّمت رحلات صيد إلىٰ منطقة الغباغب التي تبعد عن المدينة مسافة عشرين ميلاً نحو الجنوب وتزخر بالغزلان. وفيما كان صلاح الدِّين محاطاً بأولاده وزوجاته وجواريه وأحفاده، تعالت أصوات الغناء والأبيات الشعرية أيضاً، فقد بدأ السنّ يلقي بثقله على كاهل صلاح الدِّين. ومن الأبيات الشعرية المحبّبة إليه بيت يتطرّق لعادة يتّبعها رجال كبار في السن بصباغة شعرهم بخضاب أسود[2]:

---

(1) رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصّار، القاهرة 1955، ص 249.

(2) وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت 1971، 7/ 208.

وما خضب الناسُ البياضَ لقبحه   وأقبحُ منه حين يظهرُ ناصلُهْ
ولكنه ماءُ الشباب فسَوّدت   على الرسم من حزنٍ عليه منازلُهْ

وكلما ردّد هذا البيت من الشعر، شدّد على مقطع «الشباب قد ولّى» وشدّ نحوه حبيبته قائلاً: «أجل، تالله، لقد ولّى الشباب» وهو يطيل النظر في عينيها.

سكن السلطان واسترخى وسط هذا التجمّع العائلي المبارك. فاستعلم من وزيره عن عدد الأيام التي تعذّر عليه صومها في السنوات القليلة المنصرمة بسبب ضغط الحرب. لقد كان يرغب الآن بإتمام واجبه الديني. وعندما قدم وفد من الصليبيين لزيارته، أثارت وجوههم المحلوقة وشعرهم القصير ولباسهم المضحك خوف الصغار الذين سارعوا للاختباء وراء الستائر إلىٰ أن رحلوا، فضحك صلاح الدّين من تصرفهم هذا. على الأقل، لم يكن الملك ريك المخيف هو من جاء لزيارته. فقد كانت الأمهات، في كل أنحاء فلسطين، يستخدمن اسم الملك الإنكليزي المرعب لتهديد أولادهن ودفعهم لإطاعة أوامرهن: «إن لم تنظّف غرفتك، سيأتي الملك ريك ويطبق عليك».

خلال أشهر الشتاء التي هطلت الأمطار فيها بغزارة وغطّت الوحول الطرقات، استسلم السلطان لحالة من الكسل الخادر. فألغى المآدب طوال أسابيع ولم يكترث ألبتة بالطعام فيما خلا الأرز المغلي بالحليب وبعض المرطّبات الخفيفة. وقلّص عدد زوّاره. وانقطع الحديث عن الذهاب إلىٰ مكة لتأدية مناسك الحجّ. وما أن بدت علامات المرض الأولى هذه حتى أرسل في طلب كاتبه ومستشاره؛ بهاء الدين من القدس.[1] ولكنّ الطقس العاصف على الطريق حال دون وصوله قبل تسعة عشر يوماً. هرع الكاتب لرؤية السلطان فوجد سيّده سقيماً هزيلاً يعاني من سوء الهضم.

حاول بهاء الدين أن يبعث البهجة في روح سيّده قدر المستطاع. فخرج

(1) قارن بابن شدّاد، ص 241 – 242.

وإياه للترحيب بالحجيج القادمين من الحج ولكنه لاحظ عندما أصبحا في الخارج بين الحشود أنّ السلطان لا يرتدي زيّه المحشو أو كزاغُنده. استغرب الكاتب لهذا الأمر فلطالما حرص صلاح الدِّين على سلامته عندما كان يخرج للملأ ولا يعرّض نفسه للخطر ولا سيما للذي يشكّله الحشّاسون، وعندما لفت انتباه السلطان إلى هذا الإغفال، اكتفى صلاح الدِّين باستدعاء المسؤول عن لباسه الذي لم يُعثر له على أثر.

قال بهاء الدين لنفسه بوجل من يرتقب شرّاً: «سلطان يطلب ما لا بد منه في عادته فلا يجده!». واعتبر الأمر إنذاراً بالشؤم. وارتدّ الرجلان على عقبيهما عبر طريق مقفرة وسجَّل بهاء الدين شعوره فيما بعد فقال: «كان قلبي يُرعَدُ لما قد أُوقع فيه من الخوف عليه».

في أواخر شهر فبراير (شباط)، انتقل صلاح الدِّين من حالة الخمول إلى المرض ولازم سريره في المقرّ الصيفي في قلعة دمشق. ظلّ يعامل مستشاريه بمودّة حتى في حالة الكآبة ولكنه عجز عن ابتلاع الطعام وصعب عليه شرب السوائل. أتى خادمه يوماً بماء فاتر ولكنه أعاده لأنّه وجده شديد السخونة. جُلِب له كوب آخر من الماء فوجده شديد البرودة؛ واشتكى بقوله: «سبحان الله، لا يمكن أحداً تعديل الماء!».

أدار كاتبه وجهه والدموع تترقرق في عينيه وقال: «يا لها من شخصية عظيمة سيحبّها المسلمون. أي امرىءٍ آخر في مكانه كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره»!

قَصَد رئيس أطباء صلاح الدِّين الامتناع عن زيارة السلطان لعدة أيام كما لو أنه يشير إلى أنّ حالته باتت ميؤوساً منها. انتشر خبر هذه النبوءة السيئة في كل أنحاء المدينة واتُّخذت الإجراءات اللازمة لتفادي تفشي الفوضى والبلبلة بين الناس. أخلى التجار محلاّتهم في السوق القريب خوفاً من أعمال السلب والنهب. شغل الملك الأفضل، ابن صلاح الدِّين البكر، الكرسي الملكي، في

أثناء سقم والده، في قاعة المآدب وباشر في محاولة كسب تأييد الأمراء له وأثار بذلك سخط البعض الذين اعتبروا سلوكه معيباً ووقحاً. سارع حاكما دمشق وصهيون (القلعة الضخمة شرق اللاذقية) لمبايعته وتبعهما آخرون بمن فيهم ثلاثة أمراء أكراد. وافق المشطوب نديب الوجه على مبايعته شريطة حصوله على هبة كبيرة من الأراضي. واشترط أمير آخر ألا يطلب إليه محاربة أي شقيق من أشقاء الأفضل.

في ما كان صلاح الدِّين يخضع للفصد ويعاني الأمرّين عند رشف ماء الشعير، رَتَّل الأمراء أمام ابن صلاح الدِّين يبايعونه. تضمن قسم المبايعة «بنداً انفصالياً» ثلاثياً: «إن حنثت بقمسي، تصبح زوجاتي طالقات، وعبيدي معتقين، ووجب عليّ الحج إلىٰ مكة حافي القدمين».

في اليوم العاشر من مرض صلاح الدِّين، حُقن السلطان حقنة شرجية أحسّ بعدها ببعض الارتياح وتمكّن من شرب المزيد من ماء الشعير. وبعد فترة قصيرة، تعرّقت قدماه مشيرة إلىٰ تحسّن حالته. وما مرّت عدة ساعات حتى أعلن الأطباء والدهشة تأخذهم أن التعرق غزير للغاية بحيث ابتلّ فراشه بالكامل: هل حدثت معجزة؟ لكن في اليوم الثاني عشر، عادت حالته للتدهور، وبدأ يخالَطُ في عقله. انكبّ الشيخ الملازم على قراءة آيات من القرآن الكريم، ولا سيما الآية 22 من سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وتمتم المريض: «صدق الله العظيم».

تقول الرواية إن السلطان استدعى حامل رايته الذي رافقه في العديد من معاركه العظيمة وقال له: «أنت، يا من حملت رايتي في الحروب، احمل الآن راية موتي. ولتكن خِرقة وضيعة تحملهاعلى رمحك وتدور بها في كل أنحاء دمشق معلناً: عجباً لموت ملك الشرق. لم يستطع أن يأخذ معه سوى هذه الخرقة»!

النصر الأخير

في الرابع من مارس (آذار) من سنة 1193، أسلم صلاح الدِّين الروح. فسجّل أحد الكتبة: «رحمه الله وغفر له، فقد كان زينة الدنيا ومحط إعجابها».

غُسلت الجثة وكُفِّنت، كما جرت العادة، وشدّت ثيابه الخاصة ـ بما فيها سرواله وصدريته وقباؤه المميَّز بمعصميه الأسودين ـ في رزمة محكمة الإغلاق. اتّسمت إجراءات الدفن بالغرابة فقد تبيّن أن السلطان لم يكن يملك شيئاً ـ لا عقارات ولا بيوتاً ولا أراضي ولا جنائن ولا ذهباً أو فضة في خزانته ما خلا ستة وأربعين درهماً نصيرياً أي أقل من ليرة إنكليزية. وبالتالي أجبر مساعدوه على استدانة بعض المال لشراء الضروريات واقترضوا ما مقداره نصف بنس لشراء «التبن الذي يُلتُّ به الطين» لتبطين قبره. استخدم قماش مقلّم لكسوة النعش. ووريت جثته الثرى قبل صلاة العصر في الحديقة القريبة من المقر الصيفي حيث صارع مرضه الأخير.

«فجع موته القصر والمدينة والعالم بأسره والله وحده يعلم مدى الأسى الذي خالج القلوب». كلمات سجّلها كاتبه الوفي بهاء الدين[1].

ازدحمت طرقات دمشق بحشود المنتحبين. وخلال الأربع والعشرين ساعة الأولى بعد موته، لم يؤذن بدخول القلعة إلاَّ للأُمراء والقضاة. في هذه الأثناء، نزل أبناؤه إلىٰ الطرقات لمؤاساة الرعية فقد كانوا في مصابهم الأليم كما وصفهم القرآن: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [سورة الأحزاب: 10].

وفي اليوم التالي، فتح الملك الأفضل الأبواب لاستقبال الوفود المُعزية. مُنع الشعراء، في البداية، من نظم أبيات الرثاء لسيّدهم فقد كان تواضع صلاح الدِّين من بين كل خصاله النبيلة هو الذي ترك الأثر البالغ في قلوب

(1) ابن شداد، ص 247.

معارفه ورعيته. أسّس في القاهرة ثلاث مدارس ومستشفى، وشيّد في القدس مدرسة ومستشفى وفي دمشق مدرستين. لم تحمل أيّ من هذه المؤسسات اسمه، ولذلك قيل عنه بأنه كان مديناً لرحمة الله بخلوّه من الخيلاء والعجب. كم كان مختلفاً عن ريتشارد!

بعد موت صلاح الدِّين، شعر بهاء الدين المفجوع الذي كان قد كرّس حياته لتسجيل مآثر هذا الرجل وبطولاته بأن الحياة اتسمت بطابع سريالي. فأنشد معبّراً عن شعوره:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلامُ

كان لا بد، في نهاية الأمر، أن يُمتدحَ صلاحُ الدين؛ فعبّر أحدهم عن تقديره بقوله: «صحيح أنه كان يمسك بزمام مملكة شاسعة واسعة لكنه كان شديد اللطف متواضعاً. كان يكلم الصغير والكبير بمودة، طيب القلب، صبوراً، طويل الأناة، متسامحاً، طاهر السريرة، وكريم الأخلاق، وحسن العشرة لخواصه وأعوانه، أدخلهم في صحبته وعاملهم بإحسان. شجّع كل من رأى فيه موهبة. وكان من عشاق الشعر ولذلك لطالما ألقى أمام حاشيته أبياتاً شعرية حفظها...». وأخيراً، أطلق العنان للشعراء لنظم القصائد تمجيداً له وإكراماً. والقصيدة من أصعب الأبيات الشعرية نظماً ولطالما ألقت قافيتها المحصورة بقيود صعبة الرعب في قلوب الشعراء العرب وشلّت أقلامهم في أيديهم طوال قرون.[1]

بعد مرور ثلاث سنوات على موت صلاح الدِّين، نُقل جثمانه من القلعة إلىٰ ضريح يقع شمال مسجد دمشق الكبير. شيّد الضريح على شكل مقام تعلوه قبة وفيها نافذة مقضّبة تطلّ على المدرسة التي أسّسها. نُقل جثمانه إلىٰ هذه

(1) أورد المؤلّف هنا ترجمة لبيتٍ في رثاء صلاح الدين أنه ملكُ العالم بأسره؛ وما استطعتُ العثور عليه.

القبة في شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة 1195م. ونقشت على رخام ضريحه الكلمات التالية:

«اللهم! فأرْضَ عن تلك الروح. وافتح له أبواب الجنة فهي آخِر ما كان يرجوهُ من الفتوح»[1].

(1) في وفيات الأعيان 7/ 206 أن هذه العبارة من كلام وزيره القاضي الفاضل.

الفصل الثالث والثلاثين

ليس بالأوراق والبراعم بل بالثمار

قلعة برنشتاين Bernstein؛ قصر ضخم فخم شيِّد على مرتفع صخريّ على ذروة الهضاب المشرفة على نهر الدانوب، على بُعد ستين ميلاً غرب ڤيينا، في منطقة تُعرف باسم ڤاخاو Wachau. بُنيت القلعة على الطراز الروماني المتأخر، فكان لها فناء علوي يُفضي إلى أبراج خفيضة وسقف هرمي. حماية هذا المقلع توفرت من خلال جدار مُحْكَم تتخلّله أبراج متساوية البُعد، ويمتدّ حتى أسفل الهضبة وصولاً إلىٰ ضفة النهر حيث يَحَفُّ بقريةٍ صغيرة. وقع اختيار ليوبولد على هذا المكان الذي وجد فيه السجن المناسب لريتشارد لبعده القاصي ولما أبداه له سيّد القلعة المدعو هادمار الثاني Hadimar من وفاء. كان هذا الأخير يحمل لقب Küeringer أَو المحارب الشجاع، ولا شك في أن صفتي الشجاعة والمبادرة كانتا ضروريتين للبارونات في تلك الحقبة من الزمن التي شهدتها النمسا. جسّدت ممتلكات ليوبولد خط الدفاع الأوّل للإمبراطورية الرومانية المقدَّسة في مواجهة الخيّالة الشرسين القادمين من الشرق، من هنغاريا (المجر).

وُضِع ريتشارد، في هذه القلعة المنيعة، تحت المراقبة المشدّدة. كان الحراس يحيطون به بسيوفهم المسلولة في مقصورته الواسعة، ولكنه باستثناء

هذا الإخلال، عومل معاملة الملوك. سُمِح له باستقبال الزوّار والسيدات للترفيه عنه، وزوّد بكل ما لذّ وطاب وبكميات وافرة من النبيذ الأبيض الذي اشتهرت به منطقة Wachau حتى في تلك الفترة. ومع أنّ مؤيديه اشتكوا لاحقاً من سوء المعاملة التي لحقت به، إلاّ أنه لم يصفَّد يوماً ولم يعذَّب. تقول الأسطورة إنّ الملك أقام علاقة صحبة وودّ مع حرّاسه، فلم يفقد روح النكتة، وكان يحاول أن يرفّه عن نفسه بإشراكهم في مختلف ألعاب القوى.

بعد حقبة من الزمن، وفيما كان قَصُّ حكايات الأطفال عن ريتشارد جارياً، افتقر الكتّاب الرومانسيون إلىٰ دعابات ومباريات للقوى يكتنفها القدر الكافي من العنف والدرامية؛ ولذلك اتخذوا من الحقائق العارية لفترة سجنه حبكة لرواية هذه المراحل المذهلة. فتحوّل ليوبولد، دوق النمسا، إلىٰ الوغد الشرير في القصة فيما أصبح تابعوه وحرّاسه أدواتٍ للصراع. وتصف إحدى الروايات مبارزة pluck-buffet (اضربني وأضربك) جرت بين ريتشارد وابن الدوق الشرير. تعود أصول تلك اللعبة البربرية التي يتبارز فيها الديَكةُ، إلى زمن الإغريق، وترتبط ارتباطاً حزيناً بالسخرية التي تعرّض لها المسيح عقب أَسْره من قبل الجنود الرومان فقد عصبوا عينيه و«ضربوه» وتهكموا به بقولهم: «أظهر لنا نبوءتك أيها المسيح. من ذا الذي ضربك؟».

هنا، اتخذت «اللعبة» منحنى جرمانياً مميزاً فقد كان على أحد الرجال الوقوف جامداً معصوب العينين فيما يوجّه له الآخر ضربة على رأسه، فيبدي بالتالي مقدار شجاعته وصموده. فإذا تمكّنت الضحية من تحمّل هذه الضربة العنيفة والبقاء واقفةً على قدميها، يعود إليها أمر تسديد الضربة الثانية. كان ابن الدوق ضخم البنية صنديداً على غرار ريتشارد، وعاد تسديد الضربة الأولى إليه لكونه يمتلك حق الحراسة على الملك. ترنّح ريتشارد من زخم الضربة وتمايل أكثر مما كانت كرامته تسمح به. وشعر بأنّ «ضعفه» هذا سببه سوء التغذية ولذلك طلب الإذن بتأجيل دوره في تسديد ضربته إلىٰ اليوم التالي كي يتسنّى له

تناول وجبة طعام وفيرة. أعطاه غريمه مطلبه هذا فقد كان شاباً طيباً وغبياً.

بعد تناول وجبة وافرة من اللحم والنبيذ، أمضى ريتشارد الليل في تشميع قبضته حتى أصبحت في الصباح التالي كمثل الفولاذ. وعندما حان دور الملك، سدّد إلىٰ غريمه ضربة مزّقت فك ابن الدوق وسرعان ما توفي الشاب بعد فترة. ولم يكن ريتشارد ليتوقع أن تنهمر عليه العطايا بعد حدثٍ كهذا.

رواية أجمل وأطول بعد هي التي تحكي قصة وقوع ابنة الدوق الجميلة في حب الملك الوسيم بحيث خالفت قوانين القلعة، وصارت ترسل له خلسةً مختلف أنواع الأطعمة والحلويات، وذهبت إلىٰ حدّ إلباسه ملابس الجنود وإدخاله في السرّ إلىٰ غرفتها ليلاً (تتجاهل هذه الرواية تحديداً ميول ريتشارد ونزعاته). وتصل رواية القصة إلى افتضاح أمر اللقاءات الغرامية في نهاية المطاف. فجرّ الأسير جرّاً لمحاكمته. مارس الدوق الشرير بالطبع ضغوطاً لإصدار حكم الإعدام الفوري، إلاّ أن رئيس القضاة خطرت في باله فكرة أفضل وأكثر تلاؤماً مع محاكم أوروبا. هذا هو إذن ريتشارد قلب الأسد! لماذا لا نحرم الأسد الضخم في زريبة الدوق من الطعام ونطلقه بعد ذلك في زنزانة السجين؟ سيتمكنون عندئذٍ من معرفة أيهما له قلب الأسد فعلاً.

ارتعدت فرائص ابنة الدوق لدى سماعها هذا المخطط الشيطاني وسارعت إلىٰ زنزانة الملك تمد له يد العون لتسهيل فراره. رفض ريتشارد النبيل عرضها بالطبع واكتفى بطلب أربعين من وشاحاتها وكفوفها الحريرية المعطّرة المفضّلة لديها. في اليوم المحدّد، فتح باب الزنزانة على مصراعيه وتأهّب الملك الذي كان قد غلّف ذراعيه تغليفاً محكماً بكفوف حبيبته. عندما انقضّ الأسد عليه، خطا الملك خطوة جانبية بكل خفة ورشاقة في آخِر لحظة ولكم الحيوان في ذقنه بكل قواه فطرحه أرضاً. تقلّب ملك الغاب وزأر زأرةَ ألم ومهانة. ما أن رأى ريتشارد فم الحيوان فاغراً حتى زحف إلىٰ الأمام وأقحم ذراعه الموشّح في غور حلقه وانتزع قلب الأسد! استناداً للأسطورة، توقف

ريتشارد لوهلة لحمد الله ثم مشى بخطى واسعة إلىٰ طاولة الدوق الشرير ورفع قلب الأسد وعصره لاستخراج الدم كله منه ثم غمسه في الملح وأكله!

صحيح أنّ هذه الرواية هي أفضل ما حكي عن أسد ريتشارد ولكنها ليست الأكثر شهرة. إذ تحوز على هذا الامتياز والشرف قصة تروي كيفية العثور على موقع سجن ريتشارد. تقول الرواية إنّ الملكة بيرنغاريا عادت، في نهاية المطاف، إلىٰ إنكلترا وخلت إلىٰ نفسها في حصنها الملكي في أكسفوردشير منتظرةً انتظار اليائس أخباراً تنبىء بحدوث معجزة. كانت قد قدمت إلىٰ هذا المكان برفقة مغني ريتشارد الذي كان يحتلّ مكانةً خاصة جداً في قلب ريتشارد حسب ما تناقلته الروايات. لطالما أمضى ريتشارد وبلونديل ساعات عديدة سوية في طفولتهما، يصطادان معاً ويطفران معاً، وكان بلونديل يصدح بأغنيات الحب والوفاء للملك الذي كان يكافىء شاعره بإغداق الهدايا عليه. لقد كان يوليان لمشاعر الود التي تجمعهما وللحب بشكل عام أهمية كبيرة حتى أنهما نظما عدداً من أغنيات الحب سوية. والمفضلة لديهما كانت أغنية تحمل اسم «القلب الشغوف».

مرّت عدة أشهر لم يرد خلالها أي خبر من الملك، فازدادت بيرنغاريا قلقاً حتى بات بلونديل عاجزاً عن مؤاساتها. وأخيراً أعلن بأنّ «البكاء لم يعد ينفع فالعمل خير من العويل». وأسرّ لها بخطة تهدف إلىٰ البحث عن الملك السجين في مكان ما في الإمبراطورية الجرمانية المترامية الأطراف، وطلب منها التكتّم على الخطة وإبقائها سرّاً بينهما.

وأعلن قائلاً: «لا بد أن ينتصر الفن حيث أخفقت القوة والدبلوماسية الحاذقة»، وانطلق كما الأبطال نحو القارة يتنقل بين القصور الملكية لأسابيع وأسابيع، يداعب أوتار عوده ويصدح بالأغنيات التي ألفها بصحبة الملك:

القلب الشغوف يجد سكينته في العذوبة
وأتوق لتذوق قبلات الحب الحقيقي
فمصيري الموت ولا شك إن لم أحصل على قبلة قريباً

وعندما ملّ من ترديد هذه الأغنية، اختار واحدةً من أغانيه العديدة المشهورة:

أعشق وعشقي كالجمرة

تدفعني للغناء

أتصرف كمن أُخِذ على حين غرة

وعجز عن المقاومة

ومع ذلك امتلك ما يجعلني أفتخر وأتباهى

ففي الزمان البعيد تعلمت كيف أحب بوفاء

وفي نهاية المطاف، وصل إلىٰ ضفاف نهر الدانوب، وتنقّل بين قصورها يشدو فيها بأغنياته:

قبلة في السرّ هي جرح في قلب الحب

مميتة ولكن خفية

واحسرتاه، لماذا نتباهى إلىٰ هذا الحد بهذا الداء!

مع أن الشفاء منه ممكن

لو لامست فمي من جديد

أخيراً، وصل إلىٰ أسوار برنشتاين المنيعة. فوقف تحتها، وصدح بملء صوته في الهواء العليل:

ما من امرأة تستطيع أن تكون معشوقة روحي وأحاسيسي

إن اخترت أن أمنح الآخرين عطفي واستحساني

أفضّل أن أعيش وحيداً منبوذاً مكروهاً

على أن أوزّع روح حياتي وعواطفي

وفجأة انطلق من شق نافذة في أعلى البرج صوت الملك القوي المدوّي الجهير يشدو بالجزء الثاني من الأغنية ذاتها:

رؤيتك يا عاشقي الكريم تضرم فيّ مشاعر الحب

ولكن يا حسرتاه، قلبك لم يطرق العشق بابه بعد

ولذلك عليّ أن أتحمّل ألمي وحزني

بما أنّ كلّ منافسي في حالةٍ كحالتي.

وما أن ختم الملك الأسير أغنيته حتى شهق شهقةً كان يطلقها في رحلات الصيد عندما كان الرفيقان المرحان يعدوان سوياً في غابة أكيتان. وهنا، يقول المؤرخون أن بلونديل شعر «بفرح غامر» لدى سماعه صوت صديقه ومليكه.

ماذا حدث بعد الانتهاء من شدْو هذه الرُباعية؟ تختلف تتمةُ القصة باختلاف الروايات عبر العصور. ففي إحدى الروايات، دُعي بلونديل إلىٰ داخل قصر برنشتاين حيث أمضى عدة أسابيع للترفيه عن الحرس إلىٰ أن تمكّن من الرحيل. ولكن الشكوك ساورت الحرس، في رواية أخرى، لدى سماعهم هذا الغناء الودّي وهتافات الصيد الصاخبة فأطلقوا الكلاب المتوحشة لمطاردة المغنّي. في كل الأحوال، بلغنا أن موقع أسر ريتشارد قد اكتشف بفضل يد العون التي مدّها بلونديل. وندين لهذا المغني بالخبر اليقين عن موقع سجن ريتشارد وإعلام إنكلترا به.

II

الاحتجاز المُرفَّه

بحلول ربيع سنة 1193م، كان خبر ما آل إليه ريتشارد قد انتشر في بلاطات ملوك أوروبا. إنّ إمبراطوراً يحتفظ بملك رهينة لديه! يا له من خبر هام

وسبب لانفجار أزمة في القارة الأوروبية. تكثفت الجهود الدبلوماسية التي اضطلع فيها البابا سلستين الثالث بدور المُطلِق لعددٍ من المبادرات ـ كما بات موضعاً للانتقادات التي استهدفته بسبب بقائه ساكناً خاملاً بلا حراك.

أُذِن لريتشارد بكتابة الرسائل وبعثها إلى إنكلترا، فقد بدا في ذلك خير يخدم مصلحة الإمبراطور. في السادس والعشرين من آذار/ مارس، كتب ريتشارد إلى أُسقف كنتربري، رئيس أكبر أبرشيات إنكلترا ثراء، يصف أسره بأنه مقبول، ولكنه يبلغه بخبر صاعق مفاده أنّ الإمبراطور يطالب بفدية مقدارها مائة ألف مارك فضي. فدية تعادل ثروة باهظة جديرة بالفعل أن تطلق عليها تسمية «فدية ملكية». كانت هذه الفدية تساوي نصف خزينة المملكة. توسّل ريتشارد بأن تقرضه الكنيسة ما تملكه من مال، وأن تساعد في جمع ما يتبقى من المبلغ. لقد تعدّى ابتزاز هنري حدود الاستبداد والغطرسة. جلّ ما كان يسعى إليه هو إفلاس إنكلترا وشلّها في أوروبا فيما كان يحوّل ثروات القارة وسطوتها إلى ألمانيا.

في هذه المرحلة الانتقالية، وفيما كانت إنكلترا تحاول استيعاب الأزمة، دوّن قلم إليانور أوف أكيتان أهم المراسلات. كانت تقيم في لندن في محاولة منها لكبح تعدّيات جون على العائلة. وفي ثلاث رسائل بعثتها إلى البابا، قدّمت إليانور نفسها بتشامخ على أنها ملكة الإنكليز (متجاهلة اسم بيرنغاريا التافه) ودوقة النورماندي وكونتة أنجو ـ ثم وصفت نفسها بكل تواضع بأنها أم حزينة بائسة وقع ولدها ضحية مؤامرة خسيسة حُبِكت ضدّ الله وإنكلترا. وفي رسالتها الموجّهة إلى سلستين الثالث كتبت: إن الملك «في ضيق وعسْر والأخطار تحدق به من كل جانب. انظر إلى حالته وخراب إنكلترا، وكيد الزمان، وجبروت الشرير الذي يوجّه الأسلحة مدفوعاً بجموح أطماعه إلى الملك الذي قبض عليه (هنري السادس) فيما كان يؤدي حجّه المقدّس في رعاية الله، وتحت وصاية الكنيسة الرومانية». وقد أظهرت من خلال تعبيرها

عن «جموح أطماعه» وفي ذكرها اللاحق «للأطماع التي لا تنتهي» بأنّها على علم بالصفقة التي باع بموجبها ليوبولد الملك ريتشارد إلىٰ هنري السادس. وفي كلامها تلميحات إلىٰ أنّ هنري اشترى ريتشارد لتغيير منحى الصفقة بتحويلها إلىٰ عملية إعادة السجين الملكي مقابل مبلغ باهظ.

دافعت إليانور عن قضيتها تارةً بحماسٍ وتهكم، وطوراً بغضب وإطلاق تهديدات مقنّعة. واشتكت من تقاعس البابا في إرسال ولو وفد بابوي واحد إلىٰ هنري للاحتجاج على أفعاله، لا بل إنه لم يبعث بشمّاس مساعد أو حتى قندلفت واحد. وتساءلت، على غرار أساقفة النورماندي، عمّا حال دون استلال سيف بطرس في مواجهة الإمبراطور الوقح والمتمرّد وكلبه المدلّل ملك فرنسا إذ إن سيف الروح هو سيف الله (مقتبسةً كلامَ بولس إلى أهل أفسس)، وأضافت في رسالتها: «تآمر ملوك الأرض وأمراؤها ضدّ ولدي، وهو من نصّبه الله في موقعه هذا. فأحدهم يكبّله في سلاسل من حديد، فيما ينهب آخر أراضيه. أحدهم يحتجزه فيما الآخر يسلبه. وفي حين تجري هذه الأعمال، يبقى سيف القديس بطرس في غمده». ثم شجبت بقوة الأقوال الخاوية التي تفوّه بها كاردينالاته فقالت: «للأسف، أعلم الآن أن وعود كاردينالاتك كانت مجرد كلمات عقيمة تفوّهوا بها. فلا تُعرف الأشجار من أوراقها ولا من أزهارها بل من ثمارها. وبذلك اطلعنا على ما يضمره كاردينالاتك».

وبنبرة التهديد، لامت الفاتيكان على تقاعسه عن مواجهة طيف التفرقة المخيف في وسط مجتمع الدول الكاثوليكية: «لحظة مصيرية باتت وشيكة فقد قاربنا على رؤية لباس المسيح يؤجر مجدداً، وروابط القديس بطرس تكسر، والوحدة الكاثوليكية تتلاشى». ويبدو أنّ حالة الشقاق هذه المرة تتناقض عما كان عليه الوضع منذ عشرين سنة خلت مع توماس بيكيت. ففي تلك الفترة، اعتقل الملك أمير الكنيسة وأبقاه رهينةً لديه. أما اليوم، فقد أصبح الملك هو الرهينة بسبب تقاعس الكنيسة وخمولها. ولكن عواقب الانحلال تتماثل في الحالتين، برأيها.

وقبل حلول عيد الفصح، أُرسل عدة أساقفة إنكليز، بمن فيهم وليام آوف إيلي المعروف ومستشاره المقرّب هوبيرت والتر الذي كان أسقف سالزبوري، إلىٰ أوروبا للبحث عن ريتشارد وتقييم وضعه. اقتفى الأساقفة أثره حتى وصلوا إلىٰ سوابيا Swabia، فبعد أن باع ليوبولد ملك النمسا ريتشارد إلىٰ الإمبراطور هنري كرقيق محتمل، نقل الملك الإنكليزي من برنشتاين إلىٰ قلعة ترايفلز Trifels الكئيبة على الحدود السوابية. كانت هذه القلعة معروفة شيِّدت منذ مئات السنين ويُروى أن على المرء توديع أهله قبل التوغل في أروقتها المظلمة فقد يكون آخر عمل يقوم به قبل موته.

وجد الأساقفة ريتشارد بمعنويات مرتفعة، ولم يبن عليه أثر الإهانة والانكسار من جراء سجنه لا بل النشاط والهمة. أمطر مواطنيه بأسئلة عن إنكلترا وحالة المملكة بشكل عام. واستمع بآذانٍ واعية إلىٰ رواياتهم عن خدائع شقيقه جون. وما أن عرف بتوفيقه في حِيَلِهِ هذه حتى أجاب متهكماً: «لا يمكن لشقيقي جون أن يخضع البلاد إن تمكن رجل واحد من التصدي لمحاولاته».

انتقلت المجموعة تحت الحراسة من تريفلز إلىٰ أوكسينفورت Ochsenfurt. وفي نهاية المطاف، إلىٰ سباير Speyer على ضفة الراين اليسرى. كانت سباير مقرّ أسقفية بافاريا واشتهرت بكاتدرائيتها الرائعة المبنية بالحجر الرملي حيث كان الإمبراطور يقيم بلاطه في عيد الفصح. وللمفارقة الساخرة، تعدّ سباير واحدة من ست بلدات تقع على ضفاف الراين شهدت مجازر ذهب ضحيتها يهود على أيدي عصابات مسيحية منذ مائة سنة، قبل أن يطلق الصليبيون حملتهم الأولى «المجيدة» نحو الديار المقدّسة.

وفي سباير، كان سان برنارد أوف كليرفو قد دعا بحرارة لإطلاق الحملة الصليبية الثانية منذ خمسين سنة تقريباً، ووعد بأن تغمر الرعاية الإلهية كل من يذهب إلىٰ الأرض المقدَّسة والخلاص الأبدي لكل من يلاقي حتفه. وبذلك كان هنري يزيد من اللعنات المنزلة على هذا المكان في سجلاّت الصليبيين.

ومع ذلك، بدا ريتشارد غافلاً عن كل هذه الأمور. لقد كان يتحرك كأنما تحرّر من الزنزانات المعتمة الرطبة، ولذلك شعر بأن معنوياته ترتفع. إن عجلة المحادثات الدبلوماسية تدور وتعود عليه بالفائدة وسيحصل قريباً على فرصة مواجهة من يتهمه. أعجب رفاقه بصحبته الرائعة التي خفّفت عنهم مَشاقّ ترحالهم.

وكتب المؤرخ روجيه أوف هوفدن عنه: «لقد حاز على إعجاب الجميع بتصرفاته اللبقة والجسورة واللائقة».

وأخيراً، وقف بين يدي هنري السادس في أحد السَّعف. ومع أن الدافع الرئيسي الذي حدا الإمبراطور إلىٰ اقتراف هذه الإهانة كان سياسياً ومالياً، فقد كان يكنّ لريتشارد كرهاً حقيقياً ويصبّ عليه غضباً تزكيه المعلومات الخاطئة المقصودة التي زوّده بها فيليب أغسطس المتعصّب. وعندما وقف الأسير يحملق به، انهال عليه الإمبراطور بالاتهامات. لقد كانت خيانة ريتشارد له سبباً كي يفقد صقلية بالإضافة إلىٰ مجموعة كبرى من الجنود ومبلغ كبير من المال معهم. لقد قصد ريتشارد أن يسيء معاملة أحد أقربائه، أي إمبراطور قبرص، بدافع من الكُره حتى أنه يقال بأن ريتشارد قيّد إسحق كومنينوس ذاك بسلاسل من فضة في مكان ما في فلسطين. لقد اغتال ريتشارد ولي عهده، كونراد دو مونتفرّا، وأرسل بضعة رجال ينتمون إلىٰ فرقة الحشّاشين الشرقيين لقتل فيليب أغسطس الفرنسي. وأخيراً لقد أبدى مشاعر الاحتقار والازدراء حين سمح بأن يتمرغ علم النمسا المقدَّس في الغبار والترابَ في عكّا.

بدت مكائد فيليب واضحةً جليةً في هذه الاتهامات الغاضبة، إلاّ أن ريتشارد دافع عن نفسه بأسلوب ودّي متسامح. لقد زُوِّد الإمبراطور بمعلومات خاطئة. وفنّد كل تهمة على حدة أمام جمهور البارونات الجرمانيين المشككين وتكلم «بوضوح وبقوة من له قدرة إقناع» حسب أقوال أحد المراقبين. لم يكن في مقدوره منع ما حصل في صقلية وقبرص فقد تصرف كما يتصرف أي قائد

عظيم للحملات الصليبية باستخدام هاتين الجزيرتين محطةً لحملته. كان بإمكانه إنكار التهم برمتها التي تجعل له يداً أو مصلحة في أي حادث اغتيال حصل في الماضي أو يحصل في الزمن الحاضر، ووعد بتقديم دلائل جديدة على براءته من هذه التهم. كما ذكر أنه لا ضلع له في الإهانة التي ألحقها جنوده بالعلم النمساوي. صحيح أن هذا الحادث أثار اشمئزازه وأحرجه وإن ليس بقدر ما شعر به عندما غرق فريدريك بارباروسا، أحد مواطني هنري. ولو لم يغرق الإمبراطور الألماني العظيم في تركيا، لكانت الحملة الصليبية الثالثة حقّقت دون شك فوزاً ساحقاً.

عقب هذا الأداء المتفوّق، انفرجت أزمة ريتشارد الأوّل. فكل ما كان يكنّه هنري من عداء شخصي لريتشارد تلاشى تماماً. وتقبّل حجج الملك في دفاعه عن نفسه، وسرعان ما أصبحا صديقين! دعا هنري ريتشارد إلىٰ بلاطه كما يدعو الندّ ندّه. ثم تشارك الملكان في المآدب والاحتفالات التي أنشدت فيها الأغنيات والأشعار وعزفت فيها الموسيقى. وعندما انتقل بلاط الإمبراطور من سباير إلىٰ القصر الإمبراطوري في هاغناو Hagenau في الألزاس وهو المكان الذي خفظ فيه تاج شارلمان وصليبه، وصولجانه، وسيفه، انتقل ريتشارد معهم.

وفي غضون بضعة أسابيع، كتب رسالة إلىٰ إليانور (وجّه كلامه إليها باعتبارها ملكة إنكلترا) حيث أطال فيها وصف المعاملة الكريمة التي يوليه إياها الإمبراطور وحاشيته كلها. وبدا الحال كأن رقابة البلاط كانت تقف وراءه مباشرةً عند كتابته هذا المدح عن رجل يبتزه. لقد ربطت «أواصر الصداقة المتبادلة والمتينة» بينهما إلىٰ حدّ جعل ريتشارد يتخذ قرار «إطالة» إقامته بصحبة صديقه الجديد.

فهل رقّ قلب ريتشارد؟

في الجزء الثاني من الرسالة التي وجّهها إلىٰ إليانور، أضفى على ابتزاز

هنري صفة الهدية عوضاً عن الجريمة. ينوي الملك البقاء بصحبة هنري إلىٰ أن تُعْقد «صفقتهما» إذ قال إنه سيظل في مكانه «حتى ندفع له سبعين ألف مارك فضي». ويفترض أن تكون إليانور والقضاة أمثلة تُحتذى في جمع المبلغ الذي يطلبه الخاطف وإجبار الكنيسة على المساهمة بكل ما تمتلكه من ذهب وفضة. وكما لو أنّه ودّ مباركة الفعل المقيت، بَعَث الملك برسالته إلىٰ الملكة «مختومةً بالختم الذهبي لسيدنا وإمبراطورنا».

في شهر حزيران/ يونيو سنة 1193م، اتخذ هذا الإجراء شكل عقد بين ريتشارد وهنري. وتمحور القسم الأكبر من هذا العقد حول طريقة تسليم النقود الفضية والتأكّد من صحة زنتها على أيدي مصرفيي الإمبراطورية قبل السماح للملك بالرحيل. وتُقدَّم ضمانة عبارة عن حوالي ست وسبعين رهينة تساوي مبلغ خمسين ألف جنيه إضافي. ويكافأ ليوبولد، دوق النمسا، على دوره القيادي في هذه المؤامرة بحصوله على إليانور، ابنة شقيق ريتشارد وأميرة مقاطعة بريتانيا، التي ستُزوَّج لابن ليوبولد.

وبذلك يكون اختطاف الملك ريتشارد قد عاد على دوق النمسا بفائدة سخية على المدى القريب. صحيح أنّه وضع تحت حرم كنسي، وأن البابا منع إقامة أي قداس في أراضيه ولكنه تمكّن بفضل المال الذي حصل عليه من هنري وريتشارد، أن يوسّع حدود فيينا ويحصّن مدينة إينز Enus، وأسّس مدينتين جديدتين.

ولكن دارت دوائر معاصيه عليه في آخر المطاف. ففي سنة 1195م، ضربت النمسا أوبئة مختلفة من جفاف ومحاصيل منخفضة وأمراض. ويقال إن فيضان نهر الدانوب أودى بحياة عشرة آلاف شخص. وطالت المصائب الدوق نفسه فقد رفسه حصانه في رجله التي تورّمت بشكل مخيف واسودّ لونها، وعجز الأطباء عن مساعدته. لا مناص من بتر رجله ولكن أحداً لم يبدِ استعداده لإجراء عمليةٍ كهذه على ساق الرجل الملعون. ولذلك، يذكر المؤرخ أن

ليوبولد أمسك بفأس وقطع رجله بنفسه. ولم يمرّ وقت طويل حتى التهب جسده بالحمى. وعندئذٍ، أبدى لكهنته رغبته في التوبة.

كتب المؤرّخ في هذا الصدد أنّه «اعترف بتفاصيل الجريمة النكراء التي اقترفها كيداً بالملك ومناصريه. ونزولاً عند رغبة الأساقفة الذين قدموا إليه، سلّم الرهائن وما تبقى من المال اللازم لدفع فدية الملك، وأقسم أن يعيد ما قد تلقاه، وَوَعد أن يحترم حكم الكنيسة من الآن فصاعداً».

ولكن لم يتسنَّ له المجال كي يحقّق وعوده. وعلى الرغم من قرار الأساقفة بإلغاء حَرْمه الكنسي عندما رأوه يحتضر، فقد أسلم الروح مصارعاً آلامه. وبما أنه ما من أحد رضي أن يلمسه، فقد تركت جثته تفسد وتلتهمها الديدان.

III

ما دُفعت الفدية، وأنا قابع في الأغلال

إن إنجاز تعهّد كذلك الذي يقضي بجمع فدية ريتشارد يستلزم وقتاً طويلاً ـ هذا إذا افترضنا أنه من الممكن إنجازه في ظل الفوضى التي كانت سائدة في إنكلترا. وبالفعل، حين عاد أسقف ألي Ely إلىٰ إنكلترا لجمع الأموال، كان ردّ فعل الكنيسة الأوّل بارداً. وفي الأراضي الشاسعة التابعة لإنكلترا والواقعة تحت سيطرة شقيق الملك، كان جون قد ابتلع جزءًا أساسياً من الفدية لاستخدامها في نفقاته الخاصة. في هذه الأثناء، كان ريتشارد يتنقل في كل أنحاء الإمبراطورية الجرمانية خاضعاً لاحتجازه الرائع دون علم منه بهذه الصعوبات. في الخامس من تموز/ يوليو، كان البلاط مقيماً في وُرمز Worms التي جمع الإمبراطور فيها أمراء ألمانيا لإقرار ابتزازه. ومع مرور الأيام أصبح من الواضح أن هنري السادس كان يتلكأ بهدف انتزاع المزيد من التنازلات من الإنكليز.

في الوقت نفسه، كتب ريتشارد عدداً وافراً من الرسائل وبعثها إِلىٰ مناطق مختلفة من أوروبا، يشتكي في معظمها إِلىٰ مختلف البارونات من قلَّة مساندتهم له. فهو، على سبيل المثال، يذكّر الكونت أوف أوفرني Auvergne، أحد أصدقائه القدامى، بحياتهما المشتركة وكيف أنّ ريتشارد قد قدّم الدعم لتابعه وأثراه، وكيف أنّ الكونت كان يثق فيه، في السابق، ثقة عمياء أَو على حدّ تعبيره «ثقة شبيهة باعتماد الدجاجة على الديك». ولكن الكونت تخلّى عن سيده ما أن وقع في الأسر وسلبه أمواله.

وكتب في إحدى رسائله بلهجة التهديد: «من يبقى وفياً لريتشارد، تظلّله حماية القانون حتى النهاية. ولكن من يعطي الأولوية لشخصه فإنّ عاقبةً وخيمة بانتظاره».

واستسلم ريتشارد أخيراً للاكتئاب والحزن على نفسه. وفي إحدى هذه النوبات، كتب قصيدة بعنوان Ja Nus Hons Pris وجّهها للأصدقاء المزيّفين وقد ذاع صيت هذه القصيدة وتناقلتها العصور بوصفها إبداعه الشعري الخالد. تعبّر هذه القصيدة الغنائية عن كآبة الأسير فتقول:

ما زالت الشكوى سلوى الحزين

لديّ الكثير من الأصدقاء، والوعود غزيرة

ولكن الخزي لهم إذا لم تدفع فديتي في غضون شتاءين

وظللت حبيس أغلال الطاغية

اللوردات والنبلاء جميعهم يعلمون علم اليقين

في إنكلترا، ونورمانديا وغاسقونيا وبواتو

أنني لم أتجاهل يوماً نداء أكثر تابعي فقراً،

ولكن كل من يملك المال الذي يستطيع فك أغلالي انسحبوا.

ليس بالأوراق والبراعم بل بالثمار

أنا لا أتكلم بلهجة اللوم، ولا من أجل لغو لا فائدة منه،
ولكنني وحدي أحمل الأغلال وما من شفوق ولا رحيم.
يعلم جيداً من أصبحوا اليوم أغنياء وأقوياء
من عزّاب أنجو وتورين الشهوانيين
أنني بعيداً عنهم، أمتحن بأغلال العدو
لقد أحبوني كثيراً ولكنهم لم يحبوني طويلاً
لن ترى سهولهم أموالاً مدارة بعدالة
بينما أنا هنا طريح الخيانة.

لا شك أنّه كان في حالة مزرية غير منصفة ولكن كان من الممكن أن تؤول إلىٰ الأسوأ. فقد تلقّى، في خضم سوداويته، بياناً من إنريكو داندولو، دوج البندقية الموقّر، وعميد عائلة البندقية الشهيرة، ومؤسس إمبراطورية البندقية الاستعمارية، وشخصية رئيسية في الحملة الصليبية المقبلة حيث إنه سيستحوذ في القسطنطينية على الأحصنة الأربعة التي تزيّن اليوم واجهة كاتدرائية القديس مرقس. جاء في هذا البيان ما يلي:

«إلىٰ السيد الموقر، ريتشارد، ملك إنكلترا ودوق نورماندي وأكيتان وكونت أنجو، بفضل الله، من أنريكو داندولو، دوق البندقية ودالماسيا، وكرواتيا بفضل الله أيضاً. تمنياتنا لكم بالصحة، ولكم منا مشاعر الإخلاص والمودة. اعلموا أنه بلغنا من مصدر موثوق أن صلاح الدِّين، عدوّ الدين المسيحي، قد توفي».

خبر كان قد مرّت عليه أربعة أشهر.

ولعلّ ريتشارد قد تساءل حينها عما كان آل إليه مصير ملحمته الصليبية لو أنّ خصمه العظيم توفي قبل سبعة أشهر خلتْ.

IV
الشيطـان طليقـاً

في خريف سنة 1193م، خيّم جو غريب وسريالي على الجهود الرامية لتحرير ريتشارد من أسره التيوتوني. واستمرّت عمية الابتزاز التي عبقت برائحة المودة الزائفة، كما لو أن الأمر متعلّق بصفقة مصرفية دولية عادية بين تجار شرفاء.

كان صندوق المال المخصص لفدية الملك يمتلىء ببطء بالذهب والجواهر من إنكلترا وأكيتان وأنجو ونورماندي. ولجمع مبلغ الفدية، فرضت على كل فارس ضريبة تساوي عشرين شيلينغ وألزم كل مدنيّ بدفع ربع دخله، كما أجبرت كل كنيسة على التنازل عن أقداحها وكل ما له قيمة من ممتلكاتها.

وفيما كان المال يسلَّم إِلىٰ السلطات، تقمّص ريتشارد شخصية الملك الغائب. فبعد الحصول على إذن معتقليه وتحت رقابتهم، صار يكتب أوامره وطلباته ويبعثها إِلىٰ مملكته من مكانه القصي. وتضمّنت هذه الأوامر تعليمات سياسية ظرفية تتعلّق بعدد من قضايا الدولة، بما فيها جهوده في تعيين صديقه القديم ومستشاره هيوبرت والتر، أسقفَ سالزبوري (من الأشخاص الأخيرين الذين زاروا ريتشارد في سجنه كما زار صلاح الدِّين في أورشليم)، رئيساً لأساقفة كنتربري. وكان من شأن هذا التعيين أن يسرّع جهود الكنيسة في جمع ما تبقى من الفدية. وعليه فإن ترقية الأسقف كانت من مصلحة هنري وريتشارد معاً.

كان تفاقم الجو السريالي مؤامرةً خطّط لها حلفاء هنري السادس، أي فيليب أغسطس والكونت جون، شقيق ريتشارد، بهدف اقتسام ممتلكات ريتشارد أثناء غيابه. وفيما كان هذا الأخير ينظم غنائياته الحزينة ويصدر تعليماته

القاسية، غزا فيليب أغسطس مقاطعة النورماندي وفرض سطوته على فاكسن، واستولى على مدن جيسور ودياب وايفرو الاستراتيجية. ثم زحف حتى بوّابات روان وأعلن لحاميتها: «لقد كافأني جون، إيرل مورتاين Mortaigne، على وفائي لإنكلترا ووهبني النورماندي وكل الأراضي الأخرى على هذا الجانب من البحر. لقد جئت لاستملاك هذه المدينة، عاصمة النورماندي. اسمحوا لي أن أدخل بسلام، وأكون لكم حاكماً لطيفاً وعادلاً!».

كان لا بد من قمع صرخات الاستهجان الصادرة من وراء الأسوار. وردّ رفقاء ريتشارد الأوفياء بصوت مرتفع: «انظروا، إن بوّابات المدينة مفتوحة على مصراعيها. ادخلوا إن شئتم. فلن يقف أحد في وجهكم». قد يتصف فيليب بصفات كثيرة إلاّ أنه لم يكن غبياً أبداً. لذلك رفض دخول المدينة وسحب قواته متوعداً بالعودة حاملاً «قضيباً من حديد».

سال لعاب ريتشارد وتشوّق للعودة إلىٰ ساحة المعركة لدى سماعه أخبار عمليات السطو هذه. فلا بدّ أنّه قهقه عندما عرف بزواج فيليب أغسطس الثاني في الفترة ذاتها تقريباً. فسعياً وراء مجد أعظم لفرنسا وليس باسم الحب، تزوّج الملك الفرنسي Ingelburg، شقيقة كانيوت ملك الدانمرك أملاً في الحؤول دون غزو الفايكنغ لإنكلترا من جديد. ولا بد أنها كانت غانية بلهاء؛ فقد أطلق فيليب أغسطس ساقيه للريح فراراً من مقصورة الزفاف ليلة العرس مرعوباً مفزوعاً ولم يعد إليها ثانية. وطلّق على الفور السيدة الوقحة.

في هذه الأثناء، تكشّف جزء غريب من قضية قديمة في شتاء سنة 1193م. فعندما كان ريتشارد يدفع التهم الموجّهة إليه معلناً براءته منها، وعد بأن يقدّم دليلاً جديداً يدعم به براءته. ولذلك أرسل مبعوثين إلىٰ رشيد الدين سِنان، زعيم الحشاشين وحده من بين كل الناس، وطلب من الرجل العجوز أن يكتب لمعتقله الأوّل، ليوبولد النمساوي، عن وقائع اغتيال كونراد أوف مونتفرّا. وصل ردّ المخطّط الأكبر للاغتيالات في شهر أيلول/سبتمبر: «من شيخ الجبل

إلىٰ ليوبولد، دوق النمسا. سلام. فيما اتهم عدة ملوك وأمراء من وراء البحار سيدنا ريتشارد، ملك إنكلترا، باغتيال المركيز، فإني أقسم بالله العظيم، وبموجب الشريعة التي نتبعها، أنْ لا علاقة له البتة بموت ذلك المحترم». وواصل قائد فرقة الحشاشين كلامه في وصف عملية السرقة التي تعرّضت لها سفينته على يد كونراد وإصدار أمر الاغتيال ردّاً على فعله هذا. وأورد بعد ذلك كلاماً تظاهر فيه بالتقوى كما لو أنه قصد بأن يؤكد وجود الشرف حتى بين القتلة. وختم رسالته أخيراً بما يلي: «كن واثقاً بأننا لا نقتل أحداً بهذه الطريقة سعياً وراء مكافأة أو لكسب مالي، فلا نندفع إلىٰ فعلٍ كهذا رداً على فعلةٍ، على ضربةٍ وُجّهت إلينا من قبل».

يا للفرج!

وتطوّع سِنان بمبادرة إضافية، فكتب رسالة أخرى إلىٰ كل الأمراء والشعوب المسيحيين قال لهم فيها:

«لقد بلغنا أيضاً أنه قيل عن الملك ريتشارد نفسه بأنه استخدمنا وكأننا أكثر فساداً من غيرنا، كي ننصب كميناً لملك فرنسا. هذا خطأ. يشهد الله أن أحداً لم يطلب منّا شيئاً من هذا القبيل. إنّ صدقنا واستقامتنا لتمنعاننا أن نقترف هذا الجرم ضدّ امرىءٍ لا يستحقه».

وبما أنّ المسألة كانت مسألةً ماليةً لا علاقةَ لها بالذنب أو بالبراءة، فإنّ هنري السادس لم يتأثر بها كثيراً.

أما الإيرل جون من جهته، فقد كان يحرز انتصارات متفاوتة في محاولاته لانتزاع العرش من أخيه. عندما عاد الأسقف هيوبرت إلىٰ إنكلترا بعد زيارة قام بها للملك في سجنه في ألمانيا، ضعفت الشائعة التي روّجها جون عن موت شقيقه. وعلى الرغم من إخفاق الجهود التي بذلها كي يستخدم ملك إسكتلندا لنصرة مطالبته بالعرش، فقد أحرز نجاحاً في هذا المجال لدى الويلزيين الحاقدين على الإنكليز فزوّدوه بالجنود وشنّوا بحماس حرباً على قلاع إنكليزية

مختلفة كان جون يطمع فيها. وطوال الشهور من 1192 إلىٰ 1193م، تغيّرت قيادة قلعتي وندسور وولينغفورد الهامتين الواقعتين في جنوب إنكلترا عدة مرات، إلاّ أنّ جون خسرهما في النهاية في مطلع سنة 1194م. بالإضافة إلىٰ أراضيه في كورنوال وديفون في الغرب، اقتصرت حصونه على قلعتين في نوتينغهامشير. وقد ارتدى هذا الحدث، في أُفقٍ لاحق، أهميةً كبرى في حبكة أسطورة ريتشارد وروبين هود.

تكاتف منافسو ريتشارد وتعاونوا ضدّه. تعاهدوا فيما بينهم لحاجتهم الماسّة للتعاون مع ارتيابهم في مصداقية بعضهم بعضاً، كي يواجهوا إمكانية إطلاق سراح ريتشارد الوشيكة. ومرة أخرى، كان فيليب يسعى من ضمن هذه المعاهدة أن يزوّج أخته أليس لجون. ولا يُنتظر من مِلاطٍ كهذا بناء إمبراطوريات عظيمة. ومع ذلك، شعر الإثنان بخوف وقلق شديدين من عواقب إطلاق سراح ريتشارد قبل حدوثه بعدة أشهر. وفي منتصف سنة 1193م، كتب فيليب إلىٰ جون ينبهّه فيها إلىٰ ضرورة قيامهما بعمل مفاجىء على وجه السرعة فقد أوشكت شروط تحرير ريتشارد أن تلبّى.

وكتب فيليب: «حذار. فقد أطلق سراح العفريت».

في أيام عيد الميلاد سنة 1193م، وبعد تحديد موعد إطلاق سراح ريتشارد في شهر شباط/ فبراير، حاول المتآمران أن يكيدا كيداً أخيراً بغيةَ إبقاء العفريت في أصفاده. وهكذا اقترحوا أن يماثلوا شروط الفدية بما يضاهيها من أموال، فيدفع فيليب مئة ألف جنيه ويدفع جون الخمسين ألف الإضافية شريطة أن يسلّم هنري الملك إليهما أو يبقيه في سجنه لسنة واحدة أخرى على الأقل. لقد كان المتآمران الملكيان يحتاجان قبل كل شيء، إلىٰ تسعة أشهر إضافية يبقى فيها ريتشارد في الأسر إلىٰ أن يدعما دفاعهما ضدّ الإعصار الذي كان قادماً دون شك.

نَوّه هنري السادس، مدفوعاً بطمعٍ شديد، بالطروحات التي عرضها عليه

كل من فيليب وجون في الثاني من شباط/ فبراير سنة 1194م، بهدف ضربه ضربةً أخرى في الصميم.

لقد جُمعت الفدية وسلّمت إلىٰ خزينة الإمبراطور في لندن، وفاءً بالعقد المبرم بينهما. أصرّ ريتشارد على ضرورة الوفاء بشروط العقد. فكّر هنري ليوم كامل ملياً في هذه المعضلة المغرية كما فكّر في غزو صقلية الذي سيطلقه قريباً ويموّله بمال الفدية.

وفي الرابع من شباط/ فبراير، أطلق سراح ريتشارد في ميتز Metz بحضور والدته إليانور، ومستشاره ويليام أوف ألي، ورئيس أساقفة كنتربري هيوبرت والتر. وفي هذا اليوم بالذات، أرسل الملك مبعوثاً يدعى سولت أوف بريل إلىٰ فلسطين حاملاً رسالة موجّهة إلىٰ هنري أوف شامباين يبلغ فيها ابن شقيقه، ملك أورشليم الصليبي، بخبر إطلاق سراحه ويعلن له بنبرة يشوبها الحبور بأنه ينوي العودة إلىٰ الأرض المقدَّسة لدحر الوثنيين ما أن ينتقم لنفسه من أعدائه ويعيد بسط سلطته على مملكته. وبعد أيامٍ قليلةٍ أُقيم قدّاسٌ احتفاليٌّ للملك في الكاتدرائية الكبيرة في كولونيا، وكانت الموعظة من سفر أعمال الرسل (12 : 11): «الآن علمتُ يقيناً أنّ الربّ قد أرسل ملاكه وأنقذني من يد هيرودس ومن كل ما تربصه بي شعب اليهود».

وسرعان ما انتشر خبر إطلاق سراح الملك في مملكة البلانتاجيين فابتهج الشعب والشعراء ابتهاجاً كبيراً. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر عودة الملك كي يسترد زمام الحكم وينتقم لنفسه من أعدائه. شعر بيرتران دو بورن، أشهر شعراء التروبادور، بنشوة عارمة إذ إنّ حدثاً كهذا يشكّل مادة لملحمة شعرية. إن الأسد في طريقه لدياره. حذار من هذا الحيوان النبيل، فهو ليس عنيفاً مع المخلوقات المقهورة بل «فخور يحارب الكِبَر». لا بد أن يقبض على من نكث قسمه كما يقبض على الذئاب ويشدّهم في أنشوطة واحدة.

وكتب المغنّي: «ها قد حان الفصل الفاتن حين ترسو مراكبنا ويصل مليكنا الشهم القدير. لم يكن الملك ريتشارد بهذه العظمة من قبل!».

وأخيراً، في الثاني عشر من آذار/مارس، خطا ريتشارد خطوته الأولى على الأراضي الإنكليزية في ساندويتش. وتوجه في البداية إلىٰ كنتربري لتقديم احترامه وتقديره إلىٰ مزار توماس بيكيت ثم تابع طريقه إلىٰ لندن التي كانت قد أعدت له ترحيباً جديراً بالملوك.

تحضيراً لوصول ريتشارد إلىٰ دياره، نظّمت كتائبه حملة لصدّ عصابة جون الخائنة الموجودة تحت سيطرة إنكلترا. وقبيل وصول ريتشارد بأيام، وقع مبعوث الكونت في أحد الكمائن فيما كان يحمل تعليمات وجّهها جون إلىٰ أقوى حصونه كي تعدّ العدة لحرب قد تنشب بين الشقيقين. أثارت هذه التعليمات السفيهة الرعب والذعر في نفوس أساقفة البلاد الذين حرموا جون عندها حرماً كنسياً بسبب «محاولة بث الفوضى في المملكة».

ومن ثم، ارتدى الأساقفة الطيبون دروعهم وانتقلوا في كل أنحاء إنكلترا لتطويق معاقل جون الباقية. قاد رئيس أساقفة كنتربري الحملة في الجنوب. وسرعان ما سقطت قلاع جون في مارلبورو وجبل سان ميشال في قبضتهم بالإضافة إلىٰ لانكاستر في الشمال. أما أسقف دِرَم فقد ضرب عقر مقاومة جون في نوتينغهام شير حيث كانت قلعتا تيكيل ونوتنغهام لا زالتا تقومان بشراسة. استسلمت تيكيل أولاً ولكن استسلامهما لم يحصل سوى بعد اقتياد قادتها المرتابين إلىٰ ريتشارد للتأكد من ظهوره مجدداً ملكاً لإنكلترا.

ظلت قلعة نوتينغهام صامدة. سارع ريتشارد إلىٰ الموقع ووصل إلىٰ جوارها في يوم عيد البشارة ولكنه لم يحظ بترحاب جدير بالملاك جبرائيل واقتصر الأمر على حالةٍ من الفوضى والبلبلة.

رفضت حامية القلعة الاقتناع بعودة ريتشارد ورفضوا أي اقتراح يثبت لهم الحقيقة. عيل صبر الملك فأمر باستقدام معدّات الحصار الحجرية وأمر ببناء

مشنقة خارج الأسوار بغية إعدام بعض مناصري جون عليها. وانتهت العملية بأسرها بعد عدة أيام بتوسل الخونة راكعين يستجدون الملك للإبقاء على حياتهم. وفي اجتماع لمستشاري الملك حضرته إليانور أوف أكيتان، أصدر المجتمعون أمر محاكمة جون لتمرده في غضون أربعين يوماً أو مصادرة كل ممتلكاته الملكية.

وهكذا مهدت هذه الظروف درب الأسطورة. ففي ظل حكم الكونت جون الظالم الشرير، شكّل بعض أهالي نوتنغهام الخائفين عصابةً من الخارجين على القانون الموالين لريتشارد جعلت من غابة شيروود مقراً لها. حمل زعيمهم تسمية روبين هود Robin Hood وقد كان فارساً من سلالة نبيلة انبرى لاغتصاب الأموال من الأغنياء ومنح المسروقات للفقراء ولذلك بات بطلاً أحبته عامة الشعب. خصمه الرهيب كان شريف نوتنغهام الماكر الذي ما فتىء يحاول إلقاء القبض على اللص الظريف بدهائه ومكائده من مثل منح سهم ذهبي للفائز في مباراة رماية. جُلّ ما كان يبغيه روبين هو الاستهزاء بالقوانين الجبروتية التي سنّها جون وحماية السُبُل التي تتخلل الغابات الكثيفة إلى أن يعود الملك من أسره.

جمع روبين حوله مائة رام وفي عديدهم ويل سكارليت والقسّ تاك. كانوا جميعاً يرتدون ثياباً خضراء ولم يكن لبراعتهم في رمي الأقواس من مثيل. ويُروى أن روبين هود وزميله العملاق، جون الصغير، كانا قادرين على إطلاق السهام مسافة ميل أو 1,760 يارد. ولا ننس بالطبع قصة الحب الرومانسية التي ربطت قلبي روبين وماريان الجميلة «آنسة خلوق جميلة تنحدر من سلالة نبيلة. تفوّقت على الملكة هيلين بجمالها ولباقتها وروعتها.

كل الرجال كانوا يسعون لإرضائها

هذه هي القصة التي كانت تتداولها المدينة.

ثم نظمت الرواية في أبيات شعرية.

وصلت إلىٰ مسامع الملك ريتشارد أخبار الأعمال التي قام بها روبين هود ورجاله:

فكم أعجب بهم وكم تاق
لرؤيته ورؤيتهم
ثم بصحبة اثني عشر من لورداته
إلىٰ نوتينغهام ذهبوا
وفيها أطلق تشجيعاته
واستعاد مملكته

ووفقاً لما يرويه المؤرخ روجيه أوف هوفدن، زار ريتشارد بالفعل غابة شيروود في اليوم الذي استسلمت فيه قلعة نوتينغهام، وشعر «بنشوة تغمره» لدى رؤيته الأحراج الوفيرة بالغزلان ومواليه المفعمين بالحيوية. فهل التقى الملك فعلاً باللص الجريء وآنسة ساكسونية أخّاذة، وهل نزع قلنسوة القس الذي كان يعتمرها ليكشف زيه الملكي، وهل قال لقطاع الطرق: «انهضوا يا رجال شيروود!»، وهل أعاد إلىٰ روبين قصره وممتلكاته، وهل بارك زواج روبين هود والآنسة ماريان. . . بالطبع فعل كل ذلك!.

في عيد الفصح، اجتمع نبلاء البلاد وأشرافها في ونشستر للاحتفال بالتتويج الثاني لريتشارد الأول ملك إنكلترا. وتقدم الملك إلىٰ المذبح تحت ظلة من الحرير بلباسه الملكي الفخم، معتمراً تاجه الذهبي وحاملاً في يده اليمنى الصولجان الملكي الذي ينتهي بصليب وفي يساره قضيب ذهبي على رأسه تمثال حمامة. وعند المذبح، وقفت إليانور ووصيفاتها بأحلى زينتها وأبهتها وفي عيونها نظرات الفخر.

بعد مرور أسبوع على هذا الاحتفال، غادر الملك إنكلترا متجهاً نحو النورماندي مستعداً لحملة طويلة بهدف استعادة سيادته هناك على النواحي،

وانتزاعها من فيليب أغسطس. في الثامن والعشرين من أيار/ مايو، وبعد استرجاع المزيد من الحصون، وصل الملك إلىٰ ليزيو Lisieux، وفيما كان جالساً بصحبة رئيس الشمامسة فيها، لاحظ انزعاج هذا الأخير وقلقه، فقال له: «ما الأمر؟» وسرعان ما أدرك الوضع فأضاف: «أعرف أنك التقيت بشقيقي جون. لا تنكر. قل له أن يأتي إليّ ولا خوف عليه. إنه شقيقي وما عليه أن يخاف. فلن استغلّ أعماله الجنونية ضدّه».

هرول رئيس الشمامسة والسعادة تغمره إلىٰ مخبأ جون القريب وقال له:

«اخرج من مخبئك فإنك لمحظوظ. الملك لطيف ورحوم ويبدي لك عطفاً أكثر مما كنت لتبديه له».

ارتمى جون على قدمي شقيقه مرعوباً فقال له ريتشارد بنبرة ترحيبية:

«انس ما حدث يا جون» ثم طلب من شقيقه الوقوف وتناول العشاء بصحبته: «لست سوى طفل أحاط به مستشارون ماكرون».

أربعون يوماً مرّت منذ أن أصدر مجلس نوتينغهام قرار محاكمة جون. وبما أنه لم يحضر أمام القضاة الإنكليز، فقد صُودرت ممتلكاته بأسرها. عاد من جديد معدماً خالي الوفاض في إنكلترا، خاضعاً لرحمة شقيقه الكريم.

كان على الكونت أوف مونتاني أن يرضى، في الوقت الراهن، بوجبة وفيرة من السلمون. فجلّ ما كان يمكنه أن يتوقع الحصول عليه من مائدة الملك لا يتعدّى سمكاً زهرياً وكسرات خبز.

خاتمة

خلال السنوات الخمس التالية لعودته المظفَّرة من الأسْر، شغل ريتشارد قلب الأسد نفسه، بطريقةٍ أَو بأخرى، بنزاعه المستشري مع فيليب أغسطس ملك فرنسا. لقد صارا مثل الهرَّين الحاقدَين، يعرضان مخالبَهما، ويكشّران عن أنيابهما، ويهزّان ذنبيهما بتهديدٍ ووعيد. لا يعتقد أحدُهُما أنه عومل بطريقةٍ عادلة أَو أنه حصل على الجزاء أَو المكافأة التي يستحقُّها، كما أنَّ أحدَهما لا ينخفضُ إحساسُهُ بالترقُّب والحَذَر. بالنسبة لفيليب؛ فإنّ ريتشارد كان متطفلاً على (مُلكه وسلطته) في فرنسا. أما ريتشارد فيعتقد أنّ فيليب سَلَبَهُ ميراثَه. لكنْ وراء ذلك كلّه كانت العوامل الشخصية. يتقاتلان ثم يتصالحان ثم يعودان للاقتتال ثانيةً، تماماً مثلما يفعل المتحابّان، اللذان يتسالمان ثم يعودان للخصام.

خلال سنة 1194م استطاع ريتشارد استعادةَ حصون Vermeuil وLochs وMontmirail، بينما كان فيليب يتقدم وينسحب، ويهدّد ويُرغي ويُزبد، ويخسر عندما يُضطر لملاقاة ريتشارد في الميدان. وفي تموز/ يوليو نظّم ريتشارد غارةً ليليةً على عربات فيليب التي كانت تسير في قافلة، وما غنم جياداً وأموالاً وحسْب؛ بل والختم الملكي وسجلاّت خزائن فيليب، مما اضطر موظفيه لإعادة تكوين السجلاّت من مسوّدات ووصولات قوائم الإنفاق. وفي إحدى اللحظات اقترح فيليب حلاً فروسياً وشاملاً لحلّ النزاع بينهما. ويتمثّلُ الحلُّ في

مبارزةٍ بين فريقي الفرسان من مملكتي كاپيه وپلانتاجينيه، يشارك فيه خمسةٌ من أفضل الفرسان من كلّ طرف، ويتقاتلون حتى الموت. وقال فيليب في رسالته: «وهكذا فإنّ المسألة ينبغي أن تُثبتَ للناس من الأُسرتين ماذا كان في ذهن الملك الخالد، وما هي حقوق الملكين الدنيويّين». ولأنّ ريتشارد كان مغرماً بالمبارزات فقد سرّه الاقتراح، ووافق مباشرةً: «بشرط أن يكون الملك من كلّ أُسرةٍ واحداً من الفرسان الخمسة على أحد الجانبين، ويكون على الطرفين أن يتصارعا بشروطٍ متساوية في السلاح وفي العُدَّةِ على حدٍ سواءٍ». فيليب أغسطس ضد ريتشارد قلب الأسد في قتالٍ فردي؟ وحتى الموت؟ وسحب فيليب اقتراحه على مضض.

وخلال تلك السنوات غادر لاعبون مهمون الحلْبة. هنري دو شامباني مات في القدس. كما مات هنري السادس في ألمانيا بعد أن استولى على صقلية. وفي فرنسا تزوجت أليس، مومس أوروبا. أما ملك إنجلترا فقد كانت إنكلترا بالنسبة له تأتي بالدرجة الثانية. وفي الواقع فإنّ ريتشارد رجع محاولاً شرعنة دعواه من خلال مبارزةٍ ماجدةٍ ودموية. وكان ذلك نوعاً من أنواع الكسْب المادي، أكثر مما هو مبارزة في الفروسية؛ لأنّ المنظّمين كانوا يستفيدون من بيع البطاقات. ومرةً ثانيةً انتشرت الخيام المزركشة. وغُرَف العربات، التي انتشرت في تلك البقعة. وملأ المهور السُرادقات لمشاهدة المشاركين يتنافسون من أجل المجد والفوز أَو الورود أَو حبّ السيّدات. واشتدّ القتالُ، بين الفرسان القُدامى للحروب الصليبية، بسيوفٍ مشهورة ورماح بدون نصال؛ لكنهم يقتلون بعضَهم بعضاً أَو يشوّهون بعضَهم بعضاً في تقليدٍ لَلحرب والحقيقة. والجمهور يحبُّ ذلك كلَّه.

وخلال سنة 1196 ـ 1197م سادت بين فيليب وريتشارد هدنةٌ قلِقةٌ. وشغل ريتشارد وقتَهُ ببناء حصنه الأعظم المسمّى Gaillard، عجيبة من عجائب القرن، على صخور Andely المرتفعة، المشرفة على نهر السين Seine. وكان

المقصود من تشييد هذه القلعة حماية ممتلكاته في النورماندي. وما كان بوسع فيليب إلاَّ أن يراقب تقدم عمليات البناء، ويلعن. وعندما رمى ريتشارد ثلاثةً من الأسرى الفرنسيين إلىٰ الهلاك من أعلى الحصن الجديد، ثار فيليب وأعلن أنه سيملك النورماندي وأكيتان بغضّ النظر عن القلاع التي يبنيها ريتشارد والفظائع التي يرتكبها. وأجاب ريتشارد أنه يستطيع حماية ممتلكاته حتى لو كانت أسوارُها مبنيةً من الزبدة وليس من الحجر!

وبعد فترةٍ قصيرةٍ من الهدوء القلِق، اندلعت الحربُ بينهما ثانيةً عام 1198م بعنفٍ أكبر من أي وقتٍ مضى. وفرح شعراء التروبادور الذين أنشد أحدُ كبارهم المسمَّى برتران دو بورن: «الحرب تُفرحُني لأنني أرى البلاطات والهدايا والمسرَّات والأغاني التي تحثُّ المقاتلين. الحربُ تجعلُ الفلاّح نبيلاً». وعبر النورماندي، تراكضت الجيوش من جديد. وتدخل البابا هذه المرة. فالحرب الصليبية عادت تشغلُ بال روما. ولذلك فإنّ قتال الإخوة ينبغي أن يتوقف. وبعد استعراضاتٍ وتهديداتٍ وتشنُّجاتٍ وافق ريتشارد، ووُقّعت هدنةٌ لخمس سنواتٍ بين فرنسا وإنجلترا.

كان منتظَراً بعد الهدوء المتفَق عليه مع فيليب أغسطس أن يركن ريتشارد إلىٰ الراحة؛ ليستمتع أخيراً بحكم مملكة أُسرته في سلامٍ نسبي. لكنه كان محباً للحرب؛ فالاشتباكات كان هي ما يعرفُهُ جيداً ويقدّره. ففي الجهة الجنوبية من مملكة آل بلانتاجينيه، ثارت مجموعة من البارونات ما كانت راضيةً عن طريقة ريتشارد في الحكم. وحيث يظهر البارونات المتمردون، يظهرُ ريتشارد على أثرهم. ففي Limoges كان هناك فيكونت في قلعة تُسمَّى Chalus احتفظ لنفسه بجزءٍ من كنزٍ من الذهب والفضّة وقع في يده. وهكذا ظهر ريتشارد أمام القلعة فجأةً مع الجيش وعُدَّة الحصار. كانت القلعةُ صغيرةً وعسيرة المأخذ؛ لا تتناسبُ ومجدَ الملك البير، ولا تستحقُّ المخاطرة. بيد أنّ ريتشارد كان يحبُّ المخاطرة. فبعد المعارك الكبيرة والكثيرة التي خاضها نشأ لديه إحساسٌ بأنه لا

يمكن أن يخسر أَو تتهدَّدَ حياته. ولو كان على شيءٍ من التعقُّل والتدبُّر لتذكّر مقولةَ صلاح الدِّين فيه التي ما تزال تطِنُّ في آذان الكثيرين: «إنّه غير صَبور، وهذا حتى لا نقول إنه أحمق؛ بتعريض نفسه دائماً للأخطار. إنه يُظهر عدمَ اهتمام كاملٍ بحياته. وأنا من جانبي، مهما يكن مُلكي واسعاً، وثرواتي هائلة، سأظلُّ مصراً على الحكمة والاعتدال في التصرّف، بدلاً من الكبرياء والعَجَلة».

عرض الفرسان الموجودون في ذلك الحصن الصغير أن يسلّموا أنفسَهم إذا أمكن أن تُصانَ حيواتُهم، وأن يحتفظوا بأسلحتهم. لكنّ ريتشارد كان في مزاجٍ سيء؛ لذلك قال إنه لن يقبل التسويات وسيقوم باقتحام القلعة، ويشنقهم جميعاً بعد سحقهم في المعركة. وما ألقى الملكُ بالاً للخطر أَو المخاطرة، بل استمر بالتجوّل حول أسوار القلعة، على مشهدٍ من المدافعين وبدون دروعه، مما جرَّأ فارساً شاباً اسمه بيتر بازيل Peter Basil إلىٰ إطلاق نُشّابٍ عليه. وأصاب النُشّابُ ذراع ريتشارد وغاص فيها عميقاً. واشتدّ غضبُ ريتشارد، وأمر بالقيام بهجومٍ شاملٍ، في الوقت الذي كان يحاولُ فيه امتطاءَ جواده، والعودة إلىٰ مقرّ قيادته. وهناك استدعى طبيباً لمعالجة جراحه. بيد أنّ كاتب الحوليات روجيه أوف هوڤدن Roger of Hoveden يقول إنَّ المستدعَى ما كان طبيباً في الحقيقة بل جزّاراً. استخرج الرجل الشظايا الخشبية من ذراع الملك، لكنه استبقى الجزء المعدنيَّ من السهم. وعذَّبَ الملك كثيراً حتى استطاع أخيراً استخراج المعدِن، لكنّ الجراح والكدمات التي خَلَّفها عملُهُ في ذراع الملك أدّت إلىٰ سُرعة احتقان الذراع وفسادها. وتأخر ريتشارد قليلاً في تقدير خطورة الجُرح. وكان رجالُهُ قد استولوا على الحصن؛ فأمرهم بشنق وصلب كلّ المقاتلين في تلك القلعة؛ باستثناء بيتر بازيل، الذي كان يُعدُّ له مصيراً خاصاً. طلب الملك من جلاّديه المجيءَ إليه، ثم أمر بإحضار بيتر أمامه، الذي بدا أنّه غير نادمٍ على فعلته، ولا خائفٍ من ريتشارد. وقال ريتشارد: أيُّ ضررٍ أنزلتُهُ بك حتى تُحاولَ قتلي؟ وأجاب الشاب: لقد قتلتَ والدي بيديك، كما قتلت

شقيقيَّ، ثم إنك تريد قتلي! لذلك إفعل بي ما تشاء، لأنني سأتحمل كلَّ تعذيبٍ تُنزِلُهُ، ما دمتُ مطمئناً إلىٰ أنّك قادمٌ على نهايتك، لأنك أحدثتَ ضرراً وشراً كبيراً في هذا العالَم!

أدت هذه الشجاعةُ غير المعهودة تأثيرها العميق على ريتشارد. وكان رجال ريتشارد ينتظرون بفروغ صبرٍ بماذا يأمرهم سيدهم أن ينفّذوه من صنوف العذاب والموت البطيء، مما يتوقعه الصبي أو لا يتوقعه. طلب الشاب موتاً مشرّفاً بالسيف. أما رجال الملك فقد فكّروا بطريقةٍ أبطأ وأمضّ وأكثر معاناة. وقال ريتشارد أخيراً: إنني أغفِرُ لكَ قتلي. وأمر الملك بفكّ سلاسله وأصفاده، كما أمر بإعطائه مائة شيلينغ إنجليزي. وتابع ريتشارد: فلتعِش، ولتستمتع بالعطاء وبضوء النهار. ودع المهزومين يعتبروا بما حدث لي.

التفت الملك إلىٰ تنظيم الأمور لما بعد الحَدَث. وأخيراً نادى بالإيرل جون وريثاً للعرش. وأعطى شقيقه الأصغر كلَّ قلاعه وأراضيه وثلاثة أرباع كنوزه. أما الربع الرابع فذهب لخدمه وحاشيته وللفقراء. ثم إنه قسَّم جسده. فقلْبُهُ ينبغي أن يُدفن بـ Rouen هديةً لمواطنيها الرائعين الذين أظهروا له دائماً ولاءً غير مزعزع. وجسدُهُ ينبغي أن يُدفن عند أقدام والده هنري الثاني في Font-Evrault باعتبار ذلك آخِر أعمال التوبة والندم من جانبه للتخريب والغمّ الذي أحدثه للوالد العجوز. أمّا أجزاؤه الداخلية فينبغي أن تبقى هنا في پواتو Poitou لتملأ برائحتها الكريهة كلَّ الأرجاء التي خانته دائماً، وتعاملت معه بغدرٍ، وقاومت حكمه. بيد أنّ تلك الوصية لم تكن الوحيدة فيما قام به. فروحه تريد انقساماً وتجزئة أيضاً. ورذائله تتطلب عزلاً وتقسيماً. أوصى ببخله للرهبان البندكتيين. ولأخوية الرهبان المتسولين أهدى حبَّه للرفاهية. ولرهبان الهيكل، أحبابه، أهدى كبرياءه.

ومات في 6 نيسان/ أبريل سنة 1199م.

قبل تلك الطلقة النحس من جانب الشاب، ما عرف ريتشارد وازعاً ولا رادعاً: «لا غضب البحر، ولا جحيم الأعماق، ولا ذُرى الجبال، ولا عُسْر الطرق الجبلية، ولا انحدارها، لا خوف من الريح، لا خوف من الرعد، لا خوف من حملات التفتيش، ولا خوف من البرد القارص». لقد قُتل الأسد ببُرثُن نملة! وكان شعراء التروبادور حاضرين للمشهد أيضاً:

يا ألله، أيها الربُّ الغفور

الإله الحقّ، الوجود الحقّ، الحياة الخالدة، رحمتَك.

إغفر له، لأنه بحاجةٍ لذلك

ولا تنظر يا ربّ إلىٰ أخطائه

بل اغفِر له يا ربّ أنه مضى مقاتلاً في سبيلك.

عرفان وتقدير

لا أجد في أميركا مكاناً لدراسة العصور الوسطى خيراً من متحف سميثونيان Smithsonian في واشنطن. وهناك، في ربيع سنة 1997م سيطرت عليَّ فكرةُ هذا الكتاب. كنتُ وقتَها زميلاً في مركز وودرو ويلسون للباحثين الدوليين Woodrow Wilson Center for International Scholars. وأفكّر في تكملةٍ أو تذييلٍ لكتابي عن الألفية والمسمّى: الملحمة الأخيرة The Last Apocalypse الذي كان مقرّراً أن يصدر في السنة التالية.

كانت فكرتي الأولية كتابة مجموعةٍ من عشر مقالات بعنوان/ رجل الألفية، أدرس في كل واحدةٍ منها شخصيةً عظيمةٍ من شخصيات كل قرن من القرون العشرة الماضية، وأُعلنُ في النهاية فوز إحداها في محاولةٍ جريئةٍ لمنافسة مسابقة مجلة Time لشخصيات الألفية (كانت **تايم** تفضّل ألبرت أينشتاين، وكنتُ أُفضّل غاليليو). وهناك، في أعلى البرج الرئيسي للمتحف، مع الإطلال على المشاهد المتنوعة لمركز التسوُّق، والكابيتول، وتمثال (جورج) واشنطن، بدأتُ مسيرتي خلال القرون. لكنني لم أتجاوز أبداً القرنَ الثاني عشر. فالكفاح في الحرب الصليبية الثالثة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد استأثر بمخيّلتي، ولم أستطع الفكاكَ من إساره.

ولقد عملتُ ثلاث سنواتٍ في البحث والإعداد لهذا الكتاب، انتقل خلالها مركزُ اهتمامي من قلعة سميثونيان إلى مكتبة الكونغرس، حيث صرتُ

باحثاً مقيماً سنة 1998م، بفضل المساعدة القيّمة للدكتوره كارول أرمبروسْتَر Carol Armbruster من القسم الأوروبي بالمكتبة. وعندما أرجع بذاكرتي الآن إلى تلك السنوات، أجدُ أنني ما كنتُ لأتمكّن من إنجاز هذا المشروع لولا المساعدةُ الرائعةُ من أشخاصٍ كثيرين في أكبر مكتبات العالَم تلك. أهمُّ تلك المساعدات مكتبُ البرامج العلمية Scholarly Programs الذي اتخذ مقراً له في مساحات سريّة بالقبة الرائعة للمكتبة. وقد شهد لي رئيسا المكتب بروسّر غيفورد Prosser Gifford، ولستر فوغل Lester Vogell متابعةَ عملي بسلام عندما خصّصا لي ملاذاً للتأمل، بدون إزعاجٍ من هاتفٍ أو غيره. لكنهما بقياً مستعدَّين للمؤازرة في كل ما كنتُ أحتاجُ إليه.

ومن وراء هذين الإنسانَين الممتازَين، كانت هناك ذخائر المكتبة وجهازُها الكفء، وقد كسبتُ منهما الكثير. وما أزال أذكُرُ يومي الأول في الاستعلام، عندما أخبرني الموظف المهذَّب والكفء بروس مارتن Bruce Martin بخجل أنني لا أستطيع أن أحصُل على أكثر من مائة كتابٍ دُفعةً واحدة! وفي السنتين التاليتين، ما أزال أذكر بالكثير من الحبّ والإعجاب ذلك الجهاز من المكتبيين الرائعين الذين واجهوا معي كلَّ تحديات المصادر وحلّوها. فتوماس مان Thomas Mann تتبّع لي أثر المرض الذي أُصيب به ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس بعكّا والمسمّى Arnaldia (وهو نوعٌ من أنواع مرض الفم واللثّة). وفيما بعد عندما سألتُهُ عن نصٍ في حوليات الحروب الصليبية عن حشرةٍ اسمُها Cincenelles والتي حوَّمت بكثافة فوق جيش الصليبيين في Canebrake بـ Starlings، اكتشف Mann أنها خنفساء بشعة تتبع النمور. أما ديڤيد كيلي رائد كلّ الحيل التقنية بالمكتبة، فقد أخبرني عن اللعبة البربرية والتي يقال إنّ قلب الأسد لعبها مع آسِريه في النمسا؛ والمسمّاة Pluck-Buffet (والتي قد تؤدي إلى قتل إنسانٍ للتسلية وحسْب). وقد اختبرتُ معارف Phoebe Peacock خبير الكلاسيكيات بالمكتبة بشأن اقتباسٍ غامضٍ من أرسطو بإحدى

القلاع بألمانيا. وترجمت لي كارول أرمبروستر أغاني Blondel من الفرنسية الوسيطة. أما جورج سليم وماري جين ديب، من قسم الشرق الأوسط، بالمكتبة، فقد ساعداني مراتٍ لا حصر لها عندما كنتُ غائصاً في بحر المصادر العربية. وساعدني بروس ميللر Bruce Miller المختص بتاريخ الفاتيكان وأدبياته عندما قصدتُ مكتبة Mullin بالجامعة الكاثوليكية بواشنطن، في التحقق من بعض غوامض النصوص؛ كما سبق له أن فعل في أعمالي السابقة.

وأفدتُ أيضاً من خبرة الدارسين من أبناء أُسرتي. فشقيقي Tom المختص بالدراسات الفرنسية، ترجم لي نصوصاً من تلك اللغة وأشعاراً في إتقانٍ شعري رائع. أما زوجته Vicki Kiechel ذات الذهنية الدقيقة، والاختصاص الأكسفوردي، فقد ساعدتني في النصوص الإنكليزية القديمة والوسيطة.

وقمتُ بزيارتين علميتين إلى الشرق الأوسط. الأولى في ربيع سنة 1999، مع بدء الكتابة. ذهبت إلى القدس، وإلى شمال (إسرائيل)، وسورية، وقبرص، حيث زرت عدداً من القلاع الصليبية، وتجولتُ في تلك المساحات التي دارت فيها المعارك، وتحدثت إلى أساتذةٍ مختصين. في سورية عرَّفني الدكتور صادق العظم، الزميل السابق بمركز Wilson، إلى عددٍ من العارفين والمختصين، ووجَّهني في استكشافاتي ببلاده. أما دراسته: «الجهاد في التاريخ» فقد زوَّدتني بمعرفةٍ أوسع عن المفهوم الإسلامي للجهاد. وفي دمشق بالذات قضيتُ أمسيتين ممتعتين مع المختص الرئيسي بالحروب الصليبية في سورية الدكتور سهيل زكّار. أنفق الدكتور زكّار أكثر سنيّ حياته دارساً الحروب الصليبية، أو كما يفضّل هو أن يسمّيها النضال من أجل الوحدة العربية في مواجهة الغزو الأوروبي! وقد ترك صبره في الإجابة على أسئلتي، وحكمته، أثراً مهماً في مقاربتي في هذا الكتاب. ومما يبعث على الاستغراب، أنّ زكّار، الذي اهتمّ بالحروب الصليبية هذا الاهتمام الكبير، ما كان قادراً على زيارة موقع معركة حطين في (إسرائيل).

أما في (إسرائيل) فقد كنتُ محظوظاً بصداقاتٍ سابقةٍ من خلال مركز Wilson ومكتبة الكونغرس، مع David Passow، و Gabriel Sheffer، و Amnon Sella، الذين استقبلوني بضيافةٍ رائعة، وخصُّوني بمحادثاتٍ مفيدة. في زيارتي الأولى قابلتُ الدكتور بنيامين كادر Kader، أكبر المرجعيات في تاريخ الحروب الصليبية، الذي نصحني حول تنظيم وقتي ومقابلاتي في إسرائيل، وذكر لي صيدنايا بسورية وضرورة زيارتها؛ وقال إنه هو نفسه يرغب في الزيارة منذ زمنٍ لكنه لم يستطع ذلك. وفي عكّا قابلتُ الدكتور أليعازر شاتران Elieser Shatran من دائرة الآثار في إسرائيل، فحدّثني عن حفرياته وبحوثه الأثرية حول المنشآت الصليبية. وبمساعدةٍ من الدكتور رول Roll استطعتُ القيام بزيارة أرسوف، التي تجري فيها حفرياتٌ أثريةٌ في السنوات الأخيرة. وفي الجليل، رافقني الرّبّي يتسحاق سنتكوف Snitkoff من كيبوتز ليفي القريب إلى موقع معركة حطين باعتباره خبيراً بذلك. وذرعْنا موقع المعركة ذهاباً وإياباً في صباحٍ غائمٍ من أيام آذار/ مارس 1999.

وفي زيارتي الثانية للشرق الأوسط في أبريل/ نيسان 2000، تركّز اهتمامي على رؤية صلاح الدين من وجهة نظر عربية. في القدس الشرقية أُتيحت لي مناقشات وأحاديث ممتعة مع الدكتور برنار سابيلا والدكتور نظمي الجُعبة والدكتور مصطفى أبو سوَي. وفي إحدى المناسبات قادني أبو سوَي إلى تلك القاعة الصغيرة المظلمة في المسجد؛ والمجاورة لكنيسة القيامة، والتي وجّه إليها صلاح الدين اهتمامه سنة 1192م. ولشدة سروري، ساعدني أيضاً في الذهاب إلى الكرك فيما وراء البحر الميت بالأردن، حيث كان يتحصن مثير الحرب الصليبية الثالثة ريجنالد أوف شاتيون، ويقوم بأعماله الشريرة. وسهّل الأمر لي محمود أبو شام، الملحق الثقافي بالسفارة الأردنية بواشنطن.

وعند عودتي من الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة، مررتُ بالنمسا، وزرت حصن Dürnstein الذي شهد فعالياتٍ ونشاطات لريتشارد. وكان

الدكتور فيرنر مالتسك Werner Maleczek المختص بدراسة العصور الوسطى بجامعة ڤيينا قد أرشدني إلى أهمّ المصادر حول فترة ريتشارد عند الدانوب. وفي قرية ديرنشتاين الجميلة (حيث أقمت في فندق: قلب الأسد) حظيتُ بمساعدة الخبير غرهارد فيشر Gerhard Fischer في جولةٍ مفيدةٍ قمت بها في رُكام القلعة.

وفي الجانب الأدبي، يكون عليّ أن أشكر الأب اليسوعي جيمس ديفيرو James Deveraux، المختص بشكسبير، وبعصر النهضة، والمراقب الخارق للطيور، والزميل السابق لي في الدراسة بالقسم الإنكليزي بجامعة نورث كارولاينا. فقد قرأ مخطوطتي كاملةً، واقترح عليَّ - كما فعل دائماً - تصحيحاتٍ وتعديلاتٍ ومراجعات. ثم أنني مَدينٌ بالشكر أخيراً للناشر الممتاز أمي شايبي Amy Scheibe في Doubleday، الذي رافقني في الجانب التاريخي من مخطوطتي رغم الظروف الشخصية الصعبة جداً التي كان يمرُّ بها؛ والذي تركت بَصَماتُهُ آثاراً عميقةً في الشكل الأخير للكتاب.

المصادر الأجنبية

CONTEMPORARY ACCOUNTS

Ambroise. *The Crusade of Richard Lion-Heart*, Merton Jerome Hubert, trans. New York: Columbia University Press, 1941.

Archer, T. A. *The Crusade of Richard I.* New York & London: Putnam's, 1889.

Ibn-el-Athir el-Bahir: History of the Atabergs of el-Mosil. *Recueil des historiens des Croisades: historiens orientaux,* tome ii., 2, Paris, 1876.

Beha ed Din. *The Life of Saladin.* London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1897.

Benedict of Peterborough. *The Chronicle of the Reigns of Henry II and Richard I,* Rolls Series, no. 49. London: Longmans, Green, Reader, and Dyer, 1867.

Benjamin of Tudela. *The Itinerary of Benjamin of Tudela.* New York: Joseph Simon, 1983.

Bertran de Born. *The Poems of the Troubadour, Bertran de Born.* Berkeley: University of California Press, 1986.

Blondel de Nesle. *Les Oeuvres de Blondel de Nesle.* Reims: P. Dubois, 1862.

Brundage, James A. *The Crusades: A Documentary Survey.* Milwaukee: Marquette University Press, 1962.

Capellanus, Andreas. *The Art of Courtly Love*, John Jay Parry, trans. New York: Columbia University Press, 1941.

Edbury, Peter. *The Conquest of Jerusalem and the Third Crusade: Sources in Translation.* Brookfield, Vt.: Scolar Press, 1996.

Ernoul. *Chronique d'Ernoul et Bernard le Trésorier,* Mas Latrie, ed. Paris: Mme. Vij. Renouard, 1871.

Fetellus. *Description of Jerusalem and the Holy Land.* London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1897.

Fichtenau, Heinrich. *Urkundenbuch zur Geschichte der Babenberger in Osterreich.* Vienna: A. Holzenhausens Nachfolger, 1950.

Gabrieli, Francesco. *Arab Historians of the Crusades*. Berkeley: University of California Press, 1969.

Gervase of Canterbury. *The Historical Works of Gervase of Canterbury*. William Stubbs, ed. London: Longman & Co., 1870.

Gerald of Wales. *Opera,* J. S. Brewer, ed. London: Longman & Company, 1861.

al-Harizi, Judah. *The Tahkemoni,* vol II. Jerusalem: Raphael Haim Cohen's Ltd., 1973.

Ibn Jubayr. *The Travels of Ibn Jubayr.* R. J. C. Broadhurst, trans. London: Jonathan Cape, 1952.

Imad ad din al-Isfahani, *Conquête de la Syrie et de la Palestine par Saladin*, H. Masce, trans. Paris: Libraire orientalistic, 1972.

Stubbs, William, ed. *Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi*, Rolls Series, vol. 38. London: Longmans, Green, Reader, and Dyer, 1864.

John of Würzburg. *Description of the Holy Land.* London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1897.

al Kātib al Isfahānī, 'Imād al-Dīn Muhammad ibn Muhammad. (1125–1201) al Fath al-Qussī fi al-fath al-Qudsī. ed. Landberg, vol. I, Leiden, 1885.

Ibn-Khallikan Wefaydt el-A'ydn. *Biographical Dictionary*, 4 vols., MacGuckin de Slane, trans. Beirut: Libraire du Luban, 1970.

Matthew of Paris. *Historia Anglorum.* London: Longman, Green, Reader and Dyer, 1866.

Migne, J. P., ed. *Patrologiae Latina*, vol. 206. Paris: J. P. Migne, 1855.

Neophytus. *Neophytus de Calamitatibus Cypri*, in *Rerum Britannicarum Medii Aevi Scriptores*, Rolls Series, vol 38. London: Longman, Green, Reader, and Dyer, 1864.

Odo de Deuil. *De Prefectione Ludovici VII in Orientum,* Virginia Berry, trans. New York: Columbia University Press, 1948.

Palestine Pilgrims' Text Society, vols. 5–13. London, 1896.

Ralph de Diceto. *Historical works.* London: Longman & Co. 1876.

Ralph of Coggeshall, *De expungnatione Terrae Sanctae libellus.* Rolls Series, vol. 66. London: Jos. Stevenson, 1875.

Richard of Devizes. *Chronicle concerning the deeds of King Richard the First, King of England.* London: H. G. Bohn, 1848.

Rigord. *Oeuvres de Rigord et de Guillaume le Breton, historiens de Philippe-Auguste,* 2 vols. Paris: Libraire Renouard, 1882–1885.

Roger of Hovedon *Annals*, 2 vols., Henry Riley, ed. London: H. G. Bohn, 1853.

Roger of Wendover. *Flowers of History.* London: H. G. Bohn, 1849.

Stone, Edward Noble. *Three Old French Chronicles of the Crusades.* Seattle: University of Washington Press, 1939.

Upton-Ward, J. M., trans. *The Rule of the Templars: The French Text of the Rule of the Order of the Knights Templar.* Rochester, N.Y.: Boydell Press, 1992.

Usamah Ibn-Munqidh. *Kitab al-I'tibar* [An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades]. New York: Columbia University Press, 1929.

de Vinsauf, Geoffrey. *Itinerary of Richard I and Others, to the Holy Land.* London. H. G. Bohn, 1848.

Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi. London: H. G. Bohn, 1848.

William of Newburgh, *Historia rerum anglicarum, in Chronicles of the reign of Stephen, Henry II, and Richard I,* vol. 1, Richard Howlett, ed. Rolls Series, vol. 82. London: Longman & Co., 1884.

William of Tyre. *A History of Deeds Done Beyond the Sea*, 2 vols., Emily Atwater Babcock and A. C. Krey, trans. New York: Columbia University Press, 1943.

SECONDARY WORKS

Appleby, John T. *John, King of England.* New York: Knopf, 1959.

Armstrong, Karen. *Holy War.* London: Macmillan, 1988.

Arnold, Benjamin. *German Knighthood 1050–1300.* Oxford: Clarendon Press, 1985.

Ashdown, Charles. *British and Foreign Arms and Armour.* London: T. C. & E. C. Jack, 1909.

———. *Armour and Weapons in the Middle Ages.* London: George G. Harrap Co., 1925.

Ayton, A. J. *Knights and Warhorses.* Rochester, N.Y.: Boydell Press, 1994.

Bahat, Dan. *The Illustrated Atlas of Jerusalem.* Jerusalem: Israel Map and Publishing Co., 1990.

Baldwin, John W. *The Government of Philip Augustus*, Berkeley: University of California Press, 1986.

Baldwin, Marshall W. *Raymond III of Tripoli and the Fall of Jerusalem (1140–1187)*. Princeton: Princeton University Press, 1936.

Barber, Richard W. *The Knight & Chivalry*. London: Harlow, Longman, 1970.

Bedier, Joseph. *Les Chansons de Croisade*. New York: B. Franklin, 1971.

Benvenisti, Meron. *The Crusaders in the Holy Land*. New York: Macmillan, 1970.

Blair, Claude. *European & American Arms, circa 1100 to circa 1850*. London: B. T. Batsford, 1962.

Bradbury, Jim. *The Medieval Siege*. Rochester, N.Y.: Boydell Press, 1992.

Bradford, Ernle. *The Shield and the Sword: The Knights of St. John*. London: Hodder and Stoughton, 1973.

Broughton, Bradford. *The Legends of King Richard I, Coeur de Lion*. The Hague: Mouton & Co., 1966.

Brundage, James A. *Richard Lion Heart*. New York: Scribner's, 1974.

———. *Medieval Canon Law and the Crusader*. Madison: University of Wisconsin Press, 1969.

Bumke, Joachim. *The Concept of Knightood in the Middle Ages*. New York: AMS Press, 1982.

Burns, Ross. *Monuments of Syria, an Historical Guide*. London: I. B. Tauris & Co., 1992.

Cartellieri, Alexander. *Philipp II. August, König von Frankreich*. Leipzig: Dyksche Buchhandlung, 1899–1900.

Castiglione, Baldassare. *The Book of the Courtier*, George Bull, trans. Harmondsworth: Penguin, 1967.

Chrétien de Troyes. *Arthurian Romances*, D.D.R. Owen, trans. London: Dent, 1987.

Conder, C. R. *The Latin Kingdom of Jerusalem*. London: Palestine Exploration Fund, 1897.

Contamine, Philippe. *War in the Middle Ages*. New York: B. Blackwell, 1985.

Crouch, David. *William Marshal: Court, Career and Chivalry in the Angevin Empire*. London: Longman, 1990.

Demmin, A. *An Illustrated History of Arms and Armour*. London: G. Bell & Sons, 1911.

Edbury, Peter W. *Crusade and Settlement.* Cardiff: University College Cardiff Press, 1985.

———. *Kingdom of Cyprus and the Crusaders, 1191–1374.* Brookfield, Vt.: Ashgate, 1999.

Ffoulkes, Charles, *Armour and Weapons.* Oxford: Clarendon Press, 1909.

Folda, Jaroslav. *The Art of the Crusaders in the Holy Land, 1098–1187.* Cambridge: Cambridge University Press, 1995.

——— *Crusader Manuscript Illumination at St.-Jean d'Acre, 1275–1291.* Princeton: Princeton University Press, 1976.

Franzius, Enno. *The History of the Order of Assassins.* New York: Funk and Wagnalls, 1969.

Gibb, Hamilton. *The Life of Saladin.* Oxford: Clarendon Press, 1973.

Gillingham, John. *The Life and Times of Richard I.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1973.

Grousset, René. *Histoire des Croisades*, vol III. Paris: Perrin, 1936.

———. *The Epic of the Crusades.* New York: Orion Press, 1970.

Hill, Raymond Thompson, ed. *Anthology of the Provençal Troubadours.* New Haven: Yale University Press, 1941.

Hitti, Philip K. *History of the Arabs.* London: Macmillan, 1937.

Holt, P. M. *The Age of the Crusades.* London: Longman, 1986.

Hutton, W. H. *Philip Augustus.* Port Washington, N.Y.: Kennikat Press, 1970.

Hyland, Ann. *The Medieval Warhorse from Byzantium to the Crusades.* Gloucestershire: Alan Sutton, 1994.

Jackson, W. H., ed. *Knighthood in Medieval Literature.* Woodbridge, England: D. S. Brewer, 1981.

James, G. P. R. *The History of Chivalry.* London: Henry Colburn and Richard Bentley, 1830.

Jeffery, George. *Historic Monuments of Cyprus.* London: Zeno, 1983.

Johnson, Paul. *A History of the Jews.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1987.

Kedar, B. Z., ed. *The Horns of Hattin.* Jerusalem: Israel Exploration Society, 1987.

Keen, Maurice. *Chivalry.* New Haven: Yale University Press, 1984.

Kelly, Amy. *Eleanor of Aquitaine and the Four Kings.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1950.

King, E. J. *The Knights Hospitallers in the Holy Land.* London: Methuen & Co., 1931.

———. *The Rule, Statutes and Customs of the Knights of Malta.* New York: AMS Press, 1980.

Laking, Sir G. F. *Catalogue of the Armor and Arms in the Armoury of the Knights of St. John of Jerusalem.* London: Bradbury Agnew & Co., 1903.

Lancelot of the Lake, Corin Corley, trans. Oxford: Oxford University Press, 1989.

Lane-Poole, Stanley. *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem.* Beirut: Kyayats, 1964.

Le Strange, Guy. *Palestine Under the Muslims.* London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1890.

Lipman, V. D. *The Jews of Medieval Norwich.* London: Jewish Historical Society of England, 1967.

Llull, Raimon. *The Book of the Order of Chivalry,* Robert Adams, trans. Huntsville, Tex.: Sam Houston State University Press, 1991.

Lyons, Malcolm and Jackson, D. E. P. *Saladin: The Politics of Holy War.* Cambridge: Cambridge University Press, 1982.

Maalouf, Amin. *The Crusades Through Arab Eyes.* New York: Schocken Books, 1985.

Makhouly, N. and C. N. Johns. *Guide to Acre.* Jerusalem: Government of Palestine, 1946.

Mann, Horace K. *The Lives of the Popes in the Middle Ages,* vol. 10. St. Louis: B. Herder, 1914.

Meade, Marion. *Eleanor of Aquitaine: A Biography.* London: Frederickmuller, 1978.

Meller, Walter Clifford. *A Knight's Life in the Days of Chivalry.* New York: AMS Press, 1981.

Müller-Wiener, Wolfgang. *Castles of the Crusaders.* New York: McGraw-Hill, 1966.

Murphy-O'Connor, Jerome. *The Holy Land.* Oxford: Oxford University Press, 1980.

Newby, P. H. *Saladin in His Time.* London: Faber and Faber, 1983.

Nicholson, Helen. *Templars, Hospitallers and Teutonic Knights. Images of the Military Orders, 1128–1291.* Leicester: Leicester University Press, 1993.

Norgate, Kate. *Richard the Lionheart.* London: Macmillan, 1924.

———. *John Lackland.* London: Macmillan, 1902

Oman, C. W. C. *History of the Art of War in the Middle Ages*, vol. 2. New York: B. Franklin, 1959.

Owst, G. R. *Literature and Pulpit in Medieval England.* New York: Barnes and Noble, 1961.

Paterson, Linda M. *The World of the Troubadours: Medieval Occitan Society 1100–1300.* Cambridge: Cambridge University Press, 1993.

Perlesvaus. *The High Book of the Grail,* Nigel Bryant, trans. Ipswich, England: Brewer, 1978.

Prawer, Joshua. *The World of the Crusaders.* New York: Quadrangle Books, 1972.

———. *The History of the Jews in the Latin Kingdom of Jerusalem.* Oxford: Clarendon Press, 1988.

Regan, Geoffrey. *Saladin and the Fall of Jerusalem.* London: Croom Helm, 1987.

Riley-Smith, Jonathan. *The Atlas of the Crusades.* London: Times Books, 1991.

———. *The Knights of St. John in Jerusalem c. 1050–1310.* London: Macmillan, 1967.

———. *The Oxford Illustrated History of the Crusades*. Oxford: Oxford University Press, 1995.

Rogers, R. *Latin Siege Warfare in the Twelfth Century*. Oxford: Clarendon Press, 1992.

Roth, Cecil. *The Jews of Medieval Oxford.* Oxford: Clarendon Press, 1951.

Runciman, Steven, Sir. *History of the Crusades*, vol. 3. Cambridge: Cambridge University Press, 1951.

Scott, Sir Walter. "An Essay on Chivalry." *Encyclopaedia Britannica*, 5th ed. London, 1816.

Setton, K. M., ed. *A History of the Crusades, II.* Madison: University of Wisconsin Press, 1969.

Seward, Desmond. *The Monks of War: The Military Religious Orders.* London: Methuen, 1972.

Smail, R. C. "Crusaders' Castles in the 12th Century." *Cambridge Historical Journal*, vol. 10, 1951.

———. *Crusaders Warfare (1097–1193).* Cambridge: Cambridge University Press, 1956.

Smythe, Barbara. *Trobador Poets.* London: Chatto & Windus, 1911.

Stubbs, William. *Historical Introductions to the Rolls Series.* New York: AMS Press, 1971.

Tuchman, Barbara. *Bible and Sword.* New York: New York University Press, 1956.

Walpole, Horace. *A Catalogue of the Royal and Noble Authors of England, Scotland, and Ireland.* New York: AMS Press, 1971.

Warren, W. L. *King John.* London: Eyre & Spottiswoode, 1961.

Warton, Thomas. *The History of English Poetry.* London: T. Tegg, 1824.

Wilkinson, Henry. *Engines of War.* Richmond, Va.: Richmond Publishing Co., 1973.

Wilkinson, J.; J. Hill; and W. F., Ryan, eds. *Jerusalem Pilgrimage 1099–1185.* London: Hakluyt Society, 1988.

المصادر العربية

رجع المؤلّف في كتابه إلى مصادر ومراجع عربية ولاتينية مترجَمة إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية؛ كما رجع للقرآن الكريم، والعهدين القديم والجديد. وقد قمتُ بإعادة النصوص إلى أصولها المقتَبَسَة منها كلما كان ذلك ممكناً، لأن المؤلّف لا يذكر المصدر الذي يرجع إليه بل يكتفي في غالب الأحيان بالقول: كاتب عربي، أو شاعر عربي، أو مستشار.. الخ؛ بينما يذكر أسماء مؤرخي الحملة الصليبية الثالثة من الإنكليز والفرنسيين.

أما أهمُّ مصادر الكتاب، التي رجعْتُ إلى أصولها العربية وذكرتُها في الحواشي فهي: **سيرة** بهاء الدين **ابن شدّاد** (يكتفي المؤلّف رستون بلقبه: بهاء الدين)؛ وقد رجع إليها المؤلّف كثيراً وبخاصةٍ فيما يتصل بحياة صلاح الدين وشخصيته، ومفاوضات الصلح بينه وبين ريتشارد قلب الأسد. **والفتح القسّي** لكاتب صلاح الدين الآخر **عماد الدين الأصفهاني**. والكتاب مسجوعٌ صعب القراءة، لكنه لا يتجاهل الحقائق التاريخية، وقد رجع إليه المؤلّف في الخُطَب والبيانات والمنشورات، وللتدليل على المزاج البياني والشعري للعرب والشرقيين. والمصدر العربي الثالث من حيث الأهمية لدى المؤلّف كتاب **ابن الأثير**: الكامل في التاريخ؛ فهو يعرض أحياناً معلوماتٍ جديدةً ومستقلّة، والمعروف أنه كان من نقّاد بعض سياسات صلاح الدين العسكرية.

وقد استمدّ الكاتب بعض المعلومات من النصوص التي نشرها فرنشسكو

غابريللي مترجمةً إلى الإيطالية (وتُرجمت المختارات فيما بعد إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية) بعنوان: الحروب الصليبية لدى المؤرخين العرب. كما استمدّ معلوماتٍ وأفكاراً من كتاب **أمين معلوف**: الحروب الصليبية كما رآها العرب. وقد رجعتُ إلى المصادر العربية لتلك المعلومات وأهمّها بالإضافة إلى الكتب الثلاثة المذكورة سابقاً: كتاب الروضتين **لأبي شامة المقدسي**، ومفرّج الكروب **لابن واصل الحموي**.

ورجعتُ في الأشعار إلى ديوان ابن سناء المُلْك، وإلى وفيات الأعيان **لابن خلّكان**، والوافي بالوفيات **للصفدي**. ومع ذلك فقد بقي بيتٌ ومقطوعتان لم أجدْهما فيما بين يديّ من مصادر؛ ولذلك لجأتُ للترجمة، على الرغم من أنّ ذلك غير ملائمٍ في الشعر العربي بالذات.

المترجم

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

صاحب الموصل 52
صافيتا 373
صالح عليه السلام 235
الصحابة رضي الله عنهم 392
الصحراء 398
صحراء جلعاد 50
الصحراء السورية 370
صحراء سيناء 53
صحراء ليبيا 439
صحراء النقب 401
صحن ضريح المقدس 403
الصخرة 127
صخرة سكيلا 176
صخور أفروديت 207

الفهرس

الفهرس

الفهرس

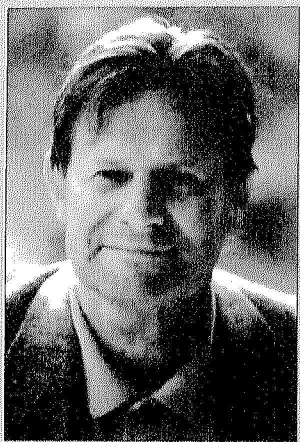
الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

قام رستون في صياغة آسِرة بنسج صورةٍ مكتملة المعالم للمواجهة الهائلة التي أوصلت الجيشين إلى الضواحي الخارجية للقدس وأسوارها. وهناك أدّت تكتيكات صلاح الدين الماهرة التي قابلها فشلٌ من جانب ريتشارد في الحفاظ على أعصابه، إلى تغيراتٍ في مصائر (المعركة والحرب). إنها القصة التي تسحر القرّاء حول تلك الحقبة الرائعة من حِقب التاريخ. **فمقاتلون في سبيل الله** كتابٌ يُتيح لنا أن ننظر إلى قائدين شامخين، كما إلى تبايُن الغايات التي قاتلا من أجلها، والتي لم تكن متماثلة في نبلها، دائماً.



جيمس رستون، الابن James Reston, JR هو مؤلّف أحد عشر كتاباً قبل هذا الكتاب؛ بما في ذلك: الملحمة الأخيرة The Last Apocalypse وغاليليو : سيرة حياة Galileo : A life. نشر مقالاتٍ في مجلات The New Yorker و Esquire و Vanity Fair و Time و Rolling stone ومطبوعات أخرى. وكتب مخطوطاتٍ لثلاثة أفلامٍ توثيقية في برنامج Frontline. وهو يعيش اليوم في Chevy Chase بولاية Maryland.

«كانت الحضارة العربية... لأكثر من ثلاثة قرون (800 ـ 1100م) الأكثر تقدماً في العالم.. وكان على الأوروبيين أن يتعلموا العربية للحصول على المعارف الجديدة في العلوم والفلك والجغرافيا.. لذلك كانت وحشية الحملات الصليبية التي صبغت المشرق بالدم مفاجئة وصادمة للعرب في المشرق؛ مسيحيين ومسلمين. ولذلك احتاج البابا للاعتذار بعد تسعمائة سنة.

إحدى فضائل كتاب جيمس رستون إيضاحه لماذا كان على البابا أن يعتذر... لكن ليست هذه أكبر فضائله فهو يصوّر شخصيتين ظلتا بين الأكثر تأثيراً في العصور الوسطى في الشرق والغرب...»

طارق علي، روائي ومسرحي وكاتب سينمائي.

The Washington Post - Washington D.C- USA

« مقاتلون في سبيل الله... فيه تصوير ساحرٌ للعوالم والشخصيات، ورسالته الواضحة أن الانتصار العسكري لا يحل المشكلات، وهذا ما أدركه صلاح الدين الأيوبي منذ البداية، وهو ما أدركه قلب الأسد متأخراً... كتاب رستون قديمٌ ومعاصر، ويستحق قراءة متأنية في الظروف الحاضرة بالذات...»

جوليان راثبون

Sunday Telegraph - London

«... كتاب ج. رستون هذا ينجح في مزج العالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى، في أسلوبٍ حي يبلُغُ درجةً عالية من الروعة الروائية والتاريخية في الوقت نفسه... مما سيستأثر بمخيلة أولئك الذين أعرضوا حتى الآن عن الاهتمام بالحروب الصليبية».

The International News Magazine of Book Publishing

«قمت بترجمة كتاب جيمس رستون «مقاتلون في سبيل الله» بعد ال... سبتمبر 2001. وكانت التصريحات والحملات التي أقرؤها في الصحف يومياً ... في الكتاب. فالحق أنني ما قرأتُ كتاباً مماثلاً في السنوات الأخيرة، يشِفُّ فيه ... أو العكس ـ فضلاً عن التصوير الرائع للشخصيات، والدقة في قراءة النصوص ...

د. رضوان السيّد، أستاذ الدراسات الإ... ...نانية،

ومترجم كتاب ريتشارد سوذرن «صورة الاسلام في أوروبا في ... 198.

ISBN 9960-40-148-0 : ردمك

موضوع الكتاب: **الحروب الصليبية**

موقعنا على الانترنت:
http://www.obeikanbooks.com